

بحث في علم الجمال

تأليف: جان برتليمي
ترجمة: أنور عبد العزيز
مراجعة: نظمي لوقا
تقديم: سعيد توفيق

ميراث الترجمة

1821

يعد هذا الكتاب من الأعمال الرائدة في الدراسات
الجمالية التي فتحت الطريق لتأسيس علم الجمال
في الدراسات العربية. وهو يبحث في معنى
الجمال بوصفه علما معياريا يدرس المبادئ العامة
للموقف الجمالي الإنساني إزاء الواقع والفنون
بكل أشكالها.
والكتاب يبعث على الاهتمام بعلم الجمال والفن
من زاوية فلسفية.

بحث فى علم الجمال

المركز القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1821

- بحث في علم الجمال

- جان برتليمي

- أنور عبد العزيز

- نظمي لوقا

- سعيد توفيق

- 2011

هذه ترجمة كتاب:

Traité d'esthétique

Jean Berthélemy

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة

شارع الجبلية بالأويرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

بحث فى علم الجمال

تأليف: جان برتليمى

ترجمة: أنور عبد العزيز

مراجعة: نظمى لوقا

تقديم هذه الطبعة

سعيد توفيق



2011

برتليمى، جان.

بحث فى علم الجمال/ تأليف: جان برتليمى؛
ترجمة: أنور عبد العزيز؛ مراجعة: نظمى لوقا -
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١ .

٦٩٦ ص : ٢٤ سم. - (المشروع القومى للترجمة)

تدمك ٨ ٨٥٨ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - الجمال، علم.

أ - عبد العزيز، أنور. (مترجم)

ب - لوقا، نظمى. (مراجع)

ج - العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٧٥١٢ / ٢٠١١

I. S. B. N 978 - 977 - 421 - 858 - 8

ديوى ١١١، ٨٥

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى، وتعريفه بها. والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

مقدمة

بقلم: سعيد توفيق*

(*) كاتب وناقد: أستاذ الفلسفة وعلم الجمال، رئيس قسم الفلسفة بآداب القاهرة.

ما أكثر الكتابات التي تتصدى لميدان البحث في علم الجمال، خاصةً في عصرنا الراهن! ولكن قلة قليلة من هذه الكتابات هي التي تبقى في هذا الميدان شاهدةً على صمودها، وقدرتها على التصدى لظاهرة من أكثر الظواهر الإنسانية تعقيداً، وأعصاها على البحث والاستقصاء، باعتبارها ظاهرة شديدة المرواغة بحيث يصعب الإمساك بها، بالغة التشعب بحيث يتعذر الإحاطة بتفاصيلها، أعني الفن من حيث هو ظاهرة جمالية، بل من حيث هو ظواهر جمالية إن شئنا الدقة. ومن بين هذه الكتابات التي بقيت وصمدت في هذا الميدان، ذلك الكتاب الذي بين أيدينا الآن، وهو الكتاب الذي مضى على صدوره الآن قرابة نصف قرن من الزمان، ولكن حضوره لا يزال مشعاً عند من عرفوه وأدركوا غايته ومراميه، وها هو ذا يفرض نفسه من جديد لتحفل مؤسسة الترجمة في مصر (ممثلةً في المركز القومي للترجمة) بإحيائه من جديد. ودلالة هذا الأمر عندي عظيم؛ إذ يعني أن الأعمال العظيمة وإن نُسيَت إلى حين، فسوف تجد من بعد من يحيونها من مرقدتها العابر!

وهذا الكتاب الذي يحمل عنوان بحث في علم الجمال يتميز بثناء بالغ، سواء في مضمونه ومادته العلمية، أو في أسلوب تناوله ومعالجته

لهذا المضمون: فما من موضوع يتناوله المؤلف في هذا الكتاب يمر بنا مروراً عابراً أو سطحياً، بل نجد المؤلف يقرب كل موضوع على مختلف وجوهه، ويحشد وجهات النظر المتباينة فيه؛ ولذلك نراه يستعين في كل موضوع بطرقه بآراء الفلاسفة والفنانين والنقاد ومؤرخي الفن، بحيث يجعلنا في موقف الحيرة والتساؤل والدهشة إزاء ذلك الموضوع الذي كنا نظنه موضوعاً بسيطاً يمكن الإحاطة بمضمونه، لنكتشف كلما أوغلنا فيه أنه موضوع حمّال أوجه. ولكن مؤلف هذا الكتاب ليس مجرد باحث متمرس يستمتع ويمتعنا بالأعيب البحث العلمي في موضوع معقد ومتشابه مع غيره، بل هو فيلسوف له رؤيته الخاصة التي تحاول أن تدلنا على طريق في غمار هذا الخضم الهائل من تلك الآراء والتساؤلات المحيرة. ولذلك نرى المؤلف واعياً بالمفاهيم التي تتعلق بمسائل الفن، ونجده حريصاً على التمييز بينها؛ كي لا نقع في الخلط الذي يقع فيه أكثر الناس في عالمنا العربي حينما يتحدثون عن الفن، وهو خلط لا ينجو منه حتى أغلب المتخصصين في شؤون الفن على المستويين النظري والعملي.

ومن أكثر التصورات الخاطئة شيوعاً عن علم الجمال، الظن بأنه العلم الذي يبحث في مفهوم "الجمال"؛ ولكننا يمكن أن نسأل من يظنون هذا الظن: أي جمال تقصدون؟ إن آيات الجمال في الكون وفي الإبداع الإنساني هي من الكثرة بحيث لا تحصى، ومن التنوع بحيث يتعذر الإحاطة بها في مفهوم أو تعريف واحد يصدق عليها جميعاً، وإلا فخبرني - أثابك الله - ما هو ذلك الشيء المشترك بين الجمال في زهرة ما، والجمال في عمل فني ما؟ وبين الجمال في وجه بشري ما، وفي الصوت الغنائي لصاحبه؟ وبين الجمال في صوت بعض الطيور،

والجمال في الأصوات الموسيقية لسيمفونية ما؟! إننا بطبيعة الحال كما يقول برتليمي يمكننا أن نتحدث عن قواعد أو مبادئ عامة للغاية عن مفهوم الجمال، ولكنها يجب أن تكون في النهاية مستمدة من تجربتنا الجمالية، وليست مستمدة من تصوراتنا المذهبية المسبقة عن مفهوم "الجمال" أو "الجميل" (انظر: مقدمة المؤلف). وقصد برتليمي هنا واضح، ويمكن صياغته على النحو التالي: إن علم الجمال هو العلم الذي يدرس الخبرة أو التجربة الجمالية، أي تجربتنا عن أشياء نصفها بأنها "جميلة"، ولكننا ليست لدينا تجربة عن "الجمال" و"الجميل" في ذاتهما، فكلتاهما فكرتان ميتافيزيقيتان تتطلبان اتخاذ مواقف ميتافيزيقية، وهما بهذا الاعتبار لا تدخلان في اختصاص البحث الجمالي. والواقع أن كثيراً من التأملات الميتافيزيقية لفكرتي "الجميل" و"الجمال" عبر تاريخ الفكر الجمالي، تخرج عن اختصاص علم الجمال بمعناه الدقيق كما تحدد في العصر الحديث. وبهذا الاعتبار فإن كثيراً من تأملات فلاسفة عظام حول مفهوم "الجمال" من أمثال: أفلاطون وأوغسطين، ومن تابعهم من فلاسفة العصر الوسيط من المسيحيين والمسلمين، هي تأملات تنتمي إلى الميتافيزيقا التقليدية، لا إلى علم الجمال بمعناه الحديث الذي حدد موضوعه في "الاستطقي"، أي في "الجميل المعطى من خلال الفن" (وهذا ما بيّناه تفصيلاً في كتابنا بعنوان: مداخل إلى موضوع علم الجمال: بحث عن معنى الاستطقي).

وإذا كان موضوع علم الجمال هو التجربة الجمالية، أي التجربة المتعلقة بظواهر الفن والجمال، وهو ما نصفه نحن بأنه "الجميل المعطى لنا من خلال الفن أو العمل الفني"؛ فإن هذه التجربة الجمالية

تصبح لها خصوصيتها التي تميزها عن تجربة الجميل الذي يتجلى في الطبيعة، وهي تتميز عن هذه التجربة الأخيرة بتنوعها وثرائها، وآية ذلك أن الناس غالباً ما يتفقون في أذواقهم وأحكامهم المتعلقة بالجمال الطبيعي أكثر من اتفاقهم في الأذواق والأحكام الجمالية المتعلقة بالفن. ونظراً لهذا التنوع والخصوصية والثراء في ظواهر الجمال كما تتجلى من خلال الفن (وهي موضوع علم الجمال)؛ فإن البحث في علم الجمال يمكن تناوله على مستويات عديدة، وهذا ما كان موضع عناية برتليمي في هذا الكتاب. ولهذا نراه يتناول التجربة الجمالية على مستويات متنوعة. فالواقع أن برتليمي ليس حريصاً فحسب على تمييز موضوع البحث الجمالي، بل إنه حريص أيضاً على تمييز مستويات البحث الجمالي. وهذا التمييز بين مستويات البحث الجمالي حاضر في تقسيمه "لبحثه في علم الجمال" إلى أجزاء رئيسة ثلاثة، وهذه المستويات التي يشكل كل منها جسم هذا العمل، يمكن إجمالها على النحو التالي:

الجزء الأول من هذا "البحث في علم الجمال" يحمل عنوان "سيكولوجية الفن"، وهو بحث في التجربة الجمالية من حيث هي تجربة إبداعية للجميل في الفن، إنه بحث فيما يخلق الظاهرة الجمالية في الفن. وهذا المستوى من البحث يتناول مسائل من قبيل: دور الفرد والمجتمع في عملية الإبداع الفني، ودور العناصر الواعية والعناصر اللاواعية أو اللاشعورية في هذه العملية الإبداعية، ومعنى الإلهام وحدوده في عملية الإبداع الفني، ودور الفكر واليد والأداة في التعامل مع المادة أو مع ما يُعرف بالوسيط المادي الذي يفرض بطبيعته متطلبات معينة على الفنان حينما يتعامل معه. ولا شك أن هذا الجزء

من البحث في علم الجمال تتداخل فيه بقوة آراء الفلاسفة وعلماء النفس والفنانين أنفسهم: فلم يعد هذا الجانب من البحث الجمالي حكراً على الفلاسفة، بل أصبح جزءاً أصيلاً من البحث السيكلولوجي الذي يدلي فيه علماء النفس بدلوهم، وهم - بلا شك - يفيدون الفلاسفة ويستفيدون من تصوراتهم عن عملية الإبداع الفني. كما أن آراء الفنانين أنفسهم لا غنى عنها في هذا الصدد؛ لأنهم أول أصحاب الحق في الحديث عن الإبداع الفني، حتى إن كنا لا نأخذ آراءهم كمرجعية نهائية، ولا نقبل أياً منها دون مراجعة وتمحيص!

والجزء الثاني من هذا "البحث في علم الجمال" يحمل عنوان "علم ظاهرات الفن"، وهو بحث في ظواهر الجميل المعطى لنا من خلال الفن. وهذا الجزء الذي ينتمي إلى مفهوم علم الجمال بمعناه الدقيق أو الضيق، يعد أهم أجزاء هذا الكتاب في علم الجمال. حقاً إنه لا - ولا يمكن له - أن يحيط بشتى ظواهر الجميل في الفن، ولكنه على الأقل يتناول ظواهر جمالية تتجلى في الفنون المختلفة: كالشعر والموسيقى وفن العمارة، كما يتناول ظواهر عديدة تنتمي إلى عالم الفن من قبيل: الفن بوصفه لعباً، والفن بوصفه خيالاً، والصلة بين المتخيل والواقعي في ظواهر الفن، وما يميز ظاهرة الجميل المعطى لنا من خلال الفن عن ظاهرة الجميل المعطى لنا من خلال الطبيعة. ونحن نلمس - من خلال هذا الجزء من البحث بوجه خاص - تأثر المؤلف بأسلوب البحث الفينومينولوجي من حيث هو بحث وصفي في طبيعة أو ماهية الظواهر. ولذلك فإن هذا الجزء يغلب عليه الطابع الفلسفي في البحث.

أما الجزء الثالث والأخير من هذا البحث، والذي يحمل عنوان "فلسفة الفن"، فهو جزء فلسفي خالص ينفرد فيه الفلاسفة بساحة البحث أو الميدان، فلا يصول ويجول فيه غيرهم إلا على استحياء! فهذا الجزء يتناول صلة ظواهر الفن بظواهر أخرى غيرها، وذلك من قبيل صلة الفن بالإنسان والأخلاق والميتافيزيقا والدين: فصلة الفن بالإنسان تتجلى وتقرض ذاتها بقوة من خلال التساؤل عن غاية الفن، وهو التساؤل الذي ظل مثيراً للجدل ردحاً طويلاً من الزمن: هل يكون الفن من أجل الفن، أم يكون الفن من أجل الإنسان والحياة في النهاية؟ وصلة الفن بالأخلاق قد فرضت ذاتها بقوة منذ أن بين لنا أرسطو دور الفن بوصفه تطهيراً للانفعالات بحيث يستثير فينا مشاعر توقظ انفعالاتنا الساكنة أو المكبوتة، وتُطلق أو تحرر انفعالاتنا الزائدة. كما عبر تولستوي من بعد عن هذه الصلة بين الفن والأخلاق، حينما ذهب إلى أن الفن يستثير مشاعر الأخوة والتعاطف بين البشر. وكل هذا يستدعي التساؤل عن صلة الفن بالأخلاق بالمعنى الواسع لمفهوم الأخلاق. كما أن صلة الفن بالدين لا يمكن إنكارها: فعلى الرغم مما بينهما من تناقضات، فإن الفن لا يخلو من طابع صوفي، ومن حالة من الابتهاال، بحيث يبدو الفن في النهاية شكلاً آخر من أشكال التعبير عن الحقيقة الدينية أو الحقيقة التي يطالبنا الدين بأن نؤمن بها. إنه شكل آخر من التعبير عن الإيمان. أما صلة الفن بالميتافيزيقا، فتعنى صلة ظواهر الفن بظواهر الوجود. وينبغي أن نميز هنا بين هذا المستوى من البحث، ومستوى التفكير الميتافيزيقي التقليدي الذي كان شائعاً في تناول الفن: فمثل هذا التفكير الأخير هو التفكير الذي كان ينظر في أمور الفن باعتبارها جزءاً من البحث في الأخلاق والميتافيزيقا، من

قبيل تناول مفهوم "الجميل" أو "الجمال" من حيث صلته بالتعبير عن الجمال الإلهي على سبيل المثال. فلم يعد مثل هذا البحث مطروحاً أو مقبولاً في مجال علم الجمال. فالمقصود بالصلة بين الفن والميتافيزيقا إذن هو البحث عن صلة ظواهر الفن بظواهر الوجود، والنظر في الفن أو الجمال من حيث هو ضرب من ضروب المعرفة التي تنطوي على رؤية ميتافيزيقية تتعلق بالحياة والعالم والوجود، وإن كان بطريقة أخرى مغايرة لطريقة البحث الميتافيزيقي في الحياة والعالم والوجود بوجه عام! وبعبارة أخرى يمكن القول بأن البحث هنا هو بحث في "ميتافيزيقا الفن"، وليس بحثاً في الفن باعتباره جزءاً من مباحث الميتافيزيقا التقليدية على طريقة القدماء.

وعلى هذا يمكننا القول إن بحث برتليمي في علم الجمال يعلمنا أن نميز - من خلال قضايا فعلية مطروحة للبحث والنظر - بين علم الجمال بمعناه الضيق أو الدقيق من جهة، وفلسفة الفن بمعناها الواسع من جهة أخرى، وهما مستويان من البحث يصعب التمييز بينهما عند الكثيرين، حتى إن الأمر يختلط عليهم: فعلم الجمال بمعناه الضيق أو الدقيق هو البحث في ظاهرات الفن ذاتها، أي في ظواهر الجميل المعطى لنا من خلال الفن (وهذا يشمل تحليل طبيعة العمل الفني من حيث هو موضوع جمالي، وتحليل طبيعة القيم الفنية والجمالية، وتحليل طبيعة الخبرة بالعمل الفني، وما يرتبط بذلك). أما فلسفة الفن، فتتناول علاقة ظواهر الفن بظواهر أخرى تقع خارج إطار الفن أو العمل الفني ذاته (وبهذا المعنى، فإن البحث في علاقة الفن بالسياسة على سبيل المثال - وإن لم يتناوله برتليمي - هو مثال آخر على البحث الذي يقع في إطار فلسفة الفن). ولا ينبغي أن يظن ظان

أننا بذلك نصطنع قطيعة بين علم الجمال وفلسفة الفن، فهذا أبعد ما يكون عن مقصدنا . فلا شك أن فلسفة الفن تنتمي إلى علم الجمال بمعناه الواسع، أو لنقل إنها تفترض - أو ينبغي أن تفترض - علم الجمال بمعناه الضيق أو الدقيق، بمعنى أن فيلسوف الفن لم يعد مشروعا بالنسبة له أن يتأمل علاقة الفن بغيره من الظواهر، دون أن يكون على وعي مسبق بظواهر الفن ذاتها . وبهذا المعنى، فإن فلسفة الفن تصبح امتداداً للبحث الجمالي في ظاهرات الفن؛ ولهذا السبب جاء مبحث فلسفة الفن عند برتليمي بعد البحث في ظاهرات الفن .

ولا شك أن برتليمي نفسه لم يكن مشغولاً بمثل هذه التمييزات المنهجية بين مستويات البحث الجمالي التي بيّناها هنا، ولكن هذا لا يعني أنها لم تكن في ذهنه؛ فالحقيقة أنه أراد أن يكشفها لنا مباشرة وبصورة عملية تطبيقية من خلال تقسيمه لقضايا بحثه على النحو الذي ذكرناه . وتلك هي قراءتي لهذا البحث الرصين والممتع في الوقت ذاته، وأظن أنها قراءة يمكن أن تشكل أمام القارئ العام لهذا البحث أفقاً من الرؤية، يحول دون الشتات في خضم التفاصيل مذهلة الثراء في هذا البحث الخصب .

محتويات الكتاب

صفحة

مقدمة

توطئة لعلم الجمال

عن الجمال	٤
ملخص طريقة البحث	١٢

الجزء الأول

سيكولوجية الفن

الفصل الأول : المجتمع والفرد	٢٣
الجماعة المبدعة	٢٤
اثر البيئة	٣٥
المدارس والأساليب والأنواع	٤٥
الفردى الكلى	٥٥
مدينة الفنان	٦٠

الفصل الثانى : الملاحعور والشعور

السريالية	٧٣
-----------	----

٨١	ليست العبقرية جنوناً
٨٩	ليس الشعر سبحات أو هام واحلام يقظة
١٠٠	التحليل النفسى للعمل الفنى
١٠٨	الإبداعية والحياة الجنسية
١١٤	اللا شعوران
١١٩	الفصل الثالث : الالهام والعمل
١٢٠	هبة ربات الالهام
١٢٤	قانون العمل
١٣٢	سبل الإبداع
١٤٠	الفكرة النابتة ونموها
١٤٦	عن السهولة
١٥١	قيود لذيدة
١٦٢	مصادقات سعيدة
١٧١	الفصل الرابع : المادة والصورة
١٧١	عنصران متميزان يبد أنهما لا ينفصلان
١٧٧	جمال المادة
١٨٢	ماذا يمكن أن تقدم المادة للفنان
١٨٨	نتائج
١٩٥	الفكر واليد والاداة

٢٠٣	الفنان والصانع
-----	----------------

الجزء الثانى

علم ظاهرات الفن

٢١٩	الفصل الأول : فن التصوير والطبيعة
-----	-----------------------------------

٢٢٠	بحث فى المذاهب
٢٢٦	تأمل فى الأعمال الفنية
٢٣٧	ماهى اللوحة
٢٤٢	الرؤية الفنانة
٢٤٧	من بودلير إلى مالرو
٢٥٦	حول الفن التجريدى

٢٦٩	الفصل الثانى : الشعراء والذكاء
-----	--------------------------------

٢٧٠	الشعر الخالص
٢٧٤	الموسيقى اللفظية
٢٨١	سحر إيحائى .
٢٨٥	المعجزة الشعرية .
٢٩٠	تكيبك الشعر
٢٩٩	الجرس والمعنى
٣٠٦	جمال غير نقى

الفصل الثالث : الموسيقى والمعاطفة

٣١٨	تنوع الموسيقى
٣٢٣	غموض التعبير الموسيقى
٣٢٧	الإصغاء إلى الموسيقى
٣٣٢	الشكل الموسيقى
٣٣٧	» » »
٣٤٤	الموسيقى والمعمار والرياضيات
٣٥٣	الزمن الموسيقى
٣٦٠	الإنشاد الموسيقى
٣٦٧	مناهج خارج المنهج

الفصل الرابع : عالم الفن

٣٨٠	الذة الجمالية
٣٨٦	الفن واللعب
٣٨٩	الجميل والمفيد
٣٩٣	تصنيف الفنون
٣٩٨	عوالم الفن
٤٠٤	واقعية الخيال
٤٠٦	أفلاطونية بروست
٤١٢	الشكل التكويني
٤١٧	نواحي الغموض في الوجود الفني

٤٢٢	الجمال الفني والجمال الطبيعي
-----	----------------------------------------

الجزء الثالث

فلسفة الفن

٤٣٥	المفصل الأول : الفن والانسان
-----	------------------------------

٤٣٧	تراجع
-----	-----------------

٤٤٩	« اضرب قلبك »
-----	-------------------------

٤٥٩	الفن للفن
-----	---------------------

٤٧١	الفن الملزم
-----	-----------------------

٤٨٣	المفصل الثاني : الفن وعلم الاخلاق
-----	-----------------------------------

٤٨٥	إدانات تشهيرية
-----	--------------------------

٤٩٢	كرامة الحواس
-----	------------------------

٤٩٨	تطهير الانفعالات
-----	----------------------------

٥٠٩	واجبات الفنان
-----	-------------------------

٥٢٣	المفصل الثالث : الفن والميتافيزيقا
-----	------------------------------------

٥٢٥	علم الجمال عند برحسون
-----	---------------------------------

٥٣٥	اعتراضات رئيسية
-----	---------------------------

٥٤٥	نقد النقد
-----	---------------------

المعرفة الجمالية ٥٧٥

المفصل الرابع : الفن والدين ٥٧٣

دين الفن ٥٧٥

من التمرد إلى الابتغال ٥٨٧

التقابل بين الفن والصوفية ٦٠٢

التناقضات بين الفن والدين ٦١٥

تعليل النتائج ٦٢٨

الموامش ٦٤١

تصدر عنا أقوال قوية حين لا نتعمد أن تصدر عنا أقوال غريبة
لننري بأمورنا

المشتركون في هذا الكتاب

المؤلف : جان برتليمي

المترجم : الدكتور انور عبد العزيز

تخرج في قسم اللغة الفرنسية بكلية الآداب - جامعة القاهرة عام ١٩٣٩ - عمل مدرسا بالمدارس المصرية بين عامي ١٩٣٩ و ١٩٤٩ حصل خلالها على بعض الدرجات ، العلية أهمها دبلوم معهد التحرير والترجمة والصحافة من جامعة القاهرة .

حصل على دبلوم الدراسات العليا ، ثم دكتوراه الجامعة مع مرتبة الشرف الأولى من السوربون . كما حصل على دكتوراه الدولة مع مرتبة الشرف الأولى من جامعة باريس

عين عام ١٩٥٤ مدرسا بكلية المعلمين بالقاهرة ، ثم مراقباً عاماً للغة الفرنسية بوزارة التربية والتعليم ، ثم أستاذاً مساعداً للغة الفرنسية وآدابها بكلية البنات بجامعة عين شمس ، ومشرفاً على القسم المناظر في جامعة القاهرة ، ثم أستاذاً لكرسى اللغة الفرنسية وآدابها بجامعة عين شمس .

له عدة مؤلفات أهمها « النقد وعلم الجمال » - نشر له كتاب « الكونت دي لوتريامون » بدار نشر بايو بسويسرا ، كما نشر له مقالان في مجلة « علم الجمال » الفرنسية . ألقى محاضرات هامة في الإذاعة الفرنسية عن « الآلهة المصرية القديمة في الأدب الفرنسي الحديث » كما ألقى محاضرتين بالإذاعة المصرية عن الشاعر بودلير - قام بترجمة كتاب « علم النفس في خدمة العلم » بالاشتراك مع زميل له ، كما قام بترجمة كتاب « قصص فرعونية من العصر القديم » للأثرى الفرنسي لوفيفر .

المراجع : الدكتور نظمي لوقا

أستاذ الفلسفة بكلية المعلمين بالقاهرة . ولد في مدينة دمنهور سنة ١٩٢٠ . تلقى دراسة منزلية خاصة في العلوم العربية القديمة والأدب العربي حتى حصوله على شهادة الابتدائية ١٩٣٩ . تخرج في قسم الفلسفة ١٩٤٢ ، وعمل بالتدريس في المدارس الثانوية ، ثم حصل على الماجستير في الفلسفة ١٩٤٦ ، وعلى الدكتوراه ١٩٥٢ من جامعة القاهرة .

له مؤلفات عدة في القصة القصيرة ، والطويلة والفلسفة ، والشعر . فاز في ١٩٤٧ بالجائزة الأولى في مسابقة الإذاعة المصرية للقصة القصيرة عن قصة « آكلة النيران » ، ثم فاز في إدارة الثقافة بالجائزة الأولى عن القصة القصيرة « الضاربون في الأرض » ١٩٤٨ .

ترجم عدة كتب عن الإنجليزية والإيطالية . ترجم « الإنسان والطبعة » و « روائع خالدة » وهما من سلسلة حول مائدة المعرفة ، كما ترجم كتاب « أفانين من العلم والأدب والفكاهة » ، وهي من الكتب التي أصدرتها هذه المؤسسة . يسهم في تحرير سلسلة « تراث الإنسانية » يبحث أديبة وفلسفية ، ويتولى باب مكنبة مجلة الهلال العربية ، ويكتب فصولا في النقد الأدبي والفني في دوريات كثيرة ، منها الكتاب العربي ، والفكر المعاصر .

جنت فی عالم الجمال

مقدمة

توطئة لعلم الجمال

يقول فاليري (١): «يجب دائماً أن نعتذر عن عدم الكلام في فن التصوير». وهذا التنبيه جدير بأن يكون موضع تفكيرنا ونحن في مدخل بحث في علم الجمال. فالعمل الفني عامة - لا التصويرى وحده - لا ينبع من الصياغة اللفظية ، ولا من التعليل المنطقي أو الخطابة ، بل هو بمثابة إدراك وإثمار مباشرين ، فيما أن نتذوقه وإما ألا نتذوقه. وقد تضفى عليه الألفاظ غموضاً وتذيه في موجة من الميوعة بدلاً من أن توضحه ، بل قد تحمل محله شيئاً آخر . أضف إلى هذا أن من التهور أن يكتب الإنسان في شيء يحمله جهلاً يكاد يكون تاماً . وإذا كان الفنانون يزددون الهواة - وهم في هذا على حق - فذلك لأنهم يعرفون أن الفن مهما يكن متواضعاً فهو عالم خاص بهم . فيما أن نكون من هذا العالم وإما ألا نكون ، وما لم نكن منه فعلينا أن نلتزم الصمت .

كيف نتحدث إذاً عن الفن ؟ بل وأيضاً كيف لا نتحدث عنه ؟ هل يراد حرمان المحب من التحدث عما يحب ؟ ! أولاً يساعده الحب على فهم ما قد يظل مغلقاً عليه وهو إليه في شوق ؟ ! ألا تستطيع الكلمات على الأقل إيقاظ الانتباه وشحن القريحة وإثارة المشاعر ، إذا ما استحال شرح ما لا يقبل الشرح ؟ ... وكما قيل ، ألا تتمكن الألفاظ من «إيصال النشوة» ؟ (٢)

وأخيراً ، وعلى وجه الخصوص ، أيقدر الإنسان على ألا يسأل نفسه عن نفسه ؟ أليس له حق وعليه واجب التفكير في مختلف مظاهر عبقريته ونشاطه ؟ إنه إن كان حيواناً عاقلاً ، اجتماعياً ، حيواناً يضع المعدات ويخترع

الآلة ، فهو أيضا حيوان فنان . . « إنسان ذو فن » يتميز عن الدواب في أنه يدع الأعمال الفنية أو يبدو وهو يميل إلى التمتع بجمالها . إن الظاهرة الفنية بوجه عام ، ناحية رئيسية من نواحي الظاهرة البشرية ، فهي تشكل تجربة لاحصر لها ، مثلها مثل الأنواع الأخرى من التجارب تشحذ الفكر وتتقدم إليه لتكون موضع بحثه .

لهدفنا إذا ما يبرره مهما يكن جريئنا ، فما علم الجمال إلا دراسة المشكلات التي يخلقها الإنتاج والتأمل ، وتثيرها الأعمال الفنية ، ولسوف تعرض لنا هذه المشكلات وشيكا بكل ما فيها من اتساع وبكل ما بها من تعقيد. ولعل من الضروري أولا أن نبحث في موضوعين أولهما يتعلق بموضوع هذا البحث ، وثانيهما بطريقة البحث .

عن الجمال

إذا لم يكن التعريف الذي قدمناه آنفا عن علم الجمال يضم كلمتي « الجميل ، و «الجمال» ، فذلك لأننا أبعدهما عمداً باعتبار أن علم الجمال لا يتضمن قيمة علمية ما إلا لأن الإعداد له يبدأ من تجربة معينة ، ولأنه إذا كانت عندنا التجربة عن أشياء نصفها بأنها « جميلة » فليست لدينا تجربة « الجميل ، و «الجمال» في ذاتها ، وكلتاهما فكرتان « ميتافيزيقيتان » تتطلبان اتخاذ مواقف « ميتافيزيقية » . وعلى هذا فهما لا تدخلان بصفتهما هذه في اختصاصنا . لكن هل يعني هذا أن ليس للجمال مقابل ؟ أو أن فكرته تخلو من المعنى ؟ أو أن البحث عنه أمر « بال » لاجدوى منه . . . وأن الفن يقوم بدونه ، بل وأن من الواجب أن نتجنب النطق باسمه ؟ هذا ما وصل إليه المحدثون من علماء الجمال . . ونحن لسنا على رأيهم . لذا كان علينا أولا أن نوضح ما نقصد إليه في هذا الصدد .

مامن إنسان يستطيع اليوم أن يعرف علم الجمال بأنه علم مقاييس الجمال

الذى يتطلب معرفة قواعد ، لابد من أن تؤخذ فى الاعتبار مقدما عند إنتاج الأشياء الجميلة ، ولسوف نرى أنه لا توجد مواصفات قواعد يصنع العمل الفنى بناء عليها ، كما أنه لا توجد مواصفات « قواعد » ما للحكم عليه . ولكن لاشك أننا نستطيع التحدث جوازاً عن قواعد عامة جداً ، ولو أن هذه القواعد لا تستنتج من مذهب للجمال وضع مقدما . بل تستنبط مؤخراً من الأعمال التى تم تنفيذها فعلاً كما تستنبط قواعد علم تقدير القيم العلمية من التجربة ، والنجاح والخطأ . ولقد أمكن القول فى هذا المعنى بأن علم الجمال هو الشرعية غير المحددة - بيد أنها قاهرة - النابعة من مجموع النتائج الموقفة (٣) ؛ وذلك أن الجمال ليس بنموذج أبدى أو بقانون أمثل قائم قياما مسبقا . بل إنه يجب إعداده . وهو ليس مثالا يعتلى عرشا فى سماء العالم المعقول - كما تقول الأسطورة الأفلاطونية - أو نوعا من نموذج جامد على الأعمال الفنية أن تسعى لتداركه أو اللحاق به ، أو على الأقل الاقتراب منه^(٥) ، بل هو موجود فى الأعمال الفنية وبها . والفنان من وجهة النظر هذه يقف وقفا يشبه ذلك الذى يقفه رجل العلم أو رجل الواجب ، وكلاهما لا يجد الحقيقة أو الحكمة منقوشة أبداً على ألواح من الحجر . وكما أن فكرتى الحقيقة والخير تصقلان بالتجربة ، وكما أن البحث فيهما يحدث دائما ، وكما أنه تجرى إعادة تشكيلهما وصقلهما وتعميقهما بالعمل العلى والأخلاقي ، ففكرة الجمال تتضح وتنوع وتنمو بفضل ما يبدهه الفنان ، وحيث يصبح كل إبداع بمثابة رفع الجمال درجة وكشف عن أحد وجوهه .

(*) يترجم موضوع الفن اتساقيا طبقا لأفلاطون (٥-٨-١) ومن بعده للقديس أوغسطين (عن الحقيقة فى الدين ٣٠ - ٥٦) المثل الأعلى للفنان فى صورة ناقصة ، أى يترجم الفن فى ذاته - فيما يتعلق بالأفلاطونية الفنية فى عصر النهضة انظر بلونت - أ . نظرية الفنون فى إيطاليا من عام ١٤٥٠ إلى ١٦٠٠ ، الأبواب ٩٧٥ ، انظر قائمة المراجع فى نهاية هذا الكتاب تحت اسم بلونت ١٠

وعلى أية حال فإن تعريف «الاستطيقا» بأنها علم الجمال يضطرننا إلى تعريف الجمال ذاته . ها نحن أولاء منذ الآن وقد أغلقت علينا أبواب مجاهل من النظريات لا نخرج منها كتلك التي تاه فيها الأخوان «جونكور» كما تاه كثيرون ممن سبقوهما حيث قالوا :

«الجمال؟ آه... نعم... الجمال... من أين يأتي؟ وما الذي يجعله يعيش؟ وما عنصره؟ أفلاطون، أفلوطين... صفة الفكرة تعبر عنها صورة رمزية؟ كما ندرکه مختلطاً أم تجميع إرستطالي لأفكار النظام والمقدار ما أدراي؟ الجمال؟ أهو المثل الأعلى؟ أهو الحقيقة مستنبطة من مجال الخاص والعام...؟ أم اندماج وتناسق بين مبدئي الوجود المثل والصورة؟ بين الماهية والحقيقة؟ بين المنظور وغير المنظور؟ أهو في الحقيقة.. لكن أى حقيقة؟ حقيقة محاكاة جمال الكائنات والأجسام؟ لكن أى محاكاة؟ محاكاة بالاختيار أم بالتسامي؟ المحاكاة دون تخصيص فردى... حيث الإنسان ليس بإنسان؟ أم المحاكاة طبقاً لنموذج جمعي للكمال...؟ أهو جمال أرفع من الجمال الواقعي؟ أهو طبيعة ثانية تضفي عليه صفة الخلود؟ ماذا؟ الجميل؟ أهو موضوعية أم لا نهائية ذاتية؟ أهو التعبيرية التي قال عنها جوته؟ أهو الجانب الفردي الطبيعي الذي تميز به هيرش أو لينج؟ أهو كلبة يكون التي قال فيها إن الإنسان يضيف إلى الطبيعة شيئاً؟ أم هو الطبيعة كما تراها الشخصية فهي ذاتية الإحساس؟ أهو واحد أم متعدد...؟ مطلق أم منوع؟ الجميل أقصى حدود اللا محدود الذي لا يعرف... قطرة في محيط الله — كما قال لا يينتز... وهو في نظر المدرسة الساخرة خلق مضاد للخلقية يعيد الإنسان من خلاله بناء العالم وإحلال شيء أكثر بشرية محل الخلق الإلهي، بحيث يصبح أكثر انطباقاً والآنية المعنية، فهو معركة ضد الله؟ قال البعض إن الجميل شقيق الخير، باعتبار أنه يدخل في عملية التكيف بالخير، وبصفته إعداداً لعلم الاخلاق. وهذا وفاق رأى فيخته :

« إن الجليل نافع ، آه من فلسفة الجمال ونظريات علم الجمال كلها . . . إن هي إلا ألفاظ . . . (٤) .

إن النظر في الأشياء التي يؤكد لنا الباحثون أنها موضع الإعجاب لا يمكن إلا أن يزيد من حيرتنا، ويؤدي بنا التنوع الشديد للجمال إلى فقدان الطريق ، إذ ماهو العامل المشترك بين تمثال فينوس دى ميلو وفينوس دى ليسبوج ؟ وما هي الرابطة المشتركة بين « آريا » وباخ ، « والكوميديا الإلهية » ؟ أو بين هرم خوفو وأغنية شاعرية كتبها بول فور؟ أو بين لوحة صورها ميرو والطبلبة لأوتان ؟ أو بين العجربة المدربة وسقف قصر السكستين ؟ . . . إن الجمال الطبيعي ليدو لأول وهلة وكأنه أقل تنوعاً من جمال الفن . . . والأذواق فيما يتعلق به أكثر اتفاقاً من تلك التي تختص بالأعمال الفنية . الواقع أن الجمال في نظر غالبية الناس كما هو الشأن عند ستانдал وعد بالسعادة (٥) والصورة التي سيرسمها الناس لأنفسهم عن هذه السعادة هي بعينها لا تكاد تتغير . فإذا نحن بحثنا في إيجاد قاعدة للجمال عن طريق أكبر عدد من الإجابات الصحيحة على هذا السؤال : هل هذا الشيء جميل ؟ . . . لوجدنا أن غالبيتها تتجه أولاً نحو جسم الإنسان وبوجه خاص نحو جسم المرأة . . . ثم نحوزيتها (من ملابس وحلى) ، ثم نحو المساكن ، ثم المدن «مواقع الطبيعة» (٦) . وهكذا يحوز أن تؤمن كما يفعل مالرو بأن : «فكرة الجمال وهي من أكثر أفكار علم الجمال غموضاً — ليست بغامضة إلا في علم الجمال نفسه» (٧) رغم هذا فإن غالبية الآراء تقول بتدرج الأشياء التي توصف بأنها جميلة ، بل لا بتدرج الجمال ذاته . فنموذج جمال الذكر أو الأنثى مثلاً غير ثابت ، بل إنه يتغير بتغير الأزمان والبيئات والحضارات . والقول بأن الفن يلعب دوراً في هذه التغيرات هو البدهة بعينها ، ولذا نختتم قولنا بتحريف لقول باسكال : ياله من جمال يبعث السرور ! هذا الجمال الذي يحده نهر . . . إن للجمال عصوره، ودخول كوكب زحل في برج الأسد يحدد لنا أصل

ذلك الأسلوب . . . وما هو جميل في هذا الجانب من جبال البرانس قبيح في الجانب الآخر منها . . .

هكذا تصبح الصفة الرئيسية للجمال — على ما يلوح — هي إضفاء الغموض على المشكلة ، بل وإحلال ما هو أكثر غموضاً محل شيء غامض أصلاً . فإن كان الأمر هكذا أفلا يجدر بنا توفير الجهد والاستغناء عنه ؟ كان هذا رأى الأستاذ سوريو : « يعتقد البعض أن من الأمور التي لاغنى عنها أن نبحث عن تعريف للفن لفكرة الجمال . لكن ما هذا إلا تفكير للحقيقة الكبرى ، هذا البحث الذي يهدف إلى ربطها بناحية جانبية هي في ذاتها مختلطة غامضة . » ولتأخذ لهذا مثلاً : — ماذا أراد مؤلف « المازوركا » الخامسة والعشرين ؟ هل أراد تحقيق « الجميل » بوجه عام ؟ أم « الجميل » باعتباره يتعارض وكلاً من السامى والجذاب ؟؟ ألم ينشأ التعبير عن الجاذبية الخاصة الفردية الوحيدة في « المازوركا » الخامسة والعشرين ؟ وعن هذه الرشاقات وتلك الحالات المرضية والتحركات الانفعالية ، أو — إن صح التعبير — هذه التحركات العصبية التي تجعل منها كائناتاً قائماً بذاته ، لا بين الكائنات الموسيقية الأخرى فحسب ، بل بين إحدى وخمسين مازوركا أخرى ، ربما يقال إن شوبان قد أبدع عملاً فنياً رئيسياً . لكن مامن صفة تميز وتحدد العمل الفني الرئيسى اللهم إلا أنه يتمتع بوجود قوى ساطع بوجه خاص . « الحقيقة أن الفنون » هي التي تصنع بين المناشط البشرية الأخرى في وضوح وبقصد سابق ، أشياء معينة ، أو بصفة أعم أشياء عجيبة يكون وجودها هو بعينه هدفها . « ما هو الجمال إذا ؟ إنه الشعور الذي ينبعث به إلينا النجاح الكامل للفن في مهمته . لكن تعريف الفن بهذا الشعور النهائي لا يخرج عن كونه دوراً أى دوراناً داخل دائرة . فلنقل إذا إن الهدف المباشر للفن هو الوجود الكافي كفاية دنيا للكائن الفريد في ذاته ، وإن أمكن الوجود الكلى المنتصر الملتب الذي يحتاج فيه الدور (٨) ، لكن بالأسف ، لن تحتفى الدائرة بحال . لقد طرق الأستاذ سوريو

جيداً لموضوع الوجود الفنى . ولا بد لنا هنا أن نقدم له فروض التبجيل . وسوف ندعوه لمعونتنا حين يحين الوقت الذى نطرق فيه هذه الناحية . غير أن هذا الوجود العظيم يتضمن فى ذاته ما يسمى عادة بالجمال ، وهوشىء لا يمكن استبعاده الجمال بصفته فكرة « مختلطة غامضة » ؟ فلننتظر . . . أهو عامل جانبي ؟ قطعاً لا . . . لأن الأعمال الفنية الفاشلة التى يقدمها فنان هزيل ، وهى كذلك « كائنات فريدة ، هدفها فى وجودها » إن هى قورنت بأعمال جوجان وفان جوخ وسيزان مثلاً . . . وإذا كان وجودها هذا هزيلاً فقيراً دون « حماسة » أو « بريق » ، فهل يخرج الأمر عن كونها غير جميلة فحسب ؟ أليس بواضح وضوح النهار أن فكرة « البريق » هذه تسمح بإدخال الجمال بطريقته غير المشروعة بعد أن كان المفهوم أنها مبعدة ، تلك الفكرة التى يحل محلها بشكل ما حشد من الصفات ، كان يصفها قدامى الكتاب بأنها عظمة النظام ، وعظمة الحقيقة ؟ .

عندما كتب شوبان المازوركا الخافسة والعشرين لم يكن يبحث قطعاً عن « الجميل » بصفة عامة ، ولا عن السمو ، ولا عن الجاذبية . . . لكنه إن كان قد أراد بادىء ذى بدء أن يصل إلى « التحركات الانفعالية » أو إلى « المحركات العصبية » التى تذهل الأستاذ سوريو ، فهل كان يمكن أن يزيد شوبان فى شىء عن مؤلفي الأغاني الغرامية التى كانت تنشر عام ١٨٤٨ ؟ الواقع أن شوبان أراد أن يؤلف مقطوعة موسيقية على نغم المازوركا فحسب ، وخرجت هذه المقطوعة جميلة ، لا مرأى فى هذا ، دون أن يكون فى حاجة إلى أن يذكر هذا لغيره أو لنفسه ، باعتبار أن الموسيقى غير الجميلة ليست بموسيقى ، ما كان لها أن توجد باعتبارها موسيقى . وكما يتلقى الإنسان عقاباً حين يرتكب الخطأ نرى الأستاذ سوريو ، وهو لا يعرف تماماً — إذ سير خلف نظرياته — أين ينتهى النشاط الفنى وهو إذ يقول : « يجوز أن يكون هناك فن فى عمل فلسفى ما ، أو عمل علمى ما ، أو فى عمل تعليمى ما . . . وإذا يقول : بل وكيفيك » أن تنجب طفلاً لتصبح فناناً .

إن أنت إلا فكرت في أن يكون هذا الطفل أشقر أو أسمر ، وإن أنت عرفت كيف تعطيه عيوناً زرقاء أو سوداء (٩) ... إذ هو يقول هذا نجده يخلط في وضوح بين عمليتي الهدف والفن .. وهكذا ينتقم الجمال لنفسه حين تسخر منه .. أليس كذلك ؟

إن فكرة «الجميل» تقع في نفس التعارض الذاتي الذي تقع فيه جميع الأفكار الأولية ، لأنها — أى فكرة الجميل — لا تقبل التفكير ولا يمكن الاستغناء عنها، ولأنها في وقت واحد حاضرة هاربة. على أن أكثر الفلاسفات كلاسيكية بل وأكثرها شيوعاً تقول بإيجاد حل لهذا التعارض الظاهري ، فقد كان خطأ الكثيرين من فلاسفة الميتافيزيقا كما أوضح هذا الأستاذ جليسون (١٠) — أن عزلوا الجميل من الكائن ، كما لو كان الأمر بالنسبة له حقيقة تقبل التمييز في ذاتها * بهذا تتساءل : ما هو الجميل ؟ ثم نجيب حين لا نجد إلا الإجابات اللفظية البحتة . وعلى ذلك فإن نحن رجعنا إلى قدامى الفلاسفة لعلمنا أن الجميل — شأنه شأن الحق والخير — يعيش فوق العقل والمنطق والعمل ، تتحول فكرته مع تحول فكر الكائن ، على أن يكون مفهوماً بلغة حديثة ، وأنه من خواص الكائن وقيمه . وعلى أنه ليس بشيء آخر غير الكائن نفسه ، إن نحن نظرنا إليه من زاوية هذه القيمة . نتيجة هذا أن «الجميل لا يقبل التعريف ، حكمه هنا حكم الكائن . والتعريف معناه ربط فكرة بأفكار أخرى سبق أن عرفناها وفي مجالنا هذا لا وجود لهذه الأفكار

* وتلك أيضاً في مجال آخر — فكرة فاليري إذ يقول : ما دام فيلسوف الميتافيزيقا قد بحث الأمر في الحق ووضع في بينه هذا كل عواطفه وعرفه حين اخفى التناقض الظاهري ، ثم اكتشف بعد ذلك فكرة الجمال وسعى لتميتها وتنمية نتائجها ، فهو لا يستطيع إلا أن يبحث عن حقيقته . ما هوذا يتابع حقيقة ما تتخذ اسم «الجميل» ، ولكنها من نوع آخر ؛ ويخرج دون أن يقصد حقيقة الجمال . وهكذا نجده يفضل الجميل على اللحظات والأشياء ، ومن بينها اللحظات الجميلة والأشياء الجميلة (انظر متنوعات ٤ — ص ٢٥٥) .

الأخرى والجمال يفهم من خلال الأشياء الجميلة ، بالتجربة المباشرة التي لا تقبل التقليل وكل ما يمكن أن يقال عنه يصبح من قبيل التكرار الذي لا جدوى منه .

لا تدعش إذاً من أن الجميل شيء لا يعرف ، لكن لا تخف ، إن أنت استخدمت هذا التعبير - من ألا تصل إلى موضوع ما دام الموضوع قائماً موجوداً . ومن ناحية أخرى، فإن الكائن بوجه عام - نقصد الكائن غير الملبوس أصلاً - غير موجود ، ولذا لا يمكن أن يكون جميلاً . على أن الموجودات في ذاتها - تلك التي تتصف بالجمال بشكل يزيد أو يقل بحال ما - هي الكائنات التي تنتجها الطبيعة أو تصنعها يد الإنسان . من هنا كان القول بعدم وجود جمال مثالي منفصل ، يعيش في ذاته ولذاته .

ولقد فهم الأستاذ سوريو تماماً أن الجميل يرتبط باكتمال معين للوجود والكائن ، لكنه نسي أن الكائن يمكن أن يكون هدفاً ، أو كائناً يقبل الإدراك إدراكاً كاملاً متنوعاً طبقاً لاختلاف مواقف الشعور أو الضمير . فهذا الشيء بصفته موضوع معرفة ، شيء حقيقي ، وما حقيقته هذه إلا كيانه باعتباره مبعث لذة في ذاته بالنسبة للحواس المدربة . وهكذا لا تصبح فكرة الجمال « غامضة » أو « مختلطة » بحال من الأحوال . ومع أنها لا تستطيع الدخول في إطار أية فكرة ، فهي محدودة واضحة قدر دقة فكرة الحقيقة ، أو فكرة الحق ووضوحهما ، وهي تمثل شكلاً من أشكال الرغبة الملحة للكائن رغبة هي في حقيقتها صميم الإرادة البشرية تنبع من إرادة المبدع ومن حساسية المحب للفن . . . وتتخذ هكذا صفة الهدف المحورى وصفة القيمة التي يدعيها أو يعترف بها المبدع أو الهاوى ، وصفة المطلب الروحي الجسم أو الذي يمكن أن يحسم .

ملخص طريقة البحث

يفهم مما سبق أن استخدام لفظي «جميل» و«جمال» أمر مشروع ولو أنه لا يمكن أن يكون هكذا إلا إذا استعنا بتجربة جمالية. ويتطلب هذا منا طريقة خاصة تتبعها: إذ لا يمكن أن يكون هناك علم للفن يستحق هذه التسمية إلا إذا استند إلى أوسع تجربة ممكنة لحقائق الفن. وأول تجربة هنا تجربة عالم الجمال نفسه. وهو الذي تفترض فيه أنه قد اكتسب بعض الثقافة الفنية، وأن في إمكانه اكتساب الخبرة؛ إن هو مارس أحد الفنون الجميلة ممارسة عملية. غير أن قدرة عالم الجمال لا يمكن إلا أن تكون محدودة جداً. ولذا يتحتم عليه أن يلجأ إلى قدرة الآخرين. وفي مجال الفن، كما هو الشأن في كل المجالات، هناك علماء ورجال مهنة، متخصصون، خبراء فيها، لا بد من الاستشهاد بهم. والشهود الذين نخصهم - وهذا طبيعي - هم الذين يعرفون أكثر من غيرهم عما يتكلمون، نقصد هنا أولئك الذين يصنعون الفن، أي الفنانين.

هناك من يلجأون إلى الفلاسفة أولاً، وعلم الجمال على ما يلوح هو مجالهم، وكثيرون من عظمائهم قد كرسوا له بعض مؤلفاتهم، غير أن خبرتهم الفنية ليست للأسف دائماً على نفس المستوى من عبقريتهم الفلسفية. فقد قيل عن «كانط» مثلاً إنه يتحدث عن الفن وعن علم الجمال وهو لا يعرف شكسبير! بل ولم يزر منحفاً للتصوير! وإنه - في مجال الموسيقى - يضع نغم النفير العسكري فوق كل شيء (١١) ونحن لا نفر هذا الرأي الذي لا ينطوي على الاحترام، لأن الآراء التي أصدرها «كانط» عن الفن سليمة. ودون أن نستطرد في الحديث في هذا الموضوع الذي ناقشناه حالاً نجد أن «كانط» قد أثبت أنه لا يوجد «علم للجمال» بل يوجد نقد للجمال بحسب. كما أثبت أن قواعد الإنتاج الفني لا يمكن أن تصاغ قبل إتمام العمل الفني نفسه، بل «يجب أن تستنتج» من العمل نفسه. أي من الشيء الناتج (١٢). ورغم هذا ترتبط آراء هذا الفيلسوف في الفن ارتباطاً وثيقاً بنظريته في مجموعها،

لدرجة يصبح من العسير معها عزلها وحدها دون قبول النظرية في مجموعها . بل وهناك أكثر من هذا . فغالباً ما يتخذ علم الجمال صورة التوسع بالأمثلة أو بالتطبيق الميتافيزيقي ؛ فشوبنهاور مغرم بالموسيقى لأنها هي الفن الذي يتفق ونظريته . وإذا كان فن العبارة أو فن النحت يتفق وهذه النظرية ، فإن هذا أمر لا يهمه كثيراً . وأخيراً فإن للفلاسفة قدرة خاصة على الوقوف فوق ربوة عالية ، وهم بهذا يعرضون أنفسهم لعدم رؤية حقائق الفن ، وقد تكون هذه الحقائق مادية لدرجة كبيرة . لذا نجد أن الفنان لا يعرف دائماً نفسه من خلال آرائهم . يقول المسيو جيلسون : يلوح أنه عندما يتحدث فيلسوف عن فن التصوير ، ما من مصور يفهم ما يقول ، وعلى أي حال فإن ما يسميه الفلاسفة تصويراً هو شيء آخر غير ذلك الذي يرمز إليه المصورون بهذا الاسم . (١٣) .

لهذه الأسباب سوف نقف بعيدين عن الفلاسفة ، ولو أنه ليس من المفروض أو من الممكن إبعادهم كلية ؛ لأن الظاهرة الفنية ظاهرة بشرية تتبع إلى حد ما من العلوم الانسانية كعلم النفس والتحليل النفسى وعلم الظواهر وعلم الاجتماع ، وليست هذه العلوم فلسفة ، ولكنها تمس الفلسفة عن قرب . ونحن هنا لا نطرق موضوعاً جديداً ، فنذ عشرات السنين والفلاسفة يجعلون من ذلك الموضوع تخصصاً لهم ، وقد يكون من الخسارة أن نحرم أنفسنا من نورهم . غير أنه من الجائز أن يكون الكلاسيكيون من الفلاسفة قد أخطأوا ، لكنهم لم يخطئوا عندما أخضعوا أمور الفن للتفكير الفلسفي . وهاك ذى لا كرو يغادر القاعة وسط محاضرة عن تقدم « الفن » يلقيها سيد اسمه « رافيسون » وها هو ذا يحكم على « تين » بأنه « مدع للعلم من الدرجة الأولى » (١٤) بسبب دراسة كرسها « تين » عن الفنان « روبنس » و « رينوار » يغضب إذ يقرأ مقالاً عن : « الفن » كتبه بيرجسون (١٥) . ويهاجم فلا منيك فلسفة فن التصوير التي أوحى بها برونشفيج (١٦) ، ولكن

هذا لا يعنى إطلاقاً أن يكون ما قاله «تين» و«رافيسون» و«بيرجسون» و«برونشفيج» من قبيل الترهات ؛ لأنه إذا كان من العسير على الفلاسفة فهم وجهة نظر الفنانين ، فإنه يصعب على الفنانين فهم وجهة نظر الفلاسفة وثمة حقيقة مع هذا تقول بأن الأعمال الفنية والنشاط الفني يخلقان مشكلات تتعلق بالمغزى الفلسفي وتتخطى حدود الشرح الإيجابي . وما مجرد إثارة هذه المشكلات إلا من قبيل الحديث الفلسفي . ولكي نحاول إيجاد حل لهذه المشكلات ، يتعين علينا أن نحفظ لأنفسنا بحق تفضيل فيلسوف على آخر وبأن نقف كما فعلنا في حديثنا عن الجمال عند الفلسفة التي نفضلها .

وبالقدر الذي نحاول به حل رموز الفلاسفة ، يصبح من المفيد أن نستطلع آراء كتاب المقالات والنقاد ومؤرخي الفن ؛ وكلهم يتمتعون بوجه عام بمزايا القدرة والتحمس في مجالاتهم . صحيح أن هذا غير كاف لنزع سلاح الفنانين في رفضهم للفلسفة إذا علينا — كما يقول «ديجا» — «أن رجال الأدب يشرحون الفنون دون فهمها» ورغم حسن القصد لدى رجال الأدب ، فهم ليسوا من أهل المهنة ، ولم يضعوا أيديهم في «معجون الألوان» ، كما أن الأديب لا يستطيع «تصور المآسى الصغيرة التي تلازم الفنان خلال التنفيذ إلا بمطابقتها بمشكلاته الخاصة التي تصادفه ويجد لها حلاً في عقله» (١٧) . وهناك ما هو أخطر من ذلك ، فالإبداع الفني يتميز بالتجديد الدائم وباختراع أساليب جديدة وطرق تعبير لم يسبق استخدامها والنقاد لا يستطيع الحكم على العمل الجديد إلا في ضوء قواعد مستقاة من معلومات اكتسبها من أعمال سابقة (١٨) فكيف والحال هكذا لا نفقد الطريق ونحن حيال أشد أنواع الإنتاج المستقبلية أصالة وأكثرها ثروة ؟ من هنا كانت أخطاء النقد الفني التي نعرفها ، والتي يسهل علينا تنفيذها صراحة . وأخيراً فليس من المستبعد أن يكون كاتب المقال أو النقاد ، بل والمؤرخ متأثراً بأيديولوجية يمكن أن تقصد وجهات نظره وتغير من أحكامه .

ولقد عيب على رسكين عيباً شديداً تقديسه للباديء الأخلاقية ووعظيته . ونلاحظ في أيامنا هذه أن النقد الماركسي والنقد الطبيعي على السواء فقدان موجهان ، ألا تدين كتب مارلو بنجاحها في أغلبه إلى استعماله الفن كوسيلة لتفسيق الأساطير الكبرى المعاصرة فيما بين بعضها والبعض الآخر تفسيقاً كله حيوية ؟ .

وسوف نستخدم المصادر الأدبية في تحفظ، ليست بأقل قيمة من غيرها متجاوزين عن قيمة الأساليب الجديدة وإدراكها — فقد كشف بودلير لمعاصريه كلا من فاجنر ودي لاكروا ودوما . وعاون أبولينير في تشكيل الحركة التكعيبية ، وأشاد « أوهد » أول من أشاد بعظمة دوانيه روسو . بل ومن الجائز أن تداخل إليهم الخشية من أن أوكاك يتمشى مع أعجب فنانى التفكير خوفاً من أمر الأجيال القادمة، طبقاً لما أسماه فاليري « خرافة استهواء الجديد » (١٩) . ومع هذا فن الجائز أن يكون السبب في ضعف الناقد هو بعينه مصدر قوته أيضاً ؛ لأن الفنان الذى اختار لنفسه مذهباً فى الشعر ، أو فى التصوير ، أو فى النحت ، لا يكون طلق الفكر عند ما يحكم على مذهب يختلف عن مذهبه هو . لهذا يصبح الهاوى للمستنير أكثر استعداداً منه لأنه غير مقيد بشكل من أشكال الفن يلتصق بشخصيته ، ولذا فهو قادر على تقدير أساليب لا تتفق فيما بينها فى وقت واحد . وهو قادر كذلك على تذوق أوسع ، مع إصدار حكم أكثر صواباً ، وما إن تهدأ العواطف الجارفة بالنسبة لمعاصر حتى يتحقق اتفاق الخبراء حول الأعمال ومؤلفيها . مثل هذا الاتفاق الذى يعود إلى الماضى كاف لنا لأنه لا يغطى آلاف السنين من إنتاج فنى انتشر فى القارات الخمس ، بل إنه أكثر من كاف لإرساء قواعد علم الجمال ، حيث إنه لا يتعين علينا أن نقامر حول الاتجاهات التى سوف تحكم الفن مستقبلاً .

ومهما تكن فائدة الأدب الذى ينتشر حول الأعمال الفنية الكبرى

فإنه يحسن منح الأولوية للفنانين أنفسهم، فهم وحدهم الذين يعلمون أسرار المهنة، وهم وحدهم الذين تدربوا على أعمق الأسرار، وهناك أمور لا يستطيع غيرهم معرفتها، وقد فهم فيكتور هو جو هذا حين أكد أن أحسن ناقد هو الشاعر قائلًا: ما أعجب أمر من يحملون تجريد الشاعر من النقد! فن أحسن من عامل المنجم معرفة بسر أدبه؟ لقد كتب داتى قواعد اللغة، ووضع شكسبير على لسان هاملت فقدأ صحفياً عن مسرحية مدهشة (٢٠) المؤكد أن الرومانتيكية قد نمت لدى الفنانين ضرورة شرح أنفسهم أمام جمهور تأثر. وكان الفنانون يطالبون منذ فترة طويلة بحق التحدث وسبق أن حدث نفس الشيء في القرن الثامن عشر حيث قال النحات «كوتان»، «لا يمكن أن ترفض النظر إلى رأي قوم كرسوا حياتهم لدراسة الفن نظراً جدياً إلى أقصى الحدود، أولئك الذين أثبت نجاحهم أنهم يعرفون مبادئه (٢١). ويرى فالكونيه أيضاً أن من الضروري أن نأخذ الفنان مأخذ الجد حين يتحدث عن فنه، حتى ولو لم يكن يحسن الكتابة، فإن لما يفضى به قيمة تزيد عن الشروح التي يقدمها محترف الأدب والذي يكتب حول موضوع لا يعرفه، أولاً يعرفه جيداً، يعرض نفسه مهما يكن تفكيره، ومهما تكن عبقريته لكتابة بلاهات. وعلى العكس من ذلك فالذي يكتب دون ادعاء بالعبقرية الأدبية، إلا ما يمارس من أمور، لا يمكن أن يتعرض للهجوم، لأنه لا يمكن مهاجمة من يتحدث ويكتب عما يفعل حتى ولو كان ما يكتبه غير صحيح أو غير أنيق. ماذا إذا؟ الأمر هنا أن نقدم تعليلاً منطقياً مستقيماً لمادة متعرجة. «وما من شخص إلا ويشعر أن جميع الأحكام تأتي في صالح الفنان، ويضعف فالكونيه قوله: إن ما يكتبه الفنانون — أو إن شئت — المجالات التي يترددون عليها — هي التي تقدم لرجال الأدب أحسن مآلديهم من كتابات عن الفنون. كان «بلين» ينقل ما يكتبه الفنانون نقلاً، وعند ما كان يستحيل عليه التحدث إليهم أو استشارتهم أو عند ما لم يكن بمستطيع أن يستمع إليهم شخصياً أو أن يسمح ما يقولون كان ينتج هذه المتناقضات والقرهات التي تنشر في كتبه الثلاثة، (٢٢).

الحقيقة أن الرجوع إلى الفنانين يصطدم بعقبات تزيد على تلك التي يفترضها فالكونيه : فقد قيل « إن كبار الفنانين لا يفكرون إلا قليلاً جداً ، وحتى كبار الشعراء كذلك » (٢٣) ، .. ولكن بل وقد تكون هناك في رأينا أفكار هؤلاء وأولئك — من الفنانين والشعراء ، رغم أنهم ليسوا جميعاً في بساطة كبساطة هنرى روسو . . هذا بالإضافة إلى أن آراء الفنانين المفكرين تأتي أحياناً رديئة : فبدلاً من أن يتحدثوا عن تجاربهم في الفن نجدهم يثرثرون ثثرة فلسفة عقيمة ويألها من ثثرة !! ولقد خيب «بروديل» مثلاً في هذا الصدد أملنا ويحدث أحياناً أن يكون الفنانون كما يفعل النقاد ، مشبعين بأفكار معاصرة خاطئة ، - بأحكام فاسدة تصدر عن البيئة ، بل وتجدهم أحياناً يسيرون في ثنايا السطحيات التي تنكرها أعمالهم الفردية دون أن يقصدوا إلى هذا قصداً : وكـم منهم مثلاً من أعلنوا خضوعاً غير مشروط للطبيعة ، ثم أداروا لها ظهورهم في عملهم الفني ؟ ثم إن الفنان بوجه خاص لا يمكن إلا أن يكون متحيزاً ، ولطالما كافح ليثبت وجوده ، ويصوغ أسلوبه وفنه ونظريته للأمور والأشياء صياغة لا تطالبه باتخاذ سبيل شخص آخر في الأسلوب والفن والنظرة ، فمن المحال أن يكون «آنجر» شخصاً غير هذا الذى يتفجر ضد دعوى لاكروا . والعكس بالعكس . لذا نرى أن ما يكتبه الفنانون غالباً ما يعطى شعوراً بالدفاع عن آرائهم هم . ويقول فاليرى هنا : أكاد دائماً أن أصطدم بنظريات الفنانين ومناقشاتهم ، ودائماً أشعر بأنها مصابة بأفة التفكير المضمر في الممارسة المباشرة وبأسلوب فردى وما يريد أن يفعله الفنان وما يريد إخفاءه من سهولة وصعوبة وما يخفيه فعلاً وما يشعر به من سعادة ، يتخذ مظهرأ شمولياً كلياً في غير تحديد أو انتظام (٢٤) . إن الفن في نظر الفنان هو فنه هو ، ولا يمكن أن يكون غير هذا .

ليس من شأن هذه المعارضات الخيفة أن تثبط من عزيمتنا ، فهي تعنى ببساطة أن أقوال الفنانين كأقوال الفلاسفة والنقاد ليست بقواعد سماوية

منزلة . ولذا فلن يكون من الحكمة أن نقبلها وعلوتنا مغمضة . بل لابد من التوفيق والنقد ، وإخراج الحبة من التين ، والإبقاء على الحبة الطيبة وإلقاء القش بعيداً . ولابد أن نأخذ في اعتبارنا المعادلة الشخصية للفنان ومعدل ذاتيته . ولابد من تحديد مابه هو وما يعكس عقلية المجموعة التي ينتمى إليها لا شعورياً . وسوف تؤدي المقارنة بين النصوص التي استئصل بعضها ، كما أنه سوف يساعد هذا على استخلاص الحقائق . والطريقة هنا نفس طريقة العلوم كلها ، تعتمد على الاستشهاد ، وعلى أن الحقيقة المؤكدة في التاريخ تصبح مؤكدة بفضل ما يشهد شهود عديرون ، عرف عنهم الإيمان واستقلال الرأي .

ونفس الحال نجده في علم الجمال ، إذ يمكن فيه أن نعترف بصحة نقطة اتفق عليها فنانون أجنب لوجود اتفاق في نشاطهم وذوقهم وأسلوبهم وطبيعة أخلاقهم . مثال هذا ما نراه لدى «ديدرو» الذي لا ينصح المصور الفنان بالخضوع لنموذج معين . وينطبق هذا على «آنجر» و«دي لاكروا» و«جوجان» . هنا نجد أن من حقنا الاستشهاد .. هنا حيث الانطباق شامل لكثيرين .. نستشهد ونقفل باب الحديث في هذه الناحية .

لا شك أن السير في مثل هذه الطريقة أمر دقيق ، وخاصة أن الخلاف يمكن أن يكون أحياناً أكثر فائدة من الاتفاق . وهنا يصبح عدد الشهود الذين نستشهد بهم قليلاً . ربما نكون قد أسأنا تفسيرهم ، لكننا على أي حال نأخذ على عاتقنا مسئولية اختيارهم . ونحن على ثقة مقدماً من أن النجاح لن يصينا كلية في نهاية هذا البحث . ويجب دائماً أن نعتذر عن عدم الحديث في فن التصوير .

الجزء الأول
سكولوجية الفن

تنقسم التجربة الجمالية إلى مجموعتين من الظواهر : الأولى ظواهر تنبع من حالة خاصة للتأمل : تلك التي توجد لدى الهاوى الذى يقرأ قصة ، أو قصيدة شعر ، أو ينظر إلى لوحة أو تمثال ، أو يستمع إلى مقطوعة موسيقية ، باعتبارها أعمالاً فنية أبدعها إنسان ما بحيث تبعث السرور إلى نفوسنا . وباعتبارها غير موجودة فى الطبيعة لأنها من إنتاج عمل بشرى . وهكذا يصبح الفن ، كما قال سيكون عبارة عن الإنسان مضافاً إلى الطبيعة ، والمراد بالإنسان هنا الإنسان وما أبدعته يده

فالنشاط الفنى إذاً ليس نشاطاً فلسفياً بحثاً ، كما أنه ليس بنشاط عملى على نسق النشاط الخلقى الذى يتجلى فى سلوك الفرد . لكن ما دام النشاط الفنى يصنع شيئاً ما ، فإن هدفه هو الأشياء التى يبدعها : وكلمة Poëin فى اليونانية وتأتى منها كلمة poésie - الشعر - لاتعنى شيئاً آخر غير « يفعل » أو « يعمل » . كما أن كلمة ars فى اللاتينية تعنى الوسائل المتبعة والمواصفات المستخدمة لفعل هذا الشيء أو ذاك . من هنا نتساءل : أليست الحاجة الملحة إلى عمل شيء ما ، ولإنتاج شيء ما . ولإعطاء شكل لما لا شكل له ، ودعوة كائنات إلى الوجود ، ما كان لها أن توجد دون موجدها . . . أليست هذه الحاجة هى إحدى المميزات التى يتميز بها الفنان ؟ .

والعامل ، والصانع الدقيق ، والفنى الصناعى كلهم يصنعون أيضاً أشياء لكنهم لا يهدفون أصلاً إلى الجمال . . . ثم إنهم يدخلون بأنفسهم فى أعمالهم التى يقومون بها بدرجة تقل عن تلك التى يتدخل بها الفنان فى أعماله الفنية ، لأنهم لا يخلطونها بلحمهم ودمائهم ، ولا يشكونها بصورتهم وعلى نسق أشباههم ، وهكذا يصبح النشاط الفنى هو النشاط الذى يقترب أكثر من غيره من النشاط الإبدعى .

وهو بالتالى الذى يستحق وصفه أكثر من غيره بالصفة الإبداعية .

أليست خاصية المبدع هي أن يخرج عمله من عصارته ويطبعه بطابعه كاملاً؟
الواقع أنه لا يمكن أن نتحدث عن الإبداع في الصناعة بالنسبة إلى «ثلاجة»
ولا عن الإبداع الفني بالنسبة لصاروخ عابر القارات ، في حين أننا نتحدث
عن آخر الأزياء التي «يتدعها» فنان أزياء كبير كأنها «إبداع» .

إن دراسة الإبداع الفني تنبع من علم النفس ، وسوف نطرق هذا العلم
من بعض نواحيه لنا خاصة تلك التي تقبل المناقشة أكثر من غيرها، وبالذات
تلك التي تأتي لنا بأكبر قدر من الضوء .

الفصل الأول المجتمع والفرد

إنها لفكرة شائعة ، عامة ، وشائكة ، شأنها في هذا شأن جميع الأفكار الشائعة ، تلك التي تحدد العلاقات بين الفرد والمجتمع — فالفرد يتكيف — هكذا يرى علماء الاجتماع من اتباع فلسفة « ديركهايم » ، التقليدية — بفعل مجموعته التي يعيش فيها ، بما في كل هذا المعنى من سمو . وهو يدين لهذه المجموعة بأحسن وأتمن ما يملك . ويرى فلاسفة الفردية — على العكس من ذلك — أن الحياة الاجتماعية ليست إلا تنظيما يتصف بالقدرة على الضغط ليخلق الفرد ، وأن من الضروري إذاً أن نلقى بها جانبا حتى نحقق وجودنا . هنا نستطيع أن نرى ما ينتج عن ذلك فيما يختص بالظاهرة الفنية ، وتساءل : هل يعتبر الفن قبل كل شيء إنتاجا للجماعة ، سواء تم التعبير عنه مباشرة مع إغفال اسم مبدعه ، أم أنه ، لسكى يخرج إلى حيز الوجود ، ينطبع بشكل الفنان واسمه ، مادام الفنان بنفسه هو الذى يخلقه ويستخدم فيه أدواته هو ؟ . أم أن العبقرية الإبداعية ميزة خالصة للفرد الذى يخرج كل شيء من صميم أعماقه هو دون أن يدين بشيء لبيئته أو لمجموعته التي يعيش فيها ؟ .

لن نأخذ أصلا بهذه النظرية أو تلك ، فالحقيقة أن الإبداع الفنى عمل فردى ، والمجتمع هنا — كما هو الشأن فى أى مجال آخر — لا يبتدع شيئا ، ولكنه يكتفى بالاحتفاظ بالعمل الفنى وينقله ، وعلى أكثر تقدير ، يشحن قريحة الاختراع . مع هذا فالفنان لن يأتى بالجديد ، ولن يضيف إلى تراث المجموعة شيئا إذا لم تكن جذوره قد امتدت فيها . وإذا لم يجد لديها المواد

الحام ووسائل التعبير والمعجبين بفنه والدافع الذي يحتاج إليه ، ليتحداها بعد أن يكون قد استند إليها ، مثله مثل الشجرة التي لا ترتفع فوق التربة إلا إذا وجدت فيها غذاءها ، ومثله كمثل من يستند إلى القيود ليصنع الحرية .

الجماعة المبدعة

قبل أن يدعو علماء الاجتماع لفكرة الجماعة دعوة مطلقة ، كان القرن التاسع عشر يدعو في اتفاق إجماعي إلى تأليه الشعب ، ولم يكن هذا أمراً ورثه عن الثورة للفرنسية بقدر ما ورثه عن الرومانتيكية الألمانية الأولى ، والتي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بحركة العصيان الوطنية . ويرى بعض هؤلاء العلماء هنا أن الضمير العالمي يتجسم في الشعب . ويرى آخرون — ويكاد يكون هذا هو نفس الشيء — أن الشعب هو التعبير الصحيح للطبيعة ، وأنه هو الذي يمتلك قوى الحياة ويمثل صفات الجنس البشرى وصوت الله .

هكذا يبدو الشعب وكأنه « أداة الأشياء الكبرى جميعاً ، (١) فهو في مجال السياسة أداة التقدم وبطل الحرية والعدل ، وفي مجال الفنون الجميلة أصل العبقرية المبدعة ، فالكاتدرائيات من عمل الشعب ولا اسم لمنشئها ، والشعب مصدر الشعر ؛ لأنه — تبعاً لرأى « هيردر » — يوجد قبل وجود الشعر النابع من العلم والتفكير ، شعر يقرضه الأفراد ، ينبع من قريحتهم البدائية ، وهو الشعر الحقيقي الوحيد الذي يعبر عن روح الشعب ويولد لدى كل شعب من الشعب نفسه .

وقد لاقت هذه الآراء قبولا كبيراً في البحث عن مولد أشعار الملاحم القديمة كأشعار هوميروس والنيلوجن والرامايانا و « أغاني الإشارة » في العصور الوسطى ، ونحن نكتفي هنا بعرض نظرية الإخوة « جريم » : مامصدر هذه التشكيلات الفنية البدائية إذن تبعاً لهم ؟ من الجائز أن تكون قد تكونت على ثلاث مراحل زمنية ؛ ففي بادئ الأمر وجدت الملحمة ، وهي

عبارة عن مادة أسطورية انتشرت في الشعب الذي تعيش طافية فيه ، ولو أنها مادة عضوية تماماً . ويحدث هنا أن يتخذ جزء من هذه المادة في مجموعها لأسباب طارئة ، شكلاً ووزوناً تأتي منها أغنية قصيرة جداً تسمى فاصلاً (lied) أو « الليد » (*) .

وسرعان ما تتجمع حولها بصفقتها نقطة تبلور عناصر أخرى ، أغانٍ قصار أخريات تتكون عن طريقها وفي مجموعها قصيدة شاعرية من قصائد البطولة . لا تحتاج هذه القصيدة إلى أن تثبت بطريق الكتابة ، لأنها تعيش حية في الضمير الجماعي ، ولو أنها تكتب فقط حينها يهددها خطر الزوال ، وهي ليست من عمل مؤلف بالمعنى الحديث لهذه الكلمة ، نظراً إلى أنها تنبع من الشعب كله . « فإن الشعر الشعبي لا يأتي من شعراء أفراد يمكن تسميتهم بأسمائهم ، بل إنه يصدر عن الشعب نفسه » وأخيراً فإن الملحمة عمل ذو حقيقة اجتماعية ، شبه إلهية ، وعلى غرار هذه الحقيقة نلقها بريئة كل البراءة ، نقية كل النقاء ، كاملة في كل تعبيراتها وضرورية في مظاهر تعبيرها . والأغاني الشعبية — شأنها شأن كل ماهو طيب في الطبيعة — تظهر في هدوء من القوة الساكنة للكل (٢) .

وقد شاعت هذه النظرية في فرنسا خلال القرن كله ، حيث افترض — كما يفعل الإخوة « جريم » أن المدائح عبارة عن مقطوعات شاعرية قصار تشيد بأعمال البطولة قد ظهرت أول الأمر ثم تجمعت في ذاتها وتحولت إلى قصائد حاكية . لكن لا يوجد لدينا أى أثر من آثار هذه الأغنيات التي يقال عنها ، والذي يحدث أنها تخترع عندما تحتاج إليها قضية شعبية ما . ولقد دافع جاستون بارى عن غريزة الإبداع لدى الجماهير ، رغم أنه عاون

(*) نوع من الموال الرومانسى شاع في ألمانيا

كثيراً في إلقاء أضواء على كثير من الغموض ، وعرفنا بدور شعراء المذائع
في العصور الوسطى تعريفاً طيباً. حيث يقول إن المذائع البدائية عن شارلمان
قد نشأت أيام حياته بفضل حماسة الفرنسيين (٣).

ويتبع «رينان» فرضاً يلونه بلون تشككه المحجب ، حيث يقول : «إننا
لأنعم التفكير في الفرد قليل الأثر في هذا كله ، في حين أن الإنسانية هي
كل شيء ، وحتى ينمحي . . . والمؤلف الحقيقي في هذا روح الشعب
وعبقريته ، وما الشاعر إلا الصدى المتناسق ، وأكاد أقول الكاتب الذي
يملى عليه الشعب روحه ويقص عليه أحلامه الجميلة من كل مكان (٤) . وبعد
مدة طويلة ، يعود رينان إلى نفس الموضوع حيث يقول : إن أجمل الأشياء
لا اسم لمؤلفها . . وماذا يفعل بالنسبة لى هذا الرجل الذي يأتي ليقف بين
الإنسانية وبينى ؟ . . . إنه ليس هو «المؤلف» . . . إنه الشعب ، إنها
البشرية التي تعمل عند نقطة من الزمان والمكان ، إنها المؤلف الحقيقي ،
والمجهول هنا أكثر تعبيرية وأكثر حقيقية ، والاسم الوحيد الذي يجب أن
يحدد مؤلف هذه الأعمال الصادرة عن القريحة هو اسم الشعب الذي تفتحت
من عنده ، واسم الشعب هذا منقوش في كل صفحة بدلا من أن يكون
منقوشا في صورة عنوان (٥) .

وإذا كان الفن العظيم من إنتاج الجماعة ، فإن نفس الشيء يقال ، من
باب أولى ، عن هذه الفنون الثانوية التي تسمى بوجه خاص ، فنونا شعبية ،
مثل الأغنية والتصوير البساطي ورقص الفلاحين ، والقصة الشعبية
(الفولكلورية) الخ . . . وكلها يجدر جمعها في عناية بدلا من أن تظل كية
مهملة . أليست أقرب من غيرها من الطبيعة ، أليست عارية عن الاصطناع
والتدقيق والتقليد ؟ ألا تحمل القريحة والعبقرية والصحة والحكمة ونبل
الشعب الذي صورها ؟ أليست كالمياه النقية التي تتولد منها الفنون الراقية
والعصارة التي تبعث القوة فيها من فترة لأخرى كما في الحقن بدماء جديدة ؟

إن دور جيراردى نير قال فى إعادة الكشف عن الأغاني الفرنسية القديمة معروف (٦) ، وما دفاعه عنها الذى يحرك المشاعر لإلصاق لدروس آتية من ألمانيا : «إلى أذكر - والإعجاب يملؤنى - تلك الأغاني والقصص التى اهتزت لسماعها مشاعر طفولتى . . . ولقد تغنى كل شعب قبل أن يكتب ، وكل شعر مستوحى من مصادره الساذجة . . . وإسبانيا وألمانيا ، وإنجلترا تقص حكاياتها الوطنية والفخر يملؤها . . . فلماذا لا تكون لفرنسا قصصها ، هل الشعر الحقيقى هو الذى ينقص هذا الشعر ؟ أم أنه التعطش الحزين إلى مثل أعلى ، ذلك الذى تتولد عنه أغنيات جديدة بأن تقارن بأغنيات البلاد الأخرى ؟ قطعاً لا ، إن الثروات الشعرية لم تكن تنقص الملاح والجندى الفرنسى ، وهما لا يحملان فى أغانيهما إلا بالعذارى من بنات الملوك والسلاطين ، بل والعشيقات . . . لكن الذى حدث فى فرنسا هو أن الأدب لم يهبط يوماً إلى مستوى الجماهير الكبيرة ، والشعراء الأكاديميون فى القرنين السابع عشر والثامن عشر لم يفهموا يوماً هذه الإيماءات كما فهمها وأعجب بها الفلاحون من خلال أغانيهم وأشعارهم السريعة الزوال ، أو العابرة . وكما هى عديمة اللون ، وكما هى متكلفة الوقار والرصانة (٧) وفى اختصار ، يعتبر الشعب ينبوعاً لا ينضب شعره ، على أن الساذجة هى الصفة الرئيسية للتعبير الشعبى ، وعلى أن الأغاني قصاصات غير مترابطة من أحاك وطنية ، وعلى أن الفن الشعبى يسمو على الفن النابع من العلم سموً كبيراً ، وهذا كل ما فى الأمر .

الحق أن الساذجة لا توجد حين تفتقد ، ولا بد من أن يظل الإنسان بسيطاً أو أن يظل فريسة لآراء سائدة حتى يتصور أن قصيدة ما ، أو مقطوعة موسيقية ما ، أو قطعة بناء ما ، يمكن أن تكون من عمل الناس جميعاً ، والقول بالفن قول بالتشكيل والتنظيم وتنسيق الأجزاء فى الكل ، وتكييف الوسائل بالأهداف . . . وهو قول بوجود تأثيرات مجتمعة ، ومفاجآت محسوبة ، ومتناقضات ومتناسقات مقصودة . . . حتى يسرى العمل فى الزمن

إعداد أو تقدماً وختاماً . من أى مصادفة يأتي هذا النجاح من خلال المراحل التي يقال بها من المائة ألف عقل التي يراد تسميتها في نثار ، روحاً شعبية ، أو ضميراً جماعياً ، أو عبقرية الجنس ؟ إن الفكرة الرائدة الوحيدة لشيء فكرة ضرورية . . . وما هي حقاً إلا فكرة المؤلف ذاتها .

ولقد كتب « جريم » في عام ١٨٣٨ يقول : « إن القول بأن أغنية رولان من عمل شاعر واحد أمر لن يصدقه أحد ، كما كتب جاستون باري في عام ١٩٠٠ يقول : « إن مؤلف أغنية رولان يدعى « فيلق » .. غير أن جورج بيديه قد فند هذا الجمال ، لأنه — من جهة — توجد كتابات أسطورية غامضة وقصص المسافرين الرحل ، عن شارلمان ، وحكايات محلية ، وسلاوات ... ومن جهة أخرى ، نلاحظ أن الأغنية مكتوبة كتابة لا غموض فيها . . أغنية رولان . وينحصر الأمر في أن نتساءل : كيف تصور نحن علاقة هذا بذلك ، يكفي أن تقدم شرحاً واحداً ، يفرضه علينا هنا ضيق المكان إنها في الواقع طبائع أفراد ، أهمها طبيعة شخصية رولان ، وكلها تتضمن الحقائق وتحددها . وإذا نجحت في أن أوضح أن جميع روابط هذه القصيدة ، وهي على أكبر جانب من التعقيد ، وترمى إلى تحقيق نفس الهدف وهو إبراز شخصية رولان حال ظهورها ، فإني بهذا أبرز مهارة التركيب ووحدة الاتجاه وترابط هذه الروابط . وكلما أفلحت في هذا أصبح من حق أن أبين أنها من عمل فرد واحد ، وأن نسب شرف تكوينها لشاعر واحد (٨) . هذا ولا يحق علينا هنا أن ندخل في تفاصيل التحليل الجانبية التي تنتج عن هذا لكن لنا أن نصرح بأن الفوز حليفنا ، وأن نظرية الأغاني المتفرقة التي تجمعت قد هدمت هدماً لا رجعة فيه .

وإنكار نسبة العمل للفني للشعب لا تؤدي إلى إنكار اشتراكه في إخراج هذا العمل ، فصنع المراحل الكبرى من قصيدة البطولة يفترض عقلية ورأياً وعقائد وذكريات مشتركة للجماعة كاملة . وفيما يتعلق بأغنية

رولان ، نلاحظ أنها تستخدم التقاليد، وهي تقاليد يمكن أن تكون مستعارة من سرد تاريخي ما ، أو نسخت بمعرفة بعض القسس وتم الاحتفاظ بها في الأماكن التي شهدت المعركة : أى مثلاً في الكنائس التي كانت إذ ذاك تفخر بضم مدافن الأبطال من أفراد القصة — الأغنية ، أو تكون قد نقلت من لسان إلى لسان في طرق الحروب الصليبية والحج ، ولم تتمكن من الظهور مرة جديدة إلا وسط جو بطولي به نشوة وإيمان قوى. وهكذا يقف دور الجمهور عند هذا الحد ، وينحصر في تقديم المواد الأولية للعمل وإيجاد جو مناسب لتداوله .

ونفس الشيء يقال — مع قليل من الفوارق — عن الكاتدرائيات القوطية، إذ لا شك أنه كان لدى الشعوب — كما هي الحال اليوم — منشآت خاصة بها وبيوتات دينية تعزبها. ولا مرأى في أن شعوب العصور الوسطى قد استحقت هذا الازدهار المعماري الجميل ، لأنها من إرادتها ، ولأنها تحمست له وأجمعت عليه في إيمان وورع، وأحياناً في كبرياء أيضاً، ودفعت تكاليفه من أموالها وبذلت له جهدها. ويصور لنا المعاصرون اليوم قطعاناً من المنطوعين، نساء ورجالاً، عبيداً وأشرافاً، وهم يحرون في سكون وخشوع كتل الحجارة الضخمة من الجبال الحجرية ، ليشيدوا بها كاتدرائيات سان ديني وشاتر ، وروان ، وستراسبورج . وفي هذا المعنى تصبح الكاتدرائيات القوطية بلا شك من عمل الشعب ، لكنها هكذا في هذا المعنى وحده . أما العمل الحقيقي للجماهير في أوله فإنه لم يكن إلا عملاً يدوياً عمالياً . . والأمر أولاً وأخيراً هو أن الجماعة العمالية التي تبحث عن امتيازاتها ، وأن الجماهير غير الفنية تدوس بأقدامها اختصاصات السيد الفنان الذي يقوم بالتصميم ، والذي كان يؤتى به غالباً من أعماق الريف لأنه كان يتمتع بشهرة كبرى كفنان . . . (٩) .

ذلك أن إغفال اسم الفنان، ذلك الإغفال الساحر الذي تعود البعض إضفاءه

على الإبداعات الفنية الكبرى في الماضي، لم يكن إلا أسطورة ، قضت عليها لدرجة كبيرة بحوثنا المتقدمة ، ولا داعي هنا للتحدث عن العصور اليونانية والرومانية القديمة ، بل يكفي أن تقتصر على العصور الوسطى . وهي وحدها التي وصفناها على بساط البحث . ولا شك أن عبادة الفرد في هذه العصور لم تكن موجودة كما هي اليوم ؛ إذ كان من النادر أن يوقع الفنانون أعمالهم ، وليس من المؤكد أن يكون اسم « تورولد » الذي يظهر اسمه في نهاية أغنية رولان هو الشاعر أو المغني السارد . ومن النادر أن يضع نحات مثل « جليبر » توقيع بحروف كاملة على حافة كاتدرائية أتان ، ولا بد أن نأخذ في اعتبارنا هنا أنه غالباً ما كان الفنانون المعماريون والمزخرفون وناحتو الصور ، كانوا من صفار الرهبان ، وأن لائحة أو قانون الهيئة الدينية التي كانوا يتبعونها ، تعتبر أن التواضع فضيلة من المرتبة الأولى ، وكانت تحرم عليهم هذه اللائحة لهذا السبب نشر أسمائهم ، ولذا فنحن نجمل أسماء الذين شيدوا مثلاً قصر « فيزلي » .

وعلى العكس من هذا ، كان سادة الأعمال الفنية اللادينية معروفين تماماً حيث وصلت أسماؤهم إلينا خلال وثائق المحفوظات ، ولهذا فنحن نعرف من فنانى القرن الثالث عشر وحده « فيلاردونكو » الذي عمل في مدينة كامبرى واشتهر بمجموعة صور « كروكية » ورسوم تحتفظ بها اليوم ، ونعرف أيضاً « رينو » و « توماس » « دى كورمون » ، « ورويردى لوزاك » و « بيردى مونتري » من مدينة سان دينتى ، و « أو دى مونتري » من كنيسة الكورلليه بياريس التي زالت من الوجود ، و « جان لانجلوا » من مدينة أوربان دو تروا . ونعرف أن كنيسة ريمس كانت موضع رعاية « جان دريه » و « جان لولو » و « برنارد سواسون » و « رويردى كوسى » و كنيسة نوتردام دى بارى من عمل « جان دى شيل » و « بيردى شيل » و « جان لوبتليه » وغيرهم . لكن كم من نجوم في نفس هذه العظمة قد هوت في طي النسيان لأن السجلات لم تحتفظ

بأى أثر مادي لهم . وما لنا ندهش ؟ ... أليس مصير الفنانين الشعبيين حقاً اختفاء أسمائهم أمام أعمالهم ؟ إن الذي يحدث أحياناً أن نتغنى بأغنية « المادلون » ، لكن كم منا يستطيع ذكر مؤلفها ؟ .

تحدثنا حالا عن أغنية (المادلون) . والفنون التي تسمى بحق فنونا شعبية ليست بأقل من الأغنية في كونها ثمرة حلوة المذاق نبعت من وحي الجماعة ، وهي في حالات عدة تتفرع عن فن سبق وجوده أولاً ، فن في ذاته أرستقراطي مصطبغ بصبغة اصطناعية ، تقدم هي بقايا محورة أو مكيفة ، مثال ذلك أغنيات الميلاد التي طالما كتبت عنها صفحات رقيقة ، والتي لا ينبغي أن نرى من خلالها إلا إنتاجاً ثانوياً من أغنية الرعاة التي كانت تسرد في القصور ، أي نوعاً متحلاً من الفن نجد خلاله أسماء معينة مثل اسم القس بليجران ، أو الأخ ماسيه ، أو فرانسواز ياسكال من أهالي مدينة ليون ، وقد ألفت هذه الأخيرة أغنية من أغاني « أوديميون » ، وأخرى من أغاني « أجاتونفيل » (١٠) . ونعرف أن أغنية « في ضوء القمر » من أعمال « لوللى » ، وهو أقل الموسيقيين شعبية ، كما نعرف أن كثيراً من أشد نغماتنا الشعبية نابع من نغمات أوبرا قديمة كان لها نجاحها في القرن الثامن عشر ، وأن الطابع الأكثر انتشاراً في أغاني الرعاة الباسكية التي يرجعها بعض الخياليين إلى قصص المعجزات المعروفة في العصور الوسطى ليست شيئاً آخر غير أغنية « مالبروت » ، ذاهب إلى الحرب ، وأن أغلب رقصاتنا الريفية رقصات قديمة كانت منتشرة في القصور أو في الصالونات ، وبقيت في زيف ما ، في حين أنها اختفت بسرعة من بيئتها الأصلية (١١) .

• كان اسمه كامبي روبر ؟ وقد سحب النسيان اسمه ، الأمر الذي اصطحب أيضاً بمؤلفات أخرى كانت ولا تزال إلى اليوم على شفاه الجميع . هل تعلم أن أغنية « العجول » هي من عمل بير ربون ؟ وأن « أوان جنى الكريز » من عمل ج ب . كليان ، وأن أغنية « بامبوليز » من تأليف ت . بوتريل وأن « الشباب » من تأليف جوزيف فوليه ؟

إن الأقايصص والأساطير غالباً ما ترتبط بتقاليد دينية بعيدة ، ترجع هي بعينها إلى جمعيات رجال الدين ، أو إلى حلقات الموهوبين . وهذه فيما يتعلق بالمصادر الشعبية قصة ذات مغزى : كان مانويل دى فاللا قد أدخل في أغنية « تريكورن » كعنصر محلي وصورة أندلسية نموذجية ، نعماً ميلوديا تلقاه حين سمعه على لسان متسول أعمى . . . ولكن كم كانت دهشته حين علم أن هذا النغم كان بعينه موضوع أوبريت كان قد كتبها أحد زملائه . . . أما « الأغنيات الشعبية السبع » التي كتبها عام ١٩١٤ فإن فيها رائحة أزهار اقتطفت حديثاً . وهنا يقول لنا رولان مانويل : « لقد علمت من فاللانفسه أن الميلوديات الجميلة ليست جميعاً ، ولا دائماً ، أصيلة في حينها ، وأن « الجوتا » و « الأمهودة البرسيز » والبولو ، وغيرها . . نتيجة خلط وتجميع جيلين تما في فطنة . . » (١٢)

والتعليل الذي قدمناه حالا لا يمكن تعميمه على أية حال . ألا يكون الفن الشعبي غالباً في اتجاه مضاد للانحلال ، أو أن يكون من بقايا فن مشذب عمداً ؟ إن لدى كل مجتمع ، وبوجه خاص المجتمعات البدائية ، صوراً مباشرة ، غير مصطنعة ، للتعبير بالرقص والأغاني ، وهناتهن مشاعر الجماعة بكامل هيئتها وتحرك وفقاً لنفس النغم ، ويستطيع كل عضو من أعضائها أن يصدر صيحة أو حركة يمكن أن يرددها الجميع إن هي ترجمت العواطف المشتركة ترجمة سليمة ، « غير أن الفرد الذي يتمتع بموهبة ما دائماً ما يحتفظ بدوره في هذا الشعر الذي يظل حتماً جماعياً وشعبياً . . مع ضرورة وجود نخبة واحدة تعرف كيف تخلق النغمات التي تبعث السرور إلى الجماعة . وهذه الحال نراها في الرثاء الذي كان منتشرأ على نطاق واسع ، والذي تعتبر « الميريولوجى » — أغنية الرثاء اليونانية — و « الفوسيرو » — أغنية الرثاء الكورسكية — نماذج واضحة منه : وحيث يشترك أقارب الميت وأصدقاؤه بالصياح ، وأحياناً قليلة ، مع جماعة موسيقية ، ولو أن

الأغنية المرتجلة ، وفي بعض الأحيان، رقص الصائحة ، هما الجزء الرئيسى فيهما .. ومهما تكن الفلاحة، باعتبارها قرية الميت، فهي ليست أقل تدربا على فن الارتجال هذا ، من الصائحة نفسها ، حتى منذ طفولتها . . بل غالبا ما تكون محترفة متخصصة (١٣).

هذا ، ولا بد أن يقال نفس الشيء عن هذه المظاهر الفنية الشعبية التي يطلق عليها اسم المبارزات الشاعرية، حيث لا يستطيع ، عدا الموهوبين حقا ، أن يخاطروا بأنفسهم، وإلا أصبحوا موضع السخرية ، وهم جميعا يتخصصون فيها بلا اصطناع ويقومون بتنمية مواهبهم . والحق يقال إنه كلما كان الشعر مرتجلا كان صدوره عن القرينة أقل احتمالا ، وكان أقل ذاتية بالمعنى الذي نعرفه اليوم . بل والأمر على العكس من ذلك . فهو مصقول تقليدى، لأنه لا يستطيع تجنب الخلط الذى قد يصل إلى حد الفساد إلا إذا صب فى قالب أعد مقدما ، وإلا إذا عاش فى نغم واحد واختار موضوعات تقليدية ، وإلا إذا تشكل من منوعات طارئة . هكذا كانت الكوميديا ديلارتى — الكوميديا الفنية الإيطالية — التي تخضع على أية حال للمسرح الشعبى . يدل على ذلك أنها كانت تستخدم المحترفين . ومن المؤكد أن ممثلى المسرحيات الدينية فى العصور الوسطى ، تلك التى كتبها « أوبرمرجو » وغيرها ، لم يكونوا من المحترفين، لكنهم أناس اختيروا اختياراً دقيقاً وتم تدريبهم . وعلى أية حال فإن أكثر الفنون شعبية هو الذى يفترض وجود نخبة من الشعب إذا استحق تبعيته للفن . والفن الشعبى بالمعنى الحقيقى هو ذلك الذى يختار وحده تلك النخبة من وسط شعب ما دون أن يستعيرها من بين طبقة أرستقراطية اقتصادية أو دينية أو سياسية ما ، ودون أن يسمح لهذه بالسيطرة عليها أو بتوجيهها ، (١٤) .

لا بد أن نقرر إذن أن ميول جنس ما ، وروح إقليم ما ، وطعم شىء لم ينضج بعد ، بصفتها جميعا مصدراً يعطى للفنون الشعبية طابعها ، ليست محض

أوهام. هذا صحيح، لكن الخصوصيات الوطنية والإقليمية لا توجد في الشعب أصلاً إلا على هيئة إرادة غير مكتملة ، أو إرادة طارئة ، وهي عناصر لا بد أن يعيشها الشعب لاشعوريا لكي يرتفع إلى مستوى التعبير الفني . وقد يكون من الخطأ الجسيم أن نعتقد أن الخيال الطبيعي للشعب هو الذي يجعله يهتم بنفسه وبمجاته المميزة له . . . والشئ الذي يسلم عن الشعب شعبيته الفعلية هو التصوير والقصص التي تحدثه عن دنيا لا يعرف عنها شيئا يذكر ، (١٥) .

إن الدور الذي يقوم به الشاعر حقا هو الكشف عن العقلية المنتشرة وسط جماعة ما ، حيث يشعر بها ويكشف له عنها بالتعبير عنها ، وهي بهذا تقوى وتثبت، ولهذا يمكن القول — على هذا القياس — بأن روح التربة من صنع عدد صغير من الأفراد ؛ ذلك أن عنصر الجاذبية هو أيضاً شيء يمكن اختراعه ، وأن عبقرية الشعوب ، لدرجة ما ، إبداع أدبي ، ونحن ندين بأغنية «فرنسا الحلوة» لمؤلف أغنية رولان ، و«روسيا المقدسة» لتورجنيف وتولستوى ودوستويفسكى ، و«بولندا البطلة الضحية» ليست أقدم في ظهورها من ظهور الشاعر ميكيفتش . ويبدأ تاريخ ألمانيا الرومانتيكية في عصر الرومانتيكيين . في اسبانيا استعار البنيز وجرانندوس ودنى فللا الكثير من رقصات وموسيقى البوليرو والفلامنكو والسجدياس . . لكنهم ولا شك أعادوا إليها ما استعاروه منها . . إذ ما قيمة الأدباء دون أوطانهم ، ودون أقاليمهم ؟ بل وماذا تكون قيمة الوطن والإقليم دون أدبائهما؟ ما قيمة إقليم بوجونيا دون كوليت وروبنيل . . وإقليم أوفرني دون بورا . . وإقليم أوش دون لافاراند ، وإقليم الفور دون راموز ؟ هكذا يأتي التبادل بين الشعب ورجال الفن ، حيث لا يكون ما يأتي به هؤلاء الرجال بقليل الأهمية . . . وحيث تظهر روح الشعب كنتيجة لتعاون دائم ودقيق بدلا من أن تأتي بشكلها الخام . .

أثر البيئة

هل يعنى هذا أن يكتفى الفنانون بترجمة عقلية شعورهم؟ ألا يجوز أن يكون من عملهم أصلاً أن يقوموا بتقوية الصوت الكبير اللانهاى المتعدد للشعب الذى يعنى على إيقاع واحد حولهم؟ (١٦) إن إبداعاتهم فى هذا المجال لا تفعل إلا أن تعكس البيئة التى غمرتهم هم . هذه نظرية تغرى ببساطتها وبتنوع الأمثلة التطبيقية التى تشهد بها ، وبالشعور الذى توحى به حين تشرح الظواهر المختلفة فى سهولة ، وتجمعها كلها تحت عامل مشترك أعظم .

تأتى هذه النظرية من مونتسكيو الذى أدخل فكرة تأثير المناخ فى العادات والأخلاق إلى الفكر الحديث . وقد طبقت مدام دى ستال هذا المبدأ على الأدب . وكتب بونالد فى نفس العصر يقول : « إن الأدب تعبير عن المجتمع » . واليوم ، تقول الماركسية ، بتعبير آخر ، بتعليم نفس الفكرة : « دتين » — على أية حال — هو الذى طرق هذه النظرية بكثير من التوسع والدقة .

وعلم الجمال عند « دتين » ينبع من فلسفته ذات المظهر العلمى والاتجاه الارتجالى التحديدى ، وهو يقول : « إن الطريقة الحديثة التى أحاول اتباعها والتى يبدأ استخدامها فى جميع العلوم الإنسانية تنحصر فى اعتبار الأعمال الإنسانية — وبوجه خاص — الأعمال الفنية ، كحقائق ومنتجات يجب تحديد صفاتها والبحث عن مسبباتها » (١٧) .. ولكن العمل الفنى — شأنه شأن الحقائق الأخرى — ليس منعزلاً ، بل إنه يرتبط بألف حقيقة أخرى تحدد حضارة ما ، وثقافة ما .. يرتبط اختصاراً بمجموعة عوامل يعتمد عليها وتشرح مغزاه . ولكى نفهم العمل الفنى أو فنانا ما ، أو مجموعة من الفنانين ، يجب أن تتمثل لدينا فى دقة تامة ، الحالة العامة للتفكير ، وعادات العصر الذى ينتمون إليه لأنهم يرتبطون ارتباطاً وثيقاً بهذه الملابس ، و« يتحدد العمل الفنى بمجموعة ملابس ، هى الحالة العامة للتفكير والعادات المحيطة » (١٨) .

وهكذا أخرجت اليونان فن النحت ، لأنها بلاد حرب ورياضة تعودت
منظر الأبطال العراة ، ولأنها أحبت جمال الأجسام . والكاتدرائيات
القوطية - كما يحدث في الصلاة - ترتفع نحو السماء ، لأنها بالضرورة
نتاج « لعصر القسس الفرسان » ، و« التراجيديا الكلاسيكية » تصوير جميل
للعالم الكبير حيث يحدد كل شئ مقدما ، وينظم وينسق كما كان يحدث في
القصور . . ولا يمكن أن تكتب أو تمثل هذه التراجيديا إلا لجمهور من
السادة ورجال القصور . والرومانتيكية بما فيها من عواطف غامضة وقلق
وأهداف نحو اللانهاية تنبع نبعا طبيعيا من تهاون في النظم وتحطم
الإطارات الاجتماعية والمعنوية الذي يشكو منه بوجه خاص شباب ثرى
عاطل .

مع هذا فالحالة العامة للروح والعادات ترجع إلى عوامل أخرى ،
و « تين » إذ يوضح نظريته يصدر القانون الشهير القائل بأن « ثلاثة أسباب
تعاون في إيجاد الحالة المعنوية الأولية : الجنس والبيئة والعصر » (١٩) .
والجنس هو الحقيقة العضوية الموروثة ، أى الاستعدادات الطبيعية الموروثة
التي يأتى بها الإنسان معه ، تلك التي تؤثر في آن واحد في العادات وفي
الفنون . انظر فن التصوير الفلمنكى ، تجد الوجوه النضرة الملوثة ، وحفلات
الربيع والأعياد ، كلها دليل على أن الجنس « دموى » يحب التمتع بملذات
الحياة وممارسة السهل من هذه الملذات ، بدلا من الميل إلى التفكير في الفلسفة
والأحزان . أما بالنسبة للبيئة فهي الحقيقة الجغرافية الاقتصادية والثقافية
فالمناخ الجاف والسماء الصافية المضيئة في إقليم توسكانيا ، والأناقة الناعمة
في التصرفات تضاف إلى حدة العواطف وحب المعرفة الثقافية ، وحب
الحرية ، وتوضح كلها روح الشباب والرشاقة الحركية وحدة الدقة ، التي
نعجب بها لدى مصورى ومثالى فلورنسا « الكواتروشنتو » . وأما العصر
فهو الربط التاريخي والسياسي . وفي الفنون الجميلة يؤثر الماضى في الحاضر

كما هو الشأن في كل شيء ، كما يؤثر الحاضر فيما يراد أن يكون مستقبلا ،
لإذ من المستحيل أن يجرى التصوير والكتابة والبناء بعد عصر النهضة كما
كان يحدث قبله ، أو في عصر لويس كما حدث أيام الحروب الدينية ، أو في
روما أيام مجمع الثلاثين الديني كما حدث أيام يوليوس الثاني .

هذه هي التأثيرات الرئيسية التي تسيطر على مولد العمل الفني ووحى
الفنان ، وحتى أكثر العبقريات ذاتية يصبح الناتج البسيط لهذه العوامل
اللاشخصية الثلاثة . وليس الأمر هنا ، كما هي الحال في كل شيء . إلا مسألة
ميكانكية : الحاصل النهائي عبارة عن مركب يحدده كله كبر واتجاه القوى
التي تنتجها ، (٢٠) .

وتساءل : ألا يمكن أن يكون أحد الأسباب الثلاثة التي عددها «تين»
أساسيا ؟ إن «تين» لا يؤكد هذا بوضوح ، لكن هذه الصفة الأساسية
موجودة في منطق نظريته ، ووجودها يتفق والفروض المادية التي تسيطر
على فكرته ، وإذا نظرنا فيها عن قرب ، للاحتظنا في الواقع أن السبب
الأول — وهو الجنس — يعتمد على الثاني ، أي البيئة ، باعتبارها مجموع
الظروف الجغرافية والمناخية . فالهواء والغذاء هما اللذان يشكلان الجسم
على مدى الزمن ، والمناخ ودرجته وتغيراته المتناقضة تنتج الإدراكات
العادية ، وفي النهاية تنتج الحساسية النهائية ، وهنا يظهر الإنسان كله ،
روحا وجسداً ، بحيث يأخذ الإنسان كله طابع التربة والسما ويحتفظ به .
وهكذا ينتج العقل الطبيعة مرة أخرى ، وتصبح الموضوعات والشعر الآتيان
من الخارج ، صورا وشعرا نابعة من الداخل . والشئ الذي يعلل صفات
الروح « الغالية » (الجولواز) وهي تنصف بدائها للبالغة القياسية ، وبعدم
ميلها كثيرا إلى التصديق بسهولة . وإلى العواطف الجارفة والحاسة ، بتصوير
الريف الفرنسي حيث « كل شيء متوسط ومعتدل » ، له قدرة « التأثير أحيانا
دون أن يبعث النشوة أو الإجهاد » (٢١) .

وتنطبق نفس الفكرة فيما يتعلق بالأدب الإنجليزي ؛ «فالفرق العميق الذى يتضح بين الأجناس الجرمانية من جهة والأجناس الإغريقية واللاتينية من جهة ، يأتى فى أغلبه من الفرق بين المناطق التى نشأت فيها» (٢٢) . وأخيراً ، تتضح النظرية بشكل أدق حيث يتحدث «تين» عن هولندا ويقول : « يمكن القول بأن المياه تصنع العشب فى هذه البلاد ، العشب الذى يصنع الدواب ، التى تصنع بدورها الجبن . . وكل هذه الأشياء فى مجموعها تشترك مع « البيرة » فى صنع المواطن » (٢٣) . وإذا فرضنا فى نهاية الأمر أن المواطن يمارس فن التصوير ، نجد أن هذا التصوير يأتى بوضوح تام نتيجة للمياه وهو المطلوب إثباته ١١

قد لا يكون من المستطاع السير إلى أبعد من ذلك فى تطبيق الطريقة التبسيطية . والمادية الماركسية نفسها أكثر تنوعاً فى التطبيقات ، إن لم يكن فى المبادئ . والمعروف أن الظواهر الأيديولوجية تخضع فى نظر ماركس إلى البناء الاجتماعى الذى يعتمد بدوره على وسيلة الإنتاج . ويقول إنجلز هنا : « إن أفكار الطبيعة السائدة هى بعينها الأفكار السائدة فى كل عصر ، وبتعبير آخر فإن الطبقة التى تهيمن على المادية للمجتمع هى كذلك القوة الروحية المسيطرة ، والطبقة التى تمتلك وسائل الإنتاج المادى تمتلك لنفس العلة وسائل الإنتاج الثقافى » (٢٤) ، ولا يمكن إلا أن نشتم الأعمال الفنية من خلالها ، وحكمها حكم المذاهب السياسية والأخلاقية والدينية ، نجدها تعبر عن حالة معينة للمجتمع ، ثم تعبر فى نهاية الأمر عن حالة معينة للحقيقة الاقتصادية .

ولا شك فى أن كتاب الماركسية يتجنبون المبالغات المفضوحة ، فليوناردو دافينشى مثلاً لا يمكن فهمه لحسب من خلال أبهة القصور ، ولا شكسبير من خلال التجارة الإنجليزية فى القرن السادس عشر ، ولا فولتير وديدرو من خلال الثورة الصناعية فى القرن الثامن عشر . ويمكن هنا قبول

فكرة « المصادفة » ، في مجال البحث في العبقرية ، ولكن ما الرجل العبقرى إلا صدئ وانعكاس ، فهو يتميز قبل كل شيء بقدرة جبارة على أن يأخذ في اعتباره تماما الناحية الاجتماعية . لكن إذا فرضنا أن روفائيل وميكل انجلو قد ماتا في المهد ، لظل الاتجاه العام للفن الإيطالى كما هو . وإذا كان الدور الذى يلعبه الفنان هو إبداع نماذج ما ، فإن هذه النماذج تمثل « الأمانى والاحتياجات الاجتماعية والروحية لعصره » (٢٥) وما كان لآراء باسكال أوتراجيديا راسين أن تكون ، وما كان لها أن تتخذ نفس الشكل الذى اتخذته ونفس المادة التى طرقها فى إطار تاريخى وسياسى واقتصادى واجتماعى آخر .

ومها يكن طموح هذه النظرية، فإنها — هكذا يتضح عند فحصها — مخيبة للآمال. وليس الأمر أن ننكر تأثير البيئة فى الفن والفنان، بل إن رد الفعل الذى قد يحدث ضدها يعنى تحمل ضغطها ، لكن فكرة البيئة هذه من أعقـد الأفكار أولا ، فها دام كل منا ينتمى إلى مجتمعات عدة ، منها الأسرة والنادى والنقابة والكنيسة والوطن ، فنحن نشترك فى عدة بيئات لا يكون تأثيرها دائما فعالا . ثم إننا نلاحظ أنه عند وجود بيئة واسعة لحد ما ، تأتى آراء عكسية أو متعارضة فيما بينها لتقف فى وجه أكثر الآراء انتشارا . فالعقلية التى تتوزع توزعا متساويا ، دون قيود أو تعويضات بين أفراد مجموعة ما ، عقلية لا وجود لها . وهكذا تصبح الحالة العامة للتفكير والعادات شيئا من قبيل الخرافة .

• انظر . جولدمان : الله المختفى ؛ حيث يكتشف المؤلف فى القرن السابع عشر « الرؤية المأساوية » وهى ذات طبيعة ثوقراطية « مستمدة من السلطان الإلهى » ونابعة من الكتاب المقدس — تمارس روح التوافق مع السالم الذى لا يمكن فيه إلا بربطه بالأسس العينية وبالرجوع إلى كل تاريخى محدد .

وحتى أكثر الجماعات تنظيماً ليست مناسباً ، فعصر بناء الكاتدرائيات الذي يصفه لنا البعض بأنه منصرف كله إلى الصوفية ، عرف تياراً قوياً من الفكر العلماني .

والكلاسيكية الفرنسية لم تكن كلها دينية، ورغم ما يقول فيرلين — وهذه الفرقة الضخمة من المفكرين المعتدلين ومن الرسميين في عصر الكلاسيكية هذا لم تتمكن إطلاقاً من إسكات النفر الضئيل من الخلقاء و« الملحنين » وقد كان اثنان من أكبر مفكري هذا العصر يميلان نحوهم ميلاً طبيعياً ، نقصد مولير ولافونتين . وكانت الكاثوليكية نفسها في عصر لويس الرابع عشر مقسمة إلى اتجاهات متنافسة، منها بوسويه وفينلون في ناحية، واليسوعيون الأوغسطينيون في ناحية أخرى . بهذا يكون من باب أولى القول بأن جيل عام ١٨٣٠ كان حزينا أمر قصد به تبسيط الأمور بدرجة مبالغ فيها . كما أن الاتجاهات المنطقية والموضوعية واللا دينية لم تسيطر على جيل عام ١٨٨٠ سيطرة كاملة ، وخاصة أن باري دور فيلي وبلوى وهو يسمانس قد افتتحوا خلاله عهد تجديد في الأدب الكاثوليكي .

غير أنه إذا لم يكن صحيحاً أنه توجد روح جماعية حقاً ، فإن هناك عادات سائدة واتجاهات أكثر وضوحاً وعناصر أكثر بروزاً من غيرها تميز بيئة ما أو عصر ما ، تدل على هذا الأمثلة التي سردناها حالا . والسؤال الآن هو : هل يصبح الفن دائماً انعكاساً لها . لا .. لأن العلاقات التي يحتفظ بها الفن بينه وبين المجتمع ليست مستمرة دائمة ، وهي لا تسير في اتجاه واحد ، فأحياناً تقوم هذه العلاقات بتصوير الحياة المحيطة لدرجة تكاد معها أن تصبح ازدواجا لها، وأحياناً أخرى تكون بمثابة رد فعل لها ، أو على الأقل ، تنمو على هامشها لتحاول إسقاطها في طي النسيان . أليس الفن في

إحدى نواحيه لعبة طليقة تضطربنا إلى الهروب من الواقع؟ إنه هو الذى ينسينا المشاغل الجدية ويقدم لنا سرايا وعزاء . فالسارد البائس الذى يعبر المقاهى العربية ليسرد فيها مقطوعات من ألف ليلة وليلة لا يقدم للمستمعين إليه ما يحذونه فى حياتهم اليومية ، بل على العكس من ذلك ، يقدم لهم ما يحتاجون إليه ، ويقدم هذا على شكل حلم أضنى عليه حليمة ما ، وهذا هو ما يحدث غالباً ، ففن التصوير المولندى العظيم فى القرن السابع عشر لا يبحث إلا عن صور هادئة من مناظر الطبيعة ومناظر من داخل البيوت أو عن صور الأفراد والأزياء والفنون الزخرفية والأدبية ، وكانت تعتبر تافهة لدرجة ملحوظة فى فرنسا خلال فترة الحروب المستمرة التى كان عصر الإدارة (بعد الثورة) مسرحاً لها . هذا إذن نتاج الأجيال التى لم تتوقف يوماً من الأيام — إن صح التعبير وكما يقول فرومشتان — عن سماع صوت المدافع (٢٦) .

بل يحدث أن تعمل الأعمال الفنية على تحويل العادات ، بدلاً من أن تنقلها كما هى ، فليس كل شيء بخاطئء فى التناقض الذى يقدمه أوسكار وايلد ، الذى يرى أن الأدب يعلم الحياة أكثر من أن يتلقى عنها المعلومات . فسرحية فرتز لجوته تسببت فى انتشار وباء الانتحار ، وكَم من أشخاص تشبه بودلير ورمبو . لا يمكن أن يكون بودلير ورمبو نفساهما مسئولين عنهم؟ ولقد لوحظ أن التصوف الغرامى للمغنين التروفيروالتروبادور فى العصور الوسطى ، والميسينجر يتفق تماماً وحالة البربرية لعادات الإقطاع فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، ولا بد أن نضيف هنا أن هذا التصوف لم يكن عديم الأثر فى تخفيف حدة خشوتهم . ونفس الشيء يقال عن أغاني الرعاة من أمثال استريه والأغاني الغرامية التى كانت تسود حلقات المتحذلقات ، تلك الأغاني التى إن لم تكن تصور مجتمعاً منتظماً تنظيمياً سياسياً إلا بقدر محدود يتفق والعصر الذى عاشت فيه ، فإنها لم تكن بلا أثر . والدور الثقافى الذى لعبه صالون مدام

دى رامبويه لا يمكن هنا إنكاره (٢٧) . واليوم ، لاشك في أن كلا من المسرح والسبينا يعبران عن قلق فترة ما بعد الحرب ، ولكن هل مما لامعنى له أن نفترض أن من ضمن آثارهما الإبقاء على هذا القلق ، وإيرازه ، بل إلى إبداعه إلى حد ما .

إن استقلال الفن هذا عن هذه العادات أمر يبدو أكثر وضوحاً حين يتعلق الأمر بالقوانين السياسية والمظاهر الاقتصادية . فطالما احتضن الأمراء الفنانين . . لكنهم طالما تجاهلهم واضطهدهم أيضاً . والحركات الأدبية تساعد أحياناً على سير التطورات الاجتماعية كما حدث في فرنسا في القرن الثامن عشر وأحياناً أخرى تكون عبارة عن اتجاهات رجعية أو محافظة ، فقد كانت الكوميديا الأثينية أرستقراطية . وكانت الرومانتيكية الفرنسية الأولى تدعو للشرعية . وعلى العكس من ذلك ، يحدث أن تتبع ثورة فنية من ثورة سياسية . وهو جويسن قانوناً يقول بمساواة الأنواع الأدبية وأخوة الكلمات . ويعتقد في ضرورة إلbas القاموس طاقية حراء ، لكن مدرسة عام ١٨٣٠ لا تمت إلى «التصريح بحقوق الإنسان» إلا بصله بعيدة . وهكذا يصبح من الصحيح القول بأن الرومانتيكيين لم يكونوا جمهوريين ، وأن أكثر الجمهوريين

* يصدق هذا على « ميناندر » أقل مما يصدق على « أريستوفان » . فالكوميديا الجديدة تعمل على مساندة رأينا . وهذا رأى المتخصصين في هذه الناحية : بلوح أن موضوع كوميديات ميناندر كان في أغلب الأحيان المحب الذي تصادفه العقبات ، حيث بهم شاب مثلاً بفتاة أجنبية ذات أصل غير معروف ، ويريد أبوه أن يرغمه على الزواج بفتاة أخرى ، لكنه يكتشف فجأة أن الفتاة مواطنة له ومن مولد حرة ، فبعد أن عرضها على والداه نجدها وقد عرفها من خلال جواهر كانت تزدان بها في طفولتها ، وكانت لا تزال تحتفظ بها . فهل كانت الحياة في أثينا في القرن الرابع تقدم أمثلة كثيرة فيها مثل هذا الشيء أو هذا الموقف ؟ هذا أمر مشكوك فيه جداً ، ولا يبقى أن نحكم على شعب من خلال مسرحية هزلية ، والمؤلفون بأخذون موضوعاتهم ، لا من أكثر المواقف شيوعاً في الحياة المعاصرة ؛ بل من تلك التي تستجيب أكثر من غيرها مع عاطفة خاصة للجمهور عصرهم .

تحمساً لم يكونوا رومانتيكين لأنهم كانوا يدافعون عن الكلاسيكية المتدهورة . وهاك فضيحة زولا الذى كان يؤمن بضرورة إيجاد العلاقة بين الحركة الطبيعية فى الأدب وبين الديمقراطية ، حيث كتب قصصه فى عصر الإمبراطورية الثانية ..

ولست الظروف الاقتصادية بدورها محددة لشيء . فالصيادون البدائيون غالباً ما كان لديهم شعور جمالى نام لدرجة كبيرة ، على الأقل بما هو بلاستيكي ملموس . ويقل هذا الشعور عندما تنتقل للبحث فيه فى مرحلة الزراعة ، وهى أرفع كثيراً من مرحلة البدائية . وقد وصلت هولندا وفينيسيا إلى قمة الاتجاهات الفنية عندما وصلت تجارتها كذلك إلى القمة . لكن دولاً كثيرة أخرى أدركت الثراء دون أن تدرك الفن ، بل حتى دون أن تشتري الأعمال الفنية ، (٢٨) . كذلك لا يمكن أن ننسب تطور الأذواق والأساليب إلى الطبقات ذات السيادة . ولا شك أن الحركة الواقعية تظهر غالباً كما لو كانت ترتبط بصعود البورجوازية . ولنذكر هاهنا روما الإمبراطورية التى انتشر فيها فن نحت التماثيل وصور الأفراد . ولنذكر أيضاً الفلاندر فى القرن الخامس عشر . وهولندا فى القرن السابع عشر ، وأوروبا الصناعية فى القرن التاسع عشر ، ولكن واقعية فن تل العمارنة فى مصر ، وواقعية أسلوب اليونان الهلننى لاتنفقان وهذه القاعدة . وفى إيطاليا انحازت البورجوازية فى أغلب الأحيان إلى صفوف علم الجمال ، المثالى ، الذى مارسه فنانونها . وفى عصر أقرب إلينا ، نلاحظ أن آنجر ، وديلاكروا ، وهما من البورجوازيين ، يمثتان الواقعية ، فى حين أن الواقعى ، كورييه ، يمثت البورجوازية . وفن التصوير الشاعرى المعبر عن ذات ، الذى يصيب الواقعية بالضربات الأولى التى سوف تقتلها ينشأ فى صميم عصر رأسمالى عارم ، كما أن الشيوعية السوفيتية ، هادمة النظام الرأسمالى ، تجعل من الواقعية مذهباً للدولة .

وأخيراً ، وبوجه خاص فإن تين وماركس كلاهما بنفس قدر الآخر هزيلان في فهم أوافهام الأساس في هذا ، ألا وهو حقيقة العبقريّة والحقيقة التي تنبع منها ، نقصد العمل الفني الرئيسي . فأساطير لافونتين تفهم ، هكذا يقال لنا ، من خلال طبيعة إقليم شامبانيا موطن المؤلف ، ومن خلال حياته التي حياها ، ومن خلال العادات الثقافية والأخلاقية والمعنوية للمجتمع الذي عاش فيه . لكن كم لدينا من أهل إقليم شامبانيا ممن كان زواجهم غير موفق أو كانوا أذكاء أو مثقفين أو ساخرين أو طيبين جهلاء ، أو ممن ترددوا على المجتمعات الراقية ؟ كم منهم يشبه لافونتين قدر شبهه بأشقائه ولم يكتبوا إلا تفاهات ؟ ويقال لنا إن الأدب الانجليزي هو نتاج الجنس الانجليزي في مناخ معين وفي ظروف تاريخية معينة ، ووسط ظروف سياسية دينية معينة ، وأن شكسبير ماهو إلا « نتيجة » لهذه الملابسات كلها . ومع ذلك فإن المشكلة تظل قائمة كما هي ، وكل ما خلق شكسبير يمكن أن يخلق « شكسبيراً » عادياً أو شكسبيراً قوياً . . على أنه إذا أمكن تحديد الأدب العادي ، فإن من المستحيل أن نحدد عظمة الأديب .

لا شك أن الطريقة طريقة مفيدة ، من حيث إنها توضح بعض نواحي العمل الفني ، لكنها أيضاً طريقة فاشلة حين نفكر في الأمر الذي يجعل من العمل الفني عملاً رئيسياً . وتفسر هذه النظرية « برادون » و « راسين » بل إنها تفسر - وأنا أوافق على هذا - السبب الذي من أجله وضع راسين ، الهليني ، الجزويتي الأوغسطيني في أعماله مالم يضعه « برادون » ، الجاهل الرقيق في أعماله هو . لكن من أين يأتي الفرق في القوى بين كليهما ؟ ومن أين يأتي الفرق في الطاقة الجبارة في عقل كليهما ؟ ومن أين هذا الفارق في جمالية أعمالهما ؟ لماذا لا يتساوى مستوى كليهما ؟ هناك إذاً فائض لا ينشر ، يجب استخلاصه استخلاصاً نقدياً سليماً إن لزم ذلك . (٢٩) .

المدرسي والأساليب والأنواع

هذا الفائض الذى نتحدث عنه لم يحدده علم الجمال الاجتماعى، كما يفهمه الأستاذ «لالو»، حيث يرى هذا الكاتب فى وضوح نواحي الضعف فى مذهبى «تين» و«ماركس»، وقد أثبت فى دقة تامة — ولا نستطيع فى هذا إلا أن نتبعه — أن الفن حقيقة قائمة بذاتها، وأن الأحداث الفنية لا ترتبط بالأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلا بشكل عابر، وأن الحياة السياسية والحياة الجمالية قوتان متعارضتان. ومع أنهما تعملان عادة إيجابيا وسلبيا فى طريقين مختلفين أصلا، فإنهما غالبا ما تتعارضان فى تطورهما .. ولا ينبغي أن تبحث القوانين الجوهرية للفن خارجه (٣٠).

ورغم هذا فإن هذه القوانين — هكذا يؤكد الأستاذ «لالو» — ذات طبيعة جماعية. فالواقع أن هناك «ملابسات جمالية للفن، غريبة عن الفن نفسه، تؤثر فيه من الخارج كما تفعل العادات والقوانين والعقائد»، وهى التى تتحكم فى نشاطاته الخاصة وفى نموه الداخلى. هذه الملابس الاجتماعية الجمالية المحددة تفرض نفسها على الأفراد.

ما هو الفن، حقيقة، باعتباره مؤديا لأعمال فنية، بل لطريقة فنية، أعنى وسيلة للتفكير، ووسيلة للتنفيذ فى وقت واحد، أو أداة للتفهم والتنفيذ، وبمجموعة من وسائل التعبير المادية والعقلية؟ إن الطرق الفنية لا تنبع من الأهواء الفردية، بل إن وجودها جماعى، يمتلكها الفنانون التابعون لمجموعة واحدة امتلاكاً مشتركاً، ويقرها جمهور فى عصر معين وفى بلد معين.

والأساليب والمدارس والأنواع أحسن دليل على هذا التنظيم الاجتماعى للفن، ولا بد هنا أيضا أن نتعرف قوانين حقيقة تنطوى شخصية كل فنان

على حدة تخطيطيا واسعا في الزمان والمكان ، والفن في عصرى النهضة ،
أو الرومانتيكية ، والأساليب البيزنطية والقوطية والباروك (المختلطة) ،
والمدارس السيينية (فى مقاطعة جاسكونيا بإيطاليا) أو اليورجينيونية
أو الشمينيونية أو الرنيانية ، ونضج شعر البطولة فى القرنين الثانى عشر
والثالث عشر ، ونمو أدب القصة فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، كل هذا
ليس من عمل فرد ، ولا حتى من عمل عدد معين من الأفراد . ومهما تكن
عبقريّة الشاعر أو النحات أو المصور ، فإنه يدخل فى إطار تقليد معين . ويصل
إلى عالم الفن فى لحظة معينة للشعر أو للنحت أو للتصوير ، يعتمد موضوعاته
ولغته ووسائله ، وحتى نظراته إلى الأشياء ، وفيما عدا هذا الإطار وذلك
العالم لن يكون ما هو كائن . فما كان لأحد أن يفهم رامبراندت قبل ظهور فن
التصوير بالزيت واختراع الضوء - الظل ، وما كان لفرلين أن يصبح هو -
فرلين - قبل عصره بمائة عام ، ما دامت حالة التعبير وطريقة الشعور
الشاعرى لم تكن تسمح إذ ذاك بهذا .

والصفة الاجتماعية للفن - هكذا يضيف الأستاذ « لالو » - تتميز
بالجزاء الاجتماعى ، الذى يحميه ، وهو جزاء بعضه متفرق ، وبعضه منظم ،
فهناك قوانين جمالية ، كما أن هناك لعلم الأخلاق مثلا قوانين جماعية ، وهناك
فهم معين للجمال فى كل عصر وفى كل بيئة ، مثل أعلى كحقيقة تفرض
نفسها على كل العقول ، لها صفة الفضيلة الآمرة ، وتصبح الأعمال التى تحقق
هذا المثل أو تقترب منه موضع التقدير . أما تلك التى لا تستجيب إليه ، فإنها
تصبح موضع التأنيب . وهكذا يعرف المؤلف النجاح أو الفشل ، والإعجاب
أو الاستهزاء ، والمجد أو الاحتقار .

ومثل هذه الجزاءات لا تخيب فى إصابة هدفها . فالفنان يعمل دائما
مباشرة أو غير مباشرة ، من أجل الجمهور . وحتى حين يعتقد أنه يعمل
من أجل إرضاء نفسه فحسب ، دون أن يخضع إلا للحاجة داخلية فى ذاته ،
ودون أن يترك نفسه لشيء آخر غير قواعد الكمال الفنى كما يراها ، فإنه يأخذ

في اعتباره إعجاب وقبول أشباهه من الناس لعمله هو . وإذا هو احتقر الجماهير ، فهو على الأقل يفكر في نخبة ما . . . القلة السعيدة التي قدم إليها ستاندال قصة « شارتريز دي بارم » ، والتي يأمل أن تكون على أوسع نطاق ممكن . . . اللهم إلا إذا وجه ندائه — واليأس يملؤه — إلى جمهور المستقبل ، إلى الأجيال القادمة لتوفيه حقه . وعلى أية حال فهو يوجه عمله مهما يكن من أمر إلى الجماعة . . . ومن أجلها يبدع عمله ، وحكمها هو الذي يبحث عنه .

والفن في تطوره يخضع لقوانين باطنية ، من أهمها ذلك الذي يعبر عنه الأستاذ « لالو » بقانون الحالات الجمالية الثلاث . كل شكل من أشكال الفن : الأسلوب أو النوع أو طريقة التنفيذ الفني يمر بمراحل ثلاث تقابل تماما تلك التي يمر بها جسد حي : الشباب ، والنضج ، والانهايار ، وهي « الفترات قبل الكلاسيكية ، والكلاسيكية ، وبعد الكلاسيكية » . وإذا ما نما هذا النظام الثلاثي نموا كاملا — ولا يحدث هذا إلا نادرا — فإنه يستطيع بدوره أن ينقسم إلى ست مراحل ، كما ثبت هذا تاريخ الأدب الفرنسي . والبداييون الذين كتبوا أغاني العصور الوسطى ، يضاف إليهم « الرواد » من عصر النهضة يلاؤن عصر ما قبل الكلاسيكية بخبرتهم الأولى . وأحيانا ما تكون هذه الخبرة غنية أو بدائية ، ولكنهم لم يصلوا إلى التناسق المكتمل إلا في العصر الكلاسيكي التالي لعصرهم . أما الكلاسيكيون العظماء من الفرنسيين فهم الذين صنعوا مجد القرن السابع عشر بنوقهم المستدير ، وبنقاء وسائلهم الفنية في التنفيذ ، وبطريقتهم في فصل الأنواع الأدبية بعضها عن البعض فصلا منطقيا . وقد نشأ عن الهبة الطويلة التي تمتعت بها عبقرتهم جيل من ناقلين حكما ، لكنهم كانوا ضعفاء ، وتلاميذ طيبين أو على جانب من الرداءة ، شكلوا مدارس أصبحت في غالبيتها أكاديمية ، وهذه هي مرحلة ما بعد الكلاسيكية ، في القرن الثامن عشر . وما إن استنفد هذا الباقي ذاته

حيويته الهزيلة إلى حد ما ، حتى جاء رد الفعل الرومانتيكي ، باندفاعه العاطفي الذي اتصف أغلب ما اتصف بالإثارة . وأخيراً فإن نهاية عصر ما بعد الكلاسيكية هي مرحلة الانهيار التي تتميز بخليط مختلط من الواقعية والرمزية . ويلوح أن دورة الحالات الثلاث ، والمراحل الست هذه قد انتهت اليوم ، وما على المدارس الناشئة اليوم بلا شك — لكي تعيش — إلا أن تحاول بدء دورة جديدة من التطور ، بناء على أسس جديدة ، أي ما عليها إلا أن تعدل من النظريات الرئيسية القديمة للشعر والتشكيل ، بل ولغة الفرنسية (٣١) .

هذه النظرية التي سردناها حالا تضم فكرة يحسن الوقوف عندها ؛ ذلك أن الفن يتولد من الفن ، والقوى التي تؤثر فيه يجب البحث عنها فيه هو . وفي تاريخ الموسيقى ، يرجع الانتقال من النغم الواحد إلى النغم المتعدد أو من رقصات القصور إلى السوناتا ، أو من التناسق الكلاسيكي ومن مجموع النغم الهادى الذى لعبه ج.س. باخ إلى الأنغام المتعددة المختلطة المعاصرة . يرجع هذا كله أساسا إلى تقدم الفنية الموسيقية وإلى البحوث الموسيقية ، وتلعب التأثيرات الخارجية هنا دوراً ثانوياً ، فهي تساعد ، على أكثر تقدير ، على ظهور الأساليب ونموها الطبيعي ، إن لم تكن تتعارض وإياها .

والشريط المسطح في فن المعمار الإغريق ، والقبّة في الرومانى ، وتقابل الأقباس في الأبراج ، كلها من قبيل الاختراع الفنى ، أكثر من كونها نتاج الضمير الدينى . وقد قيل عن تقابل الأقباس بالذات إنه « اكتشاف البنائين » . وفي عصور فن البناء القوطى لا توجد أى علاقة بين التخمس « التصوفى » الصاعد ، وبين استخدام القباب ، وتخفيف الأعمدة ، وتفريغ الجدران ، وكلها مارسها بقوة وإلى أقصى حدود الإمكان أساتذة البناء . حتى إنه يمكن القول بأن من العسير إرجاع كل هذا إلى التصوفية ، بدليل أن نفس العناصر موجودة في القبور ، وأنها تنبع من استغلال مذهب معين استغلالاً

منظما. ونفس الشيء يقال عن فن التصوير الإيطالي ، إذ أن تطوره على أكبر جانب من الأهمية في شرح فن فينيسيا (البندقية) أكثر منه في شرح الثروة التجارية لفينيسيا ، فالفن الإيطالي كان يمكن أن يظهر بشكل مقارب في فينيسيا أخرى ، أقل ثروة من فينيسيا الأصلية ، في حين أن ذهب فينيسيا كله ما كان ليساعد على تحصيل فائدة القرون الثلاثة السابقة لفن التصوير في باقى إيطاليا . بهذا يصبح الأستاذ لالو ، على حق ؛ ذلك أنه إذا كان الفن يخضع لشروط ما ، فإن هذه الشروط جمالية قبل كل شيء .

والنقاط الأخرى من النظرية — على عكس ذلك — أقل انطباقا في نظرنا على الواقع . فقانون «الحالات الجمالية الثلاث» لا يمكن أن يتحقق دائما ، إذ لا شك أن «للأشكال حياة» . وقد لاحظ ديلاكروا أن «للفنون طفولة ورجولة وأفولا» (٣٢) لكن تاريخ الفنون كتاريخ الإنسانية ، يقبل قراءات عديدة ، ويمكن من خلاله أن تبين أكثر من عدة خطوط بيانية صاعدة وهابطة ، أو سلسلة غير متتالية من حالات تجديدية يظهر فيها ، وهنا يمكن أن تختفي التجميعات القديمة لتحل محلها تحليلات جديدة ليس من الضروري أن تكون بالنسبة للأولى تقدما أو ترجعا .

وعيب الرسم الدورى (في نظرية لالو) هو أنه يوحى بأحكام للقيم ترتبط بفهم خاص جدا للفن . «فالكلاسيكى» حين ينشأ على صورة مثل أعلى من الكمال ، يعنى أن ما سبقه أو يتلوه أو ما يتعد عنه لا يمثل إلا تحسسات بدائية أو فساداً رومانتيكياً ، أو غرائب يقدمها الهدامون ، وهذا ما لا نستطيع أن نقره ، لأن شكسبير في نوع أدبه يساوى ولا شك راسين ، وأغنية رولان بطريقتهما تعادل في كمالها مسرحية «سينا» وفيون وربليه ورونسار كلهم شعراء جديرون بالإعجاب ، وليسوا روادا فحسب . ألا يعتبر الفن الرومانى ، الذى أنتج أنقى العجائب إلا صورة أولى للفن القوطى ، مع أنه ذو أسلوب يختلف عن أسلوب القوطية ؟ أولا تعتبر «غادة ديلف» ، رغم أنها عتيقة ،

معادلة في جمالها لتمثال « أبولون السوروكتوني » ؟ ثم إن لوحة للعدراء يرسمها بدائي سيني (إيطالي من كوسطانيا) ليست أقل جمالا من « العدراء مع الدوق الأكبر » . وإذا حدث أن أخطأنا في الحكم بهذه الطريقة ، فذلك لأننا نحكم بناء على التشابه ، وبناء على الرغبة في إعادة تصوير الطبيعة ، وفي هذا « لاجمالية محايدة » ، كما سوف نثبت حالا ، وسيوافق الأستاذ « لالو » على رأينا في هذا .

والأفكار القائلة بأن هذا كلاسيكي ، أو رومانتيسي ، أو « أقل هدام » ليست بأقل غموضا . أليست رومانتيسكية اليوم غالبا ما تكون هي كلاسيكية الغد ؟ ومن من المبدعين ذوى الأصالة لم ينعت بأنه هدام ؟ بودلير مثلا ؟ مع ذلك فهو هدام بنسبة ضئيلة جدا ، ورغم ما يتخذه عمله من مظهر هادم ، فإن الشعر الحديث كله يبدأ من ديوانه : « أزهار الشر » .

والعلاقات بين المؤلف والجمهور ليست كذلك بالبساطة التي يوحى بها عالم الاجتماع « لالو » . وطبيعي ألا يكون الفنان وهو هكذا ، غير مبال بالشهرة ، بل حتى بالمال . . . على أنه أيضا لا يبدو وكأنه لا يشعر بالآثر الذي يمارسه . فهناك في أكثر الأدباء حياء ، بل وأكثرهم ابتعادا ، نوع من التحول أو الردة . والأديب الذي لا ينتج إلا لنفسه ، ودون أن يأمل في التأثير على النفوس ، أو على الأقل الترويح عنها ، مجنون حتما . ولهذا نرى بعض الفنانين يعدمون عملا أو أكثر من أعمالهم ، لأن هذه الأعمال لم تكن تعجبهم . لكننا لم نر واحدا قد أعدم أعماله كلها ، دون أن ينقلها إلى الناس (*) .

هل ينجم عن هذا أن يعمل المبدع أولا وآخر للجمهور ؟ وأن الجزاء

(*) دفع د.ج . روسبتي بحبه لامرأة لدرجة أنه وضع مخطوطات أشعاره في تابوتها . لكنه اضطر بعد سبعة أعوام أن يبعد فتح القبر ليستعيدھا !!

الاجتماعى هو الذى يحدد وحده إنتاجه؟ أبدا.. فالنجاح أو الفشل ، والفقر أو الثراء ، يقيان بالنسبة لفنان جدير بهذا اللقب ، بمثابة حادث ثانوى ، لأنه يخضع لعوامل أخرى غير المثل الجمالى للجماعة ، وكل شىء يحدث كما لو كان — كما هو الشأن بالنسبة لرجل الواجب — ينتقل من قوانين مكتوبة إلى قوانين غير مكتوبة يتفق عليه أساسا أن يخلص لها ، فإذا أعجب الجمهور بعمله ، كان بها ، وإن لم يحدث هذا كان بها ، وبإسوء حظه !!

والذى يحدث أنه عندما يسير الجمهور قدما مع الفن الحى لعصر ما — الأمر الذى يشتد ندرة الآن يوما بعد يوم — فإن الفنان يسير قدما كذلك ، يشجعه التصفيق ، دون أن ينحرف عن طريقه قيد شعرة
وكم يحدث دائما مع ذلك أن يضطر فنان ما إلى مقاومة ضغط الجماعة والتعرض إلى غضبها وإلى احتقارها إياه ، لى يتبع وحيه الشخصى .
يا لها من مهانة لفنانه إن هو كيّف نفسه بذوق زبائنه وهبط إليه
من شعور لديه بأنه قد ضحى بأحسن مالهديه وقضى على مواهبه . . . لهذا كانوا كثيرين — منذ رامبرانت وإلى موديليانى — أولئك الذين قبلوا تجاهل مواهبهم بدلا من أن يخونوا وحيهم ، وهم يشعرون فى هذا بكثير من المذلة لا لأن الأسلوب الجديد الذى أوجدوه يدوخ نظرات معاصريهم .

والحق يقال إنهم يستطيعون التعويض لأنفسهم . فكما ذكرنا آنفاً ، لا ينتمى الفنان بصفته مبدعا إلى الجماعة التى تتلقى ثقافة ما ، بل إلى تلك التى تصنعها ، حتى ولو كان يحجل ذلك . فالمصور « جويا » يتبع التاريخ بموضوعاته ، ويتنبأ بفضل عبقريته بإحساس أوروبا كلها ، (٣٣) . . حتى يمكن القول بأن الفنان لا يتكيف بالجمهور ، بل إنه يخلق العمل الفنى ، وفى نفس الوقت يخلق جمهوره . والاتفاق بين هذا والجديد فى علم الأخلاق واضح للغاية ، فكما أن نيا أو مصلحا يوجه « نداء البطولة » لكل من

يستطيع الاستماع إليه ، وكما أنه يجند حفنة من تلاميذه الذين يجندون بدورهم تلاميذ آخرين إلى أن تنضم إلى الجماعة كلها ، يستطيع الفنان الكبير عاجلا أو آجلا أن يجمع حلقة من المعجبين تكون كبقعة من الزيت تنتشر تدريجيا إلى أن تضم الجمهور كله في نهاية الأمر . ولم يتمكن سيزان من أن يبيع خلال حياته لوحة واحدة من لوحاته ، واليوم يشتري المعجبون ألقاها في دقيقة واحدة بالملايين . هذا هو المجد . ويلوح أن سيزان الرسام لم يجده في الطرق التي أشار إليها الأستاذ دالو .

هذه الطرق ، في الواقع ، أصبحت اليوم طرقا عريضة للفن ، لكنها كانت بالنسبة للفنانين في الماضي أزقة موحشة طالما جازفوا بحياتهم بالسير فيها . . . وقد يقال إنهم كانوا يسافرون فيها على جماعات . . . وهنا نرد بفكرة المدارس والأساليب والأنواع وهي طبعا حقائق ، وليس من الضروري أن يكون الإنسان خبيرا لكي يرسم جدولا للقرن السابع عشر ، وآخر للثامن عشر ، أو لكي يميز رسما إيطاليا عن رسم فرنسي أو عن رسم ألماني في نفس عصر معين . ويقدم لنا تاريخ الفنون مجموعات طبيعية تشترك في نفس المفاهيم الجمالية ، ونفس الوسائل الفنية ، منها مثلا في إيطاليا المدارس السيينية والفلورنسية والأومبروية والرومانية والفينيسية واللومباردية . .

ومع ذلك فنظرية المدارس لا تتمتع بالتماسك الذي ينسب إليها عادة . وإذا كان من حقنا أن نتحدث عن مدرسة فرنسية في القرن السابع عشر ، فإنه ليس من حقنا أن ننسى أن هذه المدارس تضم مصورين يختلفون بعضهم عن بعض كما هو الشأن بين بوسان والإخوة لوران وكلود جيليه وريجو وفيليب دي شامباني وجورج ديلا تور . والانطباعية التي قد نتصور أنها أكثر تماسكا ليست مدرسة المعنى الصحيح . فالمصورون الانطباعيون قد اتبعوا طرقا متباينة ، رغم الصداقة التي كانت تربطهم ورغم آرائهم المشتركة ،

ورغم العداء الصريح الذى كانوا يمارسونه بعضهم ضد البعض ، والتشابه النسبي الذى كان بينهم فى بادئ الأمر . وهناك فرق كبير جدا بين مونه حين رسم لوحة « النفياس » زهر اللوتس الأبيض ، ورينوار حين رسم لوحة « لافاندير » زهر اللافاندر ، أو سيزان حين رسم « المستحبات » . إذا فرضنا أن سيزان مثل ديجا ، يمكن أن يوضع فى مصاف الانطباعيين ، وهو الأمر الذى يرفضه جميع النقاد . و « مدرسة باريس » الحديثة يمكن أن تكون مصدر بحث شبيه بهذا الذى تقول به عن الانطباعيين . ولهذا فنحن مضطرون أغلب الوقت — لكيلا نبسط الأمور أكثر من اللازم — إلى إجراء تقسيمات فرعية تؤدي فى النهاية إلى الفردية .

وفى مجال الفن — ولا بد أن نتفق فى هذا — يعتبر الفرد أكثر واقعية من الجماعة ، والشخصية تطبع الأعمال بالقدر الصحيح لعبقريتها ، ولهذا فإن أكبر الفنانين يذهبون إلى ما وراء حدود التقسيمات العامة . ولا شك أن ميكل انجلو ينتمى إلى عصر النهضة ، ولكنه هو ميكل أنجلو قبل كل شيء ، كما أن فيكتور هوجو ، هوفماتور هوجو قبل كل شيء ، وماذا يمكن أن نعرف عن رامبراندت عندما نقرأ فى القاموس أنه كان فنانا هولنديا من بين آخرين؟ لهذا يتعرض أكثر الكتاب والمصورين والمثاليين تمثيلا لعصرهم إلى أن يعتبروا أقلهم عظمة وأقلهم أصالة فى عصرهم : فهم بين معاصريهم يتأثرون أكثر ما يتأثرون سلبيا بالاتجاهات الجمالية السائدة ، وهم بهذا يعكسونها بأكثر ما يمكن من أمانة — أليست حالة الذوق حوالى عام ١٩٠٠ ممثلة فى أعمال جيرالدى أكثر منها لدى فاليرى . وفى أعمال جورج أوهنت أكثر منها لدى مارسيل روست ، وفى مسرحيات باتاى أكثر منها فى مسرحية أكلوديل ؟ ويقول الأستاذ لالو إن مفاهيم « تين » تفسر التعميمات الهزيلة أحسن من تفسيرها لفرديات العبقرية ، وهى حقا شاذة فى بيئتها وفى وسط جنسها ، وجديدة فى لحظتها (٣٤) ، وهى ليست بأقل من ذلك فى مدرستها . فالهجوم الذى يقدمه الأستاذ « لالو » ضد « تين » هو أيضا فى نظرنا هجوم على مفاهيمه هو .

ولقد كان «لالو» - وهذا مسلم به - أحجى وأفطن من أن يجهل ما يأتي به الفنان من جديد في فنه . إنه يقول وهو على حق : « إن أقوى تقليد في العصور الوسطى كان نسيجاً من عدد كبير من المواهب الفردية » . فعندما كان يجري تنفيذ سهمين مزدوجين لكاتدرائية ما ، على مدى فترة عشر سنوات فقط بمعرفة اثنين من سادة المهنة يختلفان ، ولا شك يتنافسان ، كان كل سهم يتميز بميزات واضحة وباختلافات مقصودة ؛ إذ أنه في العصور التي كانت تتكون فيها « التقاليد » الشهيرة ، التي أصبح احترامها بمثابة الخرافة . كان التقليد الوحيد هو العيش في فن العصر ، وعدم التفكير أبداً في تقليد نموذج ما تقليداً أعمى .. وإذا كان مبدعو تقليد ما يتصفون بالتقليدية قدر ما تتصف نحن اليوم لما أبدعوا شيئاً . ففي مجال الفنون الصناعية مثلاً كان يمكن أن ينقل القرن الثامن عشر أعمال القرن السابع عشر ، الذي كان يمكن أن يطبع السادس عشر بخاتمه ... فالتقليد الحقيقي لفن حي كما هي الحال بالنسبة لكل جسد ، هو الحياة ، ولهذا يصبح التقليد هو التطور المستمر (٣٥) .

إننا نوافق على ذلك ، ولو أننا نعجب حيث يصبح الأمر كذلك أن يقال إن أعمال الأفراد التلقائية تتجمع في غاية واحدة ، وإن الأعمال الأصلية متفقة و«روح طريقة التنفيذ الفنية القائمة» . فهل تتفق أساليب عصر لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر ولويس السادس عشر والإمبراطورية ..؟ وإذا كانت الوسائل الفنية التنفيذية القائمة تقدم نفس الطابع فكيف يمكن أن تتجدد ؟ ... إذ أنه في نهاية الأمر لا يمكن أن يتطور الفن إلا بأولئك الذين يدفعون به إلى التطور . وبتعبير آخر فإن الفن اختراع ، وكل اختراع يتطلب مخترعين ، لكن لا بد أن نحذر في هذا المقام من أن نقع فريسة لنظرة رجعية يوقعنا فيها التاريخ ، أو تؤدي بنا إليها زيارة المتاحف . فكل هذه الأعمال التي نتأمل فيها تنبع من ذاتها ، أي بنوع من النمو المستمر الآتي من أعماقها ، دون جهد ودون دفع مفاجئ .. ولا شك أنها تخرج بعضها من بعض ، لكنها تخرج على هيئة سلسلة من الانفجارات ، كلها تمثل أعمالاً إبداعية بقدرها .

ويقول لنا الأستاذ «لأول» مامعناه: إن الفنان يبدأ فى الواقع من أشكال معينة يستوحيا ليفرض بعدها أشكالا جديدة ، وهكذا توجد لديه إرادة شعورية أولاشعورية ، لكنها مؤكدة ، للانفصال عما سبقه ، وهذه الإرادة تنطبق تماما وإرادة الفنان فى أن يصبح هو نفسه . فكل من يكتفى بالتقاليد لن يكون إلا صانعا أو عاملا ، ولا يمكن أن يكون فنانا ، وقد قالها مالرو بصيغة جملة ؛ يبدأ كل فنان بالتقليد الفعلى أولا ، والمصور ينتقل من عالم الأشكال إلى عالم آخر للأشكال ، كما ينتقل الأديب من عالم الألفاظ إلى عالم آخر للألفاظ ، بنفس الطريقة التى ينتقل بها الموسيقى من موسيقى إلى موسيقى (٣٦) . والعبرى ، ونكررها هنا مرة أخرى ، لا يخضع لصيغ عصره ، مادام — على عكس ذلك — يقوم بإبداع صيغ أخرى ، وهو بهذا يحدد عصره تحديدا جماليا ، كما سوف تراه الأجيال المقبلة .

الفردى السكلى

الفرد نقطة البدء فى كل شيء : هذا هو المبدأ الحقيقى لكل إبداع ، ويمكن التحقق من صحته فى مجال الإبداع الفنى . إلا أن من الضرورى الاتفاق أولا على معانى بعض الألفاظ حتى لا يحدث الخلط . فهناك فردية جمالية لا تقل قدرة على الهدم عن الفردية الأخلاقية ؛ إذ ما كان للفنانين الذين مارسوها أن ينتجوا شيئا هاما إن هم اتبعوها إلى النهاية . لذا يحسن أن تؤكد أن الفن يغرس جذوره فى العمل الشخصى ، لا فى العمل الفردى ، لأن الفردية مهما يكن الأمر ضيقة محددة .

وبين الشخصى والفردى تمييز يكاد يكون تقليديا . وكما أن الشخصى يجد الأشخاص الآخرين فى أعماق ذاته هو ، نجد أن الفن يحل بطريقة ذلك التناقض الذى يقوم بين الفردية والجماعية ، خلال ممارسته لعبادة القيم الفنية

بأن يتعدى حدود هذا التناقض ، أى بأن يصل إلى ما فى الجماعى والفردى من ناحية إنسانية كلية وهكذا يصبح التناقض فى الفن تناقض «الفرد الكلى» (٥).
 إنها حقيقة : ما من شيء فى الفن يمس المشاعر مساً عميقاً كلياً إلا ما خرج من أعماق النفس وأخصها وأكثرها شخصية . ما من شيء يحرك العواطف ويفتح القلوب إلا ما كان قادراً على تقديم نغم «النفوس الفريدة» بحيث لا يحل محلها شيء . وبـحيث لا تنفى . هذا هو ما يصنعه الفنان شعورياً أو لا شعورياً من نفسه فى عمله الفنى ، نقصد طابعه هو وحقيقته هو اللذين يضيفهما على ذلك العمل . ويذكر لا كريتيل ، أن الجزء من القصة الذى يلتفت انتباهه هو ذلك الذى تبدو فيه الحياة الحقيقية للكاتب رغم أنفه ، هذه الحياة تتضح فى كثير من الحالات من خلال الأسلوب أكثر منها داخل ما يحويه العمل ذاته ، فالمواد الأولية والموضوعات والأفكار غالباً ما تكون هى التى يعرفها جميع الناس ، وقد قال بوفون فى هذا الصدد : «إن الأسلوب هو الإنسان نفسه» . لهذا لا يمكن إلا أن ندرس الأسلوب . ويقول لنا سيزان : «إن الأسلوب لا يقلد تقليداً أعمى ، بل هو ينبع من طريقة الشعور الخاصة ، وطريقة الفنان فى التعبير» . والضرورة التى تفرض نفسها على الموسيقى والمصور والقصصى الشاعر هى أن يبدأ من نفسه وأن يكون ذاته . . . ولا يمكن أن يحدث هذا إلا عن طريق مجهود بطولى يرمى إلى تجديد عمله من ذاته هذه . وحتى زولا كان مقتنعاً بهذه الحقيقة أكثر من أى شخص آخر ، وقد كان أبعد الناس عن الفردية ، ألا يقول : «إن العمل الفنى إظهار حر رفيع للشخصية» .

وثمة حقيقة أخرى ليست بأقل قابلية للطعن ، ألا وهى القائلة : عبر عن نفسك فى أصالة تصبح أنت الآخرين أيضاً . لقد اهتم دوميه ومانيه وديجا ورينوار وهنرى راسو جميعهم لاشك باختراع فهمهم فى التصوير ،

* إيمانويل هو الذى وضع هذا التعبير فى سرد حياته : من هو هذا الرجل؟ والفرد الكلى .

وكان اهتمامهم هذا كبيراً لدرجة لم يفكروا معها في خلق فن التصوير الفرنسى . لكن هل رأينا فنانين أكثر منهم فرنسية ؟ لا يمكن أن يكون العمل الفنى بلا موطن ، مثله فى هذا مثل مبدعه ، وكلاهما يحمل بالضرورة طابع يثنى وعصره وحضارته وشعبه ، وكلها تصبح عصارة لهم ، وكلها تغذيهم هم كذلك . « وكما أن التربة والكرمة قد أصبحتا هذا النيذ الذى يشيد بمجدهما ، ولم تعد هناك لا تربة ولا كرمة ، بل نيذ فحسب ، فإن فرنسا قد أصبحت يوماً بعد يوم موسيقى ما بفضل أعمال كوبران أودى بوسى ، كما أصبحت إسبانيا أيضاً بفضل فيكتوريا أومانويل دى فاللا » (٣٧) .

وكل موسيقى ، وكل أدب ، وكل تصوير ، لابد أن يكون قومياً أو لا يكون . لكن لابد أن نضيف على الفور : إنه لا يمكن أن يكون هذا إلا حين لا يريد أن يكون . وإلا حين يعبر عن التربة دون أن يعرف أو يقصد إلى ذلك قصداً ، وهذا هو ما يقضى حتماً على فكرة الوطنية الفنية . فطالبية العمل الفنى بأن يكيف نفسه بنموذج وطنى مرسوم مقدماً معناه القضاء عليه ، كما تقضى الروح الأكاديمية على المنابع الحية للفن الطليق ، ومعناه محو صفته « الفريدة » وقوته العالمية ، وإرغامه على أن يتقدم الشعب وقد أصبح صورة هزيلة فقيرة . ولقد أوضح اندريه جيد هذا خلال تحقيق أجراه « القوميون » قبل الحرب عام ١٩١٤ حيث قال : « من الجائز أن نتصور شعباً بلا أدب ، شعباً أصم أبكم إن صح التعبير ، لكن كيف نتصور أدباً لا يكون معبراً عن أحد ؟ ! » . ألم يكن من الأجدى والأصوب أن نتساءل عما إذا كان من المستطاع أن نطلق تعبير « الأدب الرفيع » على أدب ما لا يتمتع بصفة الأهمية العالمية ، بالإضافة إلى قيمته التمثيلية التى لا جدال فيها نقصد ببساطة أهمية إنسانية ؟ (٣٨) .

ذلك أن عبقرية شعب ما — كما تتضح فى الأعمال الفنية — شىء آخر غير العقلية الجماعية التى يقول بها علماء الاجتماع . فهى لا تتضح أكثر تنوعاً

وأكثر تعقيداً فحسب ، بل إنها أكبر ثروة في القيم مادامت الشخصيات الفنية الكبرى هي التي تقوم بدور الكشف عنها وإخفاء الصفة الحاضرة عليها . وأنا أعتقد أن العبقرية العميقة لعصرنا تختلف اختلافاً كبيراً عما تعود مختلف النقاد السطحيين على تسميته « الروح الفرنسية » ، تلك التي لا تتجاوز في غالب الأحيان طريقة معينة لإضفاء بعض البريق على أفكار سطحية ، بل وهي لا يمكن أن تكون على أكثر التقدير إلا الروح العامة الشعبية ؟ ومهما يكن لافورج ورامبو وما لارميه قليلي الشعبية ، فإنني أظنهم لا يقلون كمالاً في الفرنسية عما يعتقد اليوم عن لافيدان أودوني وأروستان . وهل ندعى أن مورييس باريس كان أقل فرنسية ، لأننا نجد عنده صوراً إسبانية سطحية ؟ وما هذه العطور ، وذلك الوخز وحب الموت الذي يقارب الحب ، وهذا النغم المحطم ، وذاك الأسلوب الذي يصيح صيحة نفير الكوميديا بعض الشيء ، وانحناء القوس الجميلة هذه أولاً ، يتلوها فجأة هذا السكون ... هل يبدو لنا فجأة وكأنه أكثر فرنسية عندما نتحدث عن اللورين ؟ ليس من العسير أن نعترف بأن بويليث ورنيه وأنا تول فرنسيون ، لكن لا بد أن نقبل أيضاً بأن يكون كلوديل كذلك أيضاً وبطريقة أوضح كثيراً . إنه فرنسي بطريقة جديدة . إلا أن العبقرية الفرنسية تزداد وتثرى وتتحدد كل يوم . وإذا أمكننا منذ اليوم أن نقول ماهي ، ماهي لا أكثر من ذلك ، وبالأأسف .. لكان معنى هذا أن نقول ، بنفس التعبير إنها عاشت (٣٩) .

لكن مامن عمل فني أساساً يبدأ من الفردية ليذهب إلى ما وراء الجماعة إلا ودخل إلى نطاق الكلية . إن المشاهدة تصبح هنا سطحية فيما يتعلق بالكلاسيكية . لكن الرومانتيكيين وقد تعلقوا بأهداب ذاتهم أكثر من غيرهم ، يثبتون هذه الحقيقة كما يثبتها الكلاسيكيون تماماً ، فما كانت ريفيه ، عند شاتوبريان ، ولا جوليان سوزيل عند ستاندار ، ولا ما فريد عند بايرون ، بشخصية تحدد نفسها لتصوير فرد واحد ، وهي لا تكني أيضاً

بالتمير عن القلق لجيل واحد فحسب ، بل إنها عاشت بعد مبدعها وبعد عصورها بما تمثل فيها من إنسانية عامة . وذلك أن الفردية ، إذا فهمناها في أعماقها لا تتعارض والعالمية ، ألا يحمل كل إنسان ، حسب قول مونتني ، في طياته « شكل الحياة البشرية » ؟ وإن لم يكن هذا الإنسان مجنونا محصوراً في حدود عقده ، فإنه يجد في أقصى حدود إخلاصه ، الصفات الدائمة للطبيعة وللصير البشرى ، مع أشباهه الذين يعيشون فيه أكثر مما يعيش هو في نفسه . « ويستطيع الفنان في أقصى أعماق عزلته أن يخلق اليوم بالآخرين من الناس » هكذا يكتب بازين . واليوم أصبحت العزلة ذات مرارة ، حيث لم يعد الفنان المنعزل مفهوماً . ومع ذلك فقد كانت دائماً مصيره . أليست ضرورية ، هذه العزلة ، ليتمكن من الانصراف إلى نفسه وليتمكن من التحدث من أجل الجميع ؟ لقد قالها جوته : « كلما ضم الإنسان نفسه نحو نفسه أوشك على التوصل إلى النفوس الشقيقة » .

لهذا لا تحمل القاعدة أى استثناء ، والحد الأقصى من الفردية في مجال الفن هو الذى يضمن للعمل الفنى الحد الأقصى من العالمية . أليست النقوش البارزة التى قدمها تافان ، أو تماثيل « التقى » الذى صوره « افينيون » ، أو عيد الفصح للفنان جريكو ، موضع إعجاب الجميع ، لأنها كانت جميعاً فى بادىء الأمر أكثر الأعمال وأقواها فردية ؟ نعم ... « إن أكثر الأعمال الفنية إنسانية » ، والتى تظل موضع الاهتمام على أوسع نطاق هى بعينها أكثرها خاصية ، هى التى تتضح فيها كذلك على أكثر الخصوص عبقرية جنس من خلال عبقرية فرد . ومن يكون أكثر قومية من ايشيل وداتى وشكسبير وسيرفانت ومولير وجوته وابسن ودوستيفسكى ؟ ومن يكون أكثر إنسانية منهم ؟ وأيضاً أكثر فردية ؟ إذ لا بد فى نهاية الأمر أن نفهم أن هذه التعبيرات الثلاثة تترتب بعضها فوق بعض ، وأن ما من عمل فنى يكتسب مغزى عالمياً إلا وكان يتمتع أصلاً بمغزى قومى ، على أن العمل

الذى يكتسب معنى قوميا يكون قد انصف أولا بأنه فردى . وقد قال هيبيل هنا إن الفردية طريق أكثر منه هدف .. وماهى بأحسن طريق ، بل هى الطريق الوحيد ، (٤٠) .

مريضة الفنان

ليست للفردية التى نتناولها هنا علاقة ما — لعل القارىء قد تبين هذا — بفردية المظهر أو القول ، تلك الفردية السطحية التى يسهل العثور عليها بطريق مباشر ، والتى تتضح عند إنسان يعتمد أن « يكون فريدا » . بل إن الأمر أمر الكشف عن « الأنا » العميقة لدى الفنان ، الكشف عنها لذاتها . ومن ناحية أخرى فإن الإنسانية لا يمكن أن تختلط والآراء وردود الفعل والعادات لدى جماعة ما مهما فرض فيها من اتساع ، ولكن لابد من الكشف عنها دائماً ومن جديد داخل قوقعة العقليات التى تختفى داخلها . هنا يصبح العمل المنطوى على العبقرية هو أكثر الأعمال أصالة ، بكل ماتحمل هذه الكلمة من معان ، وأقلها خضوعاً للتقاليد المدرسية والتأثيرات التى يقع المؤلف تحتها . لكن كيف نتحدث عن الأصالة ، سواء أكانت طيبة أم رديئة ، أو عن التأثيرات والتقاليد دون أن نثير خلية من المشاكل ، ونضطر إلى إضفاء توضيحات جديدة عليها؟

إن الإبداع الفنى الذى يفتح شيئاً من جديد لابد وأن يكون ثورياً فى قليله أو كثيره . ذلك أن الفنان لا يستطيع أن يكشف تماماً عن حقيقته الشخصية التى تتقابل والحقيقة البشرية ، حتى فى العصور التى تنغرس فيها التقاليد غرساً متيناً ، إلا إذا كشف ، وهو يكاد يدافع حتى عن جسده ، عن النفاق الاجتماعى وعن الأكاذيب والأحكام الخاطئة . ومادامت هذه الحقيقة تتضح قبل كل شيء بالأسلوب ، فإن الفن لا يستطيع أن يخترق طريقه إلا بأن يعدل من الأساليب القائمة ، وأن يقضى على النظم السائدة ويحطم

الأشكال التقليدية . ولا شك أن من الخطأ أن يوصف لهذا السبب ، بأنه طائش ، لاشيء إلا لأنه مخلص في ذاته ، كما أنه لا يمكن اتهامه بأنه يعتمد بعث الدهشة بأى ثمن إذا ما هو قصد فحسب إلى الأمانة في كل دقتها بكل ما تكلفه . هل يعنى هذا أن الفنان يندفع آليا ومن ذاته إلى الثورة ، لأنه ثائر بطبيعته ؟ لقد قال بعض الرومانتيكيين بهذا ، وقد أمن فلوير على طريقته بهذا حين ندد « بالبورجوازيين » رغم أنه كان « بورجوازيا » . كما أقنع الشعراء والرسامون « الملاحين » الرأى العام بهذا ، ومع ذلك فقد وصل موضوع الشاعر الثائر إلى أقصى حدود الجرأة لدى مدارس المستقبلية والدادا والسريرية . حيث يتحدث ماريتى عن الرفرفة الثورية الكبرى لأعلام « النجر » ، ويشيد « بالقوة الانقلابية الحارقة » ، ويصيح قائلا : « إن لوننا أحمر إننا نحب اللون الأحمر » (٤١) — وأرادت السريالية لنفسها أن تكون « ... صيحة الروح التي صممت إلى النهاية على تحطيم أغلالها ... حتى وإن لزم الأمر ، بمطارق مادية » (٤٢) . وقد وصل الأمر بالكاتب اليسارى المتطرف جان كاسو إلى حد القول « بأن الشعر كان دائما صيحة احتجاج .. وبأنه لا توجد بين العمل الشعري والعمل الثورى إلا خطوة واحدة » (٤٣) .

مع هذا لا بد لنا من أن نتجنب اللعب بالألفاظ أو أن نعمم حالات هى فى مجموعها نادرة ، وهى من التاريخ الحديث فحسب . فالثورة التى يقوم بها الفنان ثورة فنية أساسا .. وحتى إذا كانت تتمثل فى ذهنه على أنها ترتبط بثورة سياسية أو اجتماعية ، فإن الربط هنا عابر ، والمبدع عامة رجل هادى . بل إنه غالبا ما يحترم النظام القائم ، لأنه على أقل تقدير ، يظل منشغلا تماما بعمله ، ويجاهد جهادا مباشرا وفعالا من أجل هدم التقليدى من الأمور التى يريد هدمها لأنه يشكو منها . لكن هل هناك ما يدعو دائما إلى الشكوى ؟ كلا . لكن الذى يحدث هو أن تستقبل جراته استقبالا حسنا . وأن يتم الاعتراف بمزايا عمله ، وأن تقدم له السلطات

التشجيع والمكافأة في سناء . فلماذا إذا يثور وقد أصبح موضع الإعجاب والاحتراف والتدليل ، أو على الأقل التقدير ؟ هل كان رافائيل وروبانس وفيلاسكين من الآخرين ؟ أو كان كورني وراسين وفاليري من المحتجين ؟ هل نسمى لوللي وباخ وموزار ورامو « بذور العنف » ؟ كلا . . .

الواقع أن للثورة أسبابا اجتماعية أكثر منها فنية، فهي عبارة عن تصد يقوم به الفرد حين يصيبه الوعي بحقوقه وقيمه إزاء عدم فهم البيئة وظلمها وإيائه ، أكان هذا صحيحا أو غير صحيح . والقول بأن الفنان اليوم كثيرا ما يئن من هذا امر نقره . فنذ بداية القرن التاسع عشر والهوة بين الذوق الشعبي والفن الحى آخذة في العمق والازدياد ، وحتى النخبة المتعلبة نفسها ، عدا استثناء يتعلق بمسرح معين وفن قصصى معين ، لم تعد تنهل أحسن ما تنهل إلا من فنون الأمس ، لا تبالى بالجمال الغض الذى تقطف ثماره حال مولده . وهنا غالبا ما يفشل الفنان في الحصول على الشيء الوحيد الذى يبحث عنه ، نقصد الجمهور ، لكن ما كانت كل العصور بناكرة للقيم قدر عصرنا هذا . فأيام بيركليس فى اليونان ، وعصور الكاتدرائيات ، لم يكن ينظر الناس إلى وراثهم ، وكان أحدث الأعمال هو أكثرها جمالا . كما كان الناس يتسارعون فى فلورنسا ليروا تمثال « بيرسيه » لسللنى بمجرد خروجه من قلبه وفى روما كان البابا ومعيته ينتظرون فى فروغ صبر أن يكشف ميكلا أنجلو عن سقف قصر السكستين ، وفى قصر استهارزى ، ما كاد ينتهى هايدن من تركيب سيمفونية ما ويحجب المداد الذى كتبها به حتى يتم نقلها وتوزيعها على المناضد ، وتنفيذها ... وهذه العصور السعيدة التى كان الأمراء والبورجوازيون فيها يقدررون الفنان حق التقدير ، ويرفعون إليه طلباتهم ، أكان الفنان ، بصرف النظر عما وصف به أحيانا بأنه خادم لهم ، أكان يفكر فى الصياح فى وجه الأمراء والبورجوازيين ؟

لست المذاهب الجمالية الحديثة التى تجعل من الإصالة أساسا للقيم بعديمة

الصلة بما يصيب الجمهور من خلط . ولابد من أن نعترف بهذا . طبعي أن يصبح الفنان الكبير أصيلاً ، تزداد عظمته كلما ازدادت أصالته . ومن حقه أن يصبح هكذا ، وعليه الواجب الذي يختلط بواجب الإخلاص لما لديه من أحسن الوحي . ومع هذا فقد كان القدامى في هذا المجال أقل حساسية من معاصرينا ، حيث كانوا يقبلون العمل في جماعات وطرق موضوعات معروفة في لغة معروفة ، ولم يكونوا يعتقدون أن مما ينقص من شرفهم أن يرموا إلى بعث السرور في نفس الجميع ، ولذا كانوا يكرسون أعمالهم للجميع . . . غير أن الفردية قد مرت من هذه الثغرة ، وأصبحت الأصالة حاجة ومطلباً وهدفاً بدلاً من أن تكون علامة لاشعورية للعبقرية . وليس الأمر أن يكتب الكاتب جيداً أو أن يرسم المصور جيداً ، بل أن يوضح الفرق بينه وبين غيره ؛ إذ لم يعد الفنان يريد أو يستطيع أن يكون منفذاً ماهراً ، أو حتى موهوباً ، لشكل ما سبق أن عرفه الناس ، بل لأنه يريد أن يقدم تعريفاً للجمال لا ينتظره أو يتوقعه أحد ، ويريد أن يكون له أسلوبه هو وطريقته هو وعالمه هو الذي لا يشبه أى عالم آخر ، ورمزه هو ، هو المقعد ، عند فان جوخ (*) ، ولا يمكن أن يكون أى شخص آخر حقاً . . . هو فان جوخ . وسوف يبقى فان جوخ بالنسبة للذين يجاؤون لإخراج عبقريتهم ، أولئك الذين قد يصيدهم شرف الفن أكثر مما يصيب ، هو المبالغة ، والجرأة البالغة والاصطناع الواضح المكشوف الذي يضعه الناس موضع التشكك رغم تصفيق المتعجبين .

على كل ، ليست الأصالة الحققة عدوانية بالضرورة ، لكنها تتفق والتحفظ والابتعاد . . . بل والسطحية ظاهراً ، وكأنافة المتأقنين المبالغين في

(*) يقول مالرو (انظر ص ١١٧٠) إن الإرادة الأساسية للفنان الحديث هي أن يتمكن من إخضاع كل شئ . لأسلوبه هو وقبل كل شئ . أكثر الأشياء نقاءً وتجرداً رمزه هو « المقعد » عند فان جوخ .

أناقتهم ، يفلت الفن الرفيع من مجال النظرة السطحية ، بحيث لا تلاحظه من أول وهلة . وليست الأصالة في كل شيء . — هكذا يرى مورو — إلا طريقة لا تقلد يتبعها صاحبها ليصبح شيئا باللاس جميعا .

وهكذا لا يخاف الفنان الكبير من أن يقلد أفكار الناس جميعا ما دام متمكنا من تجديدها ، ومهما تكن عتيقة أو مكررة . « ضع فكرة عادية في مكانها ، نظفها وجدد بريقها ، وألق عليها ضوءاً يلفت إليها النظر ويجذب انتعاشها البصر ، انتعاشها هذا الذي كانت تتصف به ، عندما نبعت من منبعها الأول — تجد نفسك وقد أخرجت عملاً شاعرياً . . وهكذا يقول « كوكتو (٤٤) ألم تقل شيئاً جديداً ؟ وماذا بعد ذلك ؟ وهل اخترع ميكيل انجلو موضوع « حساب الآخرة » ؟ أو مولير قصة دون جوان ؟ أو جوتة قصة فاوست ؟ أو فاجنر قصة تريستان ؟ وهل كانوا أقل أصالة في هذا من سابقيهم ؟

إن الاختراع في الفن صفة ثانوية ، والمخترعون يتسكعون في الشوارع ، لكن النادر هو هذا العبقرى الذى يكتشف اختراعات الآخرين ويضفي عليها الحياة ، وما فكرة الواحد إلا فكرة الجميع ، وهى مادة تمر بلا انقطاع في عقول الكثرة الغالبة وتهزها ، فإذا ما استقبلها آخر الناس وأفاد مما تم فيها من أعمال ، ثم فرض عليها صيغته هو ، تمكن من أن يضفي عليها اسمه هو .

المؤكد أن هناك أعمالاً أكثر أصالة وثورية من غيرها ، لا يمكن في الموسيقى مثلاً حصرها إن نحن عددناها من « السيمفونية الخيالية » إلى « بيلياس » إلى حفل « تقديس الربيع » أو إلى « الخمس المقطوعات الصغار » ١٦ « لشونبيرج ، ومع هذا فإذا دققنا النظر لوجدنا أن الأصالة المطلقة غير موجودة ، وأثر المفاجأة الذى يأتى من كشف جديد سرعان ما يختفى ،

وسرعان ما نجد وراء أكبر المجددين آثار السادة الذين أوحوا له بهذا . مثال ذلك فاجنر وراء شونبيرج ، وريمسكى وراء سترافسكى ، وسان سانس وراء رافيل . وقد كان للسابقين الذين أوحوا إلى دى بوسى أثر كبير رغم التجديد العظيم الذى أتى به ، والمؤكد كل التأكيد أن وحي المقطوعات الأخيرة ليست موجود فى « مقدمات » دى بوسى . وقبل كلود آشيل ، كان ريشار العظيم قد دفع بالإبداع الهارمونى شوطاً بعيداً ، وظهر ريشار فى آخر عصر دى بوسى ، ليؤلف « اليكرا » ويكتشف كنوزاً فى مجال الهارمونى . وقد كشف موسورجسكى بعبقريته الفريدة عن مجال استوحى منه دى بوسى الكثير . وهكذا لم يخرج دى بوسى من العدم فجأة ، لكن أعماله تنطوى على شخصية عظيمة تعكس ولا شك عقيدة هائلة بعثت الثورة فى عالم الموسيقى وبالاختصار « لا يوجد فى الفن جيل نبع من ذاته ، وهناك سلسلة طويلة تربط بين قدامى التقليديين وأكثر المجددين جرأة . ويصبح هؤلاء المجددون بأعلى صوته لينخفوا تحت قليل من التراب تلك الحلقات من السلاسل التى تدمى أسفل سقائهم » (٤٦) . وقد قال جيرود فى شيء من الرقة : « إن كل أدب يعيش من النقل والاقتباس ، عدا الأول الذى لا نعرفه » .

هل لنا إذا أن نؤكد أن المبدع ، مهما تكن جرأته فى التجديد ، يندمج فى تقليد يعمل على استمراره ، حتى حين يتعداه ويقبله رأساً على عقب ؟ الحق أن الواقع أكثر تعقيداً من هذا . فما لاشك فيه أن كل إنسان يدين لغيره بشيء ما . لكن ماهى التقاليد : أهى التعليم الرسمى ، أم الميراث عن الأجداد ، أم الجمالية السائدة ، أم الذوق القائم فى عصر ما وفى مكان ما ؟ إن هناك من أعظم الفنانين — وليس هذا من قبيل الخيال — من يشعرون بالطمأنينة وهم يباشرون نوعاً من التقليد يعرفه الجميع ، دون أن يتنازلوا عن شيء من شخصياتهم . وكان هذا التقليد يساعدهم على النمو والتطور ، وكانوا يعملون

بدورهم على تنميته وإحيائه ، وبدلنا التاريخ في مجال الفنون الجميلة على أن الاتجاهين التقليدي والثوري يتبادلان الظهور ، فقد سدت الأكاديمية الفرنسية في عصر لويس الرابع عشر قانونا للرسم واستخدام الألوان وتعبيرات الوجه ، دون أن تترك للفنان حرية ما في ممارسة أى تفصيل من تفاصيل العالم المادى أو الروحى . فهل يعنى هذا أن ذلك العصر لم ينتج إلا أردأ الرسامين ؟ وعلى كل فإن الميل نحو الانفصال عن الماضى — فى أوربا على الأقل — هو الذى يسيطر من عصر لآخر ، وقد أدى هذا الانفصال فيما أدى إلى النهضة العظيمة فى القرن الماضى . أليس إذا هذا قانونا بشريا فى الفن كما هى الحال فى الحياة أن ينكر الإنسان من وجهه ؟ أليس هذا الموقف القاطع هو الوحيد الذى يسمح بالتخلص من بريق المجد المعترف به ومقاومته حتى تصبح للفنان شخصيته ، وبالتالي يتمكن من التوصل إلى الإبداع ؟ .

هذه حقيقة واضحة . هل تكون الحركة الأولى التى يقوم بها المبدع هى نثور ضد تقليد قائم ؟ . وهل تصبح الحركة الثانية التى تأتى بعدها مباشرة ، اللهم إلا إذا غمرته الأولى ، أن يطالب بتقليد جديد ، وأن يبحث لنفسه عن أساندة آخرين ، وعن أجداد آخرين ، وأن يشكل لنفسه أسرة أخرى يحبها قلبه ؟ إن رونسار وأصدقائه يسخرون من أدب العصور الوسطى ، لكنهم يعيدون هوميروس وفيرجيل وهوراس وباندار وبلوتارك إلى الحياة ، وينهلون من الفن الإيطالى . وهو جو يأنف من الكلاسيكيين ، لكنه مد يده إلى شكسبير ، وكلوديل يؤمن بأن فيرلين ومالارميه هما العدم ، لكنه يستوحى فنه من إيشيل والكتب المقدسة . وبريتون يريد أن يلقى أرضا بكل شئ ، لكنه يكشف للسريالية عن مؤثرها الأوائل بما بينهم من انعدام فى التماسك ، فنذ سوفت إلى جارى ، مرابسادونيرفال ويودلير ورمبو لوتريامون ، وكل هؤلاء ذوو بصائر شفافة ،

تنفذ إلى حقائق الأشياء على مر العصور . ويتجلى هذا في أسلوبهم الذى يكشف عن المشاعر المشتركة للإنسانية والنوازع الطبيعية التى تزخر بها نفوس البشر . ومن هذه الناحية ، نجد أن رينوار يشبه روبانس وفراجونار أكثر مما يشبه لوتريك وديجا . وسيزان لا يمت بقرابة لمونه الذى يستقبل أعماله ، أكثر من قرابته لبوسان وشاردان ، وبشيء من قرابة الدم إلى جريكو . وموديلانى شقيق لاوتشلو ويبرو قدر شبهه لفنان ما يأتى من مونمارتر أو مونبارناس . والرسم «روولت» ، أقرب لرامبرانت وفنانى الزجاج الملون فى العصور الوسطى منه لمعاصره ماتيس . وبذهب بيكاسو إلى أبعد من ذلك ، حيث يحيط نفسه بنحائى عصر ما قبل التاريخ ، مثل صانعى الألوان الفخارية من بلادبيرو والتصويريين الزنوج .

فالفنان الذى يريد لنفسه أن يكون أكثر الفنانين استقلالاً . لا يمكن إلا أن يتلقى التأثيرات من فن غيره وإن هو تخلص من بعضها فإنه يستقبل البعض الآخر أحسن استقبال . وأقل الفنانين فناً صحيحاً هم الذين يخافون هذه التأثيرات ، فى حين أن الشخصيات القوية هى التى تحاول أن تفيد منها . وهكذا لن يأنف المبدع من أن يقلد غيره ، لأنه يعرف أن أصلاته لن تتعرض لخطر ما ، فهو مهما استقى من ينابيع فن آخر فإنه سيظل محتفظاً بذاتيته من هنا كان المثل الذى قاله كوكتو : «إن الفنان الأصل هو من أوتى القدرة على النقل ، فما عليه إذاً إلا أن ينقل حتى يصبح أصيلاً» (٤٧) بل وأكثر من هذا إنه كما قلنا آنفاً لن يكشف عالمه هو إلا إذا قلدا الآخرين . وكما من الفنانين يدأون حياتهم بتقليد الأعمال التى يعجبون بها تقليداً حماسياً ، ثم ينفصلون عنها ليثبتوا أقدام أسلوبهم الشخصى ... وقد شرع موروأ بناء على نصيحة أستاذه آلان ، فى أن ينقل قصة «دير بارم» ، لستندال من أولها إلى آخرها ، ومع هذا فالنقل لم يضره فى شيء . هذا القانون يؤكد أعظم الفنانين ، حتى الشعراء «الملاعين» — وسواء بدأ فنان ما فى الرسم أو التأليف ، عاجلاً أو آجلاً ، مهما تكن قوة أعماله الأولى ، فهناك وراءه

قاعة النصور والكاندرائية والمتحف والمكتبة والاستماع (٨) ولطالما صاح سيزان قائلا : « إنى أريد أن أصور كما لو لم يكن قد صور أحد من قبلى ». ومع ذلك فهو يسارع إلى متحف اللوفر ليبحث فيه عن بعض الأفكار ، وهو كجميع إخوته يصور وقد « بهرته بعض لوحات يحملها خلف جفون عينيه وتكفيه لكى ينسى العالم » (*) .

لكن سيزان لا يحمل خلف جفون عينيه أى لوحة ولهذا يحسن أن نميز بين نوعين من التأثير: الذى تقع تحت سيطرته ، والذى تختاره عن طواعية . والاول يؤثر فى المبدع تأثيراً حاداً أو سنياً ، ومرة أخرى نقول إنه مامن إنسان يستطيع التخلص كلية من ضغط البيئة أو من الروابط الطبيعية التى تشده إليها . إن التأثيرات التى يرفضها الفنان لا تحدد إلا أقل نواحي العمل ثباتاً وأكثرها سطحية . ولم يكن لوزريك قد عمل مؤرخاً لملاهى الليل فى العصر الجميل - نهاية القرن التاسع عشر - لما كان أكثر أهمية من شربه . أما الأثر العميق ، فإنه يختلف كل الاختلاف عن سابقه ، وهو الذى يبحث

(*) انظر ص ٣٠٦ : هذه اللوحات بن تصرف سيران عن الحياة عندما يذهب ليصور من واقع المؤثر . والذى أقوله عن هذا يتعلق أساساً ببدء الفنان لحياته الفنية وهو يبحث عن نفسه من خلال الآخرين . وحتى فى هذا البدء ليست المكتبة أو ليس المتحف بالشئ الوحيد فى حياته ، بل إن هناك وجهاً خاصاً للحقيقة ونوعاً من المطالبة يأتى من الداخل ، ولو أن المطالبة غامضة . وأعتقد شخصياً هنا أن وجهة نظر مالرو فى هذه الناحية فاطمة أكثر مما يجب ، وأنا لا أستطيع أن أقول كما يقول بأن « أكثر التعانين براءة فى العصور الوسطى ، مثلهم مثل الرسام المعاصر الذى يظل أسير التاريخ ؛ لن يترعوا طريقهم فى الأشكال التى يخترعونها لا من خضوعها للطبيعة ولا من عاطفتهم الشخصية ، لكنهم يدينون بها لتعارضهم وشكلا آخر للفن (انظر ص ٣٠٩) . فمن أى شكل آخر للفن انترع هنرى روسو ما يقته فى الأشكال ؟ يلوح أن العاطفة الشخصية ، إن لم يكن الموضوع للطبيعة فى حالته ، هى كل شئ تقريباً ، وصحيح أن لروسو الذى لم يكن يذهب الى المتاحف مثلاً أعلى فى التصوير مثل بوجيرو .

عنه فنان يود أن يحافظ على شخصيته ويشعر بالحاجة إلى تنويع مائدة فنه وتغيير نعمته ، لهذا نرى المبدع الحقيقي من عصر إلى عصر يلعب دور حصان طروادة داخل ثقافته ليدخل إليها فناً أجنبياً . وهو أقل تأثراً بهذا الفن لدرجة لا يشعر معها أنه يفهمه ، كنظام جديد للقيم ، وكلغة جديدة . وإذا نظرنا إلى فن الأقدمين من هذه الزاوية لوجدناه يلعب لعصر النهضة دور الفن الأجنبي الذى يقف موقف الضد من فنون العصور الوسطى . واكتشاف العصر الرومانتيكى للعصور الوسطى هذه وإعادته تقييماً ، يعنى أن العصور الوسطى تلعب دور الخيرة الأجنبية التى تقف موقف الضد من الكلاسيكية الحديثة ، (٤٩) . ويفسر نفس العلة دور الفنون اليابانى والزنجى والكيلومبى الأول والمحيطى ، واحداً بعد الآخر ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر .

هناك إذن نوعان من التأثير أو طريقتان لقبول التأثير ، معنهما فى الحقيقة نوع واحد فحسب . فتحسن استقبال التأثير إما سلبياً وإما لاشعورياً ، وإذا لم يساعد التأثير على الاستمرار فى طريق واحد ، كان معنى هذا ذوقاً مؤقتاً أو تأقلاً سهلاً ، وكلها تعنى أنواعاً من العقم الفنى . وعدا هذا يفترض التأثير وضوح فكر أصيل ينبع من الداخل . ونستطيع هنا أن نتحدث عن التأثير الخصب ، أو « تأثير إبداعى » . والعمل الذى ينتج هنا لا يصبح لا نقلاً لمودج مألوف ، أو لعمل قام به الفنان وحده . وفى هذا « ترتبط العناصر الصينية فى فن القرن الثامن عشر بالفن الصينى الأصلى أقل من ارتباط فن ديجما بالفن اليابانى ، وأقل من ارتباط الرسم بالطباعة عند بونار ، بهذا المنظر أو ذاك من مقاهى وشوارع باريس ، لأن الروح الصينية فى القرن الثامن عشر تقلد الأشكال الخارجية ، ولا تستطيع إلا تحقيق جاذبية خارجية ، فى حين أن ديجما ، عند ما يقلد « هو كراى » يحتضن الحركة الإبداعية لهذا الفنان اليابانى ثم يحقق وهو ينقلها تجميعاً حقيقياً للرسم الغربى وأقصى رسم شرقى ، عن طريق اختصاراته وتصنيفاته العربية » (٥٠) .

لكن ما كان لدينا أن يبحث عن هو كوزاي إذا لم يكن قد وجده في طريقة ما . أريد أن أقول إن التأثيرات التي يخضع لها فنان ما تستجيب للأذواق والقدرات التي يتعرف عليها في نفسه بسهولة ، وهي لا تفيد إلا في تعريفه حقيقة نفسه ، وتقويته في الخط الذي يتبعه ، وفي إثراء وتوسيع مواهبه وقد لا يتأثر الإنسان حقاً إلا بما يستطيع جوازاً أن يخترعه (٥) .

ومهما يكن من أمر فإن الأعمال التي تؤثر فينا تتبع طريقاً يشبه طريق المعجزات في الأديان القديمة : «فهي تقول ما ندفعها لقوله ، وتعطي ما نأخذ منها ، وهكذا نرى إزاء الفن الزنجي مثلاً موقفاً يختلف كل الاختلاف عنه عند التعبيرين الألمان وعند مصوري ونحاتي مدرسة باريس . والذي يبحث عنه التعبيريون الألمان في الفن الزنجي ، والذي سوف يبحث عنه أيضاً فيما بعد السرياليون الفرنسيون هو المعاني الرمزية والصوفية والسحرية ، كما أن الذي سوف يقرؤه الوحشيون والتكعيديون في فن النحت الزنجي عبارة عن درس تشكيلي وتشجيع على تحطيم آخر الروابط التي تربطهم بالقوانين الطولية والنظرة الخاصة لعصر النهضة » (٥١) .

«كلنا مخلوقات اجتماعية» . هذا القول الذي يقول جوته ينطبق على الفنانين بشرط ائتمامهم في نهاية الأمر إلى ذلك المجتمع المفتوح الذي تحدث عنه ويرجسون أكثر من ائتمامهم إلى مجتمع معلق . وما من شك في أن الفنان لا يستطيع إلا أن يكون تابعا لزمته وبلاده : لا يستطيع إلا أن يرث ثقافة

(٥) انظر أندريه جيد : كل ما لا تعلمه إلا عن طريق الكتب يظل غير ملموس ، لا قيمة له ، وإذا لم أكن قد قابلت دوستوفسكي أو نيتشه أو بلاك أو براوننج لكان عملي الأدبي قد تغير ، ولقد عاونوني بالأكثر على توضيح فكري . . . وأكثر من ذلك فأني تكنت (خلال الكتب) من أن أحبي أوائك الذين أتعرف خلالهم فكري والأثر العظيم الذي ربما أكون قد استقلته هو أثر جوته » (اليوميات ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٢٧)

وفنا معينا في التنفيذ ، وإلا أن يقتبس عناصر عمله الفني من المكان الذي عاش فيه ، وإلا أن يأمل في كسب إعجاب شبابه من الناس . وإلا أن ينقل إليهم المهارة التي اكتسبها . لكنه كضمير فنان لا يتأثر بالجماعة المحدودة التي ولد فيها ، ولا يقبل الضغط والتقليد القائم إلا قبولاً سيئاً ، ولكنه ينعزل عن بيئته ليستند إلى نفسه أولاً ، وتربطه وشائج أخوة بأساتذته من جميع الأجناس والناطقين بكل اللغات . وهو يوجه حديثه وفنه لا إلى مواطنيه فحسب ، بل إلى البشرية الحاضرة والمستقبلية ، وإذا كان صحيحاً أن فنه يحمل شيئاً جماعياً حتى لا يثقل بحمله أكثر مما فعلت اللغة اللاتينية في عصر النهضة الإنسانية، في إثارة الحروب والثورات ، فإن هذا الشيء الذي يحمله لا يهبط إلى درجة الأحكام التعصبية التي تصدرها جماعة محدودة ، لو تنادى بها « قبيلة » خاصة لصالحها هي . وإذا كان الفن العظيم لا يمكن إلا أن يكون شعبياً بالمعنى الذي يمكن القول فيه بأن شكسبير وموليير وهوجو وبالزاك أدباء شعبيون ، فذلك لقدرته على الوصول لجميع الشعوب عن طريق شعب واحد ، لأنه معبر عما هو بشري عالمي .

الفنان إذاً عضو في مجتمع مفتوح ليست له قوانين مكتوبة أو أسوار تحده ، وهو في هذا كالبطل أو كالقديس اللذين يعملان على الارتقاء بالمجتمع . وهو مثلهما يقدم لنا فكرة وذوقاً حديثاً وحساً لمدنية مثلى . ليست هذه المدنية مادية بل هي روحية ، كريمة الضيافة للناس جميعاً ، لأنها تنشأ على أسس من الحب ، لا من الدم أو الخوف أو من الأطماع أو الحقد . ونحن نعرف أنه لا يمكن أن يقوم الحب بين الناس ، رغم خلافاتهم ، إلا إذا تابعوا جميعاً نفس القيم وامتلكوها . ولا بد للناس أن يرتفعوا إلى مستوى عال من الوجود لكي ينسوا خلافاتهم ويتقابلوا ويتآلفوا . والفن يعاون في هذا لأنه — كما قيل عنه — « إجماعي » ، بمعنى أنه يرفع الكائنات فوق ذاتها ، وينشئ روحاً مشتركة بين جميع الذين يمسمهم الجمال والحب . لهذا يتعين علينا أن نؤكد

أن الفن في هذا المعنى يخلق المجتمع أكثر من أنه نتاج وانعكاس له .
— و«هوقانون يصنع المجتمع ، أبعد مدى من أى قانون يكتمل به هذا المجتمع» (٥٢) .

هكذا نستطيع فهم الفكرة التي ينطوى عليها فن الكاتدرائية الذي طالما كان موضع المناقشة . فالرجل الذي يظل حبيس طبقة اجتماعية ما ، أو مهنة ما ، يظل موزع الجهد بالعمل الذي يقوم به كل يوم وكذلك بالحياة ، يأخذ منها الشعور بوحدة طبيعته . والجمهور الذي يجتمع في الأعياد الكبرى يشعر بأن هذه الوحدة بعينها هي الوحدة الحية ، وقد أصبحت بمثابة الجسد المتصوف للمسيح الذي تختلط روحه بروحه هو . والمؤمنون في مجموعهم هنا هم البشرية ، والكاتدرائية هي العالم وروح الله تملأ الإنسان والإبداع في آن واحد . وهكذا أصبحت كلمة القديس بولس حقيقة : كنا جميعاً في الله ، وكنا نتحرك في الله « هذا ما كان يشعر به إنسان العصور الوسطى شعوراً غامضاً يوم عيد الميلاد أو عيد الفصح ، وعندما كانت الأكتاف تتلامس ، وعندما كانت المدينة كلها تملأ الكنيسة الكبرى » (٥٣) ؛ لأن الكنيسة القوطية ، وهي تعبر عن إيمان شعب بأكمله ، كانت تعمل على تقوية هذا الشعور في نفس الوقت ، وقد كانت أيضاً العامل ، بل والرمز الذي يشير إلى الوحدة وإلى الحب ، كما كانت ترسي قواعد نوع معين من القيم ذات المغزى الذي نعرفه . هذا مثل جديد لتلك السببية المتبادلة التي سبق أن رأيناها في هذا الباب : إن المسيحية هي التي صنعت الكاتدرائية ، لكن الكاتدرائية هي التي صنعت المسيحية أيضاً .

الفصل الثالث الشعور واللاشعور

إن الفرد ، لا المجتمع ، هو الذى يمتلك الموهبة الإبداعية، وأكثر الفنون الشخصية يحمل فى ظاهره طابع شخصية الفنان ، لكن ليست «الآنا» السطحية وحدها هى التى توضع موضع الالتزام ، بل العمل الفنى يعبر قبل كل شئ عن «الآنا» العميقة ؛ «الآنا» السرية اللاشعورية التى تتكون من مجموعة من الذكريات والانطباعات والاندفاعات والصور التى تغلت منا ولا نحس بها وتقودنا دون أن نعلم .

لهذا ، فإنه ليس من النادر أن يشعر الأديب أو الفنان بأنه يكتشف نفسه . فى حين أنه يبدع عمله ، لو كان يخرج جزئيات من نفسه المجهولة شيئا فشيئا . وأحيانا أخرى - وخاصة عند القصصيين - نكاد نقول إن الأديب يخضع حين يكتب أعماله لإرادة أخرى تختلف عن إرادته الشعورية ، وقد أسرى بير لوى لكلود فارير بقوله : « لست أنت الذى تصنع القصة ، بل إن القصة تصنع نفسها بنفسها ، وأحيانا تكون شخصياتها هى التى تقرر الأمور » . وقد قالها أيضا جوليان جرين وهنرى تروايا ، فى حين يلاحظ جوهاندوا «أنه عندما نشرع فى تأليف كتاب لا نعرف إلى أين يؤدى بنا» .

السريرية

هل ننتهى من هذا إلى أن العمل الفنى نتاج مميز ، بل ونتاج كلى للاشعور؟ وأن على الشعور أن يحذر من التدخل حتى لا يفسد الأمور؟ وأن الحالات التى تقضى على الشعور أو تضعفه هى أنسب الحالات بالنسبة للإبداع؟ لقد دافعت السريالية عن هذه النظرية بتحمس شديد ، وبالتطرف الذى نعرفه ، لنصنع إذأ إليها ، وكما هو الشأن فى افتتاحية إحدى أوبرات فاجنر ، سنجد فيها الموضوعات الرئيسية التى يتناولها هذا الفصل مختصرة ، كما نجد فيها بعض العناصر التوضيحية .

لقد كانت السريالية أكثر من حركة أدبية وفنية ، ومع هذا فهي وسيلة اتخذها الشعر خاصة حين أراد أن يثبت وجوده إزاء الوجود والإنسان والمجتمع . فإذا صدقنا ما يقول بريتون وأصدقائه ، نرى أن الشعر كان إلى ذلك الوقت الذي ظهرت فيه السريالية قد اتخذ طريقاً خاطئاً ، وأنه - عدا استثناءات نادرة جداً - قد ضحى بالحقيقة الثابتة كلها ، وفقدها من أجل توضيح الفكرة وتمييزها . وقد سارت الرومانتيكية ، في فرنسا على الأقل ، سيرا حثيثاً في خطى الكلاسيكية ، واتبعت الطريق التقليدي الأكبر ، طريق المنطق ، ومن هنا جاءت الثثرة الجوفاء والمقطوعات المصطنعة ، وجاء هذا التكرار اللفظي الذي تقع فيه العاطفة نفسها تحت قوانين منطق لا غبار عليه ومن هنا كانت ضرورة تجديد الشعر تجديداً شاملاً ، وإعادة قوته التخيلية بأن يسمح له بالارتواء من مناهله الحقيقية ، ومن مصادره غير المنطقية للفكر والحياة ، حيث « يجب أن تكون القصيدة الشعرية تخليصاً وتنقية للفهم ، ولا يمكن أن تكون شيئاً آخر . والأذن عند الشاعر تضحك . أما الفهم المنطقي ، فعليه أن يلزم الصمت . والشعر انطلاق في متاهات الخيال ، وباله من نخر حين نكتب دون أن نعرف ما هي اللغة وما هي الكلمة والمقارنة وتغيير الأفكار والنغم ، أي أننا لا نعرف إطلاقاً ، السبب أو الوسيلة » (١) .

حقيقة أن السرياليين لم يحطموا قيد التقاليد والعرف ، ولم يلقوا جانباً بالوضوح الكاذب بما فيه من ضمان خاطيء للمنطق ، إلا لكي « يدعوا تصوفية من نوع جديد » (٢) ، مثلها مثل جميع أنواع التصوف ، تعمل على الاتصال بحقيقة عليا ، أو بما وراء المعلوم العادي ، أو بمجهول ذي هبة خاصة ، لكن لا ينبغي أن نبحث عن هذا المجهول بعيداً عنا فليس هناك شيء عندنا غير اللا شعور . وبريتون حقاً ، الذي بدأ دراساته في الطب ، مارس التحليل النفسي بعض الشيء وعرف فترة ما بعد الحرب

(١٩١٤ - ١٩١٨) بأنها «عصر لوتريامون وفرويد وترويسكى» (٣) حيث يفترض ويؤكد أن الإنسان لا يعقل بالمنطق فقط ، بل إنه لا يعقل تعليلا عاطفيا ، فهو يمارس النوم ، ويكتسب كل ليلة في الأحلام كنزاً يستهلكه في النهار ، عليه استعادته والنقاط أصواته المذهلة .

هذا هو دور الشعر . والسريالية ترفض الثقافة ، والخلط الغامض من الأفكار البالية والضيق الذى تفرضه النظم ، حتى تعثر على الحياة العارية لللاشعور تحت هذه القوقعة . «والسريالية فى متنازل جميع أنواع اللاشعور» (٤) . وإذا سألنا برتون مم يتكون هذا الجزء المختبئ . وهو ما تنطوى عليه نفوسنا من قيمة كبرى ، لأجاب بالتعبير الدقيق العلى الذى يستخدمه فرويد . فالأحداث التى حدثت البارحة ، تلك التى نعيشها فى الأحلام تنفق وعاملا مشتركا أعظم ، يقع فى نفس الإنسان ، ليس شيئا آخر غير إرادته ، وعندما ينفجر الحب انفجار الصاعقة ، لا يصبح إلا شكلا من أشكال انفجار ضمير الرغبة التى ظلت مدة طويلة مقيدة . وهكذا تظل «القوة الكبرى للإرادة منذ الأصل هى الشهادة الوحيدة للسريالية» (٥) .

والأولون الذين يتلذذ عليهم السرياليون يوضحون لنا ما يقول المحدثون لذا نراهم يرجعون إلى القصة السوداء التى سادت القرن الثامن عشر ، والتى تعارض التركيب المنطقى للقصة ، ويحبون ما تتضمنه من «أشباح وأعمال سحر وروحانية ورذيلة وأحلام ورحلات حقيقية وخيالية وخليط من العجائب المذهلة» (٦) ويقولون بأنهم تلامذة الرومانتيكيين الألمان والشعراء الفرنسيين الذين ساروا على هامش الطرق الوعرة التى مارسوا فيها العجيب من الأمور والأعمال نقصد هنا الوزىوس برتران ويتروس بوريل وبودلير وجيراردى نيرفال . أليس مؤلف «بنات النار» هو الذى سبق السريالية سقافريدا وأطلق صفة «ما فوق الطبيعة» على حالة الأحلام التى تولدت منها القصائد الشاعرية ؟ إنهم يوقفون أمام رامبو

كما يعتربه كلوديل والذي يموت على فراش مستشفى ، رامبو آخر ، يثور ويناهض نظام القسس الديني ، ويريد أن يجعل من نفسه رائي أحلام يقظة عن طريق اضطراب عميق تختلج به الحواس ، وأن يعرف جميع أشكال الحب والألم والجنون ، وأن يصبح المريض الأكبر ، والمجرم الأكبر ، واللعين الأكبر ، والعالم الأعظم » (٧) .

ومن بين جميع الأولين يعتبر لو تريامون الوحيد الذي لا يقبل المناقشة . يقول بريتون : « ليست الخيلة عند دو كاس (لو تريامون) تلك الأخت الصغيرة المعنوية التي تقفز على الحبل في ميدان صغير ، وقد أجلستها على ركبتك وقرأت في عينيها هلاكك . استمعوا إليها . . . تظنون أولاً أنها لا تفهم ما تقول ، ولكن سرعان ما تمد يدها الصغيرة التي قبلتها لتداعب في الظلام » « الهلوسات » والاضطرابات الحسية . ولسوف تقدم لك ما يمكن من وعى عوالم كثيرة أخرى في آن واحد لدرجة لن تتمكن معها من سلوك مسلك ما في هذا العالم » (٨) .

والامر هنا أمر كشف منهجي لهذا العالم الغامض الذي يعيشه الشعراء الحقيقيون ، ذلك العالم الذي أوضحه فرويد . ولكي نفعل هذا لا بد لنا أولاً من أن نحطم إطارات المنطق ، ومن أن نقضى على الوسائل الفنية العادية في علم النفس ، وأن نحدد لغتنا حتى نتعود على الأشكال الحديثة للربط الفكري ، تلك الأشكال التي تنضح في أعمال الفكر الذي يستغل « بلا هدف » . إلى هذا تهدف الألعاب السريالية ، وهي كعبة الأوراق الصغيرة التي تعمل المصادفة الحلوة فيها أحياناً على إنشاء تركيبات غريبة مذهلة للمنطق ، بين الالفاظ . علاقات تثير الخيال ، الذي ينظر أمامه ، وقد فتحت له آفاق جديدة . ولقد حصلنا يوماً من الأيام بهذه الطريقة على الجملة الآتية :

« إن الجنة الحلوة سوف تشرب نبيذاً جديداً » . . جثة حلوة ! ! لقد

استحقت المقابلة أن تصبح ذات شهرة ، ولقد أدى امتزاج الألفاظ الواحد مع الآخر إلى إنتاج نوع من الصفيح الذي يهز السمع والعقل من جذورهما .. ونحن هنا لانعرف لنا طريقاً ، ولكننا نشعر بشيء من الجاذبية يشدنا ، ومع هذا نشعر بخوف ما من هذا التقارب العجيب بين الدميم والجميل ، وبين الرعشة واللذة .

مثل هذه النتائج تأتي بطرق ووسائل شديدة بما يحدث ونحن نتسامر مسامرة جدية للغاية .. في قلب الأمثال السائرة وتحويرها . مثال ذلك : اعتداء على الشرف أحسن من معنى الجميل — أو — لا بد من أن تضرب أمك وهى شابة . هذان المثلان كافيان لكي تثبت أى نوع من المجهول يرمى عادة إلى إيقاظ الضمير فيما وراء الصدمة والدهشة ، عن طريق هذا التلاعب الشعري بالألفاظ

أما الوسائل الأكثر مباشرة لتحرير اللاشعور ، فإنها تستوحى من التجارب التي أجراها أطباء الأمراض العقلية في عصر كانت تسوده آراء عن « نوم اليقظة » و« التنويم المغناطيسى » و« الوساطة الروحانية » (نهاية القرن التاسع عشر) . والأمور أول الأمر هو الكتابة الآلية ، ويقول عنها بريتون : « وضع نفسك في أشد الحالات السلبية أو الإيجابية قدر استطاعتك ، ثم اكتب بسرعة دون موضوع سبق لك التفكير فيه بسرعة كبيرة لا تسمح لك بالحفظ ولا بقراءة ما كتبت مرة أخرى .. ولسوف تأتي الجملة الأولى وحدها .. استمر إذا ما طاب لك الاستمرار .. وضع نفسك تحت تصرف المهرس الذي لا ينضب .. وإذا ما هددك السكوت فضع حرفاً أياً كان وافرضه جدلاً بحيث يصبح الحرف الأول للكلمة التالية » (٩) .

وما إلقاء خطبة ارتجالية إلا صورة أخرى للكتابة الآلية ، ويعرفها بريتون بأنها « حديث فردى ذاتي سريع أقصى السرعة بحيث لا تستطيع روح النقد أن تصدر عنه حكماً ، بحيث لا يحتضنه بالتالي أى تراجع ،

وبحيث يصبح قدر المستطاع هو الفكرة النابعة من الكلام، (١٠). والرسم الآلى يخضع لنفس القواعد، ويقول زعيم السريالية فيما بعد: إن جميع هذا الإنتاج الفن قد خلق «تصوراً جمالياً فوق العادة»، وصوراً كثيرة تبلغ كما كبيراً قد لا يكون لنا القدرة أن نعدوا واحدة منها بيد طولى، وجاذبية خاصة، ومن هنا ومن هناك بعض جمل قصيرة تبعث على الضحك ضحكاً جاداً، (١١).

وسرد الأحلام أهم من هذا. وقد أوضح هذا فرويد دون غموض حيث قال: «إن تفسير الأحلام أجمل طريق يؤدي إلى معرفة اللا شعور»، (١٢)، ولم يفس السرياليون هذا الدرس، فجمعوا في حرص هذه المواهب الأسطورية التي تتضح في الليل، ولم لا؟ إن من الخطأ أن نضع حالة اليقظة بحيث تعارض حالة الحلم، وأن تقوم الأولى بناء على الثانية. فالحلم يعطى لنا قدر ما تعطى اليقظة، بل وأحسن منها طريقة الوصول إلى «الأرض المجهولة». ويريد لا يعتقد أن «الحلم عكس الفكرة»، والذي يعلمه عنه يستميله إلى «الاعتقاد تماماً بأنه وسيلة أكثر حرية وأكثر انطلافاً، والحلم والفكرة كلاهما جانب مختلف لنفس الشيء، بحيث يمثل الحلم جانباً واحداً من نسيج ما، يتصف بالمعنى، ولكنه أيضاً يتصف بالجبن أو الخوف. أما الفكرة فهي الجانب الآخر من هذا النسيج الذي يتصف بالظلام ولكنه يتصف أيضاً بضيق الخيوط»، (١٣).

ويوضح لنا بريتون هذه الفكرة، ويدخل إليها النظرية الرئيسية، ألا وهي «ما فوق الواقعي»، حيث يقول: «أعتقد أن الحل المستقبل لهمايتين الحاليتين المتناقضتين ظاهراً... أقصد الحلم والحقيقة، يوجد في نوع من الحقيقة المطلقة... في «ما فوق الواقع»، إن وصح هذا التعبير، (١٤) ويوضح بريتون هذا أيضاً فيما بعد بقوله: «إن كل شيء يدعونا إلى الاعتقاد بأنه توجد نقطة ما في العقل بتوقف عندها إدراك التمييز بين الحياة والموت، الحقيقي والخيالي، الماضي والمستقبل، الذي يقبل النقل ولا يقبله، والمرتفع

والمخفض» (١٥) . ولهذا فإن «شاعر المستقبل هو الذى سوف يتخطى فكرة العمل والحلم، ويمد البثرة العظيمة الآتية من الشجرة إلى الجذور المتشابكة، ويعرف كيف يقنع أولئك الذين يتذوقونها بأن ليست بها مرارة، وهو إذ تحمله موجة عصره يستطيع دون ضيق ولأول مرة أن يستقبل ويرسل النداءات التى تنزاحم نحوه من صميم النفوس» (١٦) . وبالاختصار فإن اليقظة والحلم شقيقان ، دون أن نؤكد أن هذا أكثر حقيقة من ذاك ، ولأنهما يظهران «كأنبوبتين مستطرتين» .

والجنون يعبر أيضاً عن الحياة العميقة ، والأفراد العاديون لا يزدون فى شيء عن المصابين بأمراض عقلية ، كما أن اليقظة ليست بأرفع من الحلم . «والجنون فريسة فردية لاشك لدكتاتورية المجتمع . ودون أن نتحدث عن حالة العبقرية الكاملة التى تظهر لدى بعض المجانين . . تؤكد هنا الشرعية المطلقة لنظرتهم إلى الحقيقة ولجميع الأعمال التى تصدر عنها» (١٧) ، فمن مصلحة الشاعر إذاً أن يجمع رسالتهم ، وما يبيده المجانين سرا ، ساقضى حياى فى البحث عنه ، فهم أناس ذوو أمانة خالصة وبراءة لا تعادها إلا براقتى ، وقد كان من الضروري أن يرحل كولومبوس مع بعض المجانين حتى يكتشف أمر بكا. فانظر كيف تجسد هذا الجنون واستمر ، (١٨) ، والسريالى كولومبوس جديد ، يرحل هو أيضاً لغزو أمريكا ما ، قارة شاسعة لم يطررها أحد إلى اليوم .

وقد فهم السرياليون أن الشذوذ النفسى يقدم فرصة لا مثيل لها ، تسمح «باستخدام الوجود على الأرض مع تحميله كل ما يتضمن بين الحدود وفيما وراءها» (١٩) . وينتهز بريتون الفرصة التى تواتيه ويكتب «ناجا» - وهى قصة امرأة عرفها ، تسمى نفسها «الروح المتجولة» - امرأة تصيها حالات «هلوسة» ، وتعيش فى عصور أخرى ، وفى بيئات أخرى ، تصنعها فى دقة تامة ، وتستخدم جملا ذات تركيبات واستعارات - وهذا أمره عجيب -

موجودة في كتاب سبق أن قرأه بریتون منذ فترة قريبة ، ولا يمكن أن تعرفها هي . جنون ؟ لكن ما معنى هذا بالضبط ؟ وماذا بهم إذا اقتسم وإياها — حيث إنه تزوجها — ثروته ونسب إلى نفسه غنيمتها الوفيرة ؟ .

ولنوقف هنا العرض الذي نجريه ، وهو يمثل تقريباً المذهب الذي يعلنه أعضاء الجماعة (السريالية) مشتركين ، لأنهم في الواقع سرعان ما انفصلوا بعضهم عن بعض ، وسلك كل منهم طريقاً مختلفاً ، فاختفى بعضهم ، وقذف الانتحار أو الحجز في مستشفيات الأمراض النفسية من آن لآخر بالرعب بين تلامذتهم ، وعرف المستلذون المهرة منهم أن ليس من اليسير ودون خطر أن يلعب الإنسان بعض المفرقات ، ومع ذلك فقد كان للسريالية على الكثرة منهم أثر طيب ، وقد تمكن كثيرون أمثال أراجون وبيريه وكريفيل وديسنوس ونافيل وإرنست — دون أن نتحدث عن بریتون ذاته — من أن يخلقوا لأنفسهم صيناً في مجالات الأدب والتصوير والسينما . ولا شك أن ايلوارد شاعر كبير ، وربما كان سلفاتور دالي وجورجيو دي شيريكو مصورين عظميين ... إنهم قطعاً مصوران لها أهميتهما .

فهل ندين للاشعور شيء فيما قدم هؤلاء من أحسن الأعمال ؟ لنذكر أن هذا موضوعنا ... فالتجربة السريالية تفرض علينا إجابة مخففة . فالقصيدة الشعرية — ونحن نوافق على ذلك — عبارة عن انقلاب عقلي ، لكنها إن صح التعبير أيضاً انقلاب يحكم نفسه بنفسه . ويقول ما كس جا كرب : « إن صفة الشعر الغنائى الفردى هي الاشعور ، لكنه الاشعور الذى تتحكم فيه الرقابة » (٢٠) وعلى كل فاللاشعور له قدر هو قدر الإنسان بعينه ؛ إذ أنه يكون أحياناً من الرداءة بمكان فإن أنت كتبت طبقاً للطريقة السريالية تفاهات مؤلمة ، فهي لن تعد وهذا المعنى الردىء ، ويصرح لنا أراجون بنفس الرأى (٢١) ، وعلى أية حال إذا استثنينا على وجه الخصوص الإنتاج الذى تجود به القريحة وهو متصفا بصفة الوثائق والتدريب لوجدنا أن الشعر السريالى مرتب

ترتيباً لا يقل دقة عن أى شعر آخر ، فإذا كان الاشعور هو الذى يقدم المواد الخام فإن الشعور ضرورى فى الانتقاء والتنظيم .

وبعد . . فلطالما احتج سادة السريالية على أولئك الذين يتخذون من نظرياتهم وسيلة للبالغة ، وينعى بريتون فى « النشرة الثانية » للسريالية عدم فهم الكثيرين له ، وأراجون من ناحيته لا يخضع الألفاظ حين يوجه حديثه إلى الشبان المتحمسين الذين لا يتمتعون بالعبقرية ولم يبروا بالتجربة ، فيقدمون له نتاجاً من صميم العمل واليقظة ، حيث يقول : « هناك أسطورة سائدة تقول بأنه يكفى أن يتعلم الإنسان اللعبة ، وإن من الممكن أن تصدر عفواً نصوص ذات قيمة شاعرية كبيرة من قلم أى فرد كان ، كما يحدث فى حالة الإسهال الذى لا ينتهى . » والحجة هنا أن الأمر أمر سريالية حين يعتقد أن أول ما يأتى تحت القلم من ترهات يمكن أن يكون شعراً صحيحاً ، (٢٢) . . وإيلوارد ليس بأقل وضوحاً من سابقه حين يقول : « لقد اعتقد بعض الناس أن الكتابة التى تأتى عفواً الخاطر تجعل القصائد عديمة الفائدة . لا — إنها تزيد وتنمى فحسب حقل اختبار الضمير الشاعرى وتضفى عليه ثروة . وإذا كان الشعور كاملاً فإن عناصر مثل هذه الكتابة التى تخرج من العالم الداخلى وعناصر العالم الخارجى تتوازن كلهما معاً لتكوين الوحدة الشاعرية ، (٢٣) وتقنين الاشعور والشعور لا يعنى أن اللغة هى التى تتخذ المكان الأول . . . هكذا تقول النشرة السريالية الأولى . .

وهكذا مزجت السريالية بالماء نبيذها هى الأخرى .

لبست البقرية جنونا

لم يكن السرياليون أول من لاحظوا التشابه بين الإبداع الفنى ومظاهر الفلق النفسى ، فقد سبق لأفلاطون أن كتب يقول : « الشعراء الغنائيون لا يتمتعون بصفة التعقل حين يتغنون بهذه الأشعار الجميلة ، بل إنهم فريسة

لغيبوبة باكوس «إله النيزد» (٢٤) وأكد أرسطو أيضاً أن أغلب أعظم الرجال، وعلى وجه الخصوص الشعراء، يغلب عليهم المزاج السوداوى، أى المرض النفسى العصبى ويرى كثير من الأطباء أن القرن التاسع عشر قد أوضح أن العبقرية مرض، وقد ارتبط اسم «لامبروزو» بهذه النظرية، ورأى أنه يستطيع تحديد الاندفاعات المفاجئة وما يتبعها في أحيان كثيرة من هبوط نفسى شديد يتخذ شكل أزمات مخففة من مرض الصرع.

واليوم يتحفظ أصحاب النظرية في هذا بعض الشيء، واو أن الجنون لم يفقد مكانته، بل إن قيمته آخذة في الارتفاع في سوق القيم، مستفيدة من حياة هذا العصر بكل مظاهر الرجوع إلى عناصر التكوين الأولية واللامعقول والغريزة. ويرى فيه مارو علامة لقلق يسود عصرنا حيث يقول: «لقد كان الجنون في العصور السابقة حالة انحطاط، وكان التعبير الذى يصدر عنه تعبيراً عن عالم غير متناسق، ولكنه أصبح اليوم نوعاً من الرؤية وتحريراً للعالم» (٢٥) فهل يعنى هذا أن العبقرية تنتهى بأن تكون هى الجنون؟ .. أو هل يمكن أن يدخل في تكوينها نوع من الجنون.

هناك حقائق لا تقبل المناقشة، يلوح أنها تسمح بقبول هذا ... وهناك من الشعراء ورجال الأدب والموسيقين عدد كبير نسبياً، كان من الممكن أن يكونوا من نزلاء أطباء الأمراض العقلية ومن المقيمين بمستشفياتها، وقد انتهى كثيرون منهم بالجنون الحقيقى. ولندكر منهم خلال القرن التاسع عشر فقط شومان ونيرفال ونييتشه وبودلير، وأصيب البعض الآخر دون أن يصل إلى حد الخلل العقلى الكامل بالتهاب عصبى خطير أو يسير..... والمعروف عن دوستوفيسكى أنه كان مصاباً بالصرع. ووصل الصرع بفان جوخ بعد أن زادت حدته بالإجهاد والإسراف في التبغ والخمر والقهوة إلى درجة الغيبوبة العقلية المعقدة وانعدام الثبات لديه واندفاعه نحو البؤساء وميله نحو التصوفية وتعلقه بأسرته وحاجته الدائمة إلى قطع

الصلة مع من يعرفه، والتغيرات التي تطرأ عليه من الرقة والغضب الشديد، و«هلوسته».. كل هذه دلائل لها مغزاها. وفلو بير كان كذلك مصاباً بحالة صرعية تدل عليها انفجاراته التي كانت تحدث له عندما كان يلفظ في صيحات حلقة أليمة تعبيراته وجملة التي أضلته صياغتها.

ووصلت الحال بالرسام . و . بلاك لدرجة أنه بعد أن وضع بمستشفى للأمراض العقلية، كان يعتقد أنه موجود مع شخصيات تاريخية ماتت منذ مدة طويلة، وأنه يتحدث إليهم ويرسم صورهم. والفن رامي، إذ كان يمارس الهروب والقسوة والخشونة إلى أقصاها كان يسمى «شخصية عسيرة الخلق»، قبل أن يصبح مدمناً للخمر و«مهلوساً»، وقصة أريك ساتي تمسكتنا من تشخيص حالة خفيفة من الانقسام، وتيرنر الذي اتصف بالبخل وحب العزلة كان دائماً في حالة قلق شديد، لا يستطيع أن يبقى في مسكن واحد أكثر من بضعة أيام، وتخفى تحت اسم مستعار، بحيث يمكن القول إنه أكثر من فنان ذى «أصالة».

من العبث أن نطيل القائمة وهي مذهلة في ضخامتها... غير أنه ليس في النية أن نبرهن على أن العبقرية تختلط والجنون أو المرض النفسي، لأنه لا يكفي أن يكون الإنسان مصاباً بالصرع حتى يصور كما صور فان جوخ، وما جميع الشبان الناشئين بعسيري القيادة مثل رامبو... وما من مرء في أن العباقرة الذين كانوا يتمتعون بصحة عقلية كاملة كثيرون... إذ لم يتمكن أطباء الأمراض العقلية مثلاً من أن يجدوا شيئاً ما في حياة جوته ولا مارتين وفيكتور هوجو وبالزاك وبيجي وكوديل ورينوار ومونييه وغيرهم كثيرون...

إذا كانت العبقرية إذن شيئاً شاذاً على الدوام، فهي ليست دائماً مرضية، وكل ما يمكن قوله هو أن المرض في حالات معينة يتضح في مراحل إثارة جنونية خفيفة، أو هبوط جنوني سلبي من شأنه أن يثير النشاط النفسي ويتضمن

حالة ارتياح وحماسة تساعد على الإبداع . وينطبق هذا أحيانا على حالات الصرع ، والقلق غير الجاد ، والجنون المتقطع . وهنا تعمل الثورة كدافع لا إرادى مؤقت ، كما تفعل القهوة والشمبانيا والكحول والكوكايين التى طالما بالغ فى تعاطيها مثلا فولتير وبالزاك وبو وهوفمان وموسيه وموباسان وفرلين (٢٦) .

لهذا فليس الأمر قاعدة عامة . والاضطراب العقلى يصيب عادة القوى الإبداعية بنسبة قوته ، ويقضى عليها نهائيا إذا ما وصل إلى حد الجنون الفعلى . ومصادق ذلك أنه ما إن أدخل بودلير ، والفيلسوف نيتشه ، والموسيقى شومان إلى مستشفى الأمراض العقلية ، حتى انتهت حياتهم الفنية ، ولم تكن حالات هؤلاء الفنانين خطيرة إلى حد مؤسف ، ولكنها ليست أقل أسفا فى الحالات التى تتصف بالخبث المرضى . « وهناك فكرة سائدة تقول بأن الحالة النفسية المرضية تعمل على تحرير العبقرية أحيانا لدى الفرد الذى ينصرف إلى الفن خلال فترة الإثارة » - لكن هذا ليس صحيحا إلا فى حالات عابرة - واختفاء الموهبة نتيجة لمرض عقلى أكثر شيوعا من ظهورها فى نفس الظروف . وعلى أى حال فإن القلق النفسى الشديد ينتهى بالعجز ، فعند المصاب بالانفصام مثلا ، يجوز ألا تعود الموهبة إلى الظهور من تلقاء ذاتها ، لكن ظهورها هذا يتصف بالجذب والجفاف نظراً للنقص الذى يطرأ على عاطفته الذاتية (٢٧) .

والخلاصة أن المجنون لا يتمتع بالعبقرية إلا بقدر ما هو ليس بمجنون ، سواء أكان المجنون فى حدود معينة - إن صح القول - بحيث لا يمنعه من ممارسة قدرته فى مجال فنه ، أم كان من النوع الذى يخف من فترة لآخرى ، وقد كانت الحالة الأخيرة حالة لوكريسى (٢٨) على ما يظهر ، فقد قيل إن هذا الشاعر اللاتينى فقد عقله بسبب تناوله نوعا من السم ، وكان يكتب قصيدته الشاعرية فى اللحظات الصافية من حياته وهو مجنون «جنونا متقطعا»

أدى به رغم تقطعه إلى الانتحار . وليست لدينا وثائق كافية عن حياة لوكريسى . وكما قال بيرجسون : « يتخذ هذا التاريخ الغامض شكل قصة ، ، لكننا نعرف جيدا نيرفال ونيتشه وأوجوست كومت وشومان وفان جوخ . وقد كانوا ذوى جنون « متقطع ، بحيث أنشأوا أعمالهم فى فترات الصحو الذهنى التى كانت تتخلل الأزيمة . ويجوز أن يكون الجنون قد ترك أثره فى هذه الأعمال ، لكنه لم يكن سببا لها .

والعبقريه تسلك سبيلها لا بسبب الجنون ، بل رغما عنه . وإلى جانب هذه الحقيقة فإنه ليس من المستبعد أن تنشب حالة القلق النفسى مغلها فى الفنان أو الأديب ، ولا أن تأتى إليه بعناصر أصيلة فى الإبداع ، لكن بشرط أن يكون الضمير والعقل والخيال مسيطرة عليه ، محتفظة بهذه السيطرة على الأقل خلال لحظات معينة . ومرض الصرع يظهر فى كل لوحة من لوحات فان جوخ ، كما يظهر فى كل صفحة من صفحات دوستوفيسكى ، وهو يدمغ أعمالهما بطابع المأساة ، لكنه لا يقلل من الإنتاج ولا من قيمته ، هذا ونجد لدى رجال الأدب والتصوير هؤلاء نفس الأمراض التى نجد ها عند مرضانا ، كما نلاحظ أنها تنتج من نفس الأسباب ، لكننا لا نستطيع مطابقتها الواحدة منها بالأخرى مطابقة تامة . وهناك قوة أكبر من المرض تعهدت فان جوخ ودوستوفيسكى بالحماية ، وقد أرغمت عبقريتهما على تتبع سرعة الحالات المرضية والعقد التى كانت تعذب اللاشعور لديهم ، ولكنها تمكنت من السيطرة عليها وإخضاعها لمطالب الفن (٢٩) ، وسوف يستمر القائلون فى قولهم بأن عبقرية فان جوخ كان نصفها راجعا إلى جنونه ، لكن قد يكون من الأصوب أن نقول إن الأعمال الفنية — على الأقل إلى ما قبل العام الأخير من حياته — تنصف بتوازن عظيم ، وتشهد بقوة بطولية لعقلية سليمة وإرادة متينة تحكمت فى طبيعة ثائرة وفى مجال مادى قابل للحوادث العصبية .

ويؤكد آراءنا هذه فخص الأعمال الناتجة من عقول مرضى الأمراض العقلية ، وقد ذكرنا السبب الذي جعلهم اليوم موضع العناية والبحث ، وأعمال المجانين أكثر الأعمال تأثرا بالضيق النفسي الذي يبعث فيها الحياة ، وأكثرها قلقا بسبب ما فيها من خلط بين الخط اليدوي الجميل والغضب الجامح ، وربما أكثر توضيحا لنواحي غموضنا (٣٠) لهذا أمكن نشر أشعار وعرض لوحات ورسوم قدمها مجانين مبكرون ومصابون بالشلل الكلى أو بالصرع أو بالانفصام أو بإدمان الخور أو بالانحلال الخ وليست هذه الأعمال بعديمة الأهمية دائما من وجهة نظر الفن ، إذ أن بها ما يبعث على الإغراء ، ويوجه أخص إغراء أولئك الذين يستطيعون التخلص من الأشكال المنتظمة ، ويرفضون الوسائل التقليدية ، ويفضلون العود إلى الإدراكات الحسية الساذجة وإلى هز المشاعر في الفن الحديث : « مع هذا فن الضروري أن نأخذ حذرنا لأننا نحتجز أعمال بعض المجانين التي يختارها فنانون أو أطباء . وإذا فرضنا إقامة معرض يمثل فيه جميع المرضى الذين يصورون ، لوجدنا أن هذا المعرض أشبه ما يكون بمعارض معسكرات الاعتقال أكثر منه برسوم فردية قام بها المجانين (٣١) .

وحتى الأعمال التي يكون فيها مؤلفها مسيطرا على مواهبه وحتى الفن الذي يقدمه المصاب بمرض عقلي بفرض أن فيه احتفاظا نسيجا بالخيال لإبداعى حالما يتخطى هذا الفن حدود الخلط الذي يصدر عن المصاب بالانفصام الهاج والمجنون الذي لا يعى ، وهنا يتضمن الفن أشد الأشكال تعقيدا ونوعا من حرية التناقض . غير أن الطريقة التي يتبعها هذا المريض في ذاتها تبين أن احتفاظه بهذا الخيال الإبداعى وتلك الحرية ضئيل ، وأن الآلية تحل محل التبادل الطبيعى بين الشعور واللاشعور ، وهو تبادل ضرورى لإبداع الأعمال الفنية الصحيحة ، وكما لو كان وهو يتبع هذه الآلية خائفا من الايعر في سرعة عما يشعر به . والحقيقة أن العمل الذي يقدمه المريض لا يصدر نتيجة

لتأملات نابعة من الإرادة أو موجبة ، بل إنه سلسلة من الانطباعات متقاربة أكثر منها منظمة ، (٣٢) .

ولدى المصابين بالانقصام مثلا - ولا نفسي هنا أن نسبتهم بين المجانين من الكتاب والرسامين تبلغ الثلثين - يفرض اللاشعور نفسه فرضا أكيدا ، بحث يقلل من الشعور أو يقضى عليه تماما ، ويخضع الأشكال له مباشرة ، ولا يسمح بشيء من التعديل . والعمل الانقصامي يحمل دائما علامة أصله ومصدره ، وهو يمثل في أحسن الحالات اكتشافا لم يستغل . وهكذا يختلف لاشعور الفنان أو الشاعر عن لاشعور المنقصم من حيث القلق والتردد ، وفي هذه اللحظات يضع الفنان ريشته ويبحث ، سائلا ذاكرته أو حساسيته ، ويظل ينقد ما يجيش بخلدّه ويعدله قبل أن يقدمه في صورة عمل فني (٣٣) .

من هنا لا يمكن للتأنيب إلا أن تكون مختلفة ، ومجرد أن يكون الأمر نتاجا آخر خلاف خلط أو حك للقلم بلا ترابط ما ، شيء يعني أن المريض لا يشكل شيئا ، فهذا الشكل المنعزل أو تلك الصورة المرسومة غالبا ما تكون لها قيمة إذا أخذناها وحدها ، بل وأكثر من ذلك تظهر أحيانا بين هذه العناصر بعض ارتباطات جميلة . والشيء الذي ينقص في هذه الأحوال هو العمل المكتمل وبناء اللوحة أو القصيدة ، وهما شيان يمتنعان على الضعف العقلي ، ويكون العمل الانقصامي من قطع تتقابل كما لو كانت قد وضعت مصادفة لكنها دون اتصال تشكيلي (بلاستيكي) فيما بينها ، وما من شيء هنا يمكن أن يسمى التضحية بالتفاصيل من أجل المجموع ، لأن الرسم الانقصامي « مكسوس » مليء بأشياء كثيرة ، لا نغم له ولا مكان في مجال الحرية .

وفي نفس الوقت كلما تقدم المرض النفسي أصبحت الأشكال أشبه

بالمسودة وتكررت فيها الخطوط ، ويؤدي هذا الاتجاه بالمنفصم إلى ممارسة نوع من الزخرفة يحصل فيه عرضا على خطوط زخرفية طيبة . غير أن الخطوط الضيقة وتكرار النسق الواحد الذي يبعثه الملل ، والتكلف ، وانعدام الدفع العاطفي ، وحرارة التوصل تكشف كلها في الحال عن خلط آلى لاحسى ، وعن انعدام الاتصال بالبيئة ، وعدم الانفصال النفسى . ففي الوقت الذى يفيد فيه الفنان الحقيقى بكل ما يمكن أن تقدمه له الخبرة الحية ، نجد أن المنفصم لا يحدد نفسه إلا قليلا ، وتظل قدرة الاختراع وتنظيم الأشكال عنده قدرة هزيلة آلية مصطنعة ، لأنها لم تتلق غذاءها من الحساسية المكيفة . وفي نهاية الأمر فإن الذى ينقص المريض لى يكون فنانا هو الإطالة الخصبية ، أو بتعبير آخر ، القدرة على الإبداع . ففي حين يصنع الشاعر ، العجيب من الأمور ، يعيش الفنان فى عالم وجوده قائم أصلا قبل مرضه ، يظل كما هو عجيبا ، دون قدرة على صنع جديد (٣٤) .

فإذا كان هناك من المجانين من يصور ويرسم ويكتب ، فليس هناك بالمعنى السليم لهذا التعبير فن مريض ، وقد رأينا أن الفن يهدف إلى التعبير عما هو عالمى . فالبدع والتأمل لا يستطيعان التوصل إلا بفضل الاتجاهات الإنسانية العامة ، والعقد الجماعية (٣٥) ، المريض العصبى يعكس فى أعماله عقده الشخصية هو فحسب ، وبالتالي يصبح المريض عقليا شخصا غريبا لا يتمكن إلا من توصيل عدم التوازن فى مزاجه هو ، أو الأجزاء غير المتناسقة لآلته اللاحسية ، إلى الأشخاص العاديين . وليس الفن بالنسبة له لغة يجرى إبداعها بحيث يمكن فهمه ، والطبيب النفسى ، وطبيب الأمراض العقلية يستطيعان اكتشاف معنى أعماله ، لأنهما يعرفان العقد المسيطرة عليه (٣٦) . على أن هذه العقد المسيطرة لا تفيد إلا أنها وثائق علاجية فحسب .

هنا يوجد الدافع الوحيد الذى يدفعهما لممارسة العمل . والسبب فى

خية الأمل التي تحدث لهما عند البحث عن إبداع العمل الفني للمجنون .
 وكما تتضح لنا فنون المتوحشين وفنون المجانين وكأنها تعبير عن الحرية ،
 يظل المجنون حبيس مأساة ترجع إليها حرته الظاهرية . ولا يمكن أن يكون
 الانقطاع بينه وبين العالم موضع توجيه ، لأنه انقطاع مفروض عليه . كما
 أنه لا يمكن أن يكون صفة تنصف بها الأعمال الفنية . وهنا تقوم قرابة
 واضحة بين ما يصدره المجنون وبين فن الأطفال . بهذا يصبح انقطاع الفنان
 بمثابة إنقاذ ، ولحظة من لحظات عبقريته . أما انقطاع المجنون فهو بمثابة
 سجن ، إن أراد تصويره — ولا يمكنه أن يصور غيره — بهر أبصارنا
 كما يهرها الجنون نفسه تماماً ، لا كما يهرها هاملت (٣٧) .

ليس الشعر سمات وأهام وأهموم بقطر

لقد كان الحلم — كالجنون تماماً — موضع بحث العقول التي تشتغل
 بمولد الأعمال الفنية . ما القصد إذا بكلمة «حلم» . . . ؟ أولاً : الرؤيا
 التي يراها الإنسان أثناء النوم ليلاً ، ثم في أغلب الأحيان حلم نصف
 اليقظة ، والحلم التلقائي أو الناتج عن إثارة مافي النهار ، وحلم الهذيان ، وحلم
 النقوشة أو الحالة الصوفية ، وكذلك الأحلام التأملية التي جعلت منها
 الشهرة نصيباً للشعراء والشباب . ولا بد لنا هنا قبل كل شيء من أن نبقى
 على التمييز بين مختلف هذه الأنواع ؛ فهي تفيد في تحديد نصيب كل من
 الشعور واللاشعور بأقل ما يمكن من عدم الدقة .

ولطالما أوضح الكثيرون التجانس بين الحلم والروح المتحولة
 غير أن هذه الملاحظة تصبح صحيحة بوجه خاص فيما يتعلق بالجيل الأول
 من الرومانتيكيين ، وبأكثرهم تفكيراً وميتافيزيقية وتقصد هنا
 نوافليس (٣٨) . والحلم في نظر مؤلف «تسيحات الليل» — نوافليس —
 مثله مثل الموت وما يتصل به من غمرات ، عبارة عن كشف وإلهام .

لأن ما نسميه حقيقة هو من قبيل الوهم ، وكل ما نحن عليه حقا شيء نجهله . ومن وجهة النظر هذه ، يصبح الحلم وسيلة لمعرفة المناطق الباطنة فينا وحتى أكثرنا فوضى ، يعتبر ظاهرة فريدة تفتح — دون أن يستمد حلها من السماء — شقا ثميننا في الستار الغامض الذي يسقط ، وهو يضم ألف ثنية ، من أعماق نفوسنا ، (٣٩) .

ولكن في الوقت الذي نكشف فيه لأنفسنا عن سر كياناتنا الباطن ، يكشف لنا الحلم عن أسرار العالم . ويعتقد نوفاليس بصفته تلميذ فيخته أن الطبيعة انعكاس «للأنا» ، وبهذا يصبح النفاذ إلى أعماق الأنا نفاذاً كذلك إلى أعماق الطبيعة «وإذا كنا نحلم بالترحال خلال العالم ، ألا يعني هذا أن العالم موجود في أعماقنا ؟ لكننا نجهل أعماق نفوسنا نحن . وكلما تقدمنا نحوها وجدنا الغموض يحيط بنا ، ومع هذا فالخلود الذي يتصف به عالمنا ومستقبلنا قائم فينا ، وإلا لما كان له مكان» (٤٠) هكذا يصبح «الحلم ذا مغزى ونبوة ، لأنه من عمل روح الطبيعة» (٤١) ، وبفضله يصل الشاعر إلى ما وراء الأشياء ، وإلى ما بعد وجوده الظاهري ، ليندج في الحقيقة العليا . «ويرتبط المرتضى بما هو غير مرتضى ، كما يرتبط المسموع بما لا يمكن أن يسمع ، والملبوس بغير الملبوس ، بل ربما ما يكون موضع التفكير بما لا يمكن أن يكون . الواقع أن عالم الأرواح مفتوح لنا فعلا ، (٤٢) .

فالمغزى النهائي للحلم هو أنه يؤدي إلى مملكة اللازمين ، إلى هذا الجزء الموجود في كل مكان وفي اللامكان ، (٤٣) حيث يلحق نوفاليس نهائيا بخطيئته التي اختفت ، ويستمتع بسعادة لا نهاية لها ، في وحدة تجمع الليل والنهار ، والموت والحياة ، والشعور واللاشعور ، الروح والطبيعة . والآن — هكذا يقول — : «أعرف متى يأتي الصباح الأخير ، ومتى يتوقف الضوء عن طرد الليل والحب ... متى ينتهي النوم — وستكون هذه الحال أبدية — من أن يصبح شيئا آخر غير حلم وحيد لا ينضب» (٤٤) .

ويموز إعتبار جيراردى نيرفال ، من نواح عدة ، نوفاليس فرنسا .
فالفكرة الرئيسية لدى كليهما واحدة . . . ويرى نوفاليس أن الحلم حياة
أخرى . ويقول : لم أتمكن - دون أن أرتعد - من اختراق هذه الأبواب
العاجية . أو القرنية ، التى تفصلنا عن العالم غير المرئى . إن اللحظات
الأولى للنوم صبورة للموت وهناك خدر قائم يسيطر على تفكيرنا
ولا يمكن أن نحدد من خلاله تلك اللحظة الدقيقة التى تقوم فيها ، الأنا ،
بالاستمرار فى عمل الوجود بصورة أخرى . إنها موجة خفية تضىء شيئاً
فشيئاً . . . وهاهى ذى الوجوه الشاحبة تخرج وتتميز فى الظلال والظلام ،
لا حراك بها . . . ويلوح أنها كانت تقيم فى مقام الأبرياء الأولين ، لكن
هاهى ذى اللوحة تتخذ لها شكلاً حيث يظهر ضوء ساطع جديد ليدفع بهذه
الوجوه العجيبة ، ويفتح عالم الأرواح أمامنا ، (٤٥) .

مع هذا فأعمال جيراردى بما فيها من نقاء وبلبلة فى نفس الوقت تحمل علامة
مصيره الحزين ، وأثر حالته العصبية النفسية التى أدت به آخر الأمر إلى
الانتحار . وهذه الصورة الصادرة عن الحلم ، وتلك التى تنبع من حالة
الذيان تغزوه غزو حقيقياً ، وهى إذ تفعل ذلك ، تحل محل الإدراك الطبيعى
للأمر ، بحيث ' يتدفق الحلم فى الحياة الحقيقية ' (٤٦) لدرجة تصبح فيها
الحقيقة حلماً ، ويصبح الحلم حقيقة . إنه يقول : ' كان الفرق الوحيد عندى
بين اليقظة والنوم هو أنه خلال اليقظة يتغير شكل الأشياء كلها فى نظرى ،
وتتغير هيئة كل فرد يقترب منى ، ويصحب الأشياء الملبوسة ظل يغير
شكلها ، وتحلل اهتزازات الضوء وتركيبات الألوان فترات ودنى كسلسلة
دائمة من انطباعات ترتبط فيما بينها ، وينفصل الحلم الذى يحويها عن
العناصر الخارجية ، فى حين يستمر هذا الحلم . . . ' (٤٧) .

وتزداد هذه القدرة على الخلط بين عالمين منفصلين فى الواقع ، كلما
تكيف الأديب فى سهولة فريدة فى نوعها بشخصيات مختلفة ، وبعمق تلازم

روحه الغامضة ، وأحياناً يدعو السأم أو الشعور بخطأ ارتكبه إلى تصور أشباح رهيبة ، وأحياناً يفتابه الحنين إلى كمال أصيل فتتولد عن حنينه هذا صور تخيلية رائعة وذكريات الطفولة ومناظر من عصور ذهبية . إذ أن الحلم عند نيرفال يغرق صاحبه في لجة من ينايع ذاكرة البشرية ، ومن هنا تأتي قيمة الشخصيات الأسطورية والرمزية التي تصبغ الصورة عنده ، وهي صورة تتخذ لنفسها شكلاً من واقع مصير إنسان ما ، ثم تنتقل إلى أشباهه جميعاً . والحلم عنده كنز من صور ، يمسك بمفتاح ألفاظ ، يتعين عليه أن يترعه : « لقد استخدمت - هكذا يقول - جميع قوى الإرادة عندي لكي أنفذ كذلك إلى مجال سر غامض سبق أن كشفت عنه بأن رفعت بعض الحجاب عنه . وبهذه الفكرة التي خلقتها لنفسى عن الأحلام كى أفتح طريق الاتصال بعالم الأرواح . . . كان الأمل يراودنى . . . وما زال يراودنى (٤٨) » .

مع هذا فالأحلام تدعو علماء النفس وأطباء العقول ورجال الأدب وتثير اهتمامهم ، ويؤكد لنا « مين دى بيران » ، في عام ١٨٠٧ أن هناك تقابلاً بين النوم وحالات السبات والتشنجات العصبية ، ويثبت وجود « ومضات بريق فكري وعقلي ، وسط خليط من صور ليلية تعد الخواطر أو تبرر قيام خواج » (٤٩) . وطبق « مورودى تور » ، بعد هذا بأربعين عاماً الأحلام التي تنتج عن تعاطى المخدرات على مرضاه وأصدقائه . واهتم عدد من الأدباء والفنانين ، كان منهم جوتيه وفيني ، ونوديه وجرافيل ونيرفال نفسه بهذه البحوث ، معتقدين أن فى استطاعتهم بهذه الوسيلة تنمية الوعى لديهم ، ونظموا سهرات ليلية أسموها « الفانتازيا » أو « المهارج » ، كانوا يأكلون خلالها معاً حلوى معجونة بالحشيش .

ويحكى تيوفيل جوتييه إحدى هذه التجارب . وكان المعتقد أن فى الإمكان الدخول تحت تأثير المخدر إلى قصور سحرية وعوالم خيالية ، وتقدم أشد الإدراكات حيوية ، وأكثر الخيالات عجباً وأكبر الموجّهات غرابة ..

نحو سريرة استولت عليها المدهشة، لتولد أشكالا خارقة للعادة، ثم تمحوها. وكانت هناك أحجار كريمة من الألوان جميعا، تنساب وتهار على التوالي، وفي جو كله ومضات أضواء تختلط، كانت الملايين من فراشات تطير في تراحم مستمر، ترفرف بأجنحتها في همس هو أشبه بهمس المراوح. وكانت هناك أزهار ضخمة ذات تيجان من بللور، وزنايق ذهبية وفضية، تصعد وتتفتح من حولي. وينمحي الزمان والمكان. وفي حسابي أن هذه الحال قد دامت ما يقرب من ثلثمائة عام... وما إن انتهت هذه النوبة حتى لاحظت أنها لم تدم أكثر من ربع ساعة، وينوب الشعور بالوجود الشخصي في شعور بالارتياح وبسعادة وبهجة، ويجري امتصاص «الآنا» في صور حورية أخاذة يتأملها. ولم يحدث أبدا أن غمرتني غبطة كهذه بصعودها... وكنت ذائبا في الموجة... غائبا عن نفسي... كنت كقطعة من إسفنج وسط البحر... (٥٠).

ويحاول «ادجار بو» - تحت سماوات أخرى - أن يضم هو أيضاً الحلم إلى الشعر. لكنه لم يلجأ إلى «الجنان الصناعية» التي لم تكن إلا ذات فائدة ضئيلة للأدب، ونخشى أن نقول هذا قولاً عابراً. وهو يقترح استعادة حالات الهذيان الاستهوائية، أو رؤية نصف السبات (٥١) وتثبيتها بحيث يجمع حالتى اليقظة والحلم معاً بنوع من المهارة الفائقة. وسوف نرى في سهولة تامة ما يقرب وما يميز جهوده عن جهود من سبق ذكرهم. مع هذا يجب أن نلاحظ أن الظاهرة التي وصفناها موجودة لدى هذا الثائر، مدمن الخمر المريض نفسياً (بو) خلال لحظات الهدوء والصحة التامة.

«هناك نوع من النزوات - الخواطر - ذو حلاوة ولذة، يقوم في النفس في لحظات الهدوء المطلق، عند ما تكون الصحة الجسدية والروحية قد وصلت إلى كمالها، و فقط عند نقطة من الزمن تختلط فيها حدود عالم اليقظة وحدود الأحلام وأنا لا أدرك هذه النزوات إلا عندما أكون

على وشك النوم تماماً . . . حيث أتأمل هذه الرؤيا برعب يخفف من نشوتي ، وعن طريق إيماني بأنها طبيعة تتعدى حدود الطبيعة البشرية ، وبأنها نظرة ملقاة على عالم الأرواح . إنى أصل إلى هذه النتيجة بأن أتعرف في سرور بالغ صفة الأصالة المطلقة عندي ، لأنه مامن شيء في هذه المشاعر النفسية يذكركني بالمشاعر العادية ، كما لو كانت الحواس الخمس لدى قد اختفت وحلت آلاف من الحواس سامية محلها .

إن الوصف والتفسير هنا يطابقان بشكل شامل تقريبي نظريتهما عند نوفاليس ونيرفال وجوتيه ، ومع هذا نجد أن ممارسة هذه الظواهر الشاذة دأبة ولصالح الشعر أكثر أصالة . . . ويقول بو : « كنت أعتقد أن في استطاعتي تجسيد هذه النزوات العابرة . وقد سمحت لي المحاولات التي بذلتها لهذا الغرض أن أخلق الحالة التي أستطيع فيها إدراكها ، أي إنى أستطيع الآن - فيما عدا إن كنت مريضا - أن أثق في حدوث هذه الحالة . . . بل أشعر بالقدرة على إرغامها على المجيء . . . ثم توصلت بعد ذلك إلى منع اختفاء نقطة الانتقال من النوم إلى اليقظة ، أقول منع اختفاء هذه النقطة إراديا بفعل السبات . ولا يعني هذا أنى قادر على إطالة النشوة عندي لكنني أستطيع العود إلى اليقظة وتثبيت حالة الرؤيا إن هي غادرتني . . . تثبيت الرؤيا نفسها في إطار الذاكرة بحيث أستعيدها أمام بصري وإخضاعها للتحليل في فترة زمنية قصيرة . ويمكن التأكد من أن سرد الرؤى - حتى ولو كان غير كامل - يدفع الفهم العالمى للإنسانية إلى القفز عالياً عن طريق الأشياء الموصوفة ، وعن طريق الأفكار التي قد توحى بها » (٥٢) .

ويحتج فاليري بقوة - ولا نجمل هذا - على القيمة الكبرى التي تعطى هكذا للأحلام ، ويعتبر هذا الاحتجاج نقطة رئيسية كبرى في علم الجمال عنده . حيث يقول : « لا بد أن نتجنب دائماً هذا الخطأ الحديث الشائع الذي

يخلط الحلم بالشعر، (٥٣)، وهو يضع النشوة الآتية من اللاشعور موضع العكس من ضرورة سيطرة الشعور على كل شيء، وكل ما لا يدخل في إطار المران الطليق للفكر الواضح المتميز يصبح موضع تشكك وشك، في كل ما يقال حول الكشف عما وراء الطبيعة.

لهذا نجده يهاجم الحالم الذي ألف « المارجيناليا » « بو » رغم إعجاب بودلير وأستاذه « أستاذ فاليري » لادجار بو. ويوضح لنا فاليري أن الأهمية التي يوليها البعض للأحلام إنما هي نتيجة لتوهم رجعي؛ حيث يقول: « إن اليقظة تعطي الأحلام شهرة لا تستحقها » (٥٤) وليس لرؤيا السبات أو نصف السبات علاقة ما بالقوة الحقيقية للروح، وليست أغرب الأحلام وأجملها وأكثرها جرأة، أحلام أعرق الرجال وأكثرهم خيالا ومخاطرة (بل على العكس نلاحظ أن الجناء وعديمي القدرة هم الذين يحدون في انتصارات الحلم صدى لضعفهم « فن يسرق نهارا يسلك سلوك العقلاء ليلا ».

والمهم أن ضعف الفكر الذي يتصف به الحلم والخيال لا يتفق أصلا وعملية الإبداع، وكما يمكن أن يقول « بيرجانيه » فإن تأليف مقطوعة موسيقية أو قصيدة شعرية أو رسم أو تصوير شيء، كل هذا من قبيل القيام بأعمال، وبأعمال ذات ضغط مرتفع تتطلب الجهد الأقصى من الطاقة ووضوح الفكر. نتيجة لهذا يصبح الشرط الحقيقي لشاعر حقيقي ما يتميز عنده من حالة الحلم. وحتى الذي يريد أن يكتب أحلامه يتعين عليه أن يكون يقظاً لأقصى حدود اليقظة .. وإن شئت أن تقلد تماماً غرائب الذات وعدم إخلاصها لنفسها لدى النائم الهزيل الذي هو أنت، فلا تفخر بأنك تنجح في هذا دون أن تكون قد اعتمدت اعتماداً يصل إلى أقصى حدوده على الانتباه ... والقول بالدقة وبالأسلوب هو القول بما يناقض الحلم ...

وما كان اتزاع شيء من الرهافة أو الوضوح أو الديمومة من أنياب الأمور الفكرية لعبة يمارسها إنسان لا عمل له ... وإذا كانت الفريسة

التي تتبعها قلقه هاربة احتاج الأمر إلى حضور ذهن وإرادة تجعلها دائماً حاضرة ، في وضعها الذي تحاول فيه الهروب دائماً ، (٥٥) .

لكن ، مهما تكن السلطة التي يتمتع بها فاليري ، ومهما تكن صحة ملاحظاته ، فإن استبعاده للحلم يتصف بالمبالغة . ونحن نعتقد أنه يحسن التمييز . فإذا كان العمل الفني — وهذا مؤكد — يرتوى من الطبقات الخفية لشخصية الفنان ، بل ومن التيارات الغامضة التي تمتد فيها جذور حياة الجنس وحياة الطبيعة ، ومن الممكن أن يكون لكل من الحلم والخيال ، بل ومن الضروري أن يكون لهما دور يلعبانه في مذهبه ، وهما ينشئان رابطة لاغنى عنها بين الأنا السطحية ، والأنا العميقة ، بين الشعور واللاشعور . والإنسان الذي لا يحلم يقطع الحيط الذي يربطه بعالم الطفولة ، عالم العجائب والغريزة والقوى الكونية ، والحلم ، سواء أكان ليلياً أم حلم يقظة يغرقه من جديد في العاطفية الأولى ، ويفتح له كنز الذاكرة الفردية والجماعية ، ويعيد تكوين ارتباطه بالكون . والحلم يعد في نفس الفنان شيئاً لا يعرفه الفنان نفسه ، وبفضله تستطيع القصيدة اكتمال مغزاها الدقيق . وبفضله أيضاً يكون هذا المغزى « دائماً فيما وراء نصها هي » (٥٦) بحيث يهتز اهتزازاً تصدر عنه نغمات لا نهاية لها .

بهذا المعنى تكون الحالة الشاعرية حالة حلم . . . كان لافونتين يقول : « ياله من كسل خصب ! ! » ، إن نفس الشيء يقال هنا عن الفنان وعن العالم سواء بسواء . وما أعظم الاكتشافات إلا ثمرة الحرية ، وثمره نوع من تشرد الفكر . إن رجل العلم لا يخترع إلا القليل ، لأنه يتعجل تعجلاً كبيراً في الحصول على النتائج ، ولأنه يشغل باله كثيراً ليصبح عمله منتجاً فعلاً . لهذا كان حاملو العلوم رجالاً عمليين بطريقتهم يظهرون بمظهر التائه في وسط نظرياته ، ولو أتت روح كلها نفعية فحسب لتسيطر عليهم وحدها لنضب معينهم بسرعة ، (٥٧) . ونفس الشيء يقال عن الوحي الفني ، فهو سرعان

ما يفتنى إن هو توقف عن الغوص فى مياه الحلم والخيال نتيجة خطأ يقع فيه الإنسان ، وهو خطأ التفكير العلمى البحت .

وعلى كل ، فأعمال فاليرى تشهد ضد مذهبه هذا . أليست قصيدة الإلهة بارك الصغرى « التى تضع أمامنا مشكلة ازدواج الشخصية ، وصفاً كاملاً لسلسلة من أحلام نصف شعورية ، نصف إرادية ؟ أكان من الجائز أن يصبح فاليرى هو الشاعر الكبير الذى نعرفه لو أنه لم يخضع فى كتاباته لحس ينبع من الأعماق ، ولو أن الأفكار غير الملموسة لديه لم تكن قد خففت بفعل إدراكات حادة واستعارات حية ، ورموز تعود بنا إلى العصور القديمة ؟ ألا يعترف بنفسه أن العقل والإرادة لا يكفيان ، بل إن القصيدة تحتاج إلى « شىء ما من سذاجة أصلية ، وقوة عارمة ، ونوع من خيال ذى رشاقة يحب القارىء أن يجده فى الشعر » ؟

أتحدث الآن — لا عن المذهب — بل عن التنفيذ ؟ إن كان الأمر كذلك ، فإن رأى فاليرى صحيح لا نقاش فيه . إن المبدع لا يستطيع أن يسمح لنفسه بأن ينصرف إلى الأحلام لحظة العمل . ولا شك أن كثيرين من الكتاب والشعراء يؤدون فريضة التبجيل للأحلام حين يحدون لقطه أصيلة . فهناك جوتة يحدثنا عن الأحلام التى ظهرت له فيها : « مجموعات جديدة أو حطام مجموعات ، وهناك فاجز يشهد أن « مقدمة ذهب الراين » كانت هدية قدمها له نصف السبات ، وستيفنس يقول بأنه وجد موضوع قصصه الجديد فى الأحلام . . . لكن هذه الأعمال لم تكن أعمالاً مكتملة ، بل هى مشروعات ومسودات بعيدة . وهناك حالات أخرى تبعث على القلق أكثر من هذه : فإدجار بو يصرح أنه رأى نفسه فى هذه الثوانى القصيرة التى كان يحاول فيها جاهداً أن يقف على الخط القائم بين اليقظة والحلم ، وهو يقرأ صفحات كان يحلمها ، أو ينشد أبيات شعر كان يقرضها وزناً . ويبلغنا ريتون أن قصيدة « عبادة الشمس » قد أملاها عليه كلها اللاشعور فى لحظة كان يكافح فيها ضد النوم .

لا بد أن نقرر أولاً أن مثل هذه الأعمال — إن لوحظت — تحدث قبل بدء النوم ، أى قبل توقف النشاط الشعورى والإرادى تماماً . أضف إلى هذا أن تلك الصفحات التى يقرأها الشاعر لنفسه ، أو تلك الآيات التى ينشدها لنفسه لا يمكن أن تشكل عملاً إلا إذا تمت كتابتها — ففى كل عشر محاولات يمسك فيها الأديب بالقلم ليكتب وليثبت ما قرأه ، هناك تسع يصاب فيها بحالة من الإغماء . أما المحاولة الباقية فهى عمل تحضيرى قوى لا يؤدى خلال النهار إلى نتيجة عادية ، لكنه يجد فى الهروب فى الحلم مكافأة لجهده . بهذا يصبح تكوين قصيدة ما فى سرعة فائقة — إن نحن نظرنا إليه من هذه الزاوية — أمراً غير مفهوم ... والعقل يستعيد ما يكفى من القوة لتنفيذ ما كان يحمله فى طياته ووصل إلى درجة النضج ، مستعيناً فى هذا بالراحة والهدوء الناجمين عن انتظار النوم . هذا التفسير التقريبى هو الذى قدمه لنا « مين دى بيران » (٥٨) ، وهو يقول إن الفرد يترك ما يكفى من الانبعاث والقوة العقلية قبل النوم ، ليتسرب مما يشبه المصفاة ، وبحيث تنفجر القريحة العليا الآتية من البحار الداخلية كما تنفجر فقاعة من الهواء ، أو تنضج كما تنضج زهرة تأخر تفتحها تحت سماء النوم المنخفضة .

« ما كان الفن أحلاماً . . . بل إنه امتلاك للأحلام » . هكذا يقول مالرو (٥٩) : إن كل ما نعرفه عن كبار مكتشفى الأحلام ، الذين كانوا فى نفس الوقت فنانيين حقاً ، يتفق ليبرر هذه الجملة . إذ أنه يحتفظ إلى النهاية تقريباً بقوة استدعاء الرؤيا حسب رغبته ؛ إنه حليف اللا شعور باعتباره المصدر الوحيد للوحى ، ولهذا نجده ينحت ويصور بقوة علمية تتضمن فى ذاتها الشعور . والأحلام المرسومة التى يقدمها جرانفيل لانغضع أكثر من غيرها للتحليل والرقابة ، والأخيلة الهائمة الغريبة التى يلدها ذهنه لا تفقد عن يتصدى لها بالنقد أسرار الحقيقة .

والشعراء والكتاب الذين ذكرناهم لا يفقدونها كذلك ، فعند ادجار بو

لا يوجد ما يدل على إمكان الشاعر والفنان ترك نفسه ليفرق في الاشعور ، بل يوجد ما يدل على أن الهدف الذي يرى إليه الجهد هو توسيع شقة الشعور على الأحلام نفسها ... وحتى نيرفال نفسه، يرى ضرورة توجيه حله الأبدى بدلا من تلقيه أو استقباله ، (٦٠) ، وموجة الصور التي تفرقه أولا موجة يحاول السيطرة عليها ، وما الجزء الثاني من « اوريليا » ، إلا تصوير للكفاح البطولى لهذا الشعور ، بقصد الاستيلاء على ما يهدد بالاستيلاء عليه ليحل غزو الحلم محل استبداده . والمثل الأعلى عند نوفاليس كذلك لا ينحصر في القضاء على الشعور في الأحلام ، بل إنه ينحصر في الجمع بين الشعور والاشعور وبين الحلم واليقظة ، هذا التجميع الذى يعنى عمل العبرى ، والذى سوف يحل يوما جميع أنواع التناقض فينا . لا ينبغي إذاً أن نترك أنفسنا للاكتشافات الغامضة ، بل يجدر بنا أن نسيطر عليها ، « وكل ما كان غير إرادى يجب أن يتحول إلى الإرادة وينحضع لها » (٦١) والكلمة الأخيرة ترجع قطعاً إليها .. هذه الإرادة وإلى الشعور ... « وقد صنع الحلم والخيال من أجل النسيان ، ولا ينبغي التوقف عندهما ، كما لا ينبغي من باب أولى تخليدهما ... وربما كانت نشوة الحواس جزءاً من الحب ، كما أن النوم جزء من الحياة ، ومن المؤكد أنه ليس بأنبل الأجزاء .. والرجل القوى هو الذى يفضل اليقظة على النوم دائماً » (٦٢) .

وقد سأل « بريردى بوامون » صديقه فيني (٦٣) عن هذا ، فيزفني بين خيال أحلام الضعفاء ، وما هو إلا اجتراح جاف ، وخيال الأقوياء الخصب ، وهو تأمل يأتى لخدمة العقل والشعور ... وقد ترك لنا بالزاك عن هؤلاء الحالمين الضعفاء فى قصة « ابنة العم بيت » ، صورة أخاظة ؛ ففيها شخصية فسيلاس شتاينبوك الشاب الذى لديه استعداد طبيعى لفن النحت ... وقد صور بالزاك وقد ضغط عليه الفقر وطاردته سيدة تعطف عليه فاضطر إلى تنفيذ بعض التماثيل الجميلة .. وها هى ذى السعادة وها هو ذا الحب

يعيدانه إلى طبيعته الحاملة ... وهامى كما تتأرجح في خياله مشروعات خلافة وتزاحم لديه الأفكار الأصلية ، ويردد مواهبه في أحاديثه الجذابة ... ولكن لا ينفذ شيئا . ذلك أنه بين المذهب والتنفيذ هوة كبيرة ، «والتفكير والحلم والاستعداد لأعمال فنية جميلة عبارة عن انشغال حلو .. وما هذا الانشغال إلا تدخين غليون يسيل له اللعاب ، والعيش عيشة تشبه عيشة سيدة القصور التي تنصرف إلى نزواتها فحسب ... أما الإنتاج وأما الوضع ... وأما تربية الطفل (العمل الفني) تربية جادة ، وإرقاده وقد أشبعه اللبن كل مساء ، وطبع قبلة على جبينه كل صباح بقلب الأم الذي لا ينضب الحب منه ، وإلباسه ملابس جديدة مائة مرة ... وخلق عمل خالدا حتى يتحدث إلى كل نظرة توجه إليه ، وإلى كل العقول وإلى كل القلوب ... فهذا هو التنفيذ ، وهذا هو العمل ، (٦٤) .

التحليل النفسى للعمل الفني

أمكننا إلى الآن أن نثبت أن التقارب بين العمل الفني والأحلام ليس بوليد الأمس . وترجع أهمية ما قدمه لنا فرويد إلى أنه برهن على أن العملية الأساسية هي هي بعينها في هذه الحالة أو تلك . هذه العملية هي تحرير الغريزة لا شعوريا بواسطة الرمز ، وكان هذا بمثابة فتح طريق جديد ، خصب لأقصى حدود الخصوبة ، للنقد الفني والأدبي حيث طبق طرق التحليل النفسى الاستقصائية على الأعمال الفنية الكبرى ، الأمر الذى أدى فيما بعد إلى تجديد العوامل اللاشعورية التى تتحكم فى الإبداع . وسوف نستعرض هنا بعض هذه العوامل ، ثم نبحث إلى أى مدى يمكن أن تكون لها قيمة فى الشرح والتفسير .

يتولد العمل الفني أحيانا من نوع من العذاب يحاول الفنان دون علمه أن يتخلص منه ، فيمسك بالقلم أو بالفرشاة ليتخلص مما يضايقه ، كما يحاول

الجسد السليم التخلص من جرثومة ضارة . هذه الظاهرة عرفها أرسطو عندما قال لتلاميذه إن « المأساة » المسرحية تمارس لدى المتفرج « تطهيراً للأهواء والشهوات » . ويمكننا أن نقول بالتعبير الحديث « إن العمل الفني يمثل لدى المبدع ولدى المتأمل تخليصاً من الطاقة المشاعرية العلية التي كانت قد تراكت لأقصى الحدود لديهما على اتجاهات معينة ، نتيجة لكتبتها ولاستحالة التخلص منها إذ ذاك . ومن هنا نستطيع أن نفهم إلى أى حد يمكن أن يكون الفن تنفيساً ، (٦٥) .

ولكن تقتصر في هذه اللحظة على عملية الإبداع . يحدث أنها تلعب حقاً دور العلاج الحقيقي .. ولعل أشهر مثل للشفاء بطريق الفن كان مثل جوته ، فقد هام جوته حباً - كما نعلم - بشارلوت بوف ، خطيبة كستمر ، وسيطرت عليه فكرة الانتحار للتخلص من حب لا مخرج منه ... وكتب له كستمر خطاباً يسرد له فيه قصة انتحار شاب يتس من الحب وأثر هذا الخطاب فيه تأثيراً عميقاً ، وكان أن تبلورت كل الذكريات الشخصية حول هذه المجازفة المؤلمة ، وكان أن كتب فيرتر . وبعد ثمانية عشر شهراً تمكن الشاعر جوته من محو خيبة أمل غرام جديد ، وكان أن كتب القصة في ثلاثة أسابيع ... وما كان بعد هذا منه إلا أن شعر بنفسه « وكما لو كان قد قدم اعترافات غرام عامة ، كان سعيداً طليقاً . . . يتمتع بحق العيش عيشة جديدة » (٦٦) .

وقد ألف بيير لوتي « صياد ايسلندا » ليجد مخرجاً هو الآخر من هوى عاطفي بائس ، لكن في الوقت الذي وجد فيه جوته عزاء في الموت في شخص فيرتر ، يهدى لوتي من آلامه بأن يترك غريمه فريسة للموت . وكان لوتي قد هام حباً بفتاة من مقاطعة بريتانيا ، فضلت عليه « رجلاً من ايسلندا » ، فكان ألمه ممضاً ، دام سنوات . وكان أن كتب كتابه هذا في حالة من الحماسة تقرب من حالة الارتجاف الهذيانى . . . ويتزوج البحار

الفتاة البريتانية، لكنه يرحل من جديد في رحلة صيد بعد زواجه بثمانية أيام، ولم يعد أبداً. وبهذا كان يتعين على الرجل الذي حصل على المرأة التي يحبها لوتى أن يموت، (٦٧).

وحين تنعكس عقد اللاشعور في العمل الفني، نجد أنفسنا وقد اقتربنا من منطقة أكثر تحفظاً... فالفنان يعبر - دون علمه - عن اندفاعات أو عقبات داخلية يئن منها دون أن يعرف ما هي. وهنا يتدخل التحليل النفسي ليضيء لنا هذه المحركات الخفية للإبداع الجمالي، وتصبح اللوحة أو القصيدة في نظر المحلل رسائل من رموز اصطلاحية يتعين ترجمتها ترجمة واضحة. وقد تمكن فرويد وتلاميذه هنا من الكشف عن أسرار أشهر العباقرة الأقدمين والمحدثين.

ولقد سبق لنا أن ذكرنا (٦٨) أن أقل الأمور صحة في نظر التحليل النفسي محاولة تحليل الأموات، بل والغائبين. رغم هذا يمكن أن نقول إنها طريقة مشروعة، وتتلخص في استخراج الصور الشائعة لدى فنان ما، أي ما اصطلاح على تسميته «لازمات الخيال» (٦٩) دون النظر إلى ما قد يدخل عرضاً ومصادفة في العمل الفني. والإلحاح في تكرار نفس الدوافع سواء أكانت هذه أشخاصاً أو أشكالاً أو ألواناً متناسقة بشكل ما، هذا الإلحاح يعني أن الفنان يفضل هذه الدوافع والعناصر على غيرها. ويحدث تقابل بين هذا التكرار والأسلوب الخاص في الحساسية أو في الفكرة، وبين رغبة ذاتية لا شعورية في التعبير عنها، الأمر الذي يخرج «اللازمات الخيالية» مخرجاً يجعل منها علامة مؤكدة لعقدة ما.

مثال هذا ما صوره جيروم بوش من رهوز تشخيصية ومناظر نوعية وأخرى دينية استعارها أصلاً من عصور سابقة، لكنها تفسر وجود نوع من اللاشعور لديه يجعله يعكسها بحيث تقدم لنا فكرة عما يلزمه شخصياً

من عقد ذاتية هي صورة نفسية لعناصر لا تشذيب فيها ، بل ولعناصر خفية لا يعرفها . وليس بعجيب هنا في أن شرح هذه العناصر يبين لنا غرابة هذه العقد ، ولو أن الشرح لا ينطوى إلا على أكبر قدر من البراءة .

هذا ويلاحظ أن الموضوعات التي يختارها بوش تميل أساسا إلى تفضيل الإغراء الخبيث . . . فهو يتخذ مثلاً تحيزاً فريداً في نوعه إلى الخبيث من الميول . مثال هذا ما نراه في لوحة « حساب الآخرة » ، حيث يفضل تصوير من نزلت عليهم اللعنة ، ومثال ذلك أيضاً لوحة « الجنة » ، وهي في فنه مكان بعيد المنال ، عسير الوصول إليه . أما « حديقة الملذات » — ومكان هي دنيوية — فعبارة عن صيحة من القلب . أضف إلى هذا تلك اللذة الغريبة التي تؤدي به إلى وضع المسيح موضع الاستهزاء والمهانة والسخرية ، وقد احاطت به وحوش ضارية . أليس في هذا دليل على لاشعور مثقل ورغبات خبيثة ، وضمير مثقل بالخطيئة ؟ ... أليس في هذا اللاشعور ثورة كامنة ضد القواعد الأخلاقية والانجيلية ؟ . .

وقد أورد « جوياء » بحق أيضاً ما يفيد بأنه ، إذا كان عمله الفني يروج بالدماء والمذابح ، فذلك لأنه ينتمى إلى بلاد مصارعة الثيران ، وإلى أنه عرف أهوال الحرب . لكن لماذا كان وحده المصور الإسباني في عصره الذي انصرف إلى ذلك الميل بهذه الدرجة ؟ ولم نرى في أكثر مؤلفاته خيالا هذا القدر من النساء اللاتي يشهن ، والعاريات يذبحن رجال متوحشون ؟ لم هذه النظرة الشيطانية البشعة ؟ ولم هذه الوحوش التي تلتهم ، وهذا التفضيل للإله « زحل » ، وهو رب الزمن من بين جميع آلهة الأساطير ؟ وهذا الخلط الحيواني بين القوة العدائية والعشق والقسوة واللذة الجنسية ؟ إن عقدة حب الشر للنفس وللغير واضحة هنا كل الوضوح ، (٧٠) .

ولا يقل عن هذا الشعور بالخطيئة في قصص دوستوفيسكي . لأنه ينشئ لها جوا ثقيلا يكاد يكفي للتنفس ، ويمنع شخصياته حركة تشبه حركة الوحوش التي تفر من المطاردة ، ويدفعها إلى التساؤل دائما ، وإلى اتهام نفسها بشيء ما ، وإلى البحث عن الخنوع والتفكير . وتتشكل نواة هذه العقدة أساسا من مطاردة الجريمة ، وبوجه خاص جريمة قتل الأب . وتظهر هذه خاصة في قصة « الإخوة كارامازوف » ، حيث ينسب أحد الشخص لنفسه جريمة قتل أبيه ، التي طالما تمنّاها ورغبها . وتجسد نفس الشعور الدائم بالخطيئة حيال الأب في لوحات عديدة من عمل فان جوخ ، وهذا الشعور هو الذي يؤدي إلى انحناء الأشجار ، وإلى هبوط أسطح المنازل ، وهو الذي يفرض على الفنان سرعة تكوين اللوحة ، وطيّان الغريبان المرتاعة (٧١) .

ما الحلم إذن إن لم يكن في كثير من الحالات نوعا يتفرع من الحقيقة ..؟ يرى نيتشه : « أن أغلب الغرائز ، وبخاصة تلك التي نسميها غرائز أخلاقية تكتمن بالقليل . فإذا سمح لي أن أقترح هذا فإن لأحلامنا قيمة التعويض بدرجة معينة عن عدم وجود الغذاء خلال النهار » (٧٢) . ولا يجمل أحد الأهمية التي أعطاها التحليل النفسي لهذا الاقتراح ألا يمكن أن يكون الفن هو الآخر تعويضا ؟ ألا يجوز أن يطلب إليه الفنان تعريضا عما لم يصل إليه في الحياة ؟ بل وأصح من هذا ، أليست الصورة المرسومة أو المنحوتة أو المنظر الذي يكتبه قصص شيئا يحل محل العمل الذي يستحيل عليه القيام به ، وكما قال بودوان : « العمل العائد » ؟ .

لعل حياة تولوز لوتريك تعطينا لهذا صورة واضحة . فالمعروف عنه ، وهو آخر أبناء جنس من الصيادين والفرسان ، أنه فقد ساقه حينما بلغ الخامسة عشرة من عمره ، وأنه لم يعد بعد هذا إلا قرما مضحكا غير قادر على ممارسة الرياضة التي تتطلبها وراثته وطبيعته . وما هو ذا نصف

كسيح لا يحلم في تصويره إلا بالسيقان . . السيقان التي يتألم لعدم وجودها عنده ، ويقدمها طويلة ذات عضلات ، يميز بها مخلوقاته وراكبي الخيل والراقصات والبهلوانات وراكبي الدراجات ، وكلها تزدهم بها لوحاته . أليست هذه أيضا حالة ماري بلانشار ، الكسيحة الحدباء المحرومة من اللذات الطبيعية للمرأة ، والتي تعوض عن حالتها هذه بأن ترسم في لوحاتها كل ما تنصف به الأمومة من خصب . . (٧٣) ؟

المؤكد أن التحليل النفسى يقوم بعمل طيب . لكن لابد أن نخذر من الاعتقاد بأن الكشف عن هذه العقد الخفية في الإبداع يكفى لإظهار السر الدفين . لم يوجد بين جميع الساديين الماسوكيين سوى « جوبا » واحد . وبين كل هذه النفوس المليئة بالكآبة لم يوجد سوى دوستوفيسكى واحد ، وبين كل المشوهين سوى لوتريك واحد ؟ إن طريقة التعليل بالسبب تكفى هنا أيضا لشرح كل شىء . عدا المهم . « من الممكن ولا شك إرجاع ظروف الإبداع الفنى ، موضوعه وطريقة تنفيذه ، إلى العلاقات الشخصية بين الشاعر وأقاربه ، لكن لن يودى هذا إلى شىء يفيد فى فهم فنه ، لأن من الممكن اتباع نفس التعليل فى حالات أخرى كثيرة ، وبخاصة فى حالات القلق المرضى . لأننا إذا شرحنا العمل الفنى كما نشرح الحالة العصبية النفسية ، فإما أن يكون العمل الفنى حالة عصبية نفسية . أو تكون الحالة العصبية النفسية عملاً فنياً ، (٧٤) .

لا يعنى هذا أن فى الإمكان إهمال ما يقدمه لنا التحليل النفسى . فنتائج هذا العلم تبين لنا إلى أى مدى ترتبط عبقرية الفنان ارتباطاً وثيقاً بمجوات حياته الخاصة ، وتضىء فى نفس الوقت نواحي كثيرة من عمله . غير أنه لا يجدر أن نبالغ فى تقدير هذه النواحي ، فنحن نستطيع فهم خواص معينة للنبات إن نحن عرفنا خواص البيئة التى نبت فيها ، لكن لا يستطيع أحد الادعاء بمعرفة ما هو أساسى فى هذا النبات ، فليس النبات فحسب نتاجا

للأرض ، بل هو كذلك عملية نموذجية مغلقة لا علاقة لأساسها بطبيعة الأرض ، وهنا يجب اعتبار العمل الفني كإنشاء إبداعي يستخدم الظروف القائمة أصلاً في حرية حيث يستند معناه وطريقته الخاصة إلى ذاته ، لا إلى الظروف القائمة فعلاً (٧٥) .

وإذا كان انعكاس العقد والعمليات اللاشعورية الأخرى لا يعطينا فكرة إلا عن الظواهر الثانوية ، فإن مولد العمل الفني لا يفسر إلا ثانوياً في ضوء التحليل النفسي ، ولقد اعترف فرويد نفسه بهذا ، حيث قال : « حيث إن الموهبة الفنية والقدرة على العمل يرتبطان ارتباطاً وثيقاً برفع العمل إلى مرتبة السمو ، فإن علينا أن نعتز بأن عصارة الوظيفة الفنية تظل بالنسبة لنا ، في إطار التحليل النفسي بعيدة المنال » (٧٦) ، وفي تقديم لكتاب عن أعمال أديجارو ، استوحى صاحبه فكرته من نظرية فرويد ، ونجده يعترف بأن « مثل هذه البحوث لا تدعى إمكان شرح عبقرية المبدعين ، لكننا نبحث العوامل التي أضفت عليها اللمعة ، ونوع المادة التي فرضها عليها المصير » (٧٧) ، وإن نحن صرفنا النظر حتى عن تحديد عدم قدرية هذا المصير وعن أن هذه المادة تأتي أصلاً من القوة الإبداعية للعقل ، فإن هذا ما تؤمن به نحن .

إن تلاميذ فرويد ، ويا للأسف ، فرويد نفسه ، لم يعملوا دائماً بهذا الحذر ، فهم لا يريدون في جميع الحالات إلا دراسة بعض المرضى ، وهم في حالة الإبداع الفني لا يدرسون إلا العناصر المنطوية على المرض سواء كانت حقيقية أو مفترضة ، ويرجع هذا إلى ما يجب تسميته فعلاً التشوه الممنوع عندهم ، « فإن نحن تخطينا الحدود ولو بدرجة صغيرة جداً ، لأصبح الأمر بحثاً غير مناسب ، وهبوطاً مفاجئاً للذوق السليم ، يخفى تحت ستار العلم . ويتحول الاهتمام دون أن نشعر من العمل الفني لتتوه في خليط لا يخرج له من السابقات السيكلوجية . وبصحب الشاعر بمثابة حالة علاجية

(إكلينيكية) ومثلاً يحمل رقماً محدداً في مجال المرض النفسى الجفسى .. لهذا كانت كل هذه الشروح باعثة على ملل مذهل .. لدرجة نعتقد معها أننا نحضر استشارة طبية ، (٧٨) .

ونتيجة لهذا ، يصبح كل ما يخلق الأصالة والقيمة الجمالية والروحية لعمل فنى ما فى طى الحفاء.. ولناخذ مثلاً لهذا مقطوعة من الشاعر ماللارميه « وسوف يحاول التفسير التقليدى ، السيكولوجى الأدبى تحديد صفة الروح ودرجة البراءة التى تنبئ عن استدعاء صور الرموز استدعاء عاجلاً ، الصور التى تمثل الملائكة والرياش البيضاء .. . وسوف توجهنا بمجموعة الرموز هذه من المحسوس إلى مافى صميم نفس الشاعر ، وما يقبل التعبير إلى ما لا يقبله « فى عالم من النقاء الشفافية يسير فيه كل شىء سهلاً بريئاً بلا خطأ ، والمغزى كما نراه هكذا هو رسالة ماللارميه فى الحياة .. . وهنا يأتى المحلل النفسى : « ولا يصبح غموض القصيدة بالنسبة له إلا نتيجة « لرموز يأتى بها اللاشعور » وبدلاً من اتباع الحركة الصاعدة من الرمز إلى الشعور الشعارى والدينى ، نجده يتخذ سبيل الحركة الهابطة من الرمز إلى الغريزة المتسامية وتفسر دورة الاستعارات الملازمة له والتى تدور حول الجنة الضائعة بالحنان إلى الطفولة وإلى ثدى الأم ، (٧٩) .

وتتعارض الطريقتان تعارضاً جذرياً ، فالأولى تستخلص من النص فائضاً يستكمل ما أرادته ماللارميه ، والثانية تستخلص معنى أقل قيمة لا يتضمن شيئاً من شعر ماللارميه وفكره . وما هذا الخطأ إلا نتيجة اعتبار الشعراء مرضى عصبيين ، حيث نهمل الحياة حين نريد تحليل الظواهر الحيوية بعملية سيكولوجية كيميوية ، ذلك أننا نتجاهل بنفس الطريقة طبيعة العمل الفنى لأننا نهبط به إلى مستوى الحالة النفسية المنخفضة ، أو إلى الطفل المريض بعد فصلها أو إرجاعها إلى الوراء . والمذهب الذى يشد الناحية الفنية فى التحليل النفسى شداً هزيباً ، غالباً ما يكون ذا وحى مادى ، وغالباً ما يحرم نفسه لدرجة كبيرة من فهم ما تنطوى عليه الأعمال الروحية الفنية .

الإبداعية والحياة الجنسية

قابلتنا عرضاً كلمة «النسائي» أو الإعلاء، ويجدر بنا أن نقف عندها قليلاً، لأنها توسع بحثنا هذا توسيعاً كبيراً، فهي تضطرنا، لا إلى البحث في وسائل الإبداع الفني وسبله فحسب، بل كذلك إلى البحث في الموهبة الإبداعية ذاتها. ونحن هنا نتساءل: ألا يمكن أن تكون هذه الموهبة نوعاً من التحويل أو تعبيراً خفياً عن الغريزة الجنسية؟.

إن من شأن الكبت الذي تمارسه رقابة الضمير على اللاشعور أن يدفع بالنشاط الغريزي إلى السير قدماً، كما رأينا، ليتخذ صورة في الأحلام. ويستطيع هذا النشاط الغريزي — كما يقول فرويد — إن صح هذا التعبير «أن يهرب» من أعلى، ليتحول إلى نشاط مرتفع يعبر عن نفسه تمثيلاً في العلم والدين والأخلاق، وبوجه خاص، في الفن. هذا الهروب هو ما يطلق عليه فرويد تعبيراً إعلاء أو رفع. ومادامت الغريزة التي نتحدث عنها هي شهوة جنسية قبل أن تكون شيئاً آخر — هكذا يرى فرويد أيضاً — فإن الفن يصبح «إعلاء» للشهوة الجنسية للوصول بها إلى درجة السمو. وهكذا فإن «الإثارات» (الجنسية) المفرطة التي تنبع من مختلف مصادر الحياة الجنسية مجرد لنفسها تحولا واستخداماً في مجالات أخرى، حيث تضفي عليها الاستعدادات الخطيرة في بادئ الأمر زيادة لها قيمتها، وتضفي على الفرد قدرات ونشاطات روحية، فتصبح هذه الإثارات المفرطة مصدراً من مصادر الإنتاج الفني، (٨٠)

مصدر واحد فحسب. لقد كان تفكير فرويد حول هذه النقطة غامضاً، فهو يقول أحياناً بأن الميول الإبداعية الصحيحة لا تفيد إلا في حدوث «تدعيم جنسي» (٨١) ثم يقول في مجال آخر — على العكس من ذلك — إن الحياة الجنسية لا تلعب دوراً تكميلاً فحسب، بل إن هناك كذلك

إحلالاً لهدف غير جنسى محل هدف جنسى بدائى ، بحيث تبقى طبيعة القوة المستخدمة فى كلتا الحالتين هى بعينها . « يلوح لى — هكذا يقول — أنه بما لاشك فيه أن فكرة « الجميل » تغرس جذورها فى الإثارة الجنسية وأنها لاتعنى فى الأصل شيئاً آخر غير ماثيره جنسياً » (٨٢) . ثم يقول : « وثمة نقطة واحدة تبدو لى مؤكدة ، وهى أن الانفعال الجمالى يتفرع من تلك الإدراكات الجنسية » (٨٣) .

ولقد دقق شراح فرويد كثيراً فى توكيدهم لهذا الاستمرار والتماسك ، باعتبار استبدال هدف اجتماعى ثانوى بالهدف الجنسي الأصلى تفرعاً للطاقة الجنسية البدائية فى اتجاه جديد ، أكثر منه حلولاً لأحدهما محل الآخر .

ولكى نشرح هذا فى دقة أكبر يجدر بنا أن نقول إن الأمر أمر تحويل لاحلول هدف محل آخر . وبتعبير أدق نقول : « تنبع الطاقة المستخدمة فى إيجاد جديد ما من طاقة قديمة ، ويصبح النشاط الجديد وسيلة أخرى غير مباشرة لإرضاء هذه الرغبة بعينها » (٨٤) فالحقيقة إذن أن الاسماء فى نظر أنصار فرويد ، وبوجه خاص الإعلاء الفنى يقف عند حد إخفاء الحياة الجنسية لحسب .

والتنشيط البالغ الذى تمارسه الغرائز على النفس العليا أمر صعب إنكاره ، والقول بأن الغريزة الجنسية خاصة تمارس تأثيراً رئيسياً فى الإنتاج الفنى أمر لم يعد فيه شك ، وقد كان هذا الأمر معروفاً حتى قبل ظهور علم التحليل النفسى ، إذ يقول أفلاطون : « مامن إنسان يصبح شاعراً ، حتى ولو كان بعيداً عن مجال الشعر أصلاً ، إلا ويكون الحب قد مسه يده ، ولسوف نتحدث عن ذلك عندما يتبين لنا أن الحب مبدع عظيم على وجه العموم وفى كل مجال من مجالات الإبداع الفنى » (٨٥) . ويدكر نيتشه فى وضوح أكثر وبلا مبالغة أنه « لى يكون هناك فن ، فإنه مما لاغنى عنه وجود شرط عضوى

أولى هو الانتشاء ، ولكل أنواع الانتشاء قوة فنية ، أولها انتشاء الإثارة الجنسية وهو أقدمها وأكثرها بدائية ، (٨٦) .

ومع ذلك فإذا إن كان العمل الذي تمارسه عاطفة الحب والدوافع الجنسية ، في مجال الفن أمراً مؤكداً ، فإن من العسير تحديد سبب هذا العمل وكيفيته . وسوف نعود إلى الحديث في هذه المشكلة ، ذات المغزى الكبير ، ولنحدد كلامنا الآن في نقطة محددة لا يمكن إنكارها هي الأخرى في إطار مذهب فرويد : « ذلك أنه لكي تتحول القوة الشبقية إلى قوة إبداعية بفرض تفرع الثانية من الأولى ، لابد ، من أن يرد جزء من هذه الأخيرة على الأقل ويمنع بالضرورة أو قصداً . ولا بد أيضاً — نتيجة لذلك — ألا يستهلك هذا الجزء في نشاط جنسي بالمعنى الصحيح . ولن يكون هناك إعلاء ، إلا إذا تم هذا . يلاحظ أحد علماء التحليل النفسي أنه يمكن ربط كل جمال بغريزة ما ، لكن بشرط عدول هذه الغريزة عن إرضاء نفسها لنفسها ذاتياً ، وبشرط أن تقبل التأجيل ، (٨٧) .

وليست هذه الملاحظة بجديدة ، فقد ذكرها أفلاطون في « المأدبة » ، شارحاً أن الحب الذي « ينبع من الجمال » ، والذي ينتج من الأعمال الفنية ، لا يشبه أنواع الحب العادية التي تخضع للناحية الجسدية . وقد رأينا كيف يمتدح نيتشه انتشاء الحواس ، وكيف لا يهاب رغم ذلك من أن يضع مبدع العمل الفني أمام ضرورة اختيار أحد أمرين : فإما إنجاب أطفال وإما تأليف الكتب . وليست كلمة بورجيه بأقل ذيوفاً ؛ إذ يقول « كل امرأة نضاجها تكلفنا نصف كتاب » . وقد أراد البعض اعتبار هذه الحقيقة « سراً غامضاً أو جسدياً » ، (٨٨) ، ولو أن في هذا بعض المبالغة . ومهما يكن من أمر فالمعروف أن الدوافع الخاصة هي التي أوحى إلى بالزاك بأن يطرى العذرية مراراً ، ولو أن هذا لم يكن أمراً نتوقه منه (٨٩) .

وقد يعترض البعض على هذا مستشهدين بالمغامرات الغرامية وبالحرية

الجنسية التي تنسب للشعراء خطأ أو صواباً ، لكن ليس الأمر هنا بهذه البساطة ، إذ أن الذى يجب أن نعرفه هو ما يطلبه الفنانون من الحب باعتبارهم فنانين وفي ضوء ما يتطلبه فهم ، وسنجد هذا الشيء الذى يبحثون عنه واضحاً . إن نحن تأملنا ملياً ما يقول به الأستاذ جيلسون فيما يخص دور « ملهفات الشعر » ، أى النساء اللاتي اعترف لهن بأنهن موحيات للعبقريّة، مثل بياتريس ولورا وماتيلدا ويزندونك ومدام ساباتييه وكلو تيلد دى فو ، ولو أن من المؤكد أن هناك من الشعراء كثيرين ممن لم تكن لهم عشيقات، كموسيه مثلاً . والقول هنا بأن الحب بالنسبة للشعراء عامل يدعوهم إلى الحماسة أو يدفع بخيالهم قول لا ننكره ، لكن ليست ، « ملهمة الشعر » بالضرورة عشيقّة ينتظر منها الشاعر ذلك الدلال الذى ينتظره الرجال العاديون من أى امرأة أو على الأقل ، هو لا ينتظر منها هذا الدلال فحسب ... ولطالما أخطأت ملهفات الشعر في هذا خطأ جسيماً .

وملهمة الشعر — حكمها حكم أى امرأة يحبها الرجل جبايعيفاً — تسمو إلى مرتبة المثل العليا . وعملية « التسمّى » في الحال الذى نبحت فيه عملية شعورية تأتي من التفكير ، بل إنها محسوبة حساباً دقيقاً « لدرجة يشعر معها أكثر الفنانين يقظة — كبودلير مثلاً شعوراً واضحاً بأنهم هم الذين يخلقون « ملهمة الشعر » ، ولدرجة يرون أنفسهم فيها وهم يعملون في خلقها « فهم بهذا يبحثون عن أنفسهم ويخلقون لأنفسهم ملهفات ، لأنهم في حاجة — لكن يبدعوا أعمالاً فنية — إلى تلك النشوة التي لا تقدمها الشهوة لهم بنفس الدرجة التي تقدمها عملية خلق الملهمّة . وهكذا ترجع القدرة على الابتكار عندهم إلى الفن، لا إلى الميل الجنسي . فما كان الفن هكذا مطعماً باللذة الجنسية، وما كانت اللذة الجنسية مطعمة بالفن ، لكن الفنان نفسه هو الحقيقة الحقيقة للغامرة العاطفية ، وتلك الحقيقة هي مولد العمل الفني الكبير . ولا بد أن

يصبح الشاعر نفسه ، إن نحن فهمناه على ضوء الحقيقة الملبوسة لشخصيته ، صورة صحيحة للعمل الفني كما يتولد عنده ، (٩٠) .

وبتعبير آخر ، فإنه « كما يخدم الفارس سيدته لكي يحسن الحرب ، فإن الشاعر يحب امرأة لكي يحسن الغناء ، بحيث يسمو بعشيقته سموا تصبح فيه مثلاً أعلى ، ويصبح الإعلاء وسيلة مقصودة لغرض الشعر ، بعيدة عن الرغبة الجنسية فحسب » . على أنه ليس من الممكن تقدير موقف الشاعر أو المهمة أو الحب نفسه إلا بالنسبة لهذا المقصود ، وعلى أن العمل الفني يلتهم « أنية » الفنان قبل أن تلتهمها مهمة الشعر ، وعلى أن « أنية » المهمة تقع في فوهة الفن فيلتهمها . وهكذا تتعرض المهمة إلى أشد ما يمكن من خيبة أمل ، بعد أن كانت تظن أنها غاية العمل الفني ، مادامت الأنية التي تختفي في موضوع الحب تقضى عليها في ذاتها ، بل وتلتهمها التهاما كلياً بحيث لا تترك نفسها عرضة لأن تلتهمها هي : « ذلك لأن كليهما تصبحان ضحية لشيء آخر » (٩١) ما هو هذا الشيء إن لم يكن إرادة الإبداع ، وهي إرادة قائمة حتى ولو كان الإحساس بها غامضاً ؟ .

من هنا كانت الحقائق الكبيرة التي تمس موضوع بحثنا . فما دام الفن هو الذي يسير الأمور في هذه الأحوال المتميزة ، ونقصد بها غرام الشعراء بمهماتهم ، فإنه ليس من الجائز اعتبار الشهوة الجنسية مصدراً أساسياً للنشاط الفني ، ولا الحياة الجنسية السبب الكامل لإنتاج الأعمال الفنية الكبرى ومع هذا فإنه مهما يكن دورها هاما . وهو ليس هكذا دائماً — فهو مؤقت ، وليس أساسياً . وينحصر هذا الدور على أكثر تقدير في دعم اتجاه آخر متميز تماماً عن الحالة الجنسية لا يخرج عن كونه دفعة إبداعية وقوة إبداعية تنصف بها الروح . ولقد فهم « يونج » هذا حين أقر أولاً فكرة التطور التجديدي بين نقطة البدء ونقطة الوصول في « الإعلاء » . ثم أنكر ضرورة اعتماد عمل النفس العليا على عمل النفس الدنيا إنكاراً يكاد يكون تاماً .

ولقد كان من الممكن أن يكفي لإقناعنا في هذا الصدد مبدأ العلة الكافية وحده . فالعمل الفني يتضمن قيمة نوعية خاصة به تمنعه من أن يكون راجعا إلى الحياة الجنسية الخالصة فحسب ، فالأقل لا يكفي لتبرير الأكثر . لكننا نتساءل : لم يتمكن الأكثر من الظهور دون الأقل بفضل إحدى الوسائل العديدة الممكنة للإسماء ؟ وكيف يحدث أن يستحيل على الرغبات المحرومة من الظهور أن تخرج على هيئة عمل فني ؟ ألا يجوز أن تتوافر لدى هذه الرغبات وسائل سهلة ترضى بها نفسها في نهاية الأمر ؟ هكذا يصبح « التصوير والكتابة وممارسة السياسة أكثر من إعلاء جيد » لأنها تتضمن أهدافا غير مقصودة لذاتها . وما إنكار هذا إلا إنكار لحقيقة تاريخ البشرية ، (٩٢) .

وسواء أكان الأمر هذا أم ذلك فإنه يتعين علينا أن نقر أن الإسماء أو الحرمان منه أيضا ، يحتاجان إلى بعض الشرح ، ولو أن من العسير شرح كل شيء . بهذا الصدد ، وأنهما بدلا من أن يكونا هما الشرط الذي يحدد النشاط الفني فإن شرط قيامهما هو الهدف السابق لهما ، تقصد الهدف الذي يرمى إلى إبداع عمل فني ما ، بعد أن يبرز من الأعماق « وكلية الهدف هنا تعنى الهدف والقوة ، قوة الإبداع الخاصة بالعقل . وهى بعينها موهبة إخراج الجمال . يقول ماريتان (٩٣) : إن إبداعية العقل هذه هى الجذور الحيوية الأولى لنشاط الفن . » وإذا سئلنا عن العلاقة — فى نهاية الأمر بين الإبداع الجمالى والحياة الجنسية لأجبنا ونحن راضون — بعد أن تقلب علاقة التبعية التى نادى بها أنصار فرويد بأنها شكل من أشكال الخصب الروحتى ، التى لن يكون الخصب الجسدى بالنسبة إليها ، وعن طريق الحياة الجنسية ، إلا صورة ضئيلة — تجدد فى العبقرية أعظم تعبير لها .

الاشعور

ما من شك في أن هذه الآراء لا تتفق والمادية التي تتصف بها مدرسة فرويد ، لأنها لا تتفق ونظرية فرويد ذاتها في اللاشعور . فإذا رجعنا إلى فرويد لوجدنا أن اللاشعور هو على الإطلاق مجال الغرائز والاندفاعات والاتجاهات التي ترتبط كلها بالحياة العضوية من بعيد أو من قريب . إن اللاشعور يمثل تبعاً لفرويد ما يمكن أن يكون في الإنسان من روح غير بشرية ، ولهذا فإنه يدخل في معركة ضد الأنا المثالية باعتبارها فحسب تركيباً فوق العادة يشكله المجتمع عندنا ، ولا نرى كيف يمكن أن تنبع منه إرادة غير ثابتة للسلوك ، تكون ذات مرتبة عليا .

إن مثل هذه الصورة المبسطة للجهاز النفسي غير صحيحة على الإطلاق؛ لأن اللاشعور ليس وحيداً ، بل إننا نعرف غيره ، نقصد ذلك الذي تنبت فيه سرعة الإدراك والذي تعد فيه اكتشافاتنا وتثمر تجاربنا وتنضج فيه القرارات الطليقة ، وتفتح فيه المواهب . وكل هذه العمليات الكبرى للإرادة والنكاه تتم في اللاشعور . لكن هذه المناطق الغامضة التي ينبعث منها الضوء رغم غموضها ، لا تشبه في شيء تلك الكهوف المظلمة التي يحول فيها علماء التحليل النفسي وهم يمسون بمصاييحهم . ففيما عدا « ما قبل الشعور » الذي يتحدث عنه فرويد ، والذي يقترب تماماً من شهوة الجسد هناك ما قبل الشعور من نوع آخر ، ذي طبيعة روحية ، أو كما أسماه مارتين ما قبل الشعور الفكري أو الروحي .»

تخيل جبلاً تتداخل ثناياه السفلى في البحر ، وتغطي السحب قمته ، فلا ترى فيه إلا الكتلة الواقية بين السماء والأرض . إن حياة النفس البشرية تشبه هذا الجبل . فالشعور لا يبرز من اللاشعور السفلى ، أو ما دون الشعور « غير المنطقي ، إلا لكي يختفي في اللاشعور العلوي ، أو الشعور الأعلى فوق

المنطقي ، أى الروحي — « ذلك أن المنطق لا يتضح فحسب من مظاهره أو من خلال أدواته المنطقية الشعورية ، كما أن الإرادة لا تتضح فحسب من خلال تحدياتها التي يعينها الشعور . فهناك السطح المشمس المليء بالمعتقدات والأحكام الواضحة والأقوال والقرارات الصريحة والحركات التي يحددها الضمير وهناك مصادر المعرفة الإبداعية والحب والرغبات فوق الحساسة التي تختفي في الليل الشفاف الأصيل للنفس » (٩٤) . فدون ان نترك جانباً بناء على هذا ذلك الدور الذي يلعبه اللاشعور الذي يتحدث عنه علماء التحليل النفسي في إبداع العمل الفني ، سنحاول إقرار حقيقة فحواها أن الشعر والوحي الشعاري — بأوسع ما في هذا التعبير من معنى — يوجدان أصلاً في الظلمات المضئنة لفوق الشعور ، للاشعور الروحي .

والحقيقة أن تلك الصور التي تصدر عن اللاشعور لا تعبر فحسب عما تطالب به أقرب الغرائز من الكائن الجسدي ، بل إنها كذلك تكشف عن أكثر أمانيتها علواً خارج الشعور الواضح للفنان ، فالظلال الساكنة لدى رامبرانت ، والنقاء العذري الخاشع في فن فيرمير ، والوجوه المتصوفة عند جريكو ، والآهداف نحو نقاء النفس في قصة « مولن الكبير » ، والسلام الأمثل لدى يتهوفن في آخر رباعياته . وعظمة الصلاة في بالسطينا كل هذا على سبيل المثال فحسب يفتح على سر الروح الذي يختلف تماماً عن سر الرغبة الجنسية ، ورغم كل ما يقال في هذا فإن تاريخ الفن يقدم لنا الشواهد على حقيقة سيطرة الروح ، وهو هنا يعلن ، لا عن فشله ، بل عن كفاحه المير الذي ينتهي غالباً بالانتصار على الحياة الجنسية .

وقد يكون من الخطأ حقاً أن نعتقد أن اللاشعور لا ينطوي إلا على قوى مفسدة هدامة ترمى إلى تفتيت الشخصية المعنوية ، لأنه كذلك مقر لاتجاه إلى السيطرة على هذه القوى الجارفة . وإلى إيجاد النظام والوحدة في نفوسنا ، ولعل من مزايما ما تحدث عنه يونج أنه أثبت خلال مواجهته لنظرية فرويد

أن الكائن البشرى يميل بطبعه إلى حب الحياة ، وذلك بفضل «قوة إبداعية» (٩٥) تضطره دائماً أبداً ، وحتى دون أن يدري ، إلى أن يكون لنفسه توازناً إلى تخطى العقبات الداخلة ، وإلى حل المتناقضات لكي يكتمل دائماً ويزداد اكتمالاً مع الزمن .

وتعتبر حاله يتهوفن معروفة جيداً بحيث لا تستحق أن نتوقف عندها لفحصها . لكن أى عبقرية هذه أكثر طبيعية وسذاجة في تناسقها من عبقرية رافائيل ؟ قد يخطئ الإنسان إن هو ظن أن من بين هذه الوجوه الحلوة العديدة التي نعرفها يوجد وجه مثل رافائيل لا يستطيع ريشة الرسام أن تصوره ، وقد اختفى وراء قناع كلمة آلام . ألا يجوز أن يكون هناك رافائيل سرى قد لا يكون قد أفصح لنا إلا عن أدلة مؤكدة على انتصاره على تشكيلات الوجود ؟ . ماذا يقول لنا «إحصاء» الأشخاص الذين صورهم ؟ لقد عرف كيف يرفع أكثر من أى من معاصريه موضوع البطولة والفارس الذي ينتصر على الوحوش الضارية ، تلك الوحوش التي يوقظها ، حسب قول جويبا ، سبات العقل « ونحن نعرف أن البطل نموذج أمثل للاشعور الجماعى ، فهو تجسم صعود القوى الإيجابية التي تخلص الروح من مقابلها السلبي والتي يتحكم الوحش في دورها الذي تلعبه حين نرى الوحش وقد أوشك على التهام الأمير ، أى «الباس الروح» ، وها هو ذا القديس جورج أو القديس ميشيل قد سلحا بأسلحة من معادن ناصعة ليحاربها الوحش : وهاهى ذى القديسة مارجريت بعد انتصارها . (٩٦) وتشهد حياة دى لاكروا أيضاً بنفس المعركة عدا أن الانتصار فيها أكثر بطناً منه عند رافائيل . وعمله الفني في هذا صورة لحياته ، ونستطيع أن نتبع عمله هذا خطوة خطوة ، لنعرف كما يتضح من مذكراته تلك الجهود التي يبذلها لإخضاع شياطينه . أو ليست إرادته في أن يصبح كلاسيكياً ، رغم طبيعته الرومانتيكية ، اعترافاً بأنه في حاجة إلى النظام . ؟ فن حصار تمارسه الأمواج حول المركب في

لوحة « دانتى وفرجيل فى الجحيم إلى أبولون يفتصر على الثعبان بيتون ، ومن خلال النار والدماء فى لوحات « المذبح ، و ماتيليا ، ثم لوحات «أورفيه يسحر الوحوش الضاربة» أو «المسيح يهذى العاصفة» أو «روجيه وانجليكا» أو « بيرسيه واندروميديا » . . كل هذا يبين عند ذلك المصور العظيم ، الذى كان فى نفس الوقت رجلا عظيما ، كفاح الإنسان ضد قوى الشر التى يحملها بين طبائنه ، والبحث الدائم الذى يتأكد فى نهاية الأمر الحصول عليه ، البحث عن الرصانة .

لهذا لانستطيع قبول رأى أندريه جيد — ذلك الرأى الذى يؤدى بنا بطريق آخر ملتو ، إلى المشكلة التى ناقشناها فى بداية الفصل ، والذى يقول بأن مبدعى الأعمال فى أى مجال من مجالات الإبداع يتصفون بانعدام فى التوازن أو بالعتة .

هناك إذن كما نرى «هوة» بين «سرجسدى صغير» ونوع من «القلق» المبدع حقا وسواء أكان الشذوذ يقدم العون لهذا القلق أولا يقدمه ، فإن هذا القلق يجد أصله فى شىء آخر ، ومصدره فى الواقع هو طبيعة الرجل الذى ترجع عظمته إلى أنه يضع العالم موضع البحث ، وإلى أنه يحوله ، وإلى أنه يتخطى نفسه دائما . ذلك أن عدم التوازن فى ذاته عديم الفعلية ، وما هو أيضا بنوع من « حالة راهنة ثابتة » تنعم فيها شخصية الفنان بذاتها وجيد يعرف هذا أكثر من أى شخص آخر . أليس هو الذى يقول : «إن المصلح يعمل على تنسيق القيم المعنوية المتباينة التى تعرض له . ولأنه يهدف دائما إلى توازن جديد ، وما عمله الفنى إلا محاولة يعيد خلالها تنظيم إبداعه طبقا لعقله ومنطقه ، بعد أن يتحقق من الفوضى القائمة عنده وخاصة أنه لاقبل له بانعدام الترابط فى عقله ، (٩٩) .

إن تجربة جيد تشهد ضد نظريته ، ومؤكد أن مؤلفاته تعكس نقص التوازن عنده ولكنها تشهد كذلك ، ابتداء من كراسات « أندريه والتر ،

إلى آخر صفحاته المذكرات ، بأنه يقوم بمجد لتخطي المتناقضات الذاتية في نفسه ، ليدمج غرائزه وليغير الكائن المتألم الذي يتمزق لأنه لم يكن يقبل نفسه على هذه الصورة . أما عن الحل الذي وجده لنفسه في هذا ، فسواء أكان أم لم يكن متفقاً ومطالب الأخلاق ، فهذا شيء آخر . ونحن نقول إن جيد كافح هو الآخر لكيلا يسقط ، وإنه عرف كيف يخلق من عدم توازنه توازناً حقاً بفضل الرصانة التي مارسها . . . علماً بأن جميع أنواع التوازن غير متساوية .

الفصل الثالث

الإلهام والعمل

لم تظهر فكرة اللاشعور إلا حديثا ، وعلى العكس من ذلك ، نجد القول بأن الشاعر يسيطر على نفسه والفنان موهوب ، فكرة قديمة قدم الدنيا . فهو في ساعات معينة لا يسيطر على نفسه ، ويلوح كما لو كانت قد استولت عليه قوة ما ، ورفعته فوق ذاته ، وأصبح فريسة للحاسة والغيوبة وللنشوة . وتصبح الكلمات التي ينطق بها ، والأعمال التي بعدها في حالته هذه غير صادرة عنه ، بل مما هو أعلى وأكبر منه . أليس من المفيد أن أحد الأسماء التي تشير إليه في اللاتينية : تشير أيضا إلى ما يصدر عن السماء ، وإلى أولئك الذين يقدمون للناس نداء الآلهة ، ويتصلون بها ؟ .

وهناك تقليد آخر لا يقل عن هذا قدما وتأكيدا ، ويجرى التعبير عنه بأمثلة سائرة كهذه : العبقرية صبر طويل الأمد ... أو ... عمر الفن مديد والحياة قصيرة ، ودواوين « فن الشعر » تكرر تعاليم هوراس وبوالو بعد أن تعكسها ، فيقول : ضع عملك الفني مرة على آلة النسيج . وفي مثل هذه الأحوال يظهر العمل الفني ، لا كهديفة تهبط من السماء ، بل كثمرة جهاد مرير وعمل متواصل . وهكذا يحل « الشاعر العاقل » محل الشاعر الملهم ، ولا يصبح الفنان موهوبا تفضله الآلهة أو ربات الشعر ، على غيره ، بل عاملا كادحا صانعا ماهرا .

إن هذين التقليدين في الحقيقة يتصفان بالتكامل أكثر مما يتصفان بالتناقض . فإذا تركنا جانبا ومؤقتا تلك الناحية التي تكاد تكون « دينية » فيهما ، لرأينا أن الفنان في آن واحد ملهم وصانع ماهر ... ولوجدنا أن الوحي لا يغني عن العمل ، وأن العمل بدوره لا يستطيع أن يغني عن الوحي ، وأن الوحي يدفع بالعمل ويضفي عليه خصبه ، وأن العمل بدوره يعد للوحي ويسانده ويجدده بل ويشيره أحيانا ،

هبة ربان الاله لهما

إن الشاعر الذى ینادى ربه إلهامه ، والفنان الذى ینتظر أضواء السماء ، والفيلسوف الذى یظن أن الشیطان قد استولى علیه ، كل أولئك كانوا یعبرون من خلال لغة الاستعارة عن حقيقة سیکولوجية مؤكدة . ولا بد لنا أن نقبل حقيقة هذه الأفكار والصور والمختارات غیر المتوقعة وضربات الصواعق العقلية المفاجئة التى تنفجر كلها فى جو من الضغط العاطفى العالى ، والى جری العرف على جمعها جميعا تحت اسم الوحى .

ولا شك أن أفلاطون كان أول من وصف هذه الظاهرة . وهو فى وصفه هذا یعزوها إلى تأثير الآلهة ، ویقول : « یدین أحسن الشعراء جميعا بأشعارهم الجميلة لا للفن ، بل للحماسة ، ولنوع من الغیوبة .. وهم إذ يشبهون فى هذا « كهان الإلهة سیبیل » ، حیث لا یرقصون إلا إذا خرجوا عن شعورهم ، نجدهم لا یعثرون على أغانيهم الحلوة ، وهم فى حالة من الهدوء ، بل بل إنهم یجدونها وهم تحت تأثير الوحى والنشوة ... والشاعر کائن خفیف ، یحمل أجنحة ، ویصف بالقدسية ، لكنه غیر قادر على التألیف دون أن یكون التحمس قد سيطر علیه ودفع به إلى خارج نفسه وأفقده عقله . ویظل أى إنسان عاجزاً عن قرض الشعر إلى اللحظة التى یدخل فیها فى هذه الحالة .. إنه یظل عاجزاً هكذا عن النطق بما تنطق به الآلهة . وما دام الشئ الذى یدعو المؤلفین إلى التألیف وإلى النطق بعدد کبیر من أشياء جميلة عن موضوعات مختلفة ، لیس هو الفن ، بل هو وحى إلهى ، فإن كل موضوع من هذه الموضوعات لا یمکن أن یصیبه النجاح إلا بفضل وحى إلهى یوحى بالنوع الذى تدفعهم إلیه ربان الشعر . والحقیقة أنه إذا كان الفن هو الذى یدعو الشعراء إلى النطق بشئ عن موضوع واحد ، فإنهم — أى الشعراء — یستطیعون دونه أن يتحدثوا عن كل الموضوعات

الأخرى . فإذا نزع الإله العقل عنهم واستخدمهم كهانا أو أنبياء أو سحرة ملهمين ، فإن هذا يحدث لكي نعرف نحن الذين نستمتع إليهم أن ليس الشعراء هم الذين ينطقون بهذه الأشياء العجيبة ، بل إنهم أداة تستخدمها القوة السماوية التي تتحدث على ألسنتهم ، (١) .

ولقد شكلت الرومانتيكية لنفسها عن الله وعن قوى فوق الطبيعة فكرة غالباً ما كانت غامضة ، مختلفة باختلاف الأفراد ، ولم تتمكن بعد انتهاء الفترة السابقة لها نسياً من أن تفرض على القرن التاسع عشر مذهباً تصوفياً عن الوحي ، ومن أن ترفع هذا المذهب بالتالى إلى مرتبة عليا . فالشاعر فى نظر فيكتور هوغو « ساحر » يسمع ويردد كما كانت تفعل قوة فى الماضى هى « ما يقول لسان الظلال » ، (٢) . ويمنح فى الشاعر امتيازاً كهذا الذى يمنحه تماماً هوغو ، فيراه « يقرأ فى النجوم الطريق الذى تشير إليه إصبع الله » ، (٣) . ويظن شيللى مع ذلك أن الشعر كشف عن الغمام حقاً ، وأن الشاعر ينقل للناس رسالة من عند الله (٤) . ويقدم الرومانتيكيون الألمان لنا شواهد عديدة من نفس النوع . ألم يقل جوته « إن كل نتاج ذو قيمة عالية ، وكل فكرة عظيمة تحمل ثماراً ونتائج تخرج عن سلطان الفرد وتنبع من قوة شيطانية مزودة بقدر عالٍ تفعل بالإنسان ما تريد أن تفعل ، ويتنازل لها الإنسان لا شعورياً عن نفسه ، وهو يعتقد أنه يعمل من وحي ابتكاره » ، (٥) .

وعند نيته تسليخ الصفة الدينية ، إن صح التعبير ، عن الوحي والإلهام . والتجربة التى يمارسها فى هذا المقام ذاتية بحتة ، ولذا فهى على أكبر جانب من الغرابة : « وجفاة ، وفى وثوق تام ودقة لا توصف ، يأتى شئ إلى البصر أو إلى السمع ، فيهزك ويقلبك من أعماقك .. فتسمع ولكنك لا تبحث .. وترتك نفسك تغمرك دون أن تحاول تبيان مصدر الشئ .. ، وتشغل عندك فكرة كما يشتعل البرق ، ثم تفرض نفسها عليك بصفها ضرورة لا تترك

لك أية فرصة للتردد حول الشكل الذي تعبر به عنها : لم يحدث لي أبداً أن كانت لي هنا حرية في الاختيار . . . فهذه نشوة ذات ضغط فظيع تتحلل لحظة لتصبح سيلاً من دموع ، في حين تسرع الخطى أو تبطىء دون إرادة في هذا ، وتذهل لتخرج عن نفسك لكنك تحتفظ بشعور واضح ، بارتعاشات رقيقة لا نهاية لها ، وبغرق يتصبب منك إلى أنخص أقدامك : وما هذا إلا غبطة عميقة لا يمكن أن يكون الألم أو الحزن شيئاً كبيراً إلى جانبها إن أنت قارنتها بهما ، لكنها غبطة تصبح كما لو كانت ملكاً لك ، أو كلون من الألوان يأتي مع انتشار الضوء . وكل هذا الذي يحدث لأعمل لإرادتك فيه أول الأمر ، ولكنه يحدث وقد استولى عليك شعور صاحب بالحرية والاستقلال وبوحى الآلهة ... هذه تجربتي عن الإلهام (٦) .

وتحليل الإلهام لدى كلوديل أقل عمقا عن سابقه : فهو يعود في تحليل هذا إلى الألفاظ المستخدمة في الدين ، دون أن يحدد ما هي « الروح » ، وما هو « الإله » الذي يتحدث عنه ؟

« بعد السكون الطويل المكلل بالدخان ...

جفأة ، الروح من جديد ، جفأة ، النفخة من جديد .

جفأة ، الدقة الساكنة في القلب ، جفأة ، الكلمة بمنوحة ، جفأة ، نفخة الروح

السلبية جافة ، وجفأة ، امتلاك الروح ، (٧) .

« مرة أخرى ، مرة أخرى ، البحر الذي يعود باحثاً عنى كمركب ..

مرة أخرى ، الليل الذي يعود باحثاً عنى .

مرة أخرى ، الرحيل ، مرة أخرى عاد الاتصال ، مرة أخرى الباب الذي يفتح .

آه . . . إلتى ثمل . . . آه لقد سلمت للإله . . . إلتى أسمع صوتاً في نقسى وورن الشعر يسارع ، وحركة السعادة ...

فيم يهمني جميع الناس في هذه اللحظة ، إني لم أخلق لهم ، لكني خلقت لنقل هذا الوزن المقدس . . .

يا لصيحة بوق مغلق ، يا لدقة مكتومة على سطح الارغن !

فيم تهمني إحداهما ؟ ذاك النغم وحده . . .

وها هو ذا جناح الشعر الكبير قد انتشر . . . (٨)

مثل هذه النصوص تتفق فيما بينها لدرجة عجيبة رغم اختلاف أصولها وطبيعتها ، إذ يمكن في سهولة أن نستخلص منها العناصر السيكلولوجية العادية للوحى . ومن هذه العناصر الفجائية تستولى على الفرد خلصة كما ينقض النسر على فريسته فينقطع سير التفكير الطبيعي ، أو خط الفكر المنتظم ، على أن الشيء الذى يظهر فجأة لا يفتح - على ما يلوح في الحال المباشر - مما سبقه ، ويتضح أن هناك انهداما في التناسب بين النوعية العادية لأفكارنا وقيمة الشيء الذى يظهر فجأة . قيمة ضخمة لا يمكن قياسها . والامر هنا أشبه ما يكون برسالة توجه لنا ، أو بضوء يتكشف لنا . أوبفكر عظيم يتفضل بزيارتنا . والامر أيضاً أمر سلبية ما دام الشاعر يكتبنى بتلقى ما يصل إليه ، وما دام قد أصبح أداة في يد قوة أخرى ، أو أن شيئاً قد أمسك به واختطفه وتملكه وغمره . وتنطوى هذه الحالة كذلك على توحيد وأسماء لجميع القوى . فالروح تجدد نفسها وقد أصابها الخشوع في آن واحد ، وقد تجمع حول مركزها ليلقى بها خارج ذاتها . إنها سعادة النصر ، سعادة فوق بشرية ، لأن الإنسان يظن نفسه ، وقد غمرته قدرة الإبداع ، وقد أصبح على اتصال بالله ، أو أنه أصبح هو إلهها .

قانونه العمل

ما من داع يدعونا إلى التشكك في صحة مثل هذه التجارب ، إلا أنه قد يكون من الخطأ أن نستخرج منها قانونا عاما؛ فالفنانون والكتاب الذين لا يتعرفون على أنفسهم من خلال الوصف الذي يقدمه نيتشه أو كلوديل كثيرون . وكثيرون أيضا أولئك الذين يؤمنون بأن نجاحهم يرجع قبل كل شيء إلى الشعور والعمل والإرادة ، فيعتمدون على الجهد أكثر من اعتمادهم على المعجزات . ومثل هذا الاتجاه قديم يرجع إلى القدامى من أجدادنا ، لكنه يعود إلى الظهور اليوم كما لو كان في ذاته رد فعل ضد الرومانتيكية ، فهو واضح عند مدرسة البارناس ولدى الرمزيين . ويكتب فيرلين فيقول : ونحن أيضا — في برود — تقرر أيات شعر تنفعل . ثم يتأكد هذا عند شعراء العقل من أمثال مالارميه ، ومن بعده فاليري ، وكل الذين لا يعترفون مثلها بدور الغريزة ويتخذون حذرهم من النشوة والسذاجة والتمثل ، ويرون أن من الضروري احتساب كل أثر من آثار تفكيرهم . لكن أهذا رأى جماعة معينة ، أو مدرسة ما ؟ أبدا : . . فنذ ما يقارب قرنا من الزمن نجد هذا الرأي لدى جماعة كبيرة من الكتاب والمصورين والموسيقيين ، ولو أنهم يختلفون جميعا عن بعضهم بعضا . فإذا ما استمعت إليهم لوجدتهم يقولون بأن العمل ضروري ، وبأن دوره في الإبداع مسيطر لدرجة ينتهي معها الوحي إلى الشيء القليل ، أو حتى إلى لا شيء على الإطلاق . ونحن هنا نعرف كلمة جوته التي يقول فيها : واحد في المائة للوحي وتسعة وتسعون في المائة للعرق . وبودلير أكثر وضوحا في هذا ، حيث يقول « ينحصر الوحي في أن نعمل كل يوم » (٩) . وبنفس المعنى يتحدث المثاليون رودان فيقول : « لا تعتمدوا على الوحي ، فهو غير موجود ، والصفات الوحيدة للفنان هي الحكمة والانتباه والإخلاص والإرادة ، فتقدموا بعملكم كما يفعل العمال المخلصون » . (١٠) وقد توسع هذا الفنان الكبير في نشر هذه النصيحة بدرجة

لم تعرف الملل ، حيث يقول : كيف يجب أن نعيش ؟ . . . لقد أجيب على سؤالى هذا بهذه الكلمة ، بالعمل . على أنه ليس للفنان سر آخر غير هذا ، وليس لدى ما أقول لك منذ المرة الأخيرة : أن اعمل وشكل واصنع الأقدام والأيدى وأحضرها إلى ، وسأقول لك رأيي فيها . . . نعم اعمل . . . سعدت مساء » (١٢) .

وفاليرى من ناحيته لا يرى « في الشرط الصحيح للشاعر . . . إلا بحثاً إرادية » ، ويؤكد تأكيداً قاطعاً « أن التحمس ليس بحالة نفسية للكاتب » (١٣) ، ويشاركه في هذا اندريه جيد بلا تحفظ فيقول : « كل عمل فنى مسألة رياضية لا بد من حلها ، مسألة تتكون من عدد كبير من مسائل متوازية تنتظر كل منها حلاً خاصاً بها . . . أى تنتظر الكلمة الضرورية ، وما أسماه الرومانيون وحياً يتحلل هكذا إلى عدد لا نهائية له من جهود صغيرة » (١٤) . وسترافينسكى لم يطرق الوحي بطريقة غير هذه ، فهو إذ يشرح كيف يصبح الإبداع ظاهرة من ظواهر المقامرة الإرادية ، يضيف قوله : يجب ألا ننسى أنه (أى الإبداع) مكتوب . . . وأن نفخة الروح تهب حيث تريد ، وأن الذى يجب أن نأخذه مأخذ الاهتمام فى هذه الجملة هو على وجه الخصوص تعبير : يريد ، (١٥) .

وهناك أسباب جوهرية تبرر هذا الموقف المتحفظ إزاء فكرة الوحي . فالوحي لا يكفى أولاً لإنتاج عمل فنى يتكون ويصبح ذا مدى معين . ويقول فاليرى هنا : « إن الآلهة لا تستطيع أن تملئ علينا قصيدة واحدة ، (١٦) لماذا ؟ : لأن الوحي غير متصل ، ولأنه مؤقت متقلب ، يستمر بما يكفى ويسمح لنيته بالتعبير عن كلمة ما ، أو للاثنتين بارتجال مقطعى قصيدة ما ، يعاونه فى هذا عادة الارتجال ، أو لدولنى « بغسل » لوحة بألوان الماء . . . على أنه لا يمكن أن نطلب إلى الوحي أن يظل قائماً طول الوقت اللازم لقرض إلياذة كاملة ، أو لإتمام زخرفة قصر السكستين كله . هل رأينا شاعراً يكتب قصيدة طيبة فى غمضة عين ؟ إن الفنان أو الكاتب

لا ينتج ونار الوحي تلبه إلا مقطعا أو أجزاء متفرقة من عمله ، لكنه لكي يكمل وينظم عمله هذا وينتهي منه ، لا يلجأ في أغلب الأحيان إلا إلى الطرق العادية ، نقصد ذاكرته وخياله وعقله ومهنته . ويقول فاليري أيضا هنا إنه « ما من جديد تجده مصادفة ، وما من مجموعة من أشياء جديدة تعثر عليها وقد أمكن تشكيل عمل فني كامل منها ، فالآلهة تمنحك مقابل لا شيء هذا البيت . لكن عليك أن تشكل البيت التالي لتتفق نعمته ونعمة الذي يليه ، والذي لن يكون أقل قيمة من سابقه . وليس من المبالغة من حيث مصادر التجربة كلها ، ولا من ناحية الخيال ، أن نضعه موضع المقارنة بالبيت الذي جاء كنسحة للشاعر في أول الأمر ، (١٧)

أضف إلى هذا أن الوحي لا يقدم إلى الفنان - حتى في الظروف المواتية له - إلا المواد الأولية للعمل الفني . ولكي يحكم على هذه المواد ويقدرها لابد من روح نقد تقوم بعملية التقدير ، لكن روح النقد هذه غير موجودة لديه . . . هذا بالإضافة أيضا إلى أن الوحي ينقل لك في موجته الجارفة كل ما هو طيب وريء في آن واحد ، فكيف يتم إذا اختيار الأصلاح إن لم نمارس هذه القوة النافذة التي تسمى « الذوق » ، وإن لم يكن الدفاع مرتاحاً ؟ انظر إلى بوشكين وهو يعمل ، وكما يصف لنا هـ : تراويا أن تحمسا إجمازيا يستميله ، فيميل فوق أوراقه ، وتتابع الصور تحت قلبه ، وإذا به يتعجل لأنه يخاف من أن تضيع بضعة قطرات من هذا المطر الذهبي ، فيسجل على الورق كل ما يعبر رأسه ، وهو يسمع أحيانا موسيقى يت شعر ، لكن تظل الالفاظ التي سوف تجيء لتضع نفسها تحت أمر هذا النغم بعيدة ، الأمر الذي يضطره إلى ترك مكانها خاليا . . . لهذا فهو يدون قوافي لا يسبقها يت شعر ، وقوافي تطفو حول فكرة لا نعلم عنها شيئا . لكن ما إن ينتهي التحمس حتى تأتي ساعة التفكير المتوهج . . . وهو تفكير « عاقل متشدد ، يفحص الهدايا الثمينة التي تتقدم

إليه ليلا ليفتق منها الأصح ثم يقومه ، فهو يرفض هذه ويقبل تلك . . . ثم ينظم . هكذا تجده يستخلص من الازدحام الأسود لمسوداته هياكل آيات شعر ، ومن هنا يخرج العمل الجميل الهادي المرح . . . يخرج من خلط الارتجال ، (١) .

ويشعر أغلب من يصيهم الوحي بهاتين اللحظتين تتلامسان أحيانا تلامساً شديداً ، وهما لحظتان تقابلهما وظيفتان مميزتان . هكذا نرى أن نيتشه لا يترك نفسه فريسة لحالات الأحلام التي يرسم لنا صورتها بطريقة تبعث على العجب ، فهو يقول : « إن من مصلحة الفنانين أن يؤمنوا بالبدايات المباشرة ، أو بما يسمى فرضاء الإلهامات » . لكن الحقيقة أن خيال الفنان أو المفكر يأتي بالطيب والسطحي والردى . سواء بسواء . وما دامت روح النقد عنده مشحذة إلى أكبر درجة فهي ترفض وتنتق وتربط . . . وقد يكون من رأى الشاعر سورفيل في أيامنا هذه أن الحقيقة صحيحة ، فهو يقول : « إن بما لا شك فيه أن للهذيان في كل إبداع شاعري نصيباً ، لكن لا بد من تصفية هذا الهذيان ، ولا بد من أن يفضل عنه الفائض الذي لا عمل له أو الذي تمتنع علينا رؤيته ، هذا مع ضرورة اتخاذ الاحتياطات الكافية الذي تتضمنه مثل هذه العملية الدقيقة . وعلى أية حال ، فهو يرى أن كل ما ينتجه الوحي لا يكون بالضرورة أحسن من ذلك الذي يقدمه التفكير المنطقي ، « لأن الشاعر غالباً ما يعمل في حرارة وهو يعيش في الظلمات ، لكن للعمل في هدوء وبرود مزاياه أيضاً ؛ لأن البرود يسمح بجرأة أكبر ، ولا تأت هذه الجرأة إلا في حالة وضوح ذهني . . . ونحن نعلم أن من شأن الهدوء أنه لا يصيبنا بما يصيبنا به الثمل

(١) روسيا المقدسة ص ٦٤ - ٦٥ - الواقع أن بوشكين يجعل من وحي الحماسة المرحلة الثانية في عملية الإبداع الأول وتجنب الخلط لدى القارى نلاحظ هنا لكلمة « الحماسة » بمعناها العادى وما يسميه بوشكين الوحي فطلق عليه نحن تعبير « التفكير المتوهج » .

العابر أو الغضب المستشيط الذي لا نفهم خلاله شيئاً ، (١٨) . ومهما يكن من أمر فإن الوحي يحتاج إلى رقابة وإلى أن يفيد منه العمل الشعوري المستمر ، إذ أننا نعود من الوحي — هكذا يقول ف.ج. لوكا — كما نعود من بلد أجنبي ، حيث تصبح القصيدة سرداً للرحلة ، وما يقدمه الوحي هو الصورة عارية بلا ملابس ، ولإلباسها لا بد من أن ننتقي الكلمة نوعاً ورنيناً في هدوء وبلا تحمس جارف ، (١٩)

ويحدث كذلك ألا يتقدم إلينا الوحي بعد أن كنا نعتقد أن في الإمكان الاعتماد عليه ، فلا يحضر في ميعاده ، وخصوصاً ، على ما أعتقد ، حين يكون الكتاب مطلوباً لسد حاجة معينة ، أو حين يكون الفنان قد اختار موضوعه دون أن يبين له نوره الداخلي طريقة من طرق هذا الموضوع في نفس الوقت ، فلقد كتب ديلا كروا في شهر إبريل من عام ١٨٤٧ يقول : « إني أعمل في لوحتي منذ أول يناير ، وقد شرعت اللوحة تتضح لي غير أن الوحي لم يكن يأتي ، وهكذا أخذت أعمل متحمساً ، وما من مشعل يلقى على الطريق الذي يتعين على اتباعه ضوء أحياناً من أول وهلة ، فأخذت أرسوم ثم أحوثم أبدأ من جديد ، ولم يكن كل هذا بالشئ الذي كنت أبحث عنه بعد ، (٢٠) .

فالفنانون في الواقع كالمثقفين ، تجدهم يمرون بمراحل غالباً ما تكون طويلة ، وكلها جفاف وعقم كما لو كان إله الوحي قد هجرهم أثناءها ، وكما لو كانوا قد انصرفوا إلى أنفسهم لحسب . فإذا لم يستغنوا عنه ليحلوا محله عملاً فعلياً لما فعلوا شيئاً في حياتهم أبداً .

فهناك الشاعر جول سوبرفيل الذي كنا نستمع إليه منذ لحظة ، ينكر على نفسه هذه الحقيقة إذ يقول : « إني لا أنتظر الوحي لأكتب . فأنا أقابله بعد أن أكون قد قطعت أكثر من منتصف الطريق . ولا يستطيع شاعر أن يعتمد على اللحظات النادرة جداً ليكتب ما يملي عليه الوحي ، بل أعتقد

بحث في علم الجمال

حين يتحدث عن التلقائية المطلقة للوحى عنده . فما من شك في أن السهولة التي يؤلف بها تدعو إلى الحذر، فإذا كانت مخطوطاته لا تحوى إلا القليل من الحذف والتغيير فإنه لكي يدرب يده على الكتابة كان قد كتب آلافاً من أبيات الشعر قبل أن يقدم أعماله للنشر، فهو إن لم يكن قد صوب إلا قليلاً، فإنه كان يعيد كتابة أشعاره بعد أن يكون قد مزق مسوداته السابقة — أليس هو الذي قال : « لقد كتبت هذا « التأمل » الأول في إحدى أمسيات شهر سبتمبر عام ١٨١٩ عند غروب الشمس فوق الجبل المطل على منزل أبي ، وكنت منذ بضعة أشهر وحيداً ، هناك في العزلة ، وكنت أقرأ وأحلم وأحاول الكتابة أحياناً دون أن أصادف النغم الصحيح الحق الذي يتفق وحالة نفسى ، ثم أمزق الآيات التي سودتها لآلتي بها في الرياح » (٢٣) . ماذا يعنى هذا رغم النغمة الكلامية التي تدل ظاهراً على الانطلاق ، إلا أن القصيدة لم تأت وحدها دون جهد ؟

ولم يكن الشاعر موسيه يميز دائماً عن غيره في مدى صدق مايقول ، فهو يدعى أن قصيدة « ليلة مايو » قد هبطت عليه وكتبها بجرة قلم واحدة دون تصويب . ومع ذلك ، فبصرف النظر عن أنه لم يكن إذ ذاك أقل من سابقه ، لمارتين ، من حيث إنه كان لا يزال في مرحلة التجربة عند ما كتب ديوان « الليالى » ، فنحن نعلم من عشيقته جورج صائد أنه كان يخرج أشعاره من وسط آلامه ، وقد أسر إليها بقوله : « إن الاختراع يبعث الرعب إلى نفسى ويجعلنى أرتعد . أما التنفيذ فهو يتم في بطن شديد وفق رغبتى ، ويدفع إلى قلبى بضربات خفيفة ، وما إن أخرج فكرة تملئنى إلا وأبكى ، وأحتجز صيحاتى ، ومع هذا فهى دائماً فكرة تخجلنى خجلاً قاتلاً وتبعث إلى نفسى التقزز في صباح اليوم التالى » (٢٤) . أما هوجو ، فما من إنسان يجمل أن قدرته على العمل كانت تعادل قوة عبقريته ، وأنه كان يعدل من كتاباته إلى آخر لحظة .

قد يكون من الممل أن نسرّد قائمة الكتاب والفنانين الذين يكشفون عن طريقتهم في العمل ، وعن تردداتهم وآلامهم . . . وإذا كان قانون العمل على نفس الدرجة من التشدد بالنسبة إليهم جميعاً ، فهو يضغط بثقله على الكل سواء بسواء . ولدينا ملاحظتان فحسب تجنبنا كل الخطأ : أولاهما أمر معروف يتلخص في أن العمل لا يحل محل العبقرية ، ولا حتى الموهبة ، إذ ما من قائدة أن تعمل معولك إن كانت الأرض فقيرة ، فلا يمكن أن يكون العمل الفني الكبير ثمرة الصبر فحسب ، اللهم إلا إذا أطلقنا تعبير العمل الكبير على تلك الأعمال النافذة اللافذة للنظر ، كالمرآكب المزينة بأنواع الزينة الرخيصة ، أو تلك القصور ذات الآلاف نافذة والآلاف برج . . أو عموماً تلك الأشياء التي قضى صانعوها في بنائها بأعواد الكبريت سنوات طويلة .

وهناك من ناحية أخرى حدود للتصويب والمحو ، فعلى المصور أو النحات أو القصصي أو الشاعر أن يضع يده على نقطة الكمال التي يصبح الكشط بعدها إفساداً للقصيدة أو القصة أو التمثال أو اللوحة . وإذا كان عليه غالباً أن يعيد النظر في عمله فإن عليه أيضاً - على عكس ما يريد بوالو - ألا يستمر في إعادته تحت الاختبار ، لأنه بهذا يفسده وهو يقصد إصلاحه ، أو يريد أن يضفي على الفكرة الأولى أفكاراً جديدة في الوقت الذي تريد فيه الفكرة الأولى هذه أن تعيش وتبقى على أصالتها واكتمالها ، وهو - أي الفنان - إن استمر في استخدام المبرد فن الجائر أن يمحوا الآثار الأصلية الأولى ، وأن يقضى على ما قام بتنفيذه فعلاً في حرارة حقّة وفي حركة كلها حياة وخشونة صحيحة صريحة .

لهذا يصرّح البعض بأنهم من أعداء التصويب والشطب . و « آلان » من هؤلاء ، إذ يقول : « إنى أمقت العود ، ومن هنا كان انعدام الشطب عندي . » (٢٥) ويقول « جوليان جرين ، نفس الشيء . : إن التلقائية

والدفعة الأولى هما ما يسمح للسرحية أن تعيش وتنفس ، لكن قد تقتل بعض النصوص حين تقصد تغذيتها . استمع أيضا إلى موتيرلان حين يقول : إن . من البله أن تدعونا إلى الإعجاب بالقدرة التى يصحح بها الكاتب مسوداته ، وما معنى هذا إلا أن الكاتب تنقصه الموهبة الطبيعية ، ولا يمنع موتيرلان هذا من أن يقول فى مجال آخر : « لقد حدث لى أن قضيت شهرين دون أن أفعل شيئا عدا إعادة النظر — بالعمل يوماً كاملاً — فى نص واحد من مؤلفاتى الأولى لإعادة نشرها ، (٢٦) . وهو يعترف كذلك بأنه ألغى مائتى صفحة من الثمانمائة التى يتكون منها مخطوط «وردة الرمال» ، (٢٧) . ولا يؤمن جرير هو الآخر بأن ما يلغيه عبارة عن تصحيحات «تغثال» العمل الأدبى اغتيالاً ، فهو يقول : «إننا نكاد نكون على حق حين نقطع القصاصات . ويتبنى آلان كلمة ستاندال التى يقول فيها يجب ألا نكفر عن خطايانا ، ... ويتبنى كذلك تلك الحكمة الأخرى لستاندال : أن أكتب كل يوم ، فإن فى هذا عبقرية ، وبأنف من أن يصحح ويصوب ، ولا يتردد فى «أن يعيد كتابة كل شيء من جديد . . . وهكذا لا يفقد العمل حقوقه حتى لدى الذين يخافون «الصقل الشديد» والتدقيق» .

سبل الإبداع

الحق أن وسائل الإبداع متعددة تعدد وسائل تلقى الإلهام ، فالإلهام بالنسبة للتلقائين أشد كرمًا وإلحاحًا ومظهرية . أما لدى الإراديين فهو أكثر رزانة وأقل مظهرية ، إن لم يكن أكثر تخفياً لدرجة يختلط فيها اختلاطاً ظاهرياً مع العمل . والصلات التى تربط العمل بالوحى متباينة بقدر ما هى متباينة ، حتى عندما تبدو وكأنها واهية . أما السبل التى يتبعها العبقرى المبدع فهى مختلفة ومتعددة أيضاً . ولا بد لنا أولاً أن نحدد ما نقول : إن أكثر أنصار العمل تحمسا لم ينكروا يوماً ضرورة الإلهام ،

وإذا كانوا ينكرون أحيانا وجوده أصلا ، فذلك من قبيل المبالغة التربوية إن صح التعبير حيث يقصدون إفهام الناس أنه - أى الإلهام لا يمكنه للقضاء على الادعاءات المنتشرة بهذا الصدد وإلجباط الحالمين والكسالى . لكنهم أكدوا وجوده بقوة لا تقل عن إنكارهم إياه ، وقالوا بأن من المحال التوصل إلى شيء إن لم يكن الإنسان موهوبا . ولقد قال هوراس هذا ولا يخالفه في هذا بوالو الذى يؤمن بأن الهبة الطبيعية أصل الفن ، فهو يحذر « الكاتب المتهور » الذى « يظن أن حب القافية هو العبقرية » ، فيقول له :

إن لم تكن تشعر بتأثير السماء عليك سرا .

وإن لم يكن نجمك حين ولدت قد جعل منك شاعرا (٢٨) .

فن الأصوب أن تزرع (الكرب)

وفاليرى لا يدعو السماء ولا الكواكب ، ومع هذا فهو يعترف حقا بصحة الوحي حين يقول : « هناك صفة خاصة ، أو نوع من الطاقة الفردية تخص الشاعر وتظهر لديه وتكشفه لنفسه في لحظات معينة ثمناها لا حدود له . وهذه الطاقة لا تجري ممارستها إلا من خلال مظاهرات قصيرة عابرة » ، ومع ذلك فهي تتضح بحيث « لا تستطيع أى طاقة أخرى من طاقات الإنسان أن تشكلها أو تحل محلها » (٢٩) . وهكذا ، فهما تكن أهمية التفكير العقلى ، فإن « عمل الفنان » حتى فى الجزء العقلى الخالص منه ، لا يمكن أن ينحصر فى عمليات من التفكير الموجه . ولذا نجد أن شعور الفنان هو أنه - فى إنتاج العمل الفنى « لا يوجد أى تناسب ولا أى نسق فى العلاقة بين كبر النتيجة وأهمية السبب » بل وقد تسبق الموهبة الطبيعية الطلب ، وتفاجىء إنسانا ما يكون مليئا بالفكرة ، غير مستعد لها . . . وهذه هى حالة النعمة الإلهية المفاجئة . (٣٠)

ومن العسير هنا الآن ألا نستخدم اللغة المستعملة في الدين لشرح الوحي أو الإلهام ، ولعل القارىء يتفق وإيانا في هذا ، مادام فاليرى بشخصه يلجأ إليها ، ومهما يكن الأمر فالتجربة تقدم لنا آلاف الأمثلة من هذه « النعمة المفاجئة » ، لكن القول بأن الإنسان يكون مليئا بالفكرة « غير مستعد لها » ، فهذا ما يجب مناقشته . . . وأن يكون دون إعداد معلوم له ، فهذا أمر يمكن قبوله . لكن أن يكون دون إعداد لاشعورى ، لا . . . بل إن سير التفكير النفسى اللاشعورى هو الذى يسمح بشرح الصفة الفجائية للوحى ، وكذا بشرح شعور الفنان بأن حجم النتيجة يزيد على حجم السبب . فالشئ الذى يعتقد أنه السبب ليس هو السبب ، وما الحدث العارض الذى يلقي به على قلبه أو على ريشته فى الحقيقة إلا شيئا عرضيا لا يلعب إلا دوراً أوليا فاصلا ، وقد كان السبب الحقيقى لإعداد العمل نفسه فى الأعماق النامضة للنفس ، فما إن تبدأ المياه فى التجمع يبطئ حتى تأتى صدمة خفيفة لكى تفتح القنطرة وتتدفق الموجة .

وقد سبق لنا أن شرحنا كيف أن فيرتر للشاعر جوته ، قد كتبت بجرة قلم ، قد تم نضجها على مدى طويل بعد أن أثرت فكرتها لدى الشاعر عرضا ، وتعتبر « رثائيات دونيو ، وقصائد «أورفيه» للشاعر ريلكة عينة هامة للوحى الصاعق ، وقد كتبت الغالبية الكبرى منها فى شهر فبراير عام ١٩٢٢ ، وكل هذا ، حسب ما يشهده الشاعر نفسه ، قد تم فى بضعة أيام ؛ فقد كانت عاصفة لا اسم لها ، وإعصارا روحيا ، وكل ما كان لدى من خيوط ونسيج قد تمزق . . أما عن المشكلات ، فلم يكن هناك ما يدعو إليها ، ويعلم الله من ذا الذى كان يقدم لى الغذاء (٣١) ، غير أن « الرثائيات » كانت قد بدأت منذ يناير ١٩١٢ ، وقد سبق لريلكة أن كتب فى ذلك التاريخ ، تحت الإملاء ، الرثائيتين الأوليين وبداية أخريات منها ، ومنذ ذلك الوقت ، أخذ ينتظر اللحظة التى يتمكن فيها

من إتمامها ، ولكنه كان قد يئس من ذلك . . ثم كانت إقامته في مدينة « موزو » حيث كان الجو مناسباً ، وحيث كان اكتشافه لفاليري داعياً إلى حثه على العمل . وهكذا كان لابد له من حدث ما ليدفع إليه بالصدمة المشاعرية اللازمة ، وكان هذا الحدث موت ابنة له ، هي « فيرا الراقصة » . التي اتخذت مكانها في الحال في نفس الشاعر ، من بين رسولات ما وراء القبور . . وبدأت المياه تسيل من المنبع كما حدث عندما ضرب موسى الحجر بعصاه ، وكما حدث في حالة « فيتر » ، كما يشرحها و . جيمس حين تحدث عن مثل هذه الظواهر ، من حدوث « نضج فوق المستوى الشعوري يتبعه انفجار » (٣٢) .

غير أنه من المبالغة تحديد مجال الوحي بهذه الدرجة من الضيق ، وحصره في أكثر أشكاله وضوحاً وقوة . ويرفض سترافنسكي الاعتراف به « في هذه الشبهة التي تتيقظ في نفسه — كما يقول — أرتب فحسب عناصر الفكرة التي سبق لي أن كتبتها » . لأن هذه الشبهة « ليست على الإطلاق شيئاً عابراً . لا بل إنها تأتي بين حين وآخر ، بل وتأتي دائماً كحاجة طبيعية تعودتها » (٣٣) . يا له من رجل سعيد هذا الذي يصيبه الوحي دائماً !! . وأكثر مما يعتقد . . . هذا الذي يشعر به كحاجة من حاجات الطبيعة كما يشعر برغبته في الطعام وبرغبته في كتابة المؤلفات الموسيقية . . أليس هذا تماماً هو الوحي . . . ؟ ماذا يمكن أن يكون اللهم إلا « في الأصل استعداداً ليعبر عن نفسه عن طريق فن ما . . . أو هذا ما يسمى الموهبة ؟ . . لقد ولد « س » من الناس مصوراً كما ولد « ص » جيولوجياً ، و « ع » رجل أعمال أو بحاراً أو جندياً . هذا الاستعداد الشخصي هو ما يمكن تسميته « الحالة العادية » للوحي (٣٤) .

هكذا تحدث أشياء كثيرة حدوثاً طبيعياً بعد أن كانت تلوح وكأنها

غير عادية ، « فهل مما يدعو إلى الدهشة أن يقفز هذا الموضوع أو تظهر تلك الفكرة فجأة في مخيلة الموسيقى ، خلال نومه أو نزهته ؟ . . إنه نائم ، لكن هناك في نفسه طبيعة تعمل في سر عميق ، تحت شعور ، وتتفاوض دون أن يعلم لمصلحته مع الموارد التي لم يكن يفكر فيها . إن هذه اللحظة التي يكون فيها متعطلا هي التي تولد في نفسه كل أنواع الأشكال والرسوم والأهداف التي يدعوها بحثه السابق لهذا ، وتدعوها تلك الرغبة الراقدة في نفسه ، وهذه الحاجة الملحة للاختراع ، هي حاجة يتصف هو بها ، وتلك القدرة على الاستيعاب ، هي قدرته هو التي تلازمه في حالة من نشاط دائم ساكن . إنها تنبع من شخصيته وهي تتغنى ثم تتخذ فجأة شكلا ملموسا ، وإن صح التعبير ، نية تتحقق . لقد ولد موسيقيا ، تراوضه شبيهة دائمة للتعبير الموسيقي . وبلا توقف تجري لديه ، شعوريا أو لا شعوريا لعبة البحث والاختراع التي تؤدي فجأة إلى نهايتها . (٢٥)

وعلى نفس النمط يمكن أن يقال إن الفنان يظل دائما في حالة وحي أو إلهام ، بالمعنى الواسع لهذه الكلمة ، حيث إن قدرته ، سواء كانت تلك التي تولد معه أو التي يكتسبها - توجه كل شيء فيه ، حتى طريقته في الإدراك الحسي . وقد أشار عالم النفس ديلا كروا إلى هذا حيث قال - : « إن الحياة والتعبير والشكل مترابطة ترابطا وثيقا لدى الفنان ، وإن طريقته في الملاحظة ، وحتى في الإدراك الحسي متكاملة أصلا . فالمصور يرى الدوافع . . وكل انطباع لديه يتجه نحو الفن ، (٣٦) . على أن المهنة نفسها هي التي تحدد الرؤية . . ، فالنحات على الخشب لا يرى شجرة كما يراها رسام بالوان المياه . ولا المصور بالبارز ، كما يراها مصور بالزيت ، ولا لعب الأوغرن لا يتخذ المادة الصامتة كما يتخذها مؤلف السيمفونية ، ذلك أن فنية التنفيذ عند كل منهم تندمج - إن صح التعبير - اندماجا في إدراك الحسي للأشياء وتستميل يده أو عينه أو أذنه ، وتحدث رنيناً يؤثر في الطريقة التي يفهم

بها الجمال ، (٣٧) . وهكذا فإن المهارة الفنية التنفيذية موجودة أصلاً في الوحي ، وهي وحدها تسمح له بالظهور . . أما معرفة الكيفية التنفيذية فهي مرتبطة بها ، وهي التي تستطيع الدفع بها إلى الأمام . (٣٨) .

من هذا نفهم أن الوحي عند الفنان خفي ، وأنه يستطيع أن يأتي من كل مكان في كل لحظة . فقد كان ليوناردو دافينشي يحب شقوق الحوائط القديمة وتصدعاتها لأنها كانت تزوده بالأفكار : « وإذا نظرت إلى حوائط ملطخة بالبقع ، أو مبنية من أحجار مختلفة ، وكان لا بد لك أن تتخيل منظراً ما ، فإنك ترى فيها مناظر متباينة ، فمن جبال إلى أنهار وأحجار وأشجار وسهول ، ولسوف تكتشف فيها أيضاً معارك ووجوها تتحرك في سرعة وملايح أوجه وملابس غريبة وأشياء لانهاية لها تستطيع أن تخلق منها أشكالاً متميزة تدركها تماماً » (٣٩) . ويؤكد دافينشي نفس الملاحظة فيما يتعلق بالسحب وبرنين الأجراس . وبعد زمن طويل قال أوديلون ريدون : « غالباً ما كان يقول لي أبي : « انظر إلى هذه السحب . . هل ترى فيها كما أرى أنا أشكالاً متغيرة » ؟ . . وكان يشير لي إذ ذاك إلى ما في السماء المتحركة من مخلوقات عجيبة ، خيالية ، مذهشة تظهر . . (٤٠) »

وهناك تقدير خاطئ . يقول بأن الوحي يظهر أولاً ، وأن العمل يأتي بعد ذلك ليفقد منه . والواقع أننا في أغلب الأحيان نرى عكس هذا ، فليس الوحي هو الذي يسبق العمل ، بل إن العمل هو الذي يبحث ويشير الوحي ، « والوحي ، كما يقول سترافنسكي ، يأتي خلال العمل كما تأتي الشهية خلال الأكل » (٤١) . وهناك كثيرون لا يعرفون تلك الطريقة في تلقى الوحي ، ويقول أحد الموسيقيين : « إن أكثر وسائل استدعاء الفكر انتشاراً هي العمل ذاته ، فقد قرر بالأمس إعداد « سوناتا » كانت قد طلبت منه ، فشعر وسط أغرب مشاغله بأن شيئاً يتبعه ، فظل في حالة

من الانتظار والترقب ، أو أنه أخذ يبحث ويسود ويمحو . . . وما هو ذا العمل قد بدأ وما هي ذى الفكرة تتولد بعد أن أثبتت لديه . لكن هنا لن نستخدم في غالب الأحيان كما هي ، بل سوف تضبط وتعديل وتنكيف بضرورات ما يجرى إعدادة ، لتعاون في هذا الذوق والمنطق التطبيق والعقل العامل . . . حتى تكتمل .

أو كذلك : « إنه أمام البيانو ، يرتجل ويتحسس ، وما هي ذى فكرة طارئة غير متوقعة ، أو سوء تصرف أو نغمة رديئة توحى له بنغمة ميلودية طويلة ، أو بذلك التوافق الموسيقى الذي كان ينتظر ليسير قدما . . ومثل هذا أيضا ، أن يكتب الشاعر ما يكاد يكون من قبيل المصادفة ، وبينما هو يكتب يرى فجأة بصيصا من النور ، (٤٢) . هذا هو السبب الذي من أجله لا يفتأ الفنانون أن يوصوا بالعمل وأن يصبحوا هم في غالبهم دائما مواظبين ، لأنهم يعلمون أن العلم يولد الأفكار ، وأن الوحي نهاية . ويقول : ييكاسو هنا قوله الراجع هذا : « كنت أتعجل كل مساء في العودة إلى العمل ، وكنت أريد أن أعرف ما الذي كان سوف يحدث ، (٤٣) »

إذن لا داعي لأن نضع الإلهام — أو الإدراك — موضع التعارض مع التنفيذ ، كما يحدث عادة ، إذ أن في هذا تبسيطا شديدا للتجربة ، وتعميما لحالات نمطية معينة ، ذلك الاتجاه الذي يرمى إلى نسبة مولد العمل الفني إلى قوة تلقائية ، ونسبة نموه وتقدمه إلى قدرة التفكير فحسب . فالواقع أن الوحي والتنفيذ لا ينفصلان ، لا بالمعنى الذي يقصد إليه سترافنسكي من حيث إن الوحي لا يتحكم في شيء في العملية الإبداعية ، ومن حيث إن الوحي عبارة عن « تعبير ظاهري ثانوي ، فحسب ، أو رد فعل عاطفي يصاحب مجهود البحث . . . بل يلوح لنا بالآخرى أن الوحي والتنفيذ يتداخلان ويتراكيان ويثير كلاهما الآخر بالتبادل . وعندما يكون المؤلف يحتاج

إلى عمل طويل الأمد بوجه خاص ، يجوز أن يتحلل التنفيذ الذي يكون قد بدأ إلى ومضات جديدة من الوحي .

أضف إلى هذا أن التنفيذ يساعد الوحي على أن يظل يقظا . فعندما يوجد التوافق أو الرسم الأساسي ، كنتيجة لعمل شعوري أو لا شعوري ، وعندما تبدأ الآلة دورانها ، وتتحول المادة الصلبة إلى مسحوق ، تظهر حالة من الحرارة الانفعالية تسمى الوحي ، وهي تشبه حالة العداء الذي يدفع الطريق بساقيه إلى الأمام ، (٤٤) .

وقد أبدى «هونجر» بدوره نفس الملاحظة حين قال : أنا كآلة بخارية ، أحتاج إلى الحرارة ، وأدفع نفسي بأصابع الآلة الموسيقية ، ويستحني صوت الموسيقى . . إلى اللحظة التي يبدأ فيها شيء ما يهز نفسي هزاً غامضاً ، كما يحدث حين نسمع فجأة الماء يأخذ في الغليان (٤٥) .

وأخيراً فإن التنفيذ يثير الخيال ويوجهه توجيهاً مستمراً ، الفضل في هذا للمشاكل التي يفرضها والمصادقات التي يقابلها والحلول التي يعترضها . ومن هنا يصبح التنفيذ صاحب الوحي أساساً . وقد أدرك المصور ديلاكروا ضمن آخرين هذه الحقيقة فقال : « إن التنفيذ السليم ، أو بالأصح الحقيقي ، هو الذي يضيف إلى الفكرة شيئاً عن طريق الممارسة المادية ظاهراً . » وينتقد ديلاكروا علماء الجمال الذين يصدر عن أحكامهم دون أن يعرفوا وسائل التنفيذ الفنية فيقول : « ما هو الفن الذي لا يتبع فيه التنفيذ الإبداع التابع من الصميم ؟ إن الشكل يختلط بالمذهب اختلاطاً ، سواء أكان هذا في فن التصوير أو الرسم أو في الشعر ، ولذا نجده يقول منذ شبابه : « إن التنفيذ في فن التصوير يجب أن يأتي دائماً من الارجمال ، ولن تكون اللوحة المنفذة التي صورها المصور جميلة إلا إذا ترك المصور نفسه لنفسه بعض الشيء واكتشف أشياء جديدة خلال التنفيذ » (٤٦) .

الفكرة الثابتة ونموها

يجدر بنا أن نقف عند هذه العبارة : « اكتشف أشياء جديدة خلال التنفيذ » إن من الأمور التي لا غنى عنها لكي نجد شيئا جديداً أن تكون لدينا فكرة عن الشيء الذي نبحث عنه مقدماً ، مهما تكن هذه الفكرة غامضة أو « هاربة » . فالفنان ككل مخترع يبدأ من فكرة ما ، ولا يهم هنا أن تكون هذه الفكرة هبة من ربة الإلهام أو مكافأة له على جهود تحسسية طويلة . وليست لهذه الفكرة علاقة بمذهب ما ، هذا أمر طبيعي ، كما أنها ليست صورة عقلية واضحة متميزة لما سيكون عليه العمل الفني بعد الانتهاء منه ، لأنها إذا كانت منذ بدايتها على هذه الدرجة من الوضوح والدقة ، كان معنى هذا أن العمل الفني مفروغ منه مقدماً ، وكان معنى هذا أيضاً أن التنفيذ لن ينطوى على الصعوبات التي نعرفها ، ولا على المفاجآت والإضافات والتحويلات التي يمكن أن نشعر بضرورتها مقدماً .

ما الأمر إذن ؟ إنه أمر بذرة فكرية تشبه بذرة حبة تنفتح في ذهن الفنان لتنمو من خلال العمليات العقلية بأنواعها جميعاً ، ولتنصبح عملاً فنياً حين تصل إلى منتهى نضجها . وما هذه الصورة الحية لعملية الإبداع إلا تلك التي حدثنا عنها بيرجسون بقوله : « إنها حركة تمثيلية عقلية ، ثم اتجاه الفكرة اتجاهاً معيناً ، ثم مشروع دون نموذج يتبع ، ثم بذرة ضئيلة لكنها مليئة بطاقات ضخمة » .

وما هو الشيء الذي نستطيع فهمه في الأصل الذي تصور عنه لوحة أوقصة أو قصيدة شعر ؟ أحياناً لا شيء تقريباً . وهكذا يمكن أن يقال : شعور غامض نافذ ، أو نغم يلزم الشاعر ، أو لعبة تغرى بالوانها أو بخطوطها ،

أو على الأقل ذلك الشعور البسيط « بأن هناك شيئا ما يجب عمله » ويقول شلر : عندما أجلس لأكتب الشعر ، فإن الشيء الذى أراه أمامى غالبا هو العنصر الموسيقى ، لا فكرة الموضوع الواضحة ، وغالبا ما لا أتفق ونفسى حول هذا الموضوع . . . وسوف نعود للحديث عن هذه الملاحظة التى تنتشر لدى الشعراء ، وتدل تصريحات فلوير حول هذا على أن تلك الملاحظة صحيحة أحيانا ، بل ودائما لدى كتاب القصة ، وهو يقول مثلا : « عندما أكتب قصة ، تراودنى فكرة تلوين معين ، أو مايقرب من هذا التلوين ، ففى قصتى القرطاجية (سالامبو) أردت أن أضع لونا قرمزيا ... وفى قصة مدام بوفارى ، لم تأتني إلا فكرة وضع لون العفن الذى يصحب حياة الحنافس .. لقد كان إعداد تفاصيل هذه القصة يخيفنى إلى درجة كنت قد أدركت معها مدام بوفارى بشكل يختلف تماما عن ذلك الذى كنت قد بدأت الكتابة فيها ، حيث كان يتحتم على تصوير بطله القصة فى نفس البيئة وبنفس النغم ، عائسا تقيّة ، طاهرة .. ولكننى فهمت فيما بعد أنها كانت تصبح على هذه الصورة شخصية يستحيل تصويرها ، (٤٧) .

هذا ويلاحظ أن كل من يحاول تحليل مولد الفكرة على هذه الصورة الغامضة ، يجد نفسه إزاء صورة تفرض نفسها عليه فرضا ، تلك هى صورة الضوء الذى ينبعث من أعماق الظلام ، أو ذلك الذى ينساب كوميض برق من بين الظلمات . إن هذه الفكرة — رغم كونها عادية معروفة — تفرض نفسها دائما . انظر كيف يصف « هونجر » مولد السيمفونية : « إنى أبحث أولا عن خط التحديد الخارجى للصورة ... المنظر العام للعمل الفنى .. لنقل مثلا إنى أرى قصرا يرتسم وسط ضباب قائم لأحد الحدود .. هنا يقضى الانعكاس تدريجيا على هذا الضباب ، وأستطيع أن أرى بوضوح أكبر . وأحيانا يأتى شعاع شمس ليضىء أحد أجنحة هذا القصر الذى يجرى بناؤه . وهنا يصبح هذا الجزء لى نموذجا .. وما إن تعم ظاهرة الضوء هذه حتى آخذ فى البحث عن موادى الأولية ، (٤٨) .

هذا ولا تعتبر الفكرة الأولى للعمل الفني في أحسن الأحوال في نظر فاليري ، محاطة بالظلام وحسب ، بل إنه يراها مظلمة من أثر شدة الضوء الملقى عليها ، « فليس الضوء مضيئاً ، بل إنه ذو وميض شديد من شأنه أن ينذر ويعلق بدلاً من أن يضيء » . . . ويشبهه فاليري باللقطة الضوئية التي يستخدمها المصور الفوتوغرافي ، الذي لا يرى شيئاً لحظة اللقطة نفسها . ولا يستطيع رؤية الصورة واضحة ، إلا فيما بعد ، أي في الغرفة السوداء التي يقوم بتحريض الفيلم ، فيها (٤٩) .

لكن الشيء الذي يشبه مولد العمل الفني أكثر من غيره هو مولد الطفل ، واللغة هنا باعتبارها مستودع تجربة لاحصر لها هي الشاهد على صحة ذلك ، لأنها — أي اللغة — تستقى استعاراتها تلقائياً حين نتحدث عن الإبداع الفني من مختلف أطوار الإكثار الجسدي : فهناك مؤلفون يتصفون « بالخصوبة » ومؤلفون يتميزون « بالعقم » ، على أن كليهما يمكن أن يجتاز مراحل متوالية من الخصب والعقم . فلننتج العمل الفني لا بد للفنان أولاً أن « يحمل » وأن تنمو فيه نقطة تحتزن في ذهنه لكي تتكاثر وتنضج ، وهذه هي فكرة « الحمل » . والفنان إذاً كالمرأة يحمل ثمرته خلال المدة اللازمة إلى أن يصل بالعمل الفني إلى مرحلته النهائية ، إلا إذا « أجهض » لسبب ما . على أن هذه « الولادة » لن تتم دون آلام ، ويقل أو يزيد « الوضع » سهولة تبعاً للأحوال ، ولكنه يظل مصحوباً « بآلام » ، لن يكون من الخطأ مقارنتها بآلام « الولادة » .

والفكرة النابتة كالطفل في أحشاء أمه ، تتعذى من غذاء المؤلف ، لتصبح في ذهنه بمثابة مركز لجاذبية دائمة يضم مختلف عناصر الفكر ويوسع نطاقها ويضخمها ويمنحها قوة وشكلاً واضحاً . ويتم هذا كله في حكمة لا تعادلهما إلا قدرة الفكرة على الفهم ، لأنها تلتهم من الفنان عقله وقلبه وذاكرته ومعرفته . ويحدث أحياناً أن يمد النبات زهرته التي ينتجها

بكل عصارته ، ويحدث هذا أحيانا بالنسبة للعمل الفنى حين يمتص منابع العقل ويخزن الروح وقوة الحياة امتصاصا كاملا . ويغدو الفنان بعد هذا وقد أفرغ إفراغا كاملا ، مادام المخلوق الذى نتج عن الإبداع قد التهم المبدع الذى خلقه هو .

يسمح لنا هذا التقريب المتعدد النواحي بين المظاهر الفنية ومظاهر الحياة بفهم القول المأثور الذى طالما نطق به الناس وفسروه تفسيراً خاطئاً ، والذى يقول بأن ، الفن تقليد للطبيعة ، . إن الذى يفهمه الناس عادة من هذا المثل السائر هو أن الهدف الأخير للفنون الجميلة هو تقليد حقائق الطبيعة أو الأشياء الموجودة بها ، ونقلها وتمثيلها . غير أن هذا التفسير ينطوى على تناقض وسخف تفكير : سخف لأن من الواضح — حتى إذا أبعدا البحث فى مشكلة فن التصوير — أن الموسيقى أو فن البناء مثلا لا يقلدان الطبيعة فى شيء على الإطلاق .

من ناحية أخرى فالمبدأ الذى يقول بأن الفن يقلد الطبيعة يحمل معنى يختلف تماما عن ذلك الذى ذكرناه ، ويتضح هذا من فلسفتى أرسطو والتعليميين الذين درس عليهم أرسطو نفسه ، إذ يعنى بالأحرى أن النشاط الجمالى يطابق نشاط الأحياء ، كما يعنى أن طريقة الإبداع الفنى تطابق مراحل سير الحياة .

وبتعبير آخر لا يقلد الفن ما تنتجه الطبيعة ، بل إنه يقلد طريقته فى الإنتاج ، والفن يسمح لنا ، بالدخول إلى عالم مخلوقات منظمة يتم خلقها كما يحدث بالنسبة لمخلوقات الطبيعة من حيث إنها نتيجة لنوع من التكاثر البيولوجى . والذى يحدث فى كلتا الحالتين أن فكرة غامضة ، واتجاهها معينة ، وقوة ما ، وفكرة موجهة منظمة ، ونطقة حية ، تعمل كلها لإنتاج العمل . ويحدث هذا لدرجة أنه إذا كانت الطبيعة نوعا من فن موجود

من ذاته في المادة التي تنظمها هذه الطبيعة من الداخل ، فإن الفن من ناحيته نوع من طبيعة خارجة عن المادة يخلقها من الخارج . والطبيعة كما نرى تضىء لنا الطريق لإتمام عمليات الفن التي تضىء بدورها الطريق لإتمام عمليات الطبيعة (٥٠) . ومع هذا ، لابد أن نتجنب المبالغة في التشبيه كما يفعل البعض — بين النشاط الجمالي والنشاط البيولوجي ، لأن هناك فروقا واضحة بين النمو الروحي والنمو الجسدي أساسها على وجه العموم أن الأول ينبع من فكرة تفكر بنفسها لنفسها ، وتستطيع أن تفهم نفسها وتضبط نفسها على الأقل جزئيا وعن طريق المنطق ، في حين أن الثاني يأتي من فكرة لا شعورية تكاد تكون نعاسية خلال اليقظة ، لا تفكر بنفسها لنفسها . وما من شك في أن هذا الفرق يوضح لنا ، ضمن أشياء أخرى ، أن الفن يتضمن صفات الاختراع والحرية واللا توقعية ، أكثر مما هو الشأن في الطبيعة . هذا ، وإذا كان من الصحيح أن الحياة قد دخلت خلال تطورها عددا كبيرا من أشكال جديدة ، فمن الواضح أيضا أنها على مستوى الفرد لا تفرض أى فرصة للاختيار . يدل على هذا أن الأحياء الذين يولدون ينتمون إلى نفس النماذج بغير تحديد . أما فيما يتعلق بالفنون الجميلة فالأمر على العكس من ذلك . فالاتجاه الذي اتجهت إليه هذه الفنون في قرن من القرون غير معروف لنا اليوم ، إن من المستحيل على مصور ما ، مثلا ، أن يتنبأ بمدى تقدم فنه هوفى التصوير ، ولا أن يعرف مقدما بالتام أى لوحة سوف يصور غدا . . . فإذا لم يكن الفنان يصور نفسه بنفسه نقلا عن صورته الواقعية فإن كل عمل فني من أعماله يقدم لنا شيئا لم نره أبدا من قبل ، ولا يمكن أن يحل محله أى عمل آخر ، وهنا يستحق عمله هذا أن نطلق عليه كلمة « الإبداع » .

أضف إلى هذا أن المخلوقات في الطبيعة تنتج طبقا لطريقة محددة غير متغيرة إلا في حالات استثنائية . وليس هذا ما يحدث في الفن حيث نجد أن كل عمل فني فريد في نوعه يأتي إلى الدنيا بطريقة فريدة في نوعها . . . فما من

لوحتين أبدى صورهما نفس الفنان كان تاريخهما هو بعينه . وفي حالات معينة ، يلوح أن العقل قد ترك اليد تجرى في حرية خلال وقت معين ، وفي حالات أخرى يحدث تبادل بين اليد والعقل يتصف بالحرية لدرجة كبيرة نكاد نقول فيها إن هناك خلافا أو معركة تقريبا . وأحيانا أخرى كذلك نرى الفنان قد انتهى من عمله في بضعة أيام ، بل وأحيانا في بضعة ساعات ، بعد أن يكون قد أمضى وقتا لم يفعل خلاله شيئا يذكر غير التفكير في لوحة ما لمدة تزيد أو تقل طولا (٥١) .

وأكثر من هذا ما لا يحدث أبدا في الطبيعة من أن البذرة الأولى يمكن أن تتعرض خلال نموها لتحولات تغير الكائن الذي يسير قدما تغيرا كليا وجزئيا ، فإذا كان المجموع يدعو التفاصيل إلى الانضمام إليه فإنه يحدث أيضا أن يعمل عنصر ثانوى بدوره للتأثير في المجموع لدرجة أن يتمكن من استئصال الخطة الأساسية الأولى للعمل . ويحدث أن نرى انتصار مرحلة واحدة على الموضوع الأساسى الذى كان يرتبط بها ، مثال ذلك شخصية « بار سيفال » الذى كان فى المشروع الأول لأسطورة « تريستان » ، عابر سبيل محسناً . . . ثم اختفى من القصة ليرتفع إلى مستوى الحياة المستقلة . فالواقع أنه كلما أوضح العمل بناءه الأساسى خلال عملية التنفيذ ، ترك فى الطريق عددا من الإمكانيات يطفو هو من فوقها . . . على أن هذه الإمكانيات - كما رأينا حالا فى قصة « تريستان » - لاتضيع أو تفقد على الإطلاق ، حين لاتصبح موضوع عمل آخر ، ألم يؤكد جوته أن عددا من مسوداته فى « بروميتيه » و « تنثال » و « اكسيون » و « سيزيف » قد ظهرت فيما بعد فى الإطار الخلفى لقصة « ايفيجينى » ، وأنه يدن لهذه المسودات غير المكتملة بجزء من قوة مسرحيته ؟ (٥٢)

عن السهولة

إذا كان دور العمل وأهميته في الإبداع الفني والأدبي على ما هو عليه وكما أوضحناه ، فإنه من الضروري محاربة العقيدة التي تعزو إلى العباقرة خطأ سهولة الإبداع . . . ويكتب بيرجسون أن « الأشياء الجميلة عسيرة ، وفهم عسيرة هذه بمعنى أنها صعبة التنفيذ ، بل وربما في حالات معينة ، صعبة الفهم والاستيعاب . ويقترح جورج أوريك بهذا الصدد تمييزاً طيباً : فهو يلاحظ « أن هناك مؤلفين موسيقيين يكتبون بسهولة أدواراً موسيقية صعبة ، وآخرين يكتبون بصعوبة أدواراً سهلة » .

من المؤكد أن هناك سهولة طبيعية تتميز بها العبقرية أو الموهبة ، ولعل من المستحيل أن نفهم خصب الإنتاج الفني - حتى بصرف النظر عن نوعيته - عند فيكتور هوغو وديكنز وبالزاك وفاجنر ، إن نحن لم نأخذ في اعتبارنا أنهم كانوا يعملون بسرعة وفعالية أكثر من غيرهم . والخصب عامل مساعد على السهولة ، ولو أن المبدعين الذين يتمتعون بنفس درجة العبقرية لا يعملون جميعاً بنفس السهولة ؛ إذ يلوح أن بعضهم يتمتع أكثر من سواه بسهولة في العمل ترجع إلى نوع من نعمة إلهية يحسدكم عليها الذين لم يصبهم الحظ . . . فهناك « هونجر » ، يصرح بقوله : « إنى أعجب بالمؤلفين الموسيقيين من أمثال ميلو وهندميت ، وأحسدكم على ما منحوه من سهولة تسمح لهم بالكتابة كما يسيل الماء من نبع فياض » (٥٣) . ويتساءل ديلاكروا قائلاً : أليس هذا من صفات الالهة مينرفا ؛ ذلك الامتياز الذي يسمح بإنتاج عمل كامل بلفتة واحدة ؟ .. كم تكون السعادة إزاء مثل ذلك الإنتاج الذي يلوح كما لو لم يكن قد كلف صاحبه شيئاً . وكم هم سعداء أولئك الفنانون الذين يستحشهم إله ما لإنتاج كهذا ؟ (٥٤) .

ومع هذا فلكل وسام ظهره القبيح ... فن الجائز أن تنطوي السهولة

على بعض الخطورة ، حكمها في هذا حكم النجاح البالغ السرعة ، فالفنان الذى يقنع بها يعرض نفسه للضياع ، إن هو صادفه عقبة ما لم يتمكن من التغلب عليها ؛ لأن موهبته لم تبلغ درجة النضج ، ولأنه لا يبذل الجهد اللازم الذى يقدم به للعمل رعاية كافية . لذا كانت كلمة « السهولة » في لغة الفن مرادفة غالبا لكلمة السطحية ، والتأثير الذى يمارسه العمل الفنى السهل تأثير لطيف ، لكن الذى ينقصه هو القوة أو العظمة أو الأصالة . ولقد كان ديلاكروا يعمل على تشخيص أمراض عدد كبير من معاصريه ، وقد رأى في بوننجنون « رجلا مليئاً بالعاطفة ، لكن يده هى التى توجهه ، وفي هذا تضحية بأهم المزايا في سبيل سهولة بائسة هى اليوم سبب في فشل أعماله . ولم يكن الوصف الذى وصف به ديلاكروا ، شارليه بأحسن من هذا حيث قال عنه : « لم يكن لموهبته فجر ، فأنت تجد لديه سهولة عجيبية تخدم خيالا لا ينضب ، لكن لم تكن هذه السهولة عاملا يرفعه دائما إلى المرتبة العالية التى كانت تتصف بها أعماله الأولى . . يلوح أن المواهب الطبيعية التى يجرى إعدادها في بطن شديد وخلال آلام أشد تنتهى إلى مصير من حياة أطول في قوتها وفي اتساع رحابها . (٥٥)

هذه السهولة موهبة طبيعية ، لكن هناك نوعاً آخر من السهولة ، هو ذلك الذى يكتسب كثمرة لجهد يبذل . ويقول جيونو في هذا : « ما السهولة عندي ؟ إنها تتكون بالضبط من هذا : أكتب يوميا ، ومنذ أربعين عاما ، من الساعة صباحا إلى الظهر ، عداساعة للبراسلات ، وأكتب ثلاثاً أو أربعاً من صفحات مجلد ، حتى في الأيام التى يسود فيها نفسى أنكد ألوان الحزن والحداد ، ٥٦ » . وبهذا النظام يكتسب المبدع مهارة لا يمكن أن يدعيها ناشئ أو متدرب . وهذا الأمر صحيح بالنسبة للمصور والموسيق وفنان العمارة والأديب ، صحته بالنسبة للآخرين جميعا ، فهو يعنى - طبقا للقوانين العادية - لفظة يد ، أو لفظة عقل ، سريعة تجعل العمليات التى يقوم بها أسرع وأيسر ،

وما يسمى قدرة لانزاع فيها لدى فنان ، ماهو بالضبط ذلك التفوق الذى يرجع إلى تمكنه من وسائل تحقيق فنه . وما من شك فى أن كاتباً مسرحياً سبق له أن كتب مائة مسرحية يعرف أحسن من غيره كيف يربط أطراف أحداث مسرحيته ، وكيف يضع الشخصية فى مكانها الصحيح وينسج خيوط المنظر بحيث يستحوذ على الاهتمام .

والمهارة فى التنفيذ الفنى ليست بعديمة القيمة من وجهة النظر الفنية ، ومن المؤكد أنها لا تختلط بالفن نفسه ، بل هى خاضعة له ، ولا تتمتع بقيمة ما إلا بصفتها وسيلة فحسب . ومع ذلك فالفنان لن يكتفى بما يمتلك منها ، وهو يحتاج دائماً - هكذا يرى أنجر وهو خير فى هذه الناحية - إلى المزيد منها . « أما السهولة - هكذا يقول - فلا بد من استخدامها واحتقارها فى آن واحد ، ورغم ذلك فإذا كان لدينا منها ما يعادل مائة ألف درهم ، فيحسن ألا نأخذ منها إلا ما يعادل درهمين » (٥٧) ، وأكثر من هذا فإن هناك شعراً ينبع من المهارة الطبيعية ، وبهذا الصدد يمتدح ديلاكروا عند روبانس ذلك التدريب الذى لا يقاوم والذى تمارس به اليد المدربة العارفة عملها ، الأمر الذى ينجم عنه شعور بالسهولة التى قامت بإنتاج هذه الأعمال ، وهو شعور يضاف على العمل الفنى قوة جديدة . « غير أن الفنان الفيلسوف العظيم «روباتس» يتمتع بما يزيد من الموهبة . فالتنفيذ الفنى عنده باهر ، لا يفيد إلا فى التعبير عن غنائية شاعرية جارفة ، فى حين أننا إن فرضنا وجود هذه الفنية التنفيذية ذاتها عند فنان تافه للاحظنا أنها لا تصلح فى شيء ولا تعبر عن شيء ، ولوجدنا أنها تغير من مغزاها حالاً بحيث لا يبقى منها إلا تمرين مدرسى ، وإقدام لقيمة له « مهارة يدوية بلهاء » (٥٨) .

على أن المهارة المكتسبة ، مثلها مثل السهولة الطبيعية ، يمكن أن تؤدي إلى نكبة ، لأنها تعمل على إغراء الفنان بشدة بأن يترك لها نفسه وأن يكتفى بها ، والذى يحدث هنا أن تظل موهبته الطبيعية كما هى لا تتجدد

بل تسقط في إطار « الممجوج » ، والنقليد الشكلي والبريق الكاذب للأعمال المتعجلة ، ويفقد الفنان إخلاصه لمذهبه وصراحته في التنفيذ ، وما أسماه ديلاكروا « العاطفة » التي يبدى إعجابه بها في مصورات القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، تلك العاطفة التي يمكن أن يحتفظ بها الفنان لو كان على درجة من الجمل أو السذاجة ، فالعلم يكاد يكون دائماً مشثوما ، ومهارة اليد أو معرفة عميقة نوعا لعم التشريح أو للنسب بين الأجزاء تؤدي بالفنان في التو إلى حرية كبيرة ، مبالغ فيها ، فلا يعكس الصورة على ما هي عليه من نقاء ، وتغريه وسائل التنفيذ بسهولة أو باختصار إلى أن تؤدي به إلى الاصطناع ، (٥٩) .

أما عن السهولة التي يعمل بها المصور أو الأديب ويقدم عمله الناتج عنها إلى الذين يريد ، فما هي إلا خداع للبصر ، فالناظر إلى هذا العمل يعرف - إن هو دقق النظر - أنه لم يتم بالسهولة التي كان يتصورها أول وهلة ، وهكذا يصبح السير عسيرا في أغلب الأحيان . ولم تفت « بوالو » هذه الحقيقة ، فهو يقول : « لا ينبغي أن يظهر الكتاب كما لو كان ناتجا عن التدقيق والإجادة ، بل إنه من غير الممكن أن يكون قد نتج من الإجادة ، والعمل نفسه هو الذي يضمن عليه غالبا مظهر السهولة التي طالما امتدحها البعض ، وطالما جذبت القارىء . فهناك بطبيعة الحال فرق بين أبيات شعر سهلة وأخرى تم قرضها في سهولة . فها هي ذى كتابات « فيرجيل » وقد كانت نتيجة عمل جد طويل الأمد لدرجة كبيرة للغاية ، ولهذا فهي أكثر طبيعة من كتابات « لوكان » الذي كان يقال عنه إنه كان يكتب بسرعة هائلة . فالجهد الذي يقوم به المؤلف عادة لصقل ما يكتبه وإضفاء الكمال عليه هو الذي لا يتطلب من القارىء جهدا لقراءته (٦٠) .

وإذا فرضنا أن كاتباً قد طلب إلى جمهور قرائه بذل شيء من هذا الجهد الذي قام به هو ، فما من داع لأن يعاب عليه هذا ، بل غالبا ما يكون هناك

ما يدعوا إلى إسداء الشكر له على ذلك . وصحيح أن الكاتب يكتب ليقرأه الناس ، لكن ليس الأمر هنا امتداح الغموض أو الفلسفة التي تدعى العمق لتخفى وراءها فقر الفكرة وضعف الشكل . فالشيء الذي يسهل فهمه جيدا و الذي يمكن التعبير عنه في وضوح ، ولو أن وضوح العمل الفني - سواء كان قصيدة أم قصة أم دورا موسيقيا أو تشكيلا تصويريا - ليس هو بعينه وضوح مسألة في الهندسة . ومع كل فلكية جاذبية خاصة لكل عقل يكون على جانب من التوفيق والحيوية وحب المعرفة ، هذا إلى جانب كونها مصدرا لإثراء الفكر . على أن كاتبها مثل بروس ليس بالسهل ، وموتني وباخ وديبوسي في مؤلفاته الموسيقية الأخيرة ليسوا بالسهولة التي قد تصورها ، فهم لا يهبطون إلى مستوانا ، ولذا يتعين علينا أن نرتفع نحن إلى مستواهم . وكم يكون سرورنا كبيرا وغذاؤنا الروحي عظيما حين نفعل ذلك . . . وكم نستطيع أن نتعلم من فاليري ألا نرفض دائما الأعمال الأدبية والفنية العويصة دون أن نحتقر تلك الفكرة التي لا ترمى إلا إلى تسلية قارئها فحسب ، ومنها ما يستحق الإعجاب حقا ، يجب أن نتعلم هذا لكن دون أن تؤكد كما يفعل فاليري ، أن أحط الأنواع هو الذي يتطلب أبسط الجهد ، (٦١) ، لأن فاليري هو نفسه الذي يقول : « إن جميع الكتب تقريبا التي أقدرها حق قدرها ، وكل تلك التي عاوتني على الإطلاق في فهم شيء ما ، كتب تصعب قراءتها ، يجوز أن يتركها الفكر جانبا ، لكن لا يجوز للتفكير أن يمر عليها مروراً عابرا ، وقد أدى بعضها لي خدمات رغم صعوبته ، وخدمني البعض الآخر لأنه كان صعبا (٦٢) .

قيود لنزيرة

لا ينبغي في عامة الأحوال أن نخشى الإفراط في السهولة عندما يواجه التنفيذ عقبات مادية، كما يحدث في فن النحت ؛ إذ تساءل : كيف يمكن تجنب عدم الاكتراث والضعف إن لم توجد هذه العقبات ؟ . . ألا نعمل بحيث نقرض على نفوسنا قيوداً نختارها اختياراً ؟ يرى البعض هذا . . فبودلير إذ يعارض مذهب الحرية في الرومانتيكية يكتب عن المقطوعة ذات الأربعة عشر بيتاً فيقول : — وتسيل الفكرة فيها وكلها قوة لأن صيغتها عسيرة التنفيذ . . أما عن القصائد الطويلة فهي مجال الذين لا يستطيعون نظم القصيدة منها ، (٧٦) .

ويعمم فاليري هذه الملاحظة بحيث تصبح ناحية أساسية من نواحي علم الجمال عنده ، فيقول : « إن الفنانين الحقيقيين يعرفون الخطر والضيق الناجمين عن السهولة الكبيرة . فالقلم أو الفرشاة تلوح لهم كما لو كانت خفيفة للغاية ، فيفكرون إلى أن يعرفوا أن عملهم لن يكلفهم وقتاً كبيراً ، ويفكرون فيما تم نتيجة لهذه السهولة . . فتراهم في العصور المواتية للفنون وقد خلقوا لأنفسهم صعوبات خيالية ، واخترعوا قواعد وتقاليد اختيارية ، وحدوا من حرياتهم بعد أن فهموا ضرورة الخوف وحرموا أنفسهم من إمكان صنع كل ما أرادوا في الحال مباشرة وفي ثقة تامة ، (٦٤) .

والأمر هنا يستحق أن نقف قليلاً عند عرض دوافع العمل ، حتى لو لم نكن نقبل كل ما يقول به فاليري ، فليس من قبيل « الانحراف » ، حقاً ، أو من باب حب المتاعب والعذاب أن يحب الفنانون « تقييد أنفسهم بسلاسل يختارونها لأنفسهم » ، بل إن لديهم مبررات قوية لذلك ، أولها أن الفن ، من إحدى نواحيه على الأقل ، نوع من اللعب ، وكل لعب يتضمن قواعد معينة ، واللذة التي نجدها فيه كبيرة جداً بحيث تصبح معها هذه القواعد

أشد تضيقاً وأكثر عدداً مما تتصور . مثال هذا قواعد قرص الشعر ووزنه فلا لذاتنا ولا انفعالاتنا تلك أو تفسد إن هي خضعت لهذه القواعد ، بل هي تتكاثر وتوالد بعضها من البعض أيضاً وبفضل نظم تقليدية خاصة . انظر إلى لاعبي الشطرنج . . انظر إلى الآلام التي تسببها لهم هذه اللعبة . . . وإلى تلك الحرارة التي تصل إليهم عن طريق تقاليدهم العجيبة ، وإلى هذه القيود الخيالية في حركاتهم . . . لأنهم يرون بلا مرأى حصانهم العاجي الصغير وقد أخضع إلى قفزات خاصة معينة على اللوحة . . وهم يشعرون بضغط وقوة لا تراهما ولا يعرفهما الجهد الجسدى . . . وما إن تنتهى المباراة حتى تختفى هذه المغناطيسية وتتغير طبيعة الانتباه الشديد الذى طالما استمرت فيه هذه المباراة . . . ويزول كل هذا كما يزول الحلم ، (٦٥) .

فكر فى هذا أيضاً . . . ماذا تكون عليه الفكرة دون الصورة الخارجية التى تتكشف فيها ؟ تكون شيئاً يسيراً هيناً . . . ظل يحتفى حال ظهوره إن هو لم يتجسم فى مادة صعبة التشكيل . . . وكما تكون الفكرة تافهة فى أغلب الأحيان إن هي لم تصل إلى درجة من الارتفاع بفضل مقتضيات التعبير ؟ . هذا صحيح سواء أكان الأمر يتعلق بالقوة الروحية أم القوة المادية ، فمهما تكن قوة الحرارة فإنها لا تصبح ذات فائدة أو مبعثاً للحركة إلا بفعل الآلات التى يدفعها الفن فيها . ولا بد من مضايقات تأتى فى موضعها لتكون عقبة فى سبيل انحسارها انحساراً تاماً . . . ولا بد من تأخير يحدث فى حكمة ليقف فى وجه العودة إلى التوازن الذى يمكن التغلب عليه ، بحيث يسمح هذا التأخير باختلاس شئ . قبل نزول الحرارة نزولاً لا ينمر ، . . فوظيفة الفنان إذاً — وعلى نفس النمط — هى التقاط الطاقة الإبداعية مع توجيهها فى طريقها ، وإذا لم يفعل هذا تناثرت تلك الطاقة . . فبين الانفعال أو الفكرة الرئيسية وبين ما تنتهى إليه من نسيان وخلط وغموض ، وكلها صفات لا مفر للتفكير منها ، من هذا وذاك يصبح عمل الفنان إدخال مضايقات بوجودها هو لنفسه بحيث يقوم بعد دخولها تنازع بين طبيعة الظواهر

الداخلية المؤقتة وبعض العمل المتجدد والوجود المستقل . فإن لم توجد هذه المضايقات الضرورية لما أمكن أن تكون هناك إلا خلخلة واحتمالات وسهولة تبعث على التقزز : ثروة لا إرادية كبيرة لكنها عديمة القيمة ، تلك التى تأتى من الأحلام فتحرك الأشياء البالية التى لانهاية لها وتخلطها بعضها ببعض ، (٦٦) .

وهناك حديث أخير عن طبيعة الشعر : إن الشئ الذى يميز الشعر عن لغة الكلام العادية ، كما سنرى فيما بعد ، هو أن هذه الأخيرة تهدف إلى التعبير عن معنى معين ، فى حين أن الشعر قيمة ذاتية بصرف النظر عما يعنى ، لذا نجد أن « كل أدب يكون قد تخطى عمرا معينا يحدد معالم اتجاه يرمى إلى إبداع لغة شاعرية منفصلة عن اللغة العادية ، لها تعبيراتها ، وتركيباتها وحريتها وموانعها التى تختلف كلها اختلافا يزيد أو يقل عن نظيرتها فى الحياة العادية وهنا تصبح العقبات التى يقابلها الشاعر ذات أهمية كبرى ، وهى تبرر وجودها تبريراً كافياً إن هى استطاعت » أن تذكر قارض الشعر كل لحظة بأنه لا يتحرك فى مجال اللغة العادية ، بل إنه يتحرك فى مجال آخر يتميز عنه تماماً » (٦٧) . وبتعبير آخر ، فإنه مهما يكن أصل « هذه القيود الموجودة فى القوانين القديمة ، فلا قيمة لها إلا لأنها تعبر ببساطة تامة عن عام مطلق للتعبير ، وهذا العالم موجود فى ذاته ولذاته ، هدفه النهائى هو اللغة ، تصبح فيه القصيدة بعد خلاصها من عيوب الفكر ، حية تعيش من الكيان المستقل للعمل الفنى ، على أن « مطالب قرض الشعر قرصاً دقيقاً تنحصر فى الاصطناع الذى يمنح اللغة الطبيعية صفات المادة الصلدة ، وهى مادة غريبة عنا تظهر كما لو كانت صماء إزاء رغباتنا » (٦٨) .

« قيود لذيدة » . . . هاهم أولاء هواة الصعاب يرفعون صوتهم ليتغنوا وليتدحوا التقاليد التى أعلن الرومانتيكيون الحرب عليها فى شئ من الحشية . هاهم أولاء ينتشون أمام الأشعار ذات الأوزان الثابتة التى طالما مارسها قدامى الشعراء . فمن قصائد المديح التقليدية إلى الأشعار ذات

القافيتين الخ ... بل وإلى المقطوعة ذات الأربعة عشر بيتا بوجه خاص... تلك التى تبعث الحماسة... والتى بوجه فاليرى إلى مخترعها المجهول حديثا جميلا يقول فيه « لا أدرى ماذا تساوى أبياتك.. لكنها مهما تكن رديئة ، ومهما يكن جفافها ، ومهما تكن غثة ، فإننى أضعك فى قلبى فوق كل شعراء الأرض والجحيم... إنك اخترعت شكلا... وصيغة... » أما عن قاعدة الوحدات الثلاث فى فن الكتابة المسرحية فهى ليست أقل نصيبا من الدفاع الحار أهى شحيحة ؟ مصطنعة ؟ أهى على عكس الحياة ؟ خطأ... بل هى بالأحرى مرنة ، مجاملة... لأننا مهما يكن الأمر نتساءل : «هل من المنطق أن نضع ما يسمى «الحياة» فى موقف الضد من هذه الشروط الثلاثة العظيمة ؟ ألا نرى... وبالأأسف أن الحياة ، الحياة الحقيقية ، تخضع - حتى توجد - لعدد كبير جدا من قيود إجبارية ؟ والوحدات التى لا مفر منها ؟ ألا تعتبر الوحدات الثلاث المشهورة... تلك التى طالما وقعت عليها اللعنة... شيئا قليلا وقيوداً خفيفة بالنسبة للوحدات والقيود العامة فى الحياة الواقعية ؟ » (٦٩) .

ولقد مضى وقت طويل ولم يبطل العراك حول القافية . فهذا فيرلين ، ومن قبله فينلون ، يندد بمسمى «مضمار القافية» ، لكن لديك أيضا فاليرى ومن قبله فولتير ، يمدح محاسنها . إن أعجب من كل هذا ذلك التمسك الذى يديه به الكتاب الذين مستهم الثورة السريالية... ولهذا مغزاه الكبير... إن الصعوبات وما تآتى به من خصب... تلك الصعوبات التى يتحدث عنها كوكتو ترجع إليها . ويقول فى هذا كوكتو : « كلما اكتشفت عظمة الفكرة الشائعة ملت إلى الإيمان بأن إثارة الخيال تآتى من عدد قليل من وسائل يمتلكها ، وكلما اقتربت من بيت الشعر ، ذلك الزى القديم الذى لا يتغير ، والذى يحاول كل منا أن يفسد شكله... فهكذا يتخلص عصرنا من القوضى رغم أنه يتخذ مظهر القوضى ، وهكذا يعود إلى القوانين الثابتة

بروح جديدة، . . . ثم يختتم قائلاً: «فلنعد إلى القافية، هذه القوة القديمة ذات السمة الطيبة». (٧٠).

لا شك أن آراجون يطالب بعروض «أوزان الشعر، أكثر مرونة وانتقالاً من بيت شعر إلى آخر بحرية أكبر، كما يطالب بإضفاء ثروة من كلمات جديدة ومعلومات جديدة على الشعر، لكنه مع هذا يتفق ورأينا فيما يتعلق بأعماق الفكرة «الشاعرية»، وفي هذا يقول: «وهنا تعود القافية إلى كرامتها الأولى، لأنها هي التي تدعو إلى إدخال أشياء جديدة في اللغة القديمة . . . وهنا فقط لن تصبح القافية مثار استهزاء؛ لأنها تشارك في إثبات أهمية العالم الواقعي، ولأنها الحلقة التي تربط الأشياء بالأغنية، والتي تدعو الأشياء إلى الغناء . . . ولقد مررنا منذ فترة قصيرة بمرحلة كان الشعر قد تحلل فيها وأصبح شيئاً عادياً يعادل في هذا وقع الأقدام المحسوب عددها كما حدث في القرن الثامن عشر . . . وما من شك في أن الشعر الذي يكتب آلياً في هذه الأعوام الأخيرة سوف يبلغ نفس المصير الذي بلغته أشعاره عصور الرعاة، (٧١).

هذا ولن يمر هذا الرأي دون معارضة تقول بأن الشعر شيء والعروض شيء آخر، وأن أبياتاً من الشعر تكون مقفاة لأكبر درجة من الإلتقان يمكن أن تكون عديمة القيمة، في حين أن أبياتاً تحررت من القافية والقواعد يمكن أحياناً أن تنطوي على نجاح مذهل . . . الأمر الذي لا يمنع مؤلفنا من الرد عليه، فالفنان في هذا هو الذي يدخل في الحسبان شيئاً أكثر من الأداة التي يستخدمها، فإذا كان استخدامها لها شيئاً فإن هذا لا يعني أن تكون الأداة رديئة. أضف إلى هذا أن من الضروري أن تكون تقاليد قرص الشعر متينة لكي يعود كبار الشعراء بالفرصة إلى استخدام القافية بعد أن يكونوا قد تحرروا من بيت الشعر التقليدي، أو أن يكونوا قد اكتسبوا ثروة من القوافي الداخلية ليستخدموها في نصوصهم وليوجدوا بها تقابلات

شاعرية دقيقة . هكذا يفعل كل « بطريقته » ، هـ دى رنييه وف . جامس وبول فوروبول كلوديل . ولنعلم أن الثوار الذين يفتصرون ثم يتحولون إلى مستبدين يستحيل التعامل معهم لا يوجدون في ميدان السياسة وحده ، ولنعلم أن النظام الذي يتم هدمه يحل محله نظام آخر ، ويمكن — كما قال فاجنر : « إحلال ظلم محل ظلم آخر جديد لا يقل عن سابقه تكييلا بل ويزيد عنه تعسفا .

وعلى أية حال فالفنان في نهاية الأمر لن يعود بطريقة من الطرق إلى القواعد الشائعة ، بل ولن يدعى بدوره تغيير المملكة التي تغطيها إلهة الشعر ، بل إنه يسن لنفسه قانونه الخاص به إن كان حقا شاعراً ، وغالبا ما يكون هذا القانون أشد تحكما من القوانين المكتوبة . ويتحدث كوكتو عن « الشدة الفظيعة » التي تتحكم في « وضع الفعل في مكانه وعلامات التأنيث والتذكير وحركة الوزن ، تلك الشدة التي « قد لا يرى القارىء فيها إلا نوعا من الكسل ، وهو يقول في ظرف « إن الشاعر إنسان تسكنه آلاف الشياطين ، وعليه أن يطيعهم » (٧٢) . .

وما هذه إلا صفة من صفات سن النضج التي لا يمكن أن تناقضها الشيخوخة إن نحن عرفنا أن كوكتو قد قال في « خطاب أو كسفورد » — بعد أن ندد بما أسماه « مؤامرة الأسلوب والقواعد » عند « عدد كبير من الشباب » الذين « يخلطون بين الهيكل أى القصيدة وبمجرد الشكل الشعري » قال « موضحا ، إن استحالة رؤية نظام معين لا يمنع من كونه قائما ، فليكن إذن هذا النظام غير مرئي لكن وجوده لامرأ فيه . . .

وسط هذه المناقشة توجد النظرية الخاصة بحرية الفنان . . فهمنا هذا . لكن الحرية في مجال الفن وفي أى مجال من مجالات السلوك شيء والإباحية شيء آخر ، فهي لا تفترض أن نترك القانون جانبا لأنها هي القوة التي

تسمح لنا بأن نسن لأنفسنا قانونا . والنظام لا يقتلها لأنها ثمرة النظام الحلوة . انظر إلى تاريخ فن التصوير . « نعم . إن لمسة من ريشة تانتوريه أولويني أو كوريج أو رينولدز أو فيلاسكيز تأتي في حرية تعادل حرية الهواء الطلق ، ومع هذا فهي دقيقة مضبوطة ، لكنها هي النظام الموروث من جهد بلغ عمره خمسمائة عام ، نظام يمكنها من أن تكون طليقة وأن تخرج أعمالا فنية كبرى . أطعها تكن حرا كذلك وبدورك ، لكن الحرية الكاملة لن تتأني في الأشياء الكبيرة والصغيرة على السواء إلا بخدمة كاملة متقنة ، (٧٣) .

ماذا تكون هذه « الخدمة المتقنة » في مجال الفن إن لم تكن تكييفها بين العمل الفني وبين الهدف الذي يرمى إليه ، بناء على مقاييس يقبلها الفنان وتعمل على إضفاء الجمال عليه ؟ فكم من قيود على الفنان أن يتحملها وينتصر عليها . فمن مقاومة ضد المادة إلى حدود يفرضها تشريح جسم الإنسان على النحات أو المصور ، إلى قوانين الضوء والظل الخ . وبدلا من أن تكون هذه القيود عاملا على استعباده تجدها بين يدي ذى الموهبة أو العبقرية وسائل لتحرره ، لأن الفنان يحتاج إليها لكي يشغل دفعته ويوجهها ، ولكي يستطيع التغلب على الأشياء كلها .. ويمكن أن يقال كذلك إن الوحي ينحصر في سلسلة من العقبات ينتصر أو يقضى عليها ، وإنه — أى الوحي — لا يتحرك بحرية إلا بعد أن يعرف كيف يخضع لهذه العقبات ويكافح معها مدة طويلة لكي يسيطر عليها جميعا . ولعل أحسن المرتجلين وأصحهم من أمثال ديموستين قد اضطروا إلى غزو موهبتهم والتسكن منها .. وأولئك الذين يتمتعون أصلا بهذه الموهبة لم يستخدموها استخداماً سليماً إلا بعد أن جاهدوا في صبر طويل ليتمكنوا منها ... مثال هذا سيزار فرانك الذى ظل راکعاً خلال ربيع قرن من الزمان بعد انتصاراته الأولى ، وكان في هذا أشد حكمة من « سينييه » الذى أفاد من موهبة سهلة ولم يفعل شيئا يخلده الزمن ، (٧٤) .

يعتبر سترافنسكى - خطأ أو صوابا - ثوريا ، ومع هذا فما من أحد يشك في جراته .. ومع ذلك فما من أحد أيضاً أصبح أكثر منه نبيا بشر بحكم الإرادة . « من منالم يسمح أبدا أن الفن شيء آخر غير مملكة الحرية ؟ .. إن هذا النوع من الكفر ينتشر انتشاراً واسعاً وبنفس الدرجة لأن الناس يعتقدون أن الفن شيء خارج عن النشاط الشائع ، لكن لا يمكن - لافي الفن ولا في غيره - أن نبني شيئاً على أساس ضعيف ؛ فالشيء الذى يكون على العكس من السند الأساسى لا يمكن إلا أن يكون على العكس من الحركة . وفيما يخصنى أقول لى أشعر بنوع من الرعب عندما أشرع فى العمل وأجد نفسى أمام ما لا نهاية له من الاحتمالات ، وأشعر بأن كل شيء مسموح به لى .. فإذا كان فى استطاعتى استخدام كل شيء .. الطيب والردىء على السواء ، وإذا لم يكن هناك ما يجعلنى أقاوم شيئاً ما ، لأصبح أى مجهود أقوم به عديم الفائدة ، إذ أتى لا أستطيع أن أشيد شيئاً على لاشيء ، وكل محاولة تصبح هكذا عديمة القيمة . فهل أنا مرغم إذاً على أن أضيع فى هوة الحرية هذه ؟ ، لا .. فلكى يتخلص من هذا الدوار تجده من ناحية يتعلق بأهداب الموضوع ، أى بضرورات الشيء الذى يقوم بعمله ، ومن ناحية ، أخرى يخلق لنفسه قواعد معينة . وفى هذه الحالة تنحصر « حريقى فى التحرك فى إطار الضيق الذى حددته لنفسى وبنفسى ، ولكل مشروع من مشروعاتى . بل وسأقول أكثر من هذا : إن حريقى تكبر وتعمق كلما حددت حدود مجال على تضيقا ، وكلما أحطت نفسى بعقبات أكثر عدداً .. وكلما فرض الإنسان على نفسه قيودا ، تحرر من هذه السلاسل التى تقف فى سبيل تفكيره .. وكلما فرضت الرقابة على الفن ، وكلما حددت حدوده واعماله ، ازداد حريره ، (٧٥) .

ماهى إذاً مآثر هذه القيود وتلك الحدود ؟ .. ما محاسن هذا الخضوع ؟ .. ماهى ؟ .. هناك جملتان تلخصانها إنه « كلما رفع عنى قيد حرمت من قوة

وتحكم القيد لا يوجد إلا للحصول على دقة التنفيذ ، . وكان ليوناردو دافنشي يقول إن القوة تتولد من الضغط وتموت بالحرية . «والذى لا يبالي يفخر بعكس ذلك ويقضى على الضغط ، يحدوه في هذا أمل ضائع في أن يجد في الحرية أصل قوته ، فلا يجد فيها إلا تحكم النزوات وفوضى الأهواء» (٧٦). ولكيلا نتحدث مثلاً عن أعمال سترافنسكى نفسه ولا عن آخرين غيره كثيرين - ابتداء من مقطوعة «فن اللحن المتكرر» لباخ - هل يظن أن رافيل في دور «الكونشرتو من أجل اليد اليسرى» فقد شيئاً ما لأنه قلل من وسائل التنفيذ؟ أليس العكس هو الصحيح؟ «إن الضغط وتضييق إمكانيات التعبير في عمل فنّي يصوره عازف يانوأكتع يركز لدى رافيل جميع القيم وجميع أنواع الجرأة وجميع قوى الشعر الرقيق» (٧٧) .

لقد كان من الضروري قطعاً تفنيد هذه الأسطورة الخبيثة التي تقول بوجود حرية دون مقاييس أو حدود ، لكن من الضروري أيضاً أن نحفظ بموقف معقول وألا ننتقل من إفراط إلى إفراط . فليست كل القيود سليمة ، وليست جميع النظم بمواتية لإطلاق الحرية الحقة ، ولكي نبقي في مجال الفنون نقول : «إن من المؤكد أن الفنان في حاجة إلى حرية يتحدد هو فيها ، لأنه يبدع شكلاً . فعبقريته الخاصة ، يخصصها الوحي ، تود لو تصادف ملابسات ملبوسة واضحة قدر المستطاع ، فهو يصنع من العوائق المادية ضرورة جمالية ، ولذا يتعين عليه الانتصار عليها بعد أن يكون قد جعل منها مثيراً ، ومن نفسه لاعباً فناً ، لكن يجب أن تكون هذه التحديدات هي بعينها التي تحدد الحالات المختلفة طبقاً لتباينها الحقيقي ، فالتقاليد التعسفية ، التي تكون غريبة على المحتويات الفعلية لكل حالة قد تؤدي إلى تنفيذ أعمال متكررة دمية ، وقد تقضى في الحال على خصب الاختراع لدى المبدعين . فليس إذاً من المقبول أن تتعدى القيود حدود مجال البرنامج الواضح بحيث تتطلب صيغاً معينة للأسلوب» (٧٨) .

فواقع أن إرغام الفنان على أن يكيف نفسه بمبادئ غير جوهرية ،
تؤخذ على أنها مقدسة وتعتبر كأنها «قوانين أبدية للجمال» لن يؤدي أبدا
إلى فن حى تعبيري ، بل يؤدي إلى الجفاف والتقليد الأكاديمي العتيق . لهذا
لا يمكن أن يقلد قوانين الماضى لكي يخلق عملا جميلا ، ولا الأشكال المصرية
القديمة أو الرومانية القديمة ليخلق عملا فنيا ذا موضوع ديني . ولقد رأينا
هذا مثلا في أعمال مدرسة «بيرون» . ودون أن نذهب في هذا إلى حد
بعيد نقول كم هناك من تشويه وجمود يرجعان في تاريخ الفنون إلى القواعد
التي كانت تفرضها قاعات الفن التقليدية أو هيئات الحرف أو التقاليد ؟ ..
وكم من مرة — رغم ما يقول فينشى — مات الفن من القيود واختنق لعدم
وجود الحرية ؟ ..

هكذا نرى أن القيود ليست حلوة بالنسبة لجميع الناس ، ولا في جميع
الأحوال ، فغالبا ما تؤدي إلى نتائج عكسية لا تتفق وتلك التي يتوقعها
جيد وفاليري وآخرون ، ولطالما ندبها كلوديل قائلا : «يلوح أنهم يريدون
القول بأن الضغط في ذاته يضطرنا إلى إجراء رقابة أكثر شدة ، وإلى عدم
الاكتفاء بأول تعبير يطرق الذهن ، وبأن هذا يرغمنا على رسم شكل أشد
ثباتا وأكثر صلابة وأرفع فنا .. وهنا أنكر تماما قيمة الضغط ، لأن قيد
القافية كما يمارسه شعراء البارناس يضعف قوة البحث عن ألفاظ اللغة لدرجة
ضخمة ، وهنا يضطر الشاعر إلى أن يتبنى أشكالا تتكرر تكراراً ردينا
وإلى أن يقنع بما يأتى إليه وبأشكال ثابتة يستخدمها لأنها أكثر سهولة من
غيرها . فالقوافي مثلا ليست وفيرة في النغمات التي تعتبر جميلة بوجه خاص
بالنسبة للأذن ، فالمقاطع التي تخرج من الأنف مثل «أن» و«أون» و«أين»
تجد فيها قوافي لا حصر لها ، في حين لا تجد أية قافية في النهايات الجميلة مثل
«أميل humble» و«بوربورpre» و«سامبل simple» .. (٧٩)

وأخيراً — وهنا ندخل في أعماق الأمور — يجب أن تكون التقاليد

المفروضة على الفنان ذات طبيعة خاصة تسمح له بأن يوجد التوافق بينها وبين استعداداته الذاتية . لا تذكر هنا المحاسن التي قدمتها قاعدة الوحدات الثلاث للشاعر المسرحي راسين، ولا القاعدة التي كانت ترغمه على تصنيف أبيات الشعر ذات الاثني عشر مقطعا بالقوافي « الجافة » ، ولقد لعبت هذه القواعد التقليدية ولا شك دوراً عظيماً في تدهور الفن المسرحي الكلاسيكي . لكن ما من شك أيضاً في أنها عملت منذ أيام راسين على إضعاف نغم اتصف بكثير من الحرية . . . هل تحاول أن تفرضها مثلاً على كلود ديل ؟ ما زال الأمر هو أن نعرف ما إذا كانت طبيعة القيود هي أن يصبح الإبداع غثاً أو أنها تعاون في مساندته وفي تحديد أسسه الأولى . لا يكفي هنا القول بأنها يجب أن تشبه قواعد اللعب التي ينصرف إليها كل فنان انصرفاً حراً ، بل لابد أن نضيف إلى هذا أن من الضروري أن تصبح هي في نفسه بمثابة قانون حي للعمل والتقدم ، وأن تضئ على فنه الذي يمارسه هو طبيعته هو ، وأن تندمج بهذه الطريقة في كيانه الإبداعي ، وأن يوجد التوافق بينها وبين طبيعته هو في يسر وسعادة ورغبة ، وبالاختصار فإن « القواعد لا تساعد العبقري إلا بقدر قابليتها للتوافق ورغباته العميقة بصفته إنساناً ، وإلا بقدر كونه إنساناً حياً تعمل هي على إذكاء حيويته وحساسيته » (٨٠)

وقد يوافق أشد أنصار النظام تمسكاً بهذه التحفظات التي ذكرناها ، لكنهم يلجأون أحياناً إلى الدفع بطريقة التعبير عن فكرتهم دفعا شديداً بقصد إجادة محاربة خطأ ما غير أن أعمالهم تدل على أنهم كانوا يتمتعون بكل حرية داخل قيودهم الاختيارية ، وعلى أنهم أخذوا نصيبهم من الصراحة والحرية عندما أرادوا هذا . وهم لا ينكرون خطر القيود التي تفهم على حقيقتها ، فعندنا فاليري مثلاً يقول : « إن إبداعاً موسيقياً ما لا يهبط إلى مستوى مجرد الملاحظة ، كما سبق ، واعتقد كثيرون جداً من الناس الذين عملوا في جفاف وجعلوا من القواعد قواعد سخيفة ثم أثاروا نتيجة

لهذا ردود فعل فظيعة ، (٨١) . ولا يجمل فاليرى نفسه مع ذلك تباین الطباع الفنية ، فهو الذى يقول أيضا : « أما عن نفسى فأنى أعتقد أن جميع الناس على حق ، وأنه يجب أن يعمل كل كما يريد » (٨٢) .

غير أن تعبير « يعمل كل كما يريد » لا يعنى أن يعمل بأى طريقة كانت . وكلوديل إذ يطالب فى قوة شديدة بحقوق الناس فى الحرية لن يذهب إلى هذا الحد ، وصحيح أنه يصرح بقوله : « إنه لا ينبغي أن نعمل متعمدين ، فالفنان الذى يبدى انتباهه إلى فنه ، مثله مثل البهلوان الذى ينتبه إلى قدميه . وآلهة الشعر عذارى طاهرات ينفرن من الشدة ويتلخص مذهبي فى الشعر فى هذه الحكمة القديمة : لا تقف فى وجه الموسيقى . دعها تنبع وحدها .. أعد نفسك لى تأتى ، (٨٣) . ومع هذا فكلوديل لا يكتب جزافا ؛ فقد كتب كتاب « فن الشعر » على أسس وقوانين استقاها ليستخدمها هو طبقا لمتطلبات عبقريته . أضف إلى هذا أنه ، وهو مؤلف « الرأس الذهبى » ، لا يمكن أن يكون قد استطاع كتابة هذا المؤلف إن كان قد « منع » موسيقاه من الخروج بدرجة أعلى قليلا من تلك التى سمح لنفسه بها . فليكن النظام إذأ ذاتيا فرديا وتلقائيا كما يراد ، لكن لا بد من النظام كنظام . وكما قال فاجنر على لسان أحد شخصياته فى نهاية « أستاذة الغناء » : « كون لنفسك قاعدتك ثم طبقها » . لكن لنفرض كذلك أنه قد لا يكشف الفنان عن قاعدته هو إلا بعد أن يكون قد طبقها . . .

معارفات سبيرة

لا يكون العمل خصبا إلا لدى الفنان الذى « يضم شيئا بين أحشائه » كما يقال . . . ويمتلك كنزا داخليا يستمد منه ، وموهبة للتعبير عن مشاعره بلغة معينة . ولن تكون العقبة خلال العمل ذات فائدة ، ولا الضغط وسيلة للحرية ، ولا الصعوبة وعدأ بالجمال ، إلا بالنسبة إلى روح جبارة لها قوة

الانغماس في الكفاح . إننا نتجه عن طريق هذه الزاوية الملتوية نحو اللامنطق باعتباره أصل كل إبداع ، وما هو غير شيء يستحيل شرحه أو إنتاجه ... إنه الشيء الذي نسميه في لغتنا الدارجة : الوحي أو الإلهام .

إن العمل الكلاسيكي في نظر « جيد » هو ذلك الذي لا يتصف بالجمال إلا لأنه يحوى رومانتيكية يكبح الفنان جماحها ، فإبداع هذا العمل يتطلب إذن ضرورة كبح الجماح ، وضرورة وجود قوة جارفة تستطيع ذلك . ولقد كان نيتشة يؤكد أنه لولا أن العناصر « الديونيسية » تنبض في قلب الفنان نبضاً شديداً ، لاتصف النظام « الابوليني » بجمود وبرود قاتلين . رغم هذا فاللامنطق الذي نتحدث عنه هنا غالباً ما يظهر كما لو كان متواضعاً يأتي تحت ستار المصادفة ، على أن التنفيذ يحتفظ للفنان بمفاجآت عجيبة ومصادفات مشمرة لا يتوقعها . وبظننا قد اقتنعنا بهذا فعلاً . ونسأل ألا يجوز أن تكون « موجة الشعر » إذا شققة الحظ السعيد ؟ . . . ألا يمكن أن تحتوى العبقرية بما تتصف به من صبر طويل على حظ طيب ؟ . . . إن هذا هو رأى فاليري : ما نجاح العمل الفني إلا نتيجة اشتراك المعجزات والجهود الإرادية ، (٨٤) .

وإذا بحثنا الأمر بالنسبة لادجار بو ، شعرنا بضيق يرجع إلى أننا نتناقض وإياه ، فهو يقول في نص شهير له إن مولد العمل الشعري لا يمت بصلة ما بما هو غير مفهوم أو غير متوقع . إن الحقيقة كلها قائمة في هذا . . . في أن العمل الفني يتم بيد طولي ، بالبحث والحساب الدقيق المنظم ، حسب رأيه ، فهل صدقه ؟ إنه يقول إنه كتب قصيدة « الغراب » بهذه الطريقة التي يقول عنها : « أريد أن أثبت بوضوح أنه ما من عنصر مشترك في تكوينها يمكن تفسيره بالمصادفة أو البديهة ، وأن هذا العمل قد تقدم خطوة نحو نهايته في دقة وتدقيق منطقيين يتم هما حل مسألة في الرياضة » (٨٥) .

ويحلل «بو» هذا التركيب المنتظم تماماً أمام أعيننا: كانت نقطة البدء فيه « رغبة في كتابة قصيدة ما ترضى ذوق الشعب والنقاد معاً .. ومن هنا — على ما يظهر — كانت ضرورة استنتاج كل شيء ، كما يحدث في نظرية رياضية : كانت ضرورة تحديد حجم القطعة « يمكن أن تقرأ في جلسة واحدة » ، وتحديد الأثر الذي ينتج عنها بحيث تكون « موضع تقدير عالمي » ، وإعداد موضوع الحزن الذي لا ينفصل عن جمال القصيدة ، واستخدام « اللازمة المتكررة » باعتبارها « الركيزة التي تدور الآلة كلها حولها .. وكلمة «هيات» التي تفرض نفسها بفضل نعمتها ذات الحنين ، والغراب الذي توضع في فمه هذه الكلمة ، والموت الذي يبرر وجودها ... وأخيراً الحب ... حتى نبكي الموت .. »

وفي إطار هذه العوامل الدقيقة تكونت فكرة القصيدة كما يقول، ولسوف يكون لدينا « عشيق يبكي عشيقته بعد موتها ... وغراب يكرر استمرار هذه الكلمة : هيات .. ثم كانت الوسيلة الوحيدة للربط بين العشيق والغراب أن تتخيل أن هذا الغراب يستخدم تلك الكلمة ليجيب عن أسئلة العشيق .. »

ونحن نتساءل : هل تكونت قصيدة الغراب حقاً بهذه الطريقة ؟ .. إن من حقنا أن نشك في هذا ، لأن من المؤكد أن الشاعر لا يجمل في أي اتجاه سوف تسير القصيدة التي يفكر فيها ، وقد رأينا أنه يعلم هذا لكن في بعض الغموض ، فهو لا يشك في أهمية كل المصادفات التي سوف يقابلها في الطريق ، ولا يتنبأ بالمخاطر الجذابة التي تعدها له عبقريته ، فيرتجل أولاً تحت تأثير فكرة أو عاطفة ، ثم يكشف عن نفسه بنفسه تدريجياً ، (٨٦) .

و « بو » حين يكتب « الغراب » يكشف عن نفسه فيجدها كما كانت منذ مدة طويلة ، لذا نعتقد أنه قد اختار موضوعاً وتفاصيل يجلبها ، وقد اختار

رمزاً يحبه هو كذلك ... لكن الموضوع والتفاصيل والرمز هي التي سبق لها أن اختارته هو أولاً. دليل هذا أن القصيدة تعكس عقده النفسية وكل ما يستولى عليه من أوهام ، ودليل هذا أيضاً أن هناك قصائد أخرى صدرت عن قلبه في نفس الوقت الذي صدر عنه « الغراب » ، ويفوح منه عبق نفس الضجر ونفس العمق في الألم . بهذا تكون صورة « الغراب » قد ترددت على نفسه ومخيلته من قبل ، ويصبح التعليل الذي يعلل به « بو » مولد « الغراب » أشبه ما يكون بالتبريرات التي يعرفها جيداً أطباء الأمراض النفسية ، وهي وإن كانت صحيحة ، إلا أن تفسيرها يرجع إلى حالة القلق والغثيان التي تحدث دون أن يكون لها تعليل مباشر، (٨٧) هكذا . كما هو الشأن في أي مجال آخر — تم المرحلة الأولى من العمل في الظلام لاشك في هذا ، وبأخذ كل من العمل والمصادفة على عاتقه ما تبقى .

لقد كان هـ . فوسيرن عالماً كبيراً بأسرار فن التصوير . إنه شرع في كتابة « نظرية الحدث الطارىء » : ولولاه لما علمنا شيئاً عما ندين به لهذه الكنوز غير المتوقعة التي يملها العلم فجأة ، أو التي تكتبها ريشة مليئة بالثروة ، أو تلك التي تقذف بها فرشاة على لوحة مرة بعد أخرى ، فتقترح فكرة ما ثم تدفع باللوحة والرسم والتشكيل بالحفر في اتجاه لم يكن يتوقعه الفنان نفسه . إنها كثيرة هذه الكنوز لدى أسرة الخياليين الذين يرون ما لا يراه الآخرون . . عديدة لدى سادة الفن الذين يتمتعون بروح المجازفة كما يفعل بيكاسو اليوم . ألا يحكى أن مكس إرنست كان يحك لوحته على الأرض ويستخدم ما تقدمه له المصادفة الرئيسية نتيجة هذا الاحتكاك بين اللوحة والأرض لبنى خيالات شيطانية مذهلة . ؟

هكذا أسطورة الفنان اليوناني « الذي كان يقذف بقطعة من إسفنجة مبلل بالألوان فوق رأس حصان صوره ، ولم يكن قادراً على تصوير الزبد في فمه ، إلى أن فقد الأمل في هذا . كانت هذه الأسطورة ذات مغزى

عظيم . . . فهي تعلمنا أن من الممكن إنقاذ كل شيء في اللحظة التي نعتقد فيها أن الأمل قد فقد منا في الحصول على شيء ما . . تعلمنا هذا رغم أنوفنا . وليس الأمر هكذا فحسب ، بل هي تدعونا أيضاً إلى أن نفكر في موارد المصادفة ، لكننا بهذا نقف موقف المعارضة من نظرية التلقائية الذاتية والآلية ، في حين أننا بعيدون أيضاً عن الخطوات السديدة التي يخطوها العقل ، فتحزن هنا كآلة تسير ، ويتكرر فيها كل شيء ويتراكم ، ثم يحدث فيها حدث طارئ . نهمله تماماً . . . ويضطرنا إلى أن ننفي في شدة قاطعة وجود نوع من الحياة لا نعرفه . وجهلنا هذا يتعلق بالتقابل بين هدف واضح وقوى غامضة لا نعرفها . لكننا نعرف أن الفنان يتقبل ماتقدمه له الطبيعة وكله اعتراف لها بالجميل ، فيستولى على المنحة المقدمة في مهارة ورشاقة ليخرج لنا منها حلماً جديداً ، يقال عن « هوكوزاي » إنه أتى يوماً بلفة من الورق فرشها على الأرض ثم سكب عليها إناء مليئاً باللون الأزرق ، ثم غمس أقدامه في إناء مليء بلون أحمر ، وأخذ يروح ويحيى بها فوق لوحته بحيث ترك الديك آثار أقدامه فيها . . فخرجت لوحة رأى فيها الناس جميعاً أمواج نهر تسوتا ، وهي تحمل أوراق أشجار الخيزران وقد احمر لونها من من فعل الخريف » (٨٨) .

ويفيد الشاعر بدوره من هذه المصادفات السعيدة التي يقدمها له القدر ، وهي مصادفات تأتي فجأة لتربط بين الفكرة النابتة الأولى وضرورة فنية ما أو تأتي لصالح نداء يطلقه نغم ما ، أو لمصلحة تركيب لفظي ما ، وأحياناً بحكم القافية وحدها . استمع إلى قول فاليري هنا : « الفكرة الغامضة . . . النية . . . الشعور التصويري الزاخر . . . كل هذا يرتطم بالصيغ النابتة المعروفة وبالموانع ذات المقاومة للأوزان التقليدية ، فتخرج من الارتظام أشياء جديدة وصور لا نتوقعها . . إن هناك نتائج مذهلة لتلك الصدمة التي تحدث بين الإرادة والعاطفة من جهة ، ومن جهة أخرى ما لا نشعر به من تقاليد متفق عليها » (٨٩) .

وقد تنجم الفكرة نفسها — وبالتالي بيت الشعر ومغزاه — عن ربط عشوائى . لذا قال عالم الرياضة هـ . بوانكاريه إن الشعراء ينتصرون علينا ، فالمصادفة لديهم تأتى بقافية ما تعمل على إخراج نظرية من الظلام . وبؤمن كوكتو على هذا القول ويحب أن يكرره ويضيف إليه معلقا : « إن هذه الكلمة تحوى عظمة تبلغ من القوة ما لا يسمح لى بتفسيرها ، فالحقيقة أننا إذا أخذنا فى البحث عن حصة فى الأرض تشبه أخرى نعرفها ، فن الجائر أن نعر على كنز ، (٩٠) . . . ويجب بطبيعة الحال أن نفيد من هذا الكنز كما يحدث حين نصقل جوهرة ما . ولقد قال ريفردى كذلك : « إن الفن يبدأ حين تنتهى المصادفة ، ومع هذا فإن كل ما تجلبه المصادفة يضئ عليها ثروة جديدة . . . ودون هذه المصادفة بصفتها مصدراً لن تبقى إلا القواعد الثابتة ، (٩١) .

هذا والقول بأن الشعر يصبح عبارة عن مجموعة قواعد فحسب دون تلك الكنوز التى ندين بها للمصادفة أمر يعنى المساواة بين المصادفة والوحي . يلوح هنا أن سترافنسكى لم يتردد فى إقرار هذه المساواة حين قال « إن المبدع الحق لا يحتاج إلى الجرى وراء شىء يبحث عنه ليكتشفه . : لكن المعروف هو أن الذى يثيره دائماً ويدعوه للعمل هو أقل حدث يسترعى انتباهه . . حدث يقود عملياته ويوجهها . . فإن انزلقت إصبعه مثلاً ، التقط هذه الانزلافة العشوائية واستخرج منها فائدة أو استبان عيباً . والفنان لا يخلق الحدث الطارىء ، بل هو يلاحظه ليستوحي منه ، ولعل هذا هو الوحي الوحيد له . . فتؤلف الموسيقى يبدأ فى تأليف دوره كما يبحث الحيوان عن شىء يأكله ، ونحن نبحث وننتظر . . نبحث عن لذة تقودنا ، توجهنا فى هذا حاسة خاصة . . لكننا قد نصطدم فجأة بعقبة مجهولة ، فنشعر بصدمة تعمل على إخصاب قدرتنا الإبداعية . . ويضيف قوله إن هذا التعاون الذى تقدمه المصادفة غير المتوقعة ملء بإمكانات لم تكن قائمة ولم نبحث عنها

« وهي تأتي في ميعادها لتخفف من جفاف ما قد يكون جافاً في الأعمال الصادرة عن إرادتنا الهادية » (٩٢) . هكذا كان موقف ريفردى على وجه التقريب .

لكن ما من داع يدعونا إلى أن ننسب إلى مؤلفينا أقوالاً لم يشاءوا قولها يوماً . إلا أن ذكر المصادفة وحده في شرح الإبداع الفني أمر معناه أننا نضع الإبداع موضع ما لا يقبل التفسير لا أكثر ولا أقل . على أن أحسن ما يمكن أن تقدمه المصادفة للفنان هو أن تقترح عليه فحسب ، وعليه بعد ذلك أن ينظم ويؤلف ويكون . لذا لن تكون هناك مصادفات سعيدة إلا بالنسبة لرجل يعرف كيف يلتقطها ويفيد منها . مثال ذلك عندما كان « فليمنج » يبحث عن صندوق في معمله ، ولاحظ في أحد صناديقه أن زرع ميكروب التقيح قد ذاب بفعل العفن المتكون فوق سطح الإناء . ثم ذهب يشرح لزميل له هذه الظاهرة فلم يحصل من زميله هذا إلا على نتيجة غامضة حيث قال له : « نعم هذا شيء هام » .. لكن فليمنج رأى فيه أكثر من هذا .. رأى فيه ظاهرة خارقة للعادة جعلته يترك كل أعماله الأخرى ويشرع في دراسة ذلك الفطر الضئيل الذي يوقف عمل البكتريا الخطيرة . وكان أن اخترع البنسلين من المصادفة ، تلك المصادفة التي تقدم للإنسان فرصته الأولى ، ولو أن العبقرية نفسها هي التي عرفت كيف تستوضحها وتفيد منها لتستخدمها .

وليس الأمر في مجال الفن يختلف عن هذا . ويعلق سترافنسكي على هذه الحقيقة فيقول : « إن القدرة على الملاحظة والإفادة من مزاياها أمران لا يتمتع بهما إلا من كان يمتلكهما أو .. على الأقل في المجال الذي يعمل فيه ، وإلا من كان يتمتع بثقافة مكتسبة في مجاله وبذوق طبيعي فيه .. إذ ما هو الشيء الذي يوجه اختياره ؟ .. إحساس غامض وغريزة ينبع منها هذا الذوق باعتباره قدرة تلقائية سابقة للتفكير » (٩٣) . وتصبح المصادفة

هكذا — حكمها حكم العمل والصعوبات والقواعد — موجهاً يوجهنا من جديد نحو أهم شيء . ألا وهو الموهبة .

على أن المادة والعمل ومقابلة المصادفة كلها أمور ليس من شأنها اقتراح الحل المطلوب إلا على ذلك الرجل الذي يتمتع بالموهبة لا بد أن تكون قد ولدت نحاتاً لكي تميز وتفهم ما تقترحه عليك الشرايين . ولا بد أن تكون موسيقياً أصلاً لكي تفهم ما تسمع من نغمات غير سليمة وتقدر العلامة التي تخرج من هذه النغمات . ومن الضروري تماماً أن تكون قد ولدت من رجال المال لكي تكتشف من خلال تطورات السياسة العالمية ما سوف تكون عليه أحوال المال من ارتفاع أو احتمال هبوطه (٩٤) . هكذا نجد القدرة بادية . ذى بدء . . إن امتلكها الفنان بشكل من الأشكال كان على الدوام فنانا موهوباً .

الفصل الرابع

المادة والصورة

يؤدي العمل المستوحى أو الموحى المصطبغ بالعمل الشاق ، كما وصفنا مسالكة ، إلى إنتاج شيء ، هو العمل الفني ، سواء أكان هذا العمل بناء أم لوحة ، أم تمثالا ، أم قصيدة شعر : أم قصة ، أم مقطوعة موسيقية . هذا الشيء لا يخلقه الفنان من لا شيء ، بل إنه يستخدم المواد الأولية ، ينظمها ويرتبها ويخضعها لفكرته ، كما يفعل العامل حين يصنع قطعة من أثاث ، أو صانع أواني الفخار حين يشذب جرة . وهكذا يصبح صنع العمل الفني دائما ، من بناء ونحت ورسم وتأليف مسرحية أو سيمفونية ، وتنظيم خطوات رقصة أو باليه يصبح بمثابة إملاء صورة معينة على مادة معينة .

عنصره المتميز أنه يبدأ دائما بفصل

ها نحن أولاء نرى القارئ وقد رفع حاجبيه عجباً . . . وهو يقرأ كلمتي المادة والصورة ، أو نراه يتسم ابتسامة ساخرة تبعث إلى فمه بالثنايا . . . إيه ؟ ماذا . . . ؟ هل نعود إلى المناقشات المدرسية العقيمة . . ؟ هكذا نتساءل : ألم تفقد هذه المناقشات معناها وفائدتها بعد أن ندد بها ديكارت ، واستهزأ بهامولير وتركتها منذ زمن بعيد علوم الطبيعة ؟ . . . أمن ضرورة بعد هذا لتفهم الفنون الجميلة ؟ (١)

لا بد أن تكون هناك ضرورة حقاً . . ما دمنا لم نتمكن من الاستغناء عن هذه المناقشات إلا بصعوبة ، ولم يظهر حتى يومنا هذا إلا القلائل من مؤرخي الفن ، ومن علماء الجمال بنسبة أقل ، ممن استطاعوا تجنب هذين

العنصرين التقليديين : المادة والصورة . ما من داع إذن لأن ندهش . .
ففكرة المادة والصورة فكرة لم تصنعها الفلسفة ، ولم يطبقها أحد على أمور
الفن تطبيقاً جرافياً أياً كان ، بل إن مصدرها الفن . لقد فهم أرسطو حين
نظر إلى الفنان والعامل وهما يعملان ، ألا ينحصر أى نشاط يرمى لصنع
شئ ، في إضفاء صورة معينة . ؟ هكذا يصبح التمييز بين الصورة والمادة
جزءاً من علم الجمال ، لأنه إذا كان العلم قد ألقى جانباً بهذين العنصرين فالفن
إذ يعود إليهما ، يكون قد استعاد ما كان ملكاً له .

ثم إننا نتساءل : هل يصبح ضرورياً على الأقل ، لكي نستخدمها
استخداماً سليماً ، أن نضفي على التمييز بينهما معنى جديداً . كثيرون هم الذين
يرون هذا ومن بينهم « فوسيون » حين يقول : ما زالت تلازمنا المتناقضات
القديمة بين الروح والمادة ، وبين المادة والصورة التي يلازمنا فيها التضارب
بين الصورة والمعنى . إن كل من يريد فهم شئ من الصورة لا بد وأن
يتخلص أولاً من هذا التناقض « لماذا » ؟ لأن رائحة علم ما وراء الطبيعة
تفوح منها وبأسوأ مافيه وبأشد عيوبه ، في حين أن علم الجمال يريد أن يكون
« علم مشاهدة وظواهرية بالمعنى الضيق لهذه الكلمة . ثم إن من الضروري
بوجه خاص أن نعرف « لا بالكيفية التي تتجسم بها الصورة إن صح القول
فحسب ، بل كذلك بأن الصورة تكون دائماً تجسماً في ذاته » (٢) .

ولقد تحدث فوسيون حديثاً رائعاً عن حياة الصورة المجسمة في المادة
ويدين له هذا الفصل من الكتاب بكل شئ تقريباً ، ولعل من الخسارة أن
أرسطو لم يقرأ إلا قليلاً جداً من تلك ، ولو أنه فعل هذا لعرف أن تعليم
ستاجيريت وبداياته الشخصية تتفق معه في كل النقاط . هذا وليست المادة
والصورة عند أرسطو إطلاقاً ، كما سيكون مستقبلاً ، وحدات قائمة بذاتها
« تقصد كائنات غامضة تختفي وراء المظاهر ، بل إنها بالأحرى أدوات تحليل
تقابلها ناحيتان من الواقع الحقيقي ، هذا بالإضافة إلى أن الفلسفة لم تدع يوماً

أنهما «متعارضتان» ، أو «متناقضتان» ، فهي تعرف هي الأخرى أن الصورة تجسيم دائماً ، والمادة والصورة في ذهن الفيلسوف لا تقبلان التعارض ، بل ولا تقبلان الانفصال بينهما ، فهما تكملان إحداها الأخرى ، ولا يمكن أن تعيش إحداها في عزلة عن الأخرى ، فلا مادة دون صورة ، ولا صورة بلا مادة . والمادة التي لن تكون إلا مادة — نقصد المادة الأولى التي تحدث عنها المدرسون تصبح إمكانية خالصة لا تتمتع بوجود ذاتي خاص بها ، ولن تكون في ذاتها إلا العدم .

والشيء الذي يسمى باللغة الدارجة مادة له في الأصل صورة ، فهو أصلاً هذا أو ذاك . لكن لا بد لنا أن نزيد من تأكيد هذه الحقيقة حتى نكون مخلصين لأرسطو . فالمادة والصورة شيئان لا ينفصلان فحسب ، بل يعتمد كل منهما على الآخر . وبممارسة كلاهما على الآخر تأثيراً ؛ فمادة ما لن تكون ماهي عليه دون صورة ما ، كذلك لن تكون صورة ما هي عليه دون مادة ما . ومن غير الممكن إلا في الصناعة أن نسكب في نفس القالب رصاصاً أو جبساً ، أو أن نحت صورة مطابقة لأخرى في الرخام أو في الخشب . وتصبح الصورة فردية عند الكائنات الحية طبقاً للمادة وبدرجة أعلى ، فإن الروح بصفتها الجسد لا ترتبط به فحسب ، كما يرتبط سمجج بآخر بسلسلة تربط بينهما ، بل إن الروح تحترق الجسد وتشكله بصورتها ، في حين أن الجسد بدوره يسعى إلى الروح ليشكلها بصورته ، بحيث أغدو وقد أصبح جسدي صورة من روحي ، وروحي صورة من جسدي إن صح التعبير . وسوف نفكر في هذا حين نتحدث عن العمل الفني الذي يقترب من نواح عدة من الكائنات الحية ، بل وحتى من الكائنات البشرية حيث تتجسد الروح في الجسم . هذا ما كان يمكن أن يوافق بين أرسطو وفوسيون .

ولسوف نتحقق حالا من خصب هذه المبادئ وقيمتها الكبرى . ولنبين أولاً كيف توضح توضيحاً جديداً بعض الحقائق التي أثبتناها

سابقاً ، ذلك أن التضامن بين المادة والشكل هو الذي يثبت صحة التماسك بين المذهب والتنفيذ ، وقد سبق أن قلنا إن من الممكن أن نكشف عن جديد ونحن نعمل باعتبار هذا من أثبت القوانين في علم الجمال . فلقد كتب آلان يقول : « إن السر الأكبر في الفنون وأكثرها اختفاء هو أن الإنسان لا يخترع بقدر ما يصنع »^(٥) فلا يمكن بالتالي إلا أن تتمثل لنا الأشياء تمثيلاً خاطئاً - فلنكرر هذا - إذا افترضنا أن الفنان يدرك داخل نفسه الصورة المثلى لعمله الفني حتى يحققه بعد هذا في مادة ما ، وما من شك في أن النحات أو المصور يبدأ في فكرة ثم يسير في سرعة وثقة تزايدان بنفس قدر معرفته بما يريد أن يعمل ، لكن ليست هذه الفكرة بأي حال صورة عقلية طبق الأصل أو نموذجاً عقلياً انطبع مقدماً بكل خصائصه ودقائقه ، للتمثال أو اللوحة التي يجرى تنفيذها .

ولن يكتشف الفنان الصورة أو يحددها إلا خلال عمله في المادة نفسها . «فالتخيل والرسم ، أو التخيل وتنفيذ البناء ليسا بشيئين ولا بفترتين من الزمن . وإدراك نمط ما موجود مقدماً على شكل شبح ، وترجمته بالتنفيذ ، أمر خيالي في ذاته» * * .

وبتعبير آخر ، وكما ذكرنا آنفاً ، ليست فكرة الفنان هي بعينها التي

* انظر « أوليات علم الجمال » ص ١٥٥ . ولندكر هنا كلمة بزاك المعروفة : يجب على المصورين ألا يفكروا والفرشاة بين أيديهم (العمل الفني المجهول . طبعة بلياد ٤٠٣) ولو أن بزاك كان يريد أن يقول أصلاً إن على المصور ألا يشغل كاهله بالنظريات حين يعمل ، مادامت النظريات لا تحتوى في ذاتها خصاباً ، وما دامت خطيرة على فنه .

** انظر آلان : نظرية الفنون الجميلة ص ٤٣ . لا ينبغي أن نترك أنفسنا فريسة للخطأ بقراءة تصريحات المصورين الذين يدعون أنهم لا يبدأون تنفيذ عمل ما دون أن يكون كل خط فيه قد حدد مقدماً في أذهانهم . وكان آنجر يقول إن على المصور أن يضم لوحته « كلها في رأسه » قبل تنفيذها ولكنه كان يقول أيضاً « إن أطول فترة يقضيها المصور البارح هي التي يقضيها في التفكير في لوحته كلها » . « الواقع أن تصوير اللوحة كلها ذهنياً جزء كبير من العملية التي تلخص في إيجاد شكل لها » . انظر جيلسون ص ١٦٨ .

تتحرك في عالم غير المحسوسات ، بل هي فكرة ملبوسة ، أو بتعبير أدق « فكرة تشكيلية تطابق تلك التي يتم التعبير عنها في الطبيعة باختراع أشكال متبلورة وأجناس نباتية أو حيوانية ، (٣) . وهي تتفتح وتنمو في تكتل وتتخذ صورة وتماسكا حال التماسها بالمادة ، ولا يمكن أن تصبح ذات وجود حقاً إلا بعد تجسمها في مادة تقبل هي حدودها وتقبل هي ما تعرضها عليها وتضم ما تحويها من مزايا .

يذكر أن ناقداً أخذ يهين أوسكار وايلد لأنه « ألبس فكرته أقاصيص طريفة، فرد عليه وايلد يقول : « يعتقد البعض أن الأفكار تولد عارية . ما من أحد يريد أن يفهم أنى أستطيع أن أفكر إلا على شكل أقاصيص ، والنحات لا يبحث كيف يترجم فكرته بالرخام ، بل هو يفكر بالرخام مباشرة ، ومع كل فالمصور يفكر بالخطوط وبقع الألوان . وفنان البناء يفكر بالأحجام ، والشاعر بالكلمات والنغم والاستعارات والرنين . من أين أنى إذا جفاف الأعمال الفنية الرديئة وبرودها ؟ . . من أنها نفذت تماماً بناء على رسم نهجى أجرى مقدماً ، كما يحدث عند تركيب إنسان آلى من واقع إنسان عادى . أما الأعمال الأخرى التي ينتجها الفنانون الحقيقيون فإنك تجد فيها حرارة الحياة وحركتها لأنها ولدت من نقطة حية أخذت تمتص المادة تدريجياً وتبنى جسدها .

لهذا لا يعرف المبدع عادة الشيء الذي سوف « يخلقه » قبل أن يخرج هذا الشيء من بين يديه . وهو لا يعلم ما سيكون عليه هذا « المخلوق » تماماً قبل أن ينتهى . وهو بنفسه يتابع ابتداء من مفهومه ، وقد استولت عليه الدهشة والذهول أحياناً ، يتابع تقدم الفكرة وتناسقها وتحولها كلما تحقق منها جزء ، وكلما اكتست باللحم وجرت فيها الدماء . وهو أول من تصيبه الدهشة حين يرى الوجه أو الصورة التي جاءت من النطفة الأولى بعد أن تكون قد سيطرت على المادة وشبعتها وأصبحت شكلاً ملبوساً بشيء له

وزن وإطار وأحجام . والفنان كذلك ناظر متأمل في عمله الذي يتولد —
هكذا يقول آلان . فبيت شعر جميل لا يتخذ أول الأمر شكل مشروع يتم
بعد ذلك ، بل إنه يسير نحو الجمال ويراها الشاعر هكذا وهو في سبيله إلى
قرضه ، (٤) . ولكي يصبح التمثال جميلاً في نظر النحات الذي نفذه ،
لابد وأن يكون هذا النحات كما قال فاليري قد ضرب د آلاف الضربات
الرائنة البطيئة التي تؤدي إلى الشكل الذي سوف يتكون ، (٥) . وهكذا
يكون الإبداع كما يقول « بازين » هو ذلك العمل البطيء الذي يتقدم نحو
رسم تقريبي سبق وجوده فيما وراء الشعور ، فاللوحة التي يجرى تصورهما
لوحة نشعر بأننا نعرفها شيئاً فشيئاً ، دون أن نعرف أبداً مقدماً ماذا سيكون
عليه وجهها الحقيقي تماماً ، (٦) .

من هنا كان الخطأ القائل — إن أردنا أن نعبر في دقة تامة — بأن
العمل يمكن أن يكون قدره دون الفكرة وبأن تنفيذه أقل قدراً من تصوره .
ذلك أنه ما من أحد أقدر من الفنان نفسه على رؤية نقائص أعماله ، ومن
هنا كانت أزومات اليأس التي تصيبه ، ومع ذلك فقد قال القصصى « كورتلين » ،
رغم أنه لم يكن رومانتيكياً . . قال « إن واقع الفنان الحقيقي ليس في أنه
يتأمل فيما يفعل ، بل في أنه يقارن ما فعل بما كان يريد أن يفعل ، وقد
استولى عليه الحزن خلال المقارنة ، فهو إذ يقارن ما صنع بمثل أعلى للكمال
يحملة بين طيانه ، لا يستطيع إلا أن يصب اللعنة على ما لم تتمكن عبقريته
من أن تفعل . لكن مقارنة العمل الفني الذي يكتمل بفكرة كانت تشغل
فكر الفنان مقدماً امر يعنى الاستحالة والهراس ، لأن هذه الفكرة
لا تعتبر شيئاً خارج العمل الذي تبحث هي عن نفسها فيه لتكشف عن
نفسها بنفسها .

فكل ما يملك الفنان التحقق من وجوده هو أن العمل قد نجح أو أخفق

جزئيا أو كلياً . على أن التنفيذ الهزيل هو الذى يدلنا على هزال الفكرة ، باعتبار الفكرة الفنية هى التى تؤدى إلى التنفيذ ، فإن لم تكن كذلك فى غير موجودة أولاً قيمة لها . لاداعى إذا أن يمتدح لنا البعض نتيجة لهذا تلك العظمة المزعومة لمذاهب أو مفاهيم ما دام التنفيذ يقف أمامها وقفة تتقدم فيها قدرة الفنان على تطبيقها . ولا داعى لأن يقول لنا الفنان إذن : لن أكتب أجمل أبياتى الشعرية ، . . آه . . لن أصور لكم أحسن لوحى إلخ . . فما هذه إلا لغة من لا إرادة لهم ، لغة الحالمين وضعاف النفوس ، لا لغة أهل الفن .

جمال المادة

إن «الصورة» كمبدأ هو مصدر جمال الصورة ، فكلمة Forma «فورما» التى ترجمتها الصورة فى اللاتينية تعنى «الجمال» ، لكن ليس معنى هذا ألا تتصف المادة — أو على الأصح — المواد التى يستخدمها الفنان بالجمال ، لأن الذى نغنيه بالمادة هنا ليس بالمادة فى ذاتها . . . نقصد تلك المادة الأولى التى يتحدث عنها الفلاسفة والتى تعتبر شيئاً فى ذاتها ، بل هى المادة الملموسة الحقيقية ومنها الخشب والزجاج والبرونز والحجر إلخ . . . وهى هكذا مادة لم تشكل ، وفى نفس الوقت تقع فى إطار الوجود المستمر والوحدة والتحديد . وما دامت لها هذه الصفة فإنه يصبح لها جمال خاص بها ، يساعد إلى مدى كبير على إيجاد جمال العمل الفنى . ومن هنا كان حب الفنان لها ، ومن هنا أيضاً كانت قدرتنا على تعرف مهارته الفنية ، ولو جزئياً ، من الذوق فى اختيار المواد الجميلة ، وفى اللذة التى يشعر بها حين يحورها ويعمل فيها .

مواد جميلة . . . طبعاً تلك الأحجار النادرة والمعادن الثمينة التى يضاف عليها الجواهرى والصانغ قيمة ما عن طريق نحتها وصقلها ودقها وتركيبها

وتليعبها وغير ذلك من أعمال يقوم بها . وهكذا تصبح « للفضة فصاحة خاصة ، فهى تحمل بين جنباتها أسراراً لا تدلى بها لأحد إلا إذا انتزعها منها انتزاعاً . والحقيقة أن بياض الفضة يمنحها مظهراً من الليونة ويضفى عليها بروداً . لكن ما إن تأتى المطرقة لتدق لوح المعدن لتشكله ، حتى ترى ذلك اللون الشاحب وقد جاءت إليه الحياة وأخذ ينبض ، وتخرج من هذا الثقل المثلج حيوية وقوة واهتزاز إن إرغام المعدن على أن يرتعش تحت دقة آلة الحفر ، والعمل على إيجاد التقابل بين الفراغات والأسطح البارزة وبين البروزات الواضحة والأجزاء المتساوية وبين تقابلات الضوء فيما بين العلو والهبوط . . . كل هذا يضم سراً كبيراً . . . هو علة وجود الصانع الفنان » (٧) .

إن المعجون الملون هو المادة التى يستخدمها المصور أساساً ، وهى التى يعرفها المصورون منذ اختراع التصوير بالزيت فى القرن الخامس عشر . وتميز هذه المادة فى آن واحد بالسيولة وثبات القوام ، الأمر الذى يسمح لليد بتشكيلها كيف تشاء ، فهى ليست فى ذاتها جميلة فحسب ، بل إنها تعطى الفنان كذلك إدراكات حسية لمسية وعضلية تكاد تكون مشوبة باللذة ، سواء أخذ هذا الفنان يفرشها على لوحته بفرشاة ويحكها حكاً خفيفاً أو أخذ يشكلها بفرشاة تلوين ، أو يلصقها على الاتساع بالسكين . يقول لنا ديلا كروا : « آه لو أمسكت بلوحة الألوان فى هذه اللحظة . . . كم أتوق إلى هذا إنى أريد أن أفرش لونا دسماً سميكاً على لوحة داكنة أو حمراء . . . ! » (٨) .

واليوم تجرى بحوث فى كل اتجاه . . . وصل بعضها إلى أن أوحى لأصحابها بأنه قادر على أن يحصل من المادة المستخدمة فى التصوير وحدها على تأثيرات فنية ، دون أن يفيد من عنصر الشكل . يتحدث هؤلاء

المدعون عن « الفن المحسوس » أو الفن الخام . ولقد أسمى أحدهم لوحاته « عجينة عظمى » ! . . .

هذا حل متطرف للمشكلة من العسير أن يستمر ، ولكنه يدعو إلى الاهتمام ، لأنه يلفت انتباهنا نحو صفات هذه اللوحة التي قدرها المصورون والهواة وامتدحوها لجمال عجيتها فحسب . . . من منالم يتوقف أمام لوحة من لوحات المصور « شاردان » حتى ينسى هذا الغليون وذاك الإناء المنزلى ، وذاك الصندوق الأزرق الذى توضحه لنا اللوحة ، ويعجب إعجابا جما بهذا الطعم اللذيذ الذى تفتشى به العين كما يفتشى الإنسان من طعم ما كول لذيذ ؟ إننا نكتشف بدورنا ما نشهى وما يرضى شهيتنا . . إن الناظر إليها بهم يحب هذا الملمس الدهنى السميك ، الذى يتشقق كما يتشقق إناء من خزف قديم مر عليه الدهر كما لو كان نبذا طيبا معتقا . . . إن مادة التصوير صلبة طويلة العمر كالمعدن ، لينة لينة كالنبات ، حية تثير الشهوة كالجسد » (٩) .

إن كلمة « المادة » كما تستخدم عادة تعبر ، لا عن الأجسام المادية وحدها بل كذلك كل ما يستعمل فى صنع شيء ما ، وفى كل ما يدخل فى تركيب شيء ما . فنحن نستطيع التحدث عن مادة موسيقية ، ونقصد بها النغمات الناتجة عن صوت إنسان أو آلة موسيقية : وهى نغمات جميلة فى ذاتها يطيب الاستماع لها حتى قبل أن تتشكل على هيئة دور موسيقى منتظم . فنغمة المزمار أو الكمان أو الأرغن أو النغير تبعث السرور إلى السمع ، كما تبعث السرور إلى البصر ألوان الزرقة والقرمزي والأصفر الداكن . والموسيقى رجل يحس بالسعادة عند سماع النغم ، ولذلك فهو يطلب إليها الكثير ويربدها طيبة ، واضحة لينة ، دقيقة . لقد كتب أحد معلمى الأطفال يقول : « من الضروري لإفهام الطفل أن النغم الموسيقى عكس الصباح أو النغم الجاف الذى يطلقه تلقائيا . ومن الضروري أن تتوافر فى

تعليمه نعمات تكون على أكبر جانب من الرقة والسهولة المطلقة . لا بد أن نطالب بهذا دون هوادة . وإلى أن يستيقظ ذوق الطفل فيصبح قادرا على التفضيل . ولعل أول تدريب صوتي ينحصر في ، تسيله ، أو ، إن صح التعبير ، تنظيف سطحه ، إن نحن أردنا أن نعثر تحت القشرة الجامدة الحشنة على عجينة ناعمة غضة ، دهنية الملمس ، (١٠) .

وذوق المادة ذات الرنين الجميل في الموسيقى هو الذي يوقظ لدى الموسيقي اهتمامه بتحسين الآلة الموسيقية ، ويقوم صانعو الآعواد والبيانو والأرغن ، وكذا الآلات المخترعة حديثا بهذا التحسين . والمعروف هنا أن «ليزت» و «شوبان» قد ظهرا في اللحظة التي انتهى فيها إيراد ، وبليل ، من صنع البيانو في شكله الأخير ، ويمكن اعتبار أعمالهما صورة عظيمة لقدرات هذه الآلة المدهشة . ولقد قيل هنا إن مجموعة أصابع البيانو هي التي تسيطر على وحى كبار مؤلفي الموسيقى ، وإن صوتها هو الذي خلق وظيفة الموسيقى كموسيقى (١١) .

وليس مثال البيانو مثالا وحيدا في نوعه . إذ يلوح أن الكونشرتو ، لم يولد إلا من رغبة في إظهار قدرة الآلات والإفادة منها . وفي إطار هذه الحقيقة كتب كل من باخ ، وهندل و هايدن ، وموزار ادوار كونشرتو ليتم إيقاعها ، لا على بيانو كبير أو كمان عادي أو كمان كبير فحسب ، بل كذلك على المزمار ، أو على الناي ، أو القيثارة ، أو البوق ، أو النافور ، أو النفير ، أو الصور . . . ولذا كان في الإمكان أن يقدم الأوركسترا ، أنغاما مميزة ، كتلك التي أشار إليها كل من برليوز ، ومندلسون . والمعروف أن عناصر الأوركسترا قد ازدادت خلال القرن التاسع عشر بعد أن انضمت إليه آلات السيلستا ومجموعة السكسفون والاكسيلوفون ، على يدى سان سانص في «رقصة الموت» كما انضمت إليه بعد هذا آلات كهربائية و «بطارية» حين تطلب إيقاع الجاز .

ولفنون اللغة مادتها الخاصة بها أيضا ، هذه المادة هي « الكلمات » ، ويقول فيكتور هوجو : « لا بد أن تعلم أن الكلمة كائن حي » (١٢) . على أن الكلمة بالنسبة للأديب أو الشاعر ليست مجرد علامة جبرية تتحدد حقيقتها كاملة في معناها ، بل هي كما يقول « تيوفيل جوتييه » تحوى عددا معناها ، وعدا كونها كلمة في ذاتها . . . تحوى جمالا وقيمة خاصة بها ، كالأحجار الكريمة التي لم تصقل بعد ولن تتركب على أساور أو عقود أو خواتم » (١٣) ، ولكل منها إذا صفات ملموسة خاصة بها كالشكل والذوق والنغم واللون والطعم . فهي إما ناعمة الملمس وإما خشنة ، إما ثقيلة وإما خفيفة ، قائمة أو صافية ، قاسية أو حنون ، والأذن هي التي تميز الكلمات وتذوقها وتقدرها قدرها باعتبارها صورا سماعية . لكنها بصفتها صورا محركة تصبح من اختصاص الحلق والفم وجميع أعضاء الجهاز الصوتي ويقول كلوديل « إن الشاعر يميز الكلام من واقع طعمه ، بفمه دون أن يتكلم » (١٤) . ويقول كذلك : « الكلمات كأنواع النبيذ ، تذوقها باللهاة أو مؤخر الحلق ويظهر مقدمة اللسان وباللثة والشفاه » (١٥) .

وموهبة الأديب تتضح من طريقته في تذوق معنى الكلمات وتقدير قيمتها ، فهو ينتقيها ويقربها من بعضها بعضا ، أو يصوغها متعارضة فيما بينها لا سداً لحاجات فكرة يريد التعبير عنها فحسب ، بل كذلك لمجرد لذة إظهارها . وبقصد تقويمها بعضها بالنسبة لبعض . ويعلمنا بيرلوى « أن الكتابة تعنى وضع الكلمة مكانها وأن معرفة الكاتب لطريقته في الكتابة تمكنه من أن يخلق من الصوت الرخو رنيناً . . . وتمكنه من أن يصدر من الحديد اللين رنيناً يرتجف كما لو كان يلقى عليه بمطرقة صنعها هو لهذا الغرض » كان هذا السر عبقرية كلوديل أيضاً . وهو يقول : « علينا أن نؤدى زيارة لصانع الأحجار الكريمة . . . وسنجد عنده أحجاراً من كل لون ، يحضرها لنا في فراغ يده أو فوق قطعة من معمل أسود ! ! إن الجوهرى الصحيح هو الذى يداعبها كما يداعب الموسيقى أوتار الآلة . . . لعل هذه الحصة

ذات المظهر التافه هي التي تضفي الشعاع الساطع على العقد لجأة لقد انفجرت «كاسيويه» بكاء في الليل عندما رأت حجراً غابر اللون من نوع «عين الهر» (١٦) .

ماذا يمكن أن تقدم المادة للفنان؟

تعتبر المواد الأولية التي يستخدمها الفنان في عمله جميلة ، لأنها أصلاً ذات صورة معينة . ولا يمكن لنفس هذا السبب أن تكون هذه المواد قابلة للتشكيل بأي شكل كان خلال العملية الفنية ، فهي ترفض هذا الشكل وتقبل ذاك . وبتعبير آخر : « تتمتع المواد الأولية — كما قال فوسيون — بميول شكلية خاصة . . . وهكذا لا تلعب الصورة الأصلية دورها بصفتها مبدأ رفيعاً يرمى إلى تشكيل كتلة صماء ، بل إن من الضروري أن تعتبر المادة عنصراً ذا صورة خاصة تفرض نفسها على صورة العمل الفني ، (١٧) .

وهناك حقيقة أولى لا يمكن أن تكون ذات فائدة لنا ، ذلك أن الحجم يتغير تبعاً للمادة التي تنصب فيها الصورة ، سواء أكانت هذه المادة رخاماً أم برونزاً أم خشباً ، كما تختلف باختلاف طريقة تصويره ، سواء بالماء أو بالزيت ، وبطريقة نحتة بالمحفر ، أو طبعه على الحجر . أليس هذا أمراً عجباً ؟ لا . . . لأن من الصحيح أن الأحجام لا تظل هي بعينها في مختلف الحالات المذكورة ، ما دامت تتوقف على الضوء الذي يوضح بروزها وفراغها ، ويجعل في سطحها تعبيراً عن كثافتها النسبية . غير أن الضوء نفسه يعتمد على المادة التي تستقبله وتنزلق عليه في سيولة أو تثبت فوقه ثباتاً أو تحترقه بدرجة تقل أو تزيد ، وتضفي عليه جفافاً أو دماثة .

إن من الواضح أن تفسير المسافة في فن التصوير متوقف على المادة

التي قد تحددها أو تجعلها بلا حدود ، فالحجم لا يظل بعينه تبعا لكونه مرسوما بعجينة خالصة أو بطبقة لامعة تفرش فوق بطانية أولية، (١٨) .

ونتساءل : هل يفتق الفنان المواد التي يستخدمها ؟ سوف نوافق مقدما على أنه ينتقيا ، لا لسهولة العمل بها ، أو — بالقدر الذي يعتبر فيه الفن سدادا لحاجة حيوية ، لأن استخدامها أمر لازم فحسب ، بل بالأحرى لأنها مواد يجب أن تعامل معاملة خاصة ، ولأنها تعطى أثرا معيناً . إن الصفات التي يتصف بها العمل الفني ، وبالذات شكله الخارجى ، تعتمد بدرجة كبيرة على المادة المستخدمة . فإذا فرضنا أن الفنان قد استخدم مادة أخرى غير التي يتعين عليه استخدامها لوجدنا أن العمل الفني قد تغير تغيرا كاملا . ألا يلاحظ أن « معبد البارثينون قد صنع من الرخام ، ولهذا أهميته القصوى ، وأن الإطارات التي صنعت فيما بعد من الأسمنت خلال ترميمه لتتخلل الأعمدة قد أصبحت أشد قسوة مما لو كان المعبد قد تهدم » ؟ (١٩) .

ولو كان تمثال هرميس لبراكسيتيل قد صنع من البرونز لأصبح تمثالا آخر غير ذلك الذي نعرفه ، وربما كان معادلا له من حيث الرشاقة ، لكنه كان يصبح مختلفا عنه تماما . ولو كان تيرنر قد استخدم ألوان الزيت بدلا من ألوان الماء في « الكواريل » لما أصبحت لوحاته من الكواريل على جمالها المعروف . والسبب في هذا بسيط ، فهو يتلخص في أن الخفة والرشاقة والانتعاش التي تتصف بها لوحة الكواريل ترجع إلى المواد المستخدمة فيها ، أى إلى الورق الأبيض واللون المذاب في الماء . وإذا أضفت بعض الصمغ إلى الماء لحصلت على مادة أكثر ثباتا ، وشعرت بتغير الشكل في الحال . وذلك أن « الجواش » (أى ألوان الماء المختلطة بالصمغ) أكثر ثباتا وقوة وتركيبا من « الكواريل » ، كما أنه أكثر وضوحا وأقل خفة منه . هذا ويمكن أن نبدي نفس الملاحظات فيما يتعلق بالرسم ،

فكل من «الخبر والقلم الرصاص والحجر الأسود والأحمر الدموي والطباشير كلها مجتمعة أو منفصلة» صفات محددة . . . ولكل منها لغة خاصة بها . ولكي نؤكد هذا نستطيع القيام بتجربة تتلخص مثلا في أن يقوم «أنجر» بنقل لون حمرة الدماء التي استخدمها «واتو» بالقلم الرصاص . . . أو - بشكل أبسط - نقل رسم رسمة صاحبه بالفحم واستخدام اللون الأحمر بدلا من الفحم . . . إن نحن فعلنا هذا لوجدنا أن اللوحة تكتسب خواص أخرى غير متوقعة على الإطلاق . . . بل لوجدنا أنفسنا أمام عمل فني جديد تماما . (٢٠) .

ورغم هذا لا يستطيع الفنان أن يتصرف تصرفا كاملا في اختيار المواد التي يستخدمها ، فهو مضطر إلى أن يأخذ في اعتباره طبيعة هذه المواد، وإلى أن يتفهم عمله بناء على ذلك . مثال هذا فنان بناء يكلف ببناء كنيسة: نجد هنا أن الكنيسة لا تتخذ نفس الشكل - إذا كان الفنان يعرف فنه جيدا - إن هي بنيت بالحجر أو الأسمنت، فالحجر ثقيل يحتاج إلى أعمدة قوية ، ولا يسمح بتغطية مساحة معينة إلا إذا استخدمت القبة ، وحيث إن القبة تؤدي إلى امتداد جانبي ، فإن من الضروري إقامة سند مقابله . وكنيسة البازليك الرومانية ، والكاتدرائية القوطية أيضا ، بما فيها من صحنون ثلاثة أو خمسة ، وأبراج وأقواس ذات عقود ، وقباب عليها ترجع في شكلها هذا إلى نفس الضروريات المادية . أما الأسمنت ، فهو على العكس من ذلك ، خفيف نسبيا ، يمكن صبه على شكل ألواح عريضة . ويعطيه الحديد المسلح صلابة ومقاومة . ومن هنا كان الأسلوب الجديد الذي يتطلبه للأسطح الحاملة التي لا توضع إلا بالحد الأدنى اللازم ، ونتيجة للحوائط الرقيقة ، كما هي الحال في كنيسة رانسي، حيث نجد أن الأغطية المسطحة قد حلت محل القباب كما هو الشأن أيضا في كنيسة رونشان. وقد نجد أيضا أن الصحنون الجانبية قد ألغيت ولا يبقى إلا قوس واحدة يخترق

صحنا ضخما ، كما نرى كنيسة القديس بيوس العاشر في مدينة لورد .

وإذا كانت الصورة تتوقف على نوع المواد المستخدمة ، فهو يخضع أيضا للخواص الفردية لهذه المواد . فالنحات لا ينحت الخشب أو الحجر بوجه عام . بل إنه ينحت هذه الكرة الخشبية المعينة وهذه الكتلة الحجرية التي تتقدم إليه كأى مثيلة لها وتضم الصفات والعيوب الخاصة بها هي ماذا يعمل هذا النحات إذا ؟ « إنه يريد تمثالا للحرية ولكنه ليس حرا . ربما يتمكن من اختيار نوع الحجر ، لكن للحجر كثافة وعروقا وألوانا وعقدا ، ولا بد له أن يتكيف وإياها ، بل ولا بد أن يخضع لها . . . ويتعين عليه أن يقرر الفكرة التي تجعل منه هو شيئا بالحجر » (٢١) .

هكذا كانت الحال زمنا طويلا ، وما زالت أحيانا إلى اليوم بالنسبة للموسيقين . فهم بصفتهم رؤساء أوركسترا أو رؤساء فرق غنائية . يقومون بالإيقاع على نوع من البيانو أو الأرغن . . . وسواء أكان اسمهم ليونين أو جوديل . . أم بالسترينا أم باخ أم سيزار فرانك . . . كلهم لا يعلمون فن التجريد . بل إنهم كانوا يؤلفون أدوارهم لهذه الفرقة المعينة أو ذلك الأوركسترا الذي يرأسونه بالذات . . . أو لذلك الأرغن الذي يعرفون خواصه ، وتلك الكنيسة التي يعرفون خواصها السمعية . . . والمادة هي التي توجه الخيال وتقود الإبداع وتشكل التنفيذ الفني : فإذا كانت الأصوات خشنة كتبت لهم موسيقى قوية . وإذا كان المغنون على شئ . من الدقة كتبت لهم موسيقى متقنة . . . وهنا تصبح النتيجة مؤكدة . . فيكفي مثلا صوتان لكي يصدر رنين الموسيقى وبسمع ، هذا صحيح لدرجة يمكن أن نقول معها : « إن تأليف الدور الموسيقى يصبح ناقصا من حيث تضامنه مع المادة إن تم إدراكه بعيدا عن هذه الظروف المباشرة الملموسة المؤدية إلى إيقاعه على أن المادة وحدها هي التي تعمل على التوصل إلى كماله ومثانيته الأصلية فيه » (٢٢) .

وهكذا نرى أن المادة لا تكتفي باصدار رد فعل مباشر على الشكل ،

بل إنها هي التي غالبا ما توحى إلى الفنان وتقدم له الفكرة وتصبح نتيجة لذلك مصدر الوحي . ومن منا لم يعتقد مرة أنه يرى وجها على جانب صخرة يراها عرضا ، أو في ثنايا شجرة ما أو في حافة بقعة مداد سقطت عرضا على الورق ؟ « من من الفنانين لم يقدم رسما بدأه بفضل المصادفة ؟ وأي مثال لم ينحت صورة رجل أو حيوان في جذر شجرة ؟ إن الظروف التي تحيط بمثل هذا اللعب ظروف يسهل فهمها ، وربما كانت عاملا يساعد على توضيح فن النحت كله . أين إذا في مثل هذه الحالات ، النموذج المتبع ؟ إن النموذج هو ما نراه عرضا في الشيء نفسه ، ذلك الشيء الذي يبدو باسم أو غير باسم ، والذي يظهر أولا ، كما لو كان رأس رجل أو حصان أو خنزير أو وحش ، وما النموذج إلا شيء يختفي في الحجر أو الخشب ويجب تحريره . لكن كيف يتم هذا ؟ إن النموذج نفسه هو الذي يوضح لنا طريقة تحريره حين يظهر لنا أوضح من غيره ، ونحن نقوم برسمه طبقا للصورة التي يظهر بها . إن كلا من الذين مارسوا نحت عصي أو رؤوس « الأراجوز » في جذور الشجر سوف يفهمون ، وسوف يفهم كل الناس » (٢٣) .

ويؤكد تاريخ الفنون هذه التجربة الشائعة . ففي الأصل « كانت هناك محاولات لنحت الجبال أو صخور الشاطئ . . . ولقد نحت قدماء المصريين صخور الشواطئ . ، وكانت جزيرة الفصح — التي ابتلعها المياه قديما — مليئة بمئات من أعمدة البازلت ، حيث أخذ النحات الساذج البدائي ينحت زوايا الوجوه المرعبة التي بدأتها الطبيعة » (٢٤) .

المعروف مؤكدا من جهة أخرى أن الأشياء الأولى التي جرى نحتها على هيئة كائن حي كانت عبارة عن أحجار صغيرة يذكرنا شكلها بأشكال الحيوان ، ولم يكن يحتاج الأمر إذ ذاك إلا إلى تسويتها ليصبح الشبه كاملا والفن الحديث الذي يجمع في غالب الأحيان بين سذاجة البدائيين وجرأتهم لا تأف من أن يقبل ما قد تفرضه عليه الطبيعة .

ويقول المصور جوجان عن لوحة رسمها : « إنى أعتقد أنها قطعة تصويرية رائعة . لكنها ليست من نتاج يدي تماما ، لأنى سرقتها من لوحة من خشب الشوح . وما كان لنا أن نقول شيئا عن هذا لكن ماذا تزيد . إننا نعمل ما نستطيع عمله ، ولعل من الإغراء على السرقة أن نرى رأسا قد ارتسم على الرخام أو الخشب ، (٢٥) ألم نريكاسو أخيرا وقد صور حيوانا ذا واقعية مذهلة من مقعد دراجة ذات مقدمة مقلوبة ؟ ! . .

هكذا يلقي الفنان الأسئلة على المادة أكثر مما تنصور ، ويستحيا ليفيد من معجزاتها وينصرف إلى ما تقدمه من مشاعر . ومن الغريب أن نستمع إلى الفنانين الذين يحبون فيها الفضائل بعد أن كنا نعتقد أنهم غارقون في أوهامهم . فهناك أوديلون ريدون يتحدث عن نفسه فيقول : « مامن تحليل نقوم به أكثر من ذلك الذى يتعلق بالمادة المستخدمة والتي تجذبنا ، فالمواد بدورها فى ذاتها تنطوى على نصيب من سر الفن ، ونصائحها تفوق نصائح من تتلذذ عليهم ، ووجودها يقضى على النظريات كلها . فعلى الفنان إذا أن يتحسس « أسرارها ، وكلما عرف هذه الأسرار أضاءها خياله ، والفن المعبر لا يضىء فى كماله إلا بفضل المواد ، (٢٦) .

ويربط « ميرو » ربطا وثيقا بين موضوع المادة وناحيتي الوحي والتنفيذ فيقول : « والآن قلما أبدأ لوحة وأنا فى حالة من حالات الهذيان ، كما كنت أفعل من حوالى عشرين عاما . أو ، كما فعلت حوالى عام ١٩٣٣ ابتداء من أشكال نقترحها على المصقات . والأمر الذى يهمنى اليوم أمر المواد الأولية التى أعمل بها . فهى غالبا ما تزودنى بنقطة البدء التى توحى إلى بالأشكال التى أرسمها ، فأبدأ لوحى دون أن أعرف ما سوف تنتهى إليه ، وأتركها جانبا إلى أن تختفى شعلة حماسة البداية ، ولا أستطيع النظر إليها خلال أشهر عدة ، لكننى أخرجها بعد ذلك وأعمل فيها بهدوء . كما يعمل العامل الدقيق إلى أن تتخذ الأشكال فى نفسى حقيقة واضحة كلما عملت فيها

وبتعبير آخر ، فإنه بدلا من أن أبدأ في تصوير شيء ما ، أبدأ في التصوير فحسب ، وكلما سرت في عمل هذا أخذت اللوحة في الوضوح وفي اقتراح عناصر نفسها بنفسها تحت ريشتي ، وقد توحى بعض الخطوط التي تركها الريشة عرضا وأنا أنظفها ، أو يوحى عيب في قاشة اللوحة أو بقعة تسقط على لوحة التصوير . . . بيده اللوحة ذاتها ، (٢٧) .

نتائج

لا داعي هنا للإطالة ، بل يكفي أن نلخص قولنا ، وأن نواصل البحث « فاحترام المادة والصور الطبيعية التي نصادفها فيها ، وانعدام التناسق الذي يظهر في ثنايا الأخشاب أو في حبات الحجارة ، وخطوط الانقطاع أو التقاطع التي تظهر في الألياف ، أو في التشققات ، كل هذا جزء هام في فن النحت ، بمعنى أن النحات لا ينحت ما يريد . . . بل أقول إنه ينحت ما يريد الشيء ، ومن هنا يأتي الترابط الوثيق بين المادة غير البشرية والجهد الإنساني حيث يحمل الشيء دلالة بشرية حملا آمينا ، وحيث تنطق المادة » (٢٨) . وليس لدينا ما نضيفه هنا إلى هذه الحقيقة المثبتة عدا أن القانون الذي يتعلق بفن النحت يسرى أيضا على الفنون التشكيلية الأخرى تلقائيا ، بل ويسرى على جميع الفنون عامة ، وتنتج منه نتائج عدة تستخدم في ذاتها كأدلة .

فإذا كانت « للمواد المستخدمة في الفن قيمة صورية ، فهي لا تتغير فيما بينها ، بمعنى أن الصورة تتطور تطورا خاصا حين تنتقل من مادة إلى أخرى » (٢٩) . مثال ذلك دور « ميلوديا » بحري تأليفه ويتم توقيعه على البيانو . أو مثل « فالس » ما من تأليف براهيمز ، ثم يحري توقيعه مرة أخرى على الكمان ، كما فعل الموسيقي الشهير جاك تيمو وجال به في القارات الخمس . هذه الميلوديا لم تعد نفس الدور المؤلف أصلا ، ومن باب أولى يصبح استخراج نشيد غزل من الدور المسمى « دراسة » ، « لشوبان » ، « بمثابة تشويه فحسب

للدور الأصلي . وتقل هذه القاعدة قوة في حالة إخضاع تقاسيم الأرغن أو الأوركسترا للبيانو . أو على العكس من ذلك ، تقل تقاسيم بيانو أو أرغن أو الأوركسترا ، ولمثل هذه «التوافيق» فائدتها ، وجمالها أحيانا . ومع ذلك فإن التنفيذ الفنى والنغمات والقدرة الصوتية ، بل وروح البيانو أو الأرغن أو الأوركسترا ، كل هذا يختلف باختلاف الآلة . ولهذا فمن المستحيل أن ينتقل العمل الفنى من إحداها إلى الأخرى دون أن يغير من طبيعته ودون أن تتغير مادته وتختلف صورته^(١) .

ويحدث أحيانا أن يكتب المؤلف الموسيقى نسختين من عمله الفنى . مثال ذلك « لوحات معرض » و « قبر كوبران » ، وهما مقطوعتان كتبتا للبيانو ، وقام كل من موسورجسكى ورافيل بتوقيعهما على الأوركسترا . لكن الأمر فى مثل هذه الحالات أمر إبداع جديد ، ونتيجته ليست عملا أصيلا يزدوج بترجمته ، بل هناك عملان اثنان ، لا يمكن لدرجة معينة إجراهما مقارنة بينهما باعتبار أن أحدهما قد كتب للبيانو والآخر للأوركسترا .

وحيث إن المادة لا تستطيع إعطاء أى شكل كان ، فإننا إذا أردنا نقل صورة من مادة معينة إلى مادة من نوع آخر ، لكان من الضرورى تعديلها . (٣٠) ، فلا يمكن مثلا رسم صورة إنسان بالزيت بأن نلون رسما عمل بالقلم الرصاص ، لكن لكى نرسم صورة إنسان بالزيت بعد أن نكون قد خططناها بالقلم الرصاص لابد أن « نعيد التفكير » فى التخطيط بالرصاص أصلا ، فهاتان إذا طريقتان مختلفتان من حيث تحديد المعالم الخارجية للشكل ، واحتساب الأحجام وملء الفراغات . ويرجع خطأ « أنجر » من حيث إنه يخضع كل شئ للرسم بالرصاص إلى أنه لم يفهم هذه الحقيقة تماما . لكن عبقريته

(١) يحدث هذا طبعاً من حيث المبدأ ، لكن حدوده لا يتم دائماً ، فقد سمعت ألماناً مأخوذة من باخ وجرى توقيعها على مجموعة أكورديون ، وكان اللحن جيلاً ، بل ولم أشعر بخروج عن المقطوعة الأصلية - ويرجع هذا بلا شك إلى أن النغم فى اللحن باخ عنصر ثانوى ، وإلى أن الشكل للعمل الفنى بوجه عام ، وطبيعته تعتمد تقريباً دائماً على العلاقات بين النغمات وعلى البناء الصوتى العام .

الحقيقية ترجع إلى أنه فهم بالغريزة هذا المرق ، وهو الذى صور لوحات مدهشة بالزيت . وهو أيضا هذا الرجل الذى كان يرفض عرض لوحاته الزيتية ورسومه بالقلم فى نفس الوقت كما لو كان عرض النوعين معاً يسىء إليه .

وكما اختلفت المادة اختلفت الوسيلة ، فالتماثيل الصغيرة والصور الصغيرة تدخل فى عالم آخر يتعين علينا قبول قانونه ، إن هى نقلت على الحوائط بمعرفة عامل فنى فى الزخرفة ، (٣١) ولعلنا رأينا هذا فى العصور الوسطى حين عمل مصورو القرن الثانى عشر فى زخارفهم من وثائق مصورة ، وحين اضطروا وهم يفعلون هذا إلى تغيير روح هذه الوثائق بما يتفق واحتياجات التماثيل الهائلة الموجودة إذ ذاك فى الأماكن المطلوب زخرفتها .

إننا نمسك هنا بمفتاح مشكلة تجرى مناقشتها بشدة هذه الأيام ، ونقصد بها مشكلة تكيف القصة الأدبية لعرضها على الشاشة . وقد أبدى أدباء القصة وفنانون السينما هنا آراء متعارضة ، نعتقد أنه ليس من المستحيل التوفيق بينها ، فالقصة الأدبية والسينما لغتان مختلفتان ، تبتعد إحداها عن الأخرى ابتعاد النوتة الموسيقية عن صفيح جندى شرطة الطريق . فما دامت هاتان اللغتان وسيلتين مختلفتين للتعبير فإنهما لا تستطيعان التحدث بنفس الشيء . ولا التحدث بنفس الطريقة ، فالشئ الذى يسمح بإخراج قصة جميلة ليس هو بعينه الذى يقدم لنا فيلماً جميلاً ، بل وقد تكون القصة الطيبة خطيرة إذا لم يجرؤ المخرج السينمائي أن يتخذ لنفسه بشأنها حريات تقتضيها الضرورة . وإذا ما اكتفى بترجمتها كلمة كلمة على شكل صور . ويعنى هذا أن الثروة الخاصة التى يتصف بها العمل الأدبي الخالد لا يمكن أن تترجم إلى لغة السينما ، وأن مثل هذه المحاولات تنتهى بالفشل .

وعلى العكس من ذلك ، يجوز أن تكون القصة التافهة موضوع فيلم عظيم ، لأن فنان السينما يستطيع فى الواقع ، كما يقول جان رينوار ، أن

يضيف إليها كل ما ينقصها ، ، والمقصود بالشئ الناقص هنا ما يحتاج إليه الفيلم ليكون جيداً ، لا ما يحتاج إليه القصة ، والأمـر في الحالتين مختلف تماماً . لكن من هنا لا نستبعد أن تكون القصة العظيمة مصدراً لفيلم عظيم وقد أثبتت التجربة هذا . غير أن معنى هذا أن العاملين الناجحين قد نجحوا لأن أحدهما كتاب عظيم وثانيهما فيلم عظيم . ولأن كلا منهما يخضع لقوانينه الخاصة به والتي تنبع من المواد ووسائل التنفيذ المستخدمة فيه ، الأمر الذي يعنى أنه لا يوجد بين هذه القصة وذلك الفيلم أى تطابق ، بل الذى يوجد هو التجانس كالتجانس الموجود بين البصريات والسمعيات (٣٢) ويعنى هذا أيضاً أن مثل هذا النقل من فن إلى آخر (القصة والسينما) وهو نقل يتطلب تعديلاً شاملاً ، ويرغم الناقل على استيعابه وفهمه طبقاً لقواعد من نوع آخر . هذا النقل من فن إلى آخر عبارة عن إبداع جديد حقيقى ، ولو أن المهمة التى يقوم بها رجل السينما هنا ليست سهلة ، وبخاصة أن عليه أن يتصور « السيناريو » تفصيلاً حين يعمل لنقل القصة على الشاشة ، بل وأغلب ظنى أن مهمته هذه أصعب مما قد نعتقد .

والشكل المعين يتفق ومادة معينة دون غيرها ، ولقد عرفت بعض الفنون حالة من التدهور خلال قرون لأنها نسيت هذه الحقيقة ، ونريد هنا أن نتحدث عن فنون « الموزايكو » وأبسطة الحوائط المزركشة والتصوير الزجاجى التى ظنت خطأ أن فى استطاعتها منافسة فن التصوير ، لكن اتضح أنه « عندما يحاول أحد الفنون أن يخضع مادته الخاصة به لشكل يتعلق بفن آخر فإنه يتدهور » (٣٣) .

ويذكرنا هنا ج . لورسا ، متحدثاً عن تمثال « ابوكاليس » فى مدينة أنجية ، بالقاعدة الذهبية التى كان يتبعها صانعو أبسطة الحوائط ، فى العصور الوسطى فيقول : « مادام الصانع صانع بساط لزخرفة الحوائط فإنه لم يكن

عليه إلا أن يعمل لهذا الغرض فحسب ، ومعنى هذا أنه لم يكن يحتاج إلى مناظر أو إلى جو معين ، بل كان عليه أن يشكل أشكالا بسيطة يسهل حل رموزها ، دون أن يترك فراغا كما كان عليه أن يستخدم ألوانا واضحة متقابلة أكثر منها « سائحة » ، تبعاً لما تفرضه خطوط الصوف ذات الألوان التي لا تمتزج كما تمتزج ألوان التصوير الزيتي . ولهذا نرى أنه في الفترة بين القرنين الرابع عشر والثامن عشر « تنتقل الألوان من ١٧ إلى ٢٥ ثم إلى ٣٥ ، ثم إلى ٥٠ . ثم إلى ٣٠٠ و ٤٠٠ ، وإذا ما وصلنا إلى القرن الثامن عشر وجدناها قد وصلت إلى ٨٠٠ ، ولذلك كان هذا القرن منطوياً على أشد نكبة بالنسبة لفن الأبسطة الزخرفية ، بل لقد مات هذا الفن لأنه أراد أن ينقل فن التصوير على اللوحة » (٣٤) .

وقد بدأ انهيار فن الموزايكو قبل ذلك ، ولندكر في هذا الصدد أن موزايكو « نافيسلا » التي حققها جيوتو ، والتي أعجب بها فاسارى لواقعتها . ولندكر أيضاً أنها هي التي وجهت إلى الفن في القرن الثاني عشر ضربة قاضية . فن المؤكد أن قطع الزجاج الصغيرة التي تستخدم في هذا الفن لا تستطيع أن تقدم لنا نفس الدقة وانطباع الحياة وخداع البصر التي يقدمها لنا فن التصوير والألوان . لكن فيما عدا أن المهارة والشابه ليسا من قواعد القيمة الجمالية ، يجب أن نذكر أن فن الموزايكو لا يعطى لوحة ، وبشبهه في هذا فن الأبسطة الحائطية والزجاج التصويري . ولا يمكن ولا ينبغي أن نطلب إلى هذه الفنون الثلاثة ما نطلبه في لوحة مصورة بالألوان . ويلاحظ أنها إذا حاولت تقليد التصوير فإنها لا تنجح أحياناً إلا بدرجة مبالغ فيها ، لأنها غير مخلصة للمواد المستخدمة فيها ، وبالتالي فهي غير مخلصة لقوانين نوعها وتجدها نفسها وقد فسدت من ذاتها . واليوم فهمنا هذا ، ولذا فنحن نرى الآن نهضة في هذه الفنون التي طالما تاهت في طريق خاطئ . ، وتعتبر أسماء

فنانها من أمثال لورسا وبازين وفرنان ليجه دليلا على أن هذه الفنون قد عادت إلى طريقها الصحيح .

والعلية التي تمارسها المادة على الصورة تؤدي إلى نتيجة محتومة هي أنه مامن عمل فني يمكن أن ينتج إن لم تكن المادة من النوع الذي يصح استخدامه في هذا الفن أو ذاك بالذات . ونحن نؤكد هذا طبعا فيما يختص بالأعمال الفنية التي توجد ويتم الاعتراف بها في مادة محددة ، مثل اللوحة المصورة لا تلك الأعمال التي تتجسم كمقطوعة موسيقية في مادة جديدة كلما أراد الفنان أن يعيد توقيعها أو تحقيقها . وفي هذه الحالة التي يعاد تحقيقها فيها نستطيع أن نقول إنها منتجة أو مبدعة من جديد ، لا أن نقول إنها منقولة مرة أخرى . وحيث إن موضوع المناقشة في هذه النقطة محدود على هذه الصورة ، فإن من الضروري أن نقتصر في كلامنا على ذلك في هذه الأيام التي تنتشر فيها عملية النسخ ، والتي يعتقد فيها كثيرون من الناس أن الممكن الاستغناء عن الأصل والاكتفاء بالنسخة المنقولة ، والتي يبنى فيها مؤلف كتاب « صوت السكون » (مالرو) أساس طريقته على مواجهة الفوتوغرافية بالأعمال الفنية .

والقول بأن هذه النسخ المنقولة مقلدة ، وأنها تعتبر ذات قيمة أو أذلة مساعدة للذاكرة ، لا غنى للطالب أو للمؤرخ أو الناقد عنها . هذا القول هو الصحة بعينها . والقول بأنها تفيد أكثر مما لو لم تكن موجودة قول صحيح للغاية ، وخاصة حين لا يستطيع إنسان أن يرى الأصول ذاتها . والقول بأنها تعطى فكرة غالبا ما تكون دقيقة عن العمل الفني ، وأنها تحتفظ بشعاع من جماله ، قول نوافق عليه ، ولكنها لا تستطيع أبدا أن تكون بديلا عنه ، أو مرادفاً له ، والتدليل على ذلك سهل للغاية فيما يتعلق مثلا بالمنشآت المبنية أو بالتماثيل التي تكون كبيرة الحجم ، والتي تنفخ في المساحة الواسعة وينبثق عنها جو معين ، أي تلك التي ترتبط غالباً بالموقع الذي تقوم فيه ،

والتي لا يمكن حقا معرفتها دون أن نجول في موقعها هذا . وأنا أتحدى أى شخص يدعى أنه سبق أن رأى قبة كنيسة رونشان التي حققها لوكربوزيه ولا يعرف هذه القبة من خلال مجموعة من الصور الفوتوغرافية .

هذه الحقيقة تزداد صحة فيما يتعلق باللوحات ، لكن لا بد أن نلاحظ أولاً أن نسخ اللوحات لا يأخذ في اعتباره الأحجام الحقيقية بوجه عام ، الأمر الذي يكفي لعدم الثقة بالنسخ ، فلوحة مثل « طاحونة الفطيرة » بحجم بطاقة البريد ليست هي « طاحونة الفطيرة » الأصلية ، ذلك أن بناء اللوحة وتوزيع أحجامها وكثرة أو قلة تفاصيلها وسمك الخط الملون ، كل هذا تم بإرادة الفنان ، وطبقاً للحجم المادى للوحة ذاتها كما يراها ، وهكذا يصبح تصغير النسب بمثابة القضاء على اللوحة كمجموع .

وحتى إذا كانت النسب تعادل الأصل فلن يكون لدينا المعادل البصرى للوحة ، لأن اللوحة مرسومة على قماش ، ونسختها المنقولة مطبوعة على ورق لامع ، وألوان اللوحة معجون يزيد أو يقل سيولة ، وقد وضعته يد الفنان لمسة بعد لمسة . أما ألوان النسخة المنقولة فهي منقولة بمداد المطبعة على الورق ، وباستخدام الطرق الآلية . وكل هذه الفروق في المادة لا يمكن إلا أن تؤدي إلى فرق في الأثر الذي تتركه اللوحة أو النسخة . ولا شك أن من الممكن أن يميز الناظر في النسخة كلا من دقة نسيج اللوحة القماشية وبروز اللمسة اللونية وسمك المعجون الملون . ما من شك في أن ضياع البروز يؤدي إلى اختفاء حيوية اللوحة ذاتها ، وفيما يتعلق بالألوان ، خذ « نسخة دقيقة » واحملها إلى المتحف وقارن . وسوف ترى فظاعة المصيبة إن أنت فهمت أنه يكفي أن يكون هناك بعض الفرق في النغمة اللونية إلى أعلى أو إلى أسفل ، أو في لون أحمر ازدادت حرته ، أو أصفر ازداد شحوبه نوعاً . . . حتى ترى الخلاف يقوم بين الناظرين إلى كل من اللوحة والنسخة (٣٥) .

ويتساءل : هل يمكن أن يؤدي تقدم الناحية التنفيذية إلى استئصال هذه الفروق ؟ إنى أمل هذا . لكن لا يمكن أن تكون النسخة المنقولة بالنسبة للعين شيئاً آخر غير صورة مصنوعة ، لا لوحة مرسومة ، وأحسن النسخ لا يمكن إلا أن يكون نقلاً دقيقاً لا يستطيع أن يعادل الأصل ، ولا يمكن مهما يكن تواضعها إلا أن تكون هي النسخة المنقولة ، ولقد كان كوكتو على حق حين قال : « إنها تشبه جرمين كالمرمر في مواجهة جص صب في قالب مصنوع ، كلاهما يشبه الآخر في لا شيء » .

الفكر والبر والاراء

وكما أنه لا يمكن فصل الشكل عن المادة ، لا يمكن فصل الشكل أيضاً عن طريقة التنفيذ الفني ، أى عن طرق ووسائل تحقيق العمل الفني . ألم يثبت تاريخ الفنون أن استخدام مادة خام جديدة يؤدي دائماً إلى اختراع وسائل تنفيذ جديدة ١ . أو ليس من المنطق على كل حال ، أن مادة ماتخلق بالضرورة وسائل معينة لمعاملتها ، وبظل الاختيار بينها — أى بين هذه الوسائل — حراً ، ولكنها تستبعد وسائل أخرى استبعاداً مطلقاً ٢ . (٣٦) « إننا مضطرون هكذا إلى أن نربط بين فكرتى المادة والتنفيذ الفني وهما فكرتان لا تفصلان أبداً ، (٣٧) .

ولقد أعاد علماء الجمال المحدثون فكرة تنفيذ العمل الفني إلى وضعها الذى يجب أن تصبح عليه ، وخاصة بعد أن طهروا أنفسهم من الرومانتيكية والمثالية ، وأولوا الظروف الحقيقية التى تحيط بإنتاج الأعمال الفنية الكبرى حقها من الرعاية والانتباه . بل إن منهم من يبالغ فى هذا بعض الشيء . لكنهم ليسوا على خطأ — على الأقل — حين يبدون اهتماماً خاصاً بالنواحي العملية واليدوية والحرفية للإبداع الفني . ما من شك فى أن النشاط الفني نشاط روحى ، ولقد كان ليوناردودا فنشى يقول : « إن فن التصوير مسألة

عقلية . ويقصد بهذا أن يحتج ضد بعض معاصريه الذين كانوا يعتبرون الفن عمل عبودية، ويضعون الفنان المصور ظلما في نفس درجة عامل الجص، والمثال في نفس درجة قالع الحجارة من المحجر ، وفنان البناء على مستوى البناء . وبهذا لا يمكن أن نقوله ما لم يقل ، من أن الفن ينمو على مستوى الروح أو العقل المطلق لدى كليهما ، وأن التنفيذ المادى يناسب العامل اليدوى ، وأنه لا يشرف الفنان أن تتسخ يده .

فالواقع أنه مهما تكن هذه الملاحظة في ظاهرها عادية تافهة ، فالفنانون ليسوا قبل كل شيء عقولا كبيرة أو قلوبا ضخمة تغرق في أفكارها وتهزها عواطفها . بل إنهم « قبل كل شيء مخلوقات زودت بأيد » (٣٨) . ويعلمنا فاليري أن الخيال يؤدي إلى الغنيان ، وأن التغيرات التي تطرأ على الفكر أو على الأحوال العاطفية طارئة لا يمكن الإمساك بها أو تثبيتها . ما الذي يستطيع وقف التغيرات ويضفي عليها شكلا ونباتا إن لم تكن اليد ؟ على أنه « مهما تكن القوة الاستقبالية والإبداعية للعقل شديدة فإنها لن تؤدي إلا إلى صخب داخلي لا يوقفه إلا اليد » فالرجل الذي يحلم يستطيع أن يستقبل الرؤية من مناظر فائقة الجمال ، أو من وجوه ذات جاذبية كاملة . لكن ما من شيء يثبت هذه الرؤية لأنها لا تستند إلى شيء ، ولأنها غير مادية ، ولأن الذاكرة لا تستطيع تسجيلها إلا تسجيلا خفيفا للغاية ، كما تسجل ذكرى أى شيء عابر . والذي يميز الحلم من الحقيقة هو أن الرجل الذي يحلم لا يتمكن من إنتاج فن ما ، لأن يديه لا تعملان ، ولأن الفن يتحقق بعمل الأيدي » (٣٩) .

فاليد أداة للإبداع ، ولكنها أيضا أداة للبحث والمعرفة ، وصاحبها يشبه أوائل البشر الذين لم يكونوا يتقدمون في العالم أو يشعرون بالأشياء إلا عن طريق التحسس بأيديهم . وهكذا الفنان ، فهو يلقى الأسئلة على

المادة باستخدام يديه، ويلبس ويتحسس ويزن ثقلها ويقس المسافة ويعرف مدى سائلة الهواء حتى يصور الشكل فيها، وهو بهذه الطريقة يكون لغة الإبصار عن طريق لغة اللمس، ويضع في عمله نغما حاراً أو نغما بارداً، لونا ثقيلاً أو مفرغاً، خطأ مستقيماً أو غير مستقيم، (٤٠).

وهكذا نرى أن اليد لا تسلك سلوكها إزاء الفكر، وهى عبد سلى بحسب، بل إنها لا تعتبر شيئاً دونه، كما أنه — أى العقل — لا يعتبر شيئاً دونها؛ وكلاهما معا يشكل فريقاً واحداً، أو بالأصح عاملاً وحيداً هو فى نفس الوقت إدراك وتنفيذ. وهكذا يصح من غير الصحيح وضع العقل الذى يوجه الفكرة، واليد التى تطيع التفكير موضع التعارض؛ إذ أن الحقيقة هى أن اليد تتمتع بذكاء وحساسية وإلهام... ويقال عن بعض المختصين فى الأعمال الدقيقة أو عن بعض الناس الذين يتمتعون بمهارة ما إن تفكيرهم موجود على أطراف أصابعهم. وهذا هو الشأن بالنسبة للفنان تماماً: إن تفكيره موجود عن أطراف أصابعه، بل فى أصابعه. بهذا تصبح للأيدى قدرة شاعرية وفصاحة بكل ما فى هذين التعبيرين من معنى. وإذا حرمت من هاتين الصفتين أصبح التنفيذ الفنى غثاء وهنا نرى اللوحة وقد تم تكوينها تكويناً متكاملًا، لا يلاحظ الرأى فيها شيئاً ينافى الأصول الفنية أو أى خطأ، لكنها — أى اللوحة — لن تعيش، ولن تنبعث منها الأنعام. ولقد عرف ديلاكروا هذه الحقيقة، حين حذر من أخطار «سرعة حركة اليد، أو أشاد من جهة أخرى بالجاذبية التى تضفيها الأيدى على الرسم» (٤١).

وكان فرومنتان يعرف هذه الحقيقة حين كتب لنا عن رومانس صفحة تبين فى وضوح جميل ما نقول: «هذه «قاشة» لوحة ناعمة، نظيفة بيضاء، تعمل عليها يد على درجة عظيمة من الخفة والحكمة والحساسية والاتزان، والذى يتصوره البعض حدة أو استشاطه هو فى الواقع طريقة تشعر بها

اليد ، لا فوضى في طريقة التصوير . فالفرشاة هادئة بنفس قدر الحرارة التي تنصف بها الروح، ويقدر استعداد العقل للانطلاق . وهناك في مثل هذا التنظيم تناسق دقيق وعلاقات تتم في سرعة بين الرؤية والحساسية واليد بحيث تطيع كلاهما الأخرى طاعة كاملة لدرجة قد نعتقد معها أن قفزات العقل التي توجه العمل تؤدي إلى قفزات تقوم بها أداة التنفيذ . لكن مامن شيء أشد خداعاً من هذه الحمى الظاهرية التي يسيطر عليها في الحقيقة حساب عميق، ويخدمها تركيب عقلي دربته التجارب . . بحيث لا نعرف من أين تأتي هذه الجرأة وفي أي لحظة يحدد الفنان ويندفع . . . لكن هناك تأملاً هادئاً يعرف نفسه ويتحكم دائماً في النتائج التي دائماً ما تظهر فجأة ، (*) .

وفي هذا التعاون بين العقل واليد ، لا يعتبر دور اليد دائماً أقل أهمية . « فالفكر يدرب اليد كما أن اليد تدرب الفكر » (٤٢) وهي التي تقوم حياله بالمهمة التعليمية وتنقل إليه — إن صح التعبير — خبرتها الخاصة بها التي حصلتها بفضل اتصالها بالمادة التي تعرف أحسن مما تعرف غيرها مما تأتف منه وماتحبه وما تختص به من خصائص ولذا فلن يكون من العجيب أن تسبق العقل أحياناً وتفتح له آفاقاً جديدة وتقدم له الأفكار وتأخذ على عاتقها كل ما يفيد هو منه، كما لو كانت تسير توجيهاً في سيرها حاسة غامضة أو غريزة خاصة، إذ أنها هي التي تبحث وتجتهد من أجله وتسلك طريقها من خلال مختلف الأخطار ، تجرب حظها . نعم ، في هذه اللحظات ذات العناية الإلهية، « تبدو اليد كما

(*) انظر كتاب « سادة العصور الماضية » تأليف نيلسون ص ٦١ — ٦٣ . ريلاحظ أن فروممنان قد راح اليوم في طي النسيان . وهو مصور يتميز بأنه يتحدث عن الشيء الذي يعلمه ، ولقد كان في هذا مفكراً باعثاً . وقد كتب عنه دي كرولوبيه في كتابه « أجل ما كتبه كبار الفنانين » (ص ٢٤٨) يقول : « لم يسبق لأحد مثله أن جمع بين الحديث عن التنفيذ الفني وعن العاطفة ، كما لم يسبق لأحد مثله أن قام بتحليل لوحة بحيث ذهب مثله إلى الأساس في التحليل ، وكما لم يسبق لغيره أن مكن الهواة العاديين من إدراك السر المادي والروحي للمهنة .

لو كانت تقفز في حرية وتنعم بمهارتها لتستغل منابع العلم العميق ومصادر الإلهام غير المنتظر وهي واثقة بنفسها كل الثقة ، بعيدة عن مجال العقل كل الابتعاد (٤٣) .

وتقدم لنا السينما منذ فترة ، طريقة ملاحظة هذه الأعمال المدهشة التي يقوم بها كل من العقل واليد عند أحد كبار الفنانين . اذهب لترى الفيلم الذي يصور بيكاسو خلال العمل (٤٤) وسوف تجد نفسك كما لو كنت تلعب دور الفنان الماهر ، وتحذر من أن تغرر بك المناظر التي تعرض في سرعة كبيرة تزيد على سرعة رسم اللوحة ، وتنتهي إلى أن عدداً معيناً من الصور لا يكفي لتوضيح سر الشخصية الفنانة ، أوسر الإبداع الفني ذاته . ومهما يكن الأمر فإن المنظر في ذاته خارق للعادة ، لأن اليد العاملة بسرهما تظهر كما لو كانت تجري من نفسها وحدها ، وكما لو كانت يداً سحرية . إنها سريعة في حركاتها تقودها النزوة ، لكنها واثقة بنفسها تسير لتحدد المجال الأبيض من اللوحة لدرجة قد نعتقد أحياناً أن العقل لا يتبعها إلا بصعوبة وألم ، ولكنه سرعان ما يلحق بها ليندفع بدوره في الطريق المحدد . وقد يحدث العكس حين ينطلق عنانه ويكتشف طريقاً آخر ويرغم اليد على حل ما عقدته إلى أن تتخذ سبيلها وتجرح خلفها من جديد في سباقها الشيطاني رقيقاً لتسير معه ، بعد أن تكون قد بهرت وأيقظته معها . إنه حديث لا ينقطع ، ذلك الذي يجري بينهما وكله حياة ومفاجآت عديدة تنقطع لتعود دون أن تتوقعها ، وتنبثق عنها نيران صواريخ تشكل الأشكال التي تتطور لتبهر أبصارنا .

غير أن الفنانين لا يتمتعون دائماً بأيدي تتصف بهذه اليقظة وذلك الخصب ، إذ يحدث كذلك أن يمسك العقل بقياد الأيدي خوفاً من أن تجرفها جراتها فتقضي على تلقائيته وحرية . هكذا كانت الحال عندو . بلاك ، حيث يلاحظ فيسون « أن هذا المصور تغلب عليه الرؤية التي يقصها أغلب الوقت على هيئة أشكال معدة سلفاً ويسردها في أسلوب عصره الرديء ليقدم أبطالا

بؤساء رسمت عضلات سيقانهم وصدورهم في عناية . . . لأن عصره كان يحب الجمال الأمثل والطريقة الأرستقراطية التي تقود مثاليته العميقة . وهكذا نرى محضرى الأرواح والمصورين في يوم الأحد وقد سادهم احترام الروح الأكاديمية القبيحة . وعلى كل فن طبيعي أن يكون الأمر هكذا ، فالنفس عندهم تقتل الفكر وتبعث الشلل إلى اليد ، (٤٥) .

وإذا كان عاجز الصلصال يعالج المادة بيديه العاريتين ، فالفنان يستخدم عادة أدوات معينة ، ولهذا أهميته . فما دام إبداع العمل الفني يطابق تنفيذ ، فإن الأدوات التي تحدد التنفيذ هي التي تحدد الإبداع نفسه . وبذلك لن تصبح طبيعة هذه الأدوات دون تأثير في هذا الشيء . وبالاختصار فإن نفس العلاقة التي تربط بين الشكل والمادة ، وبين الإلهام والوسيلة التنفيذية وبين إقدام العقل وتقدم اليد ، هذه العلاقة هي التي تخضع عمل الفنان للآلات التي يختارها أو التي تفرضها عليه حالة الحضارة القائمة .

وفهم المثالون والمصورون والنقاشون والرسامون هذه الحقيقة تماما ، فهم جميعا يرون في نفوسهم خداما مطيعين ورفقاء كل يوم وأصدقاء مخلصين لفرشاتهم ومقصاتهم ومناحتهم ومحافهم ، فيولونها عنايتهم القصوى ، ولا يسمح أبدا لغيرهم بتنظيفها أو شحذها ، ويختارونها من بين الآلاف من نوعها ، بل ويصنعونها بأنفسهم أحيانا ويتأنقون غالبا في تحسينها ، وهم إذ يفعلون هذا تجددهم يعرفون أن هناك صلة حيوية بين موهبتهم وآلامهم وأسلوبهم من جهة ، والأدوات التي يستخدمونها من جهة أخرى ، وهم يعلمون أن تغيير الأداة معناه تغيير الطريقة . وقد نتساءل : عم يتحدث الفنانون فيما بينهم . . عن الفن ؟ . . . عن الجمال ؟ . . . أم عن النظرية أو عن المذهب . . . ؟ إطلاقا ولا بد في هذا أن نصدق أن أحد القصاصين وقد تخيل مقابلة بين نحات شهير وسيدة شابة تصبو إلى تعلم فن النحت ، وظل النحات يحذثها لمدة ساعتين عن الأدوات (٤٦) .

واليد لا تعارض الفكر، كما أن الفكر لا يعارض اليد، بل إنه يدعوها للتقدم لدرجة يظهر معها وقد أصبح مثلها يتصف بالموهبة والحاسية والدقة والذكاء. فالفرشاة الجارفة، والفرشاة الصغيرة الدقيقة، والريشة اليقظة، والمحفر الرشيق، والقلم المدقق... كل هذه ليست كلمات غاوية المعنى، أو استعارات فحسب؛ إذ أنه منذ اليوم الذى أخذ الرجل البدائي في صنع مديّة الحجارة الأولى، «ظهرت صداقة لن تكون لها نهاية بين اليد والأداة، توصل إحداها للآخرى حرارة حية وتشذ بها دائماً أبداً. والأداة الجديدة ليست «مدرّبة» بعد، بل يجب أن ينشأ بينها وبين الأصابع التي تمسك بها هذا الاتفاق الذي يتولد من امتلاك إحداها للآخرى تدريجياً، ومن الحركات الخفيفة المترابطة، ومن العادات الطبيعية، بل ومن شيء من البلى الذي يصيب الآلة نتيجة لاستخدامها. وهنا تصبح الأداة الجامدة شيئاً حياً، لأن الاتصال والاستعمال يضيفان على الشيء الذي لا حياة له روحاً إنسانية، (٤٧) . . إن هذا الشيء الذي صنع ضمن آلاف عديدة مثله ينطبع بصورة الرجل الذي يستخدمه ويصبح له طابع شخصيته.

ومهما تكن مرونة الأداة في اليد التي صنعت من أجلها. فإنها تفرض شروطها على العمل الذي ينوى الفنان تحقيقه، و«حتى شكلها يحدد كيفية استخدامها مقدماً، وينبئ بمستقبل العمل الفني الذي سوف يتم». قارن مثلاً بين نقش المحفر ونقش بحمض الأزوت، تجد أن المواد في كليهما قد تغيرت «لدرجة أن نفس الخط المنقوش بالمحفر والحمض يتشكلان بشكلين مختلفين في ذاتهما. لكن يلاحظ أيضاً أن الأداة قد تغيرت هي الأخرى بحيث يصبح النقش بالحمض عبارة عن «نقط». تم نقشها بسن الأداة وقد أمسك الفنان بها كما يمسك بالقلم الرصاص، في حين أن ساق المحفر المصنوعة من الصلب تسير مدفوعة من الخلف إلى الأمام بحركة من معصم الفنان، لأنها - أى ساق المحفر - ذات رأس يشبه رأس المنشور بعد شطفه، (٤٨) . وبهذا يصبح من المستحيل أن نحقق بالمحفر ما يحققه حمض

الآزوت . كما أن من غير الممكن تصوير نفس الشيء بالفرشاة الكبيرة وبالفرشاة الصغيرة وبالإسفنجة وبمطواة الحفر وبقطعة الخيزران . والفرق في النتائج يأتي في الجزء الأكبر منه ، من اختلاف الأدوات المستخدمة .

واستخدام المادة بمساعدة الأداة هو الذي يوجهنا نحو ما يسمى في فن التصوير « اللمسة » . وهذه الحقيقة يمكن تطبيقها على فنون أخرى ، وبالذات على فن النحت ، وهي — أي الحقيقة — تستحق الانتباه على أية حال ، لأنها تقع تماما عند « نقطة التقابل » بين الفكر واليد والأداة والمادة . وهي بمثابة نقطة التقابل الهندسي لنشاطها جميعا . ففي اللوحة المصورة بالألوان لا تعتمد القيمة واللون على خصائص وعلاقات العناصر التي تكونها فحسب ، بل إنها تعتمد كذلك على الطريقة التي وضعت بها ، أي باللمسات . ومن هنا كان الفرق بين فن التصوير والدهان العادي بالألوان غير متجانسة ، أو الفرق بين لوحة فنية وباب مخزن للحبوب . لهذا كانت اللمسة هي الشيء الذي يسمح لليد بتوصيل حياة الفكر إلى الموضوع عن طريق الأداة ، وبفضل اللمسة تهتز اللوحة أحيانا ، وأحيانا أخرى تسطح ، وأحيانا تالفة تظهر كما لو كانت قد رسمت بخميرة غامضة . واللمسة هي التي تعطي القوة الجارفة للوحات فرانز هالس ، وروح المرح للوحات روبنس ، وعصبية المزاج ومرونته للوحات فراجونار ، ووضوح الفكر للوحات لوتريك ، وروح الهذيان في لوحات فان جوخ ، والمرح في لوحات دوفى . ولا شك أن هناك من المصورين من يفضلون محو آثار أيديهم ، ومع ذلك فإن « أشد أنواع التنفيذ هدوءاً وأشدّها تماسكا يكشف عن اللمسة باعتبارها دليل الاتصال الأكيد بين الفنان وموضوع الفن . . وبصفتها الدليل الذي لا يخطئ . . . وحتى لدى قدامى الفنانين الذين كانوا يعملون بمواد مصقولة

كالحقيق ، تجدها وقد بعثت الحياة على سطح أعمالهم الفنية ، حتى في أدق دقائقها ، (٤٩) .

إن الآراء التي ذكرناها آنفا تتعلق أساسا بالفنون التشكيلية ؛ ونقصدها بها تلك الفنون التي تتطلب مادة يسهل تشكيلها . وتنطبق هذه الآراء بدرجة لا تقل كثيراً على فنون النغم والكلام مع ضرورة تغيير ما يجب تغييره ، بمعنى أن سلطان الأيدي يمتد إلى مجالي الشعر والموسيقى ، عن طريق التجانس على الأقل . ألا نرى الشاعر والموسيقى يقسمان موسيقية الجملة حين يجرّيان تركيبها ، أو يرسمان أجزاء الميلوديا حين يجرّيان تأليفها ، ويقومان بوزن قيمة الكلمات كلمة كلمة ؟ ألم يحدث أن أصاب الأدب ثورة كاملة عندما انتقل من الشفاه إلى الكتابة ؟ أي عندما استخدم الأداة الخاصة به ؟ ألم يكن بفضل هذه الأداة ان انتهى التطويل وتقريبية الارتجال ، وأن ظهرت الرغبة في إضفاء صفة الاكتمال الشكلي والتنوع والكثافة وما إلى ذلك من وسائل تفيد من حيث إرضاء الذاكرة ؟ . واليوم نرى أن من الضروري أن يستخدم الأديب ريشة ودواة المداد والآلة السكتة أو مسجل الصوت . ولعل أسلوب « النقش على الأحجار ، يتصف بالدقة بفضل الصعوبة في نقش الحروف على الحجر . ولعل التطويل الذي يتصف بالإهمال الذي تراه في بعض نصوص اليوم يرجع — على العكس من ذلك — إلى أن هذه النصوص قد أملت أول الأمر فحسب .

الفنانه والصانع

إن الذوق في اختيار المادة ، وتعود اختيارها وتجهيزها ومدى معرفة كل هذا من أجل التنفيذ ، أي الناحية اليدوية من النشاط الفني ، كل ذلك يؤدي إلى تقريب الفنان من الصانع . والواقع أنهما يشتركان في نواح كثيرة ، لكننا نتساءل : هل يصبح الأمر بهذه الدرجة من السهولة من حيث

تحديد النقطة التي ينتهي عندها عمل صاحب الحرفة والنقطة التي يبدأ فيها عمل الفنان ؟ أليست هناك من فنية ، ومعها فنون تسيطر عليها اعتبارات حرفية ؟ فلنحاول مع ذلك أن نحدد عمل صاحب الحرفة وعمل الفنان ؟ كل في إطار ممارسة الفنون الجميلة . . وأن نرسم بينها خطاً فاصلاً .

إن الفنون من وجهة نظر معينة من ككل المهن . فسواء أكان الأمر صنع مائدة أم رسم لوحة ، وسواء أكان عبارة عن صنع مزلاج باب أم كتابة قصيدة ، صناعة عربية أم تأليف سيمفونية ، لا بد أن يعرف القائم بالعمل كيف يعمل ، وكيف يعمل بعقله ويديه . . وبالاختصار لا بد له أن يكون على علم بمهنته . ولنذكر أن فناني العصور القديمة لم يكونوا يدعون في أغلب الأحيان شيئاً أكثر من أنهم عمال مهرة . فقد كانوا يقومون بأنفسهم بطحن الألوان وإعداد دهان التليص ورفع أعمدة الأبنية التي يقومون بإنشائها . ولم يكن المصور الفنان في العصور الوسطى يختلف عن صانع سروج الخيل ، لأن زخرفة السروج أو المقاعد كانت أول الأمر أكثر أجزاء فن التصوير ربحاً . ولقد كان المصور يكلف بزخرفة مقعد المذبح لكنيسة ما ، بحيث يكون هذا المقعد ذا شكل معين وأحجام معينة ومقدمة معينة ، وأحياناً ذا تفاصيل على أكبر جانب من الدقة . وكان عليه أن يقبل تلك الشروط كما يفعل حائك الملابس حين يأخذ مقاييس الملبس . ولقد كان لهذا الخلط الشديد بين الفن والمهنة معايير خطيرة ، وبخاصة أن تنظيمات العمال والتعليمات الجامدة التي كانت تفرضها ، وتقسيات العمل المبالغ فيها والتي كانت تخضع العمال لها . . . كل هذا ساعد على الإبقاء على التقليد وعلى وضع العقبات في سبيل القدرة الخاصة والتقدم الفني . وعلى ذلك فنحن لا نستطيع أن ننسى كل ما فقدته الفن حين كان الفنانون يحتقرون الأعمال المادية ويرفضون أن يكونوا صناعاً بحجة تميزهم بالروحانية .

ومادام الفن مهنة ، فهو شيء يحتاج إلى التعلم . فكون الإنسان مثالا .
 أو فنان بناء ، أو رساما ، أو صانع أوسمة ، أو أستاذ فرقة راقصة ، شيء .
 لا يمكن ارتجاله . فالتلذة أمر ضرورى كما هى الحال بالنسبة للسباك وطبيب
 الأسنان والساعاتى . وصحيح أن القدرات الخاصة لممارسة الفن تسهل عملية
 تفهم اوسائل الفنية للتنفيذ وتساعد على ممارستها فى سرعة كبيرة جدا كما
 هو الشأن عند رافائيل وموزار ، لكن لا يمنع هذا من ضرورة استيعابها
 حتى ولو كما يفعل الشخص الذى يعلم نفسه بنفسه دون دراسة مدرسية
 منتظمة . ولا يمكن أن يستغنى الإنسان عن التعلم والاستيعاب مهما تكن
 مواهبه خارقة للعادة ، ومهما يكن إيمانه بمهنته أو فنه قويا . ويلاحظ
 الفنان ديجا فى سخرية : « أننا جميعا عباقر فى هذه الأيام ، هذا أمر مفهوم
 ولكن المؤكد أننا لا نعرف كيف نرسم يدا ، وأنا نجعل كل شيء عن
 مهنتنا ، ولقد تمكن القدامى من تملك هذه المادة المدهشة والألوان الواضحة
 التى نبحت اليوم بلا جدوى عن سرها لأنهم كانوا يعرفون مهنتهم جيدا ؟
 وكم أخاف من ألا تكون النظريات الحديثة قادرة على كشف هذا
 السر ، (٥٠) .

ويعبر المثال رودان عن رأيه فى هذا بما يشبه ذلك الكلام تقرىبا فيقول:
 « ما الفن إلا عاطفة ، لكن أشد العواطف حيوية يصاب بالشلل إذا لم يكن
 صاحبه عالما بشئون الأحجام والنسب والألوان ، ودون مهارة فى الأيدى .
 ماذا يمكن أن يكون عليه أعظم الشعراء فى بلد أجنبى يجهل لغته ؟ هناك فى
 الجيل الجديد للفنانين عدد من الشعراء الذين يرفضون تعلم الكلام للأسف
 ولذا فهم لا يفعلون شيئا إلا التمتة ! ، (٥١) . لكن « الجيل الجديد » عرف
 كيف يثبت كيانه ووجوده رغم هجوم رودان وديجا عليه ، وليست هذه
 هى المرة الأولى التى يعيب فيها « القدامى » على « الشبان » جهلهم بأسرار
 المهنة ، لأنهم لا يصورون ولا يرسمون أو ينحتون مثلهم . ومع ذلك فإنه

يحسن بنا أن نصغى إلى هذه القصة ، حيث يحق للأستاذ المسن أن يتحدث .
« نعم .. إن الفن دين ، لكن يجدر بنا أن نتذكر أن أولى الوصايا التي يقدمها
هذا الدين لأولئك الذين يريدون اعتناقه هو أن يعرفوا كيف يصاغ شكل
الذراع أو الخصر أو الساق ، (٥٢) .

واكتساب المهنة أطول زمنا وأشد قسوة حين يكون الفنان هو المنفذ
الذى يتعين عليه معرفة كل شيء عنها والتمتع بمهارة يدوية عالية . وينطبق
هذا بلا شك على المصور والمثالك والموسيقى الهاوى سواء بسواء . ويكتب
هنا ديلاكروا فيقول : « إن فن التصوير أصعب الفنون وأطولها تعلما ،
إذ لا بد لمعرفة من التبحر فيه قدر تبحر مؤلف الموسيقى في علمه ، ومن
القدرة على التنفيذ قدر عبقرية الموسيقى على عزف الكمان ، (٥٣) .

ويوحى هذا الشرط المزدوج لمؤلف مسرحية سردانا بال (بايرون)
بأفكار واضحة لا نستطيع أن نرجعها إلى سوء صحته فحسب ، حيث يقول
« يا للخسارة .. إن الخبرة لا تأتى إلا عندما تبدأ الصحة في الانهيار .
بالسخرية الطبيعية وقسوتها .. إن الموهبة لا تأتى إلا في نهاية الزمن حين
يكون البحث قد أنك القوة الضرورية لتنفيذ العمل الفنى ، (٥٤) .

فالوهبة شيء لا يمكن الحصول عليه إلا بالدرس وبتحصيل طويل الأمد .
هذا هو أحد الأسباب التي لا يوجد من أجلها فن أطفال بالمعنى الصحيح .
أوفنانو أطفال ، لكن ليس معنى هذا أنه لا يوجد لدى الأطفال شيء
يعبرون عنه ، بل إن مشاعرهم تنطوى على يقظة وحيوية وعمق غالبا مالا
يوجد لدى البالغين . وليس معنى هذا أيضا أن الحساسية الجمالية غير موجودة
لهم ، بل إنهم يتمتعون حيانا بنذوق واضح في الألوان وجمال الأشكال
وسحر الألفاظ . ومن هنا كان ما في محاولتهم في التصوير والرسم والشعر
من مفاجآت عذبة تجذبنا إليهم بقوة .

ومع ذلك فلا بد أن نكرر أن لقطة ، أو عشر لقطات نادرة لا يمكن أن تكون قصيدة أو لوحة . ففن الشاعر يبدأ منذ اللحظة التي يعيد فيها كتابة قصيدته ليصحح بيتا زاد عدد مقاطعه أو قل واحداً أو أكثر ، الأمر الذي يضطره إلى إعادة صياغة ماسبقه أو مانعه من الأبيات ، إن لم تكن القصيدة كلها . وهكذا فن المصور ، فهو يبدأ عندما يشعر بالحاجة إلى ملء فراغ أو محو لون أو إعادة خط إلى استقامته ، إذا ما رأى على سطح اللوحة أن عليه أن يملأ هذا الفراغ أو يمحو ذاك اللون أو يعيد الخط المعوج إلى استقامته ، الأمر الذي قد يضطره إلى تعديل اللوحة كلها . أما الطفل ، فليست لديه أية فكرة عن مثل هذا العمل ، وكل ما ينتجه تقريبا من قبيل الدفعة الأولى فحسب ، لأنه يجمل جهلا يكاد يكون كاملا ضرورة العود إلى ما قام بعمله بقصد التصويب والتعديل لتحقيق الغرض منهما . ويرجع عدم قدرته هذه إلى انعدام الناحية العملية والمهارة التنفيذية اللتين تتصف بهما مهنة الفنان . ولقد كتب كونستابل يقول : « لم يحدث أن كان هناك أطفال مصورون ، ولا يمكن أن يكون ذلك ؛ لأن فن التصوير يتطلب خبرة ودراسة طويلتين . وباعتباره فنا يدويا وعقليا في آن واحد ، (٥٥) . ومع هذا فنحن نستطيع أن نؤكد أيضاً أنه لا يوجد أطفال شعراء . إذا أخذنا في اعتبارنا أن الشاعر ليس فردا يتمتع بحالات نفسية « شاعرية » فحسب ، بل إنه كذلك وبالضرورة عامل يصنع أبيات الشعر .

ولنوفر على أنفسنا هنا جهد التحدث في مهزلة مقارنة الطفل بالمصابين بأمراض عقلية ، ولو أن هناك ذاتية لاشعورية لدى كل من الأطفال والمصابين بأمراض عقلية ، وفي إطار هذا القياس يمكن القول بأن النشاط الفني للأطفال محدود بنفس الحدود التي زاماها عند المجانين . ويقول مالرو في هذا المجال : « إنه إذا كان الطفل في غالب الأحيان يتصف ببعض الصفات الفنية فهو ليس بفنان ؛ إذ أن موهبته تملكه ولكنه لا يملكها

هو ، بمعنى أنه يحل المعجزة العابرة محل السيطرة الفنية المتكاملة ، وما هي إلا معجزة يسهل ظهورها : لأن الرسم الذي يرسمه لا يتجه نحو الرائي إلا بدرجة جزئية ، والطفل الذي يرسم لنفسه لا يحاول أن يفرض نفسه ، فهو مقدما خارج عن إطار الخلود الفني إذا كان حكما على رسومه ومصورانه يدخل في هذا الإطار نفسه . ويعرف كل منا أن الانتقال من مجموعة رسوم قام بها الأطفال إلى مجموعة يمكن عرضها في معرض أو متحف ، معناه العدول عن التخلي عن الناس ومحاولة جذب العالم إلى فن معين . وهنا نشعر في الحال إلى أي مدى في هذا المجال وفي غيره يختلط تملك صفة الرجولة بتملك قوة السيطرة ... إن الإغراء الذي تجذبنا به أعمال الأطفال إغراء حي ، لأن العالم يفقد وزنه في أحسنها ، كما يفقده في الفن ذاته . لكن الطفل بالنسبة للفنان يعادل شخصية « كيم » ، غازی المدن في الأحلام بالنسبة لتيমور : لأن امبراطورية الطفل تختفي حالما يستيقظ القاريء « كيم » ... بمعنى أنه عندما يقابل الطفل مقاومة الواقع يذوب تعبيره في عدم المسؤولية التي يتصف بها . والجاذبية التي تتمتع بها صور الأطفال تأتي من كونها بعيدة عن الإرادة ، وإذا ما ظهرت هذه الإرادة كانت كالمطفلة ، تقضي على هذه الصور ، ونحن نستطيع أن نتوقع من صور الأطفال كل شيء عدا الشعور والسيطرة الفنية ، والفرق بين هذه الصور وفن التصوير الحقيقي يعادل الفرق بين استعاراتهم اللفظية البسيطة وأفكار بود لير ، بمعنى أن فنه يموت مع انتهاء طفولتهم ، (٥٦) .

هذا ويلاحظ أن الفنون الجميلة التي تتطلب مهارة يدوية أكثر من غيرها — وقد سبق أن تحدثنا عن هذا — تعطى دوراً أوسع نطاقاً للمهنة غير أن العمل الفني يكتسب جمالا خاصا في هذا النوع من الفنون حيث لانستطيع أن نعرف في أي جزء منه وضع يده في معجون الألوان أكثر من غيره. ذلك أن الأيدي — كما نعلم — هي الدليل الذي يشير إلى الشخص

ذاته ، فهي التي تطبع على الشئ . طابع عواطفه وعبقريته ومهارته وعمله الدائب . من هنا نفهم السبب الذى تؤثر فينا من أجله البساطة أكثر مما تؤثر العبقرية المدققة والجهد ، فى حين أن السكال الذى نحصل عليه عن طريق الآلات لا يؤثر فينا . ومن هنا أيضاً بنفس الطريقة تلك الجاذبية التى تمارسها علينا الفنون « الساذجة » و « البربرية » و « الشعبية » ، وكلها فنون حرفية تحمل آثار الأيدى .

ولقد أبدى « راسكين » اعترازه بهذه الحقيقة ، فهو يقول : إنه فيما عدا جمال الشكل فى العمل الفنى ، فإن هذا العمل جميل جذاب ترجع جاذبيته إلى « الشعور بالعمل البشرى ويبدل الجهد الذى تكلفه » . و « تخضع جاذبيته الحقيقية إلى أننا نكشف فيه الأفكار والنوايا والمحن وفقدان الشجاعة والانتصارات والسعادة الناجمة عن نجاح الفنان » . أما النجاح الذى نصيبه بسهولة من خلال استخدام مواد سهلة التشكيل ، إنما هو نجاح لا يؤثر فينا إلا كذباً . ولا بد إذاً أن تكون المواد مستعصية حتى نخرج عملاً جميلاً . ولا يعنى هذا مثلاً أن الجص فى ذاته أقل كفاءة من الرخام ، بل يعنى ذلك أن « ليست المادة التى ترفع عن العمل قيمته كلها ، بل الذى يبعدها عنه هو عدم وجود العمل البشرى » (٥٧) . وينتج عن هذا أن فكرة الفن الصناعى فى ذاتها تنطوى على تناقض ، فمنتجات الصناعة لا يمكن أن تكون جميلة ما دام القلب والإرادة واليد البشرية مستبعدة فرضاً ، وأقل قدر من المعنى الجمالى يمكن أن يقنعنا بشدة .. فأى فنان لا يعطى لعامل حرفة قروى كل النقود التى لديه من أجل صندوق تبغ نحتته هذا العامل ، ولا يعطى هذا النقود لصانع قنطرة إسكندر الثالث ؟

ورغم أن « آلان » يختلف فى آرائه عن راسكين ، نجده يتغنى بنفس الأغنية فيقول : « إن آثار الأداة هى التى توضح الزخرفة ، فى حين أن الفكر يكاد يكون سجين أعماله الآلية » (٥٨) ، والعمل الفنى جميل بفضل

الطاقة التي يختزنها، إن صح هذا التعبير. وهكذا كلما ازدادت المادة صلابة ومقاومة، كان العمل الفني الذي استخدمها جميلاً. فالحديد الزخرفي غالباً ما يكون جميلاً لأن الفنان الذي صنعه، وهو في نفس الوقت عامل حر في قد استخدم تفكيره وهو يصنعه، وتدلل على هذا آثار المطرقة. وعلى عكس ذلك نجد أن الحديد المصهور في قالب قبيح، لأن المادة المستخدمة فيه قد صبت في القالب في حالة عدم المبالاة، الأمر الذي يجعل شكلها مستعاراً (من القالب)، والجص قبيح كذلك، لأنه يتشكل بكل الأشكال. وأجمل الأشكال — كما نعرف — يفقد كثيراً من قيمته إن كانت المادة المستخدمة طوع الإرادة. ومن باب أولى لا بد لنا أن نقرر أن كل ماهو تقليد لشيء أصيل، كالخشب أو الحديد أو الجص حين تقلد الحجارة، لا يساعد على اختراع أشكال جميلة، ولهذا كان معرض الفنون الزخرفية قبيح الشكل... ولن تصبح له قيمة إلا بفضل المعروضات الحقيقية التي استخدمت فيها مواد حقيقية، مثل مقعد من خشب صلب أو سجادة أو صحن مزخرف أو قطعة من عاج منحوتة أو جوهرة مصقولة، (٥٩).

هذه الحقائق مؤكدة جداً لدرجة يحسن معها في رأينا أن نتجنب الخطر الذي ينجم عنها إن نحن دفعنا بها لدرجة المبالغة أو طبقناها بلا تمييز، لأنه — كما سبق أن قلنا — لا يجوز اعتبار العمل في إجماله أساساً نهائياً للحكم، فقد يكون هناك عمل فني منعدم القيمة رغم الطاقة التي تكون متراكمة فيه والجهود التي تكلفها. ومن ناحية أخرى، لا ينبغي أن يكون العمل الناجح حقاً موضحاً للجهد أو العرق الذي تصبب في صنعه. فالفن هو المقدرة على إخفاء الفن، كما يقول جويير. فعليك إذاً أن تستخدم المبرد لصقل الشيء، لكن عليك أيضاً محو آثار هذا المبرد، وعلى الأقل ترك مايجب تركه من هذه الآثار... وكل شيء في هذا على جانب من الدقة والتباين والاختلاف. فلماذا مثلاً نحترق المواد اللينة؟ ألا توجد من

أنواع الطين المجفف بالنار أو المعجونات المطاطة ما يفوق الحجارة والرخام ؟ إن استبعاد كل المواد المقلدة معناه الخلط بين الفن وعلم الأخلاق ، إذ أين ينتهى خداع البصر المشروع ، وأين يبدأ الكذب الفنى ؛ إن نحن فرضنا أن لهذا التعبير الأخير معنى ؟ ... أيمكن امتداح الزجاج المصبوب فى قوالب آلية أكثر من الأسمنت المسلح الذى يصب بالآلة ثم يستخلص من القالب ، لابد لكى تنتهى من هذه النقطة أن نلاحظ أن آلان يميل إلى الشعور بالقوة أكثر من ميله للرشاقة الفنية . إن هذا من حقه ، لكن من حقنا أيضا أن نذكر القارىء أن المجالات فى جنة الفن متعددة .

عندما يقول مصور ما عن لوحة ما : « هذه هى أصول المهنة » ، فإنه يريد أن يقول : « ليس هذا بفن » ، لكن الواقع أن الفن أحسن من المهنة بكثير ، كما أن الفنان أكثر من صاحب الحرفة بكثير . والذى يميز أحدهما عن الآخر قبل كل شيء هو — على ما يلوح — أن صاحب الحرفة ينقل نموذجا ، فى حين أن الفنان يخترع شكلا . ومرة أخرى نقول إن هذا الشكل لا ينبثق عن العقل منذ اللحظة الأولى ، بل إنه يظهر عندما يتلامس والمادة ويتضح تدريجيا مع عملية التنفيذ . أما العامل فهو لا يهتم بمثل هذا البحث وتلك التحسسات ، وذلك العمل الجاد المتواصل . فهو يتلقى مقدما تصميم المنزل أو رسم قطعة أساس أو صورة تفصيلية لثال ما ، وعليه أن ينفذ ذلك التصميم أو هذا الرسم كما هو بكل دقة ممكنة ، ولا يتعين عليه حتى إذا استطاع ذلك ، أن يقدم من نفسه للبادة ما تتطلبه منه ، وإن هو فعل هذا لذهبت عنه صفة صاحب الحرفة . وكلما سبقت الفكرة التنفيذ أو نظمته كان الأمر أمر صناعة لا فن ، (٦٠) . مثال ذلك إذا أخذنا نموذجا لمنظر صلب المسيح أمكننا إنتاجه من الخشب ومن الحديد ومن البرنز والجص والحجارة . ولا شك فى أن هذه المهنة مفيدة ومشرقة للغاية ، لكنها ليست على أية علاقة بالفن . وعلى عكس ذلك ، كما قلنا ، يستطيع عامل صاحب حرفة ، مهما تكن بساطته ، أن يقوم بعمل فنان ، إن أوحى إليه الموضوع

خلال عملية التنفيذ بشكل جديد ، حتى ولو كان هذا الشكل معبراً عنه في جزء تفصيلي في الزخرفة ... فكم هناك من فنانين حقيقيين لم يقوموا في حياتهم إلا بزخرفة زوج من « قباقيب ، خشبية ...

وهناك فرق آخر يتلخص في أن الصانع يستخدم وسائل تنفيذية محفوظة مقدماً ، في حين أن الفنان — على عكس ذلك — يخترع وسائله الخاصة به ، وهو قادر على تحسين طريقته في العمل وعلى تعديلها وتكييفها ، ولكنه لا يفعل ذلك إلا في حدود محدودة نسبياً ، ويقصد عمله ، لاجماله بوجه خاص ، لأنه يرمى إلى الفعالية لا إلى الجمال . والفنان من جهته يندمج في طريقته التنفيذية الخاصة به ، وهو يفيد دائماً من معرفة « خبايا » والتفاصيل المهنية وغوامضها . ومع ذلك فهذه الطرق التنفيذية العادية التي يجرى تعلمها لا يفتأ أن يتعدها ، وهو في هذا يخاطر أحياناً بفنه ، قاصداً إلى اختراع الجديد منها ، الذي يصبح ملكاً له وحده . والواقع أنه لا بد لنا أن نفهم أن الطريقة التنفيذية في الفن ليست وسيلة دون علاقة بالهدف المنشود . فما يقوله الموسيقي والمصور والشاعر هو بعينه طريقته في القول . من وجهة النظر هذه تتطابق الطريقة الفنية لكل منهم بشخصيته ، لهذا كانت البحوث الفنية في نظرهم ذات أهمية كبرى ، وهي ليست عوامل مساعدة لتحقيق العمل الفني ، بل هي الفن بعينه ، باعتبار الفن لغة وطريقة للتعبير . ومن هنا نفهم أن الإبداع الفني شيء يختلف تماماً عن استغلال المهوبة المتصلة بالممارسة استغلالاً فحسب ، كما هي الحال بخصوص ممارسة المهنة عند العامل الحر في .

هذا صحيح ، بمعنى أن كل عمل فني جديد عبارة عن تكييف جديد لجميع الوسائل التنفيذية ، بالنسبة لفنان لا يقنع أبداً بما نفذه ، إن كان حقاً فناناً . ويكتب أوديلون ريدون في هذا فيقول : « إن المصور الذي انتهى مرة أخيرة إلى إيجاد وسائله الفنية لا يرضى ، فهو يستيقظ كل صباح دون حماسة ، ليمارس العمل الذي بدأه بالأمس ، في هدوء وطمأنينة ... هذا

الرجل أشك في أنه يشعر بضيق ما ، هو نفس الضيق الذى يشعر به عامل يستمر فى مهنته التى لا يضيفها وميض جديد غير متوقع ، وهو لا يشعر بالآلم المقدس الذى ينبع من اللا شعور والمجهول، ولا ينتظر شينا مستقبلا ..
إنى أحب مالم يسبق ظهوره أبدا ، (٦١) .

والفنان ليس فى حاجة إلى الصانع ، لأنه هو بنفسه لدرجة كبيرة عامل حرفى ، ولكن العكس غير صحيح ، بمعنى أن العامل صاحب الحرفة لا يستطيع الاستغناء عن الفنان . ويعنى هذا أن العامل الحرفى نفسه لا بد وأن يزيد الفن من خصبه ، وإلا وصل لدرجة الانحطاط واختفى ، وهذا ما حدث فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر والرابع الأول من القرن العشرين ، حيث تقوضت مهن فنية متعددة كانت قبل هذا على جانب من الرخاء ، مثل مهن تشكيل الحديد والأبانوس والحزف والتجليد وزخرفة الزجاج ، وكلها أخذت أصولها أولا من الفن ثم سقطت إلى درجة الصفر بعد أن اختفى جمال أعمالها وضاعت مصنفاتها ، وبعد أن أصبح الذى يعرض منها باسم الزجاج المزخرف عبارة عن قطع من الزجاج الملون ، مقطوعة بأى شكل ومصفوفة بطريقة ارتجالية . لكن كم من الفنانين اليوم يهتمون مع ذلك من جديد بهذه المهن ، وقد أخذوا من بضع عشرات من السنين يعودون بفنونهم هذه إلى الازدهار ، لأن الأشكال الجميلة ونوعية التنفيذ والقيمة الجمالية لأعمالهم قد عرفت كيف تستعيد قيمتها فى نفس الوقت . لأن هذا لا يعنى شينا، غير أن كل شىء يحدث كما لو كانت الحرف لا تتضمن فى ذاتها قوة كافية لتعيش ، قوة لا تستطيع الحرف إلا أن تستعيرها من الفن والفنانين ؛ وهم وحدهم الذين يمتلكون الخصب الإبداعى والاختراع التشكيلى والتدقيق فى التنفيذ ، وكلها عناصر مجدية لها أثرها البعيد الذى يذهب ليتخطى مجالها هى ، ويسمو بأشد الأعمال الإنسانية تواضعا .

الجزء الثاني
علم ظاهرات الفن

« يرى يونج أن ممارسة الفن نشاط سيكولوجى ، أو نشاط بشرى ينبع من بواعث سيكولوجية . وهو بصفته هذه - أو يجب أن يكون - موضوع دراسات لعلم النفس . وتحدد هذه الحقيقة فى نفس الوقت بوضوح ، الحدود التى يمكن فى إطارها تطبيق وجهات النظر لهذا العلم ، ويمكن لهذا الجزء وحده من الفن الذى يحوى كيفية التكون الفنى أن يكون موضوع دراسات من هذا النوع ، لكن الجزء الذى يبحث فى عصارة الفن نفسه لا يمكن أن يكون كذلك ، نقصد ذلك الذى يبحث عن معرفة ماهية الفن فى ذاته ، وهو الذى لا يمكن أبدا أن يكون موضوع بحث سيكولوجى ، بل يمكن فحسب أن يكون موضوع بحث جمالى فنى ، (١) .

هذه هى الفكرة التى يتعين علينا بحثها أساسا: فبعد دراسة سيكولوجية الفن لا بد لنا من أن ندرس ظواهرية الفن . لكن مامعنى « البحث الجمالى الفنى » الذى يتحدث عنه يونج ، ذلك الذى « يدفعنا إلى معرفة ماهية الفن فى ذاته » ، وإلى « استخلاص ماهيته » ، إن لم يكن - كما هو مفهوم اليوم - تحقيق ظاهرى ؟ فنحن بصدد توضيح عصارة ظاهرة روحية بناء على تجربة حية تستخلص من منبعها وتوصف وصفا موضوعيا قدر المستطاع . والفن إحدى هذه الظواهر ، وكل الذين عرفوا تجربته المباشرة ، كالفنان المبدع ، ومعه أيضا الرجل الذى يتمتع بذوق فنى ، والهاوى الذى يعلم ببواطن الفن ، والعارف للأعمال الفنية الكبرى المتعود عليها ، كل أولئك يستطيعون تقديم المعونة لنا ، بل ويجب عليهم ذلك .

إن الظاهرية لا تسلك فى عملها طريق التناقض المنطقى ، والحقائق العميقة التى تبحث ، شأنها شأن أى موضوع يتعلق بالوجدان المباشر ، بل لا تسمح بأن تظل حبيسة مذاهب معينة ، ولا يستطيع العقل أن يكون لنفسه عنها فكرة إلا عن طريق التمييز والتقريب . وهكذا يصبح شرح « معنى الفن فى

ذاته ، هو بنفسه شرح ما ليس بفن ، ويصبح الطريق العكسى هو الوسيلة الأولى للتوصل إلى هذه الحقيقة الغامضة . وبذلك سوف نمنع المسافر الباحث عن بلاد العجائب من أن يسلك الطريق الخاطئ ، وسوف نشير له للطريق السليم ونقول له : اذهب إلى أبعد من ذلك . . . إلى أبعد من ذلك أيضا . . .

وتطبيق هذه الطريقة يمكننا من اختيار مجال البحث في أى من الفنون كالتصوير والشعر والموسيقى . وتحديد عصارة هذه الفنون يعنى أولا تمييزها عن كل مايحتمل أن يختلط بها ، وأساسه تقليد الطبيعة وصياغة آراء نبيلة أو بارعة . ونظراً لأن الملاحظات الخاصة بهذه النقطة يمكن أن تنطبق على الفنون الأخرى ، فإن الفصول الآتية من هذا الكتاب سوف تتخذ شكل محاولة لكشف أوليات علم الجمال ، ويمكن لهذه الفصول أن تصل إلى هدفها ، إن هي تمكنت من جذب الجاهل بهذه الأمور نحو مدخل التجربة الفنية ، ومن إعداده للدخول في عالم الفن .

الفصل الأول فن التصوير والطبيعة

« بالغرور فن التصوير الذى يجتذب الإعجاب وهو يقلد الأشياء التى نشعر بالإعجاب نحو أصولها فى الطبيعة ١١ ، (١) . إن باسكال حين يقول هذا يعيب على الناس جههم لهذا الفن ، لكنه إذ يفعل هذا لا يخلو من أن يقاسمهم الرأى فيه . وفى نظره ، وفى نظر هؤلاء الناس ، يعتبر التشابه بين الفن والطبيعة أساس فن التصوير . أليست فنون التصوير والنحت والنقش والتصوير كلها — كما يقال — فنون تقليد . . ؟ ألا يعتبر العمل مكتملا إن هو أعاد إخراج النموذج الأصيل كما هو فى الطبيعة قدر المستطاع ولدرجة يوم معها الناظر بأنه هو الحقيقة الواقعة ؟ يحكى سينيك أن الناس كانوا يمتدحون « زوكيس » لأنه صور أعنابا تشبه الأعناب الطبيعية لدرجة أن الطيور كانت تأتى لتلتقطها ١ (٢) . واليوم لم يتغير جمهور الناظرين ، ولننظر مثلا فى المستشفى الرئيسى بمدينة باون ، حيث نجد الزوار يقودهم الدليل وهم ينظرون بمنظار مكبر إلى لوحة « يوم حساب الآخرة » للمصور فان دير ويدن ، ويرون فيها شعر نساء حكم عليهن بدخول الجحيم ، ناعما أملس ، ويقولون : « يا للجمال ١١ . . . إنك تكاد تحصى الشعر واحدة واحدة ١١ . . . »

والحقيقة أن باسكال — ومعه الرأى العام كما يصوره — يخطئون جميعا . ففن التصوير ليس فنا تافها ، لأنه لا يكتفى بإعادة تصوير الكائنات كما هى تصويرا تشابها فحسب ، ففى الوقت الذى يعيد فيه تصويرها تجدها فى الواقع يفعل شيئا آخر غير تقديم صورة مطابقة للأصل ، لافائدة فيها ، فالتصوير ليس بأية حال نسخة من الطبيعة . والواقع أن الإعجاب الذى يقف عند

حد المهارة فى تصوير الواقع فى دفعة كبيرة إعجاب يفقد طريقه أصلا . وهنا نمسك بمفتاح تفهم الفنون التشكيلية ، ومشكلتها فى هذا تطابق المشكلة الخاصة ببعض فنون الأدب : ألا يقوم مؤلف القصة أو المسرحية كذلك بتصوير التقاليد والعادات والعواطف والأعمال ، بل والأشياء والمناظر الموجودة فى الطبيعة ؟ ألا يؤكد الناس أن أجمل أعمالهم هى التى يكون فيها تصوير كل هذا أشد ما يكون إخلاصا وحيوية ومطابقة للحقيقة ؟ .

بحث فى المذهب

لقد ساعد أصحاب نظريات الفن ، والفنون أنفسهم عندما كانوا يقومون بتعليم فنههم ، فى فرض هذه القاعدة . وفى الغرب على الأقل نجد أن تقليد الطبيعة هو المبدأ الرئيسى فى جميع فنون الشعر ، مهما صعدنا إلى العصور السابقة . لكن يجب أن نحذر من هذا الاعتقاد ، لكن إذا فحصنا الأمر بانتباه ومحصنا هذا المؤلف أو ذاك ، مرغنين إياه على أن يوضح نفسه ، أو ذلك النص بوضعه وسط النصوص المحيطة به ، لا تضح لنا أن هذا التقليد الذى طالما أوصى به الموصون لا يتضمن أن يكون الفنان عبدا للأصل ، وأنه لا يرمى إطلاقا إلى إعادة تصوير الأشياء تصويرا آليا . . فبدأ التشابه يجرى تصويبه دائما بمساعدة مبدأ آخر له نفوذه ويتلخص فى ضرورة الذهاب إلى ما بعد الطبيعة كما تراها أعين عادية .

إننا نعرف تشدد أفلاطون فيما يتعلق بالشعر والفنون بوجه عام ، لأنها تقف عند حد ترجمة الناحية الخارجية المحسوسة للأشياء ، فى حين أن الفلسفة تصل إلى أعماقها الحقيقية . وهو هنا يتساءل : « ما هو الهدف الذى يرسمه لنفسه فن التصوير بالنسبة لكل موضوع ؟ أهو تمثيل الشئ كما هو أو ما يظهر له كما يظهر ؟ أهو تقليد المظهر أو تقليد الحقيقة . ؟

إن فن التقليد إذا بعيد عن الحقيقة ، ويصور لنا مثلا صانع أحذية أو

نحارادون أن يكون على علم بمهنة أيهما . . إنه إن فعل هذا ، ولو كان مصورا طيبا لن يمدح حتى الأطفال أو الجبهة . وكذا الشاعر الذى لا يعرف ماهية الرذيلة أو الفضيلة أو مختلف أنواع النشاط الإنسانى كالحرب والسلام اللذين يدعى وصفهما : وهكذا ، « نحن نتفق بما يكفى حول نقطتين : أولا هما أن ليس لدى المقلد أى علم بسيط بالأشياء التى يقلدها ، وثانيا هما أن المقلدين الذين يطرقون شعر المأساة مقلدون بأقصى درجة يمكن أن يصل إليها التقليد ، (٣) .

هكذا نرى أن كتاب « الجمهورية » لأفلاطون يتعرض لنقد الفنون الجميلة ، ويتركز هذا النقد حول فكرة التقليد ، وهى وجهة نظر ضعيفة لرجل سياسى وعالم أخلاق لم يتبناها أفلاطون دائما فى دقة كافية . أليس الجمال فى مذهب « الوليمة » هو الحقيقة العليا التى تنبثق عنها الأشياء الجميلة وبالتالي الأعمال الفنية ، والتى تغذيها بالحقيقة والواقع ؟ ألم يعرض كتاب « بارمنيد » فيما بعد فلسفة رياضية تصبح فيها الأعداد عصاراة الأشياء ويرمى فيها الجمال إلى مطابقة العروض ، والتناسب والتناسق ؟ إن أفلاطون يرتبط بفن النحت فى عصره ، ومن هنا كتب « قانونا ثابتا » لتصوير الجسم البشرى ، أى تصوير نموذج مثالى تحدده العلاقة الدقيقة بين الشكل والأجزاء ويستبعد فيه أفلاطون كل ما يتصف بالجزئية والزوال ليرتفع إلى مستوى الثبات والخلود والكلية .

ومهما يكن من أمر فقد قال أفلاطون فى وضوح إن تقليد الطبيعة لا يكفى ، وقال أيضا إنه مهما يكن هذا التقليد مكتملا فإن يقدم لنا بهذا السكالم عملا فنيا ، وعندما نعرف أن الشيء الذى أراد الفنان تصويره على اللوحة أو على الرخام رجل ، وأنه عبر فى إخلاص عن جميع أجزائه باللون والشكل المناسبين ، فهل ينتج عن هذا بالضرورة أن نحكم بعد إلقاء نظرة على اللوحة بأنها جميلة أو قبيحة ؟ إننا فى هذه الحالة نكون قد أصبحنا جميعا

على علم تام بفن التصوير . إنك على حق - وفيما يخص هذا التقليد بوجه عام - سواء أكان في التصوير أم في الموسيقى أم في أى نوع آخر ، ألا يجب - لكي يكون الإنسان حكيماً على علم بالأمور - أن يعرف هذه الأشياء الثلاثة : وأولها الشيء الذي يجرى تقليده ، وثانيها ما إذا كان التقليد صحيحاً ، وثالثها ما إذا كان التقليد جميلاً سواء كان هذا التقليد قد جرى بالكلام أو بالأغنية أم بالوزن ، (٤) . ففما عدا قاعدة التشابه إذا ، توجد قاعدة لاشك أنها غامضة ، وفي نفس الوقت متميزة وهي قاعدة الجمال .

والمعلوم أن عصر النهضة ، والعصر الكلاسيكي الذي تبعه ، يدينان بالكثير لأفلاطون . . . ولقد كتب أحد المعجبين به ، ويدعى البيرقى في عام ١٤٣٥ ، كتاباً بعنوان « نظرية في فن التصوير » حيث قال : « إن المصور المحب للدراسة يستطيع أن يستخلص جميع ملاحظاته من الطبيعة . . . والتصوير فن يسعى لتمثيل الأشياء المرئية . . . ولذا يجدر به أن يعمل بكل قواه وبكل حماسة ممكنة على تقليد الطبيعة . ، وليونار لا يحدد أى قاعدة أخرى غير هذه حيث يقول : « إن التصوير يمثل بالنسبة للحواس أعمال الطبيعة بكل واقعية وتأکید . . وجاء القرن التالى ليكرر نفس النظرية ، حيث يقول بوالو : « إنه ما من شيء جميل غير الحقيقة ، والحقيقة وحدها هي التي نحبها » . ثم هاك لافونتتين يقول « إنه لا ينبغي أن نبتعد عن الطبيعة خطوة واحدة » . ولا شك أن هؤلاء جميعاً يتحدثون في الأدب غير أن فن التصوير في عصرهم ظل دائماً في المرتبة الأخيرة من تفكيرهم . مثال ذلك كورنى الذي يتحدث في مقدمة مسرحية « ميديه » حديثاً عابراً عن التصوير فيقول : « ليس المهم في تصوير وجه الإنسان أن يكون جميلاً ، بل أن يكون التصوير مشابهاً للأصل » .

رغم هذا فإن التشدد في ضرورة التقليد الدقيق يخف بفعل شروط

أخرى ؛ لأن الطبيعة المفروض تصويرها في الواقع هي الطبيعة العامة ،
والمثالية ، التي استبعدت عنها خصائصها ودقائقها ، وكل ما يشوهها .
وهكذا كان لوبران يمتدح بوسان لأنه حذف في لوحاته « الأشياء العجيبة
التي قد تضايق أعين الناظر إليها » . . . (٥) . وهكذا يصبح عمل المصور ،
كعمل الشاعر ، أن « يزين ويرفع إلى أعلى ويجميل كل شيء » (٦) . وأكثر
من هذا أن هذه الطبيعة المثالية قد فهمها الأقدمون وعبروا عنها أحسن مما
قد يفعل آخرون إلى الأبد . وهكذا يجب أن نتعلم كيف ننظر إلى الطبيعة
من خلال الأعمال الفنية للأقدمين ، ولعل أقصر طريق لتقليد الطبيعة هو
تقليد القدامى . وهكذا كان بيرنان ينصح بوضع الأعمال الفنية القديمة في
المدارس « لتعليم الشباب وتدريبهم أولاً على فكرة الجمال ، الأمر الذي
يفيدهم فيما بعد طوال حياتهم . . وإذا ما بدأت في تعليمهم منذ البداية كيف
يرسمون من واقع الطبيعة فإنهم لن يصلحوا لشيء » ، لأن الطبيعة تكاد تكون
دائماً ضعيفة هزيلة ، (٧) .

ويلوح أن بوسان يذهب في آرائه بهذا الصدد إلى أبعد من ذلك بكثير،
رغم إيجاز أحاديته وغموضها ، فهو يقول بأن « التصوير تقليد ، ولكن
هدفه اللذة » (٨) . وهكذا يصبح التقليد عديم القيمة عدا أنه وسيلة للذة .
أما عن نظريته الشهيرة الخاصة بما يسمى « الصيغ » ، فإذا لم تكن مخطئين
في تفسيرنا لها ، فإنها تبدو حديثة لدرجة تدعو للعجب . وتقصد بها أن
المصور يرمى إلى الإيحاء أكثر منه إلى النقل . ولهذا فهو يرتب الخطوط
والألوان والأضواء والظلال تبعاً لما يهدف إليه ، وبالطريقة التي يريد أن
ينتج بها عمله ، مثله مثل الشاعر الذي ينتق الألفاظ التي تتفق نغمات نطقها
مع موضوع القصيدة (٩) .

والكلاسيكية الحديثة التي يتبعها « أنجر » تتطلب أساساً الخضوع التام
للطبيعة ، فلا بد — بناء عليها — من تصوير النماذج كما هي ، وهو يقول

هنا : « انظر . . . إن القدامى لم يصححوا في نماذجهم ، وأقصد بهذا أنهم لم يغيروها إلى ما هو مخالف للطبيعة . . . فإذا اعتقدت أنك بمستطيع تصحيح ماترى ، فإنك لن تصل إلا إلى الخطأ والمعوج والمضحك . (١٠) ويحكى أن بعضهم قد أخذ يهنته يوما بأنه أضنى جمالا على لوحته المسماة « أوديب » ، فقال له محتجا : كيف أضنى عليها الجمال ؟ بل لقد نقلتها نقلا ، (١١) .

مع ذلك فإن أنجر قد اهتم بأشياء أخرى غير النقل الدقيق ، فهو يأخذ في اعتباره أولا « الشكل الجميل » ، ومن هنا كانت مبادئه الآتية : وكلما قسمت الأشكال أضعفها . . . لا بد أن تعطى الصحة للأشكال . . . وكلما كانت الخطوط والأشكال بسيطة ازداد الجمال وازدادت القوة . . . لا بد أن نغنى تماما بالقلم والفرشاة كما نغنى بالصوت ؛ فدقة الأشكال كدقة النغمات . . . (١٢) وهكذا نرى أن الأمر يعنى « النقل نقلا » — كما قال .

لكن هل يعنى هذا أن هناك تناقضا في أقوال سيد التصوير ؟ كلا . . . إنه كان يريد أن يصور ؛ وكان يصور حقا كل ما كان يرى . . . لكن الأقدمين والكلاسيكيين هم الذين علموا عينه كيف تبصر . أما الأشكال الجميلة ، فقد كان يجدها في الحقيقة لأنه كان يبحث عنها . . . وهكذا كان إدراكه الحسى يقوى بفعل خياله ، وهو كذلك ، حتى قبل سيزان كان « يعيد مصورات بوسان طبقا للطبيعة ، لا طبقا لقوانين مجردة . ولقد كان يقول « لا ينبغي تعلم الشكل الجميل ، بل يجب إيجاده في نموذجه » . وكان يقول لتلاميذه : « هل تظنون أنى أرسلكم إلى متحف اللوفر لتجدوا فيه ما اصطلاح على تسميته « الجمال المثالى » شيئا آخر غير ما فى الطبيعة ؟ إن مثل هذه البلاهات هى التى أدت فى العصور الرديئة إلى انحطاط الفن . أنا أرسلكم هنالك لتعلموا من القدامى كيف تنظرون إلى الطبيعة ؛ لأنهم هم بأنفسهم الطبيعة . . . ولهذا يجب أن تعيشوا منهم وتأكلوا منهم » (١٣)

وإذا كان هناك من يعبد الطبيعة بكل أشكالها ، فهو ولا شك رودان .
 فيها هو ذا ينصحنا في كتابه « العهد » الذى يبدأ به أحاديثه عن الفن بأن
 « تكون الطبيعة إلهاً الوحيد . . . وأن تؤمن بها إيماناً مطلقاً ، وأن نتأكد
 من أنها لن تكون قبيحة ، وأن نحدد أطباعنا فى أن نظل مخلصين لها » (١٤) .
 وتصل دقته فى هذا لدرجة يتجنب معها النظر إلى الوضع الذى تكون
 فيه نماذجه هوفيقول : « صياد الحقيقة ، باحث عن الحياة » . « أحب وأفضل
 الإمساك بحركات ومواقف تنتجها الأجسام الحية تلقائياً . . . وأنا فى كل
 شيء أطيع الطبيعة ولن أدعى أبداً أتى أفرض عليها شيئاً » ، ذلك « أن الأمر
 لا يخرج عن الرؤية . » مهما يكن فإن هذا لا يعجب تجار علم الجمال « والمبدأ
 الوحيد فى الفن هو نقل ما نرى » (١٥) .

ويعترض المتحدث إلى رودان فى حين أنه مضطر إن صح التعبير ،
 إلى تعديل الطبيعة ، حيث إن قالب الجسم الحى لن يعطى تماماً نفس
 الإحساس الذى يعطيه تمثاله . ويوافق رودان محدثه على ذلك باعتبار « أن
 القالب لن يعطى إلا الشكل الخارجى ، لكنى — هكذا يضيف — أصور
 بالإضافة إلى ذلك ، روح الشيء التى هى ولا شك جزء من الطبيعة » .
 ونحن نوافق على ذلك ، لكن ما من شك فى أن نظرية تقليد الطبيعة قد
 أخذت هكذا فى الاتساع بدرجة ملحوظة . . لأنه فى نظر المثال رودان
 يعتبر أهم شيء هو « الحقيقة الداخلية التى تظهر تحت شفافية الشكل » ؛
 وهى التى يسميها « الخاصة » . وها هو ذا يقول لنا شارحاً رأيه : « إن كل
 حياة تظهر فجأة من مركز ، حيث إنها تتولد وتنضج من الداخل إلى
 الخارج . . وهكذا فى المثال الجميل ، تجدنا « تنبأ دائماً بدفع داخلى
 قوى . . وبهذا فإن نقل النموذج لا يساوى شيئاً إن لم يكن يعطى شعوراً
 بهذا الدفع ، وإن لم يكن يظهر « كحقيقة داخلية ترجمها حقيقة من
 الخارج » (١٦) .

وفي إطار هذا يستطيع رودان أن يؤكد ، « أن القالب أقل حقيقة من التمثال الذي يقوم بتحقيقه » . ولعلنا أيضا نفهم مغزى ما ينصح به قائلا : « كونوا واقعيين أيها الشبان ، لكن هذا لا يعنى أن أقول : كونوا على جانب من الدقة مع جهل وسطحية » . فبالنسبة له نجده يسمح لنفسه ، مع احتجاجه ضد هذه السطحية بأن « يزيد من وضوح الخطوط التي تعبر عن الحالة الروحية التي يريد تفسيرها أحسن وأشد من غيرها » . وهكذا فهو يحتقر التفاهة السطحية التي « لن تفهم شيئا في ملخص جرى » ، ويحتقر « الجلاء » الذين يتمسكون « بالدقة غير المعبرة في التنفيذ » . فهو يرى أن في تصوير الشخص المعين ، لا بد من « الشبه » باعتباره عنصراً لاغنى عنه ، وباعتباره أيضا « شبه روح » فحسب . ولهذا فهو لن يقول كما يقول « الواقعي المتطرف » ، إن لون رافائيل غير صحيح مادام « الشعراء يجدونه دقيقا متقنا » (١٧) .

تأمل في اثر عمال الفنبه

رأينا بناء على حالات نموذجية أنه عندما يتحدث المصورون والمثالون عن تقليد الطبيعة ، فإنهم لا يفكرون عادة في الحقيقة السطحية العادية المباشرة ، فإذا فحصنا أعمالهم وجدنا أن الفنان لا يكون ناقلًا للطبيعة كما هي . ولا بد إذاً أن نقول بعكس هذا ، كما يقول أوسكار ويلد . . . « إن الفن يبدأ حيث ينتهى التقليد . . . هذا القانون صحيح كما سنرى ، حتى بناء على ما نراه في أعمال المصورين الذين يقولون بأنهم واقعيون ، وصحيح من باب أولى بناء على أعمال الآخرين مثل ديلاكروا الذي يندد بما يسميه « التصوير الفوتوغرافي في فن التصوير » ، ويصبح مندداً بلوحة « المتراس » للمصور ميسونيه بقوله : « ما أفضح هذه الواقعية . » (١٨) .

وبصرح كوريه بقوله : « أنا لا أصور ما أرى » . لكن لم يكن هذا

هو المبدأ الذى أخذ به جميع المصورين ، لأنهم إذا لم يكونوا قد صوروا ما رأوا لأصاب الفقر متاحفنا وقصورنا وكنائسنا ؛ ذلك أن العلاقة بين التصوير والحقيقة يمكن أن تكون متعددة الأنواع ، كما أثبت ذلك جيداً الأستاذ سوريو (١٩) فإما أن تقوى هذه العلاقة وإما أن تضعف ، وذلك طبقاً للأذواق وأنواع الفن والمدارس ، وأحياناً يلجأ عالم التصوير صراحة إلى عالم الواقع . فإذا كان هذا الرجل أو تلك السيدة قد عاشت فعلاً وصوره أو صورها مصورون من مدارس مختلفة ، فهل صورته أو صورها كلهم كما كانوا وبنفس الطريقة ؟ . . . هذا هو السؤال . . . لكن ما من شك فى أن الفنان فى جميع الأحوال قد أرادهما يشبهان الحقيقة . . . وقد يكون المصور الواحد قد صور ^{لعدة} الشخصية عدة مرات بأشكال مختلفة كما هى الحال بالنسبة لصورة أسرة « أرنولفينى » للمصور فان ديك .

لكن فى حالات أخرى يصبح الأمر أمر مطابقة للحقيقة أكثر منه أمر تشابه ، مثال ذلك لوحة « أركاديا » للمصور بوسان ، وهى لوحة خيالية بحتة ، ومع ذلك فهى مقبولة ؛ لأن المناظر التى يقصها الفنان منها أو التى يستعيدوها فى ذاكرته لا تتعارض مع ما نعرف قطعاً ، ومع أن النواحي التاريخية والجغرافية التى نعرفها عن موضوع اللوحة قد صورت بأمانة ، فإنها تخضع لخاطر الفنان وهواه ، الأمر الذى لا يحدث كثيراً . الحق أنه لا توجد هنا مطابقة للحقيقة ، وإن الارتباط بالواقع يمتد بشكل آخر حيث نرى يهود عصر يسوع وهم يتنزهون وقد ارتدوا أحذية طويلة ومعاطف ملكية ، وحيث نرى مدينة القدس وقد أحيطت بجوائط ذات شرفات وطواب كمدن العصور الوسطى ، وحيث نرى بلاد يهوذا وقد غطاها الجليد يوم عيد الميلاد . والشئ الذى يصوره المصور يمكن أيضاً أن يتخلص إن لزم الأمر من أشد قوانين الطبيعة ثباتاً وأكثرها عموماً : ففى صور صعود العذراء وتمجيد القديسين ، نرى الأجساد كما

لو كانت تسبح وتطفو وتصعد في الهواء ، دون النظر إلى فكرة الجاذبية الأرضية . هنا يقضى العرف على الواقع . . لكن ما القول عندما تذهب الأشكال الطبيعية عن الأشياء وتغيرها تغييراً كاملاً من عنصرها الأصلي بحيث يستحيل تمييزها ، وهذا برغبة الرسام نفسه ؟ لقد منح بعض كبار الفنانين أنفسهم في الماضي هذا الحق باسم الحرية ، ولدرجة لا يستطيع سادة الفن اليوم أن يفعلوا مثلهم ، ولا حتى جيروم بوش أو بيكاسو الذى لعب أكثر ما لعب الفنانون بالأشكال البشرية . هكذا كان أيضاً كل من جوياء وريدون حين رسموا على لوحاتهم ، كل بطريقته ، وحوشاً ولدت في عقولهم فحسب . فهل يمكنك القول بأن هذا التصوير نقل عن الطبيعة ؟ .

من ناحية أخرى لا يمكن أن ينطبع نظر الفنان وعقله على لوحة ملبوسة ترسم عليها مناظر الطبيعة كما هي . فالإدراك الحسى ليس استقبالياً سليماً بأي حال ، وهو لدى الفنان بالذات أقل ما يمكن سلبية . قارن مثلاً صورة فوتوغرافية لأحد شوارع مونمارتر الصغيرة باللوحة المقابلة التى رسمها أوتريللو ، أو الحصى صورة شخصية معينة كما رسمها اثنان من الفنانين أو أكثر ، كصورة « مسيو شوكيه » كما رسمها كل من رينوار وسيزان ، أو كصورة الشاعر « ما للارميه » كما صورها كل من مانتييه ورينوار وجوجان ، تجد الفرق وقد قفز إلى عينيك . . . سترى فى اللوحات حقاً شارع مونمارتر وصورة مسيو شوكيه وصورة ما للارميه ، ولكنها فى كل حالة مصورة بخواص فردية هى خواص كل من أوتريللو رومانتيه ورينوار وسيزان .

والمشكلة التى ستعرض لنا هنا أن نعرف ما إذا كان المصور يدرك الأشياء أحسن مما يدركها الرجل العادى ، أو إذا كان يعرف خصائصها

بشكل أكثر عمقا أو أكثر قرابة . فلنؤجل هذا مؤقتا ولنقل إنه في جميع الحالات يمتلك كل فنان نظراته الخاصة به والتي يؤكد بها وجوده في عمله الفني ، وهذا الوجود ضروري لازم متعسف كما هو الشأن في لوحات فان جوخ في أواخر سنوات حياته ، أو كما هو الشأن من حيث سلطة الرجل المرم في لوحات رامبراند ، أو وجود هادى . طيب في لوحات فيلا سكير ، أو وجود يريد أن يحو نفسه بنفسه في تواضع ، في لوحات لونا وشاردان .. لكنه وجود مهما يكن الأمر . . . وفي الحالة التي لا توجد وتظهر فيها شخصية المصور تصبح اللوحة قيمة الوثيقة فحسب ، حكمها حكم « كليشيه » في المحفوظات ، ولن تكون لها قيمة العمل الفني .

وفي هذا المعنى يجب أن نفهم كلمة زولا من أن « العمل الفني ركن من الخلية ينظر إليه خلال مزاج الفنان » (٢٠) . وهذا تعريف مختصر نوعا لأن الأمر أكثر من أن يكون مزاجا . لكن لماذا نأخذ من أديب كزولا تعريفا طالما قال به وكرره الفنانون أنفسهم ؟ . . ! فهناك شاردان « مصور الحقيقة » إن كان هناك مصورون للحقيقة ، يقول : « من منكم قال إننا كنا مصور الألوان ؟ إننا نستخدم الألوان ولكننا مصور بالعواطف ، وهاك ديلا كروا ، وهور ومانتيكي ذونوايا كلاسيكية يقول : « إن موضوع اللوحة هو أنت ، هو انطباعاتك وعواطفك إزاء الطبيعة ؛ إذ يجب أن تنظر في نفسك لا إلى ما حولك » (٢١) وهاك أوديلون ريدون المصور المنطوى على نفسه ، الحالم المنعزل يقول : « أظن أني خضعت برضى للقوانين الخاصة التي أدت بي إلى تشكيل الأشياء التي وضعت فيها نفسى كلها » (٢٢) . وهاك أخيرا ف . ليجيه أحد سادة التصوير الزخرفي يقول : « ما موضوع اللوحة عندي إلا عذر أنتحله لإبداع مجموعة مطلقة من الأشكال والألوان تعبر عن حقيقة مشاعري ، وهي الوحيدة التي تؤخذ في الاعتبار وذلك بعيدا عن سراب الحقيقة الخارجية » .

فإذا كان المفروض أن يدخل هذا القدر من الذاتية في تخيل المصور فمن الجائز أن يتوقع أن يقدم لنا عن الأشياء صورة تزيد أو تقل تشوهاً. إن هذه التشوهات هي التي تلفت أبصارنا بشدة عند المحدثين ؛ لأن الجمهور لم يتعودها بعد . ونحن إذ ننظر إلى صورة وجه رسمة موديلاني مثلاً نقول في أنفسنا : « إن عنق المرأة ليس طويلاً لهذه الدرجة » . لكن هل كان قدماء المصريين يتبعون الطبيعة كما هي حين صوروا الإنسان وكشفاه واضختان، وجها لوجه في حين أن رأسه مأخوذ من الجانب ؟ وهل تبعها الرومان من مصوري الحوائط عندما صوروا المسيح بحجم يزيد ثلاث أو أربع مرات عن تلاميذه بقصد إبراز عظمتهم ؟ لقد كان لوجريكو يحدد الأشكال بحجارة قبل أن يفعل سيزان نفس الشيء في لوحة « العاريات » ، لدرجة اعتقد معها الناس أن لديه عيباً في الإبصار ، ولقد كان هذا الفرض عسير الإثبات، بل وكان في غير موضعه ؛ إذ ما عيب الإبصار الذي يمكن أن نفترضه عند بيكاسو ، أو ماتيس ، أو آنجر قبلهم جميعاً . ؟

ذلك أن آنجر هذا كان رساماً مدهشاً بقدر ما كان مبسطاً جرئاً . ولعل قصة لوحة « الجارية الكبرى » لجديرة بأن تحكى هنا ؛ فهذه العارية الشهيرة التي تلوح اليوم طبيعية للغاية يمكن أن تعتبر طبقاً للواقع وحشاً حاول الفنان تشريحه ، ولقد اكتشف بعض العارفين بهذه الأمور أن هذه « الجارية » كانت تنقصها فقرتان من العمود الفقري ، وأن أحد ثدييها لم يكن في موضعه، بل كان موجوداً تحت ذراعها ، وكان هذا تشويهاً ضمن تشوهات أخرى عندها . ولقد حاول ا. لهوت ، وهو مصور أيضاً . . . حاول مراراً أن يعيد تصوير هذا الوضع من واقع النموذج ، ولكنه صرح بأنه لم ينجح في ذلك أبداً (٢٣) .

فهل كان آنجر يجمل مهنته ؟ طبعاً لا ، لكن شعوره كان يهتز إزاء الحقيقة ، « وكان يعرف علم التشريح معرفة عميقة وبقدر ما يعرفها الطبيب

الجراح ، لكنه عندما كان يجد نفسه أمام هذا النموذج الحى لم يكن يستطيع الاحتفاظ ببروده العلى ، بل كانت تنتابه حالة قلق شديد يكاد معها يفقد صوابه . . وهذه البشرة ذات التموجات المحببة ، والتجعدات التى تدعو للذة ، لم يكن يستطيع أن يقوم بتشريحيها بحافة القلم كما يفعل الجراح بالمبضع . . . بل إن هذه البشرة هى التى سوف تندمج فيه اندماجا ، وهى التى سوف تحول مذهبه العلى عن جسم الإنسان إلى مذهب عاطفى . . وهناك يصبح لعدد فقرات العمود الفقرى أهمية ، ولن تصبح هناك حقيقة تشريحية إذا كانت هذه الحقيقة على النقيض من الرؤية التى يقدمها له الجسد الذى يراه تحت عينيه . . . وهكذا احدث التشوه فى اللوحة ، (٢٤).

على أن هناك من المصورين قطعا من لا يسمحون لأنفسهم بهذا القدر من الحرية فى نقل الطبيعة ، فهم يقتربون من الواقع ، إما لميلهم لهذا ، وإما لاقتناعهم بهذه الضرورة . وهنا لن يكون المصور جهاز تصوير آليا ، لأن الغرفة السوداء لا تكون الشكل ، فى حين أن الفنان يقوم بالتشكيل . ويكتب سيزان فيقول : « إن عملية التصوير الفنى لا تعنى نقل الهدف نقلا جامدا ، بل معناها فهم التناسق بين مختلف العلاقات ، ورفعها على اللوحة على شكل سلم أنغام فى ذاته ، عن طريق تنمية هذه العلاقات تبعاً لمنطق جديد أصيل ، فعمل لوحة معناه تشكيلها ، (٢٥) والواقع أنه لا يوجد فن صحيح إلا منذ اللحظة التى يرتب فيها الفنان وينظم ويقوم بالاختصار بين مختلف عناصر المنظر الموجود تحت نظره . ولقد كان ديلاكروا يقول إن العبقرية ليست « إلا موهبة التعميم والاختيار » .

وبتعبير آخر فإن الفنان لا يستطيع إلا أن يفسر الأشياء وهذه

« الطريقة العقلية التي تنحصر في اختيار وجهة النظر الخاصة وتحديد المنظر وعزله عن البيئة التي تمتصه والتضحية بأجزاء معينة بقصد إعطاء الفرصة للناظر ليتخيلها بدلا من تصويرها مباشرة هي الفن . والفن أيضا معناه توضيح ما يجب توضيحه وإخفاء الأجزاء التكميلية ، أى الإشارة إلى الأشياء عن طريق الاستتار والسماح للناظر بتخيل ما لا يراه . هذا الفن العظيم ينحصر في استخدام الطبيعة دون تكرارها آليا ، أحيانا عن طريق نقلها تماما كما هي ، وأحيانا أخرى عن طريق إهمالها لدرجة النسيان . هذا التوازن العسير بين الحقائق القائمة يضطر الفنان إلى أن يظل واقعيًا دون أن يكون دقيقاً ، إلى أن يصور لا أن يصف ، إلى أن يعطى انطباعات الحياة لا سراها . وكل هذا يترجم بكلمة عادية هي في الواقع مصدر غموض وخط كثيرين لأنها — أى الكلمة — لم تحدد أبداً تحديداً واضحاً — أقصد « التفسير » ، (٢٦) .

هذا التفسير يفترض أن يقوم المصور بمحض إرادته بحذف أشياء وإضافة أشياء أخرى أحياناً . ويحكى عن المصور « كورو » ، أن « شخصا ما كان يقف في الغابة ، وينظر إليه وهو يصور لوحة ، وسأله الشخص بقوله : أين إذن ياسيدى أين ترى هذه الشجرة الجميلة التي وضعتها هنا ؟ وما كان من كورو إلا أن سحب غليونته من بين أسنانه — ودون أن يدير ظهره ، أشار بماسورة كانت في يده إلى شجرة بلوط كانت خلفهما ، (٢٧) لكن كما يقول مالرو عن كورو : « وهذه الطبيعة التي يحبها ، من إذاً يكون أقل خضوعاً لها منه ؟ » ، (٢٨) لأنه ينقلها بل يطورها . ومرة أخرى نقول : إن هذا التطور يندج في الرؤية نفسها . ويكتب ديلاكروا ما يستحق الإعجاب حول هذه النقطة فيقول : « إن الخيال هو الذى يصنع اللوحة من واقع الطبيعة » ، (٢٩) . وقد سبق أن أشرنا إلى هذه الناحية عند الحديث

عن آنجر الذى كان يرى حقيقة النسب من واقع اللوحات القديمة فى نموذجة ، ويقدم لنا كورو فى هذا مثلاً آخر ، فقد كان يتنزه مرة فى الريف وكان قد بلغ الهرم إذ ذاك ، وسأله شخص عن جمال منظر الطبيعة فى المكان فصاح قائلاً : « آه . . . لا تحدثنى عن الطبيعة . . . فأنا لا أرى فيها إلا لوحات من يد كورو . . . »

وقبل اكتشاف التصوير الفوتوغرافى ، كان الناس غالباً يقارنون فن التصوير بالمرآة ، وقد أعجب الغرب بوجه خاص بهذه اللوحة الزجاجية التى كانت تلتقط مظاهر الحياة لقطاً دقيقاً . . . ويعبر ليوناردودا فنشى ، وهو مصور واقعى لإرادة ، غير واقعى علياً . . . يعبر عن رأيه فى التصوير بقوله : « إن المرأة هى معلم المصورين ، . ويضيف قوله : « إن المؤكد أن لوحتك — إن كنت قد عرفت كيف تشكّلها تشكيلاً حسناً — سوف تترك أثر الشيء الطبيعى الذى تراه فى مرآة كبيرة » (٣٠) .

كلاً ! لأنه حتى إذا كانت اللوحة تنطوى على كمال الانعكاس فى المرأة ، فإنها لن تعادل الطبيعة تماماً وبهذه البساطة ، ولم يخطئ ديكروا فى هذه الناحية حين قال : « إن أكثر الواقعيين مضطرباً اضطراباً إلى استعمال بعض الوسائل المتفق عليها عامة لكى ينقل ما فى الطبيعة » (٣١) . ومن ضمن هذه الوسائل المتفق عليها عامة تمثيل أشياء ذات ثلاثة أحجام على سطح مسطح ، ومن ضمنها أيضاً تصغير الأشياء إلى مستوى أقل من حقيقتها ، ومن ضمنها كذلك عزل منظر معين عن مجموع هو جزء منه ، وتحديد حدود لما لا حدود له . . . وأخيراً من ضمنها الخط الذى يفصل بين الأشكال . ذلك أنه « لا توجد فى الطبيعة حدود تحدد الأشكال قدر ما توجد فيها لمسات ملونة . . . ولا بد دائماً من أن نرجع إلى وسائل متفق عليها لكل فن ، هى فى الحقيقة لغة هذا الفن . . . وإلا اضطرب الفنان إلى إجراء بروتات ملونة على لوحته بحجة أن الأجسام بارزة » (٣٢)

إلا أن بعض هذه النواحي المتفق عليها توجد فى التصوير الفوتوغرافى ، بل وحتى فى انعكاس الشيء فى المرآة . ويقول ما كس جا كوب : « إن كل شيء يظهر فى المرآة أجمل مما هو فى الطبيعة » . والسبب فى هذا ولاشك التحديد الذى يمارسه إطار المرآة وانعزال الشيء عن باقى الأشياء التى تحيط به . ونفس الشيء يحدث فى الصورة الفوتوغرافية حيث يظهر كل شيء أجمل من حقيقته . ولهذا كان للتصوير الفوتوغرافى قيمة فنية حقيقية لأنه يستطيع اختيار الأشياء ، ولأنه يتحكم فى الإضاءة وفى انتقاء زوايا التقاط المنظر ويكتب ديلاكروا ما يشبه هذه الملاحظة فيما يتعلق بالأجهزة الأولية فى عصره فيقول : « إن الصور الفوتوغرافية الطيبة هى التى تتركز على عدد بسيط من الأشياء وتترك أجزاء أخرى خيالية » (٢٣) . وتعبير آخر ، يصبح المنظر المهتز منظرا فنياً لأنه يضمن بعض الغموض على الحقيقة المباشرة الجافة .

واستحالة قيام واقعية مكتملة أمر يثبتته كذلك اللا معقول ، فإذا كان هدف فن التصوير إعطاء صورة تخيلية للحقيقة ، فإن خداع البصر لا يصبح بوضوح « ما فوق الفن » ، الأمر الذى لا يمكن أن يدعى به أحد ، « إذ يتفق الفنانون ونقاد الفن على اعتبار هذا الاصطناع غير جدير بفنان عظيم . وصحيح أنه لا يمكن منع فنان من أن يمارس هذا النوع لمجرد إثبات قدرته الفنية ، لكن قد يكون من العسير إيجاد فنان يثبت أن خداع البصر هو قوة فن التصوير وكماله . وإذا كان خداع البصر هذا يصلح لمصورى المناظر السينمائية أو لديكور المسرح ، فإنه لا يمكن أن يوجد فى فن التصوير الفعلى إلا عرضاً ، وعلى أساس أنه طريقة لا تستخدم إلا فى حدود ضيقة » .

ولا يتردد جيلسون فى استخلاص هذه النتيجة التى يرى أنه لا مفر منها ؛ إذا رفضنا خداع البصر باعتباره غير جدير بفن التصوير ، فإنه

لا بد أن يستبعد المنظور بالعين معه ، كما أنه لا بد من أن يستبعد معها كذلك الشكل المصبوب في القالب الذي يعتبر حالة خاصة من حالات المنظور الجوي ، بل إن من الضروري أيضا الامتناع عن تصوير الظلال مادام الظل أصلا عبارة عن خداع الشمس للبصر . وبالاختصار إما أن نقبل خداع البصر بصفته عنصراً أساسياً في فن التصوير ، أو الابتعاد عن كل ما يساعد في إنتاج أى مظهر من مظاهر الحقيقة الملبوسة مهما صغر ، في الرسم أو التكوين ، (٣٤) .

في اعتقادنا أن الأمر يحتاج إلى الذهاب إلى هذا الحد . فلقد كان مصورو عصر النهضة مغرمين بالمنظور والقالب ، ومع ذلك فلم يكونوا أقل من غيرهم عظمة . ولذا فإن تبريرنا الخاص بخداع البصر لا يفقد من قوته ، وهو يضطرنا إلى الموافقة على أن تقليد ما في الطبيعة ليس هو كل فن التصوير ، ولا هو موضوعه الأساسي ، وعلى التقليد أن يتفق والمظاهر الملبوسة ، على أنه مهما يكن قريباً منها فإن هناك في صورة الأشخاص التي يرسمها الفنان شيئاً آخر غير التشابه بين الصورة والشخص ، كما أن هناك شيئاً آخر في أى لوحة ، خلاف الجزء المطابق للواقع . . . وبفضل هذا الشيء الآخر ، تصبح الأعمال أعمالاً فنية .

وإذا كانت الواقعية عكس الفن كما يرى ديلاكروا (٣٥) ، وهذا صحيح جداً فإنه لا بد من فهم تعبير الواقعية بمعناه المباشر الدقيق ، وبحيث لا يمكن أن يكون الفن واقعياً أبداً ، بمعنى أن المصورين ، والكتاب الذين ينادون بتبعيتهم لهذا المذهب لا يقدمون لنا أعمالاً جميلة إلا لأنهم جحدوا هذا المذهب . ماذا يمكن أن يتبقى إذاً من الواقعية . . ؟ وماذا يمكن أن نحتجز منها مما يمكن الاعتراف بوجوده ؟ وبماذا كان يطالب في الواقع الفنانون وأصحاب المدارس الواقعية الذين كانوا يبشرون بها ؟ ثلاثة أشياء تبعا للأحوال :

فإما أن الواقعية رد فعل سليم ضد الروح التقليدية الأكاديمية ، وضد الجمال التقليدي والمزركم في المتاحف وفن التصوير الذي يمارسه المصور في غرفته . وهنا نعود إلى الواقع الذي يغرس بناء عليه الفنان حامل لوحته في صميم الريف مثلاً ، ويبحث عن مواقف لم تدرس من قبل ، تقدمها له نماذج غير مزيفة . وفي هذا المعنى يصبح ديحا ولوتريك واقعيين ، الأمر الذي لا يمنعهما من تجميع وتحويل رسومهما بحيث تظهر فيها روحهما . وإما أن توضح الواقعية تعارضاً يقوم بين طبائع معينة وأنواعاً « نبيلة » تقليدية وموضوعات مستعارة من التقاليد الرسمية ، فبدلاً من الارتباط مثلاً بمناظر القصور الملكية وقاعات الاستقبالات والمبارزات بين أفراد الحاشية يقوم الفنان بجمع موضوعاته من الأحداث التي تجري في النوادي الليلية والقرية والمصنع وبيت الدعارة والمستشفى . ولكن لا يعني هذا أن الفنان ينقل ما يرى بغباء ... فلوحة مثل « جنازة في أورنان » واقعية كل الواقعية لكنها أكثر حقيقة من الطبيعة ، وإما - أخيراً - ترمى الواقعية إلى تفضيل الحياة الغريزية والناحية الحيوانية للكانن البشري ، أو حتى الناحية الدينية المنحطة منه . ومع ذلك فإن حفلات شرب الخمر وحفلات الرقص الصاخبة - ليست أكثر واقعية من جمال أبطال الرياضة في البارناس جبل الأولمب ، أو من السموات كما صورها انجليكو . وما من مهرجان فلنكني انصف بنفس الحركات الجنونية والسرور الذي لا قيود له ، وبالاختصار بالروح الشاعرية الجارفة ، كهذا الذي صوره روبانس ، وما من وسيطة عاهرة كان فيها فارغاً من الأسنان ، وعيونها أشد قبجا من تلك التي يقدمها جويوا في لوحة « العجوزات » . إنها مثالية إذا تلك الطريقة التي ترمى إلى التخفيف من قبج الإنسان والوجود . ومثالية تلك التي تصرف النظر عنها تماماً ، إنها مثالية معكوسة لا ترتفع بل تهبط بها إلى أسفل درجة ، أي إنها تضفي صفة شاعرية على توافه الأمور وكل ما انطوى على وحشية وعار . أي واقعية ! لا . .

ماهى اللوحة ؟

ماذا تكون وظيفة فن التصوير إذا ، إن لم يكن يرمى إلى تكرار الطبيعة ؟
بتعبير آخر ، ماهى اللوحة ؟ سوف نجيب عن هذا السؤال بتلك الإجابة
التقليدية التى قال بها موريس ديني : « تذكر أن اللوحة سطح مسطح غطى
بالوان تم تجميعها بنظام معين ، بقصد بعث اللذة إلى البصر ، وهى كذلك
قبل أن تكون حصان معركة أو امرأة عارية أو قصة مسلية ، (٣٦) . إن
هذا التعريف الذى يقدمه لنا صاحب كتاب « النظريات ، يتفق واتجاه
الحركة الرمزية التى ينتمى إليها ، ولو أن من الجائز فصله ، - أى التعريف -
عن هذه الحركة دون الإضرار به مادام علم الجمال الحديث والطريقة التى
يمارس بها المصورون ففهم لم ينفكا يؤكده منذ نصف قرن .

ونتيجة هذا أن يصبح للوحة مركزا ارتكاز ، أو بالأحرى موضوعان ،
لأحدهما أسبقية على الآخر من حيث الأهمية : أول هذين الموضوعين ذلك
الذى يطرق تفكيرنا مباشرة ، والذى نسميه موضوعا «أديا» حيث لا
نستطيع ترجمته باللغة . والمقصود بهذا الموضوع الذى تصوره اللوحة ويصدر
فى عنوانها مثل لوحة « تعبد تلاميذ المسير » - أو - « رحيل إلى جزيرة
الأحلام » - أو - « وجبة الإفطار » الخ ... أما الموضوع الآخر . فهو
الذى يأتى إلى تفكيرنا فى المرتبة الثانية رغم أنه « الأساس » ، ونقصده به
الموضوع التشكيلى بالمعنى الصحيح ، أى الشكل الذى تجسم بفعل المادة على
هيئة عمل فنى ، وهو ترتيب معين للخطوط والألوان والأضواء والظلال .
وكيفية معينة لوضع الأجزاء فى تناسق خاص و«اتزان» يسميه ديلاكروا
« أرابيسك » أو تصنيف على نظام فن البناء العربى - أو ما يسمى كذلك
« موسيقية اللوحة » . « فإذا دخلت إلى كاتدرائية ما ووجدت نفسك واقفا
فى مكان ، على مسافة كبيرة جدا من لوحة ما لتعرف ما تمثله هذه اللوحة

لأخذ لك هذا التوافق الساحرى . ولعل الخطوط وحدها كفيلة أحيانا بأن تكون لها هذه القوة بفعل عظمتها^(١) .

هل تفكر إذاً في أن تحتفظ لكلمة « الموضوع » بمعناها الشائع ؟ لابد لنا أن نميز في كل عمل تصويرى بين الموضوع والقطعة ، بالمعنى الذى يطلقه الهواة على قطعة تصويرية جميلة (٣٧) على أنه يمكن طرق الموضوع بمهارة كبيرة في حين تظل القطعة عديمة القيمة ، وعلى أن هناك ألف طريقة لتحقيق قطعة عظيمة بموضوع واحد . وليس السبب في هذا هو أن الموضوع يحتمل طبقات مختلفة في التفاصيل أو وسائل مختلفة للتفكير فيه ولتنفيذه ، بل إن السبب هو أننا نحمل في نفوسنا أفكاراً تصويرية مختلفة حين نطرق عملاً يليه عمل آخر وهكذا ... أقصد وسائل مختلفة يتخيلها المصورون للملء فراغ اللوحة « بالوان يتم ترتيبها في نظام تجمعى معين » - وعلى العكس من ذلك يحدث أن تستغل لوحات مختلفة لا علاقة بين موضوعاتها وعناوينها . . تستغل موضوعاً تشكيمياً هو بعينه فيها كلها . مثال ذلك لوحات « دانتى وفرجيل في الجحيم » - أو « غرق سفينة دون جوان » - أو « المسيح على بحيرة جنيزاريت » التى صور منها ديلاكروا سبع نسخ ، كل هذه اللوحات تتخذ لنفسها نفس الهدف البصرى الذى استقاه ولاشك من لوحة « غرق سفينة ميدوز » (لجريكو) وموضوعها كما نعلم حطام سفينة محملة برجال أصابهم الرعب ، وهى تطفو على أمواج قائمة .

وهناك على مستوى آخر فرق بين الموضوع والقطعة ، فى ذلك التميز الذى يقترحه « لوهت » بين اللوحة وحالة الشبه ، والمهم هنا « أساساً » هو أن الشبه

(١) انظر بودلير : إن الطريقة السليمة لمعرفة ما إذا كانت هذه اللوحة موسيقية هى أن تنظر إليها من بعيد حيث لا تفهم لا موضوعها ولا خطوطها . فإذا كانت موسيقية (ميلودية) كان لها معنى واتخذت مكانها في جدول الذكريات - أعمال بودلير . طبعة بلياد ص ٦٠٦ .

ثانوى ، وأنه إذا لم يكن خيال الفنان مشوها بشيء ما فإنه يبدأ بالبداية ، أى باللوحة . نقصد بمجموعة من الألوان والزخارف يجمعها بذوق ، ويجوز أن يكون الرسم الأولى تافها ، وأن تكون نغمات ألوانه سهلة ، لكن لابد أن يكون إدماجها جميعا فى كل يسر البصر عاملا يجعل منها أولى سلاسل التجمعات التى تستطيع الوصول إلى مرتبة السمو بفضل الموهبة والمصادفة . والطالب فى مدرسة الفنون الجميلة يبدأ بالنهاية ، أى إنه يأخذ الشبه فى اعتباره أصلا ليقلد الشيء . ولو أن أساتذته لا يطلبون إليه الدقة . . . لكن هناك انتعاشا روحياً يزيد عن عمله ألف مرة فى « أكاديميات » مونا بارناس ، لأن الذين يمارسون الفن فى شوارع هذا الحى لا يهتمون بتقليد النموذج ، ولأن الفنان الشاب هناك يترك لنفسه حرية تثبيت انطباعاته التشكيلية وهو مسرور . . . وهو إذ لا بالى بروح النقد تجده يعرف مدى قيمة اكتشافه هو ، ويميز الثمن فى شخصيته هو ، ويصل هكذا عن طريق سلسلة من التجارب إلى أن يبتدع لنفسه لغة أصيلة . »

ماهى اللوحة إذا ؟ نظن أننا نستطيع الآن أن نحددها تقريبا . نقول إنها شيء يتضمن قيمة وبناء ووجودا ، كلها قائم بذاته ، بعيد عن موضوعها . وهى كالسكان الحى جهاز له كيانه الذاتى ومطلبه ، تحكمه قوانين خاصة به لدرجة أن — كما يقول كونستابل — « ما هو جيد فى أحدها يمكن أن يكون ردينا جداً إن نحن نقلناه إلى غيرها ، — على أن العناصر التى تتكون منها اللوحة متضامنة فيما بينها ، يعتمد بعضها على الآخر اعتمادا متبادلا . ويقول نفس المصور (كونستابل) « إن جميع أجزائها ضرورية بعضها لبعض باعتبارها كلا ، ولدرجة أنها تشبه مجموعة رياضية . فإذا حذفت

(*) انظر ص ٨٢ هذا نفس التفسير الذى يقدمه ديجا فى هذه الحكمة : ليس الرسم شكلا بل هو طريقة رؤية الشكل . ويشرح فاليرى هذه الكلمة بقوله : لقد كنت أحاول فهم ما يقول هنا (أى ديجا) فهو يضع الإخراج — أى التمثيل المطابق للشيء أمام ما يسميه (الرسم) أى طريقة الرؤية والتنفيذ كما يمارسها فنان من أجل الدقة . انظر ديجا — الرقن — الرسم — فى أعمال فاليرى . طبعة بليارد الجزء الثانى ص ١٢٢٤ .

أو أضفت رقما واحدا أصبحت المجموعة الرياضية خاطئة ، (٣٨) . ، بمعنى أن هذه اللمسة تتطلب لمسة أخرى معينة ، وأن ذاك الخط فى حاجة إلى ذلك الخط الآخر . احذف هذا أو أضف ذاك ، تجد أن التوافق الساحر قد تحطم . وبالاختصار تكون « اللوحة كآلة تستوعب العين المدربة كل أجزائها وطريقة سيرها ، لكل شىء فيها علة وجود إن كانت اللوحة طيبة . - إنها تضم نغمات ترمى كل منها إلى إعطاء قيمة للآخرى ، وإذا حدث خطأ طارىء فى الرسم مثلا ، فإنه يجوز أن يكون هذا الخطا ضروريا حتى لا يضحى الفنان بشىء أكثر أهمية منه ، (٣٩) .

والقطعة المصورة ، هذا « المنطق الملون » كما يسميها سيزان ، أكثر أهمية من الرسم وتصحيحه وعلى المصور أن يخضع له حتى يستوعب الحقيقة كما يرى ، ولعله يضطر فى هذا إلى تشويه الرسم نفسه ولا بد لنا هنا من أن نميز ، تبعا للأستاذ دينى ، بين نوعين من التشويه ، منها « التشويه الذاتى » الذى ذكرناه آنفا ، والذى ينبع من الطبيعة الخاصة للفنان ولعواطفه ومشاعره وأعماق نفسيته العاطفية ، لكن هناك أيضا « التشويه الموضوعى » ومصدره المزاج التصويرى . الذى يؤدى بالفنان إلى « نقل كل شىء نقلا جميلا ، ويمكنه تسميته أيضا « التشويه الزخرفى » ، إذا كان سببه اضطراب الفنان إلى « تسكين خياله بالقوانين البدائية للزخرفة » . والمقصود بهذا مطالب اللوحة كلوحة - والواقع « أن الإنسان الذى منحته الطبيعة القدرة للعجبية على إبداع جمال بالألوان والأشكال لا يستطيع أن تكون له موضوعات أخرى غير تناسقات الألوان والأشكال فكل المناظر وكل العواطف وكل الأحلام تلخص بالنسبة له فى تجمعات بين بقع الألوان التى تتخذ شكل علاقات بين نغمات وأصباغ لونية وخطوط » . (٤٠) .

وكما قلنا ، يلاحظ أن مطالب اللوحة هى التى تضطر المصور إلى

التبسيط والاستئصال والاختيار... ولنتذكر هنا ما علمنا آنجر حين قال :
 «إن الأشكال الجميلة هي التي تتصف بالثبات والامتلاء ؛ وهي التي تقضى فيها
 التفاصيل على التشكيلات الكبرى» (٤١) . ودیلا کروا ینادی ، أكثر
 من آنجر بقانون التضحية بالتفاصيل ، فهو یمتدح لدى «فیرونیز»
 «عدم اهتمامه ظاهريا بالتفاصيل ، مما يؤدي عنده إلى البساطة» ، الأمر الذي
 يرجع إلى «عادة الزخرفة» (٤٢) . هذه التضحية مؤلمة للفنان ولكنها
 ضرورية لأن «كل ما كان يبدو كأنه تنفيذ في دقيق ومناسب فحسب يصبح
 الجفاف بعينه ، الجفاف الذي يرجع إلى انعدام التضحيات بوجه عام» (٤٣)
 وعلى العكس من ذلك «يكون الفنان العظيم هو الذي يركز اهتمامه في إلغاء
 التفاصيل عديمة القيمة ، أو المقذعة أو البلهاء . وهو الذي تتمتع يده بقوة
 تنظم وتبني وتضيف وتلغى ، وتعمل عملها في أشياء هي ملك لها . . . وهو
 الذي يتحرك في مملكته ويقدم لنا فيها حفلا نظمه بذوقه هو . أما في العمل
 الذي يقدمه فنان رديء فإنك تشعر بأنه لم يكن يسيطر على شيء ، وبأنه
 لم يكن يمارس أي عمل على كمنلة من مواد أولية مستعارة» (٤٤) .

من هذا نفهم أن من الجائز أن يكون النموذج مصدر ضيق للمصور .
 وأن المصور يريد أن يتخلص منه في لحظة معينة . لاشك أن من الضروري
 أن ندرس النماذج في عناية ، لكن لابد أن تسبق هذه الدراسة عملية تنفيذ
 العمل الفني . أما أن يكون النموذج تحت أعين المصور خلال التنفيذ ، فهذا
 شيء رديء . هذه الحقيقة ليست جديدة ، فنحن نجد هذا عند ديديرو : «عرفت
 شابا كله ذوق ، كان يركع على ركبتيه قبل أن يلقى بخط واحد على اللوحة ،
 وقد كان يقول : «يا إلهي . . . أنقذني من النموذج» (٤٥) . واتفاق الفنانين
 حول هذه النقطة يلفت النظر . فلقد قابل آنجر عدوه ديلا كروا مرة ،
 وقال له : «مهما تكن عبقريتك ، فأنت إذا لم تصور من واقع الطبيعة
 التي نقلتها ، بل صورت من واقع النموذج ، فإنك ستظل عبداً وسوف

يشعر الناظر بالعبودية إن نظر إلى لوحته «^(١)» ويرد عليه ديلاكروا بقوله : « يجب أن يظل استقلال الخيال قائماً بأكله أمام اللوحة . . . إن النموذج الحي بالمقارنة بذلك الذي صورته وأوجدت التناسق بينه وبين باقي التشكيل . . . هذا النموذج يضطر الفكر إلى فقدان الطريق ويدخل عنصراً غريباً في مجموع اللوحة » .

والنتيجة « أنه لا يستطيع التأثير في الناظرين والإفادة من النموذج عند استشارته أولاً أولئك الذين يستغنون عنه مقدماً » (٤٦) . ولا يخالف هذا المصورون الانطباعيون . ألم يقيم رينوار بتصوير ورود وهو ينظر إلى جسم نزعت عنه الملابس . أو « امرأة عارية » وهو ينظر إلى ورود ؟^(٢)

الرؤية الفنية

لقد وضعنا أنفسنا إلى هذه اللحظة في موضع المصورين . ويحسن بنا الآن أن نضع أنفسنا موضع الناظر العالم بالأمور ، والهاوى ، والعارف بأمور فن التصوير . ماهي اللوحة بالنسبة لهؤلاء ؟ بالنسبة لحال ، تعتبر اللوحة شيئاً مسطحاً ، قابلاً للكسر ، يشغل حيزاً كبيراً ، وبالنسبة للتاجر بضاعة لها ثمن . أما بالنسبة للهاوى ، فهي أساساً لوحة . . . لكن هذه

(١) انظر هذا الكتاب ص ١١٦ : يمكن ملاحظة أن آنجر يعتمد تدريجياً عن النموذج ليقرب تدريجياً من « الشكل الجليل » . لذا نحن اخترنا الدراسات الأولية (الكروكي) لروحاته . انظر أيضاً الحالات الأربع في كتاب رينه هويج : حديث من المرئي (عن رافائيل والفورنارينا) ص ٨١ - ٨٢ .

(٢) هذه حالة موني من واقع بونارد . انظر رينه هويج ص ١٠٤ وبالنسبة لجوجان وهو ليس من الانطباعيين هناك نصيحة تلخص في « ألا يجب أن تصور من واقع الطبيعة ، لأن الفن تجديد . استخرج الفن من الطبيعة وأنت تعلم أمامها ولا تفكر في الإبداع الذي ينتج عن ذلك ، فهذه هي الطريقة الوحيدة للصعود نحو الله بأن ندع أو نمثل كما يخلق سيدنا الأكبر « الله » (انظر خطابات جوجان إلى زوجته وأصدقائه - ص ١٣٤) .

« المخيلة الفنانة » لا توجد في الشوارع ، بل هي في حاجة إلى روح جمالية نامية ، وعين مدربة . وكـم من المرات يعتقد الإنسان أنه يحب الفن ، والحقيقة أنه يبحث عن شيء آخر غيره . . . إن أولئك الذين يفعلون هذا هم في الواقع عميان بالنسبة لفن التصوير . ولقد أطلق عليهم ديلا كروا كلمة من المزامير يعرفها الناس جميعا : « إن لهم عيوننا ولكنهم لن يروا » ، يقصد بهذا أن يبين أن من يستطيعون الحكم حكما سليما على الفن نادرون . وها هو ذا يضيف إلى قوله : « إن التأثيرات الغامضة التي يوحى بها الخط واللون . . . وأأسفاه ، لا تجد لنفسها إلا القلائل من الأتباع . . . إن هذا الحفل الموسيقي . . . لاشيء . بالنسبة للكثيرين . . . أولئك الذين ينظرون إلى اللوحة كما ينظر الإنجليز إلى منطقة ما وهم مسافرون » (٤٧) .

حذار أن نكون مثل هؤلاء الناس . . فحيث إن قيمة اللوحة لا ترجع إلى موضوعها ، فنحن لن نحكم على قيمتها الفنية إلا تبعا لمدى المهارة التي طرق بها موضوعها . أما التمثيل فهو ثانوى ، ونحن لن نبحت فيها هو أساسى منه ، وإلا وجدنا أنفسنا ونحن نخلط بين فن التصوير والصور العادية فحسب ، ولو أننا لا ننوى ذم الصور العادية . لكن لابد ، لكي نثبت ذاكرتنا بهذا الصدد أن نحدد أفكارنا ونوجه خيالنا ونوقظ عواطفنا . إن أغلب مناظر صلب المسيح الموجودة في الكنائس والقبور والميادين والقرى صور فحسب ، وهي صور لوجودها شرعيته ولا شك ، لكن الهدف من الصورة يختلف عن نظيره الذي ترمى إليه اللوحة . إنها - أى الصورة - ترمى إلى تمثيل شيء ، وكلما كانت واضحة متميزة ، متكلمة ، ذات هدف تعليمى ، كانت طيبة ، نقصد أنها كلما كانت شبيهة بالنموذج إن كان هذا النموذج حياً أو غير قائم في الحقيقة أصلا . لاحظ إذا أن الصفات

اللازمة للصورة العادية الجيدة تختلف كل الاختلاف عن تلك التي تتميز بها اللوحة الجيدة . (٤٨) .

هذا ، وسوف نبحث في الفن التجريدي فيما بعد ، وفيما عداه ، يصبح العمل التصويري ممثلاً لشيء ما . ولو بشكل غامض . وهكذا تصبح اللوحة عامة صورة ، وهى بهذه الصفة تثير لدى الناظر عواطف معينة ، فأنا أشعر بالشفقة أمام لوحة تمثل نزول قديس مصلوب من فوق الصليب ، أو بالرعب أمام أكلة لحوم البشر ، أو بالحنان أمام منظر للأمومة ، أو بالكبرياء أمام استعراض عسكري . إلا أنه يجب أن نتجنب أن تقع فريسة للخداع . . . فكل هذه المشاعر لا تمت للجمال بأى صلة ، لأن من الجائز أن تثيرها أى لوحة ملونة رديئة ، كما أنه لا صلة لهذه المشاعر بالمتعة التي تنتج عن « قطعة مصورة » . فإذا لم تستبعدوا المخيلة الفنانة ، فهي تخفف منها ، أو توقفها مادامت هذه المخيلة قائمة ، لتحل محلها المشاعر الأخرى التي تختلف عنها .

لهذا السبب يمكن أن يظل الإنسان غريباً عن فن التصوير إن هو اقتصر على استقبال اللذة والجيشان الانفعالي ، وكلاهما ينبع من الحب أو الحرب أو العلم أو الفهم أو الدين . . . يدل على ذلك « أن اللوحة التي تصور أشياء جامدة توكل لا تهدف إلى فتح الشهية ، والتفاح الذي يصوره سيزان في لوحاته لا صلة له بجواء » (٤٩) — هكذا يقول أوزنفاث مهما يكن قريباً من خداع البصر فإن الكلمة التي ينطق بها عارف بأمور الفن لن تكون « إننا على وشك أن نأكل منها » . كما أن لوحة تصور امرأة عارية لا تثير الغريزة الجنسية بالضرورة . ولعل ما يقوله ريدون بصدد هذا صحيح ، من أن « المرأة العارية ليست امرأة انتزعت عنها ملابسها » (٥٠) . ولقد كان على حق — هكذا يسرد الثقة الأستاذ ديني — حين قال لأحد تلاميذه وهو يرسم امرأة عارية « هل تنوى الرقاد مع هذه المرأة ؟ » . ولعل في

هذه الكلمة لوما عجبيا ، لأن لوحة لامرأة عارية - هكذا يدولى - يصورها فنان حق ويتأملها فنان حق - تكون قبل كل شيء قطعة تصويرية ، وإلا أمكن أن تحل الصور الفوتوغرافية للمرأة محل اللوحات الفنية .

وباسم هذه المبادئ نفسها نرفض فكرة التسلسل في « الأنواع » التصويرية رغم أنها ظلت موضع اعتراف الجميع منذ مدة طويلة . والمفهوم أن هذا التسلسل كان مبنياً على المدى الأخلاقي للموضوعات ، فقد كان التصوير الديني يحتل المكانة الأولى ، ويجيء بعده التصوير التاريخي ثم .. في نهاية السلم إلى أسفل مناظر الطبيعة والأشياء الجامدة . وكان المصورون أنفسهم يقدرون درجاتهم فيما بينهم تبعاً لهذه « الأنواع » ، فكان « مصور التاريخ » يعتبر نفسه في درجة أعلى بكثير من مصور مناظر الطبيعة . وكان لهذا يطلب أجوراً أعلى منه بكثير . وكان الجمهور من ناحيته يشجع المصورين على هذا بتفضيله « للتصوير الأكبر » ، الذي كان في نفس الوقت موضع تقدير الجهات الرسمية وطلباتها . ويذكر أنه عندما قدمت إلى لويس الرابع عشر لوحات من تنبيه ولونان زم شففيه اشمزازا وأمر في جفاف أن « ارفعوا عن أنظاري هذا القبح » .

وفي وقتنا هذا الذي أصبحت فيه أدنى لوحات شاردان مصدر فخر مجموعة ما يقتنيها هاو .. في حين أن مخازن الدولة تزدحم بلوحات ديتاي في هذا الوقت نجد أنفسنا وقد رجعنا إلى هذا التسلسل .. فأقل شيء يمكن أن يهم أبصارنا هو موضوع القطعة التصويرية ، وإلا أصبحت لوحة تمثل قائداً ما أجمل بالضرورة من لوحة أخرى تمثل ضابطاً صغيراً . فهناك إذأ بالمعنى الشعبي لهذه التعبيرات تصوير عظيم وتصوير صغير . أو إن هناك لوحات طبيعية وأخرى رديئة . صحيح أننا نستطيع التحدث عن العظمة في الفن بمعنى غير هذا نقصد تلك التي ترجع إلى الأسلوب والتي ترفع أتفه الموضوعات

إلى مستوى يفوق أسماها ، كأن ترفع صورة فنية تصور مهرجا إلى مستوى صورة فنية أخرى للمسيح . عظمة إذاً تلك التي تصف بها لوحات تصور مهرجا ، وأخرى تصور المسيح ، كما يقدمها المصور رءولت

وفي إطار نفس الفكرة كذلك نفهم قيمة لوحة اكتملت دون أن تكون قد انتهت — أو — على العكس من ذلك ، لوحة انتهت دون أن تكتمل . فالعمل الفني ينتهى عندما يكون تنفيذه قد وصل إلى وضع آخر تفاصيله لأن توضع فيه ، أى عندما لم يعد ينقص ورقة الشليك عرق واحد من عروقها، أو لم يعد ينقص هذا الوجه مثلا أحد تجاعيده، أو ذلك الجندي الفارس أحد أزرار غطاء خذائه . أما العمل المكتمل — أو الكامل — فهو الذى يضم جميع العناصر التشكيلية التى يحتاج إليها بناؤه؛ حيث نجد جميع الخطوط والألوان التى تتكون فيها مجموعة متناسقة تكفى نفسها بنفسها . هكذا تصبح فكرة العمل المنتهى متعلقة بموضوعه . أما فكرة الاكتمال فهى تتعلق بالقطعة التصويرية . ولذا فإن هاتين الفكرتين تستوفيان إحداهما الأخرى . لقد كان بعض الناس يعيب على المصور كورو أنه لم يكن « نبيه » مناظره . ذلك أنهم لم يكونوا ولا شك قادرين على تقديم لوحات « مكتملة » ، وكما يقول بودلير قوله الواضح : « هناك فرق كبير جدا بين قطعة فنية « مجهزة » وأخرى « منتهية » . فالشئ المنتهى قد لا يكون مجهزةا على الإطلاق ... بمعنى أن اللمسة الروحية الهامة التى يضعها الفنان فى موضعها قيمة ضخمة » (٥١) .

لن يكون عجيبا إذاً أن تزيد قيمة « مسودة » طيبة عن قيمة لوحة كانت هذه المسودة إعداداً لها ، إذ يجوز أن يفسد المصور عمله بإضافة بعض التفاصيل التى تحطم وحدته . ومشكلة الانتقال من المسودة إلى اللوحة مشكلة هامة طالما شغلت بال ديلا كروا . فقد قال ديلا كروا يوما وهو يعلق على لوحة المسيح فى القبر : « كم أنا مرتاح لهذه المسودة . لكن ما السبيل إلى

أن أحفظ بهذا الارتياح الذى يأتى من تجميع كل بسيطة جدا إن أنا أضفت التفاصيل ؟ » (٥٢) . ثم يقول بعد فترة ، وقد أصابه الحزن : « لا بد دائما من إفساد اللوحة بعض الشيء لإنهائها » (٥٣) . غير أن مثل هذا التساؤم مبالغ فيه نوعا ، فكثير من الأعمال الفنية « المنتهية » وبخاصة أعمال ديلاكروا نفسه ، تعتبر كما يقول هو « حفلا للعين » (٥٤) الشيء الذى يمكن قوله عادة عن المسودة . فهما يكن الأمر ، فإن انعدام صفة « الانتهاء » لا تقلل دائما من القيمة الفنية للعمل التصويرى . بل ويجوز على عكس ذلك وبالقدر الذى يراه الفنان نفسه ، أن يكون إنهاؤها ضروريا لاغنى عنه . خذ مثلا لهذا لوحات المصور « ماتيس » حيث ترى نساء رؤوسهن يضاوية ، لا أعين لها ، ولا أنف ، ولا فم . . . ومع ذلك فهى لوحات « مكتملة » .

من بوردلير إلى مالرو

إن الطريق الذى سلكه الفن من أفلاطون إلى ليونارد ثم بوسان ثم آنجر طويل . ولم يعد من الضروري اليوم أن نبحت فى النصوص المكتوبة لنجد فيها مايدل على أن فن التصوير لا ينبثق عن تقليد مافى الطبيعة ، ولقد أصبح هذا رأى اليوم عاديا لا يناقشه أحد . ولسوف نرى أن كثيرين من المفكرين لم يعودوا يعطونه أهمية تفصيلية بعد أن قام على الجمال منذ منتصف القرن التاسع عشر بثورته الكوبرنيكية الكبرى . ولقد ظل الناس يظنون أن على الفنان أن يخضع أولا لموضوع العمل الفنى . أما الآن فإن الموضوع هو الذى يجب أن يخضع للمخيلة الشخصية للفنان ، وأن يقع تحت تأثير قانونه هو . وما من شك فى أن على الفيلسوف « كانط » جزءا من المسئولية فى انقلاب الأوضاع بهذه الطريقة . لكن هذا الانقلاب يرجع كذلك إلى تطور فن التصوير نفسه . ولقد شهد بهذا التطور أصحاب نظريات الفن ، وإلى حد ما الصانع . فلنلق إذن بعض الأسئلة فى هذا المجال

على ثلاثة منهم عاشوا تباعا وبين كل منهم مدى خمسين عاما ، نقصد بودلير وأوسكار وايلد ومالرو .

لقد سيطر بودلير من علياء عبقريته على تلك الفكرة ، فعلم الجمال الحديث يبدأ معه ومنه ، حيث عاصر مدرسة ساعدته على ذلك ، نقصد مدرسة ديلاكروا ، وقد استقى بودلير منه أفكاره ثم طبعها بطابعه هو ، وأدجها في فلسفته .

إن هناك أسباباً قد يعجب لها الفنان الذي يفضلها — أى ديلاكروا — هي التي جعلت من شاعر « أزهار الشر » عدوا للطبيعة . لقد قال بودلير : « إن أغلب الأخطاء في علم الجمال تأتي من الفكرة الخاطئة التي سادت القرن التاسع عشر ، خاصة بعلم الأخلاق . فلقد اتخذ الناس الطبيعة إذ ذاك أساساً وأصلاً «نموزجاء» لكل خير ولكل جمال ممكنين ولم يكن إنكار هذا العصر للخطيئة الأولى ذا أثر قليل في الجمال الذي عم ذلك العصر . والحقيقة أن الطبيعة — وهي بعيدة عن أن تصلح لشيء — هي التي يرجع إليها قتل الوالدين وقتل البشر . . . وألف جريمة أخرى يمنعنا الحياة ويحرم علينا الذوق أن نذكرها؛ ذلك في الوقت التي كانت الفضيلة فيه دائماً « من نتاج الفن » ونتاج تفكير عقلي يرمى إلى هزيمة الطبيعة (٥٥)

والطبيعة ليست ناصحا أقل سوءاً من الفضيلة وحدها في مجال علم الجمال ، فهي « بذیئة » ، وهي « غبية » ، وقبيحة « لا تقدم لنا شيئاً مطلقاً . ولا حتى كاملاً » (٥٦) . وبهذا لا يعنيه أن يكون هدف الفنان منافستها . لأن الجمال غير قائم في هذه الدنيا ، ومن هنا يصبح « الذوق المطلق للشيء الواقعي قاتلاً للذوق الجمالي » . . . ذلك الجمال الذي لا تشوبه شائبة ، والذي يوحى حبه في نهاية الأمر بالواقعية وبمذاهب التقليد ، « إنى أرى أن مما لا فائدة منه ، بل ومن التفاهة أن أصور ما هو قائم ، لأن ما من شيء مما هو قائم يرضيني » (٥٧)

هكذا يجب الذهاب إلى أبعد مما في الطبيعة، على أن المصور يستطيع أن يطلب إليها — على أكثر تقدير — موادها التي يستخدمها، كما يستعير الشاعر ألفاظه من القاموس، «فما الطبيعة إلا قاموس واسع يقرب الفنان صفحاته ويطلب إليها المشورة بنظرة الواثق من نفسه، بنظرة عميقة،... وعليه أن يبحث فيها عن «العناصر التي تتفق ومذهبه هو، على أن يضبطها لتتفق وفنا معينا، وعلى أن يعطيها وجهاً جديداً للغاية». أما الواقعيون فهم «ينقلون القاموس» ولا يفهمون «أن أول مهمة للفنان أن يحل الإنسان محل الطبيعة وأن يحتاج ضدها.» (٥٨)

وبتعبير آخر «يتعين على اللوحة إنتاج الفكرة الموجودة في سريرة الفنان، الذي يسيطر على النموذج كما يسيطر الخالق على الخلق». وهامى ذى هنا الثورة الكوبرنيكية الكبرى لفن التصوير... فبودلير يضع إذن «ما فوق الطبيعة» محل الطبيعة، هذه «العبادة الفنية للطبيعة» وها هو ذا ينسب إلى نفسه فكرة من أفكار «هاينى» في مجال الفن فيقول: «أنا من فوق الطبيعيين، وأعتقد أن الفنان لا يستطيع أن يجد جميع النماذج في الطبيعة بل إن أكثر النماذج وضوحاً تكشف له في نفسه وتولد تولداً طبيعياً كما تتولد الأفكار التلقائية وفي نفس اللحظة» (٥٩)

وينجم عن هذا أن يتمتع الفنان بحريته كاملة إزاء الواقع. فإلى جانب الرسم الطبيعي الذي يزيد أو يقل مثالية، هناك رسم آخر هو «أشرفها وأعجبها»، وهو «الذي يستطيع إهمال الطبيعة ويصور طبيعة أخرى تطابق العقل والمزاج الخاص للمؤلف». وفي مجال التلوين قد يكون من الخطأ العيب على ديلاكروا تصوير حصان وردى اللون في لوحة «العدل في تراخان». العيب عليه، كما لو لم يكن هناك خيول لونها وردى خفيف، وكما لو لم يكن من حق الفنان على أى حال أن يصورها» (٦٠).

والصفة الرئيسية التي يتصف بها الفنان المصور في هذا المجال ليست المشاهدة بل الخيال ، فالخيال في مجال الفنون الجميلة هو « سيد الملكات » على أية حال ، وهو الذي يحلل العناصر التي تتقدم للحواس والعقل ويبعد تشكيلها كما يترأى له . ولهذا فإن « الصيغة التي يصاغ فيها علم الجمال الحقيقي » تنحصر في هذا المبدأ : « ما العالم المرئى كله إلا مخزن صور ورموز يعطيها الخيال مكانة وقيمة نسبية . وهو نوع من غذاء على الخيال أن يهضمه ويحوله » . ومن هنا كان الفرق بين مصور عبقرى مثل ديبلا كروا ، ومصور واقعى سطحي مباشر ، يجدر بالأخرى أن تقول عنه إنه إيجابي ، فالواقعي يقول « أريد تصوير الأشياء كما هي أو كما تكون لو فرضت أني غير موجود . أما التخيلي فيقول : أريد أن تلقى روحى ضوءاً على الأشياء وأن أعكس هذا الضوء على الأرواح الأخرى » (٦١) .

وليس الخيال الذي نتحدث عنه هنا هو « نزوة الهوى » ، أو الحلم أو القدرة على بناء قصور في الهواء ، بل هو — هكذا يشرحه بودلير مردداً قول مؤلف غير معروف تماماً — « الخيال الإبداعي ، بصفته وظيفة أرفع من ذلك ، هذا الذي يفترض الإنسان صورة شبيهة بالله . ويحتفظ بعلاقة بعيدة مع هذه القوة العليا التي يخلق بها العلم ويصونه » . وبناء على هذه الحقيقة يصبح للخيال « أصل إلهي » ينتمى إلى اللانهاي . « وحيث إنه خلق العالم فمن العدل أن يحكمه » (٦٢) ، الأمر الذي يجب أن نفهمه كما يلي : يصنع الفنان عمله بالعناصر المتفرقة في الطبيعة كما يصنع الخالق عمله من لا شيء ، والنشاط الفني اشتراك من بعيد ، لكنه اشتراك حقيقي في النشاط الخلقى لله .

والمناقضات التي يقدمها وابلد ليست بنفس القوة أو العمق الذي تتصف به بديهيات بودلير ، ومع ذلك فقد كان أثرها كبيراً ، ورغم ما فيها من خيلاء وهواية عتيقة ، فهي لا تزال إلى يومنا هذا ذات مغزى إيجابي .

ياله من خطأ شديد ذلك الذى يقدر العمل الفنى طبقاً لمبدأ الحقيقة ، إذا كان المفهوم من الحقيقة مطابقتها للحياة أو للطبيعة . . . إن الحياة تبعث على الضيق والتفاهة ، أما الطبيعة فهى حزينة تافهة ، فلم نعيد تصويرهما فى حين لا نبحث إلا عن الهروب منهما والفن يقدم لنا طريقة هذا الهروب لأنه فى حقيقته « كذب » ، كذب مفيد هدفه تسليتنا وبعث البهجة فىنا ، وهو بهذا يتضمن حقيقة وواقعا ، لكن هذه الحقيقة وذاك الواقع اللذين يتصف بهما الفن لا يرفعان لا إلى الأشياء ولا إلى الأحداث الجارية فى الحياة العادية ، بل هما الأثر الوحيد للأسلوب .

و « السر الأكبر » هو أن « الحقيقة فى الفن أمر أسلوب فحسب ، والأسلوب هو الذى يجعلنا نؤمن بالشئ » ، وما من شئ يجعلنا نؤمن هكذا غير الأسلوب ، والدليل على ذلك هو أن أشد الأعمال الفنية دقة يلقي فىنا شعوراً بغير الحقيقة إن هو أخطأ فى أسلوبه ، وكل الناس يعرفون أن هناك « قصصاً تطابق الحقيقة تماماً ، ومع ذلك فما من أحد يؤمن بأنها تشبه الحقيقة » وهكذا يمكن نزع الحقيقة من قصة ونحن نحاول جاهدين أن نجعلها حقيقة جداً . وعلى العكس من ذلك ، يلاحظ أنه حيث يوجد الأسلوب - حتى إذا كان التشبه بالحقيقة غير قائم - توجد الحقيقة . ولهذا فإن « الصور الفنية التى تصور أشخاصاً ، التى نرى فيها كل الدقة هى بعينها التى لا تنقل إلا القليل جداً من النموذج ، وتضع الكثير من روح الفنان » (٦٣) .

فلنمتنع إذاً عن ربط الفن بالحياة ، أو بالطبيعة ، أو بأى شئ آخر ، « فالفن لا يعبر أبداً عن شئ آخر خلافاً هو ، هذا مبدئى فى علم الجمال . . . إنه يجد كماله فى ذاته ، لا خارجه ، ولا ينبغى الحكم عليه تبعاً لآى قاعدة خارجية تتعلق بالمشابهة ، وهو حجاب أكثر منه مرآة » بحيث تصبح « المدرسة الحقيقية التى يجب أن يدرس فيها الفن ليست الحياة بل الفن نفسه . أليس الذى يستعيره شيئاً لا يتحول مباشرة ثم ينقل إلى عالم آخر؟

« إن الفن يأخذ الحياة كمادة من المواد الخام التي يعمل فيها ، ويبعد خلقها ويشكلها بأشكال جديدة ، وهو لا يبالى بالحقائق ، بل يخترع ويتخيل ويعلم ويبقى بينه وبين الحقيقة على حاجز منيع هو حاجز الأسلوب الجميل » (٦٤).

هناك إذاً خطأ شائع لدى المؤرخين يقول بأن الفن في عصر معين يعبر عن عادات هذا العصر وتقاليده وعقليته « فالعصور الوسطى مثلاً كما نراها في الفن شكل أسلوبى معين فحسب » كما أن اليابان ، بناء على المصورين اليابانيين أمثال هو كوزاى وهو كى وأتامارو « اختلاق تام مطلق ، ومجرد هوى فى لذىذ » ، والحقيقة أن الفن أغنى وأكثر تنوعاً وخصباً وجمالاً من الحياة ومن الطبيعة . « وما من شك فى أن للطبيعة نيات طيبة ، كما قال أرسطو فيما مضى ، ولكنها لا تستطيع تنفيذها ، (٦٥) والفن هو الذى يحققها ويسمح للطبيعة وللحياة أن توجد التعبير الذى تهدف إليه . ونهاية الأمر أن العالم خلق ليصل إلى لوحة جميلة ، وكما يقول مالارميه فيما بعد إلى ، كتاب جميل .

والعلاقة بين الحياة والعمل الفنى لا تعنى فحسب علاقة بين النموذج والنسخة المنقولة ، بل على العكس من ذلك ، تجد « أن الحياة تقلد الفن أكثر مما يقلد الفن الحياة » . وغالباً ما لا تكون الطبيعة نفسها شيئاً آخر خلاف « تقليد للفن ... فمن أين أخذنا مثلاً هذا الضباب الأسمر العجيب الذى ينزل فى شوارعنا إن لم يكن من المصورين الانطباعيين ؟ من أين هذا الضباب الذى يأتى ليضفى انطفاءه على شعلة المصابيح وليحول المنازل إلى ظلال مرعبة ؟ » فلنفكر إذن . « إن الأشياء قائمة لأننا نراها ، وما نراه ، والطريقة التى نراه بها تتوقف على الفن ، وهى التى تترك أثرها فىنا » . هذا صحيح لدرجة « أن الناس يرون الضباب لأن هناك ضباباً ، بل لأن الشعراء والمصورين قد علموهم ما لآثره من جمال غامض ، وإذا ما تغير أسلوب الفن تغيرت إدراكنا بنفس الوقت - « وأينما تعودت الطبيعة

أن تقدم لنا لوحات من كورو ودويني ، نجدها تعطينا الآن لوحات جميلة أخرى من موني ، ومناظر رائعة من بيسارو ، (٦٦) .

هذا صحيح ولو أن الطبيعة لا ترتفع إلى هذه الدرجة إلا نادراً وبصعوبة ، فغروب الشمس الذي يتبه أمامه المغفلون إعجاباً ليس إلا « لوحة لتيرنر من الدرجة الثانية أو لوحة لتيرنر في فترة كان فنه فيها رديئاً ، وهذه اللوحة التي تمثل منظرأ في الريف ليست إلا « عملاً فاشلاً من أعمال « كويب ، أو وصفا لروسو كله شك أو ما يزيد عن الشك » . انظر إلى أى درجة كان فقر الطبيعة . . . وإلى أى حد يصبح واضحاً « أن المخلوقات الحقيقية الوحيدة هي تلك التي لم توجد أبداً » (٦٧) .

هكذا نرى أن علم الجمال عند بودلير وبدرجة أقل عند أوسكار وايلد ، يرتسمان على خلفية فلسفية . أما عند مالرو ، فهو يرتبط بدرجة أقوى وأشد بمذهب معين عن الإنسان ومصيره ، وسوف نقصه من هذه الزاوية ، ولا بد أن نكتفي هنا بالتقاط ما يتعلق بموضوعنا . وسوف نسمع هنا موضوعات معروفة رتبها المؤلف في تناسق رائع ، وامتاز في هذا بقدره خاصة على توسيع المشكلة على نطاق تاريخي كبير .

فلنقلب إذاً مجلداته التي يحتفظ فيها بصور تقدم لنا روائع الأدب القديم لنعجب بها ، ولنتنزه في متحفه ، هذا ، المتحف الخيالي . . . فإذا نرى فيه ؟ نرى أن الواقعية في تاريخ الفنون لم تكن في الحقيقة إلا فترة ضئيلة ، مرحلة محدودة نسبياً تقابل « حادثاً إنسانياً عابراً ، جرى خلال « ثلاثة قرون من التفاؤل بائسة » ، لم تعرفها الصين القديمة ولا اليونان القديمة . . . كما لم تعرفها بلاد ما بين النهرين وفارس وبيزنطة . . . دون التعرض مثلاً لاستراليا وأحرازاها ، أو لإفريقية وأفنعتها . أو لأمريكا

قبل عصر كولومبو ؛ أو للمكسيك في عصر قبائل الأنكا . « إن فكرة التشابه هذه طريقة مميزة من طرق الفن ظلت زمنا طويلا معروفة في أوروبا الغربية ، لكن كم تذهل بيزنطيا يرى أن الفن يتضمن بالذات تخلصا من الفردية ومن حالة البشرية ليتمتع بصفة الأبدية » (٦٨) .

وابتداء من القرن الثالث عشر الفرنسي تخف فكرة قدسية الفنون باعتبارها ، كما كانت في العصور القديمة أداة لخدمة القيم العليا . ويتضح ذلك في التماثيل القوطية لهذا العصر . وتختفي هذه الفكرة تماما في عصر النهضة ، حيث يتخذ كل من النحت والتصوير صفة بشرية . . . إلى أن ينتقل الفن كله تحت شعار الخيال ، ويصبح هدفه الأخير الأوحاد رفع الحياة الإنسانية إلى مستوى يليق بها . وترى إلى تجميل الحقائق والأحلام ، وتمجيد أعمال الأبطال والآلهة بصفاتهم مخلوقات بشرية ، وكما يحدث في المسرح السامي ، وكما كان الناس يفهمونهم إذ ذاك . هكذا أضفى رافائيل روحا يونانية على التوراة ، وهكذا صور بوسان قديسين ورعاة في بلاد الخيال « اركاديا » ، وهكذا أصبح الفن التشكيلي أساسا ، وعلى مدى قرون عدة فنا يخلق عالما خياليا أو عالما له شكله الخاص به ، بعد أن كان فيما مضى وسيلة لخلق عالم مقدس » (٦٩) .

انظر إذن كيف عاد فن التصوير في الغرب ذاته إلى مهمته الأولى الحقيقية لقد كان أحد أسباب ذلك اختراع التصوير الفوتوغرافي ، ومن بعده مباشرة السينما . وبفضل التصوير الفوتوغرافي ، تحرر فن التصوير من عبودية اتباع النموذج ، وحصل على استقلاله الذاتي غير مقيد بتمثيل الواقع ، وأخذ يجرب نفسه في استخدام الألوان والظلال والأشكال والأضواء في حرية . وكانت السينما كذلك بالنسبة لفن التصوير مساعداً على تحريره وهي تقوم في الواقع بوظيفة عقائدية أسطورية كانت إلى يوم

اختراعها من وظائف اللوحة . . . ويدخل في نطاق مهمة الفيلم اليوم « الرغبة في الإغراء وإثارة المشاعر عن طريق أسلوب المسرح وشاعريته ، وجمال الشخصيات وتعبيرية الوجوه » ، في حين أن اللوحة لا تستطيع إلا أن تكون لوحة . ومن هنا « فقدت المنافسة الكبرى بين التعبير عن العالم وخيال العالم كل معناها . . . بعد أن كانت هذه المنافسة فيما مضى مصدر عبس الفن الرسمي . وأصبح فن التصوير تعبيراً ، في حين أصبحت السينما خيالاً » ، (٧٠) .

ولم يكن ظهور الفوتوغرافيا والسينما هو السبب الوحيد لمثل هذا التحول الجذرى في فن التصوير ، بل يجب أن نضيف إلى جانب أثر الشعراء ، من أمثال بودلير ومالارميه ، وإلى جانب التجديد في التنفيذ الفنى كما أوجده دوميه ومانيه وجويا ومن تبعوهم . . نضيف اكتشاف . . أو إعادة اكتشاف الفنون القديمة الأثرية ، والفنون الأجنبية والفنون البربرية . فالحقيقة أن إدراك فن التصوير كفن تصوير أولاً « أى » كلفة مستقلة للأشياء المصورة تمثلياً على اللوحة « لم يكن » تعديلاً لتقليد يشبه ذلك الذى جاء به أساتذة الفن السابقون ، بل كان انقطاعاً أشبه بذلك الذى أتت به الأساليب التى أعيد إحيائها ، فقد كان الجميع ينادون بصوت إجماعى بأن « الفن يخضع أشكال الحياة للفنان ، بدلاً من إخضاع الفنان لأشكال الحياة » وكان من بين تطبيقات هذا « ذلك الأسلوب الرومانى الذى يطيل أو يقصر الوجوه طبقاً لعملية تحويلية مقدسة ، وكان ذلك الأسلوب ينادى بإمكان وجود نظام لأشكال منظمة ترفض أن تكون تقليداً وتريد أن توجد أمام الأشياء بصفتها خلقاً آخر ، (٧١) .

وهكذا أخذ الفن تدريجياً في ضم العالم إليه ، وأصبحت عملية الضم هذه تتخذ مكانة كبيرة لا تقل عن تلك التى اتخذتها إرادة تغيير الأشكال .

وما من شك في أن كل من سبقوا الكلاسيكية ، من مفكرى العصور الإنسانية (القرن السادس عشر) إلى فناني الأسلوب الخليط . . . كانوا على علم وتقدير تامين باللغة الحقيقية لفن التصوير . . . لكنهم أخضعوا هذه اللغة جميعا لأشياء أخرى بحيث أصبحت في مرتبة ثانوية ، بمعنى أنهم كانوا يأخذون في اعتبارهم ضرورة نقل الأشياء أولا ثم التعبير عنها ثانيا . أما الآن فالأمر أمر تعبير أولا وأخيراً . . . دون نقل أو تمثيل للأشياء ولقد كان المصورون يريدون أن يجعلوا من فن التصوير أصلاً أداة تسيطر على موضوع اللوحة ، لا أن يخضعوا الفن للموضوع ، وهما نحن أولاً هنا نقرب من نظرية الإلهام العميق في علم الجمال كما يراه مالرو : « وليس الفنان العظيم ناقلًا للعالم . بل هو منافس له » (٧٢) .

مول الفن التجريبي

إن مثل هذه الآراء تذهب بنا بعيداً جداً . ولسوف تناقشها في حينها ومكانها ، لكن هناك أمامنا قبل كل شيء سؤالاً : حيث إن موضوع اللوحة شيء غير أساسي ، فهل يمكن لهذه اللوحة . في أقصى حدودها ، بل هل يجب أن نستغنى عن هذا الموضوع ؟ يلوح أن النتيجة منطقية . . فإذا نحن قلنا المبدأ الذي ذكرناه آنفاً والذي تؤكد نظريات علم الجمال الحديثة كلها ، نقصد أن العمل الفني المصور هو قبل كل شيء « سطح مسطح تغطيه الألوان بنظام معين . . . » فإن من الواضح أن من الممكن الاستغناء عن تصوير الأشياء أو تمثيلها ، بشرط أن يكون ترتيب الألوان « حفلاً للعين » ، ويمكن أن تكون لدينا لوحة حقيقية حتى ولو لم نجد فيها أثراً لشيء ينتمي إلى العالم الخارجى . هانحن أولاً إذاً نساوق في خط مستقيم بحكم تفكيرنا إلى ما يسمى عامة فنا تجريديا .

لا بد أولاً من أن نأخذ من الاعتقاد بأن الفن التجريدى ، وقد مضى على ظهوره نصف قرن - ما دامت أصوله تبدأ ببداية هذا القرن - عبارة عن نزوة شعر بها جهلاء أو أناس سيطرت عليهم الخيلاء ، أرادوا فحسب جذب إعجاب جماهير المعجبين . إنما هو انعكاس لموقف وقفه الفنانون المصورون إزاء فن التصوير ، وكان أولهم ديلا كروا . وهو نهاية من نهايات هذه الثورة التى جاءت بحركات الا نطباعية والوحشية والتكعيبية والسريرية والإنشائية الخ . . . ولقد ظل فن التصوير الأوروبى مدة طويلة قبل ذلك يتخبط فى الغموض ، حيث اتخذ الناس من الفن التجريدى منذ ظهور « كواترو شنتو » مذهبا أدبيا أكثر منه تصويريا . . . حين كان يتعين على أنصاره أولاً أن يصفوا للناس ويحكوا لهم ويقنعوهم ويحركوا مشاعرهم ، وحين لم ينتج فنانونه أعمالا فنية كبرى إلا بمعارضتهم للأفكار العتيقة ومقاومتها .

وكانت الواقعية الرسمية فى القرن التاسع عشر قد وصلت إذ ذاك إلى أكبر درجة من السوء والمسخ ، وكان لابد من ظهور رد فعل ما ، ولم يكن الفن التجريدى إلا القمة العليا له . . . يريد أن يكون أشد المحاولات جرأة لإعادة فن التصوير إلى نفسه ، وتنقيته من كل شائبة ، ومن كل « ثرثرة » . فكذا ذهب « بيت موندريان » مثلا إلى حد استبعاد كل عنصر تشكيلى غير الخط المستقيم والزاوية القائمة . واعتبار الخط المائل معبرا عن سراب لا لزوم له . . . إذ من المستحيل رسم جزء من منحنى دون أن يرى الناظر إشارة لحقيقة طبيعية ، كهضبة أو رأس أو ثدى أو كتف . أما الخط المستقيم ، فهو على عكس ذلك غير موجود فى الطبيعة ، ولهذا فهو لا يعنى إلا نفسه . ونحن أحرار فى أن نصدر حكما على هذا التمسك المبالغ فيه لكنه يمتاز على الأقل بأنه إنذار إلى أولئك الذين لا يفرضون هذا التمسك على أنفسهم ، ويذكروهم بأن ما من مصور اليوم ، سواء أ كان تجريديا أم غير تجريدى ،

يستطيع أن يصور — إن كان مخلصا — كما كان فناؤ الماضي يصورون .
« إن فكرة فن تصوير تمثيل ، بالقدر الذي يعتبر به فنا ، فكرة لمستقبل
لها » (٧٢) .

لكي نتجنب ألا يمتص موضوع اللوحة الانتباه كله ، يجب اتباع أنجح
الوسائل ، وهي ولا شك إلغاؤه . وبقص لنا « كاندنسكي » بهذا الصدد تجربة
كانت هي الأصل في عمله الفني التجريدي . فقد دخل يوما إلى غرفة التصوير
التي كان يعمل بها ، ورأى فجأة « لوحة لا شك أنها كانت جميلة ساطعة
تخرج منها أضواء داخلية » ، ولم يكن يرى فيها غير « أشكال وألوان لم يكن
يفهم محتوياتها » . وكانت هذه اللوحة — ولم يعلم ذلك إلا بعد أن انتهت
دهشته — إحدى لوحاته هو ، إلا أنها قد وضعت إلى جانبها — وفي اليوم التالي
اختفى إعجابه هذا . . . حيث أخذ يدرك الأشياء التي تمثلها اللوحة حتى
رغم وضعها مقلوبة . . . وهكذا منعت الأشياء الممثلة في اللوحة من التمتع
باللذة التي شعر بها أول الأمر . وانتهى إلى القول بأن هذه الأشياء هي التي تفسد
فن التصوير نفسه (٧٤) .

ماذا تعني إذن اللوحة التجريدية ؟ إنها لوحة . . عبارة عن قطعة
تصويرية فحسب ، وما دامت لا تعبر عن موضوع ما ، فإنها تصبح هي في
ذاتها موضوعا ، قيمته في بنائه الداخلي وفي تنظيم عناصره وتماسك أجزائه .
وهي تشبه في هذا قطعة موسيقية ليست في حاجة لكي تبرر وجودها إلى
أن تعني شيئا . وهكذا يمكن تعريف الفن التجريدي من وجهة النظر هذه
بأنه نوع من موسيقية التصوير . وفي نفس الاتجاه ، نقول إن شعرا حديثا
ما يرمى كما سنرى إلى استخدام الكلمات لمجرد الرنين الذي يصدر عنها
وبصرف النظر عن معناها ، شعر تجريدي . ولقد أوضح المصور «التان»
هذا التقابل فقال : « أعتقد أننا نستطيع القول بأن المصور غير التمثيلي هو
الذي يقبل استخدام الأشكال والألوان والأضواء دون أن يبدأ من موضوع

سبق تحديده تماماً في إطار نفس الروح التي كان الشاعر ما للارميه ينصح الشعراء بناء عليها بترك معنوية الكلمات . وإذا ما قبلنا هذه الخطوة الأساسية ، فإن من غير المهم كثيراً أن يكون العمل الناتج شبيهاً بشيء أو بلا شيء من المعروف ، (٧٥) .

والرغبة في الإنشاء التصويري في هذا المعنى لا تستبعد لدى سادة الفن التجريدي ضرورة بذل الجهد لربط العمل بالطبيعة ، أو لربط العمل بالتعبير عن شخصية المصور . وما من شك في أن هناك أعمالاً فنية تجريدية عقلية ، كتلك التي نفذها موندريان وفنانو الفن التشكيلي الحديث في هولندا وآخرون مثل هارتونج وبازين وماينير . فاللوحة غير التصويرية مثلها مثل التصويرية تتولد في نقطة تقابل بين قوى ثلاث ، تسيطر إحداها على الآخرين أيا كانت تبعا للأحوال ، ونقصد : قوة التنظيم الشكلي ، والحب الشديد للحقيقة ، وتدفق الحياة الداخلية .

لكن بدلاً من أن يعيد المصور التجريدي مناظر الطبيعة التي تؤثر فيه نجده يحل محلها معادها التصويري ، وليس من المهم في نظره أن يتعرف الناظرون الأشياء أو لا يتعرفون ما دامت الصفة الملبوسة والروحانية في آن واحد لهذه الأشياء قد تم التعبير عنها ، وها هو ذا «براك» يقول : «إني أريد أن أضع نفسي في حالة اندماج توحيدى مع الطبيعة ؛ بدلاً من نقلها ومفسير الذي يعتبر من ضمن التجريديين أيضاً يقول بدوره : «إن لوحاتي تريد أن تكون شاهداً على شيء يعيشه القلب ، لا أن تكون تقليداً لشيء تراه العين» .

على أن الاتصال الذي يحدثه المصور بينه وبين الطبيعة موجود في العناوين التي يطلقها أحياناً على لوحاته ، ولو أن هذه اللوحات لا تمثل شيئاً ، ولوحة مثل «ميناء كروتوا في الفجر» للمصور منسييه ، أو «ربات

اليوت في السوق، للصور بازين ، لا تعبر ، لاعن منظر في الطبيعة (بالنسبة للأولى) ولا عن صورة لنساء ما (بالنسبة للثانية) ، بالمعنى الذى يفهمه المصورون التمثيليون لهذه الكلمات . لكن من الواضح طبعا أن الانطباع الناتج هنا عن منظر الميناء هو نقطة البدء والأساس في تفكير منسيه ، كما أن منظر النساء في السوق هو الذى أوحى باللوحة لبازين كما يمكن أن نقين من التركيب التقريبي للوحة « (٧٦) » .

ومن وجهة نظر أخرى لابد من ملاحظة أن المصور التجريدى لا تنقصه العاطفة ، فالعالم الداخلى الذى كان يشعر به الفنان ويصوره على شكل أشياء نابعة من العالم الخارجى ، هذا العالم الداخلى ، يريد الفنان التجريدى أن يعبر عنه مباشرة وعن طريق قدرة الألوان والأشكال . ويكتب منسيه بهذا الصدد فيقول : « إن الأمر هو أن نوضح تماما بالطرق التشكيلية المعترف بها ، المعادلات الروحية للعالم الخارجى ، والعالم الداخلى ، وأن نجعل هذه التقابلات مفهومة عن طريق النقل على اللوحة » . وهكذا تتداخل وتتطابق المشاعر أمام الطبيعة في الخيال الإبداعى للصور . « ومعها الاندفاعات الخاصة للنفس والاكتشافات الخاصة بالتناسق المطلق » . فالأمر إذن أمر البحث عن لغة أو رمز تشكيلى يضم عالم الحواس بصفته مصدر المشاعر ، وعالم الروح بصفته كشفا نهائيا ، كما يقول منسيه (٧٧) .

وفن التصوير التجريدى على حق حين يعلن أن أصوله الموروثة قديمة ، فروح التجريد لازمة من لازمات الفن ، تشهد لدى الإنسان على قدرته على تذوق الجمال في النغمات المتناسقة المصنفة ... « فالفن الموجود في أوروبا الوسطى والجنوبية منذ نهاية العصر الباليوليتى فن تجريدى تماما . فهو لم يحاول أبدا أن يقلد الطبيعة خلال آلاف السنين ، بل أولى اهتمامه بحسب للربط المطلق بين العناصر الزخرفية ، وقد أشركها أحيانا مع حيوانات عجيبة وأشكال بشرية تقليدية للغاية » (٧٨) . وفن الشعوب التى لا اسم لها من العصر

البرونزي ، كذا فنون أجناس الكلت والجرمان في العصر الحديدي ، كلها ذات صلة وثيقة بفن الشيعة في جنوب روسيا ، وهو يتصل من خلال هذه الأخيرة بفن الزخرفة في الصين القديمة ، وفن الخزف في بلاد ما بين النهرين القديمة وفنون القيشاني والسجاد في بلاد فارس ، التي لم يفس الفنانون المسلمون منها شيئاً . . . وكل هذه الفنون ليست فنونا تمثيلية ، بل إنها تجريد فحسب ، لأن الشكل ، وقد احترمه الفنان لها لا يمثل شيئاً على أننا لا نستطيع استيعابها إلا إذا اعتبرناها موضوعاً جديداً لا يشير إلى أى موضوع معين ، بل يشير إلى نفسه فحسب .

هذا وتختلف الحال بالنسبة لأوروبا ، وريثة الحضارة اليونانية اللاتينية ، تلك الحضارة التي تركت نفسها للروح الطبيعية منذ المبدأ ، والتي لم تلعب روح التجريد فيها أى دور . . . اللهم إلا إذا نظرنا إلى أعمال مصوري المناظر الحائطية البارزة من الرومان ، ومصورين مثل كواترو سنتو ، وأوشيللو وبيروديلافرانسكا ، ودورير في لوحة آدم وحواء . . . حيث نجد أشكالاً حية تشدها من أسفل أشكال تجريدية . . . هنا يحدث كل شيء كما لو كان المصور يشيد أولاً بناءً أمثل قبل أن يفكر في أى تصوير تمثيلي لشيء حقيقي ثم يقيم بعد ذلك تقابلاً عارضاً بين الكائنات والأشياء من جهة ، ومن جهة أخرى هذا النقاء الذي يريده ، بإبعاد الأشياء من الواقع ، الأمر الذي يستطيع الناظر تمييزه من خلال مظاهر الأشياء ، لا الأشياء نفسها ، والتي ترسم من خلال خطوط موجهة . . . «وحتى الكلاسيكية من جهتها ترمى إلى التعبير عن نماذج عالمية أبدية ، وتكتشف لهذا الغرض أحسن الوسائل في أشكال تجريدية ، تستند أصلاً في قتها إلى الهندسة والنسب والأعداد ، (٧٩) . . . فأى فن إذاً ، عدا الواقعية الفوتوغرافية ، لا يمكن إلا أن يكون فناً تجريدياً مدججاً ما ؟

رغم هذا ، تظهر في تاريخ فن التصوير والنحت روح تمثيلية تنافس

روح التجريد أو تبادل وإياها فترات الزمن . وهنا نرى القطب الثانى من قطبى الفنون التشكيلية ، وهو ليس بأقل أهمية من الأول . يقول جيلسون : « إن من الملاحظ أن الفنون البدائية لم تكن تبدى إلا اهتماما ضئيلا لتقليد الأشياء الطبيعية ، ويلوح أن الإنسان البدائى رأى أولا أن من الأصوب إنتاج أشياء قبل إنتاج صور الأشياء » (٨٠) لكن ليس هذا مؤكدا على الإطلاق ... فبقدر علمنا بأصول الأشياء ، نعتقد أن الإنسان قد أخذ يلاحظ ويتخيل وينشئ ، ويقلد فى آن واحد أو بالتوالى ... ونحن نمتلك من بين أقدم الوثائق الفنية عظاما منقوشة ، بها شقوق حدثت بها مصادفة ثم أكلها أو نظمها الفنان بقصد زخرفى بحث . . لكن هناك أعمالا فنية أخرى ترجع إلى نفس العصور ، وتؤكد أن إنسان ما قبل التاريخ كان يحب أن يوضح التشابه الذى كان يدركه بين شكل حصاة مستديرة أو أزهار متداخلة رسمتها الأيدي عرضاً ، ورأس عجل أوفيل منقرض (٨١) — بل وأكثر من هذا : فالمصور الأورجناسى أو المجدلىنى كان يستعين أحيانا بما تحدثه الطبيعة فى الصخور لى يصور عليها نقوشا بارزة ، ومنها يصور وجوها تمت بصلة قوية للأشكال الحقيقية .

هذان اتجاهان فى التجريد والتثيل الواقعى لن يفتا أن يتأكدا إما عن طريق التشابك والارتباط فيما بينهما ، وإما عن طريق تقابل أحدهما أمام الآخر فى وقت واحد ، وإما عن طريق التتابع زمنيا . فنحن نجد هاتين العايشات فى مصر القديمة حيث نرى على جدران القبور أشخاصا هيراطيين فى مواقف تقليدية ، وأفراد حرف أو حيوانات كالغزال والأسماك والطيور وكلها تصيح بالحياة .. ولو أن هذا لا يرضى مالرو ، لكن لابد أن نذكر أن الهند وآسيا واليونان القديمة والعصور الوسطى الرومانية والقوطية ، كلها تبين لنا أن الحساسية للتجريد لا تمنع من تذوق أشكال من الفن قد تكون أحيانا طبيعية للغاية .

هذا ، ويجب ألا ننسى هذه الحقيقة المعروفة من أن تقدم أسلوب

ما يؤدي به من التجريد القديم إلى الحقيقة التي تمثل الأشياء الملموسة والتي سارت عليها العصور الكلاسيكية وما بعد الكلاسيكية . ويؤدي هذا التطور إلى الانحطاط حين يصل إلى النقلة المطلقة أو إلى التعبيرية السطحية ، كما حدث في مدرسة بيرجام . . . والاتجاه العكسي لهذا لا يؤدي إلى الانحطاط ، يدل على هذا أن تمثال « ابولون » للثال بيومينيو ، « وهرميس » الأولمبي لا يعبران تعبيراً واقعياً سطحياً عن حقائق فن ما قبل اليونان القديمة ، أى إنهما يعبران عن تجريدية معينة .

ويجب ألا ننسى كذلك أن الانحطاط يمكن أن يحدث أيضاً إن كان التجريد يؤدي أحياناً إلى جفاف اللب بحيث يشبه الآلية البحتة ، ويمكن ملاحظة هذه الظاهرة بوجه خاص في بعض الفنون الشعبية أو البربرية ، كما يمكن ملاحظتها في هواية جمع قطع النقود . قارن مثلاً تمثال فيليب القدوني ، والنسخة الفاسدة له التي يقدمها مثالو ليوفيش في منطقة فيينا العليا (٨٢) حيث نجد أن « الأسلوبية » تنصف بالغموض والجفاف ، ولا تقل تفاهة عن أى تقليد ردىء .

وإذا كان للفن التصويرى أخطاره ، فإن للفن التجريدى أخطاره أيضاً ، وهى لا تقل سوءاً عن الأولى ؛ ذلك أنه يجب ألا نخطئ ، بل نعرف بأن الفن التجريدى صعب التنفيذ ، بل إنه أكثر صعوبة من التمثيل . . وهذا أمر واضح ولا شك بالنسبة للناظر إليه ، أما بالنسبة للفنان نفسه فإن الخطورة تنحصر في أن من المحتمل أن ينسى القطعة التصويرية الفنية لصالح موضوع اللوحة ، هذا بالإضافة إلى أنه من الأسهل الاهتمام بتوزيع الألوان والأشكال عندما يكون للوحدة سند تمثيلي واقعى ، وبالعكس ، لا بد أن تتوافر لدى الفنان روح تشكيلية وثقافة فنية من أندر الثقافات حتى يستطيع الاستمتاع

بشيء ولا يعتبر لوجوده قيمة إلا بفضل تنظيم شامل للصفات الملموسة ، وحتى يتمكن من الحكم عليها حكماً سليماً قبل الاستفادة منها في العملية التنفيذية ، وهكذا يصبح الفن التجريدي قاسياً بالنسبة للفنان بالذات ، والواقع أنه — كما يقول جيلسون — « ما دام المصور متمتعاً بشيء من التصويرية المباشرة ، كان لديه شيء يقوله ، ويتعين عليه أن يكون قوله جيداً ، وأن يكون قوله هذا قول مصور فنان . . . ما دام لديه ما يقوله . والمصور غير التشبيل إطلاقاً يحمل نفس المسؤولية التي سبق أن حملها سابقوه ، ولكنه لا يمتلك ما يمنع فشله ، فإذا كانت اللوحة التي نفذها ليست كائناً متكاملًا بصفتها ألوًا وخطوطًا تسر الأعين ، لا شيئاً آخر ، فإن عمله ينتهي إلى فشل فربح لا يمكن أن يخفيه شيء » (٨٣) .

هذا ما يزيد من إعجابنا بالأعمال الفنية الرائعة التي يقدمها السادة من أهل الفن ، ويضطرنا في نفس الوقت إلى الحذر من الذين يدعون التتلذذ عليهم . . . فلقد ظل الناس يعتقدون خلال خمسة قرون أن في تقليد الطبيعة تقليدًا جيدًا ما يكفي . . . وكان هذا خطأ . . . لكن لم يكن يكفي ألا يقلد الطبيعة رجل ما ليصبح مصوراً . . . فن السهل جداً تصوير لوحات لا هي بالصور ولا هي باللوحات ، هذا معروف جداً ، ومهما انتقلنا انتقالًا لا تخمس فيه في صفوف أمام حوائط غطتها لوحات لا علاقة لها بفن التصوير ، فإننا أحياناً نشعر باللذة حين نرى من بينها صوراً طيبة ، لكن ما من شيء يبعث فينا إلا ككتاب أكثر من بعض معارض فن يدعى أنه تجريدي ، حيث لا نرى لوحة إلا نادراً ولا نرى فيها أية صورة . هذه تجربة عدم السكيا التشكيلي ، وهي تجربة لا تعويض فيها (٨٤) .

لا بد إذن أن نكرر أن الطريق الذي يسلكه فن التصوير التجريدي طريق مشروع ، ولكنه لم يكن ، وربما لن يكون طريقاً عظيماً من طرق الفن ، اللهم إلا في مجال الزخرفة وحدها ، وهي التي يمكن أن تضم بين جانبيها

عرضا فنون التصوير الحائطي البارز والفسيفساء والسجاد الحائطي والزجاج الزخرفي . والمصور التجريدي ، إن سمحتم لي أن أقيم هذه المقارنة أيضا ، يذكرنا بهلوان يرقص على جبل مشدود ، يقوم على ارتفاع بأعمال بهلوانية ليثبت أن من الممكن أن يقف الإنسان على هذا الجبل وأن يسير على الحيط ، وإن هذا لا يمنع من أن يكون هذا الوضع هو الوضع الطبيعي للتوازن والسير .

هذا هو فن التصوير غير « التصويري » . إنها تجربة تدعو للحاسة ، لكن ما هي إلا تجربة تتطلب من المصور والهاوى تضحيات كبيرة جدا لكيلا تصاب هي بالفقر في نهاية الأمر . وهي تنتقي بالقدر الذي أسماه فاليري ومن قبل جوته : « الفن العظيم » . والشئ الذي أسميه أنا الفن العظيم هو في بساطة هذا الفن الذي يتطلب أن يستخدم الإنسان جميع ملكاته ، والذي يقدم لنا أعمالا تستخدم فيها جميع القدرات وتساعد على فهمه وأعتقد أنا شخصا أن من المهم أن يكون العمل الفني عمل رجل كامل » (٨٥) .

وقد كان سيزان يسير على تقاليد كبار التجريديين في عصر النهضة ، وهو الذي أراد أن « يصور الطبيعة بالأسطوانة والدائرة والمخروط » . ومع ذلك فالتفاح عنده تفاح ، ويقال إنه صرح بأن « من الضروري أن نقلد ، وأن يكون هناك بعض خداع البصر ، وليس في هذا ضير إن كان هناك بعض الفن » (٨٦) . لكن أتباعه من التكميين أخذوا في تشويه الكائنات الطبيعية وتحليل الأشياء إلى عناصرها التشكيلية ليعيدوا توزيعها طبقا لنظام ابتدعوه هم . . . فأبهم أتباع لوحاته أكثر من غيرهم لرسم تقريبية تجريدية أعدت مقدما ؟ لكنهم لم يحطموا كل علاقة بينهم وبين الأشياء . وقد قال جوان جرى هنا : « إن لوحة لم يسبقها نية تمثيل أشياء فيها قد تكون في نظري دراسة لوسائل التنفيذ تظل غير مكتملة » .

ولعلنا نعرف جملة المعروفة : ابدأ بالأسطوانة لتجعل منها زجاجة . . .

ويتساءل جيلسون بهذا الصدد : « لماذا كان يرى أن من الضروري تصوير زجاجة ... إذا كان الشكل التشكيلي الحقيقي هنا هو الأسطوانة ، فما السبب في ألا نقف عند هذا الحد ؟ » (٨٧) . وربما كان السبب هو عدم الرغبة في تضليل الناظر ، أو في إرشاد الحواس ، أو في إدماج الفكر والعاطفة والشعر وكلها تنبثق عن الأشياء المعروفة والتي تدركها . أو لتوضيح الاندماج بين الفنان والحقيقة . وبالاختصار نحن نرى أن اللوحة تتضمن على الأقل مسودة تمثيلية ، وهذا أمر طبيعي ، على أن التجريد الشامل السكلي عذاب كعذاب المطهر ؛ وهو عذاب ضروري مفيد لفن التصوير لا شك في هذا ، لكنه لن يكون الجنة . .

على أي حال مجد الفنان هنا وقد حصل على حريته كاملة إزاء الطبيعة، وما عليه إلا أن يحذر من إساءة استخدامها - ولعل القرن القادم هو العصر الذهبي ، عصر الكمال والتوازن الذي يجتمع فيه من جديد اتجاهها قرنا هذا ليقوى كلاهما الآخر ، بعد انفصالهما . . . وهنا يصبح الأمر تخطيا لحدود المتناقضات التي يثن منها عدد كبير من فنائنا المعاصرين ، وتجميعا غير متوقع ، ولا مثيل له في العصور التقليدية الغابرة .

ويترك لنا الماضي أحيانا درسا هاما ، ذلك أنه لكي يكون التجريد فنا ، نجده يحتاج عادة إلى نسبة دنيا من التمثيلية ، كما تحتاج التمثيلية إلى نسبة دنيا من التجريد . . فإذا نظرت مثلا إلى لوحة « الجنة » للصور تنفورية في قصر « الدوج » بمدينة فينسيا لاحظت حالا أن من المستحيل تمييز الشخصيات الممثلة فيها ، إلا بتلك التي تصور المسيح والعذراء . ذلك ان الوجوه تحتفي وسط الأمواج الواسعة التي تشكلها هي ، والتي تهز المشاعر هزاً وحدها

بفضل رنينها الساحرى . إن لدينا فى هذه اللوحة على ما يظهر زخرفة غير تمثيلية ضخمة . نعم . . . لا شك فى هذا . . . لكننا نأخذ حذرنا تماما من أن تلقى علينا انطبعا ضخما لأن الشخصيات فيها تمثيلية ومثلة تماما . فالأشكال التى يمكن أن نسميها « تجريدية » أشكال « حية » لدرجة كبيرة جداً تفوق هذا الحائط ، لأن العنصر التمثيلى خفى تماما . . . ولو كان المصور قد لجأ إلى المنحنيات ومضادات المنحنيات فيها ثم ملأها بأى شئ لماتت اللوحة . . . ونحن نستطيع أن نقيم ملاحظات كهذه إذا وقفنا أمام آلاف الوجوه التى لا يمكن تمييزها فى زجاج نوافذ كاتدرائية شارتر وأبوابها » (٨٨) . فالقول إذاً بأن هذا فن تجريدى لأننا لم نستطع تمييز الوجوه تمييزاً كاملاً ، قول قد يكون عارياً عن الصحة والدقة .

ومن جهة أخرى « إذا تأملنا الآن فى لوحات ذات واقعية دفع بها لأقصى حدود الواقعية ، وعقدت لأقصى حد من التعقيد والدقة — كلوحة تمثل أشياء جامدة من لوحات بوجان مثلاً ، لوجدنا أن شاعرية مثل هذا الفن التصويرى قد خلبت لبنا لدرجة لن نصل إليها إذا نظرنا إلى المسودات التى أعدت لهذه اللوحة ، ولن نصل إليها إذا نظرنا إلى الأشياء المصورة ذاتها . فبماذا يمكن أن نخرج من هذا إذن ؟ . . . إن « الفن لا يلجأ إلى نقل الكائنات نقلاً تصويرياً إلا حين يصل إلى أقصى حدود الإخلاص لمظاهر هذه الكائنات » (٨٩) . والإخلاص للمظاهر . . . هو الشئ الوحيد الذى يسمح بأن نتعدى حدود المظاهر نفسها ، وبأن نصل إلى الواقع على حقيقته ، نقصد — كما يقول سيزان « إلى الطبيعة فى أعماقها » .

الفصل الثاني الشعر والذكاء

يقول بودلير : «يعتقد الكثير من الناس أن الشعر يهدف إلى تعليم شيء ما ، وأنه يرمى أحياناً إلى تقوية العواطف ، وأحياناً أخرى إلى رفع مستوى الأخلاق ، وأحياناً أخرى إلى إثبات شيء مفيد ، لكننا إذا نظرنا إلى أعماق نفوسنا نظرة فاحصة ، وسألنا أرواحنا ، وتذكرنا ذكرياتها ، لوجدنا أنه لا يهدف إلا إلى إثبات وجوده ، ولا يمكن أن يكون له أى هدف آخر غير ذاته ، فما من قصيدة يمكن أن تكون عظيمة نبيلة ، جديرة بهذه التسمية إلا تلك التى تكون قد كتبت بقصد إشباع لذة كتابة القصيدة فحسب » (١) .

هذه الموعظة النابعة من إيمان بودلير ، تحتاج ولا شك إلى العديد من التفسيرات المتباينة . . . وسوف نوجّل هذه التفسيرات إلى حين التعرض لنظرية الفن للفن ، ولو أن تلك الموعظة ذات أهمية معينة الآن ، لأنها تقضى أساساً على أشد أنواع الخلط خطورة ، ولأنها تقدم المشكلة التى سوف نعرض لها حالا : تقديماً واضحاً ، والتى تنحصر فى هذا السؤال : ما هو الشعر ؟

نظن القارئ قد فهم من الآن أننا سنقف من الشعر نفس الموقف الذى وقفناه إزاء فن التصوير ، وقد سبق أن قلنا إنه ما من هدف لفن التصوير غير أنه يصف . . . والشعر كذلك ، لا وظيفة تعليمية له بالمعنى الشائع لهذه الكلمة ، فجمال القصيدة لا يقاس أبداً ، لا بعمق أفكارها ، ولا بعلوها ولا بأصالتها ولا بالمهارة التى تتضمنها ، فالشعر لا يتجه إلى تلك

القدرة الموجودة فينا والتي تساعد على تشكيل المبادئ، والمذاهب، وعلى ترتيب الأفكار والتعليل والمناقشة، تلك التي نسميها عادة «العقل» وبالأصح نقول إنه إن فعل الشعر هذا فهو يفعله عرضاً وبصفة ثانوية جانبية، بعيداً عن مهمته الأصلية، وعلى مسئوليته الكاملة.

الشعر الخالص

يقول فاليري: «يلاحظ أنه في حوالى منتصف القرن التاسع عشر قد ظهرت رغبة واضحة في مجال آدابنا، ترمى إلى عزل الشعر عزلاً كلياً عن كل عنصر آخر عداه» (٢) وتظهر هذه الرغبة عند بودلير كما سبق أن قلنا، وتأتى كد عند مالارميه بقوة أشد. لكن قد يكون من الخطأ أن نقول هذا عن الأدب الفرنسى وحده، فبودلير يدين بالكثير في هذا لادجار بو. أضف إلى هذا أن نفس الاتجاه كان موجوداً في نفس العصر لدى كتاب الرومانتيكية ونقادها فيما وراء المانش (بريطانيا) من أمثال وردزورث، وكيثس، وشيللى، وماتيو أرنولد.

ولكى نفهم معنى الشعر الخالص، يتعين علينا أن نستوعب الأمر استيعاباً شاملاً، الأمر الذى يؤدي بنا حتماً إلى استخلاص حقيقته، فالتعبير موجود عند جوته (٣). وتقابله لأول مرة بالمعنى الذى نفهمه من فلم فاليري (٤)، لكنه لا يظهر واضحاً تماماً إلا في عام ١٩٢٥ من خلال رسالة تحمل هذا العنوان: «الشعر الخالص» قرأها الألب هنرى بريمون في جلسة علنية من جلسات الأكاديميات الخمس. ولقد أثارت هذه الرسالة مناقشات حادة، ومعركة «تذكرنا بتلك التى قامت في أوائل القرن الثامن عشر بين أنصار القديم وأنصار الحديث، أو بتلك التى قامت حول مسرحية فيكتور هوجو: هرنانى. ولقد هدأت أصداء هذه المعركة اليوم، ولو أننا نستطيع أن نؤكد اليوم أن بريمون والشعر الخالص قد كسبا المعركة.

ما هو الشعر الخالص إذن . . ؟ إن الكلمات التي تشكله تمكنا بنفسها من تعريفه إن نحن وضعناه مقابل العكس منه ، أى مقابل «غير الخالص» ، أو «غير النقي» . لكن ليس الأمر هنا أمر انعدام النقاء من حيث علم الأخلاق ، بل إن غير النقي هو ببساطة ما ليس شاعرياً في قلب القصيدة ، أو بتعبير أدق ، كل ما لا يساعد على تقديم اللذة التي يعرفها جيداً هواة الشعر . وبذلك يصبح الشعر الخالص — النقي — هو ذلك العنصر الذي يضاف على القصيدة صبغة شاعرية ، ويوفر اللذة الذاتية الناتجة عنه . وهذا العنصر لا يمكن تثبيته بقصد فهمه ، كما أنه لا يمكن تحليله ، ولو أن المؤكد أنه غير موجود ضمناً في معنى النص بالذات.

هذا — ويعبر بعض الناس عن هذه الفكرة بقولهم إن طريقة قول الشعر أهم من القول نفسه . . . إذ أن الذين يقرءون القصائد قراءة شاعرية يعرفون تماماً أن الكلمات تتخذ مظهراً « لا تعرف ماذا وكيف تسميه » ، أو « رشاقة » أو « صفة غامضة » لا تأتي من معنى الألفاظ . . . إنه شيء ما « تذوقه » — هذا الشيء هو بداية كل تجربة شاعرية وأساس وجودها . . . عندما يكتب مؤلف « الأضواء » « رامبو » مثلاً ما يلي :

أيتها الفصول . . . أيتها القصور

أى روح من العيوب خلّت

عندما يكتب هذا نشعر في الحال أن هناك شعراً ، وإن نحن عدلنا البيت الثاني على الوجه التالي . .

أيتها الفصول . . . أيتها القصور

إن لكل منا عيوبه . . .

إن نحن فعلنا هذا لشعرنا بأن « الشعر » قد اختفى ، رغم تطابق المعاني وعدم تغيير القياس الشعري في الحالتين . والذي ينقص هنا — ضمن أشياء أخرى — هو كلمة « روح » التي توصل لبیت الشعر الثاني إشعاعها الرقيق بعد ذلك الحنين الذي تنطوى عليه لفظنا « الفصول » و « القصود » ، إن الشعر هو هذا ، هو الذي يظهر كما يقول ليون بول فارج « في النقطة التي يفصل فيها عن النثر » (٥) . وعلى هذا الأساس يكون شاعريا في قصيدة ما كل ما ليس ثرا فيها ، وكل ما لا يستطيع النثر التعبير عنه . وليس هذا التمييز هو ذلك الذي يقول به السيد جوردان ، لا بد أن نحذر من هذا ، فنحن لا نضع الشعر في وضع يتعارض مع النثر ، لا نضع اللغة الموزونة المقفاة في موقف الضد من لغة الناس جميعا . . فكم من أبيات شعر ذات صفة نثرية مؤسفة . . . وهل لا يوجد — على عكس ذلك — نثر شاعري ونثر فني ؟ نعم هناك من النثر ما يخضع لقواعد غير محددة ولكنها ليست أقل تشددا من قواعد الشعر ، بل إنها تغمرنا بنفس السعادة التي تغمرنا بها أجمل القصائد . ألا يقول كلوديل إن أكبر الشعراء الفرنسيين ناثرون ، ومنهم رابليه وباسكال ووسويه وسان سيمون وبلزاك وميشليه ؟ (٦) .

إن النثر كما نفهمه هنا بصفته انعدام الشعر أو عكسه هو الحديث . . . ولا نقصد بالحديث تلك المقطوعة البلاغية التي تستطيع أن ترتفع هي الأخرى إلى مستوى الشعر أحيانا . . . بل نقصد الحديث بالمعنى اللغوي لهذه الكلمة ، والذي يعبر عن فكرة استنتاجية منطقية ، وتلك المناقشات التي ندافع بها عن أفكاره هذه ، والحقائق التي تساندها ، والمقارنات التي توضحها ، والعواطف والمشاعر التي تثيرها في الحياة العامة . وكلما سيطرت هذه العناصر على القصيدة مهما تكن قيمتها ، اقتربت

هذه القصيدة من النثر ؛ وإذا ما سيطرت وحدها سيطرة تامة ، لم يعد هناك إلا نثر .

ولهذا يتجنب الشعراء غريزيا ألفاظا مثل « لن » و « لكن » و « إذا » و « هكذا » .. لأنها ألفاظ تفترض وجود التبرير وطرده الشعر في نفس الوقت ، وقد أثبت الأب بريمون (٧) مثلا أن رامين قد برع في تحطيم التركيب المنطقي للجملة ، حين وضع أسماء وصفية أو أسماء المفعول أو الصفات محل الجمل الخبرية ، بحيث كانت الأولى عاملا مساعدا على « سيولة » البيت الشاعري :

آريان ، شقيقتى ، أى حب يحرك
وأنا ، ملكة دون قلب ، دون صداقة
عبدة الشفقة ، جبانة حقيرة

والشعر لا يمكن شرحه منطقيا لأنه لا علاقة له بالحديث العام ، بل هو بالضبط ، ذلك الشيء الذى لا يصف ولا ينطق به ، الذى تتضمنه كل قصيدة ، والذى لا يمكن التعبير عنه بطريقة أخرى ولا بألفاظ أخرى . ولقد فهم فاليرى هذا حينما قال إن النثر كلام مكتوب له هدف يمكن التعبير عنه بكلام مكتوب آخر (٨) . أما الشعر فهو لا يخضع لهذه المعاملة ، وعدم إمكان معاملته بهذه الطريقة هو الأمر الذى يمكننا من إدراكه ، ولهذا السبب بالذات كان من المستحيل ترجمته ، بل الذى يحدث هو نقل الأفكار الموجودة فى القصيدة ، والأحداث التى تحكيها ، والعواطف التى تصورها ، وبالاختصار مادتها الفكرية والنثرية .. نقلها من لغة إلى أخرى . . . أما مادتها الشاعرية فلا يمكن نقلها .. حاول إذا أن تترجم بالإنجليزية ما يلي .

أيام أصبحت لحظات منسوجة من حرير

أو بالفرنسية :

عندما تذكرنا تلك الجلسات من الفكر الصامت العذب

إذا نجحت في هذا فأنت لست مترجماً ، بل مبدعاً وشاعراً ، تكون قد أبدعت بيتاً جميلاً لن يكون عبارة عن صدى للأصل ، بل على الأكثر معادلاً له (*) .

ولنفس السبب يستحيل تحليل الشعر ، فهذا الشراب اللذيذ لا نعرف من أى عناصر قد تركب ، لكن ليس معنى هذا أن النقد الأدبي عديم الفائدة ، بل إنه يؤدي بنا إلى باب المعبد دون أن ندخلنا إليه ، والسبب في هذا هو أن « هذا النقد — من جهة — يرمى إلى الشرح ، ومن جهة أخرى فإن الشعر نفسه لا يقبل الشرح » ، وهكذا فإن كل ما يمكن « التعبير عنه أو ترجمته أو شرحه في أقصر القصائد شاعرية هو من النثر . والشعر يبدأ في النقطة التي لم يستطع أن يقول النقد عندها شيئاً ، والتي يشعر فيها أن كل شيء سوف يقال ... إن الشعر غموض ، وتعليم أصوله يحتاج إلى هدوء وطمأنينة وسكون أمام السر الشعري » (٩) .

الموسيقى اللفظية

افصل النقي من غير النقي من قبيل التجريد ، واسحب من القصيدة ما ينتمي للنثر ، ماذا يبقى .. ؟ يبقى الغناء ، والتوافق ، والنغم والموسيقى ، ولهذا يقال إن الشاعر — على عكس المتحدث العادي — يعنى ، ولهذا فإن الترابط بين الشعر والموسيقى قائم قياماً متيناً .. ويرجو فيرلين أن « تكون الموسيقى قبل

(*) ترجمة قصيدة من الشعر أمر معناه تغيير كيانها لأن في هذا تغييراً لشكلها ، وشكل الكائن هو الذي يكون جوهره . (انظر كتاب : عن ترجمة شعراء اليونان ، تأليف فتوح ج . ج .)

كل شيء» ، وقد سبقه بودلير في هذا حين كتب يقول : « إن الشعر يمس الموسيقى عن طريق عروض تمتد جذوره عميقة في النفس البشرية بقوة أشد من تلك التي تشير إليها أي نظرية كلاسيكية » (١٠) . ويرى فاليري بدوره « أن الرمزية تتلخص ببساطة تامة في اتجاه عام تشترك فيه عدة جماعات من الشعراء ، ويرمى إلى أن يستعيدوا ما أخذته الموسيقى منهم » (١١) . وأخيراً ، ولكي نقف عند هذا الحد ، قال اندريه سوارس « إن السر الموسيقي للكلمات هو جوهر القصيدة » (١٢) .

مع هذا فإنني أرى أن هذا الربط بين الشعر والموسيقى لا يحل المشكلة حلاً كاملاً ، أولاً لأن « الموسيقى الخالصة » كما يقول بريمون — ليست أقل غموضاً من الشعر ، وإنني أتساءل هنا عما إذا لم يكن الأمر في هذا تعريف المجهول بالمجهول ، . أضف إلى هذا أنه إذا كان الشعر ينافس الموسيقى في بيتها فلنعلم أنه مهزوم مقدماً ، إذ لاشك في أن صفارة فيرجيل ونفير فيكتور هوجو يعتبران شيئاً ضئيلاً إلى جانب بيانو شوبان أو أوركسترا فاجنر . الواقع أن مجال الشعر ومجال الموسيقى متميزان أحدهما عن الآخر ، ولا يوجد بينهما إلا التجانس ، بحيث لا يمكن أن نتحدث إن هرمونيا ، أو تناسق أبيات الشعر إلا بالاستعارة ، مادام من غير الجائز في الشعر ، كما هو الشأن في الموسيقى وضع النغمات بعضها فوق البعض . أضف إلى هذا أن عدم مقاطع الجملة لا يمكن أن يكون نفس الشيء الموجود في الميلوديا من حيث الوزن ، ولا شك في أن الشاعر يمتلك عدداً من الرنين الرقيق للغاية والمتنوع للغاية ، لكن أي فرق بين هذا وبين « جاما » النغمات الموسيقية ، بما فيها من ارتفاعات وانخفاضات وتوترات يستخدمها الموسيقى ...

ذلك أن الشعر يرتبط باللغة ، وهدفه كما يقول كلوديل : « اللذة التي نحصل عليها والتي تعتبر اللغة أدواتها » (١٣) ومن هنا نلاحظ أنه في حين أن

مادة الموسيقى هي النغمات ، تكون مادة الشعر هي الألفاظ . وبتعبير أدق يعمل الموسيقى بنغمات تتقدم إليه في حالة طليقة يستطيع تركيبها فيما بينها دون تحديد ، في حين أن الشاعر يعمل بنغمات موضوعة في إطار الألفاظ، ومحدودة بهذه الألفاظ ، وهكذا فإننا في أغلب الأحيان « لانمتدح هارمونية أبيات الشعر — وهي حقيقة على أى حال — إلا حين نعجز عن تحديد جاذبيتها العجيبة بطريقة أخرى » إن من المؤكد « أنه يوجد شعر دون موسيقى لفظية معينة » لكن هذه الموسيقى « خاصة به لدرجة يحسن معها أن نجد لها اسماً آخر » (١٤) .

ومادمنالانجد هذه التسمية، يحسن أن نتفق على تعريف هذه الموسيقى بأنها جوهر الشعر الخالص ، بحيث تصبح « الشخصيات الرئيسية للقصة — كما يقول فاليري — هي رقة أبياتها وقوتها » (١٥) بعد تخليصها من شوائبها الثرية . وهكذا يلعب أوليس وينلوب وديدون وأينيه ، الحب والموت ، والعمل والحياة ، الأرض والبحر والسموات ... كل هذه تلعب أدواراً ثانوية .. ويمكن أن تكون هذه الأدوار ولا شك هي الأدوار الأولى في النثر . أما في الشعر فما هي إلا أدوار رمزية . وإذا كان لو كريس قد عرض مذهب ابيقور فحسب لكان فيلسوفاً ، لا شاعراً؛ ذلك أن الذي نتطلبه أولاً في أبيات الشعر هو الغناء ، سواء أ كانت هذه الأبيات تتضمن معنى ، أو لا تتضمن شيئاً .

هل من ضرورة إذاً لإثبات هذه الحقيقة الواضحة ؟ طالما تحدث النقاد عن عدم التناسب الموجود في أجمل القصائد بين فقر المعنى والثروة الشعرية أو الموسيقية ، ولقد لاحظنا هذا في الأبيات التي سبق أن سردناها عن الشاعر رامبو ، ولعل من الممكن ضرب أمثلة لأحصر لها :

لكن أين ثلوج الأيام الخوالي ؟

هذا البيت يعنى ببساطة : أن كل شئ ينتهى .
وكم أحب آلام البشر فى عظمتها

وهذا بيت جميل ، لافضل الفكرة العادية التى يحويها ، بل كما يقول
فاليرى لأن كلتى « عظمة » Majesté وآلام Souffrances تشكلان معاً
توافقاً بصفتها كلمتين هامتين (١٦) .

إن أشهر المقطوعات لاتفعل أكثر من أن تطرق أفكاراً عادية، وهذا
صحيح بالنسبة لمقطوعات مثل أغنية سيدات الوقت الذى مضى ... وأغنيات
هيلينا (لرونسار) والبحيرة (للأمارتين) والزورق النشوان (لرامبو) وحتى
« الجبانة البحرية » (لفاليرى) . وهل هناك فى الأدب موضوع أكثر شيوعاً
من جمال الربيع ؟ لاشك فى أن الفكرة عادية جداً ، وفى أن الشعور هو
بعينه لدى الجميع إزاء الطبيعة التى تتولد من جديد والبراعم التى تتفتح ،
والأيام التى تتنالى ، والأمل الذى يعود إلى القلب ، والحب الذى يهز
الإنسان والحيوان .

ويمكن أن نقول نفس الشئ تقريباً عن أولئك الشعراء الذين يدعون أنهم
يعلموننا ، ويتمتعون بشهرة فحواها تفهمهم لنفسية الناس . هل كان راسين
— مثلاً — وهو الذى يأتى إلى تفكيرنا فى مثل هذه الأحوال .. هل كان
يستطيع أن يدفع بسهم أوفر من غيره من مثقفى عصره فى مجال معرفة
المشاعر ؟ وهل كان له أن يعلمنا شيئاً لاتعلمه لنا الحياة ؟ من الممكن أن
نشك فى هذا كما سبق أن شك فولتير والاب برعمون . فهاك فولتير يقول :
« إن النسيج الذى تتكون منه أغلب رواياتنا المسرحية ، وبوجه خاص
مسرحيات راسين مبنى على اعترافات بالحب ، وعلى الغيرة والقطيعة ...
وكل هذه الوسائل تافهة » (١٧) ، وسواء كانت هذه الوسائل تافهة
أو عظيمة ، ماذا يهم ؟ لأنها لاعلاقة لها تقريباً بهذه اللآلئ الشعرية :

كم من مشاغل كلفنى هذا الرأس الحبيب ...

ما الفجر بأنقى من أعماق قلبي ...
وفي الشرق المقفر ، ماذا أصبحت آلامى ...

بل وأكثر من هذا ، أقول إنه لكى تقرأ قصيدة ما كما يجب أن تكون القراءة - اقصد شاعريا - ولكى تدرك موسيقاها ، لا يتحتم عليك دائما أن تفهم المعنى. فصحيح «أن فلاحه ذات أصل طيب تنمو وترعرع دون جهد وسط شعر المزامير اللاتينية ، وحتى تلك التى لم تكن موضوع الغناء ... وكمن طفل تذوق أول قصيدة من أشعار الريف دون أن يفهما » (١٨) بل وأحيانا لا تجد شيئا تفهمه ، فهناك بعض الآيات وبعض القصائد ، التى تكاد تكون خالية من معنى عقلى... انظر مثلا إلى الأغاني الشعبية ، أو أغاني الأطفال فى بلاد العالم كله .. وكلها تحوى انتقالا من موضوع إلى آخر بلا رابطة ، وكلها لا تحترم المنطق دائما . بل وكلها تحوى كلاما فارغا مثل - تراديرى ديرا - بل وانظر إلى بيت شعر كهذا الذى كتبه فيكتور هوجو :

وشمس سوداء مرعبة يشع الليل منها

الامر الذى يعلق عليه فاليرى بقوله : « من المستحيل أن تفكر . فهذا المعنى مدهش » (١٩) .

ونفس الشئ، ينطبق على الأحوال التى يضم فيها بيت الشعر أسماء أعلام نجمل مغزاها ... فهل نحن مثلا فى حاجة إلى أن تذوق بيت الشعر التالى :

مثل هذا - على عربتها - بيرثينيتين ..

هل نحن فى حاجة إلى أن نعرف أن « سبيل » كانت تتلقى الإعجاب وهى على قمة من قم جبال فريجيا بيرثينيت ؟

وهل نحن فى حاجة إلى معرفة أصل فيدر فى أسرتها لكى تذوق البيت التالى :

إنها ابنة مينوس وبازيفاي

وهل من الضروري أن نستخدم القاموس لنحيي الآتية أسماؤهم بصفتهم
أصدقاء لنا ؟

وتيتاريز الأزرق ، والمضيق الفضى . .

الذى يبين فى مياهه التى ينظر فيها البجع
الأولوسون البيضاء للكامير البيضاء

وعلى كل فالقاموس لا يرشدنا إلى شىء نفهم منه معنى هذا :

وكل شىء يرقد فى « أور » وفى جيريماديت .

إذ أن « جيريماديت » لا توجد فى القاموس أصلا .

وإذا كنت تجهل آلام جيراردى نيرفال ونسبه وما يدعيه من أصل

نبيل . . فلا مانع من أن تترنم فى حماسة بأبياته هذه . .

أنا المظلم . . أنا الأرملة الذى لا يغريه أحد ،

أمير أكويتانيا ذات البرج الذى تهدم

أليس جيراردى نيرفال هو الذى يمنح العلماء الباحثين عن المعنى العميق

إجازة ليفغينهم عن البحث ؟ إنه يقول : « إن أشعارى ليست أكثر غموضا

من ميتافيزيقا هيجل . . . إنها تفقد جمالها إن هى شرحت . . إذا كان

الشرح ممكنا . . . ، إن ما يقوله هذا واضح على الأقل . . .

وإذا لم يكن للمعنى أهمية كبرى ، فالألفاظ — على عكس ذلك — تهم

كثيرا . فالواقع أن الكلمات تتضمن قدرة غير عادية ، خارجة عن معناها . .

— وموسيقى أبيات الشعر ، أو النثر الجميل ، ترجع إلى اختيارها وإلى

مطابقتها للنغمات والعروض والأوزان وتكرار النغم ، أو تضاربه ، وإلى

التنظيم الدقيق القوى الذى نجده فى مقاطعها . . ولعل لإحلال كلمة محل

أخرى أمر لا يؤدي إلى التوازن المطلوب أبداً ... ماذا أقول ؟ بل إن مجرد تغيير حرف ساكن أو متحرك ، وحتى تغيير مكان « فاصلة » أو حرف صاعد صوتاً لشيء كفيفل بأن يقضى على قصيدة كاملة .

في هذا يقول لنا الأب بريمون « فكر إذن في هذا العمل العظيم :

عندما جاء مايار حاكم الجحيم

بالروح الرقيقة ممبلانسي إلى موفولكون ..

يلوح أن « التيار الشعري » يحتاج أشد ما يحتاج إلى ذكر اسم « مايار » حتى يسرى المعنى وينفجر فجأة ... فإن أنت أحللت محله اسماً آخر كاسم « ديون » لوجدت أن المعنى لم يتغير قط . . لكنك تلاحظ أن « الشرارة » الشعرية لم تشتعل . نفس الشيء يقال عن « البجعات » التي تحدث عنها فيكتور هوجو في أشعاره . . فإذا كانت البجعات قد جاءت من بلدة ميلوز ، بدلا من كايستر ، لفقد أحد أجزاء قصيدة « السحرة » العظيمة الضوء النابع منها » (٢٠) .

والعناصر التي تؤكد جمال بيت الشعر عديدة .. قد لا يمكن إحصاؤها .

فهناك الأب بريمون يتحدث عن بيت للشاعر ماليرب هو :

والثمار سوف تتجاوز وعد الأزهار

ويقول بريمون هنا إن هذا البيت « أحد أربعة أو خمسة أبيات هي أجمل ما في الشعر الفرنسي » . . ثم يتساءل : « لأي درجة لا نستطيع المساس بأي حرف من أحرف هذا البيت . . . فإن نحن فعلنا هذا لمضينا عليه قضاء مبرما . أضف مثلا مثقال ذرة لهذا البيت لتقول :

والثمار سوف تتجاوز وعود الأزهار

... لتجد أن البيت قد تحطم . إن لهذا البيت معنى هو : أن المحصول

سيكون طيباً . . . لكن كم يصبح هذا المعنى فقيراً هزيباً إن نحن عبرنا عنه بهذه الصورة . . . وم تكون الخسارة إذ نحن تفقد الشاعرية التي تنبع منه ، (٢١) .

سحر إيماني

هذه القدرة العجيبة للألفاظ . . . وهذا الأثر الغامض للشعر . . . أمران يستحيل التحدث عنهما إلا بالمقارنة . فالتقابل بينهما وبين القوى الطبيعية التي يجهلها الشخص العادي ، والتي تذهلنا بقوتها وبالمفاجآت التي تنطوي عليها . . هذا التقابل يسمح لنا باستمرار البحث في هذا الغموض . فلنقل إذاً إن أبيات الشعر الجميلة تحمل نوعاً من رحيق يكاد يكون مغناطيسياً ، وإنها تمارس إزاءنا جاذبية تشبه المغناطيس . . . ولقد أطلق بريمون تعبير « التيار الشعري » على نمط « التيار الكهربائي » . . . باعتباره قوة أو طاقة تبعث الحياة والنفض والغناء في الكلمات .

لكن من ناحية أخرى استعار البعض لغة العلوم الروحانية باعتبار أنه يستحيل فهم حقيقتها كما يستحيل فهم الشعر . ولقد كان بودلير أول من عرف الشعر بأنه « سحر إيماني » . وهو يقول في مجال آخر إنه « لغة وكتابة باعتبارهما عمليات سحرية وشعوذة إيمانية » (٢٢) ، وبهذا يعيد إلى أذهاننا تقليداً قديماً جداً يقول إن كلمة « كارمن » في اللغة اللاتينية تعني عمل الشاعر ، كما تعني صيغة غنائية تريلية . بل من الجائز حقاً أن يكون القدامى قد خلطوا أصلاً بين الشعر والسحر . ومهما يكن الأمر فقد كان الشعر دائماً ذا أثر يشبه أثر السحر والجاذبية السالبة للإرادة بالمعنى الكامل لهذه الكلمة .

ولم يكن هباء أن يعنون فاليري ديوانه الأساسي بعنوان « طلاس » ، أليس من طبيعة الآيات الجميلة أن تمارس علينا نوعاً من السحر الأخاذ ؟

أليس من الصحيح أنها تبهر عقولنا ؟ ثم أليس من طبيعتها أنها ذات سمة سحرية تذكرنا بسحر الطلاس القديمة ؟ بلى . . ولذا يقول بريمون : «إني أسمى كل ما ينتج عنه بطريق مباشر وفعال ترنيم شاعري .. أسمى هذا طلسمًا إذا وجد بين الألفاظ المتتابة التي تتكون منها القصيدة . فالألفاظ تظل أداة النشر كلها تحدد دورها في التعبير عن معنى ما ... لكن سحر الشاعر هو الذي يحولها إلى طلاس » (٢٣) .

لكن كيف نحدد مدى النجاح الذي تحصل عليه القصيدة من «جاذبيتها»؟ إنها تنفذ إلى أعماقنا وتحيطنا بغلاف وتأخذ باللبابنا جميعاً . . والشعر ينفذ كذلك إلى قلب قلوبنا ويستولى على أعماق ما في كياناتنا .. أما العقل فهو غالباً ما لا يدري ماذا يفعل ، وهو الذي تتخطاه هذه الجاذبية وتسلب منه قدرته المعروفة . ويقول ل.ب. فارغ في هذا : «إن العقل في مجال الشعر يقوم بشراء الحاجيات وحمل البضائع المشتراة ويستعلم عن مدى الربح ويقوم بالحساب وينظم الأوراق الصغيرة ويختار ما يختار من رسائل الحب ويدعو بالهاتف ويجهز قاعة الاستحمام . . . فهو خادم صغير أسود يقف لخدمة سيدة جميلة » (٢٤) .

هذه السيدة هي التي سوف يحدثنا عنها أدماربو «عندما يتحدث الرجال عن الجمال . . يقوم في أذهانهم ارتفاع الروح في قوة ونقاء (لا العقل أو الحساسية) ، ذلك الارتفاع الذي شعر به كنتيجة لتأمل الشيء الجميل » (٢٥) — والروح — أي الأنا العميقة كما يسميها بيرجسون بوصفها ضد الأنا السطحية — هي ذلك الانسحاب الداخلي عن الحياة الذي يسهر في السكون على استمرار شعلة النفس بعيداً عن الإدراكات الحسية والصور والمبادئ والألفاظ وعمليات العقل الذي يعلل الأمور منطقياً، وبعيداً عن العواطف المعروفة التي تقبل التحليل . فالشعر شيء غامض ، ولا يستطيع ألا يكون

غير ذلك ما دام ينبع من أشد مراكر الشاعر غموضاً ، وما دام يصل إلى كل منا في أشد مراكره غموضاً .

بناء على هذا ، نتساءل : هل يصبح موضوع الفن كما يرى بيرجسون « بعث النوم في القوى الفعالة ، أو بالأصح ، في القوى التي تمارس المقاومة في شخصيتنا ، بحيث يؤدي بنا إلى حالة من الإذعان التام والوداعة المطلقة حيث نحقق الفكرة الموحى بها لنا ، وحيث تتفق مشاعرنا مع الشعور المعبر عنه ، (٢٦) ؟ الحقيقة أن الأمر ليس أمر فكرة أو شعور ، بل كما يقول بريمون « أمر تيمة شاعرية ذات أثر مزدوج : أحدهما إيجابي والآخر سلبي ... تيمة تطلق سراحنا وتهز نشاطنا الشاعري وتبعث النوم في نشاطاتنا السطحية التي توشك حركاتها أن تعرقل نضج قوانا العميقة .. فهي في نفس الوقت منشطة ومهدئة » ، (٢٧) .

ولعل هذا السبب الذي من أجله يطرق الشعر الأفكار العادية المعروفة . ذلك أنه « لا يختلف مع الأفكار المنطقية . بل يعاملها معاملة خاصة جداً ، لانهم فيها ولا ضغينة ، وهكذا يستطيع التصرف فيها كما يريد ... إذا ما كان المعنى مركزاً وغنياً لأقصى الحدود فإن الذي يحدث هو أن العقل المفكر يعمل عمله ويصاب النشاط الشعري بالشلل ... » . فالعبقرية التي يتميز بها راسين تأتي تماماً من « أننا لا نبذل جهداً كبيراً لكي ننسى ما لديه من نواح تفكيرية عقلية تنسج نسيج المأساة بحيث لا تحتفظ منه إلا بالناحية الشاعرية لحسب ، ، وفي حين أن كورني يتميز « بنشاط روحي حي ، متحرك ناشئ . قوى يمنعه من أن يستمع إلى أغنيته هو ويمنعنا من أن نقدم له روحنا بأعماقها لتصفى إلى هذه الأغنية ... » . أقول إن النشاطات الشاعرية التي لا يمكن أن يستغنى عنها الشاعر يجب أن

تسيطر على الشاعر نفسه وعلينا نحن ، وألا نهرب منا تحت ضغط العقل المفكر ، (٢٨) .

هذا هو ما حدث لانيموس وأنيما في الأمثلة الرمزية التي كتبها كلوديل بقصد شرح بعض أشعار أرتور رامبو، والتي تساعدنا في فهم أي شعر . . والشعر كله . هنا كل شيء يسير على ما يرام في بيت الزوجية بين انيموس وأنيما . . العقل والروح . . لكن سرعان ما ينتهي شهر العسل الذي كان يحق فيه لأنيما (الروح) أن تتحدث كيف تشاء . . . ليصغي إليها انيموس (العقل) مذهولا . . أليست أنيما هي التي قدمت الصداق الذي يعيش منه الاثنان في بيت الزوجية ؟ لكن انيموس لا يريد أن يترك نفسه زمنا طويلا في هذا الموضع بصفته شخصية ثانوية مرؤوسة ، وسرعان ما يكشف عن طبيعته الحقيقية . . فهو مغرور مختال بنفسه ، يحب التحكم . غير أن أنيما جاهلة بلهاء ، لم يسبق لها أن ذهبت إلى المدرسة ، في حين أن انيموس يعرف أشياء كثيرة ، ولطالما قرأ الكثير في الكتب ، وعلم نفسه كيف يتكلم وفي فمه حصة صغيرة . . . والآن تجده يتحدث جيدا . . جيدا جداً بحيث يقول أصدقاؤه جميعا إن ما من أحد يجيد الكلام خيراً منه . . وفي هذا الوقت تجدها هي ساكنة . وتقوم بالطهي في بيتها . . . لكن شيئاً غريباً يحدث . . فقد دخل انيموس يوماً مقسلاً ، فسمع أنيما تغني وحدها أغنية عجيبة . . شيئاً لم يكن يعرفه . . . ولم يستطع أن يجد وسيلة يكشف بها نغمة الأغنية أو كلامها أو مفتاحها . . إنها أغنية غريبة مدهشة ، ومنذ ذلك الوقت وهو يحاول إقناع أنيما بأن تكرر الأغنية ، لكنها — أي أنيما — تدعي أنها لا تفهم شيئاً مما يريد . . . وهنا يجد أنيموس حيلة . . فهو يرتب نفسه بحيث يفهمها أنه غير موجود ، ويخرج ويتحدث بصوت مرتفع مع أصدقائه . . وتطمئن أنيما شيئاً فشيئاً ، وتنظر حولها . . . وتصغي وتعتقد أنها وحيدة . . . ودون ضوضاء تذهب لتفتح الباب لعشيقتها الإلهي ، (٢٩) .

المعجزة الشعرية

أن نجعل من الكلام أغنية ، ونربط أجنحة الشعر بالثر ، هذا هو عمل آلهة الوحي . . . فلقد تلقى الشاعر هذا الامتياز الذى يتحدث عنه مالارميه بقوله : « إنه هو الذى يصوغ كلمات القبيلة بمعنى أنقى . . . هذا الامتياز هو الذى يحول لغة الحديث العادية ويطورها ، ولاشك أن هذه الكلمات وتلك اللغة هى بعينها التى نعرفها . . . لكنها لا تتمتع بنفس القيم التى تتمتع بها فى الشعر إطلاقاً ، (٣٠) ، وكما لو كان قد مسها سوط ساحرى ، تجدها تفقد صبغتها العادية التى ترجع إلى العادة والتقليد ، وتكشف عن كنوز وتظهر كما لو كان وجهها جديداً فتستعيد مجدها . هذه هى المعجزة الشعرية . وهاك فاليرى يدرس فن الراقصة ويقول : « يلوح أن الراقصة وهى تؤدى رقصتها فى خطوات منتظمة متناسقة كأنما تحصى نقوداً من ذهب خالص ، فى حين أن خطواتنا الرتيبة لاتعدو أن تكون أشبه بنقود عادية » (٣١). والشاعر كالراقصة تماماً، صناعته العجيبة تغيير كلامنا العادى الذى يشبه الورق وتحويله إلى قطع رفانة براقة.

والمعجزة لا تعلق بالمنطق ، ولكن كل ما يمكن عمله هو تحديد الشروط التى تجعلها ممكنة ، ولهذا يجب التفكير فى الطبيعة المعقدة للغة ؛ فالكلمات أولاً علامات ، وهى — باعتبارها علامات — عديمة القيمة فى ذاتها ، اللهم إلا أن لها معنى معيناً ، ولولا أن المثل الأعلى لها هو أنها قابلة للنسيان ، وهكذا فإن الإنسان الذى يتكلم يستخدمها ، وهو فى استخدامه لإياها لا ينتبه إليها ولا يراها ، بل إن نظرته تخترقها كما تخترق لوحاً من الزجاج لتصل إلى الشيء الذى تحدده هى مباشرة تقريباً .

ومع هذا فالكلمة تتضمن حقيقة خاصة بها ، ووظيفتها الإشارة إلى

الأشياء ، ولكنها هي في ذاتها أيضاً شيء . وبصفتها شيئاً تستحق الانتباه وحب الاستطلاع ، وإذا كانت جميلة فهي تستحق الحب . من هذا نفهم الموقف الشعري إزاء الألفاظ . ففي الوقت الذي يهتم فيه الفيلسوف والعالم بالحقائق والأفكار فحسب ، ويقفان فيما وراء الألفاظ ، يقف الشاعر فيما قبلها ، لأنها ليست بالنسبة إليه علامات فحسب ، بل هي كذلك وقبل كل شيء . كائنات ينظر إليها ويفحصها ويتأمل فيها ويعجب بها كما يعجب الإنسان بحصاة ، أو بحشرة أو بطير ما .

نعم إن الكلمة كائن حي ... فنذ مؤلف « أسطورة القرون » ، (هوجو) ومنذر رامبو وفرلين وبروست وكلوديل إلى كوكسو ، لم يكن هناك إلا القليل من الفنانين شعراً أو ثرا من يشيدون بلون الكلمة وطعمها ورنينها وحلاوتها العذبة أو خشوتها اللطيفة . . . والشخصية المحببة لها . وحيث إنه سبق لنا الحديث عن هذا فلن نعود إلى نفس الموضوع ، بل نكتفي بسرده ما يقوله ل.ب. فارغ عن هذا : « إن من الواضح لنا الآن أن الكلمات تذهب إلى مدى أبعد من مدى الفكرة ، وأن الألفاظ تعني أكثر مما يعني التعليل المنطقي ، وأنها — أى الألفاظ — مليئة بالحرق كأعقاب الذئب . » وما هي ذى الكلمات تتعدد وتأتى تحت القلم كما تأتي نوتة النغمات تحت الأصابع ، عصفور — اردواز — مزلاج — زنك — عليق — خل — عريس — ثوم — بصل — لباس منتفخ .

ومع هذا فالصفة الموسيقية للكلمات ليست كل شيء يمكن الاستفادة منه في اللغة فالكلمات عبارة عن علاقات صوتية ينطق بها الناطق أو يتغنى أو يهمس بها ، وهي في هذا كله تدعو اللسان والقم والمريء والرتين وعضلات الرأس والرقبة والحنجرة وصرة البطن . . وآلة البدن تدريجياً ..

تدعوها جميعا للعمل . وهكذا فهي تتدخل في الكيان الجسدى كله وتحدث رنيناً عميقاً به . والشاعر هو ذلك الرجل الذى يختبر أثر الكلمات أحسن من غيره ويدفعنا بدورها إلى اختيار أثرها في الجسم كله . وهذا هو أحد المعاني التى يمكن إعطاؤها للنصيحة التى يقدمها لنا ما كس جا كوب حيث يقول : «جسدوا . والتجسيد هنا معناه أن تضع صوتك في البطن والفكرة في البطن ، وأن تتحدث عن الجميل السامى بالصوت الصادر من البطن ، (٣٢) .

وكلوديل في هذا المجال أكثر وضوحاً وصراحة ، حيث يقول « ما النثر إلا اصطناع الرجل الفاتر الذى يجلس أمام منضدته ليعمل دون أن يشعر بنفسه ، (٣٣) ويت الشعر — وبوجه خاص ذلك البيت القصير الذى تخصص فيه كلوديل — يعيد حقوق التنفس الطبيعية على اللغة وهى التى ترتبط عن قريب أو بعيد بالوظائف العضوية الأخرى . والواقع أن جمال القصيدة يأتى بنسبة كبيرة من أن وزنها يتفق وأوزاننا الحيوية ، أى إنه يتفق والشهيق والزفير ، وضربات القلب ، ووقع الأقدام عند السير — والمعجزة الشعرية من وجهة النظر هذه هى الاتحاد بين الروح والجسد ، أى بين الفيزيولوجيا والتصوف ، (٣٤) .

وإذا استثنينا كلمة « التصوف » لوجدنا أن آلان — ولعلنا نقابله لأول مرة — لا يفكر تفكيراً يختلف عن تفكير بريمون وكلوديل ، فهو يقول إن « للأغنية جسداً ، وإن النغم «استعداد للجسم البشرى» ولقد رأينا أن الجمال في أغنية الربيع لا يأتى من العاطفة وحدها ، بل إن الجميل هو تلك العاطفة بذاتها تنتج كما لو كان الإنتاج معجزة ، تنتج من صوت الطبيعة نفس الأقوال التى ينطق بها كل منا ، وذلك عن طريق حركات الجسم ، أو عن طريق نوع من الرقص التلقائى . وللفكرة جسد ، وهى بعينها الطبيعة . . . كما أنها تنبع من الداخل ، أى من أعماق الإنسان كما يحدث حين نلقى

ابقسامه أو دمعته . والربط بين ما يرقص وما يفكر يحدث أيضا لدى القارئ ، وهو بمثابة أمان وحل للمشكلة البشرية (٣٥) .

وتسمح اللغة للشاعر بإمكانات أخرى لأنها تضم كنوزاً أخرى
 « فإذا لم يكن الإنسان غليظ العقل تماماً فإنه يشعر بشكل غامض أن للكلمات شكلاً يشبه معناها ، وبالإضافة إلى المعنى الذي اكتسبته عن طريق الاستعمال ، (٣٦) فالحقيقة أن الكلمات ليست دائماً - بناء على أصولها - علامات بسيطة مجردة ومنفصلة عن الأشياء التي تعنيها ودون علاقة بها ، بل ما دامت تشترك في المعنى الذي تتضمنه لدرجة تشتمل منها رأتحتها وحقيقتها . ويلاحظ هذا فاليري بطريقة عابرة فيقول : « إن جميع الكلمات تتخذ لنفسها شكلاً ، وأشياء تتغنى بأسمائها » (٣٧) ولقد كانت نفس الفكرة ضمن الأفكار التي يحبها كلوديل ، والتي تحدث عنها كثيراً في كتابه : فن الشعر . . . حيث يقول « إن الكلمة تعيد أداء الحركة التي هي دافع كل كائن » (٣٨) . بل هي هذا الكائن نفسه ، وقد صورته من ناحيته الصوتية الفنية ، هي الشيء بعد أن يصبح نغماً .

وقد ثبتت صحة هذه النظرية عند كلوديل من الناحية العلمية بفضل بحوث عالم اللغة مارسيل جوس صاحب نظرية الأصل الحركي للغة ، تلك النظرية التي لفتت أنظار الأوساط الأدبية المهمة بمحركة الشعر الخالص . ويقول هذا العالم المختص إن الإنسان قد بدأ في تحديد الأشياء والأعمال بطريق التمتة التعبيرية حيث لم يكن يفعل إلا تقليد هذه الأشياء والأعمال . ولا تزال هناك من هذا الماضي البعيد للحركة آثار تتضح بشكل بليغ حين نستعمل الحركية في الخطابة . . . ومعنى هذا أن أجدادنا قد وجدوا أن من اليسير أن توكل اللغة بشكل كامل تقريباً للأعضاء الصوتية . . . ومع ذلك فإن المبدأ لم يتغير للآن . . فانتقل الأمر من تمتة حركية إلى تمتة لفظية ،

حيث كان الأمر تقليد ما عليه الأشياء وما تفعله الكائنات ، ولو أن هذا حدث فيما بعد بطريق تغيير الأصوات . وهكذا توجد ولا تزال توجد تلك الرابطة من الشيء إلى الحركة ، ومن الحركة إلى الكلام . . . وعلى أن الكلمة تحتفظ بشيء من الملموس الذى نبعت منه والذى ترمى هى إلى تصويره .

ليس هذا الفرض بخال من الصحة ، والمعجزة الشعرية دليل على هذا . فمن المؤكد أن الكلمات قد تحولت إلى أشكال جبرية إن صح التعبير ، من خلال العصور . . . وعلى مدى التغيرات التى طرأت على معناها ، ولكنها رغم هذا لم تفقد شيئاً ، لا من رنينها العضوى ، ولا من اتصالها بأصلها الجسدى ، ويقول آلان فى هذا : « إن الحساسية التى يتصف بها الشاعر تنحصر بلاشك فى أنه لا يزال يسمع صيغة الكلام الأولى ، وفى أنه لا يزال يربط وربطاً خفياً بين النغم والمعنى لى يعثر على الصفة الطبيعية للغة الحديث ، أى للصلات الوثيقة بين الأسماء والأشكال والأفكار ، (٤٠) .

وبتعبير أدق ، يستخدم الشاعر الكلمات ليعبر ، لا عن معناها فحسب ، بل كذلك عما وراء معناها ، نقصد ما يقابلها ترينها ونغما فى العالم الذى تنبع هى منه ، وهى بذلك تتمكن من السيطرة على هذا العالم ، وكما يقول الشاعر سان جون بيرس : « لا الشيء المكتوب . . بل الشيء نفسه وقد أخذ لحظة حيويته وفى مجموعه كاملاً ، (٤١) . ويتحدث ج . ب . جوف عن « القدرة الروحانية للكلمة فى خلق الشيء » ، (٤٢) . وبهذا تصبح تجربة الشاعر هى أنه « بدلاً من أن يعرف الأشياء أولاً بأسمائها يلوح أنه يحدث اتصال ساكن بينهما ، ثم يحدث أن يستدير نحو هذا النوع الآخر من الأشياء ، التى هى الكلمات بالنسبة له ، يلمسها ويتحسسها ويحسبها لى يكتشف فيها ضوئية صغيرة خاصة بها .

واتصالات بينها وبين الأرض والسماء والماء وكل الأشياء التي خلقت . . . وإذا لم يتمكن من استخدامها كعلامة لناحية من نواحي العالم، تجده يرى في الكلمة صورة لإحدى هذه النواحي . . . وهكذا تصبح اللفظية التي يختارها لتشابهها مع شجرة الصفصاف أو شجرة الدردار مثلاً ليست هي بالضرورة الكلمة التي نستخدمها نحن للإشارة إلى هذه الأشياء ، فبدلاً من أن تكون الكلمات تعبيراً عادياً يشير إلى الأشياء تجده يعتبرها بمثابة فتح يمسك بالحقيقة الماربة . وبالاختصار تصبح كلها عنده مرآة العالم ، (٤٣) . . . وربما نحسن إن قلنا . . . بدلاً من المرأة . . . إنها المعادل للعالم . . .

نكشك الشعر

ماهي الطرق والوسائل الفنية والحرفية التي يستخدمها الشاعر لاستخراج هذه الصفات الكامنة في اللغة ؟ الحق أن كلتي «الوسائل» ، و«الطرق الفنية والحرفية» ، تحويان غموضاً خاصاً . . . ويقول سورفيل بهذا الصدد : «إن الوسائل الفنية technique للشعر غير واضحة ، ولا يمكن فهمها ، كما أنه لا يمكن تعليمها» ، (٤٤) . لكن ما من شك في أن هناك قواعد معينة ، ولو أن كوكتو يقول «إن هذه القواعد الغامضة تعادل بالنسبة للقواعد القديمة لترتيب القصيدة وزناً ، ما يشبه عشر مباريات شطرنج تجري في آن واحد وبالنسبة لمباراة واحدة في الدومينو» ، (٤٥) ، ذلك أن قوانين علم العروض لا تمثل إلا المظهر الخارجي الذي ينتقل من شخص لآخر ، فن الشعر . أما القوانين الأخرى ، وهي قوانين تتغير بتغير الأفراد ، فهو يتعلمها قبل أن يوجد بها بنفسه ، ويفرضها على نفسه غريزياً .

ومع هذا فهما يكن سر الوسائل الفنية لقرض الشعر غامضاً يستحيل الوصول إليه ، فإن هدفه غير مشكوك فيه . ما الأمر إذن ؟ الأمر أمر نزع الكلمات من وظيفتها العادية السطحية والتخلص من معانيها التقليدية التي

تفهم بحكم العادة ، وتجنب نخاخ الحديث المنطقي ، « والاستناد إلى اللغة الشائعة لتعديها إلى ما بعدها ، و « إيقاع ، القارىء في الشعر والإبقاء عليه في مجاله بقوة ، و « بعيداً عن المسالك التي سبق أن رسمتها المعاني العادية ، للغة . فإذا كان الشاعر يتحكم في الكلمات بطريقة تختلف عن تلك التي نستخدمها في الحياة العادية والاحتياج فذلك لكي « يقف في وجه الاتجاه النثرى للقارىء . » (٤٦) . وللوصول إلى هذا الهدف تعتبر كل الوسائل مقبولة .

والمشكلة الوحيدة هي « البقاء في وضع أكثر ما يكون بعداً عن وضع النثر . . . ما دام المهم هو تجنب ما قد يؤدي إلى النثر ، سواء أكان عن طريق الأسف على اختفائه ، أم عن طريق تتبع الفكرة المنطقية بحسب ، » (٤٧) .

على أن هناك « وسائل عديدة تؤدي إلى ترتيب الوزن وتحطيم « الرنزة » ومنع العقل من الانزلاق على خطوط قد يكون لسكل منها أهمية فيما بعد ، ما دام الأمر ليس أمر تسيير عجلة إلى الأمام أو إعداد العدة لشيء قبل الوصول إلى الحقيقة ، وما دمنا لا ننتظر شيئاً . وأن الحقيقة في ذاتها هي العقيدة ، لا حكاية كتبت على هيئة شعر ، » (٤٨) .

من بين هذه الوسائل الوزن والقياس والقافية وشبه القافية ، وهي أبسطها . . . وإذا كانت هذه الوسائل اصطناعاً غير مهذب ، فهي كذلك غير كافية . . . ولو أن فعاليتها مجربة مؤكدة فالكلام يكتسب صفة من العظمة لا يمكن تعريفها . . . ولكي يتم هذا يجب أن يخضع إلى عدد معين من نعمات ورفين يتكرر بنفسه على مدى القصيدة . . . وهنا يكون قد صدر لنا إعلان بأننا قد تركنا عالم النثر ، ويبدأ الشعر في أن يمارس علينا جاذبية خاصة إن

لم يكن هناك ما يعوقه . . . وهنا أيضاً يعترف الذين يرفضون هذا النوع من الجهد والضغط . . . بأن هذه الجاذبية قائمة . وفي هذا المجال يقول كلوديل مثلاً : « إن موسيقى اللغة شيء دقيق حقاً ، وهي معقدة لدرجة كبيرة لا يمكن معها الاكتفاء بالطريقة البدائية البربرية التي تنحصر في عدد الكلمات أو المقاطع ، ومع ذلك فهو يقر أن يكون بيت الشعر منتظماً ، هدفه « خلق حالة من السهولة والسعادة . . . ومن التناسق الهارموني في نفس القارئ » ، لكنه لا يقول هذا في البساطة التي تنصورها ، بل إنه يقصد إلى أبعد من ذلك ؛ لأنه يشعر هو وحده بحركات بيت الشعر وبالأفكار التي يضمها بحيث ينتقل البيت إلى عالم الخلود . . . ولا يمكن أن يتم هذا عن طريق قرض الشعر بالمصادفة ، أو بتتبع أحداث الحياة اليومية ، بل الذي يحدث أنه — أى الشاعر — ينام ، (٤٩) (أى ينعزل عن العالم حين يقرض الشعر) .

وردنا على هذا أنه إذا كان آنيوس ينام في حين تسهر « أنيما » ، كان هذا شيئاً طيباً . . . ألا يبين لنا آلان في دقة وصحة تامة أن « الشعر يظل موسيقياً كلما ساعد على إيجاد نطق أكثر وزناً وأقل خضوعاً للعواطف الشديدة ، كما نرى حين يصاحب الغناء حديثاً يلقي ، أو كما نرى أيضاً في المقاطع الساكنة من الكلمات ، وهي التي لا تقل تعبيرية عن لحظات السكون في الموسيقى » ، (٥٠) .

إن الوسائل الأخرى التي يستخدمها الشاعر وسائل يصعب تحديدها أو حصرها عدداً ، ولو أن الشاعر يستخدمها . . . وبصفته « جلاداً رقيقاً يعذب اللغة » ، (٥١) بقصد إخضاع اللفظ للأغنية . . . الأمر الذي يضطره أحياناً إلى البحث عن رنين الألفاظ أو غرابتها أو ندرتها أو يرغمه أحياناً أخرى على وضعها في المكان المناسب لها وسط

النصر بحيث تجذب بعضها بعضاً أو تدفع بعضها بعضاً أو يرد بعضها على بعض
لنعطى لنفسها ولجاراتها قيمة خاصة — أو يدفعه أحياناً إلى مجرد
صنغ معناها بصيغة غير طبيعية ، أو إلى إحياء معناها القديم عن طريق
إروائها من المنابع الأولى للغة ، أو أحياناً . . .

النجم في السموات كزهرة من ضوء

تفتتح ويشع منها شعاع منعش هائل

« من منا لا يشعر بالدور الذى تلعبه إدراكاتنا فى هذا المثل ، حين
تتراجع فيما بينها لتبادل مطباتها الخاصة . . . وحين تؤدي بنا من إعجاب
إلى إعجاب . . . ثم انفجار لفظي من أحلى المستحيلات ؟ » (٥٢) .

إن التقديم والتأخير وسيلتان لغويتان معروفتان . . . ولذا يكون من
الأصوب أن نقف عند « هذه الاستخدامات » ، أو بالأصح هذه المبالغات
اللغوية التي نضعها عادة تحت عنوان غامض عام هو « التشبيه والاستعارة » ،
والمعروف أن قدامى الأدباء من رجال البلاغة قد استخدموها وبالغوا في
استخدامها . . . ومع ذلك فهي لا تستحق ما تلقاه اليوم من احتقار . . .
ذلك كما يرى فاليري — « أن هذه التشبيهات والاستعارات التي أصبحت
اليوم كما مهملاً في نظر النقاد المحدثين ، تلعب دور الأهمية الأولى ،
لا في الشعر الصريح المنتظم فحسب ، بل أيضاً في ذلك الشعر المستمر
في الحياة ، الذي يسيطر على التطور الحادث في اللغة الكلامية » (٥٣) .

وهذا بعضها : شبه القافية أو تكرار نفس الحروف ونفس المقاطع
بقصد إنتاج أثر سماعي يكون في بعض الأحيان بمثابة هارموني تقليدي
تكرر فيه الالفاظ ليقرّب البيت الشعري من نغمات الموسيقى :

هروب ، هناك هروب ، أحس ان الطيور سكارى (ه)

وتدخل في نطاق التشبيه الاستعارة — إلى جانب المارموني التقليدي وسائل أخرى، منها وضع أسماء أو صفات في الجملة بحيث يتطلب المعنى العام نقل معناها لألفاظ أخرى ، كأن تقول :

طلعت شمس سوداء في ظلال الليل

وكذا التضاد الذي يلحق بالألفاظ عكس معناها كقولك :

لأنها تسرع في بطل

... أو ربط المجرد بالملبوس كأن تقول : لقد اكتسى بصلاح وطهر وقاش أبيض .

.. أو أخيراً ، تلك الاستعارة التي تقرب بين حقيقتين بعيدتين إحداهما عن الأخرى كل البعد ، وقد تجردتا من أى علاقة يمكن فهمها ، فهذه الاستعارة أكثر من أن تكون مجرد استعارة عادية ... بل وربما هي التي تتضمن الأداة المثل في المعرفة الشعرية .

لا نزالنا الآن في حاجة لتكملة هذا الجرد ... وعلى كل فهو « يذهب بنا بعيداً جداً في مجاهل الفنية الشعرية ، لأن اللغز الشعري سيظل مغلقاً ، ولأن من المستحيل فك أجزاء القصيدة كما تفك أجزاء ساعة الحائط » ولطالما أحصينا خطوات الإلهة الأسطورة .. دون أن نحصل منها على سر جمالها الخاطف ، (هـ) فالتشبيه والاستعارة لا يلعبان دورهما مباشرة وآلياً ... وهما كما يقول بريمون « طاسميان » ، بمعنى أن الشاعر يضع

(*) انظر بيت الشعر بالفرنسية ص ٢١٩ حيث ترى التكرار بالحروف والمقاطع الفرنسية أوضح من الترجمة العربية .

الجهاز الشعري في مكانه ، ولكن التيار لا يسرى ، وكما يقول بيت شعر كتبه برالوا :

ينحون الفضيلة على ورق آثم ٠٠٠٠ (*)

أما شبه القافية ، فهما يساعد على إعطاء نغم غنائى ، فإنه ليس وحده على الإطلاق محورياً . . . كما أن تكرار حرف مثل - ب - أوى - لا يسهل على الشاعر أو المستمع الانتقال من لهجة الحديث إلى روح الأغنية ، (٥٥) .

كما أنه لا ينبغي أن نخلط بين السحر اللفظى والمجازفة اللفظية ، أى بين بيت جميل شاعرياً وبيت يثير الدهشة أو يسر العقل بمعناه الغريب ، كما هو الحال في بعض أبيات كورنى وأشعار البارنس :

ولما صعد إلى القمة أخذ يصبو إلى النزول

ورغم إعجاب راسين بهذا البيت ، تجد أن جماله يرجع إلى «روح إثارة الدهشة لا إلى شاعريته» ، (٥٦) . وبيت الشعر الذى كتبه راسين ويكرر فيه حرف (S) بشكل مستمر (٥٥) .

Quels sont donc ces serpents qui sifflent sur vos têtes?

في هذا البيت نجد أن التكرار مبالغ فيه لدرجة لا نستطيع معها الإعجاب به . هل يمكن أن نقول إن في مثل هذا البيت موسيقية ما ؟ يجوز . . . لكن هناك من الموسيقى أنواعاً منها ما يستحق الإعجاب، ومنها

(*) ترجم كلمة Trahissant : « ينحون » ويجوز ترجمتها أيضاً بكلمة « يتم » . أما كلمة « Vertu » فالقصد منها « فضيلة » أى حسن التصرف في الشعر .
(**) طبيعة الحال لا يمكن ترجمة شعر وفيه نفس الحرف (S) أو (س) ولذا نظم البيت بالفرنسية كما هو .

مالا نحب . . . ولعل من الخطأ أن نخلط - كما يقول بريمون بين
رفين تعبيرى ، وتلك الموسيقية غير التعبيرية التى نسميها الشعر ، (٥٧) .

وأخيراً فإن بيت شعر واحد ، حتى إذا كان من النوع السكندرى
(١٢ مقطعاً) - مهما يكن جميلاً لا يشكل فى ذاته طلسمًا . . . فى أغلب
الآحيان ، كلما كان بيت الشعر جميلاً ، رناناً مشعاً . . . وبالاختصار ، كلما
شغل نشاطاتنا السطحية قلت نسبة احتمال دخوله فى المنطقة الشعرية
للروح : . . . فالإعجاب شئ والترنيم شئ . . . كما أن العظمة شئ والسحر
شئ آخر ، لأن العظمة تسطع وتبهل ليكون لها تأثيرها الكامل من
حيث لفت النظر فحسب . . . ولا بد من وقت أطول ومكان أوسع لكى
تنتشر الموجات الغامضة الهادئة ، الساكنة للترنم الشعارى . . . إذ ليست
المعجزة إطلاقاً هى بيت الشعر نفسه ، بل هى شبكة من أبيات تسمح للتيار
الشاعرى أن يسرى . فالسحر النابع من البيت الآتى :

يا سيدة البحار التى عليها تحمل

... هذا السحر لا يمكن فصله عن سحر الأبيات السابقة له ، بحيث يصبح
الكل وحدة سحرية حقيقية :

بوارجى فى انتظارك ، على أهبة استقبالك

تستطيعين الصعود إليها من أسفل المذبح

يا سيدة البحار التى عليها تحمل . . (٥٨)

إن الشاعر هنا يعمل عن طريق قوة رقيقة على أن يحمل اللغة شيئاً
آخر أوسع مما تعبر عنه عادة ، فهو يعد للقارىء فى كل لحظة مفاجأة
إلهية ، وفى كل خطوة يحدد الجاذبية التى تجذبه . فهل تنتج هذه المفاجآت

عن نوع من السهو أو الخطأ المقصود ، وهل نستطيع أن نؤكد كما يقول السيد برادين من أن «الفنية الشعرية هي» فنية السهو ، ؟ (٥٩)

لاشك أننا مضطرون إلى الاستشهاد هنا بفرلين ، فهو يقول لنا :

يجب أيضا ألا تعمل على

اختيار ألفاظك دون بعض الخطأ

ولكن بالإضافة إلى أن هذه الناحية من فن فرلين تتعلق بفننه هو بالذات ، نعتقد أن كلمة «خطأ» أو «سهو» غير دقيقة . أو لاشك أن الشاعر يقصد إلى الخروج بالقارىء من نطاق الوسائل المعروفة لكتابة النثر . . لكنه لا يقوده إلى المجال الذى يدفعه فيه إلى السهو والخطأ ، حيث إنه على — عكس ذلك — يكشف له عن القيمة الأصلية للألفاظ ومرادفها الترنيمى فى الدنيا . أما الشاعر نفسه فهو يسهو أو يخطئ . أقل من قارئه ، ما دامت الوسائل التى يستخدمها هى التى يحتاج إليها ويستخدمها نتيجة لاحتياجه إلى هذا فى دقة تامة ليركب ما يؤدى إلى الجاذبية وينتج عنه شيء من الدهول .

هذا ويستند برادين فى رأيه هذا إلى مثلين . فلننظر إلى أحدهما حيث يقول : كنت لا أزال طفلاً صغيراً عندما سمعت أحدهم يترنم بنشيد هذا أول بيت فيه :

أولئك الذين ماتوا من أجل الوطن فى ورع

.. وكان أن لفت نظرى بقوة هذا التعبير « فى ورع » .. وسألت نفسى : هل سبق لأحد أن تحدث بهذه الكلمات ، وفى مثل هذا المجال ؟ وشعرت بألف فكرة تترايط بعضها ببعض فى نفسى .. وهذا التعبير العجيب هو

الذى أوضح لى أن الموت في المعركة شيء يعادل الصلاة من حيث التقى في كليهما ... وكانت مقطوعة الشعر في مجموعها .. ولا تزال اليوم تأتي أمامي ممثلة في هذا التعبير وحده ... ذلك التعبير الذي يمزق لغتي ليجد الطريقة للاندماج في نفسي بشكل أشد ... لا شك في أن الشاعر لم يفتق كلمته دون بعض السهو ... لكن يجوز أن يقول أحد الجاهل أنه لم يكن يعرف اللغة الفرنسية .

سهو ... هل هذا مؤكد ... ؟ أنا شخصيا لا أجد لهذا السهو أى أثر ... وفيكتور هوجو لا يسهو ... هذا أمر هو الواضح بعينه ... لا يخطئ حين يعطى لكلمة « تقى » أو « ورع » معناها الموجود في أصلها اللغوى ، وهو في اللغة الفرنسية إخلاص الابن لوالديه (pieux) ... وهو الذى كان يعرف اللغة اللاتينية ، ويجيد إجادة تامة لغته الفرنسية أيضا ... فهو لا يدفع قارئه الشاب نحو الخطأ ولا يخونه أو يغشه بأن يكشف له « أن الموت في المعركة شيء يعادل الصلاة من حيث التقى » ، بل إنه يعلمه أن الإخلاص واجب نحو الوطن ، كما أنه واجب نحو الله والوالدين ... فإذا كان استخدام تعبير « فى ورع » أو « فى تقى » شيئا غير عادى لأنه ينطوى على تعبير جديد في ذاته ، وإذا كان هذا التعبير يدهش الأولاد الصغار ، ويلفت انتباههم - « حتى اليوم » كما يقول برادين - لغته الشعرية فهذا شيء يتعلق بالأولاد الصغار أنفسهم لا بالشاعر .. لكن ما من شيء يدعو هنا إلى « تمزيق » لغة برادين .. وعلى أية حال ، فامتزقت اللغة الفرنسية .

المجرى والمعنى

ربما كان من المستحسن التمييز بين معنيين فى القصيدة ، كما سبق أن ميزنا بين موضوعى اللوحة : المعنى الأول هو ذلك الذى يستطيع النثر أيضا أن ينقله إلى القارىء ، والذى يمكن التعبير عنه بدرجة معينة وبوسائل عدة ، أى بكلمات وتركيبات تتعادل كلها فيما بينها. أما المعنى الثانى فهو تلك الوظيفة التى يمكن وصفها ، والتى تنجم عن أغنية الشاعر ، أى تلك التى تعتبر هى والتغنى شيئا واحداً . . . فإذا كان من المباح إذن فى النثر أن يفصل بين المعنى والشكل اللغوى ، أى بين النغم والمعنى ، فالأمر هنا فى الشعر غير ذلك . لأن المعنى فى الشعر هو الشكل بذاته . . . والنغم شيء يشترك اشتراكا جوهريا مع المعنى .

يقول فاليرى : « إننا إذا استوعبنا فى نفوسنا جميع البحوث التى يفترضها اختيار صيغة ما ، فإن من المستحيل وضع هذه الصيغة فى موضع الضد من المعنى ، (٦٠) . ذلك أن المهم هنا هو عمل الشاعر . . . أى طبيعة الشعر ، ولقد سبق أن قلنا إن هدفه إنتاج أثر سحرى مرجعه الكلمات نفسها ونظام ترتيبها ، فإن أنت غيرت من هذه الكلمات أو من ترتيبها ، اختفى وجود القصيدة الشعرية حالا وهكذا تكون « الضرورة الشعرية شيئا لا ينفصل عن الصيغة الملموسة . ويكون الاختصار أو تحول القصيدة الشعرية إلى نثر معناه إنكار جوهر الفن ، ويكون التمييز فى بيت الشعر بين المعنى والصيغة اللغوية ، أو بين الموضوع والقصيدة نفسها ، أو بين النغم والمعنى ، يكون هذا التمييز دليلا قاطعا على الجهل أو على عدم القدرة على الإحساس فى مجال الشعر ، (٦١) .

ولقد رأينا أن اللغة العادية تتصف بأنها تلغى نفسها بنفسها وتصبح

غير قائمة لصالح المعنى الذى تحمله ، وأن « جوهر النثر هو أنه — أى النثر نفسه — يزول لأنه شيء يفهم » ، بمعنى أنه يذوب ذوباناً كلياً لتحل محله الصورة أو الدفعة التى تضمه ، وبتعبير آخر نقول إنه بمجرد معرفة المعنى فى النثر ، يصبح الشكل ثانوياً ، حكمه حكم ملابس أو لفافة لم تعد لها فائدة ما . « ولكن الشعر يتطلب عالماً مختلفاً عن عالم النثر هذا ، يوحى به بفضل الصلات المتبادلة الموجودة فيه ، وهو يقابل عالم النغمات الذى تتولد فيه الفكرة الموسيقية وتحرك ، وفى هذا العالم الشعري ، يطغى الرنين على السببية المنطقية ، ويصبح الشكل كما لو كان « مطلوباً من جديد » ، بدلاً من أن يخفى كما هو الشأن فى النثر . وينتج عن ذلك أنه — بينما يفسيخ المعنى الشكل إلى لا رجعة فى النثر — يظل الشكل قائماً فى الشعر ، بل ويعود دائماً لأنه يتكرر من ذاته وكما هو تماماً ، ويصبح الضرورة التعبيرية للحالة أو للفكرة التى يقدمها القارئ ، ويعتبر الشكل هكذا مصدر القوة الشعرية . إن بيت الشعر الجميل يبعث إلى ما لا نهاية من رماده ، ويغدو من جديد — كآثاره — سيبا هارمونيكياً لذاته » (٦٢) .

ولقد أكد فيكتور هوجو فى دقة تمييز أقل من ذلك « أن من الخطأ أن نعتقد أن لنفس الفكرة أشكالاً عدة ، وإن يكون لفكرة ما إلا شكل واحد تختص به وتنبع دائماً ككتلة واحدة من عقل الرجل العبقري . وهكذا لا يمكن أن يكون هناك لدى كبار الشعراء شيء أكثر من التماسك وأكثر قدرة على الانفصال من الفكرة والتعبير عن الفكرة معاً . احذف الشكل من أشعار هوميروس تجد أمامك « بيتوييه » . اقتل الشكل تجد نفسك قد قتلت الفكرة » (٦٣) وتلك الملاحظة — وهى من أصح الملاحظات التى نعرفها — هى التى سوف يفيد منها بعد ذلك أنصار نظرية الفن للفن . ولعل « خطأ ارتكبه أعداء نظرية الفن للفن هو اعتقادهم أن من الجائز أن ينفصل الشكل عن الفكرة — أننا لم نستطع يوماً أن نفهم — هكذا يقول جوتيه

إمكان الفصل بين الشكل والفكرة، (٦٤). ويرد فلوير على إحدى السيدات بقوله: «إنك تقولين إننى أعير أهمية مبالغاً فيها للشكل... آه... إنها كالجسد والروح... الشكل والفكرة بالنسبة لى إنهما كل لا يتجزأ ولا أدرى ما قيمة إحداها دون الأخرى... فكلما كانت الفكرة جميلة، كانت الجملة رنانة... ثقي من صحة هذا... إن دقة الفكرة (وهى هى بعينها) هى التى تصنع دقة الكلمة، (٦٥).

إن الفكرة والشكل - أو النغم والمعنى - لا يمكن أن ينفصلا كما يقول فيكتور هوجو حالا... ولا يحدث هذا فى القصيدة المكتملة فحسب، بل إن تضامهما المتين يبدأ منذ بدء ظهور القصيدة أو منذ مولدها ثم يستمر خلال سيرها. ولقد بينت لنا سيكولوجية الإبداع الفنى هذا بوضوح، ولذا لن نتردد فى أن نتصور بالتالى أن الشاعر يبدأ من فكرة واضحة متميزة ثم يلبسها أقوالاً جميلة. فليس إذاً هناك فترة «للفكرة»، وفترة أخرى «للسهل»، وفى عالم الشعر يجرى بينهما ربط يستحيل تحديده... فى كل لحظة... بين الملموس وغير الملموس. وينتج عن ذلك أن يكون التكوين مستمراً بطريقة ما، وبحيث لا ينحصر فى فترة أخرى غير فترة التنفيذ، (٦٦).

وأكثر من ذلك، يلوح - على الأقل بالنسبة للتفاصيل - أن الشكل يسبق المعنى، كما يسبق النغم الفكرة. لكن «هذا لا يعنى ألا يكون لدى الشاعر مشروع قصيدة... مثال ذلك أنه يريد أن يقص علينا مأساة حب، أو غضب آشيل، أو الضجر الذى يشعر به نرسيس أمام صورته هو... هنا تظل القصيدة دائماً مطابقة للمشروع فى مجموعه. لكن هذا لا يؤدى أبداً إلى أن تكون القصيدة جميلة، بل الذى يأتى بهال القصيدة هو - على عكس ذلك - الشئ غير

المتوقع الذى يتولد من الأغنية نفسها ، ومن الوزن والقافية ... والصورة تتولد من صوت الطبيعة ، وهى التى تضىء الفكرة بشكل يختلف عن ذلك الذى يحدث نتيجة للتفكير المنطقي ... إن هذه المعجزة لا تتوقف فى القصائد الحقيقية ، (٦٧) .

هذا هو الذى يحدث ... ويحدث بحيث يكتشف الشاعر الفكرة وهو يبحث عن الكلمات تبعا للوزن والنغم والقافية ... ولقد كتب كل من فولتير وشاتوبريان قصائد شاعرية ، ولكنها كانت غريبة فى دنيا الشعر ... لماذا ؟ لأنهما كتبا نظما ما كانا قد فكرا فيه أصلا بالنثر ... هذا أمر دقيق ... إن ما فكرا فيه قد ثبت فى ذاكرتهما وأصبح تعليما ، لكنه ليس من الشعر فى شيء ، ذلك ، أن ما يتميز به الشاعر عن ذلك الرجل الذى يضبط النثر وفقا لوزن وقافية هو أنه بدلا من أن يذهب من الفكرة إلى التعبير ، يذهب — على عكس ذلك — من التعبير إلى الفكرة ، وبدلا من أن يبحث عن البراهين والمقارنات والصور بقصد توضيح أفكاره وبتحويلها من المجرد الذى ولدت فيه إلى الملموس ، نجده لا يفتأ أن يستخرج نفحات ذاتية كما لو كان يخرجها من صفارة موسيقية ، وهو يرسم مقدما بأبياته الشاعرية ورنينها كلمات لم يكن يعرفها بعد ، كلمات ينتظرها . قد ترفض الحضور أولا ثم تتقدم للتوفيق بين النغم والمعنى بصورة ترقى إلى مستوى المعجزة ، ولا بد أن نفهم هنا أن الطبيعة هى التى تسير أولا ... وأن تناسق أبيات الشعر موجود قبل معناها ، (٦٨) .

هذه الظاهرة من بين الظواهر التى شهد بصحتها أكثر من غيرها . ويصرح ريفردى بقوله : « إنه بالنسبة للشاعر تسبق الكلمة الفكرة وتوجهها ، لكن الرنين هو الذى يسبق الكلمات ويناديها ، حيث إن النغم هو المصدر الأول مهما يكن غير واضح ، ومهما يكن الشاعر بعيداً عن

روح التفتي والموسيقى . على أن كل هذا يحدث في حالة كون الذى يكتب الشعر بعيدا عن أن يكون شاعرا ، (٦٩) . ويذكر النقاد هنا دائما كلمة أسرها فلوير لجوتيه يقول له فيها : « لم يد أمى إلا عشر صفحات أكتبها ، لكن ما زالت أمى جل متعثرة . . » ، ورغم سخريه الأخوين جونكور حول هذه النقطة ، نلاحظ ، أن فلوير يعرف مقدماً موسيقية نهاية الجمل التى يكتبها بعد ، (٧٠) ، ويمكننا أن نصدق مؤلف سالامبو (فلوير) فيما يقول من أن النغم والدفع الشاعرى والقياس لدى الأديب الفنان تسبق كلها الجملة اللغوية والمنطقية وتودى لها ، كما يودى منحدر الوادى إلى مجرى النهر . . . وهكذا تجدها هى التى تدعو للغناء مقدما إلى رأس الأديب ويكون موضوع هذا الغناء ظواهر مبهولة لم يكن يعرفها من قبل ، (٧١) .

هذا صحيح وأكثر من صحيح لدى الشاعر الحق ولقد قدم لنا فاليرى فى هذا مثلاً معروفاً تدور قصته حول أصل ديوان « الجبانة البحرية » ، وهو يقول إن هذه القصيدة « لم تكن أول الأمر إلا صورة موسيقية فارغة ، أو مليئة بمقاطع لا معنى لها أتتني ولزمتني بعض الوقت . ولاحظت أن هذه الصورة كانت ذات عشرة مقاطع ، وفكرت بعض الوقت حول النموذج المستخدم كثيراً فى الشعر الحديث . . . فاقترح على جزءاً من قصيدة ذات عشرة أبيات ، وفكرة عن تشكيل مبنى على عدد أبيات هذا الجزء من القصيدة . . هذه الشروط العامة هى التى تساعد على ظهور « حركات » معينة وتسمح ببعض التغيرات فى النغم وتنادى على أسلوب معين . . . هكذا أدرك فاليرى عقلياً ديوان « الجبانة البحرية » ، (٧٢) .

ويمكنك أن تجد مثل هذه الأقوال لدى الأدباء على مختلف طباعهم

وأوجه انسياقهم . . . إذ يكتب كلوديل فيقول : « لقد وجد الشاعر نفسه يسير بدافع من إثارة منظومة وتكرار وتوازن لفظي وقراءة موزونة ، ويكاد يتم هذا على نمط ما يحدث لدى « المعددين » الشعبيين في الشرق . . . إنك تراه وقد أخذ يحك يديه إحداها بالأخرى وينزعه طويلاً وعرضاً ، ويدق الأوزان ، ويتمم بشيء بين أسنانه . . . وشبنا فشينا ترى سيل الأقوال والأفكار وقد أخذ يسيل بين قطبي الخيال والرغبة ، (٧٢ - ب) .

ومن العجيب أن تجد وصفاً مطابقاً لهذا الذي يقول به كلوديل — لدرجة تتكرر فيها نفس الألفاظ تحت علم الشاعر السوفيتي مايا كوفسكي، الذي يفخر بأنه يعمل « بالطلب » ، أى بناء على موضوع مفروض عليه ، فيقول « إني أسير وذراعاى مرفوعتان وأنا أنتم في هدوء ، لا أكاد أنطق بشيء ، وأحياناً أقصر من خطواتي لكيلا أقلق التمتة ، وأحياناً أخرى أشرع في الزجاجة بسرعة أكبر وبنفس نسبة وقع أقدامى ، وهكذا يتضح الوزن ويتخذ لنفسه شكلاً . على أن هذا الوزن أساس كل عمل شاعري ، وهو الذي يعبر من أوله لآخره كالشعاع . . . وشينا فشينا يبدأ الشاعر في استخراج هذا الشعاع من الكلمات ، وفي أغلب الأحيان تكون الكلمة الرئيسية هي التي تميز معنى البيت أو الكلمة التي يجب أن تتكون منها القافية . تصل الكلمات الأخرى لتدخل وتربط بالكلمة الرئيسية . وما إن يكون الشيء المهم معدداً حتى يشعر الشاعر بأن الوزن قد تحطم . . . لأن هناك مقطعا ناقصا ، أو نغمة صغيرة تنقص ، فيبدأ من جديد في أن يعيد تفصيل الكلمات كلها ، وينتهي العمل ليضعك في حالة من الهذيان المولم كما لو كنت تقيس ألف مرة على أسنانك قنطرة لا تريد أن تتخذ مكانها تماماً ، وأخيراً بعد مائة مقاس تضغط على القنطرة ، وينتهي كل شيء ، (٧٣) .

هل نذهب إلى حد إقرار أولوية النغم والصيغة لدرجة تصبح معها القصيدة ذات معنى معين يكون على هوى القارىء؟ هذا رأى فاليرى ، وهو يقول فى هذا : « إنه لا يوجد للنص معنى حقيقى ، ويقول فى مجال آخر : « إن لآليات شعرى المعنى الذى يفسره بها أى فرد . أما المعنى الذى أعطيه أنا لها فهو لا يتفق إلا ورأى أنا . . . ومن الخطأ أن نعتقد أن للقصيدة معنى حقيقيا يتفق ضروريا وفكرة المؤلف ، إذ أن هذا يتعارض وطبيعة الشعر ، بل إن هذا هو ما يقتله . والواقع إذن أنه بينما المعنى الوحيد أمر ضرورى فى النثر ، تكون الصيغة الوحيدة هى الحقيقة التى تنظم بنفسها وتعيش فى الشعر ... إنها النغم والوزن ... إنها تلك المقاربات الجسدية للكلمات وتأثيراتها الاستنباطية أو آثارها المتبادلة التى تسيطر على حساب خاصيتها من حيث إنها تستهلك بنفسها ويختفى منها المعنى المحدد المؤكد . وينتج عن هذا أن يتمتع القارىء بحرية كبيرة جداً من حيث الأفكار ، حرية تشبه تلك التى نجدها عند المستمع إلى الموسيقى ولو أنها أقل منها اتساعاً ، (٧٤) .

ولا شك أننا لانجد فى القصيدة — إلى حد كبير — إلا ما يأتى فيها . ولا شك أيضاً أن الفنان الذى ألفها أراد أن يكون صانعها أكثر من أن يكون قائلها لما فيها . ومن الصحيح أيضاً أنه كلما اقترب المؤلف من الشعر الخالص ، ازدادت لدى القارىء نسبة تباين التفسير فى هامش كبير . لكن لما إذا كان هذا الهامش « أقل اتساعاً ، منه فى الموسيقى إذا لم يكن محددًا بمعنى موضوعى مهما يكن هذا المعنى غامضاً ؟ وهل يستطيع الشاعر أن يستخدم الكلمات دون أن يقول شيئاً ، ودون أن يعبر عن نفسه قليلاً أو كثيراً ؟ إن فاليرى يعترف بهذا بطريق غير مباشر حين يمتدح أحد شراح قصيدة « الجبانة البحرية » ، لأنه — أى الشارح — « أشار إلى تكرار الألفاظ التى تكشف عن الاتجاهات وعن المميزات العقلية المعينة » ، (٧٥) أليست الاتجاهات المذكورة فى القصيدة أساسها « المعنى الحقيقى للنص » ؟ هذا ، وسوف نبحت رأى جيد بنفس التحفظ الذى اتخذناه إزاء فاليرى

الذي يقول إن سيطرة الصيغة والتنغم في فنون اللغة كبيرة لدرجة أنها هي التي تحدد المعنى وعمق الفكرة : « لاشك أن من التناقض أن نقول إنه كان في الإمكان أن يغير راسين طبيعة أخلاق شخصية فيدر إذا كان جمال بيت الشعر قد تطلب هذا . لكن الذي نستطيع قوله دون مبالغة هو أن نظم بيت الشعر نفسه قد أوحى ، بل وأملى على راسين بعضا من الملاحظات وأكثرها أصالة وجرأة ، (٧٦) . وفي مجال آخر يتحدث جيد عن راسين أيضا فيقول : « ربما كانت هناك بعض ضروريات جمالية أرغمته على وضع أشد ملاحظاته السيكولوجية جرأة وأكثرها حقيقة ، (٧٧) . أما في رأيه هو — أي جيد — فإن « العدد هو الذي يسيطر على جلته ، بل ويكاد يلبسها عليه . . . إن كل هذا يهمني قدر ما تهمني الفكرة نفسها » (٧٨) كم كان جيد على حق . إن « كل هذا » الذي يقوله يكاد يفصل عن أشد الأفكار وضوحا ، لكن هذا لا ينطبق على هذه الفكرة التي يجهلها ، أو لا يعرفها الكاتب نفسه جيدا ، لأنه يدخل فينا كل ما يريد عن طريق سحر غنائى . . . ولذا فهو يجد أن المعنى الحقيقي في الوقت الذي يبحث فيه عن الصيغة فحسب . فإذا كان الأديب خاضعا لما تتطلبه الأعداد فإنه يسير في منجدر نفسه هو . أليست شخصيات جيروم وآليسا وميشيل وادوارد ولا فكاديو قد صورت كما فهمها جيد نفسه دون غيره ؟ ألسنا نلاحظ أن أعماله تنصف أولا بهذه « الاتجاهات والتكرار المتميز للعقلية الخاصة به هو وبكل ما في أعماله هذه من وضوح نحتاج إليه ، وبوجه خاص في الأسلوب » ؟

جمال غير نفى

هل يجوز إذا أن تكون القصيدة خالية تماما من المعنى ؟ من العسير أن ننصور هذا ، لكن ما من شك في صحة ما قاله ماللارميه يوما لديجا من أن « الأفكار ليست هي التي تصنع الشعر ، بل إن الذي يصنعها هو الكلمات ، (٧٩) ، وإذا لم يكن من طبيعة الكلمات أن تغنى فإنه لن يكون هناك

شعر . فالكلمات تتخذ الأفكار عربة تمتطياها ، وكما قال كلوديل : « إن اللغة تجميع لكلمات يضمها تركيب الجملة من أجل التعبير عن المعنى » ، (٨٠) ومادام الشاعر يستخدم لغة البشر فإنه مرغم على احترامها ، حتى ولو كان يريد أن يتعدها ، ولا بد لشعره من أن يعنى شيئا ، مهما يكن هذا الشيء غامضا أو ضئيلا ... لكنه إن لم يتمكن من القضاء قدر استطاعته على هذا الغموض فإنه لن يستطيع التأثير في النفس العميقة ، ولن يتمكن من أن يرضى القلب والعقل . ولا شك أن في هذا عناصر « غير نقية » ، لكنها رغم ذلك تساعد على إيجاد الأثر الشامل الذي تولد منه الاهتزازات الجمالية .

فلنوافق إذا منذ الآن على أن الشعر كما نراه في أعمال الشعراء لن يكون نقيا نقاء مطلقاً . وإذا كنا قد حاولنا أن نستخلص من مقطوعة شعرية أو ثرية جميلة ما هو شعري وما هو غير شعري ، فإننا فعلنا هذا من قبيل التجريد وبواسطة التحليل الذهني الذي لن يستطيع عزل موضوع بحثه إن صح هذا التعبير . ولن يعارض أشد أنصار النقاء الشعري تشددا هذه الطريقة ؛ إذ أن فاليري يوافق على « أن موضوع القصيدة غريب عنها قدر غرابة الشخص عن اسمه ... وعلى أن بناء قصيدة شعرية بناء شعريا خالصا أمر مستحيل » ، (٨١) .

إن الشاعر يرمى إلى هذا الحد الأقصى من النقاء ، ويقترّب منه كثيراً أو قليلا ، ويمسه لحظة قصيرة ، ولكنه لن يستطيع البقاء فيه ... « فما من شيء نقي خالص يمكن أن يتعايش مع ظروف الحياة ... إن الفضاء المطلق ، وأدنى درجة للحرارة ، شيان لا يمكن الوصول إليهما . . . وكذلك نقول إن النقاء المطلق للفن يطالب أولئك الذين يريدون ممارسته بجهود مضنية طويلة تمتص كل المتعة الطبيعية التي يفترض أن يشعروا بها كشعراء ولا يترك لهم في نهاية الأمر إلا غرورا يجعلهم يعتقدون أن من المستحيل أن

يكونوا راضين ، (٨٢) . ومؤلف «الإلهة بارك الشابة» ، (فاليزى) ، يعرف عن هذه الحقيقة الشيء الكثير ، وهو الذى كان يحلم طول حياته بكتابة القصائد «على أساس الشروط الخالصة للصيغة وحدها» ، (٨٣) . إلا أن هذا لم يكن — من حسن الحظ — بالنسبة له ولنا إلا حلاً .

ويوافقنا بريمون على هذا رأى : «إننا لم نعد نقول إن فى القصيدة تصويراً حياً أو أفكاراً أو عواطف نبيلة ، وإن فيها هذا وذاك ، وبوجه خاص ما لا يوصف وما يرتبط ارتباطاً وثيقاً بهذا وذاك» (٨٤) ... فبدلاً من أن يستبعد الشعر الحديث العادى ، تجده يحتاج إليه باعتباره سنداً لاغنى عنه «إذ لا بد دائماً للحديث أن يتضمن روح الأغنية ، لأنه بدون ذلك لا تكون لدينا قصيدة شعرية . ولا بد أيضاً أن تفرض الأغنية لونها على الحديث ، وإلا بقينا فى إطار النثر» ، (٨٥) وهكذا «تملأ الكلمات كلها وظيفتها العادية من أول بيت إلى آخر بيت ، فتعبر وتوحى وتترجم مختلف عناصر الحديث» ، (٨٦) . غير أنه من الضرورى — لكى يكون هناك شعر — أن «تلحق» كلمات النثر بالأغنية . وإن القيمة الكبرى لراسين ترجع إلى أنه تمسك بهذا دائماً دون تراجع . «إنك فى نفس الآن شاعر ومسرحى لديك النقاء وغير النقاء ، عنصران يتنافسان فى طاعتك ... تصيح لك قواعد المسرحية قائلة : إلى الأمام إلى الأمام .. أسرع أسرع إلى نهاية المأساة .. بدلاً من أن يدعوك الشعر وحده إلى التحليق دون أن تتحرك .. مارث ومارى .. العمل والتأمل .. الحديث والتغنى .. برنامج مستحيل إن لم يكن مستحيلاً سخيفاً .. ولقد عرف راسين رغم ذلك أن يحققه وهو يلعب مسرحياته ..» (٨٧) .

بل هناك أكثر من ذلك . إن جمال بيت الشعر أو الجملة ينحصر قبل كل شيء فى هذه الموسيقى الخاصة التى حاولنا تعريفها .. لكن هذه الموسيقى

ترتبط ارتباطاً متيناً بمعناها ، وإذا لم يكن هناك معنى على الإطلاق فلن تكون هناك موسيقى . هذا هو الشيء الوحيد الذى يمكن أن نقف موقف المعارضة منه لدى بريمون ، الشيء الذى أخطأت فيه نظريته المعادية « للعقلية » العلمية فى الشعر . « يلوح لنا فى غالب الأحيان أن قصيدة ما قد تظل موسيقية إن نحن نجحنا فى أن نصرف النظر كلية عن المعنى ، ودليلنا على هذا أننا نجد أحيانا فى بعض أبيات الشعر ذات المغزى العميق لذة موسيقية حية جدا . فالواقع أن المعنى هو الذى يساند الرنين دون أن نلاحظ ذلك ، لأنه عادى لا يمكن أن نلاحظه لذاته وفى ذاته ، ولأن الرنين نفسه يمتص المعنى فى الأماكن التى نقف فيها عند قراءة الشعر . . . فلنقم بتجربة أكثر إخلاصا ولنحاول القيام بنفس التجربة بلغة لا نفهمها ولنستمع لقراءة مجموعة من أبيات الشعر ذات الموسيقى الخاصة بالنسبة لآذان أهل هذه اللغة ، نجد أن احساسا بالعروض قد تأثر ، ولو أننا لن نرى فى هذا إلا نوعا من المارومونية البدائية . . . وبعد قليل من الوقت نجد أننا قد بدأنا نشعر بالملل ، (٨٨) . فلاشك أن للكلمات قيمة موسيقية خاصة بها ، ومستقلة عن معناها ، إلا أن الكلمات المعزولة وحدها أو التى لا ترتبط بعضها ببعض كما لو كانت مستخرجة من حقيقة ، (٨٩) لا يمكن أن تصنع قصيدة ، وإذا أدجت فى بيت الشعر أو فى الجملة أو فى القصيدة فإنها لا تبرر هذه القيمة إلا بفضل العلاقات بينها داخل الجملة ، وبفضل معناها الذى يكون قد ظهر ولو مبدئيا . . . ذلك المعنى الذى لا يمكن للغة دونه إلا أن تكون ضوئا محتلطة .

هنا نعود لشرح الحقيقة التى سبق أن تحدثنا عنها ، ونقصد صور المجاز والتشبيه بالأسلوب ، كتكرار نفس النغم بالحرف الساكن أو المتحرك . فأحيانا لا تصيب هذه الصور هدفها ، وبدلا من أن تبعث اللذة الشعرية ، نشعرنا بخرق الشاعر . ذلك أن « موسيقى الشعر التى تستند إلى ارتفاع

الصوت وانخفاضه لا يمكن إدراكها كما هي إلا إذا كانت الفكرة قابلة لقبولها ، وتقصد بالفكرة طبعاً كل ما هو واضح ومستتر . . لا يمكن إدراكها إلا إذا كانت الارتفاعات والانخفاضات هذه عاملاً مساعداً على الرمز إلى هذه الموسيقى .

انظر إلى البيت التالي لهو جو :

كانت هبات ريح الليل تسبح فوق جالجالا

وكان فيكتور هو جو قد كتب :

كانت هبة ريح مبعثرة فوق جالجالا

ولكنه غير الصيغة لتصبح كما هي في البيت الأول ، لأنه - ولا شك - أراد أن يتجنب أربع مقاطع مغلقة تنطق من بين الأسنان (انظر البيت بالفرنسية ص ٢٣٠ في الاصل) ولكنه بحث عن طريقة أخرى تتكرر فيها الحروف المعبرة نطقاً وتمكن. من أن يجد الكلمات التي تحوى هذه الحروف بحيث تتفق تماماً والفكرة ، بل والقصيدة . وإذا كان قد أراد أن يتجنب المقاطع التي تنطق من بين الأسنان ، فذلك لأن وجودها لم يكن ضرورياً للمعنى ولم تكن له قيمة تعبيرية ما ، (٩٠) .

ولقد سبق أبولنيير أكثر المحدثين جرأة في محاولاتهم ، حيث فكر في طريقة الإفادة نظامياً من الأصوات كإفاد نظامياً من الأقوال . وأراد « تسير الشعر آلياً كما يسير العالم آلياً » (٩١) . ولو أنه يعترف بأن ليس لهذا الفن الجديد علاقة بالشعر ، لأن الشعر يحتاج ولو إلى حد أدنى من المعنى المنطقي . وهو يقول في هذا المجال : « إنني لا أفهم تماماً أن تتكون القصيدة من نغمات تقلد صوتاً لا يمكن ربطه بأي معنى شاعري أو تراجيدي أو عاطفي ، وإذا كان هناك من الشعراء من ينصرفون إلى هذا ، فلا ينبغي

أن نعتبر عملهم هذا أكثر من تدريب ، أو نوع من رسم تقريبي
لنغمات مكتوبة ينوون وضعها في أعمالهم ... وما للكلمات مثل « برى كى كى
كواكس ، التى تقلد صوت الضفادع كما وضعها أرسطوفان شىء له قيمة إن
هو انفصل عن الكلام الموضوع فيه ، حيث يتخذ معناه الهزلى أو الساخر .
وكذا نغمة « إى إى إى إى ، الممدودة التى يكررها فرانسيس جام فى سطر
كامل ليبر عن صوت عصفور ... إنها نغمة تعبيرية لا قيمة لها وحدها
ولكنها تتخذ معنى الهوى الخيالى الذى يريد الشاعر أن يحدده ، (٩٢) .

وهكذا يختلف الشعر عن فن التصوير ، لأن الألوان والأشكال أقل
خضوعاً لضرورة تقليد ما فى الطبيعة ، من خضوع الموسيقى اللفظية
لضرورات اللغة ... ولأن المصور يستطيع التخلص من تصوير الشىء .
أسهل من تخلص الشاعر من المعنى . وانعدام المعنى فى الشعر انعداماً كلياً
لن يكون إلا كحدث عارض شاذ ... إنى لا أنسى أن فنانى اللغة طالما
عملوا على تشويه الكلمات أو على اختراع تعبيرات اختراعاً كاملاً . ولقد
أبدع رابليه فى ذلك أيما إبداع حيث أطلق على «الصحون» المقدمة فى حفل
عشاء «السيدات - المضيفات» أسماء لم يسمع عنها من قبل . وفعل كل
من جيمس جويس ولويس كارول ، وفى عصر قريب منا ل. فارغ نفس
الشىء ... كما فعل هنرى ميشو حين أخذ يصف معركة بين رجلين واختار
لهذه المعركة ألفاظاً مكنته من اتباع تنفيذية شاعرية جديدة ، ولو أنه من
الجازز الاعتقاد أن ميشو يبالغ فى استعمال هذه الطريقة ... غير أنه ،
بالإضافة إلى ذلك ، توحى التعابير لنا أحياناً بالفاظ تعودناها ، فى مهمات يمكن ،
ألفاظ يوضحها سياق النص نوعاً ، ويساعد على هذا أن المؤلف يبنى جملته
بناء منطقياً يسمح لنا بفهم ما يريد أن يقول ... أما أن توضع كلمات كما
لو كانت «مرشوشة» ومتفرقة على شكل مقاطع رنانة لا يربطها أو يساندها

أى معنى ، فهذا ما لا يقبل . خذ مثال ذلك ما كتبه ايزيدور ايزو
مؤسس مدرسة « الحرفية » .

Bidilingi tingi — tingi,

Vingilingi , clingi, clingi—dingi

You !*

... وفي القصيدة التى أسماها « أوركسترا السبت للعقول الجهنمية فى
ليل صيف خاق » ... هل يفهم من هذا شيء ؟ إن وجود الشعر يفترض
وجود اللغة ، وحيث لا توجد لغة لا يوجد شعر (٩٣) .

وفي هذا يقول كلوديل : « إن للكلام المكتوب هدفين ، فإما أننا
نريد أن نوجد فى عقل القارئ حالة من المعرفة، وإما أن نخلق لديه حالة
من السرور » (٩٤) . والشاعر يرى بوجه خاص إلى إيجاد حالة السرور
هذه ، ولو أن التجربة والتفكير فى اللغة يقنعاننا بأن حالة السرور لا يمكن
أن تتم إلا من خلال حالة معينة من المعرفة . ولقد ذكر فاليرى نفسه :
« إن أعظم الأعمال المنظومة وأكثرها موضوعا للإعجاب هى تلك التى
تنتمى عند وصولها إلينا للنواحي التعليمية أو التاريخية . فقصائد مثل « عن
أشياء الطبيعة » و « الجورجيات » و « الألباظة » و « المهرلة الإلهية » كلها تستعير جزءاً
من مادتها وأهميتها من أفكار كان يمكن لأشد أنواع الشعر جموداً أن
يقبلها » (٩٥) وليس معنى هذا بطبيعة الحال أن صفتها التعليمية هى أصل
جمالها ، أو أنه لا يوجد للشعر مذهب آخر غير هذا ، بل إن هذا يعنى أنه
يتعين على الشاعر دائماً وتبعاً لموهبته « أن يشكل لوحة مفهومة وجميلة فى
نفس الوقت من كل هذه الأشباح الرنانة » التى تضعها الكلمة تحت تصرفه (٩٦)

* هذه الأبيات يستحيل ترجمتها لأنها مكونة من كلمات لا وجود لها (انظر ص ٢٣٢)
(الترجمة) .

والتي « تسمح له بالجمع بين الرنين والمعاني » (٩٧) .

فالواقع أن أجل قصائد الشعر يضم أغنية لها جسد . ومعنى له روح . جسد وروح يرتبطان دون عنف يحدث بينهما ، بل إن الاثنين يتعاونان فيما بينهما كما لو لم تكن الفكرة تتوقع غير تلك الصبغة ذات الرنين والصدى ... صبغة موزونة يتم التعبير عنها في حرية ... وكما لو لم يكن الجسد بابتدع أفكاراً ولا يتبع خطأ مرسوما بناء على احتياجاته الأولية .. إن النجاح الذي يحصل عليه الشاعر من هذا الربط بين الجسد والروح نادر ، وهو الذي يكون دائماً موضوع الإعجاب قبل كل شيء . . . والمعروف أن هناك طريقتين تؤديان إلى عدم التوصل إلى ذلك النجاح ، أولهما عدم التعبير عن المعنى ، وثانيهما عدم صبغ القصيدة بصبغة الأغنية ، (٩٨) .

والحقيقة أن الأغنية لا تكتفي بأن يكون لها جسد ، فهي تحرك مشاعر النفس العميقة ، الأمر الذي تخفى بدونه اللذة . غير أن معنى بيت الشعر أو القصيدة يتضمن قوى محسوسة وقوة عاطفية وأخرى عقلية لا يمكن أن تظهر كلها من السكون إن شاء الشاعر أن يملأ بها النفس والرأس والقلب والجسم ومن الضروري أن تعمل هذه القوى على إطلاق حرية التنفس للنغنى بها . . . وهاك أنيموس يصطحب أنيما . . .

ابنة مينوس وبازيفاي

وتذوق جماله حتى دون أن نعرف من هو مينوس ومن تكون بازيفاي . وهل تنكر أنك إن عرفت من هما فإن الربيع المقدس يغمرك حين تعلم أصل أسرة فيدر وحين يزداد إعجابك ؟ وعندما أتقنى بهذا :

لكن جواهر مملكة تدمر (*) القديمة قد فقدت

والمعادن المجهولة ولآلىء البحر . . .

(*) علكة تدمر العربية القديمة التي قاومت الدولة الرومانية واشتهرت بثرائها وكانت ملكيتها المشهورة اسمها الزباء ، ويسمى الترنجة هذه الملكة باليما .

عندما أنتفى بهذا ، أجد المقاطع وقد أخذت بلي ازدواجا ، أى بفضل استدعاء ذكرى الماضى البعيد والحضارات المدفونة وكنوز الأساطير التى ابتلعنها البحار إلى غير رجعة ... لهذا تجد الحساسية وقد أصابتها تحولات تمارس علينا أثر أرجعيا عن طريق القصائد القديمة ... ويقترح فاليرى بيتا كهذا :

فى الشرق المقفر ماذا أصبح عليه سأمى ...

... يقترحه كمثل يبين هذه الحقيقة ... مثل مأخوذ من راسين ...
وراسين « الذى لم يتصور عندما كتبه أنه يريد تصوير شيء آخر غير حبيب فقد أمله . لكن التوافق الجميل بين هذه الألفاظ وقد انتقلت لتعبر الزمن من القرن السابع عشر إلى التاسع عشر ، يجد نفسه وقد ازداد قوة ورنينا فوق العادة فى الشعر الرومانتيكى ، واصطبغ بصبغة عصرنا هذا واختلط اختلاطا يدعو للدهشة بأجمل أبيات بودلير (التى سبق لنا ذكرها قبلها مباشرة) ... إن هذا « الشرق » ، والشرق « المقفر » بالذات ...
وذاك « السأم » ، وقد اجتمعا أيام حكم لويس السادس عشر قد اتخذتا معنى لا حدود له بفضل قرن آخر لا يستطيع فهمها إلا فى ضوء لونه هو ، (٩٩) .

كان من الضرورى أن نبين هذا التمييز بين النقى وغير النقى حتى لا تترك ما يوضح جوهر الشعر دون شرح واضح ... وليس من التناقض إلا أن تؤكد أن النقاء يتعلون مع اللانقاء لكى يخرج علينا بلذة مركبة نستطيع فيها أن تفصل - كما يفعل كلوديل - بين عدة عناصر ... فهناك كلوديل يقول : « إن هذه اللذة ذات طبيعة مزدوجة ، فإما أنها تنتج عن الطبيعة الذاتية للمادة المستخدمة ، أى إما من الرنين الخاص للغة ، وإما من الربط بين مختلف نواحي الرنين . وإما من الخط الموسيقى للجملة ، وإما من المعانى الواضحة أو المستترة فى كل مجموعة من الألفاظ

طبقا للترتيب الذى اتبع فيها ، ولما من النظام ، ذلك النظام الذى أسماه الحجم الثالث ، أى التقدم أو التأخر الذى يقدم لنا الشاعر بهذه المعاني - والنوع الثانى من اللذة يتولد من الموضوع الذى يراه الشاعر فى نفسه . ومن الحركة المشاعرية التى تحدد تحريكه لفنه ، والذى يحاول مشاركتنا فيه بوسائل تناسبنا ، ولنقل مثلا الحركة المشاعرية الناتجة عن الحب والشفقة والموت والمثل ... وهكذا ...

وبتعبير يكاد يطابق هذا نقول : « إن اللذة تتولد من التقارب ، من التلامس والخلط ، وعن طريق معان توضع فى موضع «الاهتزاز» (هكذا) وعن طريق أفكار تنتمى إلى مختلف المجالات بحيث نشعر بشعور يمتد بنا نحو السعادة وينفذ إلى قوانا نفاذاً يكاد يكون إلهيا ... ولناخذ هنا مثلا ، نصا مشهورا من فرجيل :

بالحب وبسكون القمر ...

فى هذا المثل (وهو مكتوب باللاتينية) يكون لدينا إدراك بالضوء وإدراك بالفضاء وإدراك سمعى ، وكلها تسبق إدراكا معنويا هو إدراك الهدوء الذى ترسل به السماء للأرض (١٠٠) ... إدراك معنوى لعلقة له طبعاً بالفكرة المجردة للهدوء ، يفرض نفسه على نفوسنا قبل أن نفهمه عقلا ولم يكن من الممكن بكلمات أخرى أن ينتج كما نراه فى ذلك البيت وبما به من غموض ... هو فى الواقع السر الشعري نفسه .

الفصل الثالث

الموسيقى والعاطفة

الموسيقى أشد الفنون تأثيراً في النفس وأشدّها تمرداً على التحليل، فهي في جوهرها لا تدين بشيء لعالم الملبوسات، ولا لعالم اللغة... ولهذا يجري تشبيهها — كما رأينا — بهذا الشيء الذي لا يمكن التعبير عنه في الشعر وفن التصوير، باعتبار أن تناسق الألفاظ وتناسق الألوان والخطوط يمتان بالقرابة لتناسق النغمات... ويؤكد ميكل انجلو أن من الضروري أن يكون فن التصوير السليم «موسيقى وميلوديا» (١)... ولنذكر أيضاً أن ديلاكروا يذكرنا «بالجزء الموسيقي» من اللوحة، وأن الشعر، من جانبه «يمس الموسيقى» كما يقول بودلير... أما فن البناء، فما نعتقد أنه يخضع لنفس الجاذبية الموسيقية... ولو أن فاليري يميز في كتابه «أوبالينوس» بين تلك الآثار المبدئية التي تتكلم، وتلك التي تغني (٢).

معنى هذا إذاً أن الكشف عن سر الموسيقى يعني التوصل إلى سر الفنون الأخرى... لكن يقال لنا إن من السهل أن نكشف عن سر الموسيقى باعتبارها فناً يهز المشاعر في قوة... ولأنها هي اللغة المثلى للعاطفة، ولأن هدفها ترجمة المشاعر وتحركات القلب وحالات النفس... هذا هو — على الأقل — رأي عام نجده لدى عدد من متعصي الحب للموسيقى ومن الفلاسفة، والألمان منهم على وجه الخصوص... إذ يقول لنا كل من كانط وفيخته وهيجل وشوبنهاور كل بوسيلته وبتباين بينهم، في كتبهم الأيديولوجية أن وظيفة الموسيقى هي التعبير عن أعماق الحياة العاطفية.

ولا نخال الموسيقيين أنفسهم، حتى من لم يكن رومانتيكياً، يعارضون

هذا الرأى ، فقد كتب «رامو» نظرية كاملة يتحدث فيها عن تقليد الموسيقى للعواطف . ومن بين المحدثين هناك دوبارك الذى يقول : «إنه مامن فن يستطيع كما تستطيع الموسيقى أن يعبر عن المشاعر الكبرى التى تهز النفس الإنسانية، وهى نفس المشاعر التى نجدها فى كل العصور، وفى كل البلاد مهما كان اللباس الذى تلبس به الموسيقى» ، (٣) .

تنوع الموسيقى

مع ذلك فالمشكلة من أعقد المشكلات . إننا نقدر رأى دوبارك ورامو ، مادما قد ذكرناهما . لكنهما — بالإضافة إلى أنهما ، دون أن نمسهما بصفتها كموسيقين ، يشاركان فى الأخطاء الشائعة — يفكران فى الأنواع الموسيقية التى مارساها ، هذا ما نعتقد ، ونقصد الأوبرا والميلوديا ذات الأغنية ، وهما نوعان مختلطان يؤديان لتباين التفسير ، وبالتالي لايساعدان تماما على توضيح الظاهرة الموسيقية .

فالواقع أن القول بأن الموسيقى تنبع من القلب وتذهب إلى القلب كما يقول بهوفن ، قول يبسط نوايا الموسيقيين لدرجة غريبة ويقلل لدرجة مبالغ فيها تنوع أعمالهم الموسيقية . . . فقد كانت هناك دائما موسيقى معينة ، منحطة بالنسبة لغيرها ، هدفها الترويح ومصاحبة الملذات الاجتماعية وتزيين الحياة . ومن أهم الأمثلة فى هذا «الرقصات» Les Danceries لكلود جيرفاز ، وباليه البلاط فى عهد لويس الثالث عشر وسيمفونيات لالاند التى كان يجرى عزفها خلال عشاء الملك الشمس ، لويس الرابع عشر ..

من جهة أخرى نقول إنه عندما يريد الموسيقيون التعبير عن شىء فإنهم يتجهون نحو العالم الخارجى بدرجة ربما لا تقل عن اتجاههم نحو العالم الداخلى ... فعاذفو الموسيقى على الآلات المتعددة الوظائف فى عصر

النهضة كانوا يعملون على تقليد الطبيعة وسرد القصص . . . ولقد كتب الموسيقى جانكان « أغنية الطيور » ، « ثرثرة النساء » ، و « معركة مارنيان » ، كما أن عازفي بيانو الكلافتان في القرن الثامن عشر كذلك كانوا على درجة كبيرة مصورين صوروا الطبيعة والإنسان وغيرهما . . . و « عصفور الكوكو » ، أشهر أعمال الموسيقى داكان . . . كما يقدم لنا رامو « الدجاجة » ، و « الحجل » ، و « المنتصرة » . . . و « العملاقات ذوات العين الواحدة » . . . وحتى باخ وموزار بنفسيهما كانا يمضيان وقتها أحيانا واستثناء في هذا النوع من الموسيقى . ولقد قال موزار : « أردت أن أؤلف دوراً هادئاً » آندانت ، من واقع طبيعة الأنسة روز تماماً . . . هذه هي الحقيقة . . . وهذه هي الآندانت ، وها هو أى الأنسة كانايش » (٤) .

وقد أسمى ديبوسى اثنين من مؤلفاته للبيانو بعد أن انتهت موجة الرومانتيكية وعاد هو إلى التقليد القديم . . . أسماهما « صور » ، و « صور مطبوعة » . . . ويتذكر « أمسية في غرناطة » ، و « حدائق تحت المطر » ، و « أسماك ذهبية » ، في حين يصنع رافيل بالموسيقى قصصاً مثل « أمى الأوزة » ، و « قصص طبيعية » ، التي كان قد كتبها جول رينار . نحن إذاً إزاء حقيقة موسيقية ثابتة ، وسنعود إليها بلا شك . هذه الحقيقة هي أن التقليد والسرد بالموسيقى لا يلعبان هنا دورهما إلا في نقطة البدء وبصفتها وسيلة ، وعلى الأكثر لوحة فارغة ينسج عليها الدور . . . وهما — أى التقليد والسرد — يثبتان على الأقل أنه مما لاغنى عنه في الموسيقى التعبير عن العواطف حتى تكون الموسيقى موسيقى بالمعنى الصحيح .

وإلى جانب الموسيقى الوصفية توجد « الموسيقى الخالصة » ، وتسمى بهذه التسمية ، لأنها لا تدعى التعبير عن عاطفة أو عقيدة أو تقليد — بيعة ولا تريد إلا أن تكون موسيقى لحسب ، بحيث لا يحمل العمل الموسيقي الذي

يخضع لها عنوانا ما . اللهم إلا اسم النوع . كأن يكون «مقدمة» أو «لحناً» أو «متفرقات» أو سوناتا أو سيمفونية أو كونشرتو أو ثلاثيا أو رباعيا أو خماسيا . . . على ألا يكون فيه أى ذكر لشيء إلا «للتعبو» الذى يحدد أجزاءه مثل الأليجرو وبرستو ولنتو وأداجيو وأندانت الخ . . . خذ مثلا عفويا صفحة من مؤلفات باخ أو جوزيف هايدن أو سكارلاتى أو موزار . واسأل نفسك : ماذا تعنى هذه الصفحة ؟ وما هى العاطفة المحددة التى يمكن وصفها أو تسميتها والتى تعبر عنها هذه الصفحة ؟ لاشئ . . .

المؤكد بوجه عام أن الأليجرو توحى لنا بشيء من الرشاقة ، وأن الآندانت (الموسيقى الهادئة) توحى بالرزانة والجدية والعظمة ، ويمكن أن يقال إن الحزن والحنان والألم القاسى ، كلها تشوب الأداجيو . . . لكن هذه الانطباعات التى يوحى بها كل نوع تظل غامضة وتظل قابلة للتباين والاختلاف باختلاف الأفراد لدرجة يمكن أن نقول معها إن نفس المؤلف للموسيقى يمكن أن يوحى بالمرح لهذا الشخص وبالجدية أو الحزن لذلك الشخص الآخر . . . ثم إنه لا يوجد تطابق ، بل إن الموجود هو التجانس أو التشابه بين العواطف العادية لجميع الناس والعواطف تثيرها الموسيقى . . . لكن ليس الأمر هنا بأى حال من الأحوال أمر ردود الفعل المعروفة للحساسية ، تلك ردود الفعل التى تقابل مواقف هى بعينها معروفة أو محدودة ، والتى تسمى العواطف . فالسرور الذى يطبعنا به دور الأليجرو يختلف كل الاختلاف عن السرور الذى يطبعنا به حدث سعيد . . . والحزن الناجم عن الأداجيو لا موضوع له ولا سبب ، ولذا فهو لا يشبه إلا من بعيد ذلك الحزن الذى نشعر به إزاء مرور الزمن بسرعة أو ثقافة البشر . والألم الذى تصبه علينا الموسيقى لا يختلط إلا قليلا جدا بالألام الأخرى ، لدرجة أن الألم الناجم عن الموسيقى يملؤنا بسعادة عجبية .

فالموسيقى إما أن تكون تعبيرية وإما غير تعبيرية . ونحن واثقون من

هذا . لكن عم تعبر الموسيقى التعبيرية ؟ إن الرومانتيكية قد أضفت على هذه المشكلة غوصاً كبيراً ، وعملت على إيجاد خلط في العقول وتوجيهها في اتجاه مؤسف . فالواقع أن الموسيقى منذ يتهوفن قد أصبحت بمثابة سر يسر به الموسيقى لمستمعيه ، وصيحة للروح تجد صداها في روح أخرى . وبهذا يأخذ العمل الموسيقي على عاتقه مهمة « فوق موسيقية » تسمى اباسيوناتو (أو التعبير عن العاطفة) أو آجيتاتو (التعبير عن الثورة) أو — فور يوزو (التعبير عن الغضب) . وهي بذلك تحمل عنواناً وتحيط نفسها بحواش ، الأمر فيها أمر عشاق وأزمات داخلية وعواطف وشموس غاربة .

لكن هل تزيد هذه الشروح شيئاً نفهم منه ما هي الموسيقى ... ؟ وهل تساعد على فهمها فهماً واسعاً ... ؟ في أغلب الحالات .. لا ... وهل دور « البابتيك » (مثير الشجن) أكثر تحريكاً للعواطف من هذه السوناتا أو تلك ؟ إن البابتيك المسماة « فسيلة رقم ١٠٦ ، مثلاً ، لا يرمز لها إلا بالرقم المسلسل في مجموع ما أنتجه مؤلفها ... فهل معنى ذلك أنى فقدت شيئاً كان يجب على أن أعرفه عن هذه المقطوعة ؟ وهل فقدت الكثير لأنى أجهل أن السيمفونية الثالثة تسمى « البطولة » ؟ وهل عدمت تذوق السيمفونية الخامسة تذوقاً كاملاً ، لأنى لم أعرف أن التوافقات الرئيسية فيها تمثل في ذهن يتهوفن ضربات القدر وهو يدق على الباب ... ؟

هناك أكثر من ذلك ... أن هذه العناوين وتلك الشروح غالباً ما تكون مصحوبة بمساوى ، لأنها توجه انتباه السامع نحو سيكولوجية الفنان ، ونحو الدوافع والظروف التي سيطرت عليه خلال تأليف المقطوعة وبذلك تجدها تحول انتباهه — أى السامع — عن جوهر الشيء ، أقصد الموسيقى نفسها . إن « البطولة » سيمفونية جميلة قبل كل شيء . وقد نخطيء

الطريق إن نحن بحثنا في المقطوعة المذكورة عن «البطولة» ، فهي في الواقع غير موجودة فيها بنسبة تزيد عن وجود سترة وقبعة بونابرت الذي أوحى له بها . ونفس الشيء عن السوناتا المسماة «وداع — غياب — عودة» .. إنها لا تخرج عن كونها سوناتا عظيمة فحسب . فكل إذاً في القوة الحركية الموجودة بها وفي التقابل بين الحركات للنغم فيها .. لكن اترك جانباً الأرشيديوك ورودولف والغزو الفرنسي ولا ترغم نفسك على الشعور بوجود هجر (كما قد يوحى به العنوان : وداع ...) وما يتبع الهجر من عذاب وألم الانتظار ثم السعادة إزاء العودة ... لا ترغم نفسك فكل هذا موجود في المقطوعة ..

إن الأدب الشاعري العاطفي الذي يضاف على الأعمال الرومانتيكية الكبرى صبغة من الظلام والغموض لا ينبع غالباً من موسيقاه ، بل من مجذبه الذهن لم يكونوا أذكاء ، الذين لم يربدوا يوماً الاقتناع بأن الموسيقى لا تتحدث إلا عن الموسيقى ، فمنهم من « يبحث عن المقطوعة من خلال عنوانها ، وإن لزم الأمر يفرض عليها عنواناً ما لأسباب لا تتعلق إلا بالهوى الشخصي » (٥) . إن الملاحظ أن بيتهوفن لم يكتب عنواناً إلا لاثنتين من مقطوعات السوناتا التي كتبها وعددها اثنتان وثلاثون مقطوعة . وكان العنوانان هما الأباسيوناتا ، في ضوء القمر — الفجر ، وسوناتا البيانو والكان : الربيع ... والملاحظ أن هذه العناوين ترجع أصلاً إلى المستمعين ولا عبي السوناتا أنفسهم .

ولقد كان شوبان هو الفريسة الكبرى لهذه الرغبة الجنونية في وضع عنوان للمقطوعة الموسيقية ... فدون أن نتحدث عن حكاية «الكلب الكبير» المضحكة ، أو عن أسطورة «قطرة الماء» التي لا أساس لها في التاريخ (٦) ، يحسن أن نفكر في الفالس الذي يصر البعض — ولا ندري لم ؟ — على تسميته «وداع» الفنان شوبان . إذ لم يحدث يوماً أن لجأ

شوبان إلى عنوانه أعماله ، بل كل ما فعل هو أنه أشار إلى كل عمل من أعماله بنوع الموسيقى ، كأن قال إن هذه المقطوعة «دراسة» ، وعن تلك إنها «مقدمة» أو «شيرزو» أو «سوناتا» الخ ... بل إنه يحتاج على المعاملة التي تعامل بها موسيقاه لدرجة يتهم معها ناشره «فيسل» بالبله والسرقة ، حيث يقول : «إنه إذا خسر من بيع مؤلفاتي ، فذلك بسبب العناوين البلهاء التي وضعها لها رغم تحذيري له من ألا يفعل ذلك» .

غموض التعبير الموسيقي

لا بد أن تناقش حالات أصعب من تلك التي سبق أن تحدثنا عنها ، عندما يحين وقت ذلك ، نقصد مثلاً حالة القصيدة السيمفونية . كان سترافنسكى على حق حين قال : «إنى أعتبر الموسيقى فى جوهرها غير قادرة على التعبير عن أى شىء كان ، كالعاطفة أو الموقف أو الحالة النفسية أو ظواهر الطبيعة الخ...» فالموسيقى بصفاتها هذه لا تهدف إلى ترجمة العواطف أو المشاعر أو الدوافع ... وإن هى فعلت ذلك فإن تلك الترجمة لا تأتى إلا إضافياً وجانبياً . ولعل فى هذا دليلاً جديداً على غموض التعبير الموسيقي — أو — بتعبير أدق — على غموض الوسائل التى تعبر بها عن شىء ما ... ولنبحث هنا وسيلتين أو ثلاثاً من هذه الوسائل :

الوسيلة الأولى — وهى فى الحقيقة التى تتضمن الوسائل الأخرى — هى الميلوديا . والميلوديا فى ذاتها لا تحوى أى معنى نفسى محدد ، ولا يمكن لها أن تصطبغ بمعنى أياً كان إلا عن طريق الكلام الذى يصحبها . ومن الحقائق المؤكدة أن عدداً كبيراً من ميلوديات مختلفة بعضها عن بعض تماماً يمكن أن يعبر عن نفس النص المعين بنفس الدرجة والقوة . انظر مثلاً — دون أن تذهب إلى أبعد من ذلك — إلى موسيقى الصلوات ، تلك التى لا عدد لها والتى كتبها مؤلفون لا حصر لهم .. تجدها تكرر

نفس الشيء بألف طريقة مختلفة . « كيرى ايليسون ... المجد لله في الأعلى الخ » .

وعلى العكس من ذلك ، تستطيع الميلوديا أن تكون مصحوبة بأكثر العواطف تباينا ، بل وبأكثرها تعارضا فيما بينها . . . هكذا نراها في فن الموسيقى الكنائسية القديم . وفي صلوات الزواج ودعوات الوفاة . . . بل إن عازفي الآلات المتعددة الوظائف في القرن السادس عشر لم يروا أى حرج في كتابة موسيقى الصلوات بعد استقائها من أشعار الغزل والحب وأغاني احتساء الخمر . ولقد استعار باخ نفسه بعض موسيقاه الدينية - كما هو الشأن في ترانيم عيد الميلاد - من أغاني هرقل ، حيث أخذ منها : « أنا ملك لك ... أقبلك ... أعانقك ... » ثم صورها إلى : « إلهي ... أنا ملك لك ... رحمتك يا إلهي ... » كما هي الحال عنده أيضاً حين أفاد من مقطوعة « المؤرجحة » وأخذ منها الجزء الخاص ببعث النوم في قلب الحبيب ، والذي يقول : « نم يا حبيبي ... » ويلاحظ في كل هذا أن الاقتباس لم يغير شيئاً حين انتقل المعنى من هرقل إلى يسوع .

ما من داع لأن نكثر من الأمثلة ، فالطريقة شائعة . . . وهي تدل على أنه ليس للميلوديا قيمة روحية خاصة . ألم يذكّر لنا « فسان ديندى » منذ زمن طويل أن موضوع « اللحن العائد » الذي يجرى توقعه بنغم « ميبى مول » الصغير على بيانو الكلافشان الهادى . « يمكن أن يترجم أقوال أغنية « المجد لله » - هيلوليا ، - التي يترنم بها القسيس والمصلون في صلاة « تاج الأشواق » . . . وينطبق هذا أيضاً على أقوال أغنيتي البرنيت والموتيه : « يارب أنت كل شيء » لفتوريا ، وكذا على أباشيد الغزل التي كتبها جبريل فوريه ؟ إننا نجد نفس هذا الموضوع أيضاً في الفصل الثالث من مقطوعة الهوجنو . . . * (٧)

(*) الهوجنو ، ويعرفون في الكتب العربية غالباً بالهيجونوت ، هم طائفة من البروتستانت الفرنسيين وفيهم حدثت مذبحة القديس بارتليمي الشهيرة .

مثل هذه الحقيقة تفرض نفسها وتثبت وجودها في مختلف المقامات التي تشكل سلسلة « جاما » من تسلسل فترات نغمية ونصف نغمية . ولقد كان لدى اليونان ثمانى نغمات أعطوا لكل منها تقليداً خاصاً — تقصد قدرة تعبيرية تتحول لدى المستمع إلى قدرة إبداعية وحالة شاعرية خاصة . هكذا يعتبر المستمع موسيقى الدوريان الكنائسية ذات هدوء وقوة ورزاقه ، في حين أنه يعتبر موسيقى « الليديان » — على عكس ذلك — ذات خنوثة وشهوانية وعاطفة جنسية .

لكن إلى أى حد كانت المعنوية التي تنطوى عليها الموسيقى صحيحة ؟ وبأى درجة كانت تعتمد على الأقوال التي كانت تستخدم في التفتى بها تقليدياً على هذا المقام أو ذاك ؟ ألم يكن حكم اليونان على الهارموني الأجنبي الذي لم يعودوه بأنه رخو ، كما يحكم البعض اليوم ، على موسيقى الجاز بأنها هستيرية ؟ ما زالت هذه الفكرة قائمة اليوم و قد كانت العصور الوسطى تسمى مقام الدوريان صيغة « فريجية » ، وتسمى الفريجية دوريانة ، وتسمى مقام الايتوس صيغة فريجية . . . الخ . . . وكل هذا يرجع إلى سوء القراءة إذ ذاك . . . (٨) . لقد كانت العصور الوسطى باختصار تستخدم نفس المقامات دون أن تعرف أنها تعطى نفس الأثر الذي كانت تعطيه أيام اليونان القدماء . . .

ولم ينته هذا الخلط بانتهاء العصور الوسطى ، بل دام إلى نهاية القرن السادس عشر الذي اتبع طريقة مقامات الصوت ، تلك التي اختصرت المقامات إلى مقام كبير ومقام صغير فحسب . ومن هنا بدأ ظهور الخلافات . فكلم من مرة قيل لنا إن المقام الكبير يعبر عن السعادة ، وإن المقام الصغير يعبر عن الحزن ؟ لم يؤكد التاريخ هذه الفكرة أبداً ، ويكفى القول هنا أن في استطاعتنا أن نعدد المئات ، بل الآلاف من الميلوديات التي تريد التعبير عن الرشانة والخفة رغم كونها بمقام الدوريان أو الدوريان المرتفع

اليوناني (بنغم مى - لا) الذى يطلق عليه في تعبير آخر اسم مقام صغير . ويتضح هذا تماماً في صلوات السبت المقدس وثر عيدى الفصح والعنصرة - وبوجه خاص في كل صلاة ذات معنى كتلك التى تبدأ دائماً بكلمة « تهللوا » (٩).

ويدخل في نطاق المقام الصغير ايضاً قفشات القرن السادس عشر وكلها مرح وصخب وصياح وحركة والتفافات والأغاني الشعبية التى وصلتنا من العصور القديمة ، وأشعار الأوبرا الإيطالية القديمة ، وأخيراً مقطوعات رامو للبيانو الكلاشيان إنها من المقام الصغير غالباً ولكنها لا تظهر كما لو كانت على وتيرة واحدة من الحزن ، ولا تؤدى موسيقاها ضرورياً إلى الاثنين ، رغم أنها تعبر عن الفلكور الغنائى على المقام الصغير ، وخاصة بعد أن اضنى عليها كل من فوريه وشابريه ود يوسى روحاً جديدة .

هذا ولا توجد علاقة ما بين التجنيس والمرح من ناحية ، واللا توافق . والألم من ناحية أخرى .. والأمـر هنا أمر تعود وتعلم ، وإذن تسمع وتقليد فاللا توافق يقوم عندما يتخلل سياق النغم نغم أو أنغام غريبة .. غير أن اللا توافق في الهارموني الكلاسيكية لا يحدث إلا بشكل عابر ، ويقصد الوصول إلى التجنيس ، أى إلى التوافق المتكامل النهاى .. أما هو بنفسه نقصد اللا توافق ، فالغرض منه وقف خيال المستمع لحظة وإرغامه على الانتظار إلى أن يعود التوافق كما كان ويعنى الانتظار هنا عدم رضا المستمع ، وهو في نفس الوقت يرمز إلى الألم إن كان النص أو عنوان المقطوعة يميل إلى هذا المعنى وبالاختصار تجد اللا توافق بنسبة كبيرة عند سكارلاتى ، ومع ذلك فما من إنسان رأى أن موسيقاه حزينة .

لقد كان المفروض أن يؤدى تطور الوسائل التنفيذية الموسيقية بالمحدثين إلى إضفاء بعض المرونة على مدى ارتفاع النغم . لكن تعدد النغم

عند فاجز والعودة إلى المقامات القديمة وتأثير الأغنية الشعبية والموسيقى الأجنبية ، كل هذا ساعد على إزاحة مقام « أوت » من مكانه المرقوم . والمفهوم أنه كلما فقدت قوة المقام من قدرتها على الجاذبية ، أصبح اللاتوافق أقل قيمة من حيث كونه أداة انتقال ، وهكذا تستمر قوة المقام في إيجاد الشعور بالانتظار « الذي لا يمكن تفسيره ضرورة بأنه إحدى علامات الألم » . فالنغم السابع مثلا في القرن الثامن عشر كان مخصصا لتمثيل الألم . أما اليوم « فما من إنسان يستطيع أن يقول إن هذا هو دوره اليوم » .

والحقيقة أننا تعودنا اللاتوافقات ، بمعنى أن الأذن تستطيع أن تتذوق ما هو حاد ، أو دقيق ، أو أصيل منها . . كما أن التوافق التام لم يعديعبر عن السعادة ، بل إنه يعبر عن الجحود ، في حين أن اثنين من النغم التاسع المتواليين عند ديوسى يعتبران من أجمل التوافقات . والتوافق وعدم التوافق مثل المقام الصغير والمقام الكبير ، ما يزالان في إطار الغموض . ومعناها الروحي لم يعد يرتبط فحسب بطريقة استخدامهما . أو بما يسبقهما أو يلحقهما في الإيقاع الهارموني . بل إن معناهما هذا يتوقف على حالة معينة من الحساسية ، وهو معنى اجتماعى بقدر ما هو موسيقى .

الوصفاء إلى الموسيقى

مادامت الموسيقى كما رأينا لغة لا تعنى بالضرورة شيئا غير ذاتها ، فإن علينا أن نرى كيف نصغى لها . . . لكن يجب ألا نطلب إليها أن تثير ، أو أن توقظ أو أن تحيى لدينا سعادة الآلام والخواف والأسف والغيرة والحقد . . وكلها تعبر عن حياتنا العامة . . وكما أن التماسك بما يعبر عنه فن التصوير قبل كل شئ . يعنى عدم فهم هذا الفن . . فإن البحث قبل كل شئ . عن العواطف التى قد تصورها الموسيقى يعنى أنك لا تفهم الموسيقى . .

فالمشاعر التي تثيرها من نوع آخر، واللذة التي تقدمها موجودة في مكان آخر.

وكم من أناس لم يجدوا في الموسيقى إلا وسيلة للتعبير عن الحياة العاطفية، واعتقدوا أنهم يحبونها، وهم في الحقيقة يتركونها تذهب بعيداً عنهم تماماً... ومن بين مشاهير هؤلاء الناس لابد أن نذكر «ستاندال». لا شك أن حبه للموسيقى صحيح، ولقد كتب عنها صفحات صحيحة تماماً. لكن ماذا كان يقصد منها فيما عدا اللذة التي تستمتع بها الأذن؟ إنها تؤرجع أحلامه وتحيي عواطفه وتبقى لديه على جو من الحماسة يعادله هو بالسعادة. إذا كانت الموسيقى تجعل الإنسان سعيداً — هكذا يقول — فهذا لأن خياله يقدم له (عند سماعها) صوراً لطيفة. ولنتصور ما هي ألطف الصور في نظر ستاندال: «الموسيقى تبعث السرور عندما تضع روحك مساء في الوضع الذي كان الحب قد وضعه فيها نهاراً... إذاً إذا كان الحب متعطلاً فإن هناك شيئاً آخر يتقدم لك في الحال». وإذا لم تكن الروح مشغولة بعاطفة ما فإن الموسيقى تبعث فيك حلماً موضوعه شيء آخر، وكان هذا الموضوع في نابولي كيفية تسليح اليونان.

وهكذا يفهم الكثيرون الموسيقى... تجملهم يفكرون في كل شيء عدا الموسيقى نفسها... وستاندال يحلم عندما تأتي إليه بدلاً من أن يحس بها في ذاتها... أي إن الموسيقى تلبيه عن الموسيقى... ولذا فإنه رغم تحمسه لها، ورغم قوله: «أيتها الموسيقى... يا حبي الوحيد»... يفكر دون الكثير من الألم في أن من الجائز ألا يحبها... إنه يعترف بهذا ويقول: إن أنا فقدت الخيال كله، فربما فقدت أيضاً وفي نفس الوقت ذوقى إزاء

الموسيقى . واختصاراً فهي ثانوية . . . وهي فرصة للاستمتاع ، لا موضوع الاستمتاع نفسه . « فنحن لانستمتع حقيقة في الموسيقى إلا بالأحلام التي توحى لنا بها » . ولم لا يكون هناك منير آخر غيرها ؟ قد يستطيع أى منير آخر أن يقوم بنفس المهمة . « والموسيقى تعمل كعلامة لا كموسيقى لها قيمتها في ذاتها » . . . ماذا يتبقى إذاً من الجمال الموسيقي ؟ الشيء القليل . . . لأن « كل الجاذبية تعتمد على الخيال ، وليس للموسيقى في ذاتها موضوع حقيقي . . . » لا موضوع حقيقي ؟ اعتراف غريب يصدر عن هاو ، لعلنا نتفق على هذا . . . وأخيراً ها هو ذا الاعتراف الخطير . « كل موسيقى تدعوني إلى التفكير في الموسيقى شيء تافه بالنسبة إلى » (١٠) . هكذا كان ستانندال نفسه مستمعا تافها . . . لأنه ، وهو لا يعرف كيف يتحدث عن الموسيقى . يريد أن يقول إنه مفهم بها أشد الغرام . . . وهو لا يفقه فيها أكثر مما يفقه الأصم . . . إن لهم آذاناً ولكنهم لا يسمعون ! . . . »

حساسية ؟ نعم . . . لكن لا بد أن تكون قبل كل شيء حساسية موسيقية تنظمها الموسيقى وحدها ، وتكني الموسيقى وحدها لتوفرها . وهي تتميز عن الحساسية العادية بقدر تميز موهبة الرياضيات عن « الحساب » الدقيق المفروض الذي يقوم به البخيل أو المحاسب الذي « يعرف كيف يحصى » . . . إن هناك من الناس من تجردوا من هذه الحساسية تجرداً كاملاً في الوقت الذي يوجد لدى الجميع القليل أو الكثير من الأحاسيس والمشاعر . . . وتكون هذه الحساسية من القدرة على الكشف عن شئون الموسيقى وهي التي تصطبغ الاختراع عند الموسيقى كلما تقدمت الأفكار إليه وكلما قدرها هو قدرها واحتفظ بها أو استأصلها . وهي تظهر لدى الهاوى والمؤلف الموسيقي على السواء عن طريق تذوق النغمات والخطوط والهارمونيات والحركات والأوزان والرسوم الرنانة .

إن الحساسية الموسيقية ، أوحاسة الموسيقى تأتى من القلب والعقل والخيال معاً ، باعتبار الخيال القدرة الشاعرية الإبداعية كما يراها بودلير ، لا القدرة على اصطناع الأحلام وإلقاء مناظر مؤثرة لطيفة فى قلب الكائن الحى . ويقول بودلير هنا : « إن القلب يحوى الاندفاع العاطفى والإخلاص والجريمة . أما الخيال فهو وحده الذى يحوى الشعر . وحساسية القلب ليست على الإطلاق مواتية للعمل الشاعرى ، بل إن من الجائز أن يكون التطرف فى حساسية القلب ضاراً فى هذه الحالة . وحساسية الخيال ذات طبيعة أخرى ، فهى تعرف كيف تنفق وتحكم وتقارن وترك هذا وتعثر على ذاك الشئ ، بسرعة وتلقائياً . وهذه الحساسية التى تسمى — عادة — الذوق تستبسط قوة تجنب الشر وإيجاد الخير فى مجال الشعر ، (١١) .. وفى مجال الموسيقى أيضاً ...

والذوق معناه التقدير ، ومعناه كذلك الاستمتاع بما يقدره الإنسان . وهذا تظهر الحساسية الموسيقية كبدأ للانتقاء وكصدر للذة ... فإن كنت أستمع بالموسيقى فإنى بهذا أتقابل وحركتها ، وأشارك فى اندفاعاتها وهبوطها ، وأندمج فى صيغتها المتجددة دائماً ، وأصبح أنا بنفسى موسيقى .. هذه «الرحلة» التى تقودنى إليها النغمات لابد وأن تهز مشاعرى ، فأضحك وأبكى ... واتحمس أو أهدأ حين أصغى للموسيقى . ومع هذا فحركات المشاعر على هذه الصورة الموسيقية بالذات ، ليست لها أية علاقة تقريباً بالمشاعر والعواطف العادية التى نعرفها كل يوم ... فبين العواطف اليومية العادية والعواطف التى تثيرها الموسيقى نفس الفرق الموجود بين عالم الطبيعة وعالم ما فوق الطبيعة فى الفن ... وبديهيات بودلير التى أثارها لديه ادجار بوفيا يخص الشعر لا تسرى على الشعر وحده ، بل يمكن تطبيقها أيضاً على الموسيقى ، ولو أنه — أى بودلير — بنفسه لم يفعل ذلك . . فهو يقول : إن العاطفة قد تكون طبيعية لدرجة مبالغ فيها لا يمكن معها

ألا ندخل فيها نعمة خارجة أو غير متوافقة في مجال الجمال المطلق ، وقد تكون العاطفة عادية وقوية بحيث لا تثير الرغبات الخالصة والآلام النفسية الرقيقة وفقدان الأمل الذى يسكن المناطق فوق الطبيعية للشعر ... وللموسيقى (١٢) .

ماذا يمكن أن يعنى هذا إن لم يكن أن الموسيقى تخلق عواطف جديدة دون أن تعبر عن العواطف العادية ؟ لقد صرح بيرجسون بهذا بعد تفكير طويل كان قد خلط خلاله — على ما يلوح — بين منحنى الميلوديا ومنحنى الحياة العاطفية صرح دون التواء بأن « توقيف العاطفة عند شيء معين وفهم أى شعور على أنه رد فعل للحساسية وللممثل العقلى لا يحدث إلا بسبب المبالغة فى التفكير العقلى » . فالعواطف الموسيقية فى الحقيقة عواطف لا موضوع لها . إنها « بالنسبة لنا عواطف كاملة رغم أنها لا ترتبط بشيء » وقد يعارض البعض فى هذا بقوله : « إن الموسيقى قد لا يستطيع أن يثير فينا هذه المشاعر إن لم نكن قد جربناها فى الحياة الحقيقية ، فى حين أنها كانت محددة بموضوع لم يكن على الفن إلا أن يفصله عنها » . لكن الرد على هذا هو : « ان معنى هذا أننا نفى أن السرور والحزن والرحمة والاتصال الروحى كلمات تعبر عن عموميات يجب الرجوع إليها لترجمة ما تعبر عنه الموسيقى من عواطف ، على أن كل موسيقى تخلق عواطف جديدة تبدعها هى وتحددها وتعرف بها عن طريق الرسم الذى سارت عليه ، وهو الرسم الوحيد فى نوعه ، سواء أكان الأمر يتعلق بميلوديا أم بسيمفونية . على أن هذه العواطف ليست نابعة من الحياة حين يخلقها الفن ، بل إننا نحن الذين نترجمها إلى ألفاظ وتضطر بهذا للتقريب بين العاطفة التى أبدعها الفنان وبين ما يشبهها أكثر ما يمكن أن يكون الشبه فى الحياة » (١٣) .

الشكل الموسيقي

عندما يشكل الموسيقى موسيقاه ، يشكل العاطفة في نفس الوقت . والعمل الموسيقي في الواقع بناء ذورنين لا أكثر ولا أقل ، من شأنه أنه يضم معنى مفهومًا في ذاته ، وأنه يخضع لمنطق خاص بعيد عن أي موضوع محدد . وكان شوبان يقول لشاب طلب إليه رأيته في سيمفونيته : « اعزف لي موسيكاك أولاً ، فإن كانت طيبة كانت مقطوعتك المكتوبة موضوع إعجابي أيضاً » .

ألا يقول لنا قاموس اللغة إن الموسيقى فن تجميع النغمات ؟ والموسيقى المبدع هو الذي يقوم بالتأليف ، وما التأليف إلا ترتيب مجموع معين من أجزاء مختلفة وتنسيقه وتشكيله .. طبقاً لخطة ما . ومن وجهة النظر هذه يصبح الموسيقى كهندس المباني ، بناء يبنى السوناتا والرباعي والموتية (الأغنية الدينية) والأغاني والأوبرات الخ .. لم يخطئ سترافنسكي إذا حين عرف الظاهرة الموسيقية من هذه الزاوية بأنها « ظاهرة مقامرة » . . أو مضاربة تنبثق قطعاً عن الإنسان بأكمله ، جسداً وقلباً ورأساً . . « بحيث يعطيها شكلاً ويضعها في قالب مادي ملموس » (١٤) ... وتصبح هذه الظاهرة نتاج العقل تلعب فيه روح البناء والتجميع دوراً أساسياً .

لا بد أن نفهم جيداً أول الأمر أنه ما من موسيقى إلا وللعقل فيها دور « يبدع ويحيي وينظم » . والأمر هنا أن نعرف ما إذا كانت هناك في الطبيعة نغمات موسيقية بمعنى الكلمة . لكن مهما يكن الأمر فإن هذه النغمات مهما تكن محبة في ذاتها لن تساعد الموسيقى الفنان إلا باعتبارها مواد أولية خاماً . إننا نستمتع إلى همس النسيم في الأشجار ، وهدير الماء في النهر ، وأغنية العصفور ، وكل هذا يبعث فينا السرور ويروح عنا فنقول : يا لها من موسيقى لطيفة ! .

خطأ ... «إن هذه العناصر توحى فينا بالموسيقى لأن لها رنيناً، لكنها ليست بعد بالموسيقى ... وصحيح أننا نشعر بالسرور إزاءها، وقد نتصور أننا سنصبح موسيقيين عندما نلبسها وندركها لكننا — بصفتنا موسيقيين مبدعين — نبالغ في هذا حيال أنفسنا، فهذه الوعود الآتية من الطبيعة، وعود موسيقية لكن لا بد من إنسان ليمسك بها ... إنسان له إحساس بكل أصوات الطبيعة ولا شك، لكنه إنسان يشعر بضرورة تنظيم هذه الأشياء، ولا بد له أن يكون مزوداً، ليفعل هذا، بقدرة خاصة جداً ... وكل شيء، بين يديه اعتبره لا يمت للموسيقى بصلة يتحول إلى موسيقى ... إنى أستنتج من هذا أن العناصر الرنانة لا تشكل الموسيقى إلا عن طريق تنظيمها، ويفترض هذا التنظيم مقدماً عملاً شعورياً يقوم به الإنسان، (١٥) .

والنشاط الذى يصنع الموسيقى يساعد على اختيار الموضوعات وتنسيقها ليشيد عليها عمله، « فالموسيقى كفن المعماري بحث قبل أن يبدأ بناءه عن المواد الخام المناسبة ... يفعل هذا قبل أن يشرع في كتابة لحن ما أو سوناتا ما، وفي هذا يجد البواعث الموسيقية المناسبة على أن لموضوع اللحن أو السوناتا صفات تناسب هذا العمل أو ذاك، وعلى أن الفنان الموسيقى عليه أن يختار من بين الأفكار ما يتناسب والشئ الذى يريد أن يصنعه، فإن هو أهمل ناحية الاختيار هذه فلن يكون لحنه إلا لحناً رديئاً، أو لن تكون السوناتا التى ألفها إلا سوناتا فاسدة

« هذا، ولن يتخذ الموضوع بالضرورة الصيغة التى نعرفها ونقصد إليها.. إذ تتقدم أربع أو خمس نغمات على شكل نظام معين وبوزن معين، وهنا يشعر الإنسان فجأة بأنه يتذوق هذا النوع من الحلية، ويستجيب إلى ذلك الموضوع ويحفظ به ويتدرب عليه ويعمل من أجله ... كان من الضروري إذأ أن

يصنع الموسيقى موضوعاً . ولكن ليس الموضوع هنا حتما جزءاً من ميلوديا ، بل حالة نغمية تدخل فيها جميع العناصر الميلودية والمنظومة والهارمونية ... وقد شكلت الخلية البدائية كما يشكل الصلصال ويشذب ويعطى شكلاً ، ولواجهة هذه الخلية البدائية يتعين على الفنان أن يبحث عن أشكال أخرى تشبهها أو لا تشبهها ، بحيث تشترك وإياها لتعطيه أشكالاً جديدة قابلة للتنمية .. إذا لابد أن يفكر مقدماً في ضرورة هذه التنمية وهو يصنع موضوعاً ، (١٦) .

ومن بين الوسائل مجد وسائل النقل والتكرار والتقليد والوضع موضع العكس ، وهي وسائل نصف غريزية تسمح للفنان بإنشاء العمل الفني ابتداءً من موضوع ما ومن جملة موسيقية ما ، تقدم لجملة أخرى وهكذا . على أن هذا التجديد والرحابة والغزارة في نمو المقطوعة الموسيقية لا يمكن أن تقاس إلا بمدى خصب الخيال الشكلي لدى الموسيقى . ولقد نجح بيتهوفن حين ألف «منوعاته» الاثني والثلاثين بناءً على نغمة صغيرة أخذها من ديابلي . على أن قوة التجميع تظهر عظيمة ضخمة لدى باخ بالذات ، رغم أنه يكتفي بعناصر تتعلق بالموضوع هي أصلاً من أفقر ، بل وأنفه العناصر : بعض النوتات من جاما صول - لا - سي - دو ، أو الأربع النوتات المأخوذة من أحرف اسمه . لكن الطريقة التي يعامل بها ويفيد منها ويستخرج من واقعها موسيقاه طريقة لا مثيل لها ، وتنحصر عبقريته - ضمن نواح أخرى - في حدة النظر التي تسمح له بالكشف عن إمكانيات تحقيق المقطوعة ، والتي لا يمكن أن يرى غيره فيها شيئاً ما .

وهكذا يصبح التشكيل الموسيقى عنده مشكلة فنية عليه حلها ، ولعبة في نفس الوقت معقدة ومغرية ... وكان كلما تقدم في حياته الفنية - مثله مثل كبار المصورين الذين كانوا يبسطون استخدام الألوان لأقصى حد

عندما يصلون إلى سن الهرم — قلل من معطيات المقطوعة . ولقد شيد « القربان الموسيقى » كله على موضوع قدمه له فردريك الأكبر . أما « فن الفيغ (اللحن العائد) » الذى كرس له الأشهر الأخيرة من حياته فهو يجمع خمسة عشر لحناً عائداً، وأربعة ألحان كنسية بنيت كلها على موضوع وحيد . ولقد حمل باخ علم « الكونترابون » لدرجة من الكمال تضم كل ما يمكن أن يحويها هذا الفن ، ولدرجة لا يمكن بعدها أن يتبدع غيره جديداً فيها ، وأن يكتب ألحاناً عائداً ، اللهم إلا من قيل المران أو بشكل عابر ... وتنحصر المعجزة فى هذا فى أن موسيقى هذا العالم المنطقى ذى الشعور المرهف تنخطى حدود غير المتوقع والسهولة المطلقة ... الأمر الذى سمح بتسميته « سيد الهوى الطليق »، والذى جعل الناس يسمون أقل مقطوعاته « أنسيابا » .

وليس « اللحن العائد » هو النوع الوحيد فى التأليف الموسيقى الذى يخضع للقواعد . فالتسلسل والسوناتا التى تنفرع منه ، والسيمفونية ، التى هى سوناتا للاوركسترا ، والكونشرتو الذى هو السيمفونية بآلة وحيدة (سولو) كلها كذلك أنواع ذات شكل محدد ، بمعنى أن بناءها محدود معروف، وإن خطتها مفروضة على الفنان . فالموسيقى التى يشرع فى كتابة سوناتا يجد نفسه إذا فى وضع يشبه وضع الشاعر الذى يريد كتابة قصيدة مديح ، أو قصيدة غزل محددة ، يتعين عليه أن يضع ثلاثة أو أربعة قطع تسيطر عليها نغمة رئيسية ذات حركات مختلفة يكون أهمها « الأليجرو » ، بحيث تستجيب هذه الحركة « الأليجرو » للشروط الآتية : عرض موضوع أول، ثم عرض موضوع ثان بالنغمة السائدة، وتقدم ونمو طليق للمقطوعة بجميع النغمات العالية والمنخفضة الممكنة ، ثم إعادة عرض الموضوع الأول ثم الثانى وكلاهما فى إطار النغمة الرئيسية .

وهذه القواعد بطبيعة الحال ليست ذات قيمة مطلقة، ولقد استخلصها أصحاب النظريات عن الأعمال الموجودة، كما استخلص برالو قواعد التراجيديا

الكلاسيكية من أعمال كورنى وراسين ... غير أن كوربلى وفيما لدى وموتسارت ويتهوفن لم يكونوا فى عملهم أبدا عبيدا لقواعد مرسومة ... هذا لدرجة أن أسانذة الفن يؤكدون أنه ما من لحن من ألحان باخ قد شكل طبقا لنظرية ما ، وبالتالي ما من لحن منها كان صحيحا صحة كاملة . إن العبقرى هو الذى يستخدم القواعد ، ولا يخدمها . أضف إلى ذلك أن الصيغ الموسيقية قد تطورت كما يتطور كل شئ . حى . فالسوناتا عند يتهوفن لم تعد ما كانت عليه عند هايدن أو عند موتسارت ، ومن باب أولى ليست لدى يتهوفن ماستكون عليه عند فرانك وجاربريل فوريه وديبوسى ورافيل .

لهذا نرى أن من الضرورى أن نميز بين القواعد والقوانين ، باعتبار أن القواعد التقليدية ، أحيانا ما تكون عشوائية ، ودائما ما تكون متغيرة . . ليست إلا التعبير المؤقت والتجسيد الوقى لقوانين طبيعية ودائمة لا تزول أو تنشوه لأنها تقابل المطالب الرئيسية للنفس . وتتضمن القوانين المنطق الموسيقى الذى سبق أن تحدثنا عنه ، وهى تنظم حول فكرة النظام . لكن ماهو النظام إن لم يكن . تناسق المتنوعات ووزن المتعدد « (١٧) وبدون التعدد تصبح الوحدة جافة مملة ، ودون الوحدة يصبح التعدد تفرقا وانعدام تماسك . وبذلك يصبح فن الموسيقى هو إيجاد التوازن بين هذين العنصرين . على أن من الضرورى أن تتضمن الوحدة التباين وأن يؤدى التباين إلى الوحدة ، والتقابل بين الأضواء يهدف إلى حل نفسه بنفسه فى مجال التطابق . ، والتطابق ملء بالأضواء التى أعدت له وغذته .

هذا النجم من الواحد والمتعدد يضم وسائل عدة .. على أن النغم الذى يوضح الحد العام للعمل الفنى ، ووزن الدقات المتساوية ، وعرض الموضوع المعين على فقرات منتظمة ، وتناسق التوافقات الناتجة عن الأصوات التى تملأ بعضها بعضا ، كل هذا عنصر وحدة . أما عناصر التباين فهى على

عكس ذلك : التشكيل الذى يدخل أنغاما ثانوية ، وحرية الوزن وتبادل البواعث الميلودية وتعارض التنبؤ والمجموعات الآلية والطوايع . وتأتى أهمية الصنع الثابتة من أنها تمثل توافقات تم اكتسابها بطريق الاستعمال وتعمل على الجمع جمعا مقبولا محببا بين الوحدة والاختلاف — فالمسلسلة مثلا عبارة عن تتابع مقطوعات من أنغام راقصة كتبت بنفس النغم وبنيت كل منها على موضوع واحد، حركانه حية وبطيئة، وأوزانه زوجية أو ثلاثية أو رباعية الزمن تشكل تضادا وتضم حركات حية ، ألمانية وجازية وساراباندا الخ... فإذا فقدت هذه القطع ارتباطها بموسيقى الرقص ، أو ، إذا ضمت لنفسها موضوعا ثانيا ، أو ، إذا أحاطت الحركات السريعة بحركات بطيئة مثل الليجرو وأداجيو ، أو أندانت ومنويه ، أو شيرزو ، أو الليجرو النهائى ... تكونت عندنا السوناتا ، أو الكونشرتو أو السيمفونية الكلاسيكية .

الشكل الموسيقى

ولن يالو البعض جهدا — فى النقطة التى نتحدث فيها — عن أن يتهمنا بالشكلية ، ولسوف يقال إن الموسيقى بالنسبة لك نوع من بناء ، أو طريقة تنفيذ فنية . أو علم تجميع النغمات ... لكن الأمر هنا ، كما هو الشأن فى أى مجال آخر ، أمر فن يبدأ عندما تنتهى الطريقة التنفيذية ، فكم من أعمال موسيقية لا يمكن أن يعاب عليها بشئ من الناحية الدراسية البحتة ، ولكنها عندما تنفذ طبقا للقواعد كلها ، تؤدى إلى ضجر قاتل . . . وكم من أعمال أخرى تهزأ بالنظريات ولكنها مذهلة حلوة . . . وإذا أنت تهتم لدرجة مبالغ فيها بالناحية الشكلية للموسيقى ، ألا تعرض نفسك لخطر تشجيع الروح الأكاديمية الجامدة على حساب العبقرية والحياة؟ ألا تعرض الموسيقى كذلك للتجرد من كل عاطفة وكل قريحة فياضة وكل حرارة بشرية ؟ ألم تكن « العودة إلى باخ » أعوام ١٩٢٠ - ١٩٣٥ امرأ أدى إلى تفضيل موسيقى مجردة جامدة كان مطعمها الأول أن تشبه « آلية مصنوعة

جيدا، ؟ ومن هنا كانت مثل العناوين . «خطوة الصلب» للموسيقى بروكوفيف و«الباسيفيك رقم ٢٣١» للموسيقى هونجر .

وعلى كل فإن الأولوية التي تمنح للشكل تنفي أهمية التباين في التجربة الموسيقية وفي طبائع الموسيقيين . ذلك أنه إذا كان صحيحا أن بعضهم مثل مندلسون وسان صانص ورافيل وسترافسكي يرناحون لأدق أنواع الشكل المحدد ويطبقونه تماما عندما يلزم ذلك ، فإن آخرين مثل شومان وبرليوز وشوبان وديبوسى يتخلصون غريزيا من كل أنواع القواعد والقوانين ويريدون أن تكون أيديهم طليقة حرة . ثم إن هناك إلى جانب المنطقيين والهندسين الموسيقيين - وهذا نفس الشيء - هناك المغرمون والمتحمسون بالحب، والوجدانيون ، وكلهم يلقى أرضا بالموسيقى المشيدة تشيدا عليها لتجسد المشاعر لحماودما . كما يقول ديپوسى ، ويطالبون ، كما يفعل كلود آشيل بضرورة «البحث عن نظام داخل نطاق الحرية ، لا في نطاق قواعد فلسفية أصبحت عاجزة ولا تصلح إلا للضعفاء ... وبألا نستمع لنصائح أحد إلا الرياح التي تسرى وتقص علينا قصة العالم» (١٨) .

هذا أصلح لنا نحن الذين نستمع للموسيقى... فإذا كان لاغنى حقا لكي نفهم الموسيقى أن ندرس كيفية تشكيلها والهارمونية والكوتربوان . . وإذا كان من الضروري لكي نذوقها أن نعرف كيف صنعت ، لأصبحت مصدر تعب أكثر منه لذة . ومن حسن الحظ أن الموسيقى كما يقول ديپوسى «شيء عليه أن يبحث كيف يبعث اللذة عندنا . ولا بد أن يكون الجمال محسوسا، وأن يمنحنا المتعة المباشرة، وأن يفرض نفسه علينا أو يدخل في ثنايا نفوسنا دون أن نبذل أى جهد لفهمه .» (١٩) .

نزد على هذا أولا بتحديد الطبيعة الصحيحة للشكل الموسيقى . «أبعد عن نفسك هذه الفكرة - هكذا يلاحظ رولان مانوبل - إن الشكل

شئ خارج عن الموسيقى، ونوع من نسيج خلقى يستخدم لإضفاء التماسك اصطناعا على الحديث الموسيقى . . . إن الشكل هو النظام الداخلى الذى يبعث الحياة فى التكوين ، والعمل الفنى لا يوجد فعلا ولا يمكن أن يفهم إلا من خلاله ، والشكل هو الذى يصبغ العمل بمعناه وبعلة وجوده وبحياته ، لكن هذا الشكل ليس مرئيا بالضرورة ، فهو فى الاليجرو ظاهرى واضح تماما ، لكنه فى الحركة البطيئة أقل ظاهرية ووضوحا منه فى الاليجرو .

هكذا « نخطئ » من البداية إلى النهاية إذا نحن تصورنا أن صيغة السوناتا أو صيغة « اليدر » عبارة عن قوالب تصب فيها من الخارج مادة رنانة ... فهناك صيغ ثابتة ترغم الموسيقى على الخضوع لمطالب الإطارات المحددة ، لكن هذه العناصر الظاهرية للبناء الموسيقى ليست ترجمة مادية مرئية لنظام داخلى روحى مختلف . . (٢٠) لا شك أننا إذا أردنا أن نكتب سوناتا ، علينا إيجاد موضوعين وربطهما سويا تبعا لخطوة مرسومة مقدما ، ولا بد هنا أن يملأ قالب المفروض علينا وأن تبعث فيه الحيوية الإبداعية التى تستولى عليه وتستغله لى يصبح شكلا حيا . على أن الحيوية عنصر تابع من العمل نفسه ومندمج فى الموسيقى الذى أبدعه . . وعند ما لا يكون هذا الاندماج ممكنا بسبب نقص فى العبقرية أو عدم التوافق المزاجى ، تطبق القواعد آليا . . وهنا يحسن ترك هذه القواعد بدلا من السقوط فى الروح الأكاديمية .

ويظل الاهتمام بالشكل الخارجى للعمل الفنى قائما ، ولا يمكن تركه لما يسمى الهوى السائد أو ما يدعى بأنه الوحى ، وكلاهما مصدر فساد مباشر للعمل نفسه كما نرى لدى بعض الرومانتيكيين . والحقيقة أنه « إذا نتج فى الإيقاع خطر التطهر من القواعد تطهرا مطلقا ، وإذا كانت الموسيقى بعد باخ قد وقعت فى خطر الروح التعليمية أو التكلف . الأمر الذى مهد للثورة

التي قام بها يتهوفن حين حقن الموسيقى بدم جديد ، فذلك أن الخطر ناجم عن انحطاط المشاعر نفسها بسرعة فائقة

فطالما قلنا وكررنا إن الشكل والفكرة في الفنون الجميلة عامة شيء واحد ، وبهذا ، فإذا كان الرومانتيكيون قد ميزوا بين الشكل الخارجى والفكرة ، وتركوا جانبا البناء بالمعنى الدقيق ، والمنطق فأولوا الهوى الشخصى اهتمامهم ، فإنهم بهذه الطريقة قد حرموا هذا الوحي نفسه من الأسانيد التي يستند إليها ومن إطاراته التي يعيش فيها ، فقد كانت الأشكال في ذاتها ترغم المؤلف الموسيقى على الإيجاز والوضوح بصفتهما ضروريين للأسلوب العظيم الذي كان ينتشه يعتبره — وهو على حق — الصفة الأساسية لارتفاع أنواع الموسيقى وحين أضفى نيتشه على الموسيقى روح الكمال ، تمكن باخ من الوصول إلى القوة الانفجارية في الموسيقى أما الموسيقى الرومانتيكي فقد كان على عكس ذلك يستوحى عمله من مثل أعلى أدبي أكثر منه موسيقى ، ويحرم نفسه من قوة الشكل في ذاته ، ولذا تجده وقد بالغ في الإفادة من الوحي وقد ملأ صفحاته «ملنا» ، حتى إذا كان من أكبر الموسيقيين وقد كانت النتائج المباشرة لهذا الفن المستند إلى القوى الغامضة للفرد ؛ ذلك الفن الذي يرفع العاطفة على حساب العقل أن ترك الفنانون الدقة وعدلوا عن البحث المستمر العسير عن الكمال الفنى . . . وبالاختصار عن القدرة العلية فحسب » (*) .

(*) انظر بوشيه: معرفة الموسيقى ص ١٧٩ — ١٨١ ، حيث يميز المؤلف بين موسيقيين إيقاعيين وموسيقيين عواطفين ، وبين عصور إيقاعية «وعصور عواطفية» . . . وهكذا جاء الموسيقى موتفردى بعد فترة طويلة كانت الموسيقى فيها توضع وسط العلوم ويتهوفن (ص ١٥٣) وهكذا جاء التميز مريحا ولكنه لا يحل المشكلة ؛ إذ لا شك أن الإيقاع أو العواطف تسيطر دائما عند الموسيقى مهما كان الاتزان عنده موجودا (ص ١٥٤) ومع ذلك فالإيقاع والعواطف ليسا يطبقين متعززين أو عنصرين تتكون منهما الموسيقى والموسيقى بصفتهما موسيقى ليست الا إيقاعا وكل ما فيها إيقاع — ومن ناحية أخرى فإن العاطفة التي محيى الإيقاع جزء من الإيقاع نفسه ، وهي صفة الإيقاع نفسه التي تجعله محركا للشعور ولا علاقة بين هذا وبين العواطف الطبيعية التي يتحدث عنها بودلير ولا شيء فيها يتعلق بنظرية العواطف لدريكارت .

ولنسرع لنضيف إلى هذا أن الرومانتيكيين ، بصفتهم موسيقيين لم يتركوا جانبا أهمية الشكل ، بل نجدهم يعترفون بضرورة الاهتمام به اهتماما أساسيا ، كما نجد هذا في الصفحة الآتية من مذكرات ديلاكروا عن شوبان ، يقول ديلاكروا : « كنت أسأله (شوبان) عما يقيم المنطق في الموسيقى ، فيجعلني أشعر بالهارموني والكوتربوان ، الأمر الذي يعنى أن اللحن العائد هو المنطق في الموسيقى ، وأن معرفة اللحن العائد معرفة عميقة تعنى معرفة هذا العنصر عقلا واستنتاجا في الموسيقى . . . وبهذا يعتبر العلم كما يبينه رجل مثل شوبان هو الفن بعينه . . . وعلى عكس هذا لن يكون الفن ما يراه الرجل العادى ، أى نوعا من الوحي يأتى من حيث لا ندري ، ويسير عفواً ولا يبين الشكل الخارجى الجذاب للأشياء ، بل هو العقل نفسه تزيينه العبقريّة طبقا لمسيرة ضرورية تحكمه قوانين عليا ، (٢١) .

وما من شك في أن جميع الرومانتيكيين كانوا على نفس الدرجة من الفهم كما كان شوبان ، ومع ذلك فالصعوبات التي صادفوها ، وأحيانا أسفهم على ما لم يستطيعوا عمله له مغزاه . . . فقد كانت « المهنة » دائما بالنسبة لبرليوز عقبة ، ولطالما قاسى عمله الفنى من هذا . أما شوبير ، وهو نموذج العبقري غير المثقف ، والموسيقى الذي لم يكن له نظير في نوع الليدر ، هذا النوع الذي يلعب فيه الوحي الجارف الدور الأساسى ، فلا قيمة له عندما يجرب نفسه فى السيمفونية ، وعندما يشعر يوما بعجزه الفنى فى هذا قرر فى آخر أيام حياته أن يتلقى دروسا فى الكوتربوان ، لكن الوقت كان قد فات . وعن شوبان ، لابد أن نعترف بأنه كان قد أبدع أيما إبداع فى المقطوعات الموسيقية العاطفية الصغيرة التى توقع على البيانو أو بالصوت الإنسانى ، فإنه يضيق ذرعا بالأعمال الموسيقية ذات الحجم العريض ، لأنه طالما تردد على الشعراء كثير جدا ولم يعرف من سادة الموسيقى إلا القلائل . .

ولذا فهو يوصي صديقه العزيز براهمز ، قبل أن يسقط في هوة الجنون بقوله : « احذر من تقليدي ، أول عنايتك التنفيذ الفني ... وابعد عن الكلاسيكية » .

اختصاراً فإنه مهما نكن المواهب والأصالة وقدرة الموسيقى فإن كلمة الأخيرة للبناء والإنشاء والشكل — أى الصيغة — وعلما سترافسكى هناك أن من الضروري إذلال العناصر الديونيزية وإخضاعها للقانون ، (٢٢) . ويؤكد المحدثون هذه الحقيقة بطريقتهم ، وهم لا يفتنون من القواعد التقليدية إلا ليفرضوا على أنفسهم قواعد أخرى قد تكون أكثر تشدداً ، والصيغ أو الأشكال لدى سان صانص أو لدى رافيل ، أقل حرية ، رغم بعض المظاهر الخارجية منها عند موزار ... وترك النغم من حيث علوه وانخفاضه لدى شونبرج وتلاميذه يؤدي أحيانا بموسيقاهم إلى التدهور ، لأن الطريقة التسلسلية عندم تحدد هذه الموسيقى بمنطق أكثر تصلبا من منطق العصور الماضية .

لكن يحسن بنا أن نظل في إطار أكثر ألفة بالنسبة لنا ، وأن نلقى أسئلتنا على كلود ديوسى بصفته أحد المحدثين الذين لم تفقد موسيقاهم بتألقها شهرتها القوية من حيث كونها غامضة وغير متماسكة . فما من موسيقى مثله كره النظريات والتجريد والتقليد والصيغ المدرسية ، وما من موسيقى حارب أكثر منه من أجل العود إلى المنابع الطبيعية للموسيقى ليوجد — كما يقال — « النغم تحت النوتة » ، والإدراك تحت الفكرة ، (٢٣) . مع هذا فإن ديوسى هذا بعينه هو الذى قال : « كلما سرت إلى الأمام سادنى الرعب من هذا الخلط غير المقصود ... الذى ماهو إلا خداع للسمع » .. وهو بعينه الذى يرفض أن يوصف بأنه انطباعى ، ويرى فى الانطباعية « تعبيراً سهلاً غرضه احتقار الآخرين » .. لا شك أنه فضل اللبس المفصل تفصيلاً على اللبس الجاهز ، وعمل على إخفاء الخطوط الرئيسية فى عماله بنفس

القدر الذى عمل به الآخرون على إظهارها ، ومن هنا كان الشكل عنده أقل جوداً منه عند غيره ، وهكذا كان الشكل لديه دقيقاً... وهناك حكاية صغيرة توضح اهتمامه بالشكل ، فقد قدم له صديقه سأتى يوماً إحدى مقطوعاته التى ألفها . وما إن سمعها ديبوسى حتى قال له : إن «ليس لها شكلاً .. وعليك أن تحصر نفسك فى كتابة شيء بشكل ما .. لكن من أجل الله .. أرجو أن يكون لهذا شكل ، (٢٤) .

هكذا كما يتضح من المثل الذى قدمناه عن ديبوسى ، لا نقول إن الشكل يعنى الشكلية ، فثباته البناء لا تمنع أبداً وجود الأصالة ، ولا حلاوة الطعم ، ولا تحرك المشاعر الناتجة كلها عن التعبير ، بل على العكس من ذلك نعتقد دون أى تناقض إن أحسن الموسيقى بناء ، هى بعينها أحسنها تعبيراً ، لهذا السبب الوجيه أن ليس للبناء هدف آخر غير التعبير . وهكذا يرى الموسيقيون ولنحكم على هذه الحقيقة بناء على الحكاية الصغيرة الآتية التى يتذكرها أحدهم ونلتقطها فى حينه :

وصل « جيدالج » إلى حجرة الدراسة متأخراً ، وجلس أمام البيانو وقدمت له قطعة كورال أولحن عائد ليعزفها ، فأخذت عيناه تقرأ النص طويلاً ، ثم أخرج قلبه ورسم علامة التواو تينور وهو يقول بصوت منخفض ليس هذا معبراً ، فهل كان يقصد إيجاد سر خاص فى النص ؟ لا .. بل إنه كان يستدعى هذه العاطفة وذاك الذوق ، وروح الاختيار التى تتصف بها الحساسية .. والعجيب أنك تراه وقد توقف فجأة أمام لحن «ستريت» كان بناؤه رديئاً .. هنا كان من الممكن أن يطول سكونه ، لكنه قام فجأة يكتب .. وأخذت ريشته تجرى مدة خمس أو عشر دقائق ... ثم أخذ يعزف ما كان قد أدرك .. لقد كان كل شيء فى مكانه ، وكان كل شيء يحدث رنيناً ويعنى .. وأخذ التلاميذ ينظرون إلى بعضهم البعض دهشة ورضى ، لأن خيال الأستاذ وعقله وبديه كانت تملأ كلا منهم بالانتعاش الناتج عن الوزن الذى كان يحسه من خلال الموسيقى ، (٢٥) .

هل نخرج من هذا بأن الموسيقى لا يمكن أن تكون شيئاً آخر إلا موسيقى تم صنعها جيداً؟ .. لا شك لا .. لا إذا كان الأمر أمر واجب يعطى لتليذ عليه ان يطبق القواعد المحفوظة ، لا أيضاً إن كان الأمر أمر مؤلف موسيقى يكتفى بأن يكون متماسكاً مع نفسه، وبأن يحترم منطقاً خاصاً في النغم أو اللانغم يكون قد وضعه لنفسه كبداً ثابت . نعم . . لا شك في هذا إذا «كان المنطق الذي تتوجه العبقرية» كما يقول ديلاكروا - أو على الأقل «تزيينه الموهبة» ، يؤدي إلى خلق أشكال وصيغ جميلة بصرف النظر عن نوع القواعد والتطورات . . صيغ جميلة وتجميعات جميلة ميلودية أو هارمونية تبعث السرور في التفكير والحواس في وقت واحد . هكذا نسير دائماً ونحن نجد التعارض بين ديونيسوس وأبولون . لكن الحقيقة أن أبولون يحمل ديونيسوس بين طياته ، وما الغناء الموسيقي في ذاته إلا ما تنبض به الصيغة . إن الحكمة التي وجهها نيتشه خاصة بفاجر تنطبق على جميع عباقره الموسيقي «ألم يكن من مزايا القدامى أن كان أرفع المؤثرات لديهم في نفس الوقت وسيلة جمالية، في حين أن حقيقة الطبيعة عندنا ، نقصد على ما اعتقد تناسخ الحياة البشرية والإحساسات البشرية ، يجب أن تستخدم للحصول على مثل هذه النتيجة؟» .

الموسيقى والعمارة والرياضيات

إن فكرة التشييد الموسيقي في ذاتها تذكرنا بفن البناء . ولقد أشرنا مراراً إلى عمل مهندس المعماري لنوضح نشاط الموسيقى الفنان . فالحقيقة أن بين المعماري والموسيقي علاقات مؤكدة غالباً ما يلاحظها الفرد... ولدرجة يقال معها إن الموسيقى بناء يتحرك، وإن البناء - على حد قول جوته - «موسيقى مركزة» . ألا يجوز أن يكون مرجع هذا التشبيه أن لكليهما علاقة بالرياضيات؟ فلننظر عن قرب إلى هذا التجانس، وسنرى أن هذا التجانس

لا يقبل المناقشة لدرجة أننا إذا دفعنا بالبحث فيه إلى مدى بعيد فإننا قد نقضى على ما يحدد أشكال الفنون الجميلة ، بل والفن نفسه .

ليس من المستحيل أن نحدد القرابة بين الموسيقى والمعمار كما صورتها قصة « آمفيون » ، الذى كان يعزف على القيثارة فتتحرك الأحجار . « فن الواضح أن الموسيقى والبناء فنون تستطيع أن تستغنى عن تقليد الأشياء فى الطبيعة ، وهى فنون للمادة والشكل الخارجى فيها علاقات أشد قوة من تلك التى توجد بين الفنون الأخرى ، باعتبار كليهما يتجه نحو الحساسية بأشد حالاتها عمومية . . ذلك أن كليهما يقبل التكرار بصفته وسيلة قوية للتعبير ، وكلاهما يعمل بطريق التأثير الحسى لكبر الحجم والقوة فيهما ، التأثير الذى يجعلهما قادرين على جذب الحواس والعقل لدرجة الذهول . وأخيراً فإن لهما طبيعة خاصة من حيث إنهما يوحيان برفاهية تنتج عن تجميع العناصر فيما بينها وتنميتها نموا منتظما يجعلهما أقرب . ما يمكن من الهندسة والتحليل . لقد نسيت أهم ما فى هذا ، أقصد الإنشاء ، ذلك الربط بين المجموع والتفاصيل ، وهو شئ يمكن أن تلمسه فى الأعمال الموسيقية والمعمارية أكثر منه فى فنون إعادة تصوير الكائنات المرئية تقلا ، وتلك التى تستعير عناصرها ونماذجها من العالم الخارجى ، والأمر الذى ينتج عنه ضعف معين فى النقاء ، وإشارة إلى العالم الخارجى ، وإحساس غامض بأننى عرضاً ، (٢٦) .

غير أن هذا التقريب لا يصل إلى جوهر كل من فنى المعمار والموسيقى ، لأن المواد الأولية التى يستخدمها كل منهما — تقصد الأجسام المادية من ناحية ، والنغمات من ناحية أخرى — تجعل من الأول فناً يتعلق بالمكان ، والثانى يتعلق بالزمان . وصحيح أن الزمان والمكان ليسا كما اعتقد بيرجسون قابلين للافتصال تماماً . فالموسيقى مثلاً — رغم كونها فناً زمنياً — تنطلق

في مكان يتخيله السامع — خلقت « لنرى وتسمع في آن واحد » .. والكوتريوان عبارة عن خطوط وعن هارمونيّات الأحجام ، ولا يدرك العقل تتابع النغمات إلا لأنه يدرك سيرها ، فالميلوديا ترتفع وتنخفض وتحلق كعصفور ، في حين ينظر السامع بالأذن تطور سيرها ، (٢٧) . هذا وتنضح الصفة المكانية للموسيقى عندما يستخدم الموسيقى طريقة العزف المعكوس حيث يتابع الموضوع مصحوبا بما يعادله ويمثله تماما بحيث يصبح هذا المماثل بمثابة انعكاس دقيق في مرآة .

وفن البناء بدوره لا يمكن أن يتحقق خارج الزمن مادام يفترض حركة الأعين التي تستعرض مختلف أجزاء المبنى « وهو متحرك » ، وليس بغير متحرك ، ديناميكي ، وليس بثابت هذه الحقيقة تستند إلى البصرية الطبيعية ، وإلى أن الرؤية لا تسير بالتوازن ، بل إنها تتابع الشيء ، لأن الرؤية المتميزة دائماً ما تكون مختلطة للشيء ، حيث يظهر الخط المتعرج وهو يتحرك ، والحقيقة أنه لا يتحرك في نظر الرائي فعلا ، بل إن العيون نفسها هي التي تتحرك حين تتابع هذا الخط ، (٢٨) .

ورغم الاتصال بين الزمنية والمكانية فهما متميزتان ... وهكذا الأمر في الموسيقى وفن البناء ... ولعل من المبالغة في استخدام اللغة القول بأن « فن البناء زمني لا مكاني » ، (٢٩) . لأنه إذا كان الزمن والحركة شيئين ضروريين لبحث تفصيل أجزاء مبنى معين فإن هذا المبنى يتقدم للنظر كله مرة واحدة ، باعتباره قد شيد ليعطى عن نفسه انطباعا شاملا ، وباعتبار فحص أجزائه أمراً الغرض منه تقوية هذا الانطباع وتنويعه . أما في الموسيقى فالأمر على نقيض ذلك ، لأنها بحكم شكلها ذات طبيعة تتابعية ، مثلها مثل الأدب ، « لا ندرك فيها التفصيل وينتج تجميع العمل الموسيقي

إذا هكذا من الخاص إلى العام، ويكون الجهد الذى يطلب إلى السامع جهدا تركيبيا أو تأليفيا لا تحليليا ، (٣٠) .

لهذا لا يمكن الحديث عن الموسيقى الموجهة للعيون إلا وهى ما تزال على الورق . أما عزفها أو إيقاعها وسماعها ، فهو يخضع قبل كل شئ لقانون عدم رجوعية الزمن ، حتى ولو كانت هذه الموسيقى تدفعنا إلى تخيل أشباح تسير أو تتحرك فى المكان .. وهكذا فهى تعطى نتائج مختلفة جداً عن نتائج البناء رغم أنها تستخدم التعادل كما يفعل فن البناء . فصورة زخرفية صغيرة مقلوبة تزين مبنى ما تتطابق بالنسبة للأبصار فى ناحيتين تتكرر فيهما، ويمكن إدراكها فى سهولة. أما موضوع الموسيقى الذى تقلبه بالنسبة للسامع فلا يمكن إدراكه لأنه ليس صورة بسيطة تعكس الموضوع الأول فى مرآة خفسب ، لأنه يظهر كما لو كان مشوها أو مقلصا (٣١) ، ولا يمكن لغير المتخصص غالبا أن يدركه . ومن جهة أخرى يلاحظ أن التكرار فى الموسيقى وفى فن البناء لا يعبر عن نفس الشئ ... فالرسوم المعمارية التى تتكرر تؤثر عن طريق وجودها معا، وبالتالي فهى تخلو من أى تأثير بالمفاجأة. أما فى الموسيقى فإن عودة الميلوديا تفاجئنا لأن المقروض فيها أن تكون قد اختفت ، ولكنها تخفى لتعود مرة أخرى .. ففى البناء نجد المضاهاة فى المكان . أما فى الموسيقى فنجد التابع فى الزمن .

والموسيقى أيضاً — إلى جانب البناء — هى الفن الذى عمل أكثر من غيره على نمو الرياضيات، وأصلها — كما نعلم فى الغرب على الأقل — يرجع إلى فيثاغورس . فلقد كان هذا الفيلسوف يعتقد أن الأعداد هى جوهر الأشياء ونسيج الحقيقة ، وكما يقول هو : « منبع الطبيعة الأبدية » (٣٢) ، على أن تناسق العالم يأتى من علاقات عددية بسيطة، هى التى تنتجها الموسيقى، بمعنى أن أغنية السموات تجد صداها فى أغنية الصوت البشرى . ومن هنا كانت الرابطة بين الموسيقى وعلم الفلك ، تلك الرابطة التى لم يتمكن أحد

من إنكارها . ألم يتحدث أندريه جيد بشأن باخ عن « موسيقى فلكية ؟ »

لقد تشبعت الروح اليونانية بالدرس الذي ألقاه فيثاغورس ، وتجد آثاره عند أفلاطون وأرسطو ، ثم انتقلت هذه الآثار إلى العصور الوسطى . التي تعتبر الموسيقى علماً تضعه في « رباعى المعرفة » مع الحساب والهندسة والفلك . ولقد أولى كثيرون من محدثى العصر الحالى الرياضيات دوراً هاماً جداً في النظرية الموسيقية ، فهاك لا يبتز يأخذ فكرة معينة من سانت اوغسطين ويقول إن الفنان الموسيقى رجل يمارس الحساب ويجهل أنه يفعل ذلك ولا يعرف أنه يستخدم الأعداد ، ومع هذا فهو يستخدمها فعلاً . فالموسيقى « تمرين لا شعورى على الحساب » . . . ولندكر أن من بين فلاسفة ماوراء الطبيعة الألمان ، هناك مثل هربارت — من كانت عندهم الأعداد والنسب هي العناصر الحقيقة للجمال الموسيقى ، (٣٣) .

وهناك حقائق واضحة تثبت هذه الرابطة منذ أول نظرة ، فقد كانت تجربة الوتر الاهتزازى معروفة عند فيثاغورس ، كما أن قطعة الأمعاء تصدر رنين « الثمانى » عند ربطها من منتصفها . والخامس عند ربطها من ثلثها و « الرباعى » عند ربطها من ربعها . وبهذا تكون الفترات الموسيقية الرئيسية فيما بينها كالآرقام ١ — ٢ — ٣ — ٤ ، ويمكن تمثيلها بالنسب $\frac{1}{2}$ — $\frac{3}{4}$. هذه الملاحظات صحيحة ، وخصوصاً إذا أضفنا إليها الظاهرة المسماة ظاهرة الرنين المتعدد التي ثبتت صحتها أيضاً بعد بالتجربة العملية . فالوتر الاهتزازى يصدر إلى جانب رنينه الرئيسى نغمات جزئية تسمى النغمات الهارمونية ، والنغمات الأولى — بصرف النظر عن ازدواجات الثمانى : أوت — صول — مى ، تشكل التوافق لمقام كبير متكامل ، وهو العماد الرئيسى فى الهارموني الكلاسيكى الذى كان يسميه رامو « الدفعة الأولى للطبيعة » . ولقد أولى اهتماماً كبيراً أيضاً « لدورة الخماسيات » . وقد رأينا

أن الخماسى يقابل الرقم ٣ وهو رقم كامل تماماً . إذ يمكنك الحصول على جاما كاملة ذات اثنتى عشرة نوتة إذا أنت أصدرت نغمة أيا كانت ثم سرت من خماسى إلى خماسى نحو السميك أو نحو الحاد على السواء . . أما النغمة الثالثة عشرة فهى تؤدى بك إلى تلك التى بدأت فيها أول الأمر . وكل هذا يمكن تصويره على شكل دائرة مرسومة فكيف إذن لا نقول إن الموسيقى تعتمد على العلاقات العددية البسيطة وهى الموجودة أصلاً فى الطبيعة ؟ .

إن النتيجة النهائية لهذا تتعدى هذه الحدود . فقد كان من الضرورى أصلاً أن تأخذ النظريات الموسيقية فى حسابها الضروريات الطبيعية التى تتعلق بالرياضيات أو بالطبيعة ، وقد فرض الثمانى نفسه كمقياس للسلم الرنان ، لأنه ناتج عن تقسيم الوتر فى منتصفه ، بل لأنه يستجيب لفرق الارتفاع بين أصوات الرجال وأصوات النساء . لكن لماذا استؤصل ربع النغم ، على الأقل فى الموسيقى الغربية إلا لأن من العسير إدراكه على الأذن عامة ؟ . . ليس للعلم دخل فى الحقائق التى ترجع إلى تكوين الأعضاء الصوتية والحسية . ما من شك أبداً فى أن الرياضيات قد أدت للموسيقى خدمات جليلة ، فسمحت لها بوجه خاص بتحديد سلم النغمات وإكماله ، لكنها لكى تفعل هذا بالذات كان عليها أن تصحح الطبيعة وتعيدها إلى وضع تراهى مناسبة . . وهكذا يصبح الرياضى مصلحاً للحقائق الموسيقية بعد أن كان مشاهداً لها فحسب . . وبذلك أصبحت لدينا جاما تسمى جاما الفيزيقيين ، بعد أن كانت لدينا الجاما الفياغورية وحدها ، ثم أنت بعد ذلك الجاما المعتدلة . فإذا كانت الرياضيات إذاً قد دخلت إلى الموسيقى ، فذلك لأنها وضعت فيها على الأقل بالقدر الذى كانت تدخل به سابقاً . . وعلى أية حال فإن الجاما ليست مطابقة تماماً حتى بعد تحسينها للبساطة العددية التى يحبها المتصوفون والفلاسفة وبلا شك أن من الدقة أن نحدد اللحظة التى يتوقف فيها الشئ . عن أن يكون بسيطاً . . على أن الصحيح أنه بمجرد الابتعاد عن الرباعى أو الخماسى تبدأ العلاقات العددية فى التعقد شيئاً فشيئاً .

هذا ولم يكن تدخل العلماء كبيراً لدرجة لم يكن هناك فيها فرق بين

معطيات الفيزياء ومعطيات فن النغمات .. فمثلا في نغمة أوت مقام كبير في الارتفاع تختلف النوتتان لا - سي - عن تلك التي تتطلبها نظرية الفيزياء ، فهذه الأخيرة تتطلب - بعد وضع أوت - صول - مى - فا - رى - أن نضع قيمتها $\frac{1}{2}$ وهى غريبة في النغم من حيث ارتفاعه بل وعن نظريتنا الموسيقية - وتحلل النوتتان لا - سي $\frac{1}{2}$ محل سي $\frac{1}{4}$ لأسباب ميلودية . ومن أجل التقليد الشكلى في هذه الجاما الثابتة ذات الأربع النغمات من الرسم الناتج عن الجاما الرباعية الأولى . وأيضاً تخرج الهارمونيكا ١١٩٧ في أن واحد من أنغامنا ومن كتاباتنا ولا تدخل إليها إلا بناء على التقليد المعروف الذي يجعلنا نعزف « فا » النغمة الحادية عشرة بنغم «أوت» رغم أنه في منتصف المسافة بين فا $\frac{1}{2}$ فا $\frac{1}{4}$ (٣٤) ، وهكذا لن نصل إلى إغلاق حلقة الخماسيات إلا إذا دفعنا بإصبع الإبهام دفعة خفيفة، والواقع أننا إذا بدأنا من أوت فإن النغم الخامس الثالث عشر يعطينا سي $\frac{1}{2}$ الذى لا يختلط مع أوت فقط إلا بالنسبة للأذن ولإصابع البيانو .

على أى حال فإن الفروض الرياضية كانت أقل فعالية في تاريخ الموسيقى من تقدم التنفيذ الموسيقي على الآلات فلماذا مثلا ظهرت الهارموني متأخرة لهذه الدرجة مادامت مبنية على الأعداد ؟ لأن المختصين كانوا يحملون استخدام المدى ، وذلك رغم ما كانت تتمتع به الرياضيات من حب ، ولقد كان اختراع المدى عاملا على ترتيب عدة ميلوديات بعضها فوق بعض ، وهو الذى سمح بقراءة التجميعات الموسيقية قراءة رأسية ، وهو الذى أعد أيضا لظهور التوافق للوقت الذى أدخل فيه قضيب القياس ولماذا استخدم باخ الجاما المعتدلة ؟ هل كان ذلك ليرضى تفكيره الرياضى لأن قيمة نصف النغم يعبر عنها بالجذر $\sqrt[2]{2}$ ؟ إننا نعلم مع ذلك من المعاصرين أن باخ لم يكن يفكر لا في الأعداد، ولا في النسب العددية . إذأ فإن الذى كان يريده في عملية الإصلاح التي كان قد شرع فيها هو إجراء تعادل تام بين أنصاف النغم الاثنى عشر التي تتكون منها الجاما، ومن هنا كانت رغبته في نقل الأنغام وترتيبها إلى اللانهاية .

هذا التقدم فى التنفيذ الموسيقية ، لم تعاون فيه الرياضيات بشيء . بل إنها عرقلته فى بعض الأحيان ، وهى مسئلة بوجه خاص عن أن الموسيقيين إلى حوالى منتصف القرن الرابع عشر ومعهم أصحاب النظريات فى الجنوب الأوروبى قد أهملوا الثلاثى لأنهم كانوا غارقين فى أحلام فيثاغورية ، وبذلك أهملوا أيضا التوافق السكامل الذى يوجد فيه هذا الثلاثى . . . ولقد ظلت هذه الفترة النغمية (الثلاثى) إزاء الرباعى والخامسى كنغم غامض يمكن قبوله من قبيل التسامح فحسب ، ولو أنه اليوم يظهر لنا شيئا طبيعيا يدخل ضمن نطاق الهارمونيات الأولى . إننا نرى مدى ما كانت الموسيقى تفقد . . . ونرى أن النسبة العديدة للثلاثى لم تكن ولا شك سهلة (*) .

ولكن لا بد لنا من أن نؤكد أكثر من هذا ، فالرياضيات لم تتمكن من البقاء فى قلب الموسيقى ، بل إنها لم تتعد الخطوة الأولى نحوها ، فبين الموسيقى والرياضيات نفس الفرق الجذرى الموجود بين العلم والفن ، لأن دور رجل العلم هو إرجاع الظاهرة إلى ناحيتها العديدة ، القياسية التى يتم التعبير عنها بطريق النسبة أو المعادلة . والظواهر النغمية تقبل هذه المعاملة أيضاً . لكننا نقسمال : هل كانت هذه الظواهر تقبل هذه المعاملة على نطاق أوسع من الظواهر البصرية إذا كان فن الألوان (التصوير) قد اصطبغ منذ البداية كما هو الشأن فى فن الأنغام بفروض رياضية ؟ على أية حال فإن الموسيقى لا تختلط بعلم السماع أكثر من اختلاط علم البصريات بفن التصوير . . . ويمكن القول فقط إنها — أى الموسيقى — تستعيد موادها الأولية من علم السماع ، لأنها لا تتبع ميدان السكم ، بل ترجع إلى مجال النوع . والتضاد بين اللونين الأحمر والأخضر لا يعتبر بالنسبة للعين علاقة ترددات الإشعاعات الضوئية . . . ونفس الشيء يقال عن الخامسة التى تدركها الأذن فلا ترجع إلى النسبة $\frac{4}{3}$ التى يدركها عقلا رجل الرياضيات .

(*) كان الثلاثى الفيثاغورى يعادل $\frac{8}{3}$. أما فى جاما الفيثاغورين فهو يعادل $\frac{9}{8}$

صحيح أن السمع والبصر يصطبغان بصبغة عقلية، وأن الموسيقى تقتض
رؤية النسب، وأن نفس هاوى الموسيقى تكون راضية عندما تكتشف
وجود تماسك منطقي في تسلسلات الأنغام المنتظمة . . . إلا أن النسب
المقول عنها هذه ذات طبيعة أخرى غير طبيعة النسب العددية، عندما تدركها
الحواس حتى إذا كانت هذه الحواس قد دربت تدريجاً عقلياً . . . أضف
إلى هذا أن تماسك العمل الموسيقي لا تحكمه القوانين التي تحكم الأعداد .
وهكذا نجد أن العلاقة النغمية السائدة تستجيب جمالياً بطريقة التعبير
المنطقي عن طريق التعارض بين الأمور . فإذا أعطينا نغمة أيا كانت أصبح
الأمر أن نجد نوتة أخرى تقف موقف الضد صراحة من الأولى، دون
خلط أو تقريب أو تعقد أو شك، لتحدث معها رنيناً وسط علاقة تتميز
حدودها مع احتفاظها بالاكتمال والثروة والدسامة . . . وفي هذه الظروف
يحسن طبعاً اختيار نغم صول . . . الخامس (٣٥) وهكذا نرى أن الخامس يجد
قبولاً في آن واحد لدى الفيزياء ولدى الموسيقى، لكن قبوله هذا لا يرجع
في الحالتين لنفس العلة . فالحقيقة الفيزيائية لن تكون بأى حال تبريراً
ولا سبباً للحقيقة الموسيقية .

والمبالغة في التفكير رياضياً قد تؤدي إلى نسيان المهم في الأمر، أفصد
كون الموسيقى فناً، وكونها ترمي إلى تحقيق الجمال، وفي هذا عمل بعيد كل
البعد عن الرياضيات أيضاً . على أن نسبة عددية ما لا يمكن أن تكون
جميلة في ذاتها، وقد تكون لها جميع الصفات عدا الصفة الجمالية، لأنها
لا تبعث السعادة في النفس كما تفعل الميلوديا أو يفعل التوافق الهارموني .
وبتعبير آخر لن تكون للنسبة قيمة في نظر عالم الرياضة إلا من حيث كونها
صحيحة . أما بالنسبة للفنان الموسيقي فلا . . . وإن صح التعبير نقول إن
الموسيقى لا يهتم بالنسب في ذاتها، ولا يهتم إلا بالصفة الملموسة للنوتة
والفترة أو للتركيب النغمي نفسه . وفي هذا ما يكفي للتمييز بين مجالى
الرياضيات والموسيقى، حتى ولو ظهرا كأنهما يتداخلان .

الزمن الموسيقى

إن المقارنة التي قننا بها الآن بين الرياضيات والموسيقى تقتهى إلى نتيجة إيجابية ولو أنها تظهر كما لو كانت جافة. فالموسيقى فن تجمع النغمات بطريقة تبعث السرور إلى الأذن ، الأمر الذي ينساه الرياضيون . وهذا التجميع يتم ويكتمل في الزمن ، وهذا ما يميز الموسيقى عن فن البناء ، وقد عرف القديس أوغسطين الموسيقى بأنها « علم الحركة » ، والحركة تضم الزمن إن هي ضمت فكرة العدد ، وبلاحظ هنا سترافنسكي « أن الموسيقى تبني في التابع ، وهي بالتالي فن زمني ، في حين أن التصوير فن فضائي ، والموسيقى تفترض قبل أي شيء تنظيمًا معينًا للزمن ، أي « زمنية مزمنة » ، إن سمح لي باستخدام هذا التعبير الجديد ، (٢٦) . ويقول رولان مانويل بتعبير أبسط إن الموسيقى « لعبة النغم والزمن » ، (٢٧) ، فحتى إذا اكتفيت بقراءة تقسيم ما ، أجد نفسي وقد اندججت في المدة ، فهناك إذا تجربة موسيقية للزمن ، أي زمن تنشئه الموسيقى وتعيشه الموسيقى ، وهذا هو ما نسميه الزمن الموسيقى .

فعندما نقول مثلاً إن لدى الوقت — أو — ليس لدى الوقت — أو الوقت يمر بسرعة — أو يمر في ببطء . . . أو إن الوقت من ذهب الخ . . . عندما نقول هذا عامة نحدد حقيقة معقدة للغاية ، بمعنى أن الوقت — أو الزمن الذي نمارس خلاله نشاطنا بأنواعه ويتم فيه أعمالنا ونحقق خلاله مشروعاتنا وتأخذ فيه أعمالنا ومشاغلتنا مكانها . . هذا الزمن عبارة عن مجال تنتشر فيه مختلف العناصر الكونية والبيولوجية والسيكولوجية والعلمية والاجتماعية . . ومهما يكن الأمر فإن الزمن العادي المعروف — وإن أمكن القول — هذا الزمن اليومي ، يشكل النسيج العادي لحياتنا .

أما الزمن الموسيقي فهو شيء آخر ، لسبب بسيط هو أن الموسيقى تؤدي بنا إلى الخروج من الحياة العادية . . فما إن تهبط عصا ريمس الأوركسترا

وما إن تبدأ أوتار الكمان في العزف ، حتى يتعد عنى ذلك الزمن الذى كان يطاردنى . . . ويتوقف ويلغى نفسه بنفسه ، وتتطاير آلامى ويذهب سامى ولا أشعر بالأسف على ما مضى ، ولا بالضيق حيال المستقبل، وأترك جانباً زمن العمل ومشاكل الحياة وعبودية ما يمر فى سرعة خاطفة ، وأجد نفسى وقد دخلت إلى زمن جديد ، ملئ نقى لا يقبل . . . وما كل شيء فيه إلا نظام وجمال ورشاقة إلهية ، تحملنى خلالها الملوديا على أجنحتها . وتلفنى أمواجها فى جنباتها . . . وأصبح أسيراً لهذه الزمنية الجميلة وأحمل وأنحمل تطوراتها وأترك نفسى لها تسجنى وتخضعنى .

والزمن يتضمن التغيير ، فهو ينتزعنا دائماً مما مضى ولكنه يجلس منا ما لم يحدث بعد . ويكتب لافيل هنا يقول : « لا يوجد زمن إلا لى توجد دائماً فترة بين الكائن الذى نفكر فيه أو نرغبه والكائن المعطى لنا أو الذى نمتلكه » (٣٨) . . . وبهذا تصبح معجزة الموسيقى وسر السعادة التى تمنحنا إياها أنها فى نفس الوقت تخضع لهذا القانون وتحررنا منه ، على أنه لأن الظاهرة الموسيقية تنمو فى الزمن فهى تتطلب من المستمع أن يحتجز مختلف مراحلها بدلاً من أن يفهمها دفعة واحدة ، ويستخدم فى احتجازه إياها ذاكرته ، كما يستخدم فى انتظار مراحلها القادمة خيالاً دائماً اليقظة . ولقد ذكر أريستوكسين فى مطلع القرن الثالث قبل الميلاد هذه الملاحظة فقال « إن فهم الموسيقى يخضع لشرطين : أولهما تذكر ما فات ، وثانيهما سبق ما سوف يحدث » وهكذا يستند إدراك الشكل الموسيقى إلى الرغبة وإلى الذاكرة .

ومن الخطأ أن نفسر هذا الكلام تفسيراً سطحياً يستند إلى تجربة الزمن العادى . فأنا عندما أصغى إلى الموسيقى ، تخرج الذكري من أعماق الحنين للماضى ، كما تخرج الرغبة من قلقها الذى تعيش فيه ، دون أن أشعر بأنى فقدت شيئاً ، أو أنه ينقصنى شيء ، لأن الحاضر يكفينى كل لحظة هذه

هى ، القدرة الجارفة للعادة التى تتصف بها الموسيقى من حيث إنها تسبق الأحداث ، وهى واثقة بنفسها ، ومن حيث إنها تعد للمستقبل دون خطأ وتبنى للحاضر — كما يقول بول فاليرى — بشطايا المستقبل ، (٢٩) . إنه انتظار ، نعم ، لكنه انتظار يعبر هنا عن ثروة الماضى الذى يغزو المستقبل مكونا نظرية من الإمكانيات تعيدنا إليه .. وفى اللحظة التى تولد فيها هذه الجملة تجدها تغطى هذا الانتظار، لكن أليست هى بالذات التى أثارت فينا هذا الانتظار الذى يبررها؟ . بالاختصار . فإن أصالة الزمن الموسيقى تنحصر فى « أن الماضى والمستقبل يبران الحاضر بدلا من أن يحولانا عنه ، ولن يكونا هكذا أسفا أو انتظارا ، بل إنهما يلتصقان فى هذا القرب المستمر الذى يوجد فيه عمل الحاضر » (٤٠) .

ويقول لافيل أيضا : « إنه فى أرفع لحظات حياتنا ، وعند حدوث الافعال نتيجة الاكتشاف والإبداع والحب، يخفى الشعور بالزمن والذى يتفتح أمامنا إذ ذاك هو الأبدية ، لا المستقبل » (٤١) . . لكن هل هذه الأبدية هى التى يختص بها الله والتى تطابق طبيعته ؟ لا . . إنها طبقة زمنية تقرب من هذا الوعد بالحياة الأبدية، الذى يجعل منه علماء العلوم الدينية حقا للصالحين، لكن يظل الزمن هو الزمن بتابعه الذى لا يعود إلى الوراء، وقد خففته معاييه الموروثة . . . ولن يظل هذا الزمن بمثابة بيئة الأهداف التى لا تقنع ، ولا رمز المتابعة التى تصل إلى هدفها نهائيا ، بل هو بيئة الاستمتاع التى تظل مليئة بخير يتجدد دائما ويضفى السعادة علينا دائما ، والموسيقى تجعلنا نعيش فى زمن مشابه لهذا ، هو رمز وصورة ارضية للخلود دون أن يكون هو الخلود بعينه . . . وتطوره « لن يكون إلا تحليلا شئ . مكتمل نمتلكه ، لا يمكن أن يثرى أو ينمو ، ولا يمكن أن يهدف لشيء . إلا للاحتفاظ بنفسه ، . وتمدده هو « هذه الحركة السهلة التى يؤدى بها الكمال إلى كمال جديد مستمر وبهذا يعبر العمل الموسيقى عن خصب الشئ . المكتمل الذى يحدد نفسه بنفسه » (٤٢) .

قلنا إن مأساة الوجود الزمنى تنحصر في البعد بين الرغبة والتملك .
الموسيقى هى التى تقضى على هذه المأساة لأنها تحول الانتظار إلى متعة وتولد
الانتظار من المتعة ، إذ يمكن أن تترك دون أسف سرور الدقيقة التى
تمر إذا كنا واثقين أنها سوف تتجدد باستمرار ، وأتينا سنبقى فى السعادة
المتجددة دائما فى حاضر أبدي . والسعادة التى تقدمنا لها الموسيقى ليس لها
أصل آخر غير هذا ، وهى سعادة ناتجة عن الانتصار على الزمن ونزع سلاحه
وتلاوة التعاويذ عليه واستنقاذه ، لأنه لم يعد يحوى بالنسبة لنا أى تهديد ،
إذ يذهب دون أن يختطف منا شيئا ، ويسرى دون أن يخفى . واللحظة
الحاربة ، وهى مع ذلك لحظة لا تتحرك ، كسهم زينون عند فاليرى ، تطير
ولا تطير . ولذا فالتجربة الموسيقية تستجيب للرغبة العميقة للكائن الذى
يهدف إلى تغيير زمنه القلقة إلى زمنية سعيدة ، وهى تمكنه من تذوق
الراحة فى الحركة والأمن فى التعبير . وهذا التوافق السرى بين الفرد
ونفسه ، وبينه وبين العالم الذى يسير فى طريقة للوجود يختلف عن طريقنا
ونعنى بذلك الأبدية .

فإذا كانت الموسيقى تنتزع الإنسان من الزمن العادى الكريه الذى
يسير فيه نحو الفناء ، أليس هذا إذا لكى يفرق من جديد فى نفسه ؟ وإذا
كان زمنها قد أصبح أبديا ، ألا يجب أن أبحث عنه ، كما يبحث لنا الإنجيل
عن ملكة الله ، فى داخل نفسى بدلا من أن أحاول دائما إظهار مشاعرى
خارجيا ؟ هذه النظرية ، يعزوها البعض إلى بيرجسون ، وما من شك
فى أنها تمثل ناحية من نواحي فكره ، حيث تعود الاستعارات الموسيقية
غالبا تحت قلبه ، لأن الزمن العميق فى نظره نسيج الكائن الذى يترجم
طبيعيا بالموسيقى باعتباره أصلا موسيقى . أما العمل الموسيقى فلن يفعل
شيئا غير التعبير عن « الحركة الدقيقة للروح ، والحياة الداخلية للمؤلف ،
التي تندمج والحياة الدقيقة للستمع عن طريق نوع من التمتعة أو الرنين .

وهكذا تصبح « الميلوديا التي نصنع إليها وقد أغمضنا عيوننا ، وقد أخذنا
فكر فيها ، أقرب ما يمكن من أن نتقابل مع الزمن ، والزمن هو سيولة
حياتنا الداخلية نفسها ، (٤٣) .

غير أن مثل هذا التطابق بين الزمنية والموسيقى لن يخلو من الغايب ،
فاذا يمكن أن يكون موسيقيا بالذات في « الحركة الدقيقة للروح » ؟
وكيف يمكن أن يعيش العمل الموسيقي بعد اللحظات العابرة للإبداع إن لم
يكن هذا العمل عبارة عن نقوش تمثل زمن الموسيقى تمثيلا أميناً ؟ على كل
فالمشكلة هي أن نعرف هل فكرة الترتيب المتوالى ضرورية أم غير ضرورية
لكي ندرك الزمن ، وإذا لم تقع بالتالي في خطر القضاء على الزمن نفسه إذا
نحن استأصلنا فكرة الزمن . إذ يجوز أن يحتفى الزمن مع السيولة المطلقة (٤٤) ،
على أي حال لا بد أن نتق أن الموسيقي قد تحتفى ، فهي لا شيء دون التقدم
والدخول في النفس العميقة ، بل إنها لا شيء دون التمييز والتكرار
والتسلسل . . فالموسيقى وهي تتطور تطوراً طليقاً لن تكون إلا خطأ
مطلقاً ، وتقطعا مطلقاً ، وتخبطا خالصاً ، إن هي كانت ممكنة

وموقف بيرجسون من هذه الناحية أكثر تنوعاً في الحقيقة ، إذ ليس
من المستبعد أن يجرى عنده تحديد أكثر وتوضيح أدق . فالاستمرارية
بالنسبة له لا شك صفة ضرورية للحياة النفسية العميقة ، لكن هذه
الاستمرارية مهما تكن ذات سيولة ، فهي ليست موضع اللامبالاة ، لأن
الاندفاعات تصبغها بصبغة الحياة ، ولأن ضربات القلب تبعث فيها التقسيم ،
ولأنها تخضع للتسلسل المنتظم . وتؤكد هذا إحدى الصفحات التي كتبها
بيرجسون في كتاب « الضحك » التي يتحدث فيها عن الموسيقيين فيقول :
« إنهم يفهمون شيئاً لا علاقة له بالكلام .. أوزاناً معينة من أوزان الحياة
والتنفس تعيش في أعماق الإنسان أبعد مما تعيش أعماق العواطف فيه . . .
يفهمون هذا تحت هذه السعادة ، وذاك الحزن ، نظراً لأنها هي القانون الحي

الذى يتغير بتغير الأشخاص .. هذه الأوزان تتبّع نشوته وآلامه ، وآماله كلها استخلص هذه الموسيقى واستوعبها خالصة ، (٤٥) .

فلنشكر بيرجسون لأنه أكد لنا بهذا الوضوح ان الموسيقى لا تعبر عن العواطف العادية : « هذه السعادة وذاك الحزن اللذان يمكن ترجمتهما بالكلام لأن الذاتية التي تمد الموسيقى فيها جذورها أشد غموضا ، من هذه المشاعر السطحية ، ولأنه أوضح الأوزان الحيوية التي يشعر بها مؤلف الموسيقى في قرارة نفسه ، والمواقف العاطفية وترددات النغم النفسى » والقانون الحى المتغير بتغير الأشخاص وبآلامهم وآمالهم ونشواتهم . . . كل هذا يعيش فوق الانفعالات العابرة السطحية . مع هذا فالشئ الذى لا يقبل الوصف أو النطق به شئ ، والموسيقية شئ آخر . والحياة الداخلية في ذاتها ليست ميلودية ولا هارمونية . وبالتالي لا يمكن أن نستخلص ، الحركة الدقيقة للروح لكي نضع قطعة من الموسيقى ، بل لا بد لهذه الحركة الداخلية أن تحصل على شكل ما أو أن تقبل شكلا ما ، وأن تنظم نفسها تبعا لحطة موسيقية وتصبح ميلوديا ، أى كائنا موسيقيا متميزا ، له وجوده الموسيقى الخاص به ، ومزودا بمعنى موسيقى تابع من ذاته . وقد عرف هذا جيدا الفيلسوف الذى كتب « المنبعان » (بيرجسون) ، إذ كانت الموسيقى بالنسبة له مصدر إبداع وخلق عواطف جديدة تميزها وتحددها هي ، تدخل في صيغتها وتنبع من بنائها .

يتحدث فاليرى عن الموسيقى في مكان ما فيقول : « إنها تنسج لنا زمنا ندخل فيه حياة كاذبة تلامس ملابس الحياة الحقيقية » (٤٦) . فالزمن الموسيقى ، كالمشاعر الموسيقية ، تحدده الموسيقى ، وهو رنين خارج عن الزمن ، زمن خيالى ينشئه الموسيقى مستند إلى زمنه هو ، لكنه يختلف وينفصل ويقوم بذاته مستقلا ، ولو أنه يظل محصورا في حدود العمل الموسيقى ، لأن له

مثله ، بداية ونهاية . ويظل منقوشا في بنائه ، مرتبطا بشكله ، لا يفصل عن المادة الرنانة؛ فدور مثل الفالس أو المارش ، أو غيرها يفترض تنظيما موزونا معنا ، وبالتالي تنظيما خاصا للزمن ، فتعتمد كثافته وسمكه وتمدد أو انكماش نسيجه ، وجفاف هذا النسيج أوليونه ... تعتمد على الصفة الميلودية أو الهارمونية . أما قوانين التأليف وتغاير الموضوعات والحركات السريعة أو البطيئة ، فلا تأثير لها في تغيرات الزمن الموسيقي .

ومن المؤكد رغم هذا أن هناك أعمالا ذات أسلوب أكثر حرية وتلقائية ، مثل آداجيو موزار أوليدر شومان، تشترك وتتماسك عن قرب بالحالات التي يكون عليها ضمير المبدع.. ويميز رولان مانويل بهذا الصدد بين « نموذجين أساسيين للموسيقى ، موسيقى غنائية أو متغنية ، وهي التي تفيد من الزمن بطريقة أيا كانت ولا تقيسه ، وهذه نموذجها الاداجيو . وموسيقى راقصة أو « مصحوبة برقص » وهي التي تمنح الزمن قياسا كما تقاس ضربات النبض أو دقائق الساعة ... وهذه نموذجها « الاليجرو » . وبعد ذلك يقول إن « الاليجرو غالبا ما يندمج في الزمن الحقيقي ، ويندمج الاداجيو في الزمن السيكلوجي » (٤٧) . هذا ونجد نفس التمييز عند سترافنسكي .

أضف إلى هذا أن الأعمال الموسيقية التي تخضع لخطّة زمنية موضوعية — مثل الفالس ذي القياس الثلاثي الزمن — لن تضم تعبيراً ما إن هي لم تكن قد أثّرت بفعل الوزن الحى غير المنتظر ، الذى تمدها به حركة الروح نقصد « التنبؤ » الذاتى لحياة الفنان . والحقيقة أن للزمن الموسيقي أنواعا بقدر ما يوجد من مؤلفين ذوى أصالة ، فالعالم الزمنى عند بيتهوفن ليس هو بعينه العالم الزمنى لشوبر ، وليس هذا بنفسه هو العالم الزمنى عند شوبان ، وليس هذا الأخير هو بنفسه عند فورييه .

هكذا لا يمكن تحطيم الرابطة بين زمن الموسيقى وزمن الفنان الموسيقي . ولو أنها لا « يتقابلان » أبداً ، لأن المؤلف لا يخضع وهو يبدع عمله لسير حالاته النفسية ، وعمله شيء ، يختلف تماماً عن كتابته بدقة . فهو « يستخلص » كما يقول بيرجسون زمن موسيقاه من الزمن الذي يعيشه ويستخرج منه العناصر الموسيقية ، أو القابلة للدخول في إطار الموسيقى ، نقصد تلك التي تقبل أن تتحول إلى موسيقى . وهو في هذا لا يأخذ في اعتباره ، لا المادة ولا ما تحويه زمنيته من محتويات نفسية ، بل يكفي بأن يحتجز الدفعة والرسم « الأرايسك » والشكل الوزني والديناميكي ويخلق عن هذا الطريق ، في روافد الزمن أنغاماً من زمنه هو ، في النقطة التي تتقابل فيها متطلبات الشيء الذي يريد عمله واندفاعات حياته الداخلية ويصبح هذا الزمن الشكلي زمن العمل الفني ، الذي يصبح فيما بعد زمن العازفين والمستمعين حين يمجثون بقصد الاندماج فيه ، كالمارة الذين يدخلون حلقة الرقص . ، (٤٨) .

الإشاد الموسيقي

ليست الأبدية السعيدة التي تحملنا إليها الموسيقى في الحقيقة هدوءاً جافاً ، أو انعداماً للحياة ، أو « نيرفانا » ، تبتلع كل عاطفة متحركة في نوع من اللامبالاة الرفيعة . ألم نقل إن الصيغة الموسيقية يجب أن تكون مبهرة ، رغم أو بسبب دقتها ، وإلا أصبحت عدماً ؟ وإذا كانت الموسيقى — كما نعتقد — ذات هدف آخر غير التعبير عن المشاعر العادية ، أليس من الواضح أنها تثيرنا أو تهدئنا ، تمس إحساساتنا أو تبعث القلق فينا كيف شاءت ؟ أليست هي التي تحرك العواطف دون أن تترجم انفعالا محدداً ؟ هناك إذاً إشاد موسيقي ، وتستطيع الموسيقى بناء عليه أن تعرف نفسها بأنها « توصيف أنشودى للزمن » ، (٤٩) ، وفي ضوء هذا التعريف يعادل الموسيقي الفنان في قيمته قيمة الإنشاد في ذاته . ولنحاول هنا تحديد طبيعة هذا

الإنشاد ، وهو شيء لا يعدم علاقة بينه وبين إنشاد الشعراء والمصورين ، شيء — نقول هذا مرة أخرى — لا يعنى استعراض العاطفة العادية .

ولطالما لوحظ أن للموسيقى قوة انفعالية خارقة ، ولطالما استخدمت هذه القوة ، وهى — أى الموسيقى — بين الفنون الأخرى ، الفن الأول الذى يؤثر فى الأعصاب مباشرة رغم أنه يتجه إلى العقل أيضا ، ويؤثر فيها باتصال وبطريقة جسدية تماما . ويجرد الرنين أو توقيع نوتة ما تتكرر أو تطول يبعث الانفعال إلى المخ والقلب والرئتين والشرايين والدم والعضلات ، يبعث الاهتزاز فى الجسم كله .. ومن باب أولى الميلوديا ، بما تحويه من ثروة ومن منحنيات صاعدة أو هابطة ، ومن أنغام متباينة فى الارتفاع الصوتى ، ومن حركات سريعة أو بطيئة ، ومن إسراع أو إبطاء ، ومن وزن يندمج مع القياس أو يحطمه ، ومن تضاد بين الزمن النسبى للأنغام ، ومن تغير فى القوة عن طريق التعرض القوى ، ومن الكريشندو (الصعود) أو الدكريسندو (الهبوط) وسلطان الهارمونى على المراكز العصبية ، وبالتالي على الجسد كله ليس بأقل من سلطان الميلوديا كما ذكرناه حالا ، سواء سيطرت علينا الهارمونى وهى تداعبنا ، أو أخذت تمزق نفوسنا وهى تمثل المتعارضات ، أو دفعت بتوافقاتها إلى أعماق أحشائنا . وما من شك أبدا فى أن الموسيقيين يعزفون على أجسامنا كما يعزفون على أصابع الآلة الحية .

هكذا يصبح الإنشاد الموسيقى من قبيل المبدأ لإنشاداً جسدياً . ويتميز فن الأنغام الحركية أكثر من فن الخطوط والألوان ، أو من فنون الحجم والكتل ، فالموسيقى تدفع للسير والقفز . . . ولذا فهى شقيقة للرقص ، لدرجة أن أكثر أنواع الموسيقى تأملا أو أشدها استدعاء للتأمل توحى بتمثيل حركى قادر على تصويرها وترجمتها بالحركات لحسب . ذلك أن كل شيء فيها حركى ، ولا يصبح للوزن والميلوديا والهارمونى فى توافقها أى

معنى إلا بفضل تسلسلها وتتابعها ، ما دام كل شيء فيها يثير الحركة . . .
وتظهر هذه الحركة أحيانا بالأذرع والسيقان ودائما بالنسيج وأدق أجزاء
الأعضاء الداخلية . وبالاختصار ، لا ترجع عليه وجود الفن الموسيقي إلى
الحاسة السمعية للإنسان فحسب ، بل إنها ترجع كذلك إلى العلاقة المتينة
الخاصة التي تربط بين الحساسية السمعية والحركية الحية ، وبوجه خاص ،
الحركة النفسية ، (٥٠) . والشئ الذي يسمى نشوة أو خولا — أو إثارة
— أوراحة ، أو دفعا إلى أعلى أو إلى الأمام هو الأثر الذي تتركه الموسيقى .
وكلها قبل كل شيء ظواهر عضلية وحركية .

هل من الممكن أن نوضح وأن نصل هذه الطريقة في الفنية الموسيقية
برد الفعل النفسى الجسدى ؟ يعتقد البعض أن هذا ممكن ويقولون إن « كل
جملة صاعدة ترفع النغم العاطفي ، وإن كل جملة هابطة تخفض منها ،
(٥١) . هكذا يتكون « رافع السيف » عند فاجنر — وهو الذي يبعث
فينا نشوة إرادة القوة — من مجموعتين ميلوديتين صاعدتين . والعكس في
مقطوعة « البطولة » وهي مقطوعة حزينة للأموات ينخفض فيها النغم ،
وهي تنتج من مجموعتين هابطتين . ومن ناحية أخرى يلاحظ أن « كبر
الفترة بين نغمتين يؤثر في القوة الديناميكية تأثيرا يكبر كلما طالت الفترة .
وقفزات الأنغام تثير قفزات ديناميكية تتولد فجأة ، وبالتالي تثير تنوعات
مفاجئة في النغم العاطفي . وذلك إذا سارت فترة السكون من السميك إلى
الحاد في اتجاه النشوة العالية ، وإذا سارت من الحاد إلى السميك في اتجاه
المهبط ، (٥٢) مثال ذلك مقطوعات المارسييز ، وأغنية الرحيل وموضوع
قفزات الفاليري عند فاجنر وبطولة سيجفريد عنده أيضا ، وكذا
موضوع « مارش » المشاة ، كلها تبدأ بنفس الصيغة المثيرة ، أى بقفزة صاعدة
للنغم السائد القوى ، نقصد الرابعى الصاعد .

ويلوح أن التجارب العملية قد أثبتت صحة هذه القوانين ، إذ تدل على أن تمدد العضلات يزداد بازدياد تردد النغمات المتغايرة ، وأن هذه الزيادة كبيرة بحيث لا يمكن قياسها بالدينامومتر (مقياس الديناميكا) ، ولو أن هذه التجارب كانت سريعة وضئيلة إن هي قورنت بتعدد الظاهرة الموسيقية ، إذ أنه بالإضافة إلى ارتفاع النغمات ، تتداخل قوتها ومدتها وطابعها وطريقة ونوعية إرسالها ، وتنظيمها المتبادل بوجه خاص ، ذلك لأن تعبيرات اللغة الموسيقية تستطيع أن تقول ما تريد قوله عن طريق علاقاتها بما يسبقها وما يلحقها في الحديث الموسيقى ، أكثر منه عن طريق مغزاها المجرد ، (٥٣) . ولهذا فإن من الممكن تماما أن نعبّر عن النشوة بجملة هابطة ، كما هي الحال في موضوع « القديس فرانسوا دى بول يسير على الأمواج » ، كما يمكن التعبير عن الهبوط بجملة صاعدة كما هو الشأن في « دراسة فامقام صغير لشوبان » ، (٥٤) وكذلك فإنه « إذا كانت النشوة متناسبة مع طول الفترة الموسيقية ، تتسامل : كيف تفسر صفة الإثارة الكروماتية ؟ ولماذا اعتبر اليونان النغمة السميكة هي منطقة الانتشاء الحامسى بكل معناه ، تاركين جانبا استخدام أى مقياس للديناميكا ؟ ، (٥٥)

هذا صحيح ، بل ونضيف إليه أن الصيغ الميلودية أو الهارمونية يتغير معناها بتغير العصور . إن الموسيقى تمارس تأثيرها في الأعصاب ، ولاشئ . يخفى بسرعة كما يخفى الشعور العصبى ، وهناك تنافرات جذب الأذان في جيل معين ، وتجدها بالنسبة للجيل الذى يليه شيئا جافا . . . ويجب أن ننسى ، بالإضافة إلى هذا ، أن التأثيرات التى تنتجها الموسيقى ترتبط بالنظرية الموسيقية السائدة ، فهي تتغير في إطار نظرية أخرى كما تتغير في معانى الكلمات في نصوص مختلفة . فهكذا نجد « أن قفزة الرباعى ، مهما تكن قوية ، قد لا تدفع سيقان اليونانى ولا قلبه للقفز ، ولا تدفع رجل

العصور الوسطى لشيء لأن حاسة السمع لديه لم تتدرب على هذه النغمات البسيطة كما يحدث لنا نحن حيث نجد فيها ثروة ناتجة عن توافقين متوالين هما الرباعي والسباعي السائد الذي نفهمه مستترا بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، وقد أصبح هذان التوافقان في العصور الحديثة محور ارتكاز الموسيقى ، (٥٦) .

على أى حال فإن القول بأن « الموسيقى لذة للروح لأنها دافع يولد النشاط في الجسم » ، (٥٧) قول لا يكفي ، كما لا يكفي القول بأن الروح « فوق ظاهرة ، وإن الإنشاد والموسيقى ترديد نفسى لا هتزاز جسدى ، لأن الإنشاد الموسيقى يذهب من النفس إلى النفس عن طريق الجسد ، وهو في هذا يتمتع بطبيعة روحية أصلا وأساسا . على أن إدراك الموسيقى حسيا يفترض كما رأينا عملا عقليا ، لكن العقل لا يلعب إلا دور الوسيط فحسب . ويقول سان سايان : « إن في الفن نغمات . . شينا يعبر الأذن كما تعبر الدهليز ، ويعبر العقل كما تعبر ردهة ، ويذهب بعيداً . . » (٥٨) لكن إلى أين يذهب هذا الشيء ؟ هل يذهب إلى ما وراء آلامنا وسعادتنا وانفعالاتنا وعواطفنا الخاصة حيث تتجه الموسيقى إلى العاطفية البحتة ، إلى القوة الانفعالية للروح ، إلى القدرة على الإحساس نفسها ؟ لقد كان هذا رأى نبتشه ، لكننا لا نؤمن به تماما . إذ يجب أن نذهب إلى أبعد من ذلك إلى حيث يحتاج التمييز بين القدرات كما يحتاج التمييز بين المشاعر والأفكار . إن الموسيقى تمسنا في الواقع من جذور كيائنا ، وتحترق جسدنا إلى أن تصل إلى الروح فتدق عليها في محور ارتكازها ، وفي النقطة التي تنبع منها جميع أمانينا ، لأن الوزن الذي تنطوى عليه والقوة التي تحويها تصل إلى الوزن الحى الذى تضمه وإلى القوة العميقة التي هي كيائنا . فإذا ما تخطت كل مانح ونهى اتجهت كما يقول شكسبير إلى مقر الحب نفسه ، ذلك الشيء الذى . . لا أدري كيف . . ينبض ويتأوه ويأمل . . .

لكن هل نستطيع الوصول إلى سر كل حياة وكل كائن ، إن نحن استطعنا الوصول عن طريق الموسيقى إلى سر كياننا نحن ؟ وهل تمكننا الموسيقى من الاتصال بالحقيقة التي تنغذى بها كل حقيقة فينا وخارجا عنا؟ هذا ممكن . . . فالموسيقى — هكذا يقول يتهوفن — كشف أرفع من أى حكمة، ومن أى فلسفة . ، وهو يقول أيضا إن «الموسيقى هى الوسيلة الوحيدة التي توصلنا إلى عالم أرفع ، ذلك العالم الذى يضم الإنسان والذى لا يستطيع الإنسان أن يضمه» (٥٩) ، الحقيقة أننا نرى الموسيقى ترتبط دائما بالدين . فالنشوة الموسيقية مثلها مثل النشوة الصوفية تقرب من كل ما يعصى على التعبير والنطق ، وبما لا يمكن التعبير عنه باللغة . . . وفيلسوف من فلاسفة ما وراء الطبيعة مثل شوبنهاور قد يكون على حق حين يمنح الموسيقى صفة القدرة على إسماء المظاهر الظواهرية ، وعلى ضبط الشيء فى ذاته ، وعلى الاتصال بجوهر الطبيعة . ومهما يكن من أمر فإن الإنشاد الموسيقى يصبح إنشادا كونيا ، فكل شيء يحدث فى لحظات معينة كما لو كانت الموسيقى تمنح الأوزان الداخلية فينا الوزن الأولى ، وهو قانون الكون . . . ويلوح أنها توسع ذاتيا بحيث تبلغ حجم العالم وتعيد وضعها فى التناسق الكونى بعد أن تجمعها فى ذاتها وتخلصها من عراقيلها .

هذا ولا ترتفع جميع أنواع الموسيقى ولا شك إلى نفس المستوى من الروحية ، فالنفس البشرية تضم قما ووهداث ، ومن هنا كان الازدواج فى الإنشاد الموسيقى ، ولذا قد يكون من الخطر أن يقارن الإنسان نفسه بالقوى الكونية ، ولذا حذرنا «باريس» من موسيقى الهلاك فقال : «هناك أنغام تذهب إلى محراب النفس لتبعث النشاط فى تعقلنا وجنونا ، ولتضع فى نفوسنا خماير تجهلها» (٦٠) ، وهكذا فالموسيقى قادرة على تهدئة غرائزنا ، لكنها أيضا تستطيع أن تبث فيها الهياج ، ويمكن

دائماً تقريباً أن تلاحظ وجودها عندما تريد أن تنزع من الإنسان سيطرته على نفسه ، فهي تساعد على إيجاد النشوة السفلى والنشوة العليا على حد سواء ، واللهو الخليع ، مثله مثل الصلاة لا يمكن إدراكها دون الموسيقى ، وهاك الطقوس السحرية ، وغالباً ما تكون قاسية بذينة ، في الأديان السفلى . . لا تتم إلا في جو من انقشاع جماعى تعمل على وجوده أنغام « التام تام » . كما كان محاربو العصور كلها يذهبون إلى المذابح على أنغام الطبول . . وعندما يقوم شبان اندفعوا في قسوة نحو نهب قاعة مسرح بعد انتهاء حفل جاز ، لا يمكن أن نقول إن الموسيقى تلتطف الأخلاق .

إنها تلتطفها ما دامت هي الموسيقى ، أى مادامت تعمل على تنقية القوى الروحية والجنسية فتحركها إلى إنشاد موسيقى بحث . هذا ولا شك أن مؤلفي الموسيقى يتصفون بالسطحية أو العمق تبعاً لنوعية روحهم ، كما يتصفون تبعاً أيضاً بالجدية أو الهزل ، أو بالعذاب أو الهدوء . ويقول فاجنر هنا « إنهم لا يستطيعون جميعاً أن يذهبوا لاستشارة الله ، كما فعل يتهوفن عند كتابة رباعياته الأخيرة ، ولا يستطيع كل موسيقى على السواء أن يذهب بنا إلى قمة الهدوء الروحي الذي يوصلنا إليه جان سباستيان . وكم تطول المسافة مثلاً بين باخ وأوفنباخ . يكفي أن الموسيقى تستطيع أن تحل أغنياتها فينا محل ثورتنا ، وتنقذنا من نفوسنا وتنقى حركاتنا الجسدية وتخرجنا من عالم المحسوس لتتجه بنا قليلاً أو كثيراً إلى مملكة التأمل ، فإن هي أضفت على الموسيقى لحظة تلقيت منها أجمل هبة مادامت تبعث التناسق في نفسى ، أى الحكمة والتعقل بحيث ترتب قدراتى كلها ، بل وجسدى ، تحت سيطرة الحكمة ، وللحكمة اسم آخر هو الخير . . إننا لم ننته بعد من تفهم معنى تلك الصورة القديمة التى تصور « أورفيه » ، منقى النفوس بالهارموني والتي تترجم الحقيقة . لا : إن الموسيقى لا توقظ فينا لا السعادة ولا الحزن . . فإن هي استطاعت الوصول إلى الهدف الذى ترمى إليه تماماً لجعلت منا آلهة » (٦١) .

مناهج خارج المنهج

مادمت أصل إلى المكان المحدد وفي الميعاد المحدد ، فما من أحد يمنعني من اقتطاف أزهار الطريق ، أو الإعجاب بمنظر الطبيعة . هكذا الأمر بالنسبة لفنان الموسيقى أيضا ، إذ يجب عليه أن يعطى لبنائه الرثان معنى مفهوما بذاته فحسب ، وعن طريق الصيغة ، وأن يطلق الحرية لهذا الإنشاد الذى لا يتصل إلا بصلة بعيدة بالعواطف الأخرى ، وإن هو لم يفعل هذا فلن يكون لعمله قيمة ، ولن يكون عمله هذا موسيقيا . هذا هو منهجه الضرورى الإجبارى . أما ما يتبقى بعد ذلك فهو حر فى كل شىء . يستطيع بالقدر الذى تسمح له به وسائله أن يصنع الألوان والأضواء والظلال وأن يصف ويحكي ويصور ويطرق هذا الموضوع أوداك - أى ، بالاختصار - أن يرسم لنفسه هذا المنهج الثانوى الاختيارى أو ذاك . ولن يضيع على المستمع فى هذا شىء بشرط أن تكون الموسيقى بالنسبة له أيضا موسيقى قبل كل شىء .

ولقد قلنا فى بدء هذا الفصل إن الاتجاه نحو القصص أو الوصف فى الموسيقى يوجد كثيرا لدى الموسيقيين ، وعندنا من هذا أمثلة نأخذها من النغم الجريجورى الموحد ، الذى يقلد ما يعبر عنه تماما ، كفكرة «أضواء» أو فكرة «عيشوا على الأرض» ، أو نأخذها من موسيقى عصر النهضة الذين استمروا فى هذا الاتجاه حيث لم يحدث أن تركوا يوما كلمات معينة مثل : «اصعد» أو «اهبط» دون أن يوضحوها برسم يناسبها . وبإخلا يتبع طريقة أخرى غير هذه . والحركات الصاعدة لآلة القدم فى الكورال الذى يصور «الطوفان» ومقامات السباعى فى كورال مقطوعة «سقوط آدم» كلها ذات قيمة تصويرية.. كما أن الكروماتية (تعدد ألوان النغم) ذات الأثرين ، التى يستخدمها بيتهوفن فيما بعد تهدف إلى تصوير احتضار المسيح فوق الصليب . وهایدن يسمعنا فى مقطوعة الخليقة «زئير الأسد وتغريد

العندليب ونوح اليمام ، (*)

وهو يريد بالتأكيد أن يصور لنا هنا الألوان المنعشة في الصباح حين يربط في بداية الجزء الثالث بين المزمار والآلات الوترية . وعموماً فإن تأثير الاوركسترا تمثيلاً ليس بجديد .

على أنه يجب ألا نضع الرغبة في الوصف حيث لا وجود لها ، وإذا كان العمل الموسيقي يحمل عنواناً ، فليس هذا بدليل على شيء ، وغالباً ما يكون المؤلف قد بدأ مقطوعاته بدافع جمالي بحث ، ولا يدرك العلاقة بينها وبين شيء معين إلا فيما بعد . وهكذا يعثر على العنوان بعد تأليف المقطوعة أو خلاله ، فهذا هو نجر حين كتب « باسيفيك ٢٣١ » ، لم يكن لديه أي هدف أونية لتقليد قاطرة السكة الحديدية ، وهو يقول هنا : « لم تكن عندي فكرة أخرى غير كتابة حركة سيمفونية ما ، فرأيت أن أقرب بين أجزاء الوزن وأن أباعد بين أجزاء الحركة . . . ولم أبحث عن عنوان للقطعة إلا بعد ذلك ، عندما انتهيت منها . وأنت تعلم أنني أحب قاطرات السكك الحديدية كثيراً ، ورأيت إذاً أن أفعل مثلها فأسميت حركة مقطوعتي « باسيفيك ٢٣١ » (٦٢) . وقد كتبت عناوين « التقديس » لسترافنسكي ، و « الحمار الصغير الأبيض » لايبير — كما يشهد بذلك مؤلفوهم — في نفس الملابس .

وأحياناً تختفى نية الوصف قليلاً أو كثيراً إزاء النية الموسيقية ، فلا يطلب الموسيقى من الشيء إلا أن يقدم له عنصراً ميلودياً أو هارمونياً يستخدمه . وقد كانت « العرجاء » مثلاً في نظر مؤلفها رامو فرصة لكسر الوزن كما كان نوح الطير في مقطوعته « الدجاجة » لنفس الموسيقى ، وقد

(٥) لن ننتهي إن نحن تحدثنا عن أصوات الطيور في الموسيقى ؛ فقد أوحى الدجاجة لرامو أصواتاً . أما هايدن فلم يأنف من إيقاع صوتها حين تبيض في نهاية الرباعي العشرين وفي البجرو واندانت السيمفونية ، وقلدها موزار وروسيني وباخ . .

صورت تماما كما هي في الطبيعة أولا ، كانت بمثابة خلية نسج حولها المقطوعة كلها على هيئة بناء شكلي له جماله في ذاته . أما « الصيد » لموزار أولسكارلاتي فهو لا يصور لنا شيئا عن رحلة صيد ما . وعندما أسمى هايدن إحدى سيمفونياته « الساعة » ، وأخرى « الدب » ، لم يكن يقصد أى تصوير . . . كما أنه إذا كان صوت أقدام الحصان قد أوحى لبيتهوفن كما يدعى البعض باللايجريتو في السوناتا ٣١ رقم ٢ بشىء ، فالحقيقة أنه لم يحتجز من هذا الصوت إلا المحرك الأول

وعلى كل ، فالواقعية في هذا المجال لا يمكن أن تذهب إلى أبعد من ذلك .. إذ أن لغة الأنغام تختلف كل الاختلاف عن لغة الألوان في التصوير ، ولذا فإن الموسيقى لا يقلد النموذج ، بل بالأحرى ينتج مرادفا سمعيا أنشوديا له ، وقد يكون من الخطأ صبغ شىء بصبغة بصرية دون أن يكون هذا الشىء قابلا لذلك . ولندكر أن بيتهوفن قد كتب على رأس « سيمفونية الرعاة » : « هذا تعبير عن عاطفة ، وليس تصويرا » ، فالمنظر الواقع على ضفة النهر ، والعاصفة ورقصة الفلاحين وأغنية العصفور الصغير ، كلها تعبير عن حالات نفسية ، والشىء الصحيح بالنسبة للرومانتيكيين مثل شومان في مقطوعة « منظر الأطفال » ، و « كرفالات الفراشة » ، صحيح أيضا بالنسبة لمؤلفي الموسيقى ، لأن العالم الخارجى موجود بالنسبة لهم . فلنفكر في « نبذات سيمفونية » — أو — « البحر » الذى لا وصف فيه لشيء . . . وفى مقدمات البيانو « لديوسى » ، ومنها « راقصات جزيرة ديلفا » ، و « الفتاة ذات الشعر الكتانى » ، و « هضبات انا كبرى » ، و « حدائق تحت الأمطار » ، و « خطوات على الجليد » ، نجد أنها جميعا لوحات موسيقية لا تصور شيئا ، ولكنها تنقل حالات نفسية معينة .

هل يعني هذا أن نقول لكي نحكم على عمل من هذا النوع : إن عنوانه لا يفيد في شيء ؟ لا أظن — لأنه من الضروريات لكي تكتمل المتعة التي يعدنا لها الموسيقى وهو الذي يهتم بالتقابل الغامض بين الإدراكات الحسية أن يكون هناك عنوان ، ذلك أن التشابه بين النغم واللون إحدى الظواهر العميقة التي تنتمي إلى مجال اللاشعور . واللاشعور هو الذي يعاون في خلق كل ما هو غير محدد واضح ، وفي إيجاد قلق الانفعال الموسيقى لدى المستمع العادي الذي لا يصغى إلى الموسيقى بأذن الفنان الذي يعرف ما هو « الكوتربوان » ، والذي ينصرف في سذاجة إلى جاذبية المقطوعة الموسيقية . واللاشعور هو الذي يكشف لنا عن التناقض بين عالمين مختلفين ، واللذة التي نجدها في مثل هذا الشعور قد تختفي إذا تحدد واتضح هذا التناقض في صور واضحة ، بدلا من أن يظل غامضا في إحساسنا . (٦٣) .

والقصيدة السيمفونية هي الموسيقى ذات المنهج بالمعنى الصحيح . ولقد اخترعها برليوز ولكنها لم تعش طويلا حيث اختفت في نهاية القرن التاسع عشر ، حين امتصتها موسيقى الباليه رغم ما اصطبغت به من بريق حيث إن من بين الذين مارسوها موسيقيين لامعين من أمثال ليزت وصانص وريمسكي كورساكوف وبول دوكاس وريتشارد شتراوس ، وحتى كلود ديبوسى . . وبظهور القصيدة السيمفونية أخذ الرجوع إلى معطيات غير موسيقية يسيطر ويحاول أن يوجد في كل موسيقى . في هذا النوع يسبق النقاش الموسيقى نفسها ، وهو الذي يحدد بناءها وأجزاءها المتواليه ، ولا يستطيع المستمع إليها أن يفهم شيئا إن لم يكن قد وضع تحت بصره البرنامج المفصل لها ، وهو برنامج أو منهج رسمه الموسيقى لنفسه ، كما يفعل برليوز في « السيمفونية الخيالية » ، أو هو أيضا منهج يكون الموسيقى قد استعاره من أحد رجال الأدب ، كما فعل ليزت حين استعار « مقدماته » ،

من إحدى قصائد لا مارتين ، وحين استعار سان صانص أيضا « رقصة الموتى ، من إحدى قصائد جان لاهور .

ويلاحظ اليوم أن علماء الموسيقى يهاجمون القصيدة السيمفونية بشدة ، باعتبارها تخضع للأدب وتعتمد أساسا على عناصر غريبة عن فن النغم ، وتنتج من هذه الرومانتيكية الخليطة التي تفسد الموسيقى بخلطها بالشعر والفن المسرحي والتصوير ، وبالتالي تصبح من وجهة النظر هذه « نوعا مجنسا ، يشكل « كفرا بالمبدأ ، الموسيقى الخالص (٦٤) . صحيح أن هذا الرأي يبين لنا في وضوح مدى الأخطار المؤكدة التي تهدد الموسيقى لكن غالبا ما كان برليوز رجلا من رجال الأدب ، لأنه يريد ، مبالغا ، أن يوقظ عن طريق شروحه صوراً محددة وعواطف متميزة ، ومع ذلك فهو موسيقى أكثر منه أديب . يدل على هذا أن « السيمفونية الخيالية ، لا تزال قائمة رغم عنوانها العتيق ، نحتجز منها الحد الأدنى من المناقشة الضرورية ، ونصنئ إلى موسيقاها ، إذ أن الشيء الوحيد الذي يجب أن يؤخذ في الاعتبار في نهاية الأمر أن تكون الموسيقى جميلة ، سواء كان أو لم يكن لها موضوع . . والعمل الفني هو الذي يحكم عليه دون أن تفكر في الكيفية الغامضة التي ولد بها . على أن « الكفر بالمبدأ ، يمكن أن يؤدي إلى حقيقة صحيحة .. وهام أولاء المجنسون يملأون الشوارع ، وهم شبان على جانب كبير من الجمال .

مع كل ، فالمؤلفون الذين أولوا القصيدة السيمفونية أكبر الاهتمام لم يكونوا يهتمون بالمنهج لدرجة كبيرة ، لأنه كان بالنسبة لهم نوعا من نسيج سطحي ، أو خطة للتفكير أو مشروعا للعمل يشيدون فوقه عملا موسيقيا يكاد يكنى نفسه بنفسه . يشرح لنا سان صانص في مقدمة كتبها

لمقطوعة «عجلة أومقال» موضوع هذه المقطوعة فيقول : «إن موضوع هذه القصيدة هو إغراء المرأة ، والكفاح المرير بين الضعف والقوة ، لكن ما «عجلة أومقال» إلا وسيلة اخترتها فحسب من وجهه نظر الوزن والسياق العام للقطعة . والأشخاص الذين قد يهمهم البحث في التفصيلات يستطيعون أن يروا في الحرف (ج) ، هرقل وهو يئن وسط القيود التي لا يستطيع تحطيمها ، وأن يروا في الحرف (هـ) أومقال وهو يسخر من الجهود الضائعة التي يبذلها البطل ، إنها وسيلة ، وعلى أكثر تقدير رسم تقريبي أعد من أجل الموسيقى . هذا أيضا ما يبحث عنه الأب دوкас في قصة «الصبي الساحر» حيث يقول : «لقد اخترت الأنشودة الشاعرية التي كتبها جوته ، لأن طريقة قراءة القصيدة تتفق تماما وصيغة الشرزو والكلاسيكية ، ولأن أغلب الأحداث لدى جوته يمكن أن تتجسد موسيقيا ، ومثال ذلك الجزء الخاص بالمكنسة المكسورة ، والتي يعمل شقاها على ازدواج ممارسة هذا الجزء وعلى مولد جملة تعبر عن لحن عائد» (٦٥) .

هذا ولن يكون النقاش حول موضوع اللحن عديم الفائدة ، إذ أنه — على أقل ما يمكن — يفيد في شحذ خيال المؤلف الموسيقي ، وفي إثارة عقله ويده ، وفي توليد نشاطه الإبداعي ، وكما يقول المصور رينوار ، في «إشعال قريحته» . كان هذا الشأن بالنسبة لليزت الذي يكتب قصائد سيمفونية ذات صيغة مكتملة تسبطن فيها الناحية الانشودية على الرغبة في الوصف والسرود . «وليس للمنهج هدف آخر — هكذا يقول — إلا أنه يشير مقدما إلى المحركات السيكلوجية التي دفعت المؤلف إلى خلق عمله إشارة على تجسيد هذا العمل فيها» . ويشير الموسيقي فيرمز إلى نفس الشيء . وهو يتحدث عن دوкас فيقول : «يلوح أن دوкас لم يأخذ في مقطوعة «آريان وذو اللحية الزرقاء» ، من الشاعر إلا عنصرا سريا

شحن عقله ، وهو لا يتردد في القضاء على الجرثومة الكلامية وخنقها تحت الازدهار السيمفوني بالأوركسترا ، حين يبدأ خياله في تلقي الدفعة الأولى . وماه آريان وذو اللحية الزرقاء ، إلا قصيدة سيمفونية رائعة ، مكونة من أجزاء ثلاثة ، لا أهمية كبرى لألفاظها ، كما أنه لا أهمية فيها للأسطورة الفارسية التي منحت الحياة الموسيقية لمقطوعة لا يرى . . . فالقصيدة تعطى إشارة موسيقية للفنان الموسيقى ، والأوركسترا هو الذي يطرق الموضوع بعمق ، (٦٦) هل هذا يعني أن على المستمع أن يحرم نفسه من النظر إلى المنهج — أو أن يقرأه ثم ينساه حالا حتى ينصرف إلى الموسيقى نفسها؟ يجب هنا ألا نكون متعصبين ، إذ يمكن أن يكون معنى الموضوع مفيدا في استمرار جذب الانتباه وفهم الخط العام للمقطوعة . أضف إلى هذا أن الموضوع ذاته يمكن أن يزيد من اللذة بشرط أن نضمن أولوية الموسيقى ، وأن نأكد من أن المنهج — أو الموضوع — لن يحول المستمع عن تذوق الموسيقى نفسها ؛ لا بد هنا أن نصدق سان صانص ، وهو فنان لاشك فيه ، حين يرفع من شأن القصة التي تنطوي عليها السيمفونية . إنه يقول : « كم تكون الجاذبية عظيمة عندما تأتي لذة موسيقية خالصة لتنضم إلى لذة الخيال الذي يعبر طريقا معروفا دون تردد ، رابطة في ذلك بين الفكرة والموسيقى . . . وهذا ما يحدث ، مهما قيل ، بسهولة مطلقة . . . لأن كل قدرات الروح تجد مجالا لنشاطها ، وكلها ترمى إلى نفس الهدف . . . إننا نرى جيدا ما يكسبه من هذا . . . ومن المستحيل على أن أرى أنه يفقد في هذا شيئا ، (٦٧) .

أما الشعر فهو لا يكتفى بالحصول — إن لزم الأمر — على موضوع من أجل الموسيقى . فكثيراً ما يشترك وإياه اشتراكاً متيناً . وإذا كان من

الصحيح أن هذه النظرية لا تنطبق على أدباء القرن الثامن عشر الفرنسي من أمثال ديدرو وروسو وكوندياك ، وهي نظرية عادت في القرن التالى على أيدي سبنسر، الذى يرجع كل أنواع الموسيقى، حتى موسيقى الآلات، إلى تحرر الصفات التعبيرية للغة اللفظية ونضجها . لاشك أن كلام البشر يحوى عناصر تعبيرية نجدها فى الموسيقى ، وأن الانتقال من الكلام إلى الموسيقى يكاد أحيانا يكون غير ملموس . يقول سان صاخص هنا : إن الكلام أنشوديا هو النغنى ، وهذا صحيح جدا لدرجة أنى حين أستمع إلى إنسان ينطق بأيات شعر جميلة ، أجد أحيانا أنغاما أستطيع تسجيلها فى نوتة (٦٨) . صحيح هذا لأن الأنواع الموسيقية التى يصحب الكلام فيها الموسيقى متعددة، ومنها الميلوديا المغناء أو المقدسة أو غير المقدسة ، والجوق المتعدد والاوراتوريو والاورا والوبرا الهزلية إلخ . . . وليس من داع هنا لكى ندرس هذه الأنواع المختلطة باعتبارها أنواعا ثانوية ... لأن هدفنا هو البحث فى الطريقة التى طرق بها الموسيقيون النص لإنقاذ الموسيقى طبقا لمدارسهم وعبقرياتهم .

والموسيقيون الذين أعلنوا أفضلية الكلام على الموسيقى كثيرون ، تجدهم فى فلورنسا فى القرن السابع عشر ، ومن بين الروس فى القرن التاسع عشر لدينا موتزفردى ، ولوللى ، ومنه إلى جلوك ، ومن هذا الأخير إلى سيزار كوى . والامر أحيانا أمر طبيعة خاصة للموسيقى نفسه ويقول كولنج فى كتاب « الموسيقى والروحانية » : إن هناك — إن صح هذا التعبير — موسيقيين لفظيين، كما أن هناك موسيقيين بصريين، يشترك الكلام رغما عنهم بتوتر كيانهم وأهدافه نحو الموسيقى . . وأغلب الأحيان يكون هذا متعلقا بمذهب تفرضه على الفنان البيئة المحيطة به

أو التقليد . ويقدم لنا جلوك في هذا مثلاً نموذجياً ، فقد أخذ أصحاب نظريه دوائر المعارف في القرن الثامن عشر يثرون فيه إلى أن أصبح من رأيه « تحديد دور الموسيقى في وظيفتها الرسمية ، وهى خدمة الشعر عن طريق التعبير دون تعطيل العمل المنطوى عليه الدور الموسيقى أوبعث البرودة فيه عن طريق زخارف لا فائدة لها ... » ثم يقول : « ولقد حاولت جهدى أن أكون مصوراً وشاعراً قبل أن أكون موسيقياً ، موسيقى ؟ حمداً لله ... لأنه كان هكذا رغم المبادئ التى نادى بها ، وبدل عمله على هذا وخاصة حين لا تعمل الكلمات على السيطرة تماماً وهو على كل حال يعرف وصفها ، هذه الكلمات ، فى النغم حين يتبع غريزته وينسى التعليمات ، وما هو يكتب إلى جويليلام ، مؤلف « لفيجنى فى توريدا » المتحرر يقول له : « فيما يخص الكلام الذى أطلبه منك ، أنا فى حاجة إلى أبيات من عشر مقاطع تضعها ، فى الأماكن التى أبيعها لك مقطعا طويلا رنانا .. ثم أخيراً أريد أن يكون البيت الأخير قائماً مهيباً ، هذا إذا أردت أن تكون متفقا وموسيقياً » . وجلوك فى هذا أقل انسياً من لوللى الذى كان يؤلف موسيقاه قبل أن يتلقى القصيدة التى كان يطلبها من كينو ، أو من جليнка الذى كان يكتب موسيقاه أولاً عن « الحياة القصيرة » ثم يكيف الأقوال بها بعد ذلك .

والحقيقة أن جلوك يعمل بطريقة لا تنفق دائماً وما يقول ، لأنه يخضع النص للموسيقى . أما رامو فهو لا يخفى من نواياه شيئاً ، حين كان يفخر بأنه يطبق « لاجازيت دى هولاندا » لجعل منها موسيقى ، ويحكى عنه أن إحدى الممثلات أرادت أن تبطئ . من الحركة ، فى عزف مقطوعة « الفرسان المتجولون ، ليسهل الإلقاء ، فقال لها رامو : « لا يهم كثيراً أن نسمع كلامك مادام المستمعون يستمعون إلى موسيقاى » (٦٩) . وقد يكون

الكثيرون من مؤلفي الأوبرا من رأيهم هذا ، وهم الذين يكتفون عامة بالقليل جدا من الكلام المصاحب للموسيقى ، وعلى رأسهم موزار الذي نعرف آراءه في هذا ، حيث يقول : « يجب بالضرورة في الأوبرا أن يكون الشعر ابناً مطيعاً للموسيقى . على أنه في أشد المواقف فظاعة ، لا ينبغي أن تعمل الموسيقى على إيذاء الأذن ، بل عليها أن تسحرها وأن تظل موسيقى ، حكمها هنا حكم العواطف ، سواء كانت شديدة أم لا ، لا ينبغي التعبير عنها بشكل يؤدي إلى التقزز . » (٧٠)

وفاجنر الذي يقول بأنه شاعر ومؤلف مسرحي بقدر ما هو موسيقي يؤكد دائماً أن الموسيقى هي التي تقوم بالعمل كله . فهو يقول : « لا ينبغي أن تدخل الموسيقى في المسرحية بصفتها عنصراً بسيطاً إلى جانب العناصر الأخرى ، بل لا بد أن نرد لها هيبتها الأولى ، وأن نرى فيها ، لا مساعدة ولا منافسة ، بل أما للمسرحية . » ولقد فعل هذا في مقطوعته هو . . حين انتقل العمل الفني الذي أبدعه من المسرح إلى الكونسرتو بعد أن اتضح له أن الناحية الشعرية قد أخذت تعرقل موسيقاه ، وإلى أن ظهر هذا العمل في نهاية الأمر كعمل عظيم . . كعمل قام به واحد من أكبر مؤلفي السيمفونية في جميع العصور .

هناك إذاً حلان : إما أن نخضع الشعر للموسيقى ، وإما أن تخضع الموسيقى للشعر . لكن لدينا حلان : وهو الربط بين الاثنين ربطاً وثيقاً بحيث يتداخل كلاهما في الآخر ويتمزجان ليصبجا حلا واحداً وحيداً . . . ولقد كان موفردى أول مؤلف موسيقى نجح في تحقيق هذا التوافق تحقيقاً كاملاً . وقد كان النجاح أيضاً حليف الليدر الألمانية والنسوية ، بحيث كان التوافق متكاملًا بين الشعر والموسيقى لدرجة أصبحت معها الترجمة عاملاً يهدد العمل الفني الذي يجمعها بخطر الزوال . لأن الذي يحدث هنا هو أن كل كلمة تحفر فراش الملودية التي تلوح كالو كانت تسيل في الكلمات (٧١) ،

ويحاول ديوسى جهده أن يصل إلى نفس الهدف في مقطوعة ييلياس (*) وفي ميلودياته الإنشادية، وتبعه ولحقه في هذا فوريه وجونود وبراكورافيل وبولانك .. وهو في هذا يقول : « إن خط الأنغام العالية يختلط بالميلودية كما يحدث في الاوركسترا حين تذويب آلتان لتصبجا آلة واحدة ، وهنا إن تكون للكلمات أو للميلودية ، كل على حدة خاصة بها ، لأن الذى يحمل المعنى هو نتاج هذا التداخل ، والمعنى هنا معنى موسيقى بحث وما كان عبارة عن كلام أو سرد أحداث أو تعبير عن عواطف أو أفكار أصبح موسيقى فحسب ، وهكذا يتم تسخين الرمال لدرجة معينة حتى يصبح زجاجا (٧٢) . هكذا تكون الموسيقى قد امتصت النص ولو أنها تظل فى وضعه موضع الاحترام . ولهذا كان فوريه يفضل الشعراء المحايدين مثل ارمان سلفستر عندما لا يكونون ، مثل فرلين ، متحدين وعبقريته هو ، ولهذا نجد فرقا كبيرا بين نسختي « الماندولين ، لكل من ديوسى وفوريه ، فنسخة ديوسى تغمرنا فى عالمه هو . أما الثانية فتغمرنا فى عالم فوريه . ولهذا إذا كانت إحدى الميلوديتين المكتوبتين بنفس الكلام — مثل « جرين » من تأليف فوريه وأخرى من تأليف رينالدوهاهن — .. إذا كانت إحداهما أحسن من الأخرى ، فذلك لأن الصفة الموسيقية هى التى ترفع من قدرها — فالكلمة الأخيرة للموسيقى ... ولقد صدق شوبان ، سيد « اللبد » الذى لا يبارى حين قال : « أريد أن أنفجر بالموسيقى » .

(*) يقول ديوسى بخصوص ييلياس: يتعود المستمع عند سماع مقطوعة الشعور بطريقتين من الانفعال ، يختلفان : الانفعال الموسيقي من جهة والانفعال الشخصى من جهة أخرى ، وهو يشعر بهما بالتوالى ، وقد حاولت إذابة هذين الانفعالين معاً وجعلهما متوازيين ، انظر جريدة الفيجارو عدد ١٦ مايو ١٩٠٢ .

الفصل الرابع عالم الفن

يقول أوسكار وايلد : « إن هناك عالمين ؛ أحدهما قائم دون أن نتحدث عنه ، ويسمى عالم الواقع ، لأنه مامن ضرورة للتحدث عنه ، لكي نراه ، والآخر هو عالم الفن ، وهو الذى يجب أن نتحدث عنه ، لأنه لن يكون موجودا إلا إذا تكلمنا عنه ، لاشك أن مثل هذا التعريف مصطنع ، لأنه يصطبغ بصبغة علم الجمال فعالم الفن ليس الوحيد الذى يحتاج إلى الحديث عنه حتى يكون موجودا . أليس دنيا الحقيقة ، ودنيا الأخلاق كذلك عوالم غزاها الإنسان ؟ وهل هي أقل واقعية أو أقل تماسكا أو أقل ضراوة من عالم الفن حتى تحتاج إلى توليد نفسها بنفسها واكتمال ذاتها من حيث علاقتها بكياننا من كل نواحيه ، فعالم الجمال إجمالا ليس إلا إحدى الممالك فى كون من القيم أكثر اتساعا .

مع هذا فما يقوله وايلد يبرر نفسه ؛ بمعنى أن الفن — والفن فحسب — يؤدي إلى خلق عالم ملبوس ، متميز عن الطبيعة ومنافس لها . والحقيقى منه ، ذلك الذى يتمثل فيه اكتمال العقل والأشياء كلها ، ذو وجود عقلى خاص . فإذا كان الخير لا يتحقق إلا فى الأعمال والسلوك البشرى ، فإن الجمال — على عكس ذلك — يتجسد فى الأشياء المرئية الملبوسة المسموعة ، والننى تدركها الحواس ، ولو أن نوعها وتميزها وقدرتها على الإدهاش والإشعاع تمنع من أن تختلط بكل ما يمكن أن تنتجه يد البشر من أشياء أخرى . ولقد دخلنا إلى هذا العالم الغريب حين تطرقنا هنا إلى الحديث عن فن التصوير والشعر والموسيقى . ولنحاول الآن أن نحس من تعريفه

طبيعته أكثر مما فعلنا . وأن نفرس فيه بعض الجذور ونحدد كيانه الوجودى كما نوضح العلاقة التى يقيمها بينه وبين عالم الكائنات الطبيعية .

اللذة الجمالية

إن اللذة الملموسة هى التى تكشف لهذا الحيوان ، الذى هو أنا ، عن عالم الاحتياج والغريزة . ولذة الفهم تحدد استعدادى العقل للدخول فى عالم الأفكار ، أما اللذة الجمالية فهى التى تشهد بأنى أستطيع الوصول إلى عالم الفن ، وهى بهذه الصفة قادرة على إرشادى عما يتعلق بهذا العالم نفسه ، وهى لذة مركبة ، لكل من الجسد والروح نصيب فيها ، ولهذا السبب تأرجح الفلاسفة دائماً بين الحسية والعقلية . غير أن كل ما ذكرناه إلى الآن يسمح لنا بأن نرفض هذه النتائج الفلسفية المبسطة لدرجة مبالغ فيها ، لأنها ، أى هذه النتائج ، وإن كانت صحيحة من نواح معينة ، فإنها تترك الجوهر دون البحث فيه .

إن الحسية فى حقيقتها تعنى وجود اللذة الجمالية متضمنة فى الإدراك ذاته ، كما تعنى أن هذه اللذة تحدث رنيناً فى الجسم كله . فإذا شكلنا عن طريق التطابق فكرة جمال غير حسى ، نجد أنه ليست لدينا أى تجربة فى هذا ، لأن الجميل هو الذى يسر النظر والسمع واللمس العضلى أحياناً . والشعور الذى ينتج فى الحواس ينتقل إلى الجسم . ويقول جيمس هنا : « إن ما يمكن أن نحس به فى اللحظة التى يشرنا فيها الجمال عبارة عن وميض ، ودقة فى الصور ورعشة وتنفس عميق وخفقات فى القلب وهزة فى الظهر ودموع تأتى إلى العيون ، وألم فى أسفل البطن . . . وعدا ذلك من آلاف الأعراض التى يمكن تسميتها ، (١) .

ويبحث آخرون بدقة في أهمية الإدراكات الحسية المتعلقة بالجمالية الحركية ، فقد اكتشف بيرجسون - وهو على حق - « أن الإدراك الحسي نوع من الراحة والسهولة في الحركات الخارجية ، يرجع إلى الشعور بالانسجام ، بمعنى أن الجهد الذي يبذله الفنان ينحصر في « تحديد الحركات التي يقلدها جسمنا آليا » ، رغم أنها خفيفة ، بحيث تضعنا لجأة في « الحالة السيكلولوجية التي أثارها والتي لا يمكن تعريفها أو تحديدها » (٢) . وقد رأينا أن هذه « الحركات العامة الجسدية تتدخل في الموسيقى ، وأنها ليست غريبة عن السرور الذي نشعر به إزاء فن البناء والتصوير والنحت . ولقد صدق شعر فاليري الذي يقول فيه : « إن الحسناء تشعر أمامنا أن سيقانها نقية » (٣) ، بمعنى أن هذه الظاهرة التي نسميها « التمتعة الجسدية » هي تلك التي « أسر إليه بها أحد المثالين من أنه لم يكن بمستطاع أن يمنع نفسه إزاء تمثال الرحيل للمثال رود من أن يقلد حركة التمثال عن طريق الحركات التمثيلية الصامتة » (٣) .

فما من خطأ في كل هذا ، لكن ما من شيء يتعلق بالجمال فيه ، لأن الوصف الذي يقدمه جيمس ، وإن كان صحيحا فهو صحيح لعدد كبير من « الانفعالات ، الرقيقة « الأخرى » . فعندئذ الحركة حقيقة عادية نعرفها جميعا ، حقيقة عادية تأتي من التوافق الغريزي الذي يشعر به متفرج في مباراة ملاكمة أكثر مما يشعر هاو من هواة الفن وكما من أشياء تعيش خارج نطاق الجمال ، ومع ذلك تبعث السعادة إلى الحواس . . ومع كل ، فهما يكن الجسد مشتبكا في اللذة الجمالية ، فإن هذه اللذة لا تقع في إطار الحواس أساسا . ولقد أمكن لبعضهم أن يقول عن الموسيقى : « إن أمعاءنا هي المستولة عن كل شيء تقريبا » (٤) عن كل شيء عدا ما لا يمكن قياسه أو التعبير عنه ، تقصد سكر النفس ونشوة الروح .

أما العقلية العلمية فهي لا تجهل المعنى الروحي للذة الجمالية ، ولكنها لا تستطيع فهم أصالتها لأنها تبرر وجودها بحج معرفة الأمور . فما من شك في أن الشيء الجميل شيء يختص به العقل ، ولن يصعب علينا أن نثبت أن إدراك الجمال في جميع الفنون ، ومنها الموسيقى ، مرتبط بإدراك علاقة أو نسبة ما . ويقول بوسويه : « إن الجمال لا ينحصر إلا في النظام ، أى في الترتيب والنسب . . . وهكذا فهو ينتمى إلى العقل ، أى إلى القدرة على الفهم والحكم على الجمال » . ونجد نفس المذهب عند « كانط » ، رغم الفرق الكبير بينه وبين بوسويه من حيث الفلسفة واللغة . والمؤكد أن للجميل صفة تلخص في تحقيق التناسق بين الحساسية والفهم العقلي ، إلا أن الحكم المبني على الذوق يرجع إلى العقل نفسه ، ويتميز التأمل الجمالى إذن تميزاً واضحاً عن مجرد الاهتزاز العاطفى .

مع هذا فلذة المعرفة تعتمد أساساً على القدرة على التجريد ، وهى التى تمكّننا من تخطى المظاهر المحسوسة للوصول إلى تركيب الأشياء والربط فيما بين أجزائها بعضها ببعض . وهل يجب أن نكرر ما قلناه من أن المتعة الجمالية تأتى عن طريق الحواس وقد أضاءها العقل المفكر ؟ . . . إننا نوافق على هذا ، لكن هناك شروطاً لهذا .. ولنقل بتعبير نستعيره من « كانط » : إن الجميل هو الذى يبعث السرور بصورة كلية وبدون تصور محدد . . . وهو الذى لا يقبل الانفصال عن تنابع الأنغام أو المقاطع التى تطرق أذنى ، وعن الألوان التى تقع تحت عينى . فالشكل الملموس لا يحوى شيئاً آخر غير ذاته ، وما من شيء يمكن أن نبحث عنه خلف اللوحة أو فيما وراءها ، وما اللوحة برمز أو بنغاية . هذا سبب نذكره عرضاً ضمن الأسباب التى تسمح لنا بالتمييز بين التجربة الجمالية والتجربة الصوفية ولو أن بينهما تعاقباً وتشابهاً كبيرين : بمعنى أن حواس المتصوف مختلطة ، فى حين أن حواس الفنان مفعمة

من جهة أخرى نقول إن العقلية ليست هي كل الروحية ، فالروح أكبر من العقل ؛ لأنها تستطيع أن تعاونه ولكنها تستطيع أيضا أن تضايقه ، ولتذكر هنا قصة الروح والعقل (آيموس وانيا - لكلوديل). ويجب إذا أن نحذر من مطابقة العملية العقلية التي تصل بنا إلى طريقة تنفيذ العمل الفني ، بالسمو الروحي للكائن كله ، وهو السمو الذي يربطنا بجمال هذا العمل . « إن فهم الموضوع الموسيقي فهما يختلط به الحب شيء آخر ، معناه الاستعداد للتخلص من آلام الحياة ، وإدراك « دعوة للرحيل » . إنك تسمعه يدق على باب الشعور دقة تفتح أعماقه وتبعث إلينا راحة نفسية . إن هذه الهزة للذات صفة تحريرية . فنحن نتنفس بحرية ، أو بالأصح نتنفس في جو آخر ، (٥)

صحيح هذا بمعنى أننا إذا عممنا ما قاله الأستاذ برادين عن اللذة الموسيقية ، قلنا إن اللذة الجمالية لذة « تصلب اللب » ، ولعل هذه هي الطريقة الوحيدة لترجمة تلك التجربة الوحيدة في نوعها ؛ إذ نحن نسمى ما يخطف لبنا حقاً شيئاً جميلاً ، وليس لدينا مبدأ آخر للجمال غير هذا (٦) . والأمر بمعناه المباشر أمر نشوة تنزعنا في هدوء وبقسوة في آن واحد من ملابس الحياة اليومية وتذهب بنا إلى حياة أفضل . كان جوته يقول : إن « الشعر خلاص » ، لأننا نخف فجأة ونتخلص بمعجزة من احتياجاتنا ومشاكلنا وخيبة آمالنا ورغباتنا . . . ونخطي فجأة متاعبنا وكل ما يشغل بالنا هنا وتقاهة الوجود ، وننسى آلامنا وملذاتنا ، إذ أن ملذاتنا ذاتها عديمة القيمة وتنفجر كما تنفجر فقاعات الصابون إزاء السعادة التي تسيطر علينا الآن .

ما الذي حدث إذن ؟ حدث أن الإدراك الحسي قد أصبح بصفته الوسيلة العادية للقيام بعمل ما . . أصبح أداة للتأمل تعمل لصالح هذه « المفاجأة الإلهية » . وحدث أن خلصنا « الانفصال السري حيال الأهداف

التكيفية بسرعة خاطفة من الحقيقة ودخلنا في حلم صلد متماسك ، وقد ارتفعنا نحو إعجاز موجود في مكان آخر . وخاصة سلب اللب التي يختص بها الفن تعنى قدرته العليا على القذف بنا فوق عالم الأشياء عن طريق التخریب الهادى . العجيب الذى يصيب به الحواس التي تهدف أصلا إلى أن تقدم لنا هذه الأشياء تقدما تمثيلا ، (٧) ولن تصبح الأشياء إذا بالنسبة إلينا فرصة للعمل وإرغاما عليه ، بل نرى المنظر كما لو كنا في المسرح .

الواقع أن اللذة الجمالية لا تسلبنا من هذا العالم إلا لتكشف لنا عن عالم آخر ، وتعبدنا لهذا النوع من الوجود الذى يتصف بالثروة والكمال والنشوة والهدوء الذى نهدف إليه شعوريا أولا شعوريا ، ولذا فإن المذات الأخرى لا تستطيع إلا أن تشغل الأهداف دون أن تعيش هذا الوجود الجديد ، (٨) فى حين أن اللذة الجمالية تملأ كيانا الروحى وتكشف عن مطالبه ، فى حين تشبعها فى نفس الوقت . ولهذا كان التأمل الجمالى علاجا عظيما لضجر الحياة ، ولا نقصد هنا الضجر العابر أو ذلك الضجر الذى نرى منبته أو هذا الذى نعرف حدوده ، بل نقصد الضجر الكامل ، السأم الخالص ، السأم الذى لا يرجع إلى سوء الحظ أو إلى العجز ، والذى لا يختفى بظهور ظروف طيبة ، أى ذلك الذى لا مادة له إلا الحياة نفسها . . . إنه هذا الضجر المطلق الذى هو فى ذاته الحياة عارية عندما تنظر إلى نفسها بوضوح ، (٩) .

إنها سعادة فى الواقع جنانية . . سعادة مبكرة رغم ذلك لا يعيش فيها الإنسان وقد انتشى تماما ، بل إنها قصيرة ، إذ أن الحلم ينتهى حال انتهاء الحفل الموسيقى الذى تحضره ، أو حال خروجك من المتحف ، وسرعان ما تجد الحقيقة أكثر قسوة وأشد بؤسا . . . فإذا كانت اللذة الجمالية تهدى من ضيق الحياة ، فإنها كذلك تشحذها وتحببها لأنها تبين لك تفاهة الحياة وضعف واقعية ما يسمى واقعية .

ولكن هل تكون اللذة على الأقل دون عيوب في حالة كونها مستمرة ؟
ليس دائما ، وبخاصة عندما يكون الجمال أعلى جمالا . لسنا هنا من
رأى الاستاذ برادين ، ولو أنه كان يظهر لنا على حق حين يتحدث عن
الحب ، فهو يقول : إن المرأة رمز و شيء جسدى تخترقه العاطفة كما لو كان
سهما ، شيء يحل محل الشيء الحقيقى الذى يتجه إليه الإعجاب والتقدير
دون أن يعرفا أنهما يفعلان ذلك ، (١٠) ، ويمكننا أن نقول نفس الشيء
عن الجمال الذى يرتبط بالحب ارتباطا وثيقا . فالأهداف تقابل العمل الفنى
« فى طريقه » ، وحتى عندما يتوقف عنده فإنه يشعر شعورا غامضا بأن
حدوده لا تقف عند هذا الحد . ومن هنا كانت سعادة التأمل الجمالى مختلطة
بتعاسة لا اسم لها .

هكذا يعمل الشيء الجميل على إسعادنا ولأنها كنا فى آن واحد ، ولطالما
لاحظ أن أعظم الأعمال العلمية توقف لدينا حيننا لا يقاوم . ويردد على
ذاكرتنا هنا نص شهير من بودلير ، ويوضح ، ضمن نصوص أخرى كثيرة ،
الناحية التى لا يشك فيها أحد من التجربة الجمالية ، التى لا يمكن لشيء أن
ينفيا حيث يقول : « إنها هذه الغريزة المدهشة ، الأرية للجمال التى تجعلنا
ننظر إلى الأرض ومناظرها كملخص أو تقابل للسماء . إن العطش الذى
لا يروى لكل ما هو فيما وراء الدنيا ، والذى تكشف عنه الحياة لحو أقوى
دليل على أبدئتنا . والروح ترى عن طريق الشعر ومن خلال الشعر . .
عن طريق ومن خلال الموسيقى ترى الأشياء العليا التى تقع فيما وراء القبور
وعندما تجلب قصيدة شعر جميلة الدموع إلى حافة الميون ، فإن هذه الدموع
ليست دليلا على سرور مبالغ فيه ، بل هى بالأحرى شاهد على ضيق قد
اهتاج ، وعلى توتر فى الأعصاب ، وطبيعة كانت حبيسة مالم يكن مكتملا .
تريد أن تصل حالا على هذه الأرض نفسها إلى جنة تكشفت ، (١١) .

الفن واللعب

« إلى أى مكان كان خارج هذا العالم ، فالقدرة على « الهروب » ، تسمح بالتقريب بين الفن واللعب ، لأنها صفة مشتركة بينهما ، فكما أن هناك عالماً للفن ، هناك أيضاً عالم للعب تشترك فيه الفئاة الصغيرة التي تحدث دميتهما ، والطفل الذي يدفع بحصانه الخشبي ، والشاب الذي يلعب في مباراة كرة القدم ، والبالغ الذي يفرق تفكيره في لعبة الشطرنج أو الورق ، وكلهم يشعر بلذة حية . . .

وهذه اللذة ليست عديمة التشابه باللذة الجمالية : لأن اللاعب غالباً ما يسكن في دنيا يؤمن بوجودها طالما استمر اللعب ، دنيا تسيطر على إرادة اللعب وتنبئ على التقليد وتقوى بفضل مشاركة اللاعبين الآخرين وبفضل الانتباه الذي يولونها لها . . . دنيا توجد بفضل وجود قواعد اللعب وتشدها ، وبفضل قوة التحكم فيها ، فالإنسان الذي يلعب ، مثله مثل هاوى الفن ، يهرب من تفاهة الحياة اليومية وتسف الواقع .

مع هذا فلذة اللعب ليست من نفس طبيعة اللذة الجمالية ، لأنها ليست ذات مدى روحى ، ولأنها لا تنصف بعمق الرنين الذي تحدثه هذه الأخيرة ولا بصفة الانهائية الناجمة عن الألم . . . وهى لا تفترض بالضرورة كما تفترض اللذة الجمالية ، هروباً روحياً ، لأن اللعب ألف شكل ، ولأنه لا يثير عالماً خيالياً ، وهذا هو الشأن حقاً لدى الحيوانات ، فالحيوانات الصغيرة مثلها كالأطفال ، تبسط قوتها وتنفق طاقتها أحياناً ، وأحياناً أخرى — وفى هذا سرور أيضاً — تدرب غريزتها وتعد نفسها للحياة عن طريق هذا التدريب . وإذا كانت ألعاب الرجل البالغ ، وكذا لدرجة كبيرة الألعاب الاجتماعية مثلاً ، عبارة عن تسلية يدخل فيها القليل من

الخيال . فما القول إذن في ألعاب المهارة؟ أهى وسائل للهروب من الواقع؟
أم وسائل للسيطرة على الحقيقة ؟

من جهة أخرى ، يلوح أن نشاط اللعب سطحي نافه إن هو قورن
بالنشاط الجمالى . لا شك أن اللعب يتصف بالجدية أكثر مما قد نتصوره، بدليل
أن اللاعب الجيد هو الذى ينصرف تماما للعبة التى يمارسها ، وما عليك
لتأكد من هذا إلا أن ترى المباراة التى تجرى حول كرة أو حول أوراق
اللعب لترى إلى أى حد تتوتر الوجوه وتركز الابصار بين المتبارين . لكن
لا يد أن نعرف أن اللعب لا يدعى عادة بأنه يستطيع أن يسيطر على الحياة
كلها ، أو أنه يستولى على أفكار اللاعبين كلها . بل إنه يظل تسليه ، وإلا
فقد طبيعته .

والفن — على العكس من ذلك — موهبة . فجدية الفن جدية تتحول
إلى مأساة . . والعمل الخلقى متشدد ، يحرك الإنسان من أعماقه ويبقى عليه
فى الحالات التطرفية التى تهك قواه بلا رحمة . لقد كان سترافنسكى
يقول لأحد المعجبين به، وقد استمع هذا المعجب لأول مرة لإحدى مقطوعاته:
آه إنك تبكى وتضغط على أسنانك . . إيه . . أرجوك أن تعلم أنى شخصيا
لم أبك . . حين كتبت هذا ، (١٢) . لا شك أن هناك فنانين أقل عصبية
وأقل استمراراً فى العمل من سترافنسكى . . لكن هذا لا يمنع أن يكون
الفن ، حتى لدى أكثرهم تلقائية ، وحتى عند موزار ، وحتى لدى شوبير ،
بل وعند روبانس ، تدفقا لينايع امتلات ، تجعل منه فى نظر البعض شيها
بالعب . قل لى من فضلك، ما العلاقة بين امتلاء حياة الحيوان الذى يلعب
وطفل يضحك ويغرد ويقفز ، وفيض العبقرية التى ترفع كبار الفنانين
فوق كتل البشر ؟

قد يقال إن اللعب يحتاج إلى جهد . نعم . . . لكن هذا الجهد لا يرمى إلى نفس الهدف الذي يرمى إليه الفنان . . . فالذي يريده اللاعب هو لذة اللعب ذاتها ، وهو يتوقف عادة عن اللعب إذا توقفت هذه اللذة ولم يعد يجدها أمامه . . أما الذي يحرك الفنان فهو شيء أكثر منها . . هو لذة الخلق والإبداع . وهنا نلمس الخط الذي يفصل بين اللعب والفن ، إذ ليس لنشاط اللعب هدف إلا ذاته ، فإذا انتهت المباراة اختفى كل شيء . . ولقد لعبنا جيدا ، وكفى . أما النشاط الفني فهو يترك أشياء تعيش من بعده ، ود العمل الفني هو الكلمة الأخيرة للفن ، وهدفه السرى . . لأن عمل الفنان كله يرمى إلى صنع هذا الشيء المكتمل المتناسق تناسقا يجمع العناصر التي تضم لحظة أو ناحية من فواحي الحياة البشرية بين جنباتها ، (١٣) .

وهكذا يصبح الفرق الذي يفصل بين عالم الفن وعالم اللعب فرقا جذريا . لا شك أن عالم الحق يتحقق في الاثنين في أحسن الحالات . . ومن هنا كان الشعور بالراحة والحرية في كليهما . . الشعور بالانتصار الذي نجده لدى كل من اللاعب والفنان على السواء . . مع هذا فإن حلم اللاعب لا يتحقق إلا في الخيال ، والعالم الذي يتطور فيه عالم خيالي ، في حين أن حلم الفنان ينتظم بانتظام كائنات جديدة لها قيمة لا تقدر . واللعبة لا تساوى إلا ثمنها التجاري ، وماهى إلا وسيلة للعب ، أو على الأكثر رمز يربط اللاعب نيته به ، فالطفل يمسك بعصاه ليضرب بها حصانه ، ولكنها عصا خصب . أما الفنان فهو يجعل من عصاه حصانا وماهو أجل من حصان ، نقصد شيئا فنيا غامضا يكون مصدرا لا ينضب لمعان ولسعادة للجميع .

الجميل والمفيد

وهل يتقابل الفن واللعب في صفة الفائدة على الأقل . . . ؟ لكن اللعب لا يسمح لنا بأن نقارنه مقارنة واضحة بالفن في هذه الناحية، لأنه متنوع من حيث طبيعته وآثاره. وهناك ألعاب تعليمية، وألعاب لاموضوع لها، وألعاب تساعد على تقوية عضلاتنا أو رشاقتنا الجسمية والعقلية. وهناك ألعاب أخرى تساعد على تخفيف التوتر أو على تسليتنا . . . فاللعب إذن لا يرمى دائما إلى أن يكون لعبا لذاته وفي ذاته . . . دون هدف معين .

وموقف الفن هنا غامض . . . في الظاهر . . . ونرى هذا الغموض في الآراء المتناقضة حوله . . . فها هم أولاء أصحاب نظرية الفن للفن يضعون الجمال في وضع الضد من المفيد صراحة وبلا رجعة . . . يؤكد توفيل جوتييه هنا « أنه مامن شيء جميل حقا إلا وكان عديم الفائدة . . . وكل ما انطوى على فائدة كان قبيحا » (١٤) . . . ويقول وايلد أيضا إن كل فن لا بد وأن يكون عديم الفائدة تماما، (١٥) . . . ومع ذلك نجد أن راسكين يندد في نفس العصر بكل ما يعتبر زخرفا كاليا ويصفه بأنه كذب جمالي ، وبهذا يربط بين المنفعة والجمال . . . ولراسكين في هذا المذهب أجداد وتابعون لاحصر لهم . . . هاك سقراط . . . وأفلاطون الذي ينسب هذا لنفسه . . . فيقول إن الملائمة تكون جميلة إن كانت لها فائدة . . . ويصمم على أن من الضروري أن نذكر الناس دائما بهذه الفكرة الطبيعية إذا ما تعلق الأمر بالفنون الجميلة . . . وأن نذكرهم أيضا بأن الذوق الرديء قديما في حيث تأتي الرغبة في الزخرفة من أجل الزخرفة . . . ولعل الأعمال الأدبية تؤكد هذا وتقضى على تلك المحاولات الصغيرة . . . (١٦) هل هذا ما أراد آلان من بعده حين « اتبع طريق المنفعة » لكي يعثر على الجمال ؟ الحق يقال إن

شرط المنفعة غير ضرورى وغير كاف . . ولا بد من أن نميز بين المذهبين .

إن الجميل والنافع يسيران معاً ، فى كل من فن المعمار والآثار بسهولة أكبر منها فى الفنون الأخرى ، فبين معبد وقصر ومقعد خشى وجرة ، بينها جميعا طبيعة مزدوجة ، لأنها فى وقت واحد أشياء فنية وأشياء ذات فائدة ، وحتى تبعاً لمذهب آلان « لا بد أن تكون المنفعة علة كل شئ » ، كما نرى فى عمود هو فى الواقع يحجب الشمس ، وكما نرى فى قوس كنيسة يشكّل قبة أقوى من قوس بنصف دائرة فى كنيسة قوطية ، كان هذا القوس يستخدم أول الأمر دون أن تكون له ضرورة ما ، ثم استخدم بعد ذلك بأشكال عديدة الفائدة تماماً ، إلى جانب هذه القباب العالية ، الضخمة الرائعة التى لم يكن زخرفها ولا هى بنفسها تلعب دوراً ما . . ويختتم آلان قوله هكذا : « وكل هذا يذكرنا بالزخرفة التى تصنع بها الحلوى بما يسمى « الكاراميل » (١٨) .

لن نفكر نحن فى هذا بنفس ذلك التدقيق ، إذ لاشك أن فن المعمار المسمى بناء وظيفياً قد وصل إلى نجاح باهر ، فهاك قنطرة أو صومعة أو قاعة لمحطة السكك الحديدية الخ . . كلها تخضع لقوانين الفعالية ، وتستطيع مع نفس هذا الخضوع أن تصل إلى درجة من الجمال ، لكن ليست هذه مع الأسف هى القاعدة العامة فيما نرى من منشآت ، فكم من مباني ملائمة تماماً لما يطلب منها من وظائف ، ومع ذلك فهى ذات قبح مريع . . وعلى عكس ذلك يحدث أن يكون الإفراط فى الرفاهية والجرأة فى تشكيل أشكال المباني عاملاً على إضفاء الجمال عليها ، وهنا تصبح اللانفعالية عنصراً جوهرياً من عناصر الجمال ، وخاصة أننا لسنا بعديمي الحساسية — إذا كان الأمر

يعطينا مباشرة - إزاء الأساليب المعمارية البراقة والمختلفة ، وعجائب النقوش المتعددة الألوان ذات الجاذبية الخاصة . فهذه الدهاليز والرفوف الممتدة والشرفات وباقات الأزهار والتماثيل والأبواب والنوافذ المستعمارة التي نجدها جميعا في المباني القديمة لا تفيد في شيء اللهم إلا في بعث السرور ، وإن صح التعبير في إحياء الحجارة ، وهي بهذا في مكانها ولوجودها تبريره .

وعلى كل فإن للنوعية حدوداً تضمها في سبيل الهوى الزخرفي ، حدوداً يصعب تعيينها لأنها تتبع الذوق الخاص ، ومع ذلك فمن الممكن على ما يلوح تطبيق القاعدة التي تقول إن على الشيء في فن المساكن أن يقوم بمهمته ، بشرط ألا تعمل الزخرفة على تحويله عن هذا الهدف ، بمعنى أن من الضروري أن يتمكن الإنسان من أن يقيم في منزل ما ، وأن يصل في كنيسة ما ، وأن يشرب في السكوب ويجلس على المقعد . لكن لا يعني هذا أن أجمل المنازل هو أكثرها توفيراً للراحة ، باعتبار أن الشيء المريح غالباً ما يكون عدواً لدوداً للجمال .. والمطلوب في المنزل مثلاً أن يحمي ساكنه من الأمطار والبرد والرياح والسرقة ، على أن يكون خيال المهندس - أو المثال أو الخراف الخ ، طليقاً دون التخلي عن هذه الضرورة ، وألا يكون طليقاً بحيث ينسى نفعية الشيء ، فصبذ بودى ، مثل معبد انجكور مثلاً ، مغطى بالنقوش والأبراج ، مليء بالدهاليز والشرفات والدرجات . لكنه مصمم للإنسان أن يركع فيه وأن يجتمع بغيره من الناس فيه . وإناء من الآنية التي صنعت بطراز لويس الخامس عشر قد يكون مهيأ من حيث كثرة نقوشه ، لكنه إناء يمكن أن يقدم فيه الطعام ..

وبالاختصار هناك حدود لا يمكن تخطيها ، والإنذار الذي قدمه النحات كوشان إلى أولئك الذين يبالغون في استخدام الأسلوب «الخليط» يستحق

الذكر ، لا من حيث فن الجواهر فحصب بل بمناسبة التحدث عن أى فن .
فهو يقول إننا نكون شاكرين جدا لهؤلاء الفنانين إذا هم تفضلوا بعدم تغيير
هدف الأشياء ، وتذكروا مثلاً أن من الضروري أن يكون حامل الشموع
مستقيماً وعمودياً لكي يحمل الشموع المضيئة لأن يكون متعرجاً كما لو كان
أحد الناس قد دفعه بالقوة . وأن يكون إناؤه السفلى مقعراً حتى يتلقى
الشمع الذي يسيل ، لأن يكون مسطحاً فيسيل هذا الشمع على الحامل نفسه .
وهناك عدد كبير من الزخارف بولغ في أسلوبها بحيث لم تعد
مفيدة .. (١٩) .

والعلاقة بين الجمال ، النفعية في فنون التصوير والنحت والأدب والموسيقى
تظهر كما لو كانت أقل وضوحاً منها في فن البناء ، لدرجة تساؤل معها :
هل تختفي هذه العلاقة ؟ لا نظن هذا .. ويمكن أن نقول إن نظرية الفن
للفن كانت تصبح غامضة غير مفهومة لو أنها كانت قد عرضت على هوميروس
أو فرجيل أو سوفوكل أو بندار . وكانت تبعث الدهشة لدى مصوري
مصر الفرعونية ، أو لدى ناحتي الحجارة المندوس أو لدى مصوري العصور
الوسطى في الغرب فقد كانوا جميعاً يعملون ليضمنوا للموتى انتقالاً سعيداً
إلى الآخرة ، أو ليحيوا ذكرى الآلهة أو يتغنوا بفضائل المسيح والعذراء
والقديسين والمحدثون تدفعهم نيات متشابهة لتلك التي نجدها عند القدامى ،
فهاك يجي وكلدويل يحملون نظرية الفن للفن ومع هذا فقد كانوا ضمن
كبار أهل الفن (٥) .

(*) انظر لوتريامون يجب أن يكون الشاعر أكثر فائدة من أى مواطن في قبيلته ، وعمله
هو قانون الدبلوماسيين ومشروع القانون ومعلمي الشباب (مقدمة لكتاب مقبل)

صحيح أن العمل الفني العظيم لا يدين بجماله لنفعيته . فهو يمكن أن يكون على نفس الدرجة من الفعالية إن نقص جماله درجة . فلنقل إذا إن العمل الفني الجميل ، وبصفته الجمالية هذه عملاً موهوباً قام به صاحبه من أجل القيام به ، ومن أجل الجمال فحسب ، فالقصيدة الشعرية واللوحة والتمثال والسيمفونية عديمة النفعية عملياً ، اللهم إلا بالنسبة لأولئك الذين يمدحون من وراءها كسباً ، كالطابع والمنفذ والناشر والتاجر .

هل يعنى هذا إذا أنها لا نخدم فى شىء ؟ ألف مرة ؛ لا .. إلا إذا فسرنا كلمة " نخدم " بمعنى أرفع وأوسع نطاقاً يصل لدرجة العالمية . ليست وظيفة الفن بالضبط هى القضاء على السراب القائل إن مامن شىء له قيمة وكان مفيداً وفعالاً ، وإن هناك أشياء تلوح كما لو لم تكن ذات أية فائدة وبدونها لا يمكن أن نعيش ؟ نقصد أشياء صنعت لمجرد اللذة ، ومع ذلك فهى تعادل فى أهميتها تلك التى صنعها عمال ومهندسون ؟ هناك إذن نفعية للأنفعية ، وهى ليست أقل أنواع النفعية لأنها — قبل غيرها أوبدونه — تضم عالم الفن نفسه .

تصنيف الفنون

يقول بيرتلو ، العلم ، أنا لا أعرف هذا السيد ، كان بيرتلو يعرف فقط الكيمياء والفيزياء والأحياء والرياضيات والفلك الخ ، ونفس الشئ يقال عن الفن بوجه عام .. الفن شئ غير موجود ، وعالم الفن فى الحقيقة هو عالم الفنون الجميلة التى لا يسهل سردها فى قائمة نظراً لأن الحدود التى تفصلها عن بعضها البعض غير واضحة فى أغلب الأحيان .. ولأن هناك بينها اتصالات وعدوى وتبادلاً ، وتقلد من بعضها إلى البعض الآخر — ونحن

نعرف أن هناك فنونا جديدة تظهر من وقت لآخر ، تتولد من طريقة جديدة للتعبير ، كما حدث من ظهور الطباعة على الحجر في القرن التاسع عشر ، والسينما في القرن العشرين .

من هنا نقول إن تصنيف الفنون أمر يدخل في نطاق المشكلات التي تواجهنا منذ الأبد ، دون أن نجد لها حلا رغم أنها تافهة في ذاتها . ولطالما كرس كثيرون من الفلاسفة وعلماء الجمال جهودا متبعين في هذا روح إنشاء نظرية منسقة .. ولا أقول إنهم فعلوا هذا هباء لكن أقول .. دون أن يصلوا إلى تصنيف نهائي مقنع . ولقد كان من الممكن أن نرى هذه الاستحالة مقدما ، لأننا نعلم أن الفنون الجميلة حقائق مليئة ، معقدة ، متباينة لدرجة نراها بوجهات نظر متعددة للغاية .. ومتعددة بقدر تعدد التصنيفات ، وكلها مقولة مشروعة ، ولكنها جميعا غير كافية .. فالفنون الجميلة توضع في هذه الطبقة أو تلك مثلا ، تبعا لكونها تنفذ في إطار المكان أو في إطار الزمان ، أو تبعا لكونها تمثل أو لا تمثل شيئا خارجيا ، أو تبعا لأنها موجهة لعامة الشعب أو للهاوى المنعزل ، أو تبعا لأن مؤلف العمل الفني هو أو ليس هو بعينه الذي ينقذه ، أو تبعا لأن هذه الفنون بحثة أو تطبيقية ؛ أو — أخيرا — تبعا لأنها تفيد من مصدر واحد ، أو أنها تجمع مصادر كثيرة ، كالأوبرا ، من فنون متعددة .

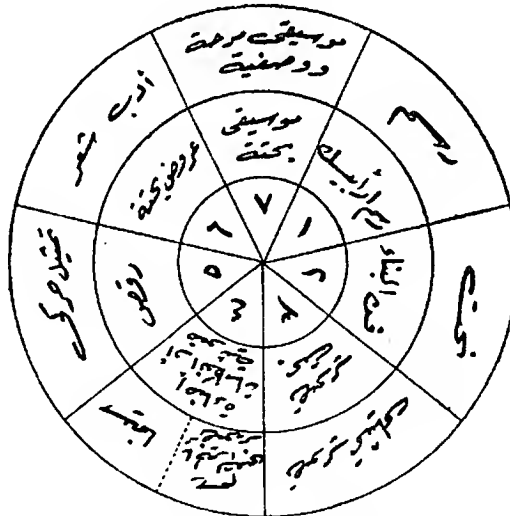
ليس لهذه الأنواع من التمييز فائدة أخرى ، حين تتخذ شكل نظرية ، إلا أنها تدلنا على أفكار أولئك الذين يقدمونها لنا على ما يفضلون . بل ولأننا نصل في بعض الأحيان إلى تأكيدات تتعارض فيما بينها ، بحيث لا نستطيع أن نقول عنها شيئا أكثر من أنها بعيدة عن أى موضوعية . مثال ذلك أن الوظيفة الأساسية للفن في نظر هيجل هي أنه يظهر الفكرة ، تحت أشكال ملبوسة

ومحسوسة ، وأن الأدب ، بناء على ذلك ؛ هو الذى يقع فى أعلى درجة من درجات سلم الفنون ، وأن الموسيقى تقع فى أسفلها مادامت تستغنى أسهل من أى فن آخر عن كل فكرة . على العكس من ذلك ، نجد أن هذا الانحطاط الذى تتصف به الموسيقى ينقلب فى نظر شوبنهاور إلى سمو عظيم حيث تصبح الموسيقى عنده وسيلة لتبيان الفكرة وغلوهر الطبيعة ، فتعبر عن الطبيعة العميقة للإنسان والأشياء والإرادة . أليست هى فى نظره الشئ الوحيد الذى يؤدى بنا إلى ما وراء الطبيعة ؟

نعتقد إذن أن المبدأ الطبيعى الذى يمكننا من تصنيف الفنون هو ذلك الذى يستند إلى الحواس . فمادامت حواس الإبصار والسمع واللمس والذوق والشم هى التقسيمات الكبرى لعالمنا الحسى ، فهى أيضا بعينها — وبخاصة الثلاث الأولى منها ، مادامت الاثنان الآخران عديمى القدرة بعض الشئ — وسيلة التقسيم لعالمنا الفنى . هناك كثيرون من علماء الجمال يطبقون هذا المبدأ . . ولنضرب مثلا الأستاذ سوريو فى كتاب « منهج الفنون الجميلة » ، وفى رأينا أنه أحسن وأصوب من منهج آلان .

يستند منهج سوريو ، من جهة ، إلى مختلف وجوه الصفات المحسوسة التى تسيطر على هذا الفن أو ذاك ، ومن جهة أخرى؛ إلى التمييز بين الفنون التمثيلية والفنون غير التمثيلية ويسمى هذه الأخيرة فنون الدرجة الأولى ، لأنها لا تبين شكلا غير بناء العمل الفنى نفسه طبقا للطريقة التى نظمت بها المواد الأولية . وتسمى الفنون التمثيلية فنون الدرجة الثانية لأنها — بالإضافة إلى ذلك « الشكل الأولى » المنبثق عن الشئ كما هو — تفترض وجود « شكل ثانوى » يتعلق بالشئ المطلوب تمثيله . هاك مثلا رسما يتكون من مجموعة من خطوط تسر العين بدرجة نقل أو تزيد ، وهذا

هو الشكل الأول للرسم . أما الشكل الثانوى فهو يصور رأس الطفل .
وهكذا نحصل على ما يشبه مروحة تنقسم إلى سبعة أجزاء يختص كل جزء منها بما يسميه الأستاذ سوريوه المحسوس الخاص ، وهو يطل على فنين من الفنون رتبا على أجزاء من دوائر دائرية : الأول من الدرجة الأولى ، والثانى من الدرجة الثانية . وهكذا تعطى الخطوط فى الدرجة الأولى ، الأرايسك - البحث ، وفى الدرجة الثانية الرسم نفسه . أما الأحجام من الدرجة الأولى فهى تتعلق بفن البناء ، ومن الدرجة الثانية تتعلق بفن النحت . والألوان : التصوير البحث من الدرجة الأولى ، والتصوير التمثيل من الدرجة الثانية . والأضواء العادية والانعكاسات الضوئية من الدرجة الأولى ، والسينما والتلوين بالحبر - الشينى والتصوير من الدرجة الثانية ، والحركات : الرقص من الدرجة الأولى والتمثيل الحركى من الدرجة الثانية .. والأنغام الصوتية علم العروض البحث من الدرجة الأولى والأدب والشعر من الدرجة الثانية . والأنغام الموسيقية : الموسيقى البحتة من الدرجة الأولى ، والموسيقى المسرحية والوصفية من الدرجة الثانية .



- ١- خطوط ٢- أحجام ٣- ألوان ٤- أضواء
٥- حركات ٦- أنغام صوتية ٧- أنغام موسيقية

ترجع أهمية هذا الرسم التقريبي ، والفكرة الموجودة خلف تفكير الأستاذ سوريو إلى أنها تخرج لنا نظرية « تقابلات الفنون » . ونلاحظ أنه في نفس القطاع يوجد فن بحت يقابل فنا تمثيليا؛ وأنه داخل نفس الدائرة تتقابل جميع الفنون التي هي من الدرجة الأولى فيما بينها. ألم بطرق موضوع « الصباح » ، مثلا في الموسيقى على يدى جريج ، وفي النحت على يدى ايبشناين ، وفي الشعر بقلم لكونت دى ليل ، وفي التصوير بريشة كورو ؟

إننا نرى في الحال صحة مثل هذا التصنيف، لكننا نرى أيضا في أى نقطة يتوقف. ولقد حذر الأستاذ سوريو مقدما من بعض ما يقدمه المعارضون لنظريته هذه ، ونقول صراحة هنا إنه لم يقنعنا : فاعتبار النحت مثلا فنا يكون البناء شكله غير التمثيلي اعتبار فيه تناقض، ولا يمكن أن نقضى على هذا التناقض بأن نقول إن البناء « جمال مستقل ذاتيا للأشياء الجامدة والأشكال ذات الأحجام الثلاثة » . لأن فن البناء أقل الفنون استقلالا ذاتيا ، مادام أى مبنى، كما رأينا ، يتحدد بناء على نفعيته. إن الأستاذ سوريو يتحدث عن استقلال ذاتى نسبي بالنسبة للنموذج — إنى أوافق على ذلك. الأمر الذى يسمح بالتمييز بين البناء والنحت . لكن أين نضع النحت البحث إذن إذا كان النحت تمثيليا بالضرورة ؟ في نفس خانة البناء ؟ هذا غير ممكن .

أضف إلى هذا أن من العبث أن نعطي نفس الأهمية ، من بين فنون الدرجة الأولى للانعكاسات الضوئية وللرقص ، أو للعروض البحث والموسيقى البحث ؛ أو للأرايسك والبناء . . . ومن ناحية أخرى فإن الرسم فن بعيد عن التصوير التمثيلي ولو أن بينهما بعض الشبه . ونقول نفس الشيء بالنسبة للرقص والموسيقى . وعلى عكس هذا فإن حبس الأدب مع الشعر تمييز يحتاج إلى بعض التنفيذ .

أما عن فكرة تقابل الفنون فهى ليست بخيالية . . والمعروف ، أن الألوان والعطور والأناجم تتجاوب ، ولقد تحدثنا عن هذا حين تعرضنا للموسيقى التى يقال عنها إنها وصفية . ومع ذلك فإن التجانس هنا لا يذهب بعيدا ، فإن نحن عملنا على دفعه للأمام كثيرا اصطدنا باستحالة تعميم التعبير الفنى بين جميع الفنون . إن الفكرة الأرايسك — وأنا أوافق على هذا — فكرة مشتركة بين الموسيقى والرقص والبناء والتصوير . لكن بين الأرايسك الميلوديا وأرايسك الرسم لا يوجد أى تعادل حقيقى ، والدليل على صحة ذلك أن من الممكن التعبير عن نفس الميلوديا بالرسم ، أو عن نفس الرسم بالميلوديا بمائة طريقة مختلفة ولقد أجهد الأستاذ سوريو نفسه حين حاول نقل موضوع اللحن المتبادل الثامن لمقطوعة « بيانو كلافسان هادى » ، وبداية « الليلة » الأولى لشوبان . . حين حاول نقلها بالرسم . . ونحن نرى هنا أن النتيجة مخيبة للأمل . . ومن رأينا أن الأستاذ سوريو لا يتسلى حين يقول « إن منحني فنحن اتيتوب عبارة عن ميلوديا دقيقة فى نظر الذى يحب المعرفة » ، (٢٠) .

بالاختصار نقول إن العوالم الفنية حقائق أصيلة لها وسائل عمل خاصة بها ، تستعيرها بعضها من البعض أحيانا ، ولكنها تعصى على أى تصنيف أو مواجهة منطقية ، ولعل أكثر الوسائل خصوبة هى التى تعمل على اكتشاف كل منها لذاته اكتشافا مستقلا . . ولا يمكن أن يكون هناك « منهج للفنون الجميلة » .

عوالم الفصح

يشكل كل من فنون التصوير والشعر والموسيقى وغيرها عالما له تقاليده وطقوسه وكهنته وأسراره . ولقد تحدثنا عز هذه الفنون فى الفصول الثلاثة الأولى من هذا الجزء . واليوم لانتحدث عن العالم الفنى بهذا المعنى ، بل إننا نقصد إلى هذا العالم الخيالى الذى يودى بنا إليه العمل الذى يقوم به

فنان عظيم في جو يخلقه هذا العمل من ذاته ، ذلك الجو الخاص الذي يتنفس فيه العمل الفني (٢١). إذ أنه رغم أن المناظر الطبيعية التي تصورها لوحات بوسان وكلود لوران ورويسدال وكورو ومونيه وسيزان تمثل كلها أشجاراً وحقولاً وهضاباً وأنهاراً ، فإنها لا تنتمي إلى كون واحد . وإذا نحن انتقلنا من باخ إلى شوبان ، ومن موزار إلى بيتهوفن ، ومن فاجنر إلى ديبوسى ، فإن الذى يحدث يشبه انتقالاً من كوكب لآخر .. والعالم الذى يصوره هو ميروس ليس هو بعينه الذى تصوره أغنية رولان ، وعالم فرجيل ليس هو نفسه عالم كورنى ، والدنيا التى يصورها بالزاك لا تشبه دنيا تولستوى ، ودنيا ديكنز ليست هى بيئة زولا .

والاعتراف بوجود هذه العوالم التى لا حصر لها هو أساس علم الجمال عند بروس ، وسوف نعود إليه ، ولكننا سوف نحتاج إلى الإشارة إليه منذ هذه اللحظة من آن لآخر . يقول بروس إن الفضل يرجع للفن فى أننا بدلاً من أن نرى عالماً واحداً هو عالمنا هذا ، نرى ذلك العالم يتضاعف بحيث يوجد من العوالم لدينا عدد يعادل عدد الفنانين ذوى الأصالة وكلهم يختلفون بعضهم عن بعض بدرجة تزيد على درجة متابعتهم على مر العصور وإلى الأبد . ورغم انطفاء البؤرة التى كانت تنبعث منها أضواءهم ، سواء أكانت أسمائهم رامبرانت أو فيرمير ، فإنهم ما زالوا يرسلون لنا شعاعهم الخاص (٢٢) .

ومع أن مناطق الكرة الأرضية تتميز بطبيعة الأرض وبرزو التربة ونظام الفصول والذى وعادات السكان ، فإن عوالم الفن تتميز باتساعها وشكلها وبآلهة وأزهار خاصة تسكنها وبأحداث وأشياء توجد فيها . فالشاعر بودلير عبارة عن عطور مدوخة وألوان استوائية ذالقة وقطط وعشيق ذات عيون زمردية وجمال بارد ، والشاعر مالارميه أفق

أزرق وأجنحة ملائكية وبجمع ورياش بيضاء ومرايا . والمصور رامبرانت غرفة يغرقها ظل مشوب بضوء يتأمل الفيلسوف وسطها. وهذه الغرفة ، وتلك السجادة والنافذة وذاك الإطار المعلق أمام الحائط . . . وهذه اللواؤة التي تبدو كما لو كان السكون قد ولدها . . كلها عالم فيرمير . أما تلك الوجوه ذات الرشاقة الحزينة، والحدود العالية، والشفاه المتعرجة والشعر الذهبي الأصهب ، ثم الأطراف الرشيقة ، لبنين أو بنات . . فهي عالم بوتشلي .

وعالم الموسيقى تعرفه من خلال تقاطيع الميلوديا ، وهذه الصيغة الهارمونية أو تلك الطريقة في السير خلال المقطوعة وإنهائها أو تشكيلها، وأحياناً من خلال هذه الجمل التي لا تجد لها إلا في عمله هو وتظهر فيه دائماً بحيث تكون بمثابة ملائكة الخيال أو الآلهة الأسطورية التي يعرفها الفنان جيداً ، (٢٣) .

وعوالم القصة ليست بأقل وضوحاً .. هل هناك عالم واحد إلا وتوجد فيه شخصيات متشابهة ومواقف مترادفة ومناظر تتكرر من قصة لقصة إن لم يكن في نفس القصة ؟ هكذا ترى عند ستاندال شعوراً معيناً بالعلو الذي يرتبط بالحياة الروحية : فالمسكان المرتفع الذي يوجد فيه جوليان سوريل حبيساً، والبرج الذي يعيش فيه فابريس، وبرج الأجراس الذي يبحث فيه الأب بارنيس في التنجيم والذي يلقي عليه فابريس نظرة كلها مخصصات قصة ستاندال بالذات . وسترى كذلك أن دوستويفسكي يعود دائماً إلى نفس النموذج من المرأة ، ذات الوجه الغامض والجمال الجذاب الذي يتغير فجأة كما لو كانت قد مثلت الطيبة مجرد تمثيل ، ثم إذا ما تحول إلى وقاحة مرعبة ، (٢٤) .

غير أن تحديد أى عالم فى لا يودى غالباً إلا إلى خطأ إن هو اكتفى بمجرد الموضوعات التى يفضلها المصور أو الشاعر أو الموسيقى ؛ أو الشخصيات التى نلازم القصص . فكم من الفنانين عامة طرخوا نفس الخطوط ودخلوا حانوت الأمتعة القديمة المستعملة الذى دخله غيرهم ، ومع ذلك لم يخفقوا فى خلق عوالم ذات أصالة مطلقة . ذلك أن الأصالة موجودة فى الإضاءة التى نشع حول الأشياء أكثر منها فى الأشياء ذاتها . نقصد فى الطريقة التى يعبر بها القصاص أو المصور عن الأشياء لافى الأشياء نفسها ومرجع الأصالة هو صفة روحية معينة تتكشف عن طريق نعمة معينة ، أو لهجة خاصة . ويقول بروسى هنا أيضاً : « إن هذه اللهجة هى التى كانت تعطى للكلمات وزنها ، رغم أن هذه الكلمات تافهة فى ذاتها ، عند بيرجوت حين كان يكتب كتابة طبيعياً للغاية ، هذه اللهجة لا تذكر فى النص ، ولا شئ يشير إليها ، ومع ذلك فهى تنضم من نفسها إلى الجملة بحيث لا يمكنك أن تعبر عنها بطريقة أخرى ، وهى فى الواقع ما يكون أشد العناصر شروداً واشدها عمقا لدى الأديب . . إنها لهجة مستقلة عن جمال الأسلوب ، لم يدركها الأدب نفسه ولا شك ، لأنها لا تنفصل عن شخصيته فى ذاتها المطلقة (٢٥) .

والعوالم الموسيقية كذلك قابلة لأن ندركها ، فقد كان فانيى (شخصية عند بروسى) حين أخذ يؤلف عملاً جديداً بكل القوة التى ينطوى عليها جهده الخلقى ، يصل إلى أعماق جوهر العمل الفنى ، حيث كان يجيب على كل سؤال يلقي عليه بنفس اللهجة ، وقد كانت دائماً هى بعينها . . لهجته هو . . نعم لهجة . . هذه هى لهجة فانيى التى تختلف عن لهجة الموسيقيين الآخرين اختلافاً كبيراً جداً . . أكبر من ذلك الذى ندركه بين صوتى شخصين ، بل بين نفيرو صبيحة نوعين من الحيوانات . ذلك أن اللهجة

التي يرتفع ويعود إليها هؤلاء المغنون العظام، وتقصد بهم الموسيقيين ذوي الأصالة لهجة وحيدة، وهي الدليل القاطع على الوجود الفردي للروح.. ولكم حاول فاني أن يكون أكثر هيبة وأعظم قدرا وأشد حيوية أو مرحا... لكن فاني كان يفرق رغم أنه تحت موجة عميقة تضفي على أغنيته أبدية وتدفعنا إلى الاعتراف بها.. هذه الأغنية تختلف عن أغاني الآخرين، ولكنها تشبه كل أغانيه هو.. فأن تعلمها فاني؟ وأين سمعها؟، (٢٦) .

ولنترك مؤقتا هذا الموضوع الذي سوف يقابلنا حالا حين نبحث في عالم الجمال عند بروست، لكن علينا الآن مؤقتا وعلى الأقل أن نوافق معه وفي النقطة التي نبحث فيها الآن على أن الدخول في عالم فن مامعناه الدخول في الجزء الداخلي من الفنان نفسه.. المؤكد أن المصور والمثال والشاعر والقصص، بل والموسيقي، كلهم في حاجة إلى اتصال مباشر، طويل الأمد بالعالم الخارجي، ولذا فهم يرون ويعرضون علينا هذا العالم الخارجي من خلال ردود فعلهم الشخصية.. لانتالم ننس الحكمة التي قال بها ديلا كروا من أنه موضوعك هو أنت بنفسك.. وهو انطباعاتك، واندفاعاتك إزاء الطبيعة... ويجب أن ننظر إليك أفت، لا حولك، (٢٧). لقد فهم ديلا كروا أن أثنى ما في العمل التصويري أو الشاعر أو الموسيقي هو ما أسميناه اللهجة.. وميزة اللوحة فيما لا يمكن تعريفه منها.. وهي ما أضافته الروح على الألوان والخطوط ليذهب إلى الروح، حيث إن الروح تحكي وهي ترسم جزءا من كياناتها الجوهرية، (٢٨) .

إنها تقص هذا الجزء أيضا وهي تخرع قصصا، وبينما هي تضع الكلام في

أفواه أبطال القصة وتبعث فيها الحياة . والقصصى أو مؤلف المسرحية يطبع شخصياته بطابعه هو حين لا يكون هو بنفسه الشخصية الرئيسية ضربت فى نفسها عشرين مرة وبدأ القصصى تصويرها من جسد وللى الابد ، . ولعلنا نعرف كلمة فلوير الشهيرة ، مدام بوفارى هى أنا ، وعلى نفس الوتيرة نجد ان جوليان سوريل وفابريس وهنرى برونلارولوسيان لوفين ، هم جميعا مؤلفهم ستاندال .. كما أن البان دى بريكول وكوستال وجورج كاربون والـ لك فرانت وكاردينال إسبانيا ، بل والعازين .. كلهم مؤلفهم موترلان ، او على الأقل كان كل منهم ممثلا لناحية من نواحي شخصية موترلان .

والحقيقة أن مشاهير الكتاب ، وبالذات أكثرهم واقعية ، يملأون العالم الذى يخلقونه بوجودهم . حتى حين يعتمدون الاختفاء من مؤلفاتهم ولقد اثبت بودلير هذه الحقيقة بقوة رائدة حين يحدث عن بالزاك . فهو يقول : « إذا كان بالزاك قد جعل من قصة التقاليد الخاصة شيئا مدهشا عجيبا دائما ، رفيعا فى غالب الاحيان ، فذلك لانه ألقى فيها بكل كيانه . . . فكل شخصياته تتصف بالحرارة الحيوية التى كانت تشتعل فى نفسه هو . . فمن بدء الارسنقراطية فى قمتها إلى اسفل طبقات العامة تجد ان كل ممثلى الكوميديا الإنسانية ، أشد حدة للحياة واشد نشاطا وخبثا فى كفاحها ، وأشد صبرا على الآلام او نهما للسعادة وملائكية فى الإخلاص . . أشد فى كل هذا من كوميديا العالم الحقيقى . . وبالاختصار ، فإن لكل من هذه الشخصيات ، وحتى لحارس المنازل عبقريته . . وكل النفوس عبارة عن أسلحة محملة بالرغبة إلى أقصى رؤوسها . . هذا هو بالزاك بعينه » (٢٩) .

واقعية الخيال

قد تقول إن الوضوح الذي يتصف به أبطال مجموعة الروايات التي كتبها بالزاك تحت عنوان المهرلة الإنسانية ، يرجع إلى أن المؤلف يتمتع بالقدرة على مشاهدة الإنسان والمجتمع وعلى تحاليلها . هذا صحيح ، لكن هناك شيئاً آخر غير ذلك ، ولو أن رأينا في هذا قد لا يعجب بودلير . فإذا كان حارسو الأبواب في رواية بالزاك من ذوى العبقرية ، فليس هذا لحسب لأن المؤلف ينقل إليهم التحمس الحيوى الذى كان يشتعل فى نفسه هو ، بل كذلك وقبل كل شئ . لأنهم مخلوقات أبدعها هو فى إطار الفن . فالعجيب فى عالم الفن حقاً أنه أكثر واقعية من عالم اللعب والاحلام ، رغم أنه من محض خيال المؤلف . وهو بفضل واقعيته هذه يتميز عن هذين العالمين . يقول كيتس : « إن الخيال يشبه الجسم الذى يراه آدم ، يتحقق عندما يستيقظ » (٣٠) .

من الذى لم يتأكد من هذا مائة مرة ؟ إن المخلوقات التى أبدعها الفنان تفرض نفسها بقوة تعادل قوة الإقناع التى تعمل بها الحقيقة اليومية أو تزيد عنها كثيراً ، فهى تقدم لنا ما هو أكثر صلابة وأكثر بريقاً وتحديدًا من مخلوقات الطبيعة . أليست كل موسيقى تكون قادرة على بعث الشعور توحى بأنها سوف تستمر وجوداً حتى بعد موتنا . . . كما قال دى بوسى عن موسيقى باخ ؟ أليست لصورة أى شخصية تافهة رسمها عبقرى ، قوة وفعالية وسيطرة لم يتصف بها أى نموذج حتى ؟ ألم يكن من الضرورى أن يكون الإنسان « فوق إنسان » ، كما كان سقراط و الاسكندر وفيصر و نابليون ، إن صح هذا التعبير لكي يسيطر على ذاكرة الشعوب كما تسيطر شخصيات

الأساطير والقصص والمسرح ، وكما ظلت وتظل شخصيات أوليس وأوديب وماكبث ودون كيشوت وفاوست وفوتران وشارلوس في مخيلتنا؟ إن أقل ما يمكن أن يقال عن الأعمال الفنية الكبرى إنها لا توجد بحسب ، بل إنها كذلك تعيش فيها ، فوق الوجود ، ذلك أنها تتمتع بواقعية خاصة : بل إنها تقوم وتحيا في نوع من فوق الواقعية « السريالية » .

لقد فهم الفنانون المحدثون تلك الموهبة العظيمة التي يتمتعون بها في خلق عالم أجمل وأصدق من العالم العادي ، وبالتالي عالم أكثر واقعية ، من عالم الطبيعة ، — يقول بالزاك : « لنعود إلى الطبيعة ولنستلهم عن قصة أوجيني جراندييه ، ويقول فلوير : « تأكد أن كل ما نخترع شيء حقيقي . لاشك أن مدام بوفاري (التي خلقناها) تتألم وتبكي في عشرين قرية من قرى فرنسا في آن واحد وفي هذه اللحظة بالذات ، (٣١) ويقول ديلاكروا : « إن الشيء الوحيد الذي اعتبره بالنسبة لي أكثر حقيقة هو هذا السراب الذي أبتدعه في لوحاتي المصورة . أما الباقي فما هو إلا بمثابة رمال تتحرك ، (٣٢) . ويقول فان جوخ : « إن رغبتى الكبرى هي أن أصنع هذه الأخطاء وتلك التعديلات والتغيرات في الطبيعة بحيث تخرج منها — أي نعم — أكاذيب ، إن شئت ، لكنها أكاذيب أكثر حقيقة من الحقيقة المضبوطة ، (٣٣) . أما بودلير فهو يقول : « إن الشعر أكثر الأمور حقيقية ، ، وهو الشيء الذي لن يكون حقيقيا بشكل كامل إلا في عالم آخر ، (٣٤) .

أيعني هذا أننا نهون من شأن العالم الذي خلقه الله بالنسبة للعالم الذي يخلقه الإنسان الفنان ؟ أبدا . . . إن بالزاك وفلوير وبودلير وديلاكروا

يميدون عن مثل هذه الفلسفة الشيطانية التي يتوه فيها معاصرونا . . . وسوف نتحدث عن هذا مستقبلا . وكاتب مثل كلوديل لا يشك في أنه تاه في هذه المجهول الفلسفية ، لأن هدفه رفع العمل الإلهي إلى أعلى مرتبة ، مادام - كما نعلم - يتلقى وحيه بقلب مؤمن معجب بالخلق الإلهي . ومع هذا فكلوديل شاعر لا يستطيع إلا أن يعرف بما يزيد عن الحقيقة عند فيرجيل ، وبما يتمكن الشعر من إضافته إلى الحياة . وما الإبداع تحت هذا الشهيق الساحري إلا مجرد تصوير ينقل محرفا . . . إن معركة بين معارك الفروسية ، أو عملا من أعمال الحقول ، أو آلاما بين منها العشاق ، أو ألعابا يقوم بها الأبطال الرياضيون ، أو هدفا لمدينة ما ، أو هبوطا إلى الحميم . . كل هذا يمر بين يدي الفنان في سهولة تشوبها السعادة كما يمر وسط ضوء ذهني بعد أن يكون قد تحول وتحول . . . إن كل شيء يتلقى الحياة من خلال رقة لا تقاوم . إذ لم يكن الخلقي الفني إلا واقعا حيا . . ها هي ذى الحقيقة وقد سيطرت عليها أوزان الشعر فأصبحت جنة ضرورية للإنسان (٣٥) .

أفلاطونية بروست

ليست الحقيقة العظمى أو المثالية ، التي تسكاد تكون إلهية والتي تمثل في أشياء الفن عديمة الشبه بحقيقة النماذج العليا التي تحدث عنها أفلاطون ، فعالم الفن من وجهة نظر معينة يندمج في عالم المثل العليا ، والإبداعات التي يخلقها الفنان ، حكمها حكم المثل الأفلاطونية ، تستطيع من نواح عدة أن تكون بمثابة نماذج لهذا المثل ، لا أن تكون صورة منقولة لأشياء الطبيعة ، صورة أصابها الهزال لكونها منقولة . هذا ما يعود بنا إلى بروست ، فما لاشك فيه حقا أن كتابه الضخم الواسع المدى لا يمكن أن يكون إلا مشوبا بصفة ميتافيزيقية . وبعبارة أدق ، يمكننا أن نستخلص منه أفلاطونية

معينة ، وهى أفلاطونية تختلط كما سنرى بفلسفات أخرى . وهى إلى جانب ذلك تلفت نظر كل من يتساءل عن مدى الوجود الفنى وطبيعته .

وبروست فيلسوف أفلاطونى بالمعنى الواسع لهذا التعبير ، وترجع أفلاطونيته هذه إلى شعوره المؤلم بما هو نسبي زائل وبالحاجة الملحة التى تدفعه إلى التخلص من هذه النسبية وذلك الزوال لى يتمكن من الوصول إلى المطلق والأبدى ، ذلك أن الإنسان مكبل ، حبيس غار ، لا يرى فى قرارة نفسه أو من حوله إلا ظلالا هاربة ، مع أن هذه الظلال ظلال شىء ما . فالتحدث عن الوهم معناه قبول فكرة وجود حقيقة غير وهمية ، وهذه الحقيقة هى التى يحسن أن نتمسك بها ، وقد أجهد بروست نفسه فى قوة وحاسة ليصل إلى تلك الحقيقة ، غير أن الوهمية حين أراد أن يخلص الشىء الذى يبقى من ذلك الذى يختفى ، وأن ينقذ أثمن جزئيات الحياة من براثن الموت ، وأن يبقى على جوهر الكائنات وعلى كياناتنا من الزوال . وترجع جهوده هذه إلى خوفه من فكرة التحول الذى لا مفر منه ، ذلك التحول الذى يفتت الأرواح والأجساد والذى يدفع انطباعاتنا ودوافعنا بعضها وراء بعض . والمعروف أنه يرى أن الانتصار على الزمن من عمل الفن والذاكرة وأن الأجزاء التى نجدها فى كتابه « البحث عن الزمن الضائع » خاصة بالتأنيب الصغيرة أو بأشجار بعلبك أو بأبراج كنيسة مارتن - فيل أو بأرصفة فناء قصر جيرمانت كلها بالنسبة إليه اكتشافا جديدا يرجع فضله إلى الذاكرة وإلى أن فترة ما من حياته الماضية قد أعيدت له مصحوبة بما كان يحيط بها من أشياء مادية اكتشافا متكاملا . . . ولم يكن يبقى أمامه إلا أن يثبت بالكتابة ما كان يشعر به إزاء هذا كله من سرور وسعادة عاشها دقائق مباركة . . وهو يقول فى هذا الصدد : « لقد زال عنى الشعور بالحقارة وبأنى فان » (٣٦) . وكنت أستطيع إذذاك ، أن أستمتع بجوهر الأشياء . .

لأنها كانت لحظة تخلصت من قانون أنشأه الزمن فبنا فجعلتنا أناسا تخلصوا هم أيضا من الزمن ، (٢٧) .

وهناك صفحات أخرى عند بروست تبين أفلاطونيته بوضوح أكثر ، حيث تظهر لديه الأفكار الموسيقية كما لو كانت موجودة من قبل ، كما هي الحال في مثل أفلاطون . . . فيستطيع الفنان أن يكتشفها ، أو بتعبير أوضح ، أن يمسك بها في شبا كه كما يفعل صائد العصفير . فقد كانت سوان تؤمن بأن البواعث الموسيقية أفكار حقيقية أنت من عالم آخر ، ولكنها تختفي وراء الظلمات فلا تعرفها ولا يصل إليها العقل المفكر ولو أنها تتميز بعضها عن بعض لأنها غير متساوية فيما بينها من حيث القيمة أو المعنى . . ولم يكن فانيي مخطئا حين قال : « أعتقد أن الجملة الصغيرة كانت قائمة حقيقة . وصحيح أنها من وجهة نظر وجودها ، إنسانية ، إلا أنها كانت تخضع لعالم مخلوقات فوق طبيعية لم يسبق لنا أن رأيناها ، ولكننا نعرفها وقد أصابتنا الدهشة عندما يتمكن مكتشف من مكتشف اللامريات من أن يلتقط إحداها ثم يجلبها من العالم الإلهي الذي يستطيع هو وحده التوصل إليه ، فتلع برقة خلال لحظات معينة فوق عالمنا هذا . هذا ما كان فانيي ، قد فعل من أجل الجملة الصغيرة . . . وقد كانت سوان تشعر أنه — أي فانيي هذا المؤلف الموسيقي . . . قد اكتفى بالكشف عنها وجعلها مرئية ويتبعها واحترام الرسم الذي رسمت بناء عليه ، وذلك بواسطة آلاته الموسيقية . . وعلى المفسرين بدورهم هنا أن يستوضحوا ما كان موجوداً من قبلهم هم وبدونهم هم ، وعليهم أن يتساءلوا أهذا عصفور ؟ أهذا ملاك ؟ ذلك الكائن غير المرئي الذي يثن تحت أصابع البيانو ، ثم يعيد قول الألم من جديد ؟ عصفور عجيب . . . يلوح أن عازف الكمان كان يريد أن يسحره وأن يدرجه . . (٣٨) .

رقم ٣٩ لكن ماهذه إلا استعارات لن يعود بروت إليها . والواقع أن الحقيقة العليا التي يسعى لها العمل الفني ليست في رأيه كها هو الشأن عند أفلاطون — أرفع من حقيقة الدنيا، بل إنها نابعة منها ، تركها تهرب عادة لأن نظرنا إليها سطحية للغاية . فلنكن أكثر انتباها ، وسنرى جوهر أسمى حقيقة ما « يختفي في قلب كل شيء » ، وتصبح وظيفة العبقرى — أن « يستخرج » (٣٩) هذا الجوهر من ذلك الشيء . وهو يقول هنا : كنت أشعر أن في نفسي شخصية لم تكن تحيا إلا حين كان يظهر فيها جوهر شامل ما تشترك فيه أشياء عدة ، وكان هذا الجوهر يمد تلك الشخصية بغناها وسعادتها ، (٤٠) هذا صحيح بمعنى « أن الشعور بعموميات الأشياء ، هو الذي ينتقي لدى الأديب المقبل ما هو خاص ، وهذا الشعور هو الذي يدخل في العمل الفني » ، (٤١) هكذا تهبط المثل العليا التي قال بها أفلاطون على الأرض . على أن أفلاطونية بروت تتحرك في « جوهرية » ترمى بدورها إلى أن تمتصها الذاتية .

ذلك أن الذات والموضوع ، الأنا واللاأنا ، الناظر والمنظر كلها أطراف لا يمكن فصل أحدها عن الآخر . « فالأشياء التي ندركها تندمج فينا فتصبح شيئا غير مادي يتصف بنفس طبيعة مشاغلنا وإدراكاتنا كلها ، ويختلط بها اختلاطا لا يتحلل » ، (٤٢) . والذكريات بوجه خاص تنضم إلى الإدراك الحسي بحيث يحوى أي اسم قرأته في كتاب مامند مدة طويلة ، يحوى بين مقاطعه رياحا سريعة وشمسا مضيئة يصنعها هذا الاسم عندما نقرؤه ، (٤٣) . نتيجة هذا أن الحقيقة الحقة ليست خارجة عنا ، وهي عبارة عن « علاقة ما تقوم بين هذه الإدراكات الحسية وتلك الذكريات التي

نحيطننا معاً في آن واحد ، وهى علاقة وحيدة يتعين على الأديب إيجادها بحيث تربط التعبيرين المختلفين في جملة إلى الأبد ، (٤٤) .

ولا يصبح دور الأديب القصصى بناء على ذلك أن يبحث عن حدث عابر أو عن وثيقة أو حكاية ما ، بل ينحصر هذا الدور قبل كل شيء في تعميق هذه الانطباعات الأصلية التى يغزو بها الماضى الحاضر من أجل فكرة غير متوقعة ؛ وحيث يستخلص جوهرنا الذاتى الذى لا ينتقل من شخص لآخر ، (٤٥) بعد أن يتخلص هذا الجوهر من التقليد المعروف الذى يفسده عادة. وبالاختصار فإن الحقيقة تنتهى إلى الذاتية ، بمعنى أنك لن تمتلك جوهر الأشياء إلا بين نفسك ونفسك ، وهكذا لن يكون المعنى الفنى « وهو معنى الواقعية نفسه ، إلا الخضوع لحقيقة داخلية » (٤٦) . ومادام العمل الفنى موجوداً قبل وجودنا ، فإن علينا أن نكتشفه لأنه ضرورى خفى ، على أن نفعل ذلك لأن علينا هذا هو قانون الطبيعة ، وهو « حياتنا الحقيقية » والحقيقة كما أحسننا بها ، التى تختلف اختلافاً كبيراً عما تؤمن وجوده (٤٧) .

والقول بأن العمل يعبر عن الفنان نفسه بكل أعماقه التى يعرفها جيداً وبأنه يعبر في نفس الوقت عن العالم الخارجى الذى ينعكس في مرآة ضميره ، قول لاشك فيه ، ولكنه قول بعيد عما قال به أفلاطون . وعند بروس- كما لاحظ ريفير (٤٨) يعمل الليل الإيجابى على منافسة الاتجاه الميتافيزيقى ، بحيث تودى الأفلاطونية الأصلية - بعد أن تتحول إلى جوهرية ذاتية - إلى واقعية سيكولوجية . وتختفى النماذج العظمى : الجوهر نفسه ، لصالح القوانين التى تحكم حواسنا وعواطفنا ولا تنقى منها إلا صورة عامة تصبح بمثابة الميراث الأخير للأبدية . إننا نستطيع أن نهنىء أنفسنا بمثل هذه

النتيجة التي خرج بروسست بها إلينا . . . فهذا العبقرى يشبه أباه الجراح من حيث إنه أغرم بالتحليل والنشر بريح والنصوير بالأشعة ، وأوضح سر نواح عديدة من دولاب العمل في الآلة البشرية . لكن ما حال الحقيقة العليا التي تجمع شئون الفن بالمثل الأفلاطونية في هذا الشأن ؟ إذ أن العمل الفني لن يعتبر جميلا بمجرد أن بعض الملاحظات قد أبدت بشأنه ، ولا يمكن للحقيقة العلمية أن توفر الوجود الفني . ما كان لبروسست أن يجعل من القصة التي كتبها قصة طيبة إن لم يكن قد شحذ روحه ونفسه لأقصى الحدود فإذا لم يكن قد فعل هذا لأصبحت قصته هذه مجرد بحث فيسيولوجى أو طبى علاجى .

وبتعبير آخر لا يقتصر وجود العمل الفني على وجود الفنان نفسه ، ولا يستند هذا إلى ذلك . وينتج عن هذا أن ذلك العمل ذاته لن يوجد سابقا بأى حال ، على نفسه ، حتى ولو كان هذا الوجود يتخذ مكانه في أعماق الذاتية ، بمعنى أنه لكى يوجد العمل لابد من أن يصنع ولا بد لإنسان ما أن يخترعه أو يخلقه . وليس الأمر أن اكتشاف فحسب ، وما كانت مهمة الأديب هى بمهمة « المترجم » فحسب . وهل يمكن أن يكون هدف الفن تثبيت الدقائق المحببة التي تعطينى ذوقا سابقا أشعر بفضله بالأبدية ؟ إن كان الأمر كذلك كان على ، لكى أنقذ هذه الدقائق من النسيان ، أن « أحبسها وسط الحلقات الضرورية لإيجاد أسلوب جميل » (٤٩) . هكذا يعترف بروسست على الأقل بأن من الضروري للفنان أن يتمتع بسلطة وواجب خلق الأشكال . إن هذه النقطة التي أهملها ذلك الأديب تنفق مباشرة وحقيقة العمل الفني ، والوجود الفني ، وهى تسير بنا فى مجاهل جديدة لن يكون أرسطو فيها أكثر فائدة من أفلاطون .

الشكل التكويني

ما هو القالب ، أو الشكل ، بالمعنى الوظيفي العضوى إن لم يكن هو الأساس التكويني لكائن مادي ؛ ذلك الأساس الذى يمنحه وجوده وحقيقته ؟ نقول إنه لا يوجد قالب ، لا يوجد أى شيء . إن ورقة بيضاء ، أو حائطا غطى بمادة ما ، أو إطاراً من الخشب ، أو لوحة معروضة أمام الشاعر والمصور ، كلها بالنسبة إليهما إمكانيات لانهاية لها تستطيع أى منها أن تتحقق ولو أنه مامن واحدة منها موجودة فعلا - غير أنه ما أن تكتب كلمة ما ، أو أن يرسم خط ما ، حتى يظهر شيء فى الوجود بفضل العملية التى يجرها الفنان... وحتى يفرض شيء ما نفسه على المساحة الفارغة ، وتقفز الصورة الأولى للشيء من العدم .

والعمل المنتهى هو كذلك القالب الذى يؤسسه ذلك العمل فى تمام كيانه . أى شيء آخر يستطيع أن يضم هذه الكثرة فى وحدة الشكل ، وأن يدخل فى أجزائها ليجمع من موضوع الفن جسداً منتظماً ومجموعة من روابط داخلية . . مجموعة كاملة تخضع لقوانينها الخاصة وتكفى نفسها بنفسها ؟ ذلك أن شكل العمل ، أو قالبه هو أيضاً هدفه . وه تصبح اللوحة منتبهة حالما تمحو الفكرة المنظوية عليها . . وقد سبق أن ذكرنا ما قاله براك فى هذا الصدد (٥٠) نقصد أنه حين يتحقق تنفيذ الشكل كاملاً فى المادة ، أو بتعبير آخر ، حين تكون المادة قد شبعها الشكل تماماً . إذا يكون خلق الاشكال هو خلق الكائنات ، كائنات مطابقة لكائنات الطبيعة ، لها وجودها ولها حقيقتها مثلها تماماً .

فالوجود الفني لا يتحدد إلا بقيمة القوالب أو الأشكال. فهو ضعيف حين يكون الشكل هزئيا جافا، غني حين يكون الشكل قويا أصيلا، وهكذا تنضج في الفن القدرة الخلافة المكونة للشكل بأشدهما يمكن أن تكون نقاء وإطلاقا تنضج طاقاتها في صنع الكائن، ويعني هذا ببساطة أن العمل الفني الحقيقي هو الذي يكون له كيان، أي ذلك الذي يكون شكله التفاضل، أو سلبا للكائن، وأن العمل الخائب في الفن يعني انعدام الوجود، أو اللا كيان، وانعدام التماسك الفعال حيويا، دون أن يكون بالضرورة سخفا أو قبحا أو جهلا، (٥١) ولهذا نجد أن اللوحة الطيبة تقتل الأعمال غير الفنية الهزلية التي تحيط بها، إن علفت جميعها فوق حائط مرتفع. فقد حدث أن رأى ديلا كروا إحدى لوحاته «العدل في تراخان» معلقة في متحف «روان» وقد غطي جزء منها وراء أشياء أخرى، فاعترف دون تميز لنفسه بقوله: «إن الذي أمكنني أن أراه منها كان على درجة من القوة والعمق عملت على إخفاء كل ما كان يحيط بها بلا استثناء» (٥٢). وكانت اللوحات الأخرى إلى جانب تلك اللوحة «غير موجودة».

لقد قال بوسويه في وجود الله: إن الكمال ليس بعفة أمام الكائن، بل إنه على عكس ذلك، علة وجوده ونفس الشيء يقال عن الفن: فكلما ازداد كمالا كلما تأكد وجوده، ومن هنا كان يسمى «فوق الوجودية»، السريالية التي ننسبها إليه. وحيث إن اكتماله الشكلي أكثر تماما وتدقيقا في التنفيذ من أشياء الطبيعة؛ فإنه يتمتع بالنسبة لها، بكيان وقيمة إضافيين. ولقد فهم الاسناذ سوريو هذا جيدا، ولو أنه على ما يلوح لم يتذكر لا أفلاطون ولا أرسطو بهذا الصدد فالفن في نظره هو «النشاط التكويني» — أو التأسيسي، أي إنه «جهد القصد منه أن يقود الوحي التقريبي إلى الوجود الكامل، الفريد في نوعه، الملموس، الذي يشهد

على نفسه بنفسه عن طريق وجود لاشك فيه ، (٥٣) . وفي هذا النشاط نجد ، حين نعمل ، نفس الخطوات الأصلية ، وما يشبه الحركات الروحية الكبرى التي تعمل على مساندة اى كيان وتسليحه . إنها اشكال ، تلك العناصر غير المادية .. وهى ايضا سند عميق لكائن ما . وليس الشكل هو ذلك الذى يحبس العمل فى إطار مغلق ، بل هو ذلك الذى يبنى ويجرك ويفتح الطريق إلى الحقيقة ، (٥٤) .

من هذا نفهم أن العمل الفنى الحق فى الوجود ، لا يمكن ان تتمتع به الكائنات الطبيعية ... و هذا الحق هو الذى يقاس بمدى الكمال ، (٥٥) . هذا ما يسميه الاستاذ سوريو ، الوجود الاعلى ، لعالم الفن . . . وهو عالم يرتفع إلى اعلى ويسير إلى الامام بقوة اشد فى الوجود ، ويتفجر بالوجود مسيطرا بقوة اكبر . . . واعلى من اى من هذه العوالم التى رفض الفن تمثيلها . إنها طريقة رفيعة ، طريقة عليا للوجود . . . هذا ما يبحث عنه الفن دائما ، وما يصل إليه هذا العمل البطولى : وبعد ذلك النصر ، ومن خلال هذه الحقيقة الوجودية . . . نقصد العمل الفنى العظيم ، (٥٦) . وبفضل هذا الاخير ، يتكون عندنا الشعور ، وإن صح التعبير . . . نتلقى الوحي بوجود الكيان الذى نريده كيانا . . . او — الكائن المطلق الذى يحمل تبرير وجوده بين طياته . . . هذا هو السر الذى يوحى الفن بوجوده فى ارفع الأعمال الفنية . . . سر يدل على طريقة ما للوجود بحيث لا يترك لنا فرصة التساؤل عن سببه او علته ، (٥٧) .

وطريقة الوجود الرفيعة التى يتميز بها العمل الفنى هى بعينها الكيفية العليا لوجود الفردية . وكونك كائنا معناه فى الواقع أن تكون كائنا

واحدًا . ومع اكتمال السكان تزداد فرديته الخاصة . بمعنى أن لوحة ما ، أو تمثالا ، أو قصيدة ما ، تصبح وحيدة في نوعها ولا يمكن أن يحل محلها غيرها ... وتميز عن لوحة أو تمثال أو قصيدة أخرى كما يتميز جسدان حيان .. أو قد نقول أيضا ؛ كائنان بشريان . ألا نشعر بوجود موضوع الفن كما نشعر بوجود الشخص ... ؟ لقد عبر الأستاذ سوريو عن هذا تعبيراً جميلاً فقال : جلس أحد أصدقائي أمام البيانو . وماذا انتظر هاك المقاييس الثلاثة الأولى من مقطوعة الباتنيك . . . هاك أحدهم قد دخل .. رغم أن الباب مغلق . نحن هنا ثلاثة أفراد : صديقي ، وأنا ، ومقطوعة الباتنيك . وقد سبق لبروست أن من قبله أن كتب عن الجملة الصغيرة التي يؤلفها فانتني فقال : لقد كانت خاصة جداً ، لها جاذبيتها الفردية ، التي ما كان لأحد أن يضع مكانها جاذبية أخرى ، وكانت بالنسبة إلى سوان بمثابة إنسان قابلته في صالون تعرفه . . إنسان كانت قد أعجبت به في الشارع ثم اختفى دون يحدوها أمل في أن تقابله مرة أخرى (٥٨) .

فردية العمل الفني ترجع إلى نفس سبب اكتماله ، وهي صورة ومبدأ للتعين يغمر المادة من جميع أجزائها ويوصل إليها جميعاً إشعاعه . . . وكل شيء . يحدث إذاً كما لو كانت صفة الفردية قد مست هنا بطريق مباشر بمجموع المواد المستخدمة . وبالقدر الذي ينجح به العمل الفني تصبح أدق دقائقه مقدسة ضرورية . إن من الممكن أن نبتز من الإنسان عضواً دون أن نقتله ، لكن ليس من الممكن أن نبتز مقطعاً واحداً من بيت شعر جميل دون أن نهدمه ، فإن للروح في الفردية العضوية جسد ، وهي — أي الروح — ترشد أجزائه بنسب غير متساوية ... على أن بينهما ... بين الروح والجسد دابطة كيانية ،

وكذا ، وبوجه خاص ، علاقة ملكية يمتلك فيها كل منهما الآخر . أما في الفردية الجمالية فإن هذه الملكية تختفى لأن الاتحاد الذي يربط بينهما قوى متين ، وهو بعينه تلك الصفة المحسوسة التي تحمل طابع العمل الفني ، (٥٩) .

وطابع الفردية هو الذي يميز العمل الفني عن الآلة حتى ولو كانت هذه الآلة من النوع الذي ينتظم بنفسه ذاتيا ويحاول القيام بما تقوم به الكائنات الجبّة المفكرة . « إن هذه الأجهزة في ذاتها ليست أعمالاً فنية لأنها تحاول بطريق الحركات التمثيلية العامة أن تقلد الفردية ولكنها لا ترمى إلى أن تصبح هي فردية . إن الآلة لا تضم روحاً ، ولو أنها تأمر بما تؤمر هي به ولا تبعث بشيء غير متوقع للذي أبدعها ، اللهم إلا أخطاء سيرها . وهي لا تفرض عليه كيفية السير في عمل ما كما تفعل مثلاً شخصية المسرحية أو كما يحدث عند ضرورة تصوير اللوحة والتقدم في تنفيذها . والآلة مبنية على أساس رياضي أو منطقي بحث .. لا تنصف بهذه الرشاقة الغامضة التي تخفي وراءها تلك المفاجآت الدائمة التي ينتظرها من يريد أن يتأمل . وهدفيتها مفروضة من الخارج على أجزائها ، وليس بها ما ينبعث منها كما ينبعث الفكر الفني من إنسان فنان يريد أن يبرر وجوده وكيانه عن طريق كيان ما يبدع . والدليل على هذا أن من الممكن بناء جهاز ماضن سلسلة ضخمة من نوعه ، في حين أن العمل الفني فريد في ذاته : فهناك لداً بين « النموذج ، الجامد الذي يقلده من يمارسون الآلة ، والعمل الفني الذي يخلقه أهل الفن .. هناك فرق مرجعه أن الصورة المنقولة في الأول تعادل النموذج الأصلي دائماً ، في حين أن الثانية .. أي العمل الفني ، لا يمكن أن يكون مختلفاً تماماً عن الأصل ، (٦٠) .

بالاختصار لا نبالغ حين نشير إلى موضوع الفن - كما يفعل المسبو

نيد ونسيل - وقولنا إنه « عنصر شخصى تقرىسا » ، لا يمكن تصنيفه أو تعريفه ، لأنه يقع فيما وراء العموميات ولا يدخل فى نطاق أى مذهب . وهو يبلور أنواعا من التمثيل والاندفاعات لا عدد لها ، ولا يمكن امتلاكه كما نمتلك الشيء ، بل إنه يتقدم للإنسان ليتقبل منه التبجيل والإعجاب والحب ، وهو يحمل بقيم عالمية ، ويحمل رسالة تعبر الأزمان والأماكن وينتمى إلى مملكة أعضاؤها ليسوا أداة بحثة ، يشوبه وجود رفيع ، ومنه يشع شعور باللانهاية يؤكد أن الكائن البشرى غالبا ما يكون قادرا على الإشعاع بهذه القوة . أليست هذه الصفات كلها أوجه شبه بين موضوع الفن والشخص نفسه ؟ الحقيقة أننا نتساءل : من يستطيع سماع ميلوديات معينة من شومان دون أن يدرك منها أهدافا تحرك العواطف وتنبع من جوهر الموسيقى لتذهب إلى اكتمال الوجود الشخصى ؟ قد لا يمكن أن نجد نفس التجربة تتقدم إلينا لتراها إلا بواسطة المجهود المقلق ، غير الفعال الذى نقرؤه أحيانا فى أعين حيوان مستأنس يكون على وشك أن يعادل الإنسان ، ويلوح كما لو كان يعرف ذلك . (٦١) .

نراهى الغموض فى الوجود الفنى

مع ذلك فإن من المستحيل أن يصل الجهد الذى يشهد به العمل الفنى إلى نهايته ، فالفن يبعث فىنا شعورا بحالة من الوجود تتعدى ما نضمّنه الطبيعة ، والأشياء التى يستخدمها تشترك فيه ولكن اشتراكها هذا رمزى ومحدود بمحدود اشتراك الرمز فى الطبيعة ، هنا يظهر الغموض النسبى فى الحالة الوجودية للعمل الفنى ، إذ أن هذا العمل موجود فى نفس الوقت بدرجة أقل وأكثر من أشياء الطبيعة ؛ أكثر بسبب السمو الذى يشوبه . وقد تحدثنا عنه . وأقل ، لأنه بصفته عملا فىنا يحتاج إلينا لكي يتم وجوده ، وفوق وجوده « حقيقة » .

والوجود في هذا يرجع في الواقع إلى القيمة . . لكن ليست هناك قيمة، سواء أكانت جمالية أم غير جمالية إلا بالنسبة لضمير قادر على استقبالها. لاشك في أن لوحة يتركها الفنان الذي نفذها ، وظل هذا الفنان مجهولاً أو موضع الاحتقار ، أو تركها في غرفة مغلقة حيث لا يراها أحد . . هذه اللوحة تظل عملاً فنياً، بمعنى أن مصدرها فن فنان معين، وأنها تظل بنفسها مصدر سعادة لأولئك الذين سيكون من حظهم اكتشافها، ويكون لديهم الذوق اللازم لتقدير قيمتها . فالفن لا يسكن فينا ، ولسنا نحن الذين نقيم قيمة العمل حين لا نفعل شيئاً أكثر من أن ننظر إليه . ولقد هاجم الأستاذ جيلمون هذه الذاتية بقوة (٦٢) . فهو يرى أن العمل لا يوجد جمالياً إذا لم يكن موضوع تجربة جمالية ، وقد كان الأمر هكذا خلال آلاف السنين بالنسبة للصوريين المصريين والنقوش البارزة في لاسكوا والتامير وهو جار . . ولندكر على سبيل المثال لوحة تنثورية ظلت محتفية منذ قرون كانت تستخدم فيها كغطاء لأنية قديمة واكتشفت أخيراً في كهف « بدروم » ، كاتدرائية ميلانو . . فكم يكون من الحق القول بأن أجمل لوحة في العالم لا توجد إلا على حساب الذي يتأملها . . وهي « تعود إلى السقوط في اللعدم حالما ينتهى الإعجاب بها ، ولا تصبح إلا خرقة مليئة بالوان تشبه قطعة الخشب التي يخلط عليها المصور ألوانه ويمحو فيها فرشاته »، (٦٣) .

مع هذا فاللوحة أو التمثال أو البناء الأثرى يتمتع بمزايا أخرى ، إذ حتى إن لم نعترف له بوجود جمالي يكون له وجود ملموس ، ثابت محدد . . وحتى إن لم يكن إلا لوح خشب ذا شكل معين وسمك معين فهو موجود كما هو موجود له جسده . . لكن ما حال القصيدة والقصة والمسرحية ومقطوعة الموسيقى؟

أين هي ؟ وما أهميتها ؟ وكيف توجد ؟ هل تعتبر القصيدة مجرد مجموعة علامات خطية مرمية على قطعة من الورق بنفس الطريقة التي يغطى بها السطح المسطح بالوان ليصبح لوحة ؟ لا .. فالألوان تتحدث مباشرة إلى الحواس ، في حين تتحدث العلامات الخطية فقط إلى الذين يعرفون كيفية قراءتها وتفسيرها . وهكذا يمكن القول إن قصيدة صينية توجد بالنسبة لك أنت يا من تجهل اللغة الصينية بدرجة أقل كثيراً من وجود لوحة من روبانس حتى بالنسبة لمن يجمل فن التصوير .

من جهة أخرى ، ماذا يعنى وجود قصيدة جوسلان (لأما رتين) أو الحرب والسلام (تولستوى) أو الزورق النشوان (رامبو) ؟ هل تعنى نصاً مطبوعاً ؟ لكن هناك آلاف من النصوص المطبوعة في الدنيا . وهل هى تعنى مخطوطاً أصيلاً ؟ لكن ماذا تكون قيمة هذا المخطوط إن كان قد حريق أو مزق أو أكلته الديدان ؟ ثم إن العمل الأدبي الموجود في المكتبات العامة أو مخازنها لا يعيش إلا بحياة الظلام . إنه يرتفع إلى الوجود الحقيقي بفضل قراءته . ومادامت القراءة تحدث في الزمن فإن القصيدة أو القصة أو مقطوعة الموسيقى لا يمكن أن تكون حاضرة كلها في نفس الوقت . ووجودها لا يمكن أن يكون قدرها . هل نقول هنا إن له جسداً ؟ نعم . . . جأز لحد ما إن هى قرئت ، بصوت مرتفع ، لكن ماذا إذا قرئت بالعين فحسب ؟ على أى حال فإن وجودها الجسدى لا يعادل وجود شيء ما . . . كوجود لوحة ما جسيماً .

تبقى حالة الأعمال المسرحية والموسيقية ، وهى عسيرة من حيث التفكير فيها لأن من الضروري لكى نجعلها موجودة قدر استطاعتها ألا نكتفى بقراءتها ، بل لابد أيضاً من تمثيلها أو تنفيذها ، فالوجود الفعلى لمسرحية أندروماك أو لسيمفونية جويتير لبوريس جود ونوف يحتاج لمعرفة الممثلين والمخرج

ورئيس الفرقة الموسيقية وعازفي الآلات، ويتنج عن ذلك أن هذه الاعمال لا تمتلك جسداً وحيداً نهائياً محددًا ، بل أجساداً متعددة ومؤقتة . . أو - إن صح القول وكما يقول الأستاذ سوريود أجساماً كقطع الغيار، (٦٤) . . ولنترك هنا النتائج التي تلتج عن ذلك فيما يخص دور المبدع والطبيعة ومصير الأعمال الفنية في مختلف الطبقات الفنية (٦٥) ولنتحدث فقط عما يخص موضوعنا ، ونقصد به أن العمل الفني - رغم وجوده الرفيع - ليس بكائن قائم دائم . . فالعمل الفني لا يتم خلقه إلا لكي يخلق من جديد ، ولا يبقى قائماً في ذاته إلا لكي يتجدد دائماً أبداً بالنسبة للسادة البشرية (٦٦) .

هل يعني هذا أن الفن ينتهي دائماً إلى الفشل ؟ لا أظن . . . وهنا أسمع لنفسى أن أتنازع والأستاذ نيدونسيل ، فهو يقول : إن الفن لا يصل إلى هدفه وصولاً كاملاً ، وتمتال بيجاليون لا يستقى الحياة إلا في الحلم . . . لأن نيتنا إذ ذاك ليست شيئاً آخر غير إحياء المادة التي صنعتها بها أيدينا . . أما إذا نجح التنفيذ نجاحاً مطلقاً، فإنه لن يكون إلا انبعاث جوهر كامل تحت أبصارنا (٦٧) .

في اعتقادي أنا ، لست واثقاً أن يكون لدى الفنان النية حتى ولو كانت لا شعورية - في منح الحياة والحركة لأعماله ، كما تفعل الطبيعة بالحيوان والإنسان . . ولا أظنه يشفر بشيء من الألم إذا لم ينجح في هذا . فإن نحن طبقنا الفكرة على فن البناء ، لوجدناها خالية من المعنى . . . إذ لا يمكن أن يكون الحلم في البناء هو تشييد مبان تتحرك . أما في الشعر

وفي الموسيقى فإنني لا أفهم أيضا أى نوع من الحياة ، يمكن أن يمنح للقاصد .
 قصائد إلى هيلينا . . أو السوناتا إلى كرتيزر ، وهى لا تمتلك هذه الحياة .
 أما عن النحات أو المصور ، فهل يكون مثلها الأعلى فى هذه اللوحات
 الحية التى زارها فى مسرح الشانليه أو القولى برجير ، حيث نهبط بعض
 التماثيل من قواعدها ونخرج أشكال مصورة من إطاراتها وتشرع فى الكلام
 وفى الرقص ؟ لا يمكن أن يكون الأمر هكذا ، اللهم إلا إذا دفعنا
 بالواقعية إلى أقصاها وقلنا إن هدف فن النحت — كما قال ديلا كروا — هو
 تصوير التماثيل وجعلها تسير بزنبرك (٦٨) . أنا إذا لا أفهم إطلاقا ما يمكن
 أن يحصل عليه فن النحت من أن يكون حيا ، ولا أدرك أصلا ما يمكن
 أن ينقص التنفيذ ما دام قد أنتج لوحات وتماثيل . أنا لا آسف على هذا . .
 بل بالعكس . . لا آسف على ألا يكون التمثال تمثالا ؛ والأناكون اللوحة
 ألا لوحة فحسب .

ويؤكد الأستاذ نيدونسيل أيضا أن العمل الفنى ليس جوهرأ كاملا ،
 بل إنه يكاد يكون جوهرأ (٦٩) كما قيل عنه من قيل إنه من مركز شخصى
 تقريبا . فالحقيقة أنه ينتمى إلى طبقة الأشياء المصنوعة ، مثله مثل الفاكهة
 التى تصنعها الصناعة . . أو أى فن بالمعنى العريض لهذه الكلمة . لاشك أن
 هناك فروقا واضحة بين آلة ، أو من باب أولى ، أداة يدوية أو قطعة أثاث
 من ناحية ، ولوحة أو تمثالا من ناحية أخرى ، فعندما يصور المصور لوحة ،
 أو عندما ينحت مثال تمثالا ، يرتبط الشكل ارتباطا وثيقا بالمادة ويتداخل
 فيها بعمق أشد من ذلك الذى يحدث عندما يقوم نجار بتجميع قطع من
 الخشب ليصنع منضدة . ومع ذلك فإننا لا نحصل على جوهر حقيقى ،
 لا فى الحالة الأولى ، ولا فى الثانية . وتقصد بالجوهر ، إن عبرنا عنه بتعبير

مأخوذ من أرسطو «طبيعة». فالمادة التي يصنع منها العمل الفني أو المنضدة كأن طبيعية، أما أشكالها فهي ليست أشكالا طبيعية .

لهذا السبب لا ينتمى النتاج الصناعى الى نفس طبقة الكائنات التي ينتمى اليها نتاج جيل ما . والمثل المعروف عن أرسطو هنا يوضح تماما مذهبه : ذلك اننا لو صنعنا سريراً من الخشب وقمنا بدفنه في التربة ، فليس من الممكن أن نأمل في أن ينبت هذا السرير . وعلى العكس من ذلك فإن الطبيعة تنتج المواد الطبيعية بطريق الأجيال . ويمكن تعرف هذه المواد بقدرتها على التكاثر المتعاقب (٧٠) . أليست هذه الحقيقة فكرة شيللنج التي يعبر عنها بدوره في نص فلسفي آخر فيقول : « بعد أن يعطى الفن للأشياء الصفة التي تطبعها بالطابع الفردى، يقوم بخطوة أخرى فيعطىها الرشاقة التي تجعلها محبة بأن يجعلها نلوح كما لو كانت تحب . وفيما بعد هذه الدرجة الثانية لا تبقى إلا خطوة أخرى ثالثة تعد لها الثانية وتوضحها مقدما : وهى أن تعطى للأشياء روحاً بفضلها لا تتكفى بأن لوح كما لو كانت تحب ، بل لأنها تحب فعلا . . وهذه هى الدرجة التي لن يصل إليها الفن .

الجمال النفسى والجمال الطبيعى

إذا كان من المستحيل فصل العمل الفني عن الفكر الإنسانى الذى يشيده ويرسيه في وجوده الجمالى ، وحتى من وجهة أخرى وفي حالات معينة في وجوده الملبوس الفيزيقي فإن من غير الممكن أيضا فصله تماما عن الطبيعة، فاللوحة على التأكيد والتمثال والقصة والمسرحية ، ومن باب أولى القصيدة

الشعرية والبناء الأثرى، ومقطوعة الموسيقى ليست بأية حال من الأحوال تصويراً للحقيقة ومهمة الفن هي أن يقول ، لا أن يعيد القول، وأن يفعل لا أن يعيد الفعل ، وأن يخلق لا أن ينقل . وهو لا يقلد الطبيعة، كما نعلم، إلا بطريقة في العمل . ومع هذا فإننا لم نؤكد القطعية بين عالم الفن وعالم الواقع إلا بقصد اتباع طريقة خاصة ، وبقصد القضاء على أخطاء لاتزال قائمة بشدة . ولقد حان الوقت لأن نبين العلاقة التي تربطهما رغم عدم التماسك بينهما . ألم يسبق لنا أن اقترحنا حين تحدثنا عن التصوير التجريدي الفكرة القائلة بأن الفن الذي يفصل انفصالا كلياً عن الطبيعة ويريد أن يقوم بناء على التجريد المطلق ، وفي هامش الواقع لا بد وأن يصل إلى العدم ؛ وأن يفقد كل قيمة محسوسة وبالتالي كل قيمة فنية ؟

فلنؤكد إذاً أول الأمر أن الجمال ليس احتكاراً مطلقاً للفن . إن هناك جمالاً طبيعياً، ولندكر أنه إذا كان بودلير يرى الطبيعة قبيحة، فإنه لا يراها هكذا إلا في إطار آراء فلسفية تصوفية يطبقها مقدماً . فالأشكال التي تنتجها الطبيعة ليست بالجميلة دائماً وفي كل مكان . وقبلها تكون مكتملة وهي تقدم بعض العناصر التشكيلية ... ولهذا نجد أن آنجر وهو وريث الأكاديمية في هذا يرى أن من الضروري كما فعل مثالو اليونان القدامى في نحت تماثيلهم ، « تجميع كل الأجزاء الجميلة التي تضمها الطبيعة نادراً في موضوع واحد ، » (٧١) . لكن القول بأن اليونان، وآنجر بدوره قد فعلوا هذا أمر يجب أن نشك فيه . ومع ذلك ، فالفكرة القائلة بأن من الجائز الجمع في نفس الصورة بين ما تقدمه الطبيعة في عدة كائنات تبين ضرورة وضع الجمال الفني في المقدمة وتفضيله على الجمال الطبيعي . ولهذا التفضيل

تبريره ؛ ذلك أنه عندما تكون كائنات الطبيعة جميلة ، لا يكون هدفها الوحيد أن تكون جميلة ، بل إنها تنتظم من أجل المحافظة على نفسها أولاً ، والمحافظة على نوعها بعد ذلك ، فالجمال إذاً عندها شيء ثانوى ، ينضم ، تبعاً للكلمة أرسطو ، إلى النشاط وإلى محاولة الاحتفاظ بالشباب . أما الفن فهو على العكس من ذلك ، يستخلص أشياء معينة ، جمالها هو علة وجودها ، أشياء لا توجد إلا من أجل جمالها ، كل شيء فيها مدرك ومتجمع في أدق دقائقه من أجل إسماع أولئك الذين يتأملونه . ليس الأمر لذاً هو البحث عن الريادة أو النقصان بين الجمال الجمالى (الفنى) والجمال الطبيعى . فالفرق ليس فرقاً فى الدرجة ، بل إنه فرق فى النوع ، كما هو الشأن بين الشيء الذى تقدمه الطبيعة والعمل الفنى .

مع ذلك فالجمال الطبيعى جمال أصيل ، والطبيعة لا تنتهى فى هذه الناحية كما أكد أوسكار وايلد إلى محاولات غير مثمرة أو إلى تجارب تموت فى مهدها . وليس من الصحيح أيضاً أن الطبيعة جميلة فحسب « عندما نراها من خلال الفن ، أو نترجم فى لغة الأعمال العادية من أجل نفس شذبهما الفن ، (٧٢) . فلكى تكون الفتاة رشيقة ليس من الضروري أن نفكر أمامها فى تمثال تافاجرا . ولكن يكون الوجه جذاباً لا داعى لأن تذكر صورة الباريسية أو شكل الملكة نفرتيتى . إن الأشياء الطبيعية تكون جميلة وهى بعيدة عن كل مقارنة فنية . أليست انطباعات البسطاء من الناس — وأحياناً ما تكون حية جداً — ترجع فى حب الجمال إلى الطبيعة البسيطة لا يكاد يكون هناك إجماع بين الفنانين من حيث الاحتجاج — كما فعل رودان مثلاً — ضد الفكرة القائلة بأنه مامن شيء جميل فى الطبيعة وإن الطبيعة قبيحة دائماً ؟ .

(*) وقد رأينا وأثبتنا أن أنجز كان يدرك الجمال القديم من خلال النموذج الحى إلى ويدرك اللوحة التى سيرسمها مستقبلاً من خلال منظر الطبيعة .

إن هناك ولاشك رجالا ونساء ودواب ونباتات ومناظر على جانب من الجمال .. ولستأزید أن نذهب إلى حد التحدث عن هذا . فنقول إن الزهرة تسر العين بألوانها ، بل بأكملها خطوطها لدرجة مدهشة ، تلك الخطوط التي نراها أيضا في بعض أوراق الأشجار وفي أقماع زهرة الفوجير الصغيرة . وقد يكون في النظر إلى عالم ماتحت الأرض بما فيه من حصى وقواقع وأجسام بلورية ما يكفي لتوكيد الثروة النوعية الموجودة في الأشكال الطبيعية هكذا ندرك في الطبيعة ونحن أيضا لمزاء العمل الفني نظاما واضحا للغاية ، دقيقا لأقصى حد ، يوجد بين أجزاء مجموع متكامل .

يتعين علينا ، وقد وصلنا إلى هذه النقطة أن نلقى نظرة على نظرية مالرو فيما يخص نقطة البدء في الإبداع الفني : يرى مالرو أن الحركة الأولى تأتي إلى الفنان من التأمل في الأعمال الفنية الكبرى ، لا من منظر الطبيعة ، وتختلف هكذا رؤيته عن رؤية العامة من حيث إنها منذ بدئها تنظم عن طريق لوحات وتماثيل ... وبواسطة عالم الفن ... ويرى مالرو وأنه كما أن الموسيقى يجب الموسيقى ، لا الكروان ، والشاعر الشعر ، لا غروب الشمس ، فإن المصور لن يكون هذا الرجل الذي يجب الوجه والمناظر . بل هو أولا رجل يحب اللوحات ... وبهذا يصبح من الأمور ذات المفزى أنه ما من ذاكرة فنان عظيم يمكن أن يحتجز داخلها عنصرا يتولد من شيء آخر غير العاطفة التي تتحرك أمام العمل الفني كما يحدث الأدباء حال تمثيل مسرحية أو قراءة قصة أو قصيدة ... وللموسيقين ، الاستماع للموسيقى ؛ وللمصورين تأمل اللوحة .. والذي يخلق الفنان هو أنه كان حماسا في فتوته الأولى لمزاء الأعمال الفنية أكثر منه لمزاء الأشياء التي كانت مصدر هذه الأعمال ؛ بل وربما لمزاء الأشياء فحسب (٧٣) وبالاختصار فإن مالرو يرى أن

الفن يصدر عن الجمال الفنى ؛ ولاتأتى الدفعة المخصصة من الجمال الطبيعي . .

إن الحقيقة ، مع الأسف . تصبح خالية من المعنى لأن هي حاولت استيعاب الكل ولإبعاد الحقائق التكميلية . ولا شك أن هناك عدداً كبيراً ممن أهل الفن يجمعون على أن العمل الفنى صدمة نهائية . . وقد كان الفنان كوريج يصبح قائلاً أمام لوحة القديسة سيسيل لرافائيل : وأنا أيضاً . . أنا مصور . . لكن لئلا أكون موهبة بررست مثلاً قد تولدت عن انطباعات الطفولة وسط الطبيعة بدرجة أشد بكثير من تولدها عن قراءة الأدباء الذين أحبهم . ولتذكر أن غابات الورد في كوميرى ونباتات العروس في فيفون وشاطئ بعلبك هي التي جعلت منه قصصياً أعمق وأرفع من مدام دي سيفنييه التي كانت جدتها تثيرها وتدفعها الكتابة . . . وأرفع من بالزاك الذي كان تقدمه في السن وقد مضى عمره في القراءة عاملاً على أن يصبح كاتباً . . . لا شك أيضاً أن الموسيقى رجل يحب الموسيقى ، وأن المصور رجل يحب اللوحات . تسامل ميكاسو من هو المصور؟ لأنه هار يجمع مجموعته من اللوحات ويرسم بنفسه لوحات يحبها الآخرون ، لكن المصور يحب أيضاً غروب الشمس والموسيقى العندليب . ويدكر ديبوسى في هذا أن رؤية شروق الشمس أكثر فائدة من الاستماع إلى سيمفونية الرعاة ويقول لا تستمعوا لى نصائح أحد . . اللهم لى الرياح التى تمر وتحكى لنا تاريخ العالم (٧٤) . ولعل من السهل جداً أن نجمع فى قائمة طويلة بين أولئك المصورين الذين أخذوا على عاتقهم إعادة تصوير الطبيعة كما هى . لكن سيزان ، وهو الذى يشيد ويصور الأشياء بطريق الخروط والدائرة والاسطوانة . . الذى لا يريد إلا أن

يعبر عن إدراكه الصغير هو .. فى حاجة إلى أن يذهب إلى المثير الطبيعى بانتظام . وهو يقول بنفسه : « لئن كل شئ » فى الفن بوجه خاص نظرية تطبيق بطريق الاتصال بالطبيعة ، (٧٥) . ولا يجهل ريدون الذى يعتمد على رؤية اليقظة أن من الضرورى أن نبدأ من الواقع لتخطاه ، وهو يعترف بأن مافوق الطبيعة لا يوحى له بشئ ، وبأن الطبيعة قد أصبحت منبعاً وخبرة بالنسبة إليه (٧٦) وكذا الفنان التكعيبى لهوت . . الذى يتحدث هكذا قائلاً إنه لا يعرف شيئاً أجمل وأكثر تحريكاً للعواطف من الشئ القائم الموجود (٧٧) . وهاك الفنان التعبيرى رولت أيضاً يقول إنك سوف تحتفى بكل ما يعيش تحت السماء ، (٧٨) ، فى حين أن الفنان التجريدى بول كلى يختار مكانه فى موضع أقرب قليلاً من قلب الخليقة بما هى العادة . ويتساءل : لكن هل أستطيع أن أكون قريباً منها ؟ (٧٩) .

لقد قال شاتوبريان عن أدب القرن الثامن عشر — عدا كبار أدبائه : إن هذا الأدب كانت تنقصه الطبيعة دون أن ينقصه الشئ الطبيعى ، وليس الإخلاص لمظاهر الواقع والحياة هو الذى يعطى العمل الفنى وزنه من الحيوية والواقعية ، بل لابد من ربط أشد قوة وأكثر خفوتاً بجمال العالم حتى وإن لم يذكر هذا الجمال مباشرة . إن التناسق اللفظى والتناسق التشكيلى ليشغلان أحياناً على النفس ، فى حين تؤثر فينا عصارة الأشجار ذات الجذور العديدة والآلاف من الأغصان ، فلنترك المصور التجريدى ج. بازين يحدثننا عن هذا ليقنعنا . إنه يتساءل لماذا نحفظ الأشكال التى أبدعها البدائيون

إلى اليوم بقوتها وقدرتها على السحر إلا لأنها تنبع من العالم المختلط الذى يسمح فيه الفنان ولأن العلامات التى يستخدمها لا يمكن إلا أن تكون محملة بالحقيقة مهما تكن قليلة القدرة على التصوير : إنها مثقلة بالمحركات العاطفية وبالإدراكات الحسية ؛ ذلك أن المشكلة ليست مشكلة التصويرى وغير التصويرى من عناصر الطبيعة ، فليس من المهم أن تكون اللوحة ، أو يكون التمثال ممثلاً أو غير ممثل لشيء ما . والأساس أن يفهم المصور أو الممثل الحقيقة بصفاتها روحاً وجسداً ، وألا ينسى أن العالم يجب أن يكون حاضراً بصرف النظر عن كونه قابلاً للتمثيل التصويرى وإذا لم يحدث هذا ووقف الفنان فى خيلاء داخل دائرة مغلقة فإنه سوف يتكر قيمة الإنسان ، وهى بعينها قيمة الفنان . ألن يكون العالم فى مواجهتها إلا نوعاً من سوق كبيرة تحوى الكثير من أشياء مختلطة ، نأخذ منها ما نريد وترك ما لا نريد ؟ وهل يكون هذا العالم بمثابة ملابس يجدر بنا أن نتخلص منه ؟ لا ، لأنه يلتصق بجسدنا ، ولأنه بالنسبة لكل منا بمثابة بشرته هو . وهكذا لن تكون لنا حرية الرفض أو القبول ، فرفض العالم الخارجى معناه رفض الإنسان لنفسه ... ومعناه الانتحار (٨٠)

، ومن بين الأشياء التى تدعونا للقبول هناك جسم الإنسان ، وهو يتمتع بامتياز لا يحتمل المناقشة وهنا يعلمنا أفلاطون أن جسم الإنسان يحوى ويلخص الجمال التشكيلي كله ، بل وحتى الجمال الحسى كله بوجه عام ، كما لو كانت الصورة الجانبية لجرة ما أو جانب مضبة ما أو خط الميوديا ،

شيئاً جميلاً يرجع جماله إلى التشابه بينه وبين جسم الإنسان (٨١) قد تقول إن أفلاطون قد عاش في عصر سادته فن النحت.. عصر لم يكن يستطيع الإنسان فيه أن يعرف مقاييس الأشياء بسهولة . لكن ألا تزال نظريته هنا موضع الانتباه ؟ الحقيقة أن شعورنا بالجمال — لا الطبيعي لحسب بل كذلك الجمال الفني — يرتبط دائماً بشكل جسمنا وبطريقة سيره... ويدين هذا الشعور جزئياً بكونه مامو عليه ، فكل شيء يحدث كما لو كان جسم الإنسان جميلاً بذاته ، وكما لو كان ما يتبقى بعد ذلك — أى الأعمال الفنية جميلاً لأنه يتفق وإياه ، فإن نحن بحثنا عن التوازي أو التناسق عرضاً ، فذلك لأن جسم الإنسان ، كما لاحظ باسكال ، متناسق أفقياً . وإذا كنا نعجب ونشعر بالسرور إزاء الأوزان أو بعض الأوزان خاصة فذلك لأننا نحمل في جنباتنا دقات فردية أو حتى ثلاثية . . دقات القلب والرتنين . أليس الجهاز القياسى الذى يوجد في جسمنا هو الذى يساعدنا على تقسيم بيت الشعر عند قراءته ، والذى ينظم أحجامه وعدده الطول الطبيعى للجملة الخطائية ؟ ألا يتعين على المنحنيات والنسب ، لكي تكون متناسقة ، أن تأخذ في اعتبارها حتى ولو بشكل غامض ، بشكل جسمنا ؟ إتنا لن نفهم النحت التجريدى ، وحتى أشد أنواعه وضوحاً ، كفن آرب مثلاً . . لن نفهمه إلا من خلال منحنيات المرأة وقطع الحصى والحجارة (٨٢) وحتى فن البناء ، وهو من أبعد الفنون عن الطبيعة ، يحتفظ ببعض الانعكاس الذى يصور جسم الإنسان . يقول أوباليتوس (فالبرى) إن هذا المعبد الرقيق صورة رياضية لإحدى بنات كورنشة أحببتها كثيراً... لأنه يصور في دقة

تلك النسب الخاصة التي يتصف بها جسدها . . . جسدها الذي يرد لى
ما أخذته منه . . . ولذا فإن هذا المعبد يحوى رشاقة لا يمكن تحليلها . .
تشعر إزاءه بوجود شخصى . . هو الزهرة الأولى لامرأة ما ، وتناسق كائن
جذاب (٨٣) لهذا أيضا نرى أن التصميمات الهندسية الخالصة والهوى العجيب
الذي يتبعه أنصار التصوير المسمى البقية لا تتفق والحقيقة الإنسانية . إن من
غير الممكن على أى حال أن يكون جسم الإنسان وهو العمل الفنى
الأكبر للطبيعة، ومعه الطبيعة نفسها، أن يغيب تماما عن الاعمال الفنية
الكبرى للفن الإنسانى .

الجزء الثالث
فلسفة الفن

إن ظواهرية الفن هي وصف التجربة الجمالية . أما فلسفة الفن فهي التفكير في هذه التجربة ، بقصد تحديد طبيعتها ومعناها ومداهما فسر المستطاع .
ألم نلاحظ منذ بدء هذا البحث أن الأهمال الفنية ونشاط الفنان تخلق مشكلات تتعدى إطار التعليل الإيجابي ؟

ها نحن أولاء نتوقف حال دخولنا إلى حلقة البحث . يقول باير :
يا علم الجمال ، احذر من فلسفة ما وراء الطبيعة .. ، والفن لا يمكن شرحه بالفلسفة ، فإذا كان له مذهب ما فإنه لن يكون شيئا آخر إلا فلسفة النجاح ، (١) . ليس العمل الفني أصلا « شيئا مريئا » ؟ ألا يقع تحت إدراكاتنا بصفته « تجميعا لتأثيرات .. تجميعا رمزيا إن شئت ، ولكنه تجميع لتأثيرات .. » ، إنك تتش نفسك إن أنت بحثت فيه عن مغزى يقوم فيما وراءه . . . لا شيء فيما بعده ، وما علم الجمال العقلي إلا علم جمال الأشباح يتغذى من أكاذيب تجميعية وجولات حول موضوع ما ، وتكرار لفظي لحسب توحى بها كلها تشابهات كاذبة . علينا إذا أن نتعجل في « نزع الصفة الفعلية عن علم الجمال » ، وعلينا أن نقطع أوصال المثالية الجوفاء التي يخالها فيها هذا النوع من علم الجمال ، ونأخذه بأيدينا بقوة إلى الواقعية ، وإلى « هذا الشرح الذي يعود إلى الشيء مجرد خروجه من الشيء » . وهذه هي الوسيلة الوحيدة التي تمكننا من عدم تحويل الموضوع إلى حجة خالصة لتبرير الأمور بناء على التفكير لحسب (٢) .

اطلما ضل علم الجمال ، مؤكداً ، في متاهة بحوث الفكر الجوفاء . لكننا لا نرى ، هذا هو اعتقادنا ، سببا كافيا لمنعه إلى الأبد من أن يدور حول التفكير ، وأن نعمل تفكيرنا فيه . أليس معنى تحديده بشرح الأعمال الفنية شرحا علميا أو شبه علمي لحسب في إطار ضيق ؟ « ما من شيء يمكن إدراكه عقلا ويؤخذ في الاعتبار فقط ... إن كل شيء يمكن إدراكه حسا . » لكن لماذا يوجد الشيء ؟ ولماذا صنع ؟ ولماذا أراد المبدع أن

يصل إلى هذا « النجاح » بأي وسيلة ؟ ولماذا نجد فيه كل هذه اللذة ؟ إن الفنان لا « يتفلسف » عندما يعمل . فليكن ... لكن هل يكون هذا سببا في ألا تفكر فلسفيا إذا كان عمله يدعونا لهذا ؟ بالاختصار نحن قوم متفقدون على ألا « نبحت في علم الجمال إلا في المشكلات التي يلقي بها أمامنا » . لكن لا ينجم عن ذلك « أن كل مشكلة لم يبحث فيها الفنان فعلا يمكن أن تكون مشكلة غير حقيقة » (٣) .

إذن من الضروري ألا تفكر فلسفيا ، فإن من الضروري أن نستمر في البحث بطريق الفلسفة . وطريقة الأستاذ باير تتضمن مذهبا معينا للفن ، فهي تتضمن إذا فلسفة معينة .. يعطى فيها الأسبقية للقيمة على الكائن ، وبالتالي لقدرة الإنسان على خلق القيم . ولقد سبق أن عرفنا القارىء رأينا في هذا ، والفكرة التي نحن بصددتها الآن تتميز بأنها تضع المناقشة في مجالها الخاص بها . والفن قيمة ، ومن هنا فهو يفرض علينا أن نضعه في مواجهة القيم الأخرى ، ومنها الدينية والأخلاقية والعلمية ... نقصد القدسية والخير والحقيقة .. وقبل كل شيء يجب أن نضعه — أى الفن — في مواجهة هذه القيمة التي تمثلها في أعيننا حياتنا وعواطفنا ومشاعرنا ومثلنا العليا مهما يكن نوعها .. والتي تحدد نشاطنا .

الفصل الأول الفن والإنسان

يرى مؤرخ الفن الكبير ، د. ا. مال ، في الكاندرائية القوطية مرآة أمينة تعكس لإنسان العصور الوسطى ، مرآة لاهوتية تعلن بفضل رسومها المذاهب التي تستند إليها المسيحية ... ومرآة تاريخية تقص المراحل الرئيسية لحياة شعب الله ... ومرآة دنيوية تعكس معلومات ذلك العصر عن الفلك ودورة الفصول وعادات الحيوان ومشكلة الآفاق العليا البعيدة . ومرآة أخلاقية تصور الرذائل والفضائل ، كما تصور القديسين الفين قادوا معركة الخير والملائكة الذين يسندون جنباقتنا ، والشياطين التي تغرينا ، ثم أخيرا العقاب والثواب في الدنيا والآخرة والجنة والجحيم .

من الممكن دون مبالغة أن نتوسع في نطاق وجهة النظر هذه ، باعتبار الإنسانية جميعها هي التي تنعكس في مرآة الفن ، وعلى أنه مامن ناحية من نواحي وجوده المتعدد النواحي والأشكال إلا وصورها العمل الفني ، بل وحتى العمل الفني الأعظم . وما من حضارة مرموقة إلا وساعدت الوثائق الفنية على إعادة تصويرها في حالة عدم وجود وثائق من نوع آخر . على أن الشعر والتصوير والنحت وفن البناء تشهد جميعاً شهادة مؤكدة على ما صنعته الإنسان وما فكر فيه وما خاف منه وما آمن به . كل شيء في الفن موجود ، فن آلام الحروب إلى أعمال السلام إلى الحب والموت .. إلى الآلهة واللعب . على أنه لا ينبغي أن ننسى ، إضافة إلى هذا ،

أن الفرد يعبر عن نفسه في الفن بقدر مانعبر الجماعة عن نفسها . وهذا منذ شعر بكيانه وبوجوده . فكم من شخصيات فريدة من نوعها ، قوية أو بائسة كان من الجائز أن تظل مجهولة أو غير معروفة تماما إن لم تكن قد تركت تاريخ حياتها أو اعترافاتها أو مذكراتها لتقول : هاأنذا الإنسان كما كنت .

ولقد تعلمنا رغم هذا أن نحذر من استخدام استعارة المرأة ، وليس هنا مجال التدقيق في أنواع الخيال التي يضمها الأدب الشخصى ، وبكفى أن نذكر القارىء أنى إذا كنت أصور نفسى بنفسى ، فإنى لن أستطيع أن أصور بدقة تامة ذلك الإنسان الذى هو انا ، هل أستدير إذا نحو الحقيقة الخارجية ؟ إن الصورة التي سوف أقدمها عنها هي الأخرى سوف تكون محورة قليلا أو كثيرا ، بناء على نظرتى لها ، أو على التقليد الذى أتبعه غير أن الفن يريد أن يكون على أكبر قدر من الموضوعية لا يمثل الأشياء كما هي وإلا انسخت عنه صفة الفن . فهو يحورها ويحاول رفعها إلى مرتبة هليا ويصبغها بصبغة لم تكن لها من قبل ابحت إذا عن الإنسان في الفن ولسوف تجده فيه لأنه يعيش في داخله . إنه يعيش فيه كما يعيش في الحياة العامة ، ومع ذلك فإنه يختلف عن سابقه إذا ما دخل إليه هذه هي آلات الحصاد والبذر وجمع الأعناب تجدها كلها ممثلة بصورة ما ، بعد أن يكون الشعور قد غير منها . إننا لانعترض هنا على ما قاله الأستاذ باير من أن « جميع القيم البشرية تصعد قطعاً في سماء الفن ، ولكن الجمال الذى يصبغها يصبح من نوع آخر ، وما هذا إلا تقييم للقيم » (١) .

يقص علينا بروسست في صيغة « نكتة » ، خيبة الأمل التي أصابته عندما التقي لأول مرة بشخص « رجوت » ، وقد كان يتوقع أن يرى « مرتلا رقيقا قد ابيض شعره ، فرأى « شابا جافا صغير الحجم قصير النظر له لحية

سوداء وأنف أحمر على هيئة قوقعة ، لم يكن هذا المنظر إلا إنذارا . وقد سبق أن قلنا إن في هذا قطيعة بين أشد ألوان الفن واقعية والرجل الواقعي . هناك أيضا قطيعة بين الرجل الذي يصور اللوحات أو ينحت التماثيل أو يكتب القصص وقصائد الشعر ، وبين الرجل الذي يأكل ويشرب ويبيكي ويضحك ويعيش كمواطن وكزوج وكأب ويحصل على مقعد في البرلمان ويذهب للصلاة في الكنيسة . وقد يتشابه الرجل العادى بالفنان أحيانا لدرجة التطابق الظاهرى . وأحيانا أخرى على عكس ذلك يختلفان اختلافاً تاماً لدرجة التباعد الأبدى بينهما . ومن هنا تظهر بعض المشكلات التى تتعلق فى آن واحد بعلم الأخلاق والنقد . فإلى أى درجة تكون معرفة الإنسان شيئا لا غنى عنه لمعرفة العمل الفنى ، وبأى معنى يصبح صحيحا أن الإنسان يضع نفسه فى عمله ؟ كيف يعمل الرجل العادى والفنان كل إزاء الآخر ؟ وهل تكون القيم التى يتابعها الأول قادرة على الاندماج فى القيمة التى خلقها الثانى ؟ وإذا كان الفنان يستطيع أن يأخذ على عاتقه هذا الرجل العادى فبأى شرط ؟ المفهوم أن الرد على هذا يختلف باختلاف طبيعة كل ، وطبقا للفكرة التى يتبعها كل عن الفن ، وبهذا فإننا لن نبحت عن حل يصلح لجميع الحالات ، ويصبح هدفنا فحسب فتح بعض الآفاق وصياغة بعض المبادئ . وبوجه خاص القضاء على كل سوء فهم .

نراهم

إنها لفكرة عادية ، معروفة منذ سانت ييف ، تلك التى تقول بأن العمل الفنى الذى يبدعه شخص ما يمكن فهمه وشرحه عن طريق حياة هذا المبدع نفسه . فقد قضى سانت بيف على طريقة النقد العتيقة التى تستند إلى جمال العمل ، وأحل محلها الطريقة التاريخية السيكولوجية المستندة إلى صاحب

العمل . « ففي مجال التاريخ والنقد الأدبي يلوح لي أنه ما من قراءة أكثر ترفيها ولذة ، وفي نفس الوقت ، مليئة بالحكم بأنواعها المختلفة ، من تاريخ حياة كبار الرجال . وقد كتب جيد : إن الأدب ، والإنتاج الأدبي بالنسبة إلى لا يتميزان . . . ولا ينفصلان عن الإنسان ، وأنا أستطيع أن أتذوق العمل الأدبي أو الفني ، لكن من الصعب على أن أحكم عليه حكما مستقلا عن معرفة الإنسان الذي كتبه . وإن أقول عن رضا : « تلك الثمار من ذاك الشجر ، فدراسة الأدب تؤدي بطبيعة الحال إلى دراسة الاخلاق » (٣) .

يجب إذاً أن « نعود إلى الإنسان » ، لأن الشيء الذي عاشه هو مصدر وحيه ، والأحداث التي أثرت فيه ، أي تجاربه التي طبعت به : حبه وكرهه ، وفشله وانتصاره ، كلها تحدد ما يكتبه من حيث الشكل والفكرة . عليك بالتالي أن تصعد قدر استطاعتك إلى أبعد حدود الماضي الذي عاشه الكاتب ، وانتبه إلى تعليمه وإلى البيئة التي كبر فيها ، واتبعه خطوة خطوة ، وانظر إليه وهو يسير في الطريق وفي قاعات الاستقبال والنوادي والمسارح واصطحبه عند الوزير ، وعند مسجل العقود . وعند عشيقته . اسأل أولئك الذين رأوه وسمعوه .. أصدقاؤه وأعداءه وخادميه . وكلما عرفت شيئاً عنه كانت لديك الفرصة لتمسك بـ « مفتاح قصائد شعره ولوحاته وموسيقاه وقصصه . فالناقد الكامل هو كاتب تاريخ حياة من ينتقدهم .

ولقد أثبتت هذه الطريقة نجاحها طبعا ، وما من أحد في حالات كثيرة يستطيع أن يستغنى عن اللجوء إليها ، وليس من العبث أن تعرف ما كانت عليه طفولة « روسو » وشبابه الأول لتفهم أعماله ، ولا طفولة وشباب شاتوبريان لتفهم « رنيه » . وقصيدة « البحيرة » لا تنفصل عن خب لا مارتين لشقيقته ايلفير ، كما أن « الليالي » ذات صلة كبيرة بالعلاقة المائجة بين موسيه

وجورج صاند . وتاريخ حياة بالزاك يضىء لنا بضوء نفهم منه لاقصص «لوى لامبير» ، «وسيرافيتا» ، بل كذلك «البحث عن المطلق» ، و«الزنبقة فى الوادى» ، و«الأوهام الضائعة» ، و«الأب جوريو» . وهاك شخصية جوليان سوريل ، تدين بالكثير لكاتبها ستاندال ، ففى تسجيل كراهيته لرجال الدين ، وجهه لنا بليون ، وخجله المشوب بالجرأة ، وإفراطه فى حب السعادة . وهاك دوستوفسكى يمد لذة بذئته فى وصف انطباعات محكوم عليه بالإعدام، لأنه سبق أن عاش بنفسه لحظات مرعبة حين حكم عليه بالإعدام هو . وهناك أشعار من بودلير وفرلين ورامبو يمكن أن تظل سرا مغلقا إن لم نعرف هذا العنصر أو ذاك من حياتهم الخاصة . ونصف ديوان «موسم فى الجحيم» لرامبو يمكن أن يكون نوعا من نقاية لمن لا يعرف الحياة الخاصة لمؤلف ما . لا داعى إذن للإكثار من الأمثلة ، ولا لدفع الأبواب المفتوحة التى لن نفكر ، لا أنا ولا أنت فى إغلاقها .

مع هذا فإننا نأسف أن من هذا الباب قد دخل نوع من أنواع الأدب لم يكن للأدب وللفن فيه أى ذكر . تاريخ حياة الفنانين ؟ يعلم الله أن لدينا منه الكثير ، ومنها ماهو عظيم جدا ومفيد للغاية ، ومنها ماهو أقل درجة فى الفائدة والعظمة . . . وهأتذا: تقرأ فى واجهة المكتبات «حياة فلان المليئة بالأحداث» . . . وإلى جانبها «المصير الهائل لفلان» . . . فهل يتعرف سانت ييف على البيض الذى فقسه من خلال هذا النثر المثير الذى لا يرمى إلا إلى جذب الجمهور وتلقى ذوقه لما هو غريب أو مؤلم أو فاسد ؟ ذلك أن الفنانين «وحوش مقدسة» ، وما من مصور أو شاعر يحترم نفسه إلا وكان «ملعوناً» فى الكثير أو القليل . . . لكن ما هذه القصص المثيرة التى تنسج حولهم ، وقد وضعت فى اعتبارها كل شذوذ سيكولوجى ؟ إن الاهتمام الذى توليه للفنانين ، وأأسفاه ، اهتمام لا تبرير له غير لفت النظر فحسب . . .

ولقد مر علم التحليل النفسى بنفس الطريق الذى مرت به تلك الطريقة التى تدعى بضرورة جمع المعلومات . . الطريقة التى كان يجب علينا أن نطلق عليها الطريقة الفضولية، تلك التى يقع الفنان فريسة لها من أجل انتصار رؤوس متوجة، ونجوم تظهر على الشاشة، يقول مالرو إن العصور الوسطى كانت تجهل حتى كلمة «المصور»، وكان عصر النهضة يدرس المصور كما يدرس الشخصيات الشهيرة الأخرى . وكان فن الفنان وشخصيته شيئين مختلفين، وحل محل هذا التمييز ربط بين الموهبة والسر، فإذا لم يقم أحد بإخضاع وسائل الحرب فى حملة نابليون على إيطاليا، وربطها بخيانة جوزفين لزوجها، ولا يربط التعديل الذى جرى على معادلة ماكسويل بمجازفة قام بها أينشتاين، فإن كل شخص مستعد لإيجاد الرابطة بين المصور جوياء ودوقة البابل يجعل منها مفتاح فن التصوير كما مارسه جوياء . . إن عصرنا يؤمن بالأسرار التى يكشف عنها (٤) .

على أن المبالغة فى مبدأ ما لا تفند المبدأ نفسه، وطريقة البحث فى العمل الأدبى من خلال حياة صاحبه لا ينبغي أن تكون موضع الاحتقار بسبب سوء استخدام البعض لها . . على أنه يجب أن تظهر رابطة بين الإنسان والفنان، وبين حياته وعمله . هذه الرابطة، يلوح أنها لن توجد أصلاً . . فكبار المؤلفين الهزليين بوجه عام لم يكونوا من أهل المرح، وقد كان كورنى مؤلف تراجيديا البطولة، بطلاً فى كتابة مسرحية البطولة فحسب. وبرناردان دى سان بيير لم يكن يتصف بالحساسية العاطفية التى صورها، بل كان مجازفاً مليئاً بالشكوك والنفاق، محباً للعراك، متصفاً بخشونة الطبع . . وهو الذى مد خيطاً ليمسك به سانت ييف، تمكن به هذا الأخير من أن يقول عنه : « إنه (أى سان بيير) أشد الأمثلة قدرة على بعث خيبة الأمل بسبب عدم التوافق بين حياته وعمله . . . وكما أريد أن أعوه من مخيلتي، (٥) .

وعدم التوافق بين العمل وصاحبه قائم أيضاً عند المصور «واتو» .
 فقد ولد «واتو» فلنسكيا أكثر منه فرنسيا وعاش معظم حياته القصيرة في
 أشد حقبات حكم لويس الرابع عشر فقرا ، وكان قبيح الخلقة ومريضا
 خجولا . . . فكيف والحال هذه أصبح مصوراً لأجل نواحي حياة الرعاة
 ولأعياد الربيع ورحلات إلى جزيرة الخيال «سينير» وملذات حياة قصر
 لويس الخامس عشر؟ وهل يمكن أن نتصور أن كتاب «العلاقات الخطرة»
 قد كتب بقلم ضابط من فرقة المهندسين عاش أقرب إلى الرواقية منه إلى
 الفجور له بيت سعيد ، وهو زوج مثالي يكتب آخر خطاب له ليوصى
 «الفنصل الأول» (نابليون) بزوجه وأبنائه الثلاثة خيراً . . . وماذا نقول
 لنختتم القائمة عن شويرر وقد كانت موسيقاه الحزينة تغرق في رقة صوفية
 لتتقدم للفتاة الشابة وللوت . . . إنها موسيقى لا تنفق كثيراً وحياة شويرر ،
 هذا الشاب السميكة الذي يشبه كثيرين آخرين ، والذي لم يعرف إلا نجاحاً
 ضئيلاً في حياته ، وضجراً عادياً ، وملذات سهلة ، وحبا بامسا يلوح أنه نسيه
 بسرعة . . . والذي مات ضحية حادث ؟ .

الواقع أن العلاقات بين الفن والحياة متباينة للغاية ، فالفن يزدهر أحياناً
 مع الحياة ، وأحياناً أخرى يتضح بعيداً عنها . وقد سبق أن لاحظنا أنه
 غالباً ما يكون الفن تعويضاً ، فيقدم طرفاً من الحياة أو رد فعل إزاءها لدى
 أولئك الذين خاتمتهم الحياة . . . والحالات التي يلعب الفن فيها دور المتنفس
 ليست بالقليلة ، حيث نجد في عمل الفنان ما لا نجده في حياته ، لأن ما مر
 بحياته قد أخذته الرقابة الفردية أو الاجتماعية وظل مكبوتاً . مثال ذلك
 دون جوان الذي عاش في أشيلية من مجازفات الشاب الذي يغري الفتيات
 ولم يكن في هذه المجازفات ما يحتمل أن يكون عملاً فنياً ، لكن تيرسو وموليير
 وموزار وديلاكروا وغيرهم عرفوا كيف يستخلصون من هذه الشخصية
 أعمالاً فنية رغم أنهم لم يعيشوا كما عاش دون جوان . بل إن من المحتمل

لهذا السبب أنهم شعروا بالحاجة إلى تصوير « المدونجوانية »، في فهم . . . وربما كان يارون وحده هو الذي كان في نفس الوقت النموذج والمصور لهذه الشخصية، لكن لم يلاحظ أحد أبداً أن الصور التي يرسمها الفنانون لأنفسهم كانت أحسن ما عرفنا، (٦). وأحيانا يكون الفن أيضاً مجرد ترويح أو هروب يساعد على نسيان مشكلات الحياة الواقعية . كبيرها وصغيرها . مثال هذا أن بيتهوفن كان فريسة لمتاعب ومشكلات شديدة في اللحظة التي ألف فيها هذه « الاندافت » الهائلة . ولقد كتب فاليري أيضاً « الآلهة الشابة »، وسط آلام الحرب، وقال في هذا : « لم يكن عندي أى هدوء في النفس ، ولذا فإنى أعتقد أن هدوء العمل الفني لا يدل على هدوء الفرد نفسه ، وقد يحدث على عكس ذلك أن يكون الهدوء نتيجة مقاومة مشوبة بالقلق ومختلطة بقلقل عميقة وتستجيب انتظاراً للمصائب دون أن تعكسها في شيء » (٧)

وإذا لم يكن الفن يستق لأصوله إلا من الحياة ، فإن من المستحسن أن نعيش لأقصى حد من الزمن حتى نعبر عن أكبر قدر ممكن منه ، لكن الحقائق لا تؤكد صحة هذا ، والذي يبدو حقاً هو أن الفن والحياة يتنازعا عن الفنان ، وعلى الفنان غالباً أن يختار بينهما . . وفي محاولته الاختيار يشعر بالآلم والتمزق لأنه يقع بين ضرورة تنفيذ عمله، وضرورة أن يعيش . ويقول أوسكار وايلد : إن « كل ما نريجه من أجل الحياة نفقده من أجل الفن » . كما يقول جيد : « ما دام الإنسان مشغولاً بالحياة، فإنه لا يجد وقتاً للكتابة » . ولذا ينكر ديتور ما يفعل بعض المؤرخين تقليدياً من نسبة « سائير يكون » « لبيترون »، الذي يذكره قاسيت ، والذي أضفى « كوفاديس » عليه صفة شعبية . وقد قيل إن بيترون هذا كان قنصلاً ، ثم قنصلاً عالياً لنيرون قبل أن يصبح صديقه المختار والشخص الذي يشهد له على أناقته ويبحثه ما يلزم لأعمال الاستهتار . ويلوح أن الكتاب المذكور ، الذي لا نعرف منه إلا

بعض الحكام ، كان ضحكا ، ولذا فليس من الممكن ان يكون إلا ثمرة مشاهدة مستمرة وجما دقيقا للوثائق . . . « وأعتقد أن موظفا كبيرا ، اختص بإقامة الحفلات وإعداد الملهيات ، واتصف بالكبرياء والخيلاء المسعورة والاستهتار الدنيوى لن يكون قادراً على تأليف هذا الكتاب ، حياة الملهيات لن تترك للإنسان وقتاً ولا حتى بعض القصص القصيرة . . والنظرية القائلة إن شكسبير لم يكن إلا المستشار بكون بنفسه تعتبر من أعجب وأخطأ النظريات التى تتولد فى عقل باحث . إن فى هذا إنكاراً تاماً لعمل الإبداع الفنى ، إذ لا يمكن أن يكون الإنسان فى آن واحد وزيرا عظيما وكاتباً كبيراً . ولا بد أن يتروفيوس أريتر الحقيقى ، مؤلف « ساتيركون » كان رجلاً ضحكا ومخلوقاً مهملاً يعيش فى الظلام ، فقيراً ، أو ابن عبد عتق أو موظفاً حقيراً . على أى حال ، مات فى فراشه ، لا فى حوض ماء الحمام فى سن الخامسة والستين تقريباً (٨) .

وها هو ذا ميريميه ، الذى يشبهه رينان يترون ، لم ينتج العمل الأدبى الذى كان شبابه يعد به . . . أليس من الجائز إذاً أن يكون ميريميه قد شغل لدرجة كبيرة أيام شبابه بوظيفته كمفتش للآثار التاريخية ، وكعضو بمجلس الشيوخ وكرجل من رجال القصر ؟ .

قد يقال لنا إن حياة كبار الفنانين وحدها وفى ذاتها كانت قصة أصبحت فى ذاتها عملاً أدبياً حصياً . لكن ما قيمتها هذه الحياة . . . وكما حياة كتبت من هذا النوع ؟ على كل فهما يمكن الفن مصوراً دقيقاً للحياة فإنه لا يمكن أن يختلط بها ، وأن يصبح اختزالاً أو نقشا لها . ولهذا فليس من المهم كثيراً أن يستنشق الفنان الحياة أو يرتشف منها ارتشافاً ، أو أن يعدل عن ذلك ، ويجب ويكفى لكى يضع عمل فنان أن يكون قادراً فى اللحظة المواتية أن يقف إزاء حياته الخاصة على بعد كبير ، وأن يتعد عنها إن صح القول لينظر إليها . يكتب بودلير فيقول : « إن الفنان لن يكون فناً إلا إن كان مزدوجاً ،

وإلا إذا لم يكن يحجل أى ظاهرة من ظواهر طبيعته المزدوجة (٩) .
وبفضل هذا الازدواج يستطيع أن يصبح بالنسبة لنفسه موضوع تأمل .
ومادة يستغلها استغلالاً جمالياً . وبفضل الازدواج أيضاً يتم التحول الذى
يغير قطعة الرصاص القبيحة لتصبح ذهباً خالصاً ، وتحول الفحمة القائمة
إلى شعلة لامعة . ويدكر ريفردى « أن الشعر بالنسبة للحياة كالنار بالنسبة
للخشب . تخرج منها وتحولها » (١٠) وكانت جورجيت لوبلان « موحية »
الكاتب ما نزلت تعتقد أنها أدبية قصصية ، لأنها كانت ذات طبيعة تحت
المجازفة ... ياله من خطأ شنيع .. لا لأنها كانت تحب الحياة لدرجة مبالغ
فيها ، فقد كانت الأدبية اندى نواى بنفس القدر ، بل لأنه كان ينقصها الإلهام
الداخلى والقدرة على تصوير حياها تصويراً « منظرياً » ، ومعاملتها كوسيلة
 لتنفيذ العمل ، تلك القدرة التى تسمح لبطله الرواية أن تؤلف رواية هذه
البطله .

لقد وصف بروس وصفاً رائعاً ذلك الفرق الوظيفى الذى يدخل
القطيعة بين الرجل العادى والفنان ، أو بين الحياة والفن ، فقال : « إن
العبقريه ، بل وحتى الموهبة الكبرى ، تأتى من القدرة على تحويل العناصر
العقلية ونقلها إلى العمل الفنى ، أكثر من أنها تأتى من هذه العناصر نفسها ،
فلكى تسخن سائلاً بمصباح كهربى ، ليس من الضروري أن يكون المصباح
قوى الضوء قدر المستطاع ، بل أن يكون مصباحاً يستطيع تياره أن
يتوقف عن الإضاءة ، وأن يعطى حرارة بدلاً من الضوء . ولكى تنزه
فى الهواء الطلق فى المرتفعات ليس من الضروري أن تكون لديك أقوى
سيارة ، بل أن تكون سيارتك قادرة على تحويل قوة سيرها الأفقية إلى قوة
صعودية .. دون أن تستمر فى السير على الأرض وقطع الخط الذى تتبعه
رأسياً . ونفس الشيء بالنسبة لأولئك الذين يفتجون أعمالاً تدل على
العبقريه ، فهم ليسوا نفس الأشخاص الذين يعيشون فى أكثر الاوساط

رقة ، او الذين يتحدثون أجمل الحديث وتكون لديهم أوسع ثقافة ، بل هم الأفراد الذين لديهم القوة والقدرة على التوقف عن أن يعيشوا لانفسهم، وعن أن يجعلوا من شخصيتهم ما يشبه المرآة بحيث تنعكس فيها حياتهم مهما تكن تافهة ، مادامت العبقريّة تتلخص في القدرة الانعكاسية ، لا في الصفة الذاتية للنظر المنعكس، ففي اليوم الذي استطاع فيه بيرجوت ان يبين لعالم قرائه قاعة الاستقبال ذات الذوق الرديء الذي كان قد أمضى فيها حياته ، والأحاديث غير المستحقة التي كانت تجرى بينه وبين إخوانه . . في ذلك اليوم صعد بيرجوت لدرجة اعلى بكثير من الدرجة التي كان عليها أصدقا أسرته ، الذين كانوا إلى ذلك الوقت أكثر نكته وامتيازاً . . لقد كان هؤلاء الأصدقاء يعودون إلى قصورهم في سياراتهم من طرازه الرولس رويس ، وهم يبدون بعض الاحتقار لبيرجوت الحقير في نظرهم ، لكنه كان في تلك اللحظة ، قد صعد في طيارته المتواضعة . . . وطار فوق رؤوسهم ، (١١) .

على كل ، حتى في الحالة التي يجد فيها النقد المبني على حياة المؤلف قبولا ، فإن القائدة التي تعود منه محدودة ثانوية ، فنحن لا نعرف شيئا عن وميروس ، ولا نعرف إلا القليل جدا عن فرجيل وهوراس وشكسبير ، فهل نقصهم شيء من جهلنا بحياتهم ؟ ليس هذا بمؤكد ، بل ربما كانت أعمالهم الأدبية أنقى وأمتع وأمتن لأنها منفصلة عن أولئك الذين أنتجوها . والعييب الذي تنطوي عليه ضرورة معرفة حياة الفنان تتلخص في أنه يحول الانتباه عن العمل نفسه ويركزه في المؤلف ، ويخفي الشيء المكتوب لصالح الكاتب ، ويخفي الكاتب نفسه لصالح الرجل في حياته الصادية ، لا في حياته كأديب . فلنقل إن هذا القصصى قد كتب قصصا ، وإن هذا المصور قد رسم لوحات ، ولصبح هذا شيئا ثانويا تقريبا ، فإن أنت رأيت لوحة رسمها أوترللو وعرفت أن أوترللو كان سكيرا ، أو إن رأيت لوحة للرجل

ذى الأذن المقطوعة، « لفان جوخ »، وعرفت أن فان جوخ أذنه قد قطعت أذنه في معركة مع متشرد .. فليس معنى هذا أن حب أوترللو للخمر ، أو جنون فان جوخ ، وجهه للعراك ، لم يكن لهما تأثير على فهمهما ... بل إن فان جوخ وأوترللو ، ضمن المرضى بحب العراك والسكيرين يتميزان عن غيرهما بأنهما كانا فناين مصورين ، و ... عظيمين . هذا هو الشيء الذى لن تحمكيه أشد الحكايات صدقا .. فالأسرار كالملاسات تصبح عديمة النتيجة حيث يبدأ الفن ، ولا صلة لهما بقوة العمل الفنى ، (١٢) .

لا شك أن فاليرى قد بالغ في الفصل بين الفنان والرجل العادى ، ولم تكن صفة « الخاصية » التى تتصف بها بيرت موريزو استثنائية لأبها في نظره كانت ، تعيش فيها التصويرى وتصور حياتها ، (١٣) . ومع ذلك فقد كان فاليرى على حق حين أشار إشارة خاصة إلى أن الطريقة التاريخية في النقد تهمل الأمور الأساسية بسهولة ، ونقص هذه الأمور العمل الفنى وسر تنفيذه . فلقد تساءل قائلا : « هل كان راسين يعلم بنفسه من أين أتته هذه الأصوات التى لا تقلد ، وذاك الرسم الدقيق المائل فى مرونة ، وتلك الطريقة الشفافة فى إلقاء الحديث ... التى جعلت منه هذا العبقري الذى اسمه راسين ، والتى كان من الممكن دونها أن يصبح تلك الشخصية العادية التى قال لنا المؤرخون عنها أشياء كثيرة جدا نجدها عند عشرة آلاف فرنسى آخر ؟ إن تعاليم تاريخ الأدب المقال عنها لا تكاد تمس إذا أسرار إبداع الشعر . وكل شيء يحدث فى قرارة نفس الفنان كما لو لم يكن الأحداث وجوده إلا تأثير سطحي فى أعماله .. ولعل أكثر الأمور أهمية — نقص وظيفة موحيات الفن — شيء مستقل عن ماجريات الحياة ، ونوعها ، وأحداثها ، وكل ما يمكن أن يوضع فى تاريخ حياة الإنسان .. فكل ما يمكن للتاريخ أن يذكره شيء . تافه (١٤) .

تافه ، إن في هذا بعض المبالغة ، إذ ماذا كان يحدث لشعر راسين إذا فرضنا مثلا أن سادة بور رويال لم يعلوه اليونانية ؟ إن بين حقيقة العمل الفني الأعظم والظروف التي ساعدت على مولده هناك ، هوة قائمة لن يتمكن مؤرخ أدب من تخطيها ، ولن يستطيع تأريخ حياة الأديب نفسه أن يفسر معناها . ورغم مبالغة فاليري في هذا فقلوله مفيد من حيث إنه يحذرننا من المبالغة في العكس . ما من شيء يفسد أكثر الأفكار فائدة وأعمقها فيما يخص الانتاج الانساني إلا الخلط بين ، الحالة المدنية وقصص الكاتب مع النساء أو غير ذلك من التفكير العميق في العمل ذاته ، (١٥)

هل يعني هذا أن الفنان لا يعبر عن شخصيته في عمله ؟ بالتأكيد لا . ولكن أى شخصية ؟ من هو مثلا فاجنر الحقيقي ؟ أهو الذى تمكن من كتابة تريستان ، أم أنه ذلك الرجل الذى لا يطاق حين تراه ليلا يلبس قميص نوم ويتسلل في ردهات فندق كان جيرانه فيه يمنعونه من النوم ؟ غالبا ما يتمسك النقد بهذه « الأنا » الخارجية ، في حين أن الإبداع الفني ينبع من أنا أخرى لا تتكشف إلا من واقع العمل . هذا ما قاله بروس ت مهاجما سانت بيغ مؤلف « أحاديث الاثنين » . يقول بروس ت : « إن الطريقة المشهورة التي تنحصر في عدم الفصل بين المؤلف والمؤلف تنسك ما يكشفه لنا التأمل في نفوسنا ، ومن أهمها أن الكتاب إنتاج « أنا ، أخرى غير تلك التي تتضح من خلال عاداتنا والمجتمع الذى نعيش فيه وراثتنا . وإن نحن حاولنا أن نفهم تلك « الأنا » ، لتعين علينا أن نعيد خلقها في نفوسنا إن نحن استطعنا (١٦) . وأخذ بروس ت يثبت في سر أن سانت بيغ لم يفهم بالتدقيق كل الفنانين تقريبا الذين عرفهم بصفتهم أفرادا . ذلك أنه إذا كان الفرد وحياته يسمحان لدرجة ما يفهم الفنان ، فإن المؤكد أكثر من ذلك أن عمل الفنان يسمح وحده بفهم الرجل الحقيقي . فالعمل الأدبي الذى كتبه أديجارو هو الذى يكشف لنا شخصيته ، لا أنه مريض بالوارثة

فحسب ، بل كذلك أنه نوع من ديكارت الشعر ، ، والذي كتبه نيرفال هو الذى يبين لنا أنه كان مريضاً بالأعصاب واميراً فى مملكة الظلمات ، والذي كتبه بودلير هو الذى يوضح لنا أنه كان « المتأنق » الشيطاني الذى يمتلك روحاً تتألم وتحب النقاء ، والذي كتبه « مارسيل الصغير » الذى كان يتردد على الصالونات يكشف لنا عن مصور لتقاليد وعادات من نوع عال ، وتقصى ميثافيزيقى .

وبالاختصار فنحن نوافق على أن تكتب حياة الفنان ، لكن بشرط أن تكتب قبل كل شيء حياة الرجل الفنان ، مادام تناسخ حياته كرجل لا يجد مكاناً إلا بالقدر الذى تأثر به الفنان . ولكن من أين أنت موهبته؟ وبم أعجب، وماذا نقل أو قلد؟ وكيف حصل على القدرة على الكتابة بأسلوبه الشخصى هذا ، وتبعاً لآى تحسسات وأى نجاح وأية أخطاء؟ فلنعترف بأن الفنان لا يكشف لنا غالباً عن كل هذا . « هل تذكر جورج دى لا تور يوم أن جاءت فكرته لإحلال المسطحات الخاصة محل الأحجام لأول مرة؟ وكيف صور مانيه أول تناقض لوني؟ مع هذا فإن اكتشاف الوسائل التى تمكن المصور جويو من الوصول بها إلى عالم الجحيم ليس بأقل أهمية ، حتى بالنسبة له هو ، عن المرض الذى قلب حياته ، (١٧) ، وهنا يجب أن نلقى أسئلتنا على العمل نفسه ... وفى العمل كلام ... كل كلمة منه وكل خط وكل لمسة تكشف عن سر الروح ، فى نفس الوقت الذى تحمل فيه الكلمات والخطوط واللمسات طابع المشكلة المحلولة ، والعمل الذى هو علة كيان الفنان نفسه الذى يجد فيه الرجل ذاته لإكماله ووحدته .

« اضرب قلبك »

والخلط بين الفن والحياة يؤدي إلى خلط بين الفن والعاطفة ،
إذ ما معنى الحياة إن لم يكن أن تتمتع وتحب وتأمل ؟ وكم تصبح حياة الإنسان
فقيرة إن هو عاش دون عاطفة ؟ هكذا الفنان . إنه لا يفعل إلا أن يعبر
بريشته أو قلبه أو مقصده عن سعادته وآلامه وغضبه وجهه كرجل . وهو
يتميز عن الرجل العادي بموهبة المشاعر .. موهبة الشعور بقوة بما لا يشعر
به الناس عامة إلا بضعف . فالفن ينبع من فيضان القلب .. « اضرب قلبك ..
ففيه تجد العبقريّة » . (١٧) .

لقد وافقنا هنا على وجهة نظر الرومانتيكيين ، وما علينا لتوكيد ذلك
هنا إلا أن نختار مما كتبوا :

لا يصنع الفن إلا الشعر ، والقلب وحده شاعر ..
يملى عليه قلبه ، فيكتب .. هذا السيد الموهوب
لا يفعل إلا أن يطيع ، وأن يمد يده (١٨) ..

ويقول لا مارتين : « يبحث الشعراء عن العبقريّة في مكان بعيد ، في
حين أنها في القلب ، في حين أن بعض الأنغام البسيطة التي تصدر في هدوء
ومصادفة من هذه الآلة الموسيقية التي صنعها الله نفسه تكفي لتسيل الدموع
من عيون قرن بأكله » (١٩) . وهذه الجمالية النابعة من العبقريّة هي التي
تبناها موسيه منذ كتب « نامونا » :

اعلم أن القلب هو الذي يتكلم ويتأوه ...
وعندما تكتب اليد فإن القلب هو الذي يذوب

وسرعان ما نوضح لنا « ليلة مايو » أن أجمل آيات الشعر عبارة عن « شهادات فحسب » ، ويقول لنا الشاعر بالثر في هذه المرة إن ماهو ضرورى للشاعر هو العاطفة المحركة . . فعندما أشعر وأنا أكتب أبيتا ببعض ضربات القلب الذى أعرفه ، أكون واثقا من أن شعرى سيكون من أجود الأنواع . .

ولقد ظهر مثل هذا المذهب فى تلك الرومانتيكية الجديدة التى سميت « السريالية » . صحيح أن هاتين الحركتين فى الأدب لا تشابهان كثيرا إذا نظرنا إليهما لأول مرة ، فالقلب السريالى يوجه خاص يختلف تماما عن القلب الرومانتيكى . وخاصة بعد أن تدخل فى الأول كل من رامبو ولوتريامون وفرويد . ومع هذا فهين الاثنين شبه من حيث أولوية العاطفة ووجود نفس صيحة القلب التى تريد تحطيم قيودها ، فالشاعر السريالى الذى يريد أن يترك الفنان للكتابة الآلية ، لا يفعل هو الآخر إلا أنه « يطبع ويقدم يده » (كما قال موسيه) « للإملاء » الذى يملئه اللا شعور . أما « الشهادات فحسب » ، فإنها تصبح « تسكرعات فحسب » (إخراج هوا المعدة من الفم) . . . تخرج من « قلب يتكلم وبنأوه » ، أيضا . « أليس الشعر عبارة عن ارتعاش القلب الذى يقتصر لحظة على النافحات من أمور الحياة ؟ ذلك أن النفاضة غير موجودة ، لأنها عبارة عن شيخوخة القلوب التى جفت . وإذا كانت السريالية ماتزال تولى اهتمامها لأكثر القصائد ترنما قبل أكثرها صناعة وإتقاناً ، فذلك لأنها تلتقى بنفسها فى البحث عن ذلك القلب التائه الذى يبحث هو بدوره عن إشعاع الصور العذراء ؛ إذ أن الشعر الحقيقى ليس بمثابة تسلية يقوم بها صانع مجوهرات أو راقص ، بل هو كوكب عظيم يجتاز مناطق الأرض ويبعث حمى الغرام إلى قلوب يضيئها » (٢٠) .

هذا ، ولا أظن أن الشعر الحقيقى تسلية يقوم بها صانع مجوهرات أو راقص يلعب على الحبال . ومع ذلك فهين المشاعر التى يشعر بها الرجل

العادى وتلك التى يعبر عنها الفنان علاقة لا تدوم دائماً ولا تظل متينة ، وأقل ما يمكن أن نؤكد هو أن من الضرورى أن يمر وقت يطول أو يقصر ، بين تحرك العاطفة والعمل الفنى . . . وها هو ذا « جيد » بعدل من بيت شعر كتبه بوالو ، هذا الرومانتيكى ، هذا البيت هو

لكى تبعث منى الدموع ، عليك أنت أن تبكى

وبقول جيد : « لا . . . بل أن تكون قد بكيت . . . وان تكون قد توقفت عن البكاء . . . وهذا التراجع ضرورى لإيجاد النغمة الغنائية ونقل التجربة ، وهما شيئان ضروريان لوجود الفن وفى اليوم الذى ماتت فيه ابنة هوجو ، ليوبولدين ، كتب هوجو لزوجته خطاباً بنجده فى مقدمة قصيدة « فى فلسكييه » ، ومع هذا فالقصيدة التى يرثى فيها ابنته لم يكتبها إلا بعد عام من مروره بالآلام التى أحس بها كاتب إزاء موت ابنته . والصلة التى قامت بين جورج صاند وموسيه دامت من عام ١٨٣٣ إلى ١٨٣٥ ، وإذا كانت قصيدة « ليلة مايو » قد كتبت عام ١٨٣٥ ، فإن « خطاب موسيه إلى لامارتين » كتب عام ١٨٣٦ ليلة أكتوبر عام ١٨٣٧ ، وذكريات عام ١٨٤١ . إننا نعرف اليوم أن « أدولف » تصور غرام بنجامين كونستان بآنا لندسى . ماذا ؟ فى حين كان الأديب قد قطع علاقته بهذه الأيرلندية الجميلة منذ عام ١٨٠١ ، فإن القصة لم تكتب فى صيغتها الأولى إلا عام ١٨٠٥ ، وبشكلها النهائى قبل أن تظهر بقليل أى عام ١٨١٦ — إن هذا التأخر الوظيفى يصل إلى ما بين خمسة عشر وعشرين عام عند بالزاك وزولا ، ولذا فإن أحسن الكتب التى أوحى بها حرب ١٩١٤ ، مثل « صلبان من خشب » للكاتب دورجليس ، و« حياة الشهداء » لدوهاميل و« فيردان » لجول رومان . . . مؤلفات انضجت فى بطنه ، ولم تكتب حين كان الكاتب تحت تأثير صدمة لأحداث .

إن الاندفاع العاطفي ، مثله مثل الحمس ، ليس بحال من أحوال نفس الأديب . ولقد عارض انصار نظرية الفن للفن الفكرة الرومانتيكية في هذه الناحية ، إذ يصرح بانفيل بأنه لن يمكن أن تكون صانعا جيدا عندما تكتب تحت ضغط عاطفة حقيقية ، في نفس اللحظة التي تشعر فيها بها تماما ، (٢١) . لأن الاندفاع العاطفي يبعث القلق إلى حالة الهدوء اللازم لكي تمارس القدرات النقدية والإبداعية نشاطها . بل لأن حالة الارتفاع العاطفي ، مهما يكن نوعها ، تقضى على المسافات الداخلية وتسبب استحالة هذا الازدواج الخاص الذي يجعل من الرجل الذي لا يفكر في مصلحة خاصة تنبع من عواطفه ، شاعرا ، ولقد فهم بالذاك هذه الحقيقة ، ولطالما كررها حيث قال : « عندما يصاب فنان بسوء الحظ الذي يجعله مليئا بالعاطفة التي يريد التعبير عنها ، فإنه لا يتمكن من تصويرها ، لأنه هو الشيء نفسه بدلا من ان يكون صورة هذا الشيء . والفن ينبع من العقل لا من القلب ، فإن سيطر عليك موضوعك ، فأنت عبده ، لا سيده المسيطر عليه ، (٢٢) وتعبير أدق ، ينبثق العمل الفني في آن واحد ، في مختلف النسب التي يكون عليها ، عن العقل والقلب . على أن من الضروري ألا يعمل القلب على نحو قوة العقل ، وأن يمتلك القلب عاطفته بدلا من أن يكون هو مملكا لها ، ولذا فهو يتغنى بها فقط ، حين ينفصل عنها بطريقة أو بأخرى . ويقول آميل : « إن الشاعر يحضر ويتخرج على الآلام التي ين منها . لكنه يحيط بها كما تحيط السماء الهادئة بالعاصفة . والشعر خلاص من العذاب لأنه حرية ، وبدلا من أن يكون تحرك عاطفة ، يصبح مرآة العاطفة المتحركة ، يعيش في الخارج وفي أعلى ، هادئا . . . ولكي تتغنى بالآلام يجب أولا أن تكون قد شفيت منه ، أو على الأقل أن تكون في دور النقاهة . وما الأغنية إلا علامة الاتزان ، والانتصار على القلق والعودة إلى القوة (٢٣) .

إن من الضروري إذاً أن يكون الشاعر والقصصى ومؤلف المسرحيات قد أحسوا مقدما بجميع المشاعر التى يلصقونها بشخصياتهم التى أبدعوها؟ من الجائز أن نشك فى هذا . . . فهناك موريك فى كتابه « حياة راسين » يدعى أن راسين مؤلف اندروماك كان يدين بمعرفته للحب الذى يصوره بقوة زائدة لتجربة شخصية . لكن قد يكون فى هذا حكم جزافى لا يقل عن ذلك الذى يقول بأن بالزاك كان بخيلا قدر بخل شخصية جرانديه التى صورها ، وبأن دوستوفيسكى كان ماجنا قدر مجون شخصية ستافروجين ، وأن موريك نفسه كان شريكا فى وضع السم لنيريز ديكبرو . الواقع أنه ما من شيء يسمح لنا بأن نقارن بين راسين نفسه وشخصية « أوريسيت » أو « فيدر » أو « نيرون » ، ويقول بريمون هنا : « كم كانت دهشته وغضبه إن كان قد علم أنه سوف يأتى يوم تحرق فيه كل الشموع التى تضىء مسرحياته . . . » كان الناقد جول لومبتر فى هذه الناحية أشد حكمة حين قال إننا نكاد نفترض أنه إذا كان راسين قد صور العاطفة الجارفة أحسن تصوير ، والحب المرضى أقوى صورة ، فذلك لأنه أحس بها لحسابه هو . وما هذا بالامر الضروري ، بل يكفى أن يكون الشاعر قد درس فى نفسه البداية . . . وعند غيره . . . النهاية . بل إن من المسموح به أن نعتقد أنه قد تمكن من وصف الألم بكل ما أوتى من ذكاء وبعد نظر لأنه كان يفهمه تمام الفهم ، فى حين لم يكن هو شخصيا واقعا تحت تأثيره إلا بدرجة نصفية ، (٢٤) . صحيح أننا نجد فى أبطال مسرحية راسين ذكريات مجازفاته مع دوبراك ولاشامليه . . . ولكنه لم يكن يفكر إلا قليلا جدا عندما كان يؤلف مسرحياته . . . لأنه كان « مكانا » تسكنه شخصيات هرميون وروكسان وبالتاكيد أيضاً استير وجواد واجرين ونرسييس أو أكرمات .

فى الواقع أن هذه المخلوقات الخيالية لن تفرض نفسها بمثل هذه القوة إن لم يكن مؤلفها قد استخلصها من جوهره وغذاها بدمه . وهكذا فإن

التعليل الذي يقدمه لوميتز لا يمس مشكلة الإبداع المسرحي والقصصى
 الا مساسطحيا . إذ ليس من المؤكد أن يكون راسين قد بحث في الأحداث
 الجارية المتعلقة بالعواطف في عصره ليأخذ منها ما يمكن أن يصور به الحب
 المتطرف الذى صور به مسرحياته . والذى حدث هو أن فرجيل كان قد
 عليه أكثر مما عرفه به عصره على أن جميع المعلومات والوثائق لا يلعب
 إلا دورا ثانويا مهما رأى بعض النقاد غير ذلك . لقد ابدع راسين اذا
 شخصياته وخلقها بنفسه لأنه كان يحملها بين طياته أولا ، بل إنها كانت
 موجودة بكل قواها وقوتها في هذه «الآنا» العميقة التى تطفو فوق العمل
 الفنى ولا توجد أصلا ، أولا توجد إلا قليلا في حياته هو . يقول جوليان
 جرين : «إن من العجيب أن نلاحظ أنه ليست لى حياة تشبهنى .. وأنا
 لا أستطيع أن أقول هذا بصيغة أخرى ، لكننى لا أعرف نفسى من خلال
 اعمالى ، فهناك فى نفسى شخص آخر كان لابد له أن يوجد ، وهو لا يعمل ...»
 هذا الشخص الآخر ، أو بالأصح هذه الاشخاص الأخرى ، تتحقق وتتجسد
 فى أبطال القصة أو المسرحية ، مادام الخلق المسرحى أو القصصى غير
 يمكن إلا بناء على ازدواج داخلى معين .

ولقد كان راسين هو بنفسه شخصية أورست وفيدر وباجازيه وآثالى
 بهذا المعنى فقط . وبهذا المعنى أيضا تعرف كلوديل على نفسه فى الشخصيات
 الأربعة المختلفة بين بعضها البعض فى قصة «التبادل» ، وهى تلك الشخصيات
 التى كانت تنصف بعواطف تختلف عن بعضها البعض فى حياتها واكتشفوها
 هم بأنفسهم وفى أنفسهم حين خرجوا من الظلال وعاشوا عيشة مستقلة
 وانفصلوا ، كل على حدة عن مبدعهم المؤلف .

وكم كانت النظرية الرومانتيكية سطحية حينما قالت إنه يمكن أن يسكب

الشاعر ما في قلبه من مشاعر ... وكـم كان القول قولاً ساذجاً حينما أكدت أن عبقرية الشاعر تكفى بأن يعبر في الوجود اليومي العادي عن تلك الانعطافية القلبية المشتعلة الحساسة الرقيقة ... إن مالرو يعلننا أنه « ليس من الضروري أن يكون الفنان أشد حساسية من الهاوى ولو أن حساسيته تختلف عن تلك التي يوصف بها رجل عادي ... (٢٥) . هذا صحيح وإلا استطاعت أى عاملة في محل تجارى أن تكتب قصصاً أجمل من ذلك الذى كتبه تولستوى أودينكز . لكن لا ينبغي أن تقع أيضاً في مبالغه عكسية كما فعل ديدرو ، فإن أنت آمنت بما كتبه ديدرو في كتاب « تناقض المسرح » ، لوجدت أن « كبار الشعراء والممثلين هم أقل الناس حساسية . فـما الحساسية بالصفة التي يتصف بها العبقرى العظيم » ، (٢٦) . والحقيقة أن هناك رغم هذا القول من الفنانين من هم على جانب كبير من الحساسية، ومنهم من هم أقل من ذلك . على أن هذا ليس بالأمر المهم ، فالمهم حقاً هو أنهم يتمتعون جميعاً بما نسميه حساسية الفنان ، ونقصد بذلك الموهبة التي تمكنهم من التعبير عن مشاعرهم تعبيراً موضوعياً حتى ولو كان شعورهم هذا نابعاً أو غير نابعاً من قرارة نفوسهم . وهكذا يصبح الفرق بين المبدع والهاوى فرقاً في القدرة على البناء الفنى لافى قوة الحساسية . ولعل المثل الذى سبق أن ضربناه عن شوبير فى هذا الشأن من أكثر الأمثلة وأعماقها مغزى . « فقد تمكن شوبير من استخلاص مقطوعة «الازدواج» من حالة مشاعرية عادية للغاية حيث كان من بين معاصريه وأصدقائه كثيرون ممن كانت حياتهم الداخلية أشد وأعماق عاطفية من تلك التي عاشها هو بصفته موسيقياً كبيراً . على أن الشيء الذى كان ينقصهم والذي كان يمتلكه شوبير لأقصى درجة هو تلك الموهبة الخاصة التي تمكن الموسيقى والشاعر والمصور من أن يتعد عن حالة عاطفية ما . وأن يعامل هذه الحالة بصفته موضوعاً وأن يمنحها وجوداً جديداً أو كياناتاً جمالياً بمعاملة جد شكلية ، مطبقاً إياها على مادة نغمية أو تشكيلية معينة . » (٢٧) .

ولا ينبغي أيضا أن تصور في جميع الحالات دون استثناء أن الفنان يشعر أولا بالمشاعر لكي يعبر عنها بعد ذلك . إذ غالبا ما تعمل في نفسه عندما يقنأ بقدرتها على خدمته فنيا ، وفنيا لأقصى درجة . ويلاحظ أن نفس الظاهرة تنطبق إلى جانب انطباقها على المشاعر ، على الإدراكات الصحية أيضا ، فالمصور يتأمل منظرا ما يراه بصفته هو مصورا ، أى إن المنظر بالنسبة له عبارة عن لوحة . ونفس الشيء يقال عن المثال ، فهوى تمثاله في النموذج الذي يقع تحت بصره . وكما كان ليونارد دافينشى يجد الوحي في القمع والشقوق الموجودة في الحوائط القديمة فإن الموسيقي في حالة مطاردة الأفكار الموسيقية والبحث عنها يسمع نغما تقريبا أو ميلوديا تقريبية في ضجيج الشارع وأصوات الطبيعة وتغريد الطيور . وعن طريق التطابق أو التشابه يشعر الفنان بمشاعره في شكلها الجمالى ويتجه نحو شكلها الجمالى (٢٨) وبعبارة أخرى فإن الحياة النفسية للفنان تستقى معلوماتها من الأشكال الفنية العرضية أو التي يمكن أن تكون فنية . على أنه ليس للحياة العادية على الفن سلطة إلا بالقدر الذي يمكن أن يوجد بينهما تقابل شكلى يمكن (٢٩) . لا بد لنا إذا أن نقر الرأي القائل بأن هناك عواطف معينة وحالات نفسية معينة يشعر بها الفنان بصفتها ، وعداء يمكنه من تنفيذ الأعمال الفنية (٣٠) . ويتحول هذا الوعد إلى تنفيذ بحيث يتمكن الفنان من الدخول إلى مملكة الفن حيث يضى على المادة الخام التى قابها في الطبيعة نشوة ونقاء وأسلوبا ويجعل منها نماذج ذات خاصية معينة تصبح نماذج بشرية على نطاق عالمى ... نماذج وجديرة بأن تعيش - وكما يمكن أن يقول الأستاذ سوريو - قادرة على تبرير كيانها بنفسها تبريرا مطلقا ، (٣١) .

ويستمر الرومانتيكيون في المناداة بنظريةهم قائلين إن العواطف الكبرى هى التى تخلق كبار الشعراء . لكن ما كان هذا رأى الناس جميعا ، وما كان من المستحيل أن تعكس تلك الصيغة ، وأن تجد لنفسها معكوسة من يدافع

عنها . ها هو فعلا بالزاك في قصة «بنت العم يدت» يبين لنا أن شخصية المثال شتاينبك تتوقف عن إنتاج الأعمال الفنية في اللحظة التي يصاب فيها بالحب . ومدرسة الفن للفن من جانبها تعتبر الحب عاملا يضر بنمو الفن والفنان ، سواء أكان هذا الحب سعيدا أو تعيسا ، مشروعا أو غير مشروع ، وتلك شخصية فريدريك مورو في قصة «التربة العاطفية» ، للقصى فلوير يأمل ان يجد في الحب ، في وقت واحد حياة أكثر بريقا ، ومصدرا للخصب الفنى ويقول : « لقد كان في إمكانى أن أصنع شيئا بفضل امرأة أحبها ... » فالحب عجينة العبقرية والجو الذى تعيش فيه العبقرية ، وما كانت الأعمال الفنية الرفيعة الإنتاجية للمشاعر العليا ، (٣٢) لكن هذا محال لأن مورو هذا لا يفعل شيئا ويفقد شبابه فى لاشئ . لأن المرأة أدت به إلى الهاوية . والاخوة جونكور يحاولان إثبات نفس الشئ فى قصتى «شارل ديمائى» و «مانيت سالومون» : فالمصور كوروليس ، كان قد صمم على ألا يتزوج وهام حبا بأحد نماذجه . وأصبح نموذجه هذا عشيقته التى تزوجها فيما بعد ، وهنا انتهى فن التصوير بالنسبة له . ولم يكن تفكير بودليز وجوتيه وأوسكار وايلد بمختلف عن تفكير كوروليس هذا . ألا ترى أن المثلثة الصغيرة فى قصة «صورة دوريان جراى» ، لوايلد قد فقدت موهبتها كلها حين بدأ الحب يعرف طريقه إليها ؟ أما عن الرومانتيكيين فإنى أعتقد أنهم قد بالغوا فى الأمر وأساءوا استخدام أنفسهم لأنفسهم فيما يخص الأهمية التى أعطوها لحياتهم العاطفية ، كما فعلوا أيضا فيما يتعلق بحياتهم السياسية . فالواقع أن « من القدرة أن تجد من منتجى الأعمال الفنية التى تحتاج إلى الخيال من كانوا فى نفس الوقت رجال عمل أورا جالا يحبون الحياة المرححة بأوسع وأعلى ما تحوى هذه الكلمة من معنى . فن الممكن تماما أن تقع فريسة أولئك الذين يمثلون الأدب الشخصى ويبالغون فى الدور الذى لعبوه فى الحياة الواقعية فيما يتعلق بالعاطفة أو بالعمل (٣٣) .

لكن ما الأمر بالنسبة لموحيات الفن ؟ هل نعكس ما قلناه سابقا ؟

وما الحال وهؤلاء النساء اللاتي أحبهن الشعراء فأعطين لعبقريتهم دفعة ولنشاطهم الإبداعي مدداً؟ هل كان يمكن أن يكون دانتى هو دانتى دون بياتريس؟ ويتراوك دون لورا؟ أليس قصص بياتريس ولورا وغيرهما من نوعها تجارب أساسية كبرى؟ ألا تشهد هذه القصص بأن عاطفة الحب تصطبغ الفن وتقويه، وأن على الفنان أن يندمج في القوى الكونية التي ينبع منها حب المرأة وسر الخصوبة الذي يحيط به ويجعل من الرجل أداة للتعبير الفني فيخلق عمله، (٣٤) نعم ولا شك.. ولقد سبق أن أكدنا هذا، وسنعود إلى الحديث فيه مرة أخرى... لكن الرومانتيكية لا تستطيع استعادة ما فقدته لهذا السبب... أو أن رأيها في هذا يحتاج إلى تعديل جذري لكي يكون مقبولا، ذلك ان الحب لدى الشعراء - وقد أوضحنا ذلك - ولو أنه لا يصدر عن العقل - لا يشبه في شيء حب الآخرين. فالشاعر لا يحب من أجل الحب، لأنه يطلب إلى المرأة التي يحبها أن تثير لديه تلك النشوة وذلك الاختطاف، الذي يعاونه في خلق عمله، وأن تبقى عنده عليهما. هل نقول إن دانتى كان سعيداً حين أحب بياتريس؟ وماذا كان بودلير ينتظر من عشيقته مدام دي ساباتيه؟ لم يكن ينتظر إلا الإشعاع الدائم الذي تخلقه صورتها في عقله، وماذا كانت علة وجود ما تليدا؟ أن تتمكن فاجنر من تأليف تريستان. وعلى نفس الوتيرة كان «كوفت» في حاجة إلى كلوتيلدا ليكتب «نظرية في الفلسفة الوضعية»، فقد قال لها دون التفاف «إني آمل ألا يكون لديك أى شك جوهرى في الفعالية الفلسفية السعيدة التي أنتظرها من صداقتنا الابدية». ومن العيوب التي أخذت على جوته أنه كان دائم الهروب... أسفا... إذ لا يتزوج الإنسان من المرأة الجانب الذي تؤثر به على الأسلوب. ومع هذا فقد أحب جوته لهذا السبب، (٣٥).

الفن للفن

لقد سبق أن احتج فلوير ، قبل بروس وجيدوبريمون ومالرو وفاليري
 بمدة طويلة ضد ربط الفن بالحياة ، وبوجه خاص الحياة العاطفية للمبدع .
 ولقد كان الناس في عصر « لا هارب » يحبون قواعد اللغة . أما في عصر
 سانت ييف وتين فقد أحبوا التاريخ . ففي أى عصر يكون الإنسان فنانا ،
 ولا شيء غير ذلك ؟ أين تستطيع أن تجد نقداً يتم بالعمل في ذاته . . .
 وبقوة ؟ يقوم الناقدون الآن بتحليل البيئة التي ولد فيها العمل الفني والأسباب
 التي أدت إليه . . . لكن ما الأمر فيما يتعلق بالشاعرية اللاشعورية ؟ ومن
 أى شيء تنتج ؟ وما حال تأليفها وأسلوبها ؟ ووجهة نظر مؤلفها ؟ لأشياء . . .
 (٣٦) هذا حديث ذهبي . . . هل يتعين علينا إذا أن نتبنى كل الأفكار التي
 قال بها مؤلف سالامبو (فلوير) ؟ وهل من الضروري أن نتخذ مكاننا
 في نظرية الفن للفن التي كان فلوير أحد أبطالها الرئيسيين . . . تلك النظرية
 التي سادت الأدب قرابة قرن كامل في فرنسا وإنجلترا وألمانيا ؟ وإذا لم يكن
 من الجائز تبنيها ، فلأى الأسباب ؟

ما العمل إن أردنا ألا نخنق حياة الفنان عمله ، وألا يحول المؤلف
 الانتباه نحوه بدلا من أن يركز على فنه ؟ وسيلة واحدة : هي أن رجوه أن
 يخفى ، ومن هنا كان المبدآن القائلان بضرورة انعدام الشخصية في العمل
 الفني وجود المؤلف نفسه . وفلوير يميل إلى هذا من قبيل الحياء الطبيعي
 عنده فيقول : « إنى أشعر بالشمئزاز لا أستطيع القضاء عليه من أن اضع
 على الورق شيئا من قلبي » (٣٧) لكن هذا الاشمئزاز راجع إلى وثوقه بنفسه
 وبأنه فنان . . . إذ يقول للوزير كولينه إن العاطفة لا تصنع الشعر ، وكلما
 عبرت عن شخصك كنت هزيلا ، (٣٨) . . . وقد كتب لإحدى قارئاته
 يقول فيما يخص « مدام بوفاري » بعد ذلك بسنوات إنها قصة اخترعها
 اختراعا كاملا ، « لم أضع فيها من عواطفى أو من حياتى شيئا . هذا أحد

صبادئ ... ألا أكتب عن نفسي ، إذ يجب أن يرتفع الفن فوق العواطف الشخصية والشكوك العصبية الذاتية ... لقد حان الوقت أن نعطي للفن ، بطريقة لا رحمة فيها ، دقة العلوم الفيزيائية ، (٣٩) ولم تكن الإشارة إلى هذا الاستقلال العلى في الفن بشيء غريب في عصر الفلسفة الإيجابية ، ولو أنها لم تكن تعنى بأى حال من الأحوال انعدام الجاذبية الخاصة في الفنون ، فن الضروري فقط أن يتحول القصصى عن نفسه وعن مصلحته هو ليحولها إلى الآخرين ، ويقول فلوير أيضا هنا : « لا أريد حبا أو كراهية أو شفقة لو غضبا ... أما الجاذبية فهي شيء آخر ... لن يشبع منها الإنسان ... » (٤٠) .

والفن بهذا يكفى نفسه بنفسه ، لا هدف له إلا ذاته ، لكن ليس في هذا وسيلة لإخفائه بأن نضعه في خدمة أيديولوجية سياسية أو اجتماعية أو دينية ؟ يقول تيوفيل جوتييه عن الشاعر إنه « لا هو بالآخر ولا بالأبيض ، بل ولا بمتعدد الألوان ... وهو لا شيء ... لا يلحظ وجود الثورات إلا حين يخترق الرصاص زجاج النافذة » ، (٤١) . ويؤكد فلوير بدوره قائلا : « أبدا ... لا سياسة أبدا ... هذا فال ردى ... هذه قذارة ... ولن تألو الأجيال جهدا في أن تحتقر في قسوة أولئك الأفراد الذين أرادوا أن يكونوا على جانب من النفع ، والذين تغنوا لسبب ما » (٤٢) . لهذا هاجم فلوير قصة « البؤساء » ، هو جو رغم إعجابه به ، فقال « لا أجد في هذا الكتاب حقيقة ولا عظمة ... ويلوح لي أن أسلوبه غير سليم ، ومنحطا عمدا . وما هو إلا وسيلة لتلقى عامة الشعب ... وهو يريد أن يهتم به العامة ، متعمدا قاصدا ... وحتى أنصار فلسفة سان سيمون والملك فيليب ... وحتى أصحاب المقاهى لا يعجبون فيها بشيء . أين تجد العاهرات مثل فانتين ، وأرباب السجون مثل فالجان ؟ وأين القس الذى يطلب تبريك الساسة من أنصار عمه الاتفاق ؟ لقد كتب هذا الكتاب لحشرات الكاثوليكية الاشتراكية ، لجرثومة فلسفية إنجيلية ... وعظ يقول

«إن الانتخاب العام شيء جميل . . وإن من الضروري تعليم الجماهير، ولقد تكرر هذا (في القصة) لدرجة الملل الشنيع ، . . (٤٣)».

لا يمكن إذا إخضاع الفن لأي مذهب ، وإلا تدهور ، لا يمكن على وجه الخصوص أن يتقيد بقواعد الأخلاق العامة ، فإن كان هدفه يمثل الحياة فكيف «تبعد من الفن تصوير الشر؟ إن في هذا نقيا للفن نفسه» (٤٤) وفي هذا الإطار يصبح من الصحيح أن «الحقيقة الأخلاقية للفنان قائمة في قوة تصويره وفي حقيقته» (٤٥) لكن وظيفة الفن هي صنع الجمال أكثر منها تصوير الحياة ، فلنكن ينتج الفنان في هذا يجب أن يكون حر التصرف طبقه . وإن كان الأمر عكس هذا ، أي «إذا عمل الفنان باحثا عن هدف أخلاقي ، فإنه يقلل من قوته الشعرية ، ويمكن هنا دون مخاطرة ان نراهن على أن عمله سيكون رديئا» (٤٦) على أن الجمال يغير كل شيء ، وبحوى الشكل في ذاته حقيقة ومعنى أخلاقيا أرفع من ذلك الذي يراد فرضه عليه من الخارج ، وما دامت الفكرة قابلة بذاتها لأن تكون مشوبة بمعنى اجتماعي ما . فإن الشكل الجميل للعمل الفني يصبح بالضرورة وهو يعينه فكرة جميلة . وفي هذا المعنى يرى فلو بير «أن أخلاقية الفن تنحصر في الجمال ذاته . . . وليست هناك للفن موضوعات جميلة وأخرى قبيحة مادام الأسلوب وحده طريقة مطلقة في رؤية الأشياء» (٤٧) . وبتعبير آخر نجد أن الجمال يمتص الخير، وبصير علم الأخلاق تابعا لعلم الجمال .

وبحسن الآن أن نؤكد أن نظرية الفن للفن تحيط بوجدانية صحيحة للغاية ، ومن هنا لا يمكن مهاجمتها . فالفن في مجاله قيمة عليا ، والفنان صفتة كفنان يخدم المطلق الذي لا يقبل مساومة ما لصالح أي مطلق آخر ، والشئ الذي يحدد نشاطه هو الجمال الذي يهدف الفنان في إطاره إلى أن ينتج عملا، ولذا فهو لا يستطيع أن يخضع حين يعمل إلا لمطالب عمله ، ما دام الخير الذي ينطوى عليه العمل هو الهدف الأخير الذي يجب وحده أن ينظم

إنتاجه . فانت تنكر عالم الفن وحقيقة الفنان كفنان ، إذا أنت فرضت عليه ضرورة اتباع هدف آخر ، مهما يكن هذا الهدف زفيعا ، وعلى ذلك يصبح الضمير الأخلاقي هنا مرتبطا . . ولا شك أن القانون الأخلاقي هنا لا يهدف مباشرة إلى التصوير أو الكتابة ، ومع ذلك فهو يضع مبدأ أوليا يقول بأن من الردىء أن تحارب ضميرك ، فليس من حق الطبيب - ضميرا - أن يكون طبيبا رديئا ، وليس من حق الفنان كذلك - ضميرا - أن يكون فنانا رديئا . . لأن ضميره الفنى يرغب ألا يذنب ضد فنه ، فإن هو ، بناء على هذا ، خان حقيقته هو كفنان ، وخان ضميره الفنى ليعمل « فى إطار أخلاقى ، أو اجتماعى ، يكون قد تعدى على أحد الأشكال المقدسة للضمير الإنسان ، والضمير الأخلاقى نفسه بهذا القدر » (٤٨) .

يشهد الفشل الذى يصيب جميع فنون الدعاية على أن القيمة الأيديولوجية لا يمكن أن تضمن القيمة الجمالية ، وقد قال فلوير : « إنك حين تحاول إثبات صحة شىء ، تكذب » (٤٩) فالإنسان والحياة متباينان ومتعددان ، غامضان ولذا فإننا دائما ما نفسد الحقيقة عندما نريد جذبا إلى نهاية لا تنتمى إلا إلى الله وحده » (٥٠) . احذر إذا حذرا شديدا من أن تكذب نحو الشخصيات التى تصفها والاحداث التى تقصها . . « لقد أردت أن تعطى كتابك الذى بدأته دون تحيز لناحية ما - هكذا قال فلوير لقصاص هاو - نهاية تشيد بمبادئ المسيحية . . ومن هنا كان الفشل الذريع » (٥١) ولعلنا هنا نفكر فى الكلمة المشهورة التى قالها جيد من أن « الأدب الردىء يصنع من العواطف الجميلة » (ومن أن) أحسن النوايا هى التى تنتج غالبا أردأ أنواع الأعمال النفسية » (٥٢) . إننا نوافق على هذا تماما بشرط إضافة أن العواطف الرديئة أيضاً وبنفس درجة العواطف الجميلة ، توحى بأدب ردىء ايضا . أليست القصة السوداء اليوم ، فى تسع حالات من عشر ، مصطنعة رديئة ، مبالغاً فيها قدر المبالغة الموجودة فى القصة « الرديئة » التى كنا نقرأها قديما ؟ وهل يفوق نموذج الشباب الماجن الذى انتشر اليوم فى أفلام

السينما النموذج الذى نراه أيضا ممثلا لشاب طيب الخلق ، حسن السيرة ؟ وهل نقول إن أغلب الكتب التى تدق الطبول متحدثة بفكرة «موت الله» أشد حقيقة وقوة وأصاله من تلك التى كانت ترفع راية الدين ؟ .

إن المطالبة « باستقلال الفن ذاتيا ضد محاولات ضمّه لغيره أو إخضاعه لشيء ما أمر نوافق عليه ، لكن إرغامه على ألا يتبع الشخصية الخاصة أمر معناه تخطى الهدف ، وهذا شيء محال . وفلوير لم يدع بشيء من هذا رغم ما قاله فى صيغ بالغ فيها .. علما بأنه لم يأل جهدا فى تصحيح هذه المبالغة والتخفيف منها . فهو يقول : « لقد أسأت التعبير حين قلت لكم إنه لا يجب أن نكتب بقلوبنا .. كنت أريد أن أقول بأنه لا ينبغي أن نضع شخصنا على خشبة المسرح » ، (٥٣) . وهكذا يظل القلب محتبئا .. ولكنه موجود .. ولا يعلم القراء غير الموهوبين أننا نقدم لهم قلبنا ، وما زال جنس الجلادين حيا . وكل فنان جلاد ، يسلى الجمهور باحتضار الذين يشنقهم ، (٥٤) ومعنى هذا أن الفنان يستعرض نفسه ولا يكشف عن قناعه ، لأنه ، كالجلاد يتقدم مقنعا ، وهذا فقط لأن يكون من أولئك الذين يريدون عرض شخصهم فى العمل الفنى . لكن لماذا يحكم فلويير على تلك القصة التى تعرض عليه بأنها طيبة ؟ لأننا نشعر من خلالها بوجود أهم شيء ، نقصد الروح - الفردية ، (٥٥) هذه القصة التى كتبها الأخوان « جوناكور » ، هى قصة « مانيت سالومون » ، التى يهنتهما فلويير من أجلها فيقول : إنكما لم تحاولا أبدا أن تكونا أكثر من شخصكما ، وهذا هو الأساس (٥٦) وبالاختصار هناك فى الفن شخصية ذات سيادة موجودة تحت قناع اللاشخصية ذات السيادة ، إذ « يجب أن يوجد الفنان فى عمله كما يوجد الله قويا ، غير مرقى فى الخليفة ، نشعر بوجوده فى كل مكان لكننا لازاه » ، (٥٧)

على أن النطق بكلمة « أنا » فى الحقيقة ، وعرض « الأنا » خلال العمل ليس بالطريقة الوحيدة ولا بأكثر الطرق فعالية ، لى يكون الفنان

من أنصار انعكاس الشخصية . ويؤكد وايلد « أن ، كل مؤلف لابد وأن يرسم صورته هو . وينطبق هذا القول على الكلاسيكيين وأنصار الفن للفن — والرومانتيكيين على السواء ، وإذا كان ليكون دليل ، كبير أنصار الفن للفن قد كسا نفسه بلباس « الجمود » فإن الشعر الذي حمل اسمه للأجيال هو ذلك الذي يتردد فيه صدى التشاؤم والعدمية ، وكلاهما طابع شخصي يتميز به هو . ومهما يكن فلوير نفسه موضوعيا كما يقول ، فإنه ينثر في أنحاء قصة « مدام بوفاري » احتقاره لأسرة هوميه والبورجوازيين الذين تراهم في حفل جمع الحصاد . شخصية إيمما بوفاري شخصية يتجسد فيها كل اشتمزازه إزاء مجتمع عصره . و « الحقيقة الحزينة » في قصة « التربة العاطفية » جزء من قصه عاشها الأديب ، حيث أعطى الشخصية فردريك مورو حساسيته هو وانفعالاته هو ، وذاك الحب الملىء بالقدسية والهدوء الذي كان يشتهر به هو إزاء مدام شلسنجر ، التي صبغها بصبغة المثل الرفيع ، وأسمائها في القصة مدام ارنو . ثم إنه — حتى إذا لم نجد هذه الإشارة إلى الحياة الخاصة للأديب ، هناك النغمة واللهجة الخاصة ، وهما تكفيان لدفع العمل باسم كاتبه . انظر بوسوبه : « لا تجد عنده أى سر يسر به القارئ ، ومع هذا انظر تجد وجهه واضحا في عمله . وبالحال من شخصية . . تلك التي تتمكن من خلط الألفاظ وبناء الجملة وبعث الرنين فيها ، فتصل إلينا وكأنها كشف جديد وذلك كله قبل أن تصل الفكرة نفسها إلى عقولنا . إننا نعرف هذه التوافقات ، ونعرف ذاك النغم . . إنه نغمة هو . . فهو حين يتحدث عن أى شيء آخر يقول شيئا عن نفسه . . وعن نفسه فقط . . ألا يقول الجوهر . . وما يخصه هو بالذات ، تاركا في الظل ما يجعله يشبه الآخرين جميعا (٥٨) .

فإذا نظرنا إلى الحقيقة عن قرب فيما يخص فلوير ، لو وجدنا أنه لا يطالب بالألا يكون للفنان رأى . . لا بد له من رأى ، لكن الذي ننمعه منه هو أن

يقوم بتعليم هذا الرأى تعليماً مدرسياً ، أو - وهذا هو نفس الشيء - أن يفسر الحقائق وطبائع الشخصيات حين يقصد إلى تبرير رأيه هذا . لكنه يستطيع أن ينقله إلينا وهو يعرض الأشياء كما تلوح له ، (٥٩) بالاختصار فما دام الفن وما دامت الحقيقة سليمة فإن من حق الفنان - إن شئنا استخدام تعبير حديث - أن يعلن رسالته . لكن هل يستطيع الفنان حقاً - إلا إذا كان يسلي نفسه - أن يصف أبيات الشعر كأنصف حبات اللؤلؤ في خيط - هل يستطيع أن يعلن أكثر من رسالة واحدة ؟ إذا كان الإنسان يمارس فلسفة الميتافيزيقا وهو يتنفس ، أفلا يمارسها أيضاً وهو يكتب أو يصور أو ينحت أو يؤلف مقطوعات من الموسيقى لو حين يعد خطة بناء قصر أو مقبرة . إن اختيار الموضوعات والمبادئ التي يقبناها الفنان ، وكذا الموضوعات الشائعة في أعماله ، كل هذا لا يكتفى وحده لاستيضاح الاستعدادات العميقة للمبدع ، تلك الاستعدادات التي قد يحجبها هو . يقول سارتر : إن طريقة كتابة القصة ، وتنفيذها تعيدنا دائماً إلى ميتافيزيقية كاتب القصة .

وسارتر في هذا على صواب تام . أليس هناك من الأعمال الفنية الكثير ، ومنها ما هو على أكبر جانب من الأصالة ، وما كان منها تعبيراً واضحاً عن قصة داخلية أو مأساة روحية خاصة بالفنان نفسه ؟ مع هذا فإن فاليري ، وهو الذي يهتم كثيراً بضرورة الإبقاء على الفن فوق كل خطر يمكن أن يهدده ، يوافق على أن أكبر الأدباء عبارة عن « نسخ متباينة جداً من مواقفها مغزاها إزاء الحياة ، بدرجة لا نستطيع معها أن نفكر في أعمالهم دون أن نفكر في أشخاصهم » ، وهو بهذا يوافق أيضاً على أنهم « أكثر من أدباء » ، لعل أحسن موقف بهذا الصدد هو ذلك الذي وقفه عباد فكرة الفن للفن . ما هو الشيء الذي قاسوه إزاء في حياتهم ، هؤلاء الذين امتنعوا عن معرفة الحياة ؟ وأي احتقار مارسوه إزاء الحقيقة تخفيه

عبادتهم المطلقة للجمال ؟ ياله من جرح لا يداوى ذلك الذى يبحثون عن وسيلة لنسيانته في وسط النشوة الجمالية ؟ يقول فلوير في لهجة حزينة : « عندما تقرأ قصة ، سالامبو ، ، أرجو ألا تفكر أبدا في مؤلفها . ولن يرى إلا القلائل كم كان من الضروري أن أكون حزينا حتى أعيد قرطاجنة إلى الحياة » ، (٦٠) .

ما كانت وظيفة الأدب إذا أن تنصح بالآخلاق الحسنة ، هنا أيضا نجد فلوير وقد لمس المشكلة لمسا سلبيا ... حين لاحظ أن الفن لا يفسد إلا في سهولة كبيرة عندما يتحدد في إثبات شيء ما ، أو في الدفاع عن أى شيء كان . هل يتعين على الفن إذا أن يهمل وجهة النظر الأخلاقية أصلا ؟ وهل يصرف النظر عنها ويعاملها كما لو لم تكن موجودة أو قائمة ؟ ليس هذا بمؤكد ، إذ نطن قطعا أننا هنا من رأى رامون فرنانديز في الجدل الودى الذى قام بينه وبين جاك ريفير ، من حيث مساندة نظرية اللاأخلاقية الجمالية . هناك في الحقيقة تمييز يفرض نفسه ، ذلك أن « هناك علم أخلاق يدرك من ذاته ويدافع عنه لذاته . وهناك أيضا علم أخلاق يفهم كما تفهم قطعة أساسية من قطع تبحث في معرفة الإنسان وفي تعبيره ، . وسواء أراد الإنسان أو لم يرد فهو موجه نحو شيء لمجرد أن يعمل وبتنق ، موجه نحو ماذا ؟ لا تقل نحو الخير أو نحو الشر ، كما يقول الأخلاقون ، بل قل بصفته مشاهدا ، نحو بناء كيانه أو حله .. وإذا نحن نظرنا إلى تصوير الحياة بمعرفة القصصى أو الكتاب المسرحى « تحت هذه الزاوية لوجدنا أنه - أى هذا للتصوير - لا يمكن أن يكون دقيقا إن لم يتمكن من احتضان الحقيقة الأخلاقية كلها . ليس الأمر إذا أمر بناء سيكولوجى ، بل هو أمر حقيقة سيكولوجية ، فلن يكون مؤلف المسرحية أو القصة مخلصا إخلاصا كاملا للحياة إلا إذا كان قد حل شخصياته إلى هذه الدرجة من التوتر ، التى تعمل فيها الحياة على البحث عن معنى وعلى التردد في هذا وإعلان رغبتها في السعى وراءها ... بمعنى أن

تكون كل ناحية فيه ذات علامة خاصة. وهكذا تصبح وجهة النظر الأخلاقية، عنصراً ضرورياً في كل نظرة عميقة للإنسانية. . وليس الأمر هنا وعظاً بل هو دفاع عن اكتمال التجربة الإنسانية، وضد أى تفسير قد يكون من شأنه تحطيم الإنسان في حين نعتقد أننا نكشف عن سره. وعيب بروسث مثلاً لا ينحصر في دكونه من أنصار الأخلاقية واللاأخلاقية، بل في كونه يستقبل الحياة ويبقى عليها فوق المستوى الذى تظهر فيه الحقيقة الأخلاقية لأنه لا يدفعها إلى الأمام، في حين أن فلوير مهما يكن الأمر يكتب قصصاً كان يمكن أن تفقد الكثير من قيمتها لولا وجود العدم الأخلاقى الذى ترسم شخصياته عليها. . لأنه إذا لم تنتج شيئاً إنسانياً دون جذور مادية متينة فلن تنتج شيئاً إنسانياً يقدم لنا أزهاراً أخلاقية حتى ولو كانت هذه أزهار الشر. (٦١).

لكن لم توقفنا وسط الطريق؟ أليست ملاحظات فرنانديز قابلة للافتباك على الدين؟ إذا كانت هذه الظاهرة البشرية تتضمن ناحية أخلاقية؟ أليست تتضمن أيضاً - وهذا رأى مشروع - ناحية دينية، إن معرفة الإنسان معرفة كاملة تفترض إذاً إيجاد فتحة من هذه الناحية. نتيجة لذلك يجوز القول بأن قصصاً مؤمناً، ولنقل كاوليسكيا، قد يتمتع بميزة لا تنسك. هنا فهم ريفير أحسن مما فهم في فواح أخرى تلك النقطة الهامة، ولو أنك تشتم من تعبيراته رائحة المتدين الذى يزهو بتدينه. إنه يقول: «إن هناك نوعاً من السذاجة في كل أديب غير متدين، فهو يشبه دائماً إنساناً تخفى عنه شيئاً ويعرف ذلك... وهناك فكرة عميقة لا يلبسها... وحتى حين لم يعد الأمر أمر الدخول إلى سر الأشياء، أو حين يكون مشغولاً في مجرد خلق شخصيات وأحداث، وحتى في القصة يقدم إيمانه (بالمسيحية) إلى أولئك الذين يوحى لهم هو، وبصفة خاصة، وإن صح القول تقدماً في العمق، أولئك الذين يوحى لهم المسيحية؟ هل يعملون في حرص تام على ألا يزوروا

الحياة ؟ . إذا كانت الحياة التي يحيونها من خلال شخصياتهم تتضمن درسا فهم سوف يتمتعون عن شرح هذا الدرس وإفهامه الآخرين . يقول دى بوسى هنا قولاً رائعا : « إن استخلاص الحقيقة التي يجب أن تظل مرتبطة بمبدأ ما ، استخلاصها من الطبيعة البشرية ، معناه التحرك شخصيا كما تحرك الآلة إلهاء ، وذلك بحجة عبادة الله » . هذا التقدم في العمق يظل كبيرا جدا في هذه المادة الحية ، وتلك الحقيقة الإنسانية في الواقع تتقدمان إلى القصصى المؤمن الكاثوليكي بكل أحجامها ، وتمتد النواة المركزية ، النواة الإنسانية عنده في اتجاهين ، أحدهما إلى أعلى ، وثانيهما إلى أسفل على شكل أهداب مدلاة ، بعضها تحت إنسانية ، وبعضها فوق إنسانية . . . وليسمع القصصى المؤمن بالكاثوليكية في آن واحد نغمات هارمونية « باسو » (منخفضة) وحادة . . . أى زجرجة الحيوان الخافتة البعيدة ، وأبعد منها نغمات الروح التى تصلى فى داخل نفوسنا وهى تنن أنينا لا يوصف (٦٢) لا بد أن نوافق على ذلك . . . لكن أى عمل فى يثقل بأثقل حملة على الإنسانية ؟ هل هو عمل دوستوفيسكى أو برنانوس ، أو حتى موريالك ، أو ذلك الذى كتبه موريا أو دو هاميل أو جول رومان بعد أن جعل كل منهم من عمله هذا عملا غير دينى أصلا ، ونقاه من كل قلق دينى ؟ .

لقد تركت نظرية الفن للفن خلال المناقشة بعض آثارها دون أن نظرقها . ولقد كان هذا متوقعا ، فالفن الذى يدرك تجريديا فن لا وجود له ، كما أن الفنان الذى لن يكون إلا فنانا فحسب غير موجود فى هذه الدنيا . والموجود هو العمل الفنى الذى خلقه رجل فنان لن يتمكن التناقض الوظيفى القائم عنده من القضاء على الوحدة الجوهرية . وبالتالي لا ينبغي لنا أن نهضل بين شيئين المفروض فينا أن نميز بينهما فحسب . فلا شك — كما يقول ت.س. إليوت — « إن الشاعر يتعذب قبل كل شئ . بفعل حاجته لكتابة قصيدة ، (٦٣) . ومع ذلك فهو لا يشعر بهذه الحاجة إذا لم يكن لديه ما يقوله .

ولا شك أيضا في أن الفنان هو الذى يصنع العمل الفنى ، وأنه لا ينبغي له أن يقبل خلال عملية الخلق هذه أن يتدخل أى عنصر أجنبى فى الدفعة الإبداعية . لكن الفنان إنسان وليس من الضرورى أن يكون إنسانا عاديا يقدره حارس المنزل ويحبيه . وليس هو بالذى يمسك بالقلم أو بالفرشاة « يصنع الفن » ، بل هو ذلك الذى يمسك بهما لى يخرج - كما يقال عامة - « ما فى بطنه » من الأمور التى عاونه تجربته كإنسان ، بالقليل أو الكثير تبع للحالة ، فى نضج ما فى بطنه هذا . لهذا ، يصبح من الخطأ أن نطلب أن ينقطع الفن نفسه عن كل ما يحيط به ويغذيه ويمنحه الحرارة والطاقة فى الحياة البشرية . ومن الجنون إذاً أن نعتقد أن البساطة أو النقاء فى العمل الفنى تستند إلى القطيعة بين الفنان والقوى الحية التى تبعث الحياة والحركة فى الكائن البشرى ، وأن هذا البقاء يستند إلى حائط فاصل بين الفن من جهة والرغبة أو الحب من جهة أخرى ، على أن قوة العمل الفنى تعتمد على قوة الديناميكية الداخلية التى تولده « ونقصد قوة الخاصية الفنية » (٦٤) .

إن أشد أنصار نظرية الفن للفن تحمسا ، وأولهم فلوير ، لم ينتجوا أعمالا أدبية عظيمة ، إلا لأنهم خففوا فعلا من الحكمة التى كانوا يدعون لها قولا وقد كان هذا فى مصلحتهم . أما أولئك الذين فكروا فى اتباع هذه الحكمة حرفيا فلا شك أنهم كانوا يصلون إلى حالة العقم ، فالنشاط الفنى يذبل كما تذبل الشجرة المحرومة من الشمس والماء ، إن لم تغذه الدفعة التى تدفعه والمادة التى يمارسها الفنان من خلالها . وقد أفتقد فاليرى من هذا الخطر لأنه تردد كثيرا على مالارميه ، وقد اعترف مؤخرا بقوله : لقد اضطرت إلى ألا أؤلف فن الكتابة إلا قيمة تدريبية بحتة (٦٥) ، لكن لم الكتابة إذا؟ والكتابة عن أى شئ ؟ وهل يكون الشعر مجرد لعبة ، تستند إلى خصائص اللغة ؟ ، إن كان الأمر هكذا فلنلعب أو نحل ألغاز الكلمات الأفقية والرأسية .

أم أن الشعر وسيلة لإرغام العقل على إجراء عمليات شديدة التنفيذ ، محددة الصيغة ؟ إن كان هكذا فلنحل مسائل الرياضيات . وهل للشعر هدف أوحد ينحصر في أن يمجّد نفسه بنفسه ؟ إننا نعلم أن الموضوع الذي يتناوله الشعر ينضب بسرعة ، ومن هذا الشعور يأتي شعور آخر بالاختناق حين نقرأ قصائد مالارميه ، رغم مواهبه النادرة . فشعور مالارميه هذا يشبه حمامة يضاء تحمل بين أجنحتها بعض فلسفة « كانت ، وتريد أن تطير فتخطى طبقات الهواء وتقاوم ثقلها ، وتحاول الطير في الفضاء مهما يكن الأمر ، حتى لو أصابها الموت . وبالاختصار يكون « الفن إشعاعا يفيد بالتأكيد في حياة الجسد الفنى الذى ينتجه بفضل - أى بفضل الفن - نحو تحقيق إمكانياته بأعلى درجة من الكمال . لكن هذا الجسد يظل ثابتا بفضل جذوره ، ممسكا بالحقائق الحية والاجتماعية للكان وللجماعة . . . وإذا عمل الفن المستغل ذاتيا على أن يدفع « بالبوفارية » (مذهب فلوير في مدام بوفارى) إلى حد بعيد . وإذا اعتقد في ذاته بأن له علة وجود ، وادعى القدرة على قطع آخر الصلات التى تحتجزه ، وقطع كذلك آخر القنوات التى تغذيه ، وأصبح حراً فى أن ينظم نفسه حسب هواه ، فإنه لن يجد ما ينظم إلا فى العدم . (٦٦) .

بهذا يكون الفن قد تجنب هذا بأن عمل بطريقته هو ، وابتعد عن فكرة الفن للفن خوفا من أن يصاب بالعدم ، واقترب من الفكرة التى تقول بعكس ذلك . . . أى بأن يكون « الفن للإنسان » . يقول مارتيان - وهو على حق : « إن القيمة الفنية هى وحدها التى تتخذ مكانها ، لكن هذا يحدث عن طريق فلسفة عجيبة تربط بين تلك القيمة باعتبارها نابعة عن الإبداعية الشعاعية والعمل الشعاعى الذى يطالب بالسيطرة على الحياة الإنسانية كلها ويتخذ لنفسه وظيفة يعمل بها ليهيمن على مصير الإنسانية كلها . فقد أقام كل من بايرون وجوته وهوجو أنفسهم أبطالاً أعظم من الأبطال التى

صوروها في أعمالهم ، وادعى أرنولد أن الشعر يستطيع إنقاذ العالم عن طريق ممارسة جميع الوظائف الأخرى للعقل وعلى مستوى التعبير الشعري . ثم جاء عهد « الشاعر اللعين » ، ثم « صاحب الرؤية الأعلى » ، واكتشف الفنان أن مهمته إعادة خلق الضمير في مجتمع لا ضمير له . وهكذا أصبح الأديب قسا أو قديساً ، وأصبح البرج العاجي الذي كان يعيش فيه أصحاب الفن للفن ، معبد العالم كله معبد يتوفى وصخرة برومته ومذبح النضحية العليا . وأظن أن هذه الحقيقة ذاتها تتضمن تنفيذاً بطريق التجريد لنظرية الفن للفن ، (٦٧) .

الفن المتمزم

كانت نظرية الفن للفن بمثابة رد فعل ضد الرومانتيكية ، وقد نجم عن المبالغات التي تضمنتها رد فعل آخر ، فهبط الفنان إلى الميادين العامة بعد أن شعر بالتعب من وجوده في عش الذسر . . وأراد أن يحيا حياة الناس جميعاً ، وأن يسير جنباً إلى جنب مع إخوته ، وأن يتحدث إلى الناس بلغة البشر .

وكانت الظروف مواتية لهذا ، فكان القرن الذي يقع بين عامي ١٨١٥ و ١٩١٤ فترة هادئة نسبياً ، حيث كان في الإمكان مداعبة آلهة الشعر والفن والعيش بالقليل من المال وممارسة السياسة تسليية وإرضاء القارئ الجاهل بأي شيء . . . وأتت الحرب العالمية الأولى ثم تلاها الثانية ودخلنا عهداً ليس منه أي مفر ، تشوبه آثار الإرهاب والتهديد الذي يقع المستقبل تحت تأثيراته ، وجاءت الحركات الاجتماعية والعضوية العالمية ، واسعة عميقة ، تخلق للإنسانية مشكلات جديدة تأثر بها أشد الفنانين هدوءاً فلم يجد بداً من أن يعلن حياده ، ولو أنه وجد نفسه دائماً مرغماً على اتخاذ موقف معين وعلى

أن يلتقي بنفسه وسط المعركة. وأن يحتج ويتظاهر ويرجو ويقنع . واصبح
فنه سلاحه ، فأتت فكرة الفن الملتمز لتحل محل فكرة الفن للفن .

وفي وسط هذه الأحداث المترابطة ، لم يعد الفن هو الفن الأعلى الذي
يخضع لنفسه القيم الأخرى ، يريد امتصاصها . . وغدت مهمته ، على
العكس من هذا ، أن يحببها ويشرفها وينميها ويدافع عنها ويزيدها هبة
وجاذبية بأن يضفي ، عليها بريقا جماليا . وحين فعل الفن هذا لم يتنازل عنه
قيمه الذاتية ، بل ظل كما يقول باير ، بمثابة وضع القيم موضع التقييم .
إننا نرى منذ الآن في وضوح أن ذلك المذهب يضم بين طياته الأخطار
المضادة للمذهب السابق . وقد يكون من العبث ، أن نقف عند هذه النقطة
دون أن نسمح لنا بأن نوضح مشكلتنا بدرجة أكبر ، ونقصد هنا مشكلة
العلاقة بين الإنسان والفنان في مولد العمل الفني .

الفن من أجل الإنسان ، والمجتمع ، والشعب . . ماهذا بجديد ، فإن
نحن نظرننا إلى الأدب ، كما يراه الرومانتيكيون ، لوجدنا أنه ليس بوسيلة
لقضاء الوقت يمارسه إنسان يحب نفسه فحسب ، ويعيش منعزلا ، بل إنه
بمثابة رسالة في نظر الأديب . يرى لا مارتين أن مهمة الشعر هي نشر الحب
والحقائق والمنطق وعواطف الدين والحماسة بنشوته بين الشعوب ، (٦٨)
ويرى هوجو ، أن الفن للفن يمكن أن يكون جميلا ، لكن الفن للنقد
أجل ، (٦٩) ، وفن المسرح بوجه خاص لا يمكن أن يتخلص من هذه
الصفة لأنه هو الذي يصل إلى الجماهير بأوسع نطاق ، « فالمسرح منصة . .
والمسرح منبر ، والشاعر يأخذ الأرواح على عاتقه ويعرف أنه مسئول عنها
ولا يريد أن يطلب إليه الجمهور حسابا عما عليه في يوم ما » (٧٠) . وقد
مارس كل من دوماس الابن وجورج صاند نفس المذهب ، فكتبت
صاند تقول : « إن الفن اليوم اجتماعي بالضرورة » (٧١) . وكتب دوماس

الابن يقول : « إن كل أدب لا يأخذ في اعتباره نواحي السكّال والنصح بالاخلاق والمثل الأعلى والفائدة ، بالاختصار ، أدب مريض ، يولد ميتاً » (٧٢) وطبيعي أن يشجع الفلاسفة التحرريون مثل برودون وسان سيمون ولوى بلان ولا منيه مثل هذا الاتجاه ، باعتبار أن « العالم يتحلل ويدوب ... ويلقى دين المستقبل أضواءه الأولى على الجنس البشرى الذى ينتظر وعلى مصائره المستقبلية ... ويجب أن يكون الفنان نبياً » (٧٣) .

إلا أن معاصرينا الذين علمتهم التجارب لن يقبلوا هذه الحماسة بتلك البساطة ، فهم يرفضون في غالبهم - هذا صحيح - الانطوائية الفنية وعبادة الجمال لذاته والعزلة العليا التى حبس آباؤهم فيها أنفسهم ، وها هو ذا آراجون لا يحتمل أن يظل فى السكون مادام العدل موجوداً ، فيقول : « أيها الشاعر ، خذ قيثارتك .. نعم .. لكن مالك تسكت عندما تقرأ صحيفتك فى الصباح لتجد فيها هذا البله ، وتلك الدناءة التى لا تحتمل ، وعندما تشعر بأن الإهانة قد مسّتك أنت حين يحكم على بعضهم بثلاثين عاماً أو عشرة أعوام سجناً » لأنهم لم يفعلوا شيئاً غير أنهم احتجوا ضد الأحكام العسكرية ، ولأنهم ، على ما يظهر حرصوا جنود الاحتياط على عدم الطاعة ، (٧٤) . وارتباط الفن بهدف معين فى نظر أدباء آخرين ارتباط متنافى يبق أكثر منه سياسى ، فهم يتساءلون عن مصير الجنس البشرى فى مجموعه ، وقد نبذوا التحليلات السيكلولوجية ودقائق التأمل الذاتى فى الوقت الذى تحدونا فيه مشكلات أكثر خطورة . يقول مالرو : إن القصة الحديثة فى نظرى وسيلة لتعبير مبرز عن مأساة الإنسان ، لا وسيلة لإلقاء الضوء على الفرد ، (٧٥) وتجد نفس الرأى الذى يرفض الفردية الجمالية وبنفس التعبير عند ألبير كامى : « ليس الفن فى نظرى استمتاعاً هزلياً ، بل هو وسيلة لتحريك

أكبر عدد من الناس بأن يقدم لهم صورة مميزة للآلام ، والسعادة العامة ، (٧٦) . فإذا كان لدى الفنان ما يمكنه من الابتعاد عن الدخول في المعركة فإنه لا يستطيع أن يبتعد عن أن يشهد بما يرى ، ويؤكد جول رومان هنا « أن الأديب يجب أن يكون شاهداً على عصره ، . . والإدلاء بالشهادة - هكذا يؤكد دانييل روبس - أول واجبات الأديب ، على أن كل من يهرب منها « يخون مهمته الطبيعية في الحياة وعلة وجوده هو ، ويمكنه أن يكون « رجل أدب ، لا أديب .

والحرية في بلادنا الديمقراطية حرية يمتلكها الفنانون من حيث رغبتهم في الارتباط أو عدم الارتباط بهدف ما ، وفي اختيارهم لنوع هذا الارتباط . لكن ليس الأمر هكذا في الدول الدكتاتورية ، حيث لا تعمل الدولة ، حين تكون قوية ، على مقاومة الإغراء بسيطرتها على الفنون والآداب ، وقد فعل لويس الرابع عشر ذلك ، لكن قامت دول أخرى بأحسن من ذلك منذ هذا الوقت .

ولنذكر أن السيد شيلوف مثلاً قد نقد الأدب الغربي نقداً شديداً في مؤتمر المصورين والمثاليين الذي عقد يوم ٢٨ فبراير عام ١٩٥٧ فقال . « إن كل ما رأينا قد ترك فينا شعوراً بكابوس مرضى وبأذى يصيب حواس الإنسان وعقله . . حيث يجرى تشجيع حركة تحمل بين طياتها سم العدمية وترمى إلى إعداد المفسدين والقذلة من كل نوع ، مستخدمة في ذلك الدولار والفرنك ، وطبيعي أن يكون التصوير التحريري هو العدو الأول لهذا الاتجاه ، ويقول شيلوف في هذا « إننا لسنا في احتياج هنا في الاتحاد السوفيتي إلى هذه الألاعيب وتلك الوحشية الهدامة . « ثم يجد المتحدث - على العكس من ذلك - واقعية التصوير السوفيتي ، مع اعتباره كله تحت خدمة رفع المستوى المعنوي والروحي للكتل الشعبية ، (٧٧) .

وبالاختصار ، فإن الفن الفعال ، الذى تمتد جذوره فى الواقع التاريخى والاجتماعى هو الذى يعمل جامدا على فهم هذا الواقع وممارسته وتعديله . ولم لا ؟ إن ادعاء الجمالية ظاهرة حديثة الظهور ، ولكنها لم تنش طويلا لأنها تظهر فى جو خائق وضعف محدود الأفق ، ومادية قصيرة النظر ، لأن الموقف الطبيعى للفنان لا يتحصر فى أن ينسحب تحت خيمته . يدل على هذا أن القدامى والمحدثين من أمثال إيشيل وبندار وشكسبير وسرفانتس وبالزاك وتولستوى لم يكونوا من مدعى الجمال ولم يعملوا تتحكم فيهم آلة تسير ذاتيا ، وصحيح أن فرجيل كان شاعرا ملتزما حين كتب الجورجيات بناء على طلب أوجست ليمجد العودة إلى الأرض . صحيح أيضا أن الفنانين والأدباء فى العصور الوسطى وعصر النهضة لم يديروا ظهورهم للحياة . وأن داتى قد كتب الكوميديا بصفقتها تعلما دينيا ساميا لم يتورع فيها عن أن يشبع كراهيته ، وإن هولباين ودورير وكراشاشن وجرونوالد لم يكونوا غير مباينين - حين نعلم هذا اليوم أحسن مما مضى - بالمطالب التى أدت إلى حرب الفلاحين عام ١٥٢٥ ، وأنهم اشتركوا فى أحداث هذه الحرب ، كما اشترك بيكاسو فى حرب إسبانيا بأشخاصهم وبأعمالهم الأدبية . . . وحتى عندما يكون الأدب والفن تعليميا أو جدليا أو ساخرا ، فإنه غالبا ما يبقى على قيمته فها هو ذاك المصور الكاريكاتورى دوميه يعمل فى مجلة شاريفارى مدافعا عن آراء معينة دون أن يفقد بخمسه الفنى . وها هو ذاك اينسورفان دونجن بعد بوش وغيره ظلوا مصورين لهم قيمتهم لأنهم قدموا لنا أعمالا كاريكاتورية تصور أحوال المجتمع كما رأوه .. وديوان العقاب، ليفيكتور هوجو ، ليس بأقل قيمة من التأملات لنفس الشاعر رغم أنه هادف لا يقل فى هدفه عن أشعار السخرية ، والأسيرة الشابة « للشاعر شنييه » . مؤكدا أيضا أن الأعمال المرتبطة للشاعر ييجى مثل « النقود » والمذكرة المرفقة « وفرناند لوديه » تعادل غير المرتبطة منها مثل رجين نوتردام

« ولا تغل عن القبور الكبرى تحت القمر ، للشاعر برنانوس ، ولادشمس إبليس ، لنفس الأديب .

مع هذا ، فإذا لم تكن الفعالية معادية للجمال ، فإنها لا تتضمنها بأى حال ، بمعنى أن القيمة الاجتماعية أو الأخلاقية لا تخلق القيمة الحالية ، لأن الفن يبدأ بالشكل الخارجى للعمل الفنى ، وبالشكل وحده . فالكاريكاتورى دومييه لم يكن رساما عظيما لأنه كان من أعظم أنصار حكم الجمهورية ، بل كان عظيما بفضل الخط الذى عرف كيف يرسمه . ولم يكن برنانوس كاتب نشرات عظيما بسبب حبه للشرف والكرامة ، بل كان عظيما بفضل قوة التعبير عنده . فإذا كانت أشد المبادئ قوة وقدرة على إخراج الأفكار تساعد على إقناع القارىء أو المشاهد لمسرحية ما ، فإنها لا تكفى أصلا لإنتاج أعمال فنية كبرى . وإذا كان جوفينال قد قال إن « الشعر ينبع من النعمة » ، فإن جوفينال هذا شاعر لديه للقدرة على تحويل نغمته إلى شعر . . . وترجع قيمته إلى هذا ، لا إلى أنه ناغم . وإذا كان فيكتور هوغو وطنيا ، تغل وطنيته عن وطنية ديرويلد ، فإنه - لاديروليد - هو الذى ترك لنا أجمل الأشعار الوطنية فى الأدب الفرنسى ، رغم ضعف وطنيته هذه بالنسبة لوطنية ديرويلد . ذلك أنه لم يكن يملك قلبا تتردد أوتاره فحسب ، بل إنه كان كذلك يتمتع بموهبة عبقرية فى تنميق الشكل الشعرى . ولذا فإنه عندما دعت حكومة لوى فيليب لتأليف « نشيد » يمجّد ذكرى شهداء ثورة يوليو ، لم يكتف بترجمة شعور الجميع بل أبدع حقيقة شاعرية تندمج العاطفة فيها بسحر اللفظ ، وتتحول فيها الوطنية إلى جمال لتشارك فى الوجود المشع الذى لا يقبل الانهيار للأعمال الفنية . وقد نجح فى هذا لدرجة أصبح حب « فرنسا الخالدة » معها فى نظر الأجيال من الوطنيين ، غير قابل للانفصال عن تلك الموضوعات المنسقة تنسيقا بارعا والذى تتحدث عن الموت والمجد ، فى إطار شاعرى ملىء بالخشوع

الذى يصيدنا عند تشييع جنازة ضخمة، وبالألغام الدقاقة التى تهز أوتار القلوب والى تناوب فيها أنواع الرنين الخافت والرنين الواضح المرتفع، والى تذكرنا ولا شك بقبة قصر الباتقيون رمز الأزالة حين تضيئه نيران الشمس المشرقة .

وخلوص النية فى الفن ، مثله مثل الفعالية ، لا يؤدى إلى النجاح الفنى . ولذا فإن « أدب الشهادة » الذى يسرد لنا ما يرى ، وهو الذى تفرقنا به الأسواق منذ عشرين سنة ، لم يتعد - اللهم إلا القليل منه - مستوى القول العادى لحسب . ولا شك أن الذين كانوا قد رأوا أشياء معينة ، أولئك لهم حق ، بل ربما كان عليهم واجب يتلخص فى أن يقولوا ما شاهدوا من معسكرات إفناء الأسرى ، فمن أفران حرق الأحياء إلى تعذيب أفراد المقاومة . . . إن أوافق أيضا على أن يهتم كاتب ما بحالة « العمال القسسى » أو بمشكلة تشرد الشباب أو بالتعصب العنصرى أو بحالة قدامى محاربى الهند الصينية أو الجزائر . . . فمن منا لا تهمة هذه المشكلات ؟ لكن ما كان الشعر صياحا ، وما كانت القصة تحقيقا صحفيا . إن على القصة أن ترتفع إلى أعلى ، وإلا ماتت وسط الأحداث نفسها ، وإن هى كانت تحترق اشتعالا بفعل الأحداث ، فإنها سوف تكون فى الغد رمادا يلقى فى سلة المهملات . ومن هنا رغبة الكثيرين فى تخلص الأدب والفن من الارتباط والهدفية . مثال ذلك أن يكون ضمن آخرين ، الذى يرى أن من الضرورى الإسراع فى حماية الأدب من « الشهادة » ، وهى عدوه الأول ، (٧٩) . لسكنتنا لن نكون على هذه الدرجة من القسوة ، ولا بد لنا أن نقول بأن الشهادة ليست الوظيفة الوحيدة للفنون والأدب ، وأن العمل الفنى أو الأدبى لن يدوم إلا إذا وصل إلى مرتبة الأبدية فى الحال القائم ، وأن الأديب الذى يشهد على عصره يجب أن يكون أولا وفى خلال عصره شاهد الحقيقة ، وأن الفنان لن يرى فى عصره هذا إلا فرصة ومادة لعمل تكون فادته الأولى

هى الجمال ، مهما يكن إيمانه بمبدأ أو مذهب ما ، ومهما تكن تجربته . وإلا اتضح انعدام خلوص النية عنده ، لأن خلوص نية الفنان لن يتعلق بذاته أول الأمر ، بل إنه يتعلق بفنه .

وخلوص النية هذا ليس باليسير عندما تكون الشهادة شهادة تطلبها سلطة الدولة . فالشهادة والأصالة لم تكونا في يوم من الأيام خطيئة الشعر والتصوير الرسميين . فالقصيدة - الأغنية التى كتبها راسين بعنوان « عن شفاء الملك » ليست بأجمل ما كتب راسين . والقصيدة - الأغنية التى كتبها بوالو بعنوان « الاستيلاء على نامور » ليست بأجمل ما كتبه بوالو ، لأنهما كتباً دون « إيمان ، كبير . وعلى نفس النقط نقول إن الأعمال الفنية التى أخرجها المصور لوبران فى شبابه تدل على أنه اضطر إلى مخالفة طبيعته من أجل تنفيذ ما كان يرضى الملك العظيم ، ولو أن الضغط الذى يمارسه ملك يتمتع بالحق الإلهى (كلويس الرابع عشر) ليست إلا مجرد ملاطفة خفيفة يقوم بها الفنان لمجرد إرضاء مليكه . . . وخفيفة إن هى قورنت بما تفعله النظم السياسية الدكتاتورية من استمرار تطبيق نظريتها هى بقوة وانتظام .

ولقد كان إيمان المصور كوربيه بالثورة عميقاً يجرى فى دمايه بدرجة ظل معها مصوراً طليقاً حراً كفنان ، ونرى هذا فى لوحات « محطمو الصخور » و « الورشة » و « جنازة فى أورنان » وكلها نرى من خلالها اتجاهها نحو الدعاية والجدل . ومثل هذا التوافق بين الهدف والفن الحقيقى نادر ، لأن التعلق بأفكار ما ، وهى أفكار غالباً ما تكون غريبة عن الفن - تخلق لدى الفنان روحاً تجريدية تضر بالنوعية الملموسة للعمل ، ذلك أن العاطفية الكاذبة تختلط به ، ولا يصبح العمل بمثابة ثمرة تتغذى من الرحيق فى غموض ، وإن النية التى يعقدها الفنان نية « فوق تشكيلية » تفسد التأمل الداخلى الذى يفرض فيه أن يودى إلى الإبداع ، كما تفسد حكم أصحاب

المذهب المعين أنفسهم على العمل . وكلما تدخل الإيمان بمبدأ ما في حقائق الخيال والحساسية أوشك خلوص النية على أن يتوافق مع الكذب الفني وفسد العمل . الحقيقة أن فنون النازية من أشد ما عرفه هذا القرن سوءاً وإساءة للفنية عامة . . . ومعها أيضاً ذلك الفن الذى يسود الكنيسة بصفة عامة ، (٨٢) .

لهذا فإنه فى مجال الدين - لا يكفى الإيمان - بل وليس هذا الإيمان ضروريا لإنتاج عمل فنى إنتاجاً يعترف به ، ولا لإنتاج عمل دينى يعترف به . وفى بعض الحالات تكون الموهبة الإبداعية هى التى تنقص المبدع ، فنحن نعلم أن القديسة تريزا للمسيح الطفل قديسة أكثر منها شاعرة رغم أنها قرضت بعض أبيات الشعر . ومع هذا فإنه يحدث أحيانا لدى فنان حقيقى أن يظل أشد أنواع الإيمان دون فعالية فى فنه . ومع كل قالمهم للعمل ليس قيمة هذا الإيمان فى ذاته ، بل المهم توافقه مع القوى الإبداعية ، إذ كيف يترجم هذا الإيمان فى شكل صور محسوسة وطبقا للقوى التى تتبع من الأعماق فوق الشعورية ؟ هذا هو المهم . وما علاقته الجبوية بما يمكن أن يسمى « الإيمان الفنى » . . . هذا الافتناع بأنك خلقت لخلق ، ولتخلق فى اتجاه معين ، اتجاه غامض بلا شك لكنه عاجل وبمثابة ضرورة ، (٨٣) . إن عبقرية كاوديل تنمو فى الكاثوليكية وهى فى حالة من الخمول . هنا تختلط المبادئ بالمادة لأنها على ما يلوح - أى تلك المبادئ - ذات مصير يمكنها من تغذية نظرة كونية وشدة شديد يتجمع فيه وحى الفنان . لكن ليس الأمر هكذا بالنسبة لسكل الذين يتحولون من دين لدين مثلاً . وهنا تتساءل : هل كان إيمانهم أول الأمر ضعيفا بحيث لم يسمح لهم بالدفع الإبداعية القوية ؟ أم أن تجربتهم الجديدة لا تستطيع الاندماج فى تجربتهم القديمة ؟ وهل كان عالم الحقيقة الدينية هو الذى لم ينفذ إلى دنيا الحساسية والخيال عندهم ، باعتبارها الطريق الذى يؤدى إلى التعبير التشكلى أو اللفظى ؟

مهما يكن الأمر فإن العملية التي يتولد فيها الوحي لا تتم لدى الرجل العادي .
وحقائق الإيمان تظل دون أثر في حقائق الإبداع . ها هو ذا جوليان جرين
بعد عودته إلى الله ، تجده يستمر في تصوير نفس المواقف الغامضة ونفس
الشخصيات القلقة . وإن نحن أخذنا نعيب عليه هذا ، لرد علينا كما يفعل
موريالك بقوله : « ليس ذلبي أنني لم ألحق بجميع شخصيات ذات الفضائل » .
ولم يكن ذنبه « ما تروني » ، أيضا أن هبط مستوى مواهبه عند ما أخذ يمس
الناحية الدينية . وربما كانت المأساة التي انطوت عليها نفس مؤلف « الخطييان » ،
(ما تروني) راجعة إلى أنه أراد أن يعبر عن إيمانه بأداة شاعرية كان يمتلكها ،
وإلى أنه كان يفهم في قرارة نفسه مدى ضعف التوافق بين الناحيتين ، الدينية
والشاعرية عنده ، في حين أنه كان مصمما على بذل هذا الجهد باعتباره خادما
أمين الله كما كان يريد أن يكون » (٨٤) .

وعلى العكس من ذلك ، لا يمكن أن يكون الفنانون غير المؤمنين بدين
ما قادرين على خدمة الدين خيرا من المؤمنين . وليس معنى هذا أنهم
بالضرورة فنانون أعظم ، بل إن طبيعتهم الفنية هي التي تخلق عندهم استعدادا
أكبر لفهم واستيعاب تلك الفكرة أو هذا الحدث أو ذاك السر الذي
ينطوى عليه الإيمان لدرجة أن يدخل « في دماغهم » - كما يقول فيردى .
على أنه ليس للإيمان هذا أية سيطرة على حياتهم . ولقد لوحظ أن لوحة
« سانت فرانسوا دى سال » ، للصور بونار ، والمعروضة في كنيسة آسى من
بين جميع ما أوحى به فن التصوير القديس قس جنييف ، أكثرها انطباقا
على روح القديس نفسه ، وأن الواح الزجاج المصورة التي صنعها ليجيه
والموجودة في أودانكور « أشد أعمال الفن المسيحي منذ عشرين عاما
تأثيرا في الوجدان » ، وأن قبة كنيسة فانس كما صورها ما تيس « تدعو
القسس الذين يقومون بالصلاة إلى إطلاق تهمسهم الديني من معقله » (٨٥) .
وليست هذه الحقائق هي الوحيدة في هذا الإطار .. فقطوعة « الترتيل » التي

كتبها الموسيقى فوريه ولم يكن يؤمن إذ ذاك بشيء لا يقل قيمة ودرجة من الناحية الدينية عن مقطوعة «ترتيل» التي كتبها موزار وقد كان مؤمنا. أو لم يكن ديلاكروا أول مصور ديني في عصره رغم كونه ابنا طبيعيا لتاليران ، أى رغم أنه نشأ في بيئة رديئة ، ورغم أنه كان من المعجبين بفولتير؟ المعروف أن ديلاكروا كان ينتق بالغريزة أى منظر يتفق والموضوعات العاطفية والتشكيلية لفنه التصويرى : مثال ذلك لوحات «المسيح في حديقة الزيتون» ، و«الدفن» ، و«الصعود إلى المذبح» ، وسلسلة لوحات أسماها «المسيح يهذى» من ثورة العاصفة ، وكلها تستجيب إلى نفس الصيغة التي صورت منها لوحة «داتى وفرجيل في الجحيم» ، وعلى نفس الوتيرة كان ماتيس الذى صرح فيما يخص قبه التي صورها بقوله : «أريد أن يشعر كل من يدخل إليها وكأنه قد تنقى ، وكأنه قد تخلص من أوزاره» . وماتيس الذى يقول هذا هو بعينه الذى كان يصرح فيما يتعلق بالأزهار والباقات التي صورها في أعمال أخرى بقوله : «أريد أن يتذوق الإنسان المرهق المتعب الهدوء والراحة أمام لوحاتى» .

من العبث إذن أن نفرض على فنان غير مؤمن أى موضوع ديني . ولا بد أن يكون الموضوع محركا لعواطفه إلى أعماقها . هذا شرط أساسى ضمن شروط أخرى لا أحدث عنها هنا ، يتعين علينا — كما كان ديلاكروا يقول — أن نراهم من أجل العبقرية ، فيها ، ومعنى هذا أن كل فنان يمتلك بقدر فنيته نسبة معينة من روح التقديس تربط بينه وبين أمور الدين . ويعنى هذا أيضا أنه — في حالة انعدام الإيمان الدينى — يكون مزودا بمسحة روحية تمكنه من إدراك الحقائق التي لا يشترك فيها تفكيره المنطقى ، تلك الحقائق الوجدانية الحيوية التي تصبح بمثابة «إضافة خيالية» تحل محل الإيمان ، وأخيرا فإن معنى هذا أن «الموضوع» والذى يبعث إليه الحياة ويوحى إليه ويمنحه صفاته الخاصة لأنه هو الفنان الذى يتميز

بقدرات استقبالية متفرغة لذلك . . وبالاختصار ، فكما يقول ج . سمسون ، التصوير هو التطور ولو للحظة نحو ما كلف به الفنان أو كلف به نفسه أن يقول . فالذي لا يؤمن بمذهب ، الميلاد ، كمذهب يستطيع أن يؤمن به باعتباره موضوع عمل فني . . . فاليوم يؤمن الفنان بالميلاد كما كان بالأمس يؤمن بهذا الصحن ، المليء بالماء بالفاكهة . معنى هذا أنه يجب هذا المذود الذي ولد فيه المسيح ، وذلك التبن الذي ولد عليه ، وتلك العذراء وذاك الطفل يسوع . . ويوسف النجار وكل ما يحيط بحادث الميلاد . . يجب ما يمثله كل هذا في نظر الآخرين . . ويجب كل ما يمثله هذا بالنسبة له ، (٨٦) ويحبه لا يقصد الإبداع فحسب ، ولكن حبه هذا منبثق من روحه .

الفصل الثاني

الفن وعلم الأخلاق

يذكرنا هذا العنوان بنقاش قديم ، دائما ما يتجدد لأن الأعمال الفنية الجديدة تعمل على إحيائه . . . وهو يغطي مشكلات ثلاث غالبا ما تختلط فيما بينها . . . ولكنها في الحقيقة متميزة بعضها عن بعض رغم تضامنها كوحدة . أولا : هل يكون للفن وظيفة أخلاقية ؟ وهل يجب أن يكون علم الجمال غادما لعلم الأخلاق ؟ أم أنه يجب — على عكس ذلك — أن يتحرر منه ؟ أم أنه من الجائز أن يجمع بين الدعوة الأخلاقية والجمال الفني ؟ وبأى حد وبأية شروط ؟ لقد بحثنا هذه المشكلة في الفصل السابق .

والمشكلة الثانية هي أن الفنان إنسان رغم كونه لا يختلط بالإنسان ، ولذا يتعين عليه أن يقوم بعمله كإنسان ، وأن يتابع الهدف الذي خلق لكل حياة بشرية ، وهي تحقيق الخير الأخلاقي . فهل يساعد النشاط الإبداعي على تحقيق الخير أم لا ؟ لقد سبق أن قلنا أن الضمير الفني يأتي من الضمير الأخلاقي . ومع ذلك فإنه لا يكفي أن تكون فنانا جيدا لتكون رجلا طيبا . بل وأكثر من ذلك فإن للإبداع الفني مطالب معينة بحيث يجوز أن يدفع المبدع إلى إهمال واجباته الأخرى . وهذا التضارب في الواجبات مصدر محنة يئن منها الفنان ، وسندرس هذه الناحية حالا حين نعرض للعلاقة بين الفن والدين . فالواقع أن الناحية الأخلاقية تنحصر في الله بصفته خالق الطبيعة البشرية ، وبصفته نهاية قصوى ، وبالتالي منظما عظيما للسلوك البشري . وعلى كل فإن هناك تضاربا بين الأهداف العليا .. الله أو الفن .. هذا التضارب الذي يقع خلف

تضارب الواجبات ويبعث القلق الشديد .. قلنا أشد من هذا التضارب بين الواجبات ، لأقصى درجة .

أما المشكلة الثالثة فهي لا تتعلق بالمبدع نفسه ، بل إنها تخص الهاوى ، إذ أنه ما دام الفن موجها للجمهور ، فهل يكون تأثيره في أخلاقه حسنا أم رديئا ؟ وهل يعمل الفن على تصويب أخلاقنا أم على إفسادها ؟ وهل يكون الاستمتاع بالأعمال الفنية الجميلة عقبة في سبيل ممارسة الفضيلة أم إنقاذاً لها ؟ لا شك أن الرد على هذا عسير عند ما لا يحوى العمل الفنى إلا عناصر جمالية بحتة ، فللعمل موضوع ومعنى واتجاه عاطفى أو أيديولوجى . ومن هنا نتساءل عما إذا كان أخلاقيا أم لا أخلاقيا بصفته عملا جميلا . ويمكننا أيضا أن نتساءل عما إذا كان محتواه غير الجمالى يكتسب أو يفقد من قيمته الأخلاقية لى نعامله معاملة جمالية . نستطيع أن نقول فى هذا إن أى موضوع لا يمكن بالضرورة أن يكون موضع تحقيق فنى ، — وإن احترام الجمهور للعمل الفنى وللفن نفسه يفرض على الفنان قيودا معينة .

هذا هو مجموع المشكلات ، وكلها نسبية بالنسبة لمستخدمى الفن ، الذين نرى أن من الواجب أن نفكر فيهم هم ، وهنا يرى البعض مثلا أن تعريض بروتينير إلى الكثير من الهجوم لأنه أصبح عتيقا ، يؤدي إلى رفع قيمته ، لكن لا بد أن نلاحظ أن بروتينير هذا قد مثل في يوم من الأيام حالة من التفكير لم تختف بعد ، هذا بالإضافة إلى أنه خلق حقيقة أنارت الكثير من حقائق أكثر صحة (١) ... ولطالما تعبت خلال شبابى من سماعى لما قاله عنه أساتذة كانوا على جانب كبير من الطيبة .. لكن من هنا ، كان عندى حساب صغير .. أسويه معه ..

إرانات تشريرة

طرد أفلاطون الشعراء من جمهوريته ، وهاجم بوسويه في كتابه «حكم عن المسرحية الهزلية ، المسرح بوجه خاص ، واعتبرت نيكول «صناع القصص ، كأنهم «واضعو السموم للجماهير ، لا في الأجسام بل في النفوس» .
وانهم روسو في «خطاب عن المسرح ، وسائل التسلية الفنية يافساد المجتمع .
هكذا نرى أن الفن يصطدم من قديم الزمان بشكوك علماء الأخلاق لدرجة خطيرة . وحتى إلى بدء هذا القرن ، وجد برونثير وسيلة لتأكيد هذا الاتجاه ، فكتب يقول : «إن هناك في كل صيغة وفي كل نوع من أنواع الفنون مبدأ أو جرثومة خافية تدعو ضد الأخلاق . لاحظ أني لا أحدثك هنا عن الأنواع المنحطة من الفنون ، عن الأغنية أو كونشرتو المقهى مثلا ، أو عن التمثيلية الإباحية أو الرقص ، بل إنني أحدثك عن الفن العظيم . . عن أعظم الفنون . وأقول إن هناك جرثومة لا أخلاقية تنمو دائما في الفن العظيم ، على أن هذه اللاأخلاقية «موجودة في قلب مبدأ الفن ذاته» ، (٢) .

لعلنا نتصور أنفسنا في حلم ، إذ أنه مادام الأمر يتعلق بالفرقة بين «فن عظيم ، و«فن منحط» ، أقول بدوري إنك تعرف مثلما أعرف أنا أن هناك من أغاني كونشرتو المقهى ما هو بريء . أما التمثيلية الإباحية فإن شئنا أن نضع إحداها مثل «قبعة إيطالية من القش» ، في إطار الأخلاق لكان هذا شيئا ينطوي على التدقيق الذي لا مبرر له . وهل يستحق الرقص على الأقل ، أن نتدب به ؟ إن من الجائز أن ينطوي باليه الأوبرا على مزايا - ومزايا لا أستطيع شخصيا أن أحقرها - لأنها تعمل على الارتقاء بالروح ... هذا ما أنا واثق منه ، (٣) . لكن المشكلة أكثر من هذا تعقيدا ، فأخلاقية الرقص تعتمد إلى حد كبير على العادات والتقاليد ونوايا الراقصين

ولقد قال آلان قولاسيليا لاحظ فيه ، أنه لا ينبغي أبداً أن نحكم على الرقص إن لم نكن نعرف كيف نرقص نحن ، (٤) . أما عن باليه الأوبرا ، فسواء عمل على الارتفاع بالروح أم لم يعمل ، فإنه يستند إلى استعدادات المتفرج .

وإذا كانت أنواع الفن التى توصف بأنها منحطة ليست مفسدة للأخلاق ، فمن قبيل المنطق أن نقول إن الأنواع العليا لا تستحق هذا الوصف ولن أذهب إلى جد القول إنه كلما ازداد الجمال ازدادت الأخلاقية ، ونحن لا نوافق دون تحفظ على أن ميزة « الفن العظيم » هو أنه يصور ما يلهمه حتى ولو كانت المادة من أحقر ما يمكن أن تكون ، إذ كم من الأعمال الفنية الكبرى لا يمكن أن تقلق بال رقيب شديد الحرص . أليس هذا شأن الآثار المبنية الكبرى أن تدخل ضمن « الفن العظيم » قطعاً ؟ إننا لم نسمع عن معنى يبعث القلق إلى الضمير أو يوحى بأفكار رديئة أو بأعمال قبيحة . ونفس الشيء ينطبق على الموسيقى الكبرى ، إذ هل يمكن أن يوجد داعية من دعاة الأخلاق ضيق الأفق لدرجة يقول معها بحسن نية إن باخ وموزار وهندل وبيتهوفن وفراىك يدسون السم للجماهير ؟ أما التصوير والنحت فهما مبعث شكوك فى هذا المجال بسبب بعض الموضوعات التى تتناولها . لكن المصورين والمثالين قد طرخوا موضوعات بناءة غير منافية للأخلاق بنفس القدر تقريباً الذى طرخوا به موضوعات غير بناءة : فهناك لوحات دينية ولوحات تاريخية ومناظر عن حياة الريف والحياة المنزلية وصور أفراد ومناظر للأشياء الجامدة .

ما هو الخطر الذى يهدد الأخلاق العامة نتيجة لأعمال ماسا كيو وجبوتو وأنجيليسكو وماملنك وفان إيك وجريكو ورامبراندت ولونان وشردان ؟ إن الأدب — ووجه خاص أدب القصة — يفرض علينا أن نلقى نفس

الأسئلة . لكن هل من السليم أن نضع « روبنسون كروزو » و « العلاقات الخطيرة » و « أوغسطين » و « مزيفو النقود » في نفس المستوى ؟ إننا نقهم سبب عدم إمكان هذا ، فبدلاً من الصياح في وجه الفن ، يجدر بنا أن نفحص الأعمال الفنية من جميع الفنون في مجموعها ، وسنرى أن ما يضر بالأخلاق منها ضئيل في مجموعه .

على أنه إذا كان من المهم أن نميز بين مختلف أنواع الإنتاج الفني فمن الضروري قبل هذا ألا نخلط بين الأخلاقية ورجال الأخلاقية ، فهؤلاء يميلون إلى التشدد ، ويرجع تشددهم هذا إلى « التشوه المهني » ، أو إلى المبالغة في التحمس ، إلى تضيق التفكير أو الادعاء بنصرة الحق . ويحدث هذا بوجه خاص حين يكونون من أنصار الكلاسيكية الفرنسية ، المليئة بجرائم مبادئ أوغسطين وكاوليسكية بور رويال والاشاؤمية ، وأحياناً — كما هي الحال عند روسو — بجرثومة كراهية المجتمع ... وكل هذا ينطوي على ملابسات رديئة لا تساعد على إصدار أحكام صحيحة عن الفن والفنانين . أضف إلى هذا أن برونثير ، على ما يلوح ، كان فريسة للعقلية البالية النافهة التي تميز بها عصره ... ذلك العصر الذي كان يأنف من أن يدعو القط قطاً ، والذي كانت مسائل الحب والحقائق الجنسية مسائل محرماً على الناس الحديث فيها .. عصر كان نزلاء الأديرة فيه يبعدون عن الأديرة لأنهم اهتموا بقراءة « تأملات » لامارتين (٥) ، وكان زواج الفتيات يتم دون أن يعرفن حتى معنى كلمة « الزوج » ؛ ومن المؤكد قطعاً أن حرية الأخلاق اليوم وحرية الملبس واللغة التي نراها في أيامنا هذه مصدر أخطار قد يكون من الخطأ عدم الاهتمام بها . على أن هذا لا يمنع من أن تكون « النقائية » المبالغ فيها شيئاً يختلف عن الأخلاقية ، وأن لهذه النقائية أخطاء تؤخذ عليها .

ولم تكن آراء نيومان بأقل خطأ على ما أعتقد من آراء برونثير ، ولو أنه ينادى برأى آخر ، فهو إذ لا يندد بالفن عامة باسم الأخلاق ، يرى أن من الممكن أن تفيد الأخلاق من الفن ، وأن تتخذ شريكاً لها في تربية الشباب . على أن الآداب غير الدينية مثلاً وبوجه خاص تستطيع أن تؤدي للشباب ، مع أخذ بعض الاحتياطات الضرورية ، خدمة جليلة لا يمكن أن يقدمها العالم لهم ، يقصد أن تعرفهم هذه الآداب بالإنسان على حقيقته وعلى مختلف ألوانه فما كان كل شيء جميلاً في الإنسان ، هذا شيء أكيد ، لكن لا بد أيضاً من معرفة الشر يوماً من الأيام ، ومعرفة الشر هذه تأتي عن طريق الأدب بأقل تكاليف . فما كانت الجامعة ديراً أو صومعة ، بل هي مكان يعد للحياة الدنيا ، حياة الناس وأناس الدنيا ، ومن غير الممكن حرمان الشباب عندما يحين الوقت من الاندماج في الحياة بكل اتجاهاتها ومبادئها وأحكامها ، لسكتنا نستطيع تحذيرهم مما لا يمكن تجنبه ، فما كان الإنسان بمستطيع أن يسبح في مياه مائجة إن هو رفض النزول إليها ، فإن نحن أبعدنا كل ما يتعلق بالأدب غير الديني وحذفنا من مكتبات المدارس كل ما يعبر عن طبيعة الشر ، لوجدنا أن ما أبعدناه وحذفناه ينتظر ، حياً نابضاً على أبواب قاعات الدرس ، ومن أجل فائدة تلاميذنا .. فإن نحن قيدناهم بدراسة حياة القديسين ، أمصوا وقد اندفعوا نحو بابل ، (٦) .

أى شيء إذا يقال .. ونحن نفهم هذا .. أى شيء بمعنى أن التلاميذ لا يمكن أن يوضعوا وديعة لدى أى شخص ، لكن لا بد من جرعة كبيرة من الاستخفاف أو النفاق لكي ندعى بعدم وجود كتب أخلاقية وأخرى غير أخلاقية . لا بد من القول بأن القارئ هو الذى يجعل منها ما هو أخلاقى أو غير أخلاقى وفقاً لصورته هو . فما من شك أن لا أخلاقية

الفن ترجع أساسا إلى الطريقة التي يفهم بها الفن نفسه . على أنه من التناقض أن نؤكد كل شيء طاهر بالنسبة لمن كان طاهرا ، أو أن من غير الصحيح أن النظرة القذرة تستطيع أن تضع القذارة في أي شيء . فالأخلاقية الشخصية للهاوى عنصر له دخل كبير في الأثر الذي يتركه العمل الجمالى فى الفرد ، والحال هنا فى الفن هو بعينه الذى نجده فى الحياة ، حيث نرى عاهرة تثير مختلف أنواع الانطباعات ، فهى تثير هنا جاذبية إعجابية ، وهناك قذى واستياء . . . الجائز ان تكون الأعمال الفنية النقية مصدر أحلام دينية . فأى شيء يمكن ألا يكون موضع نقد من تمثال أبولون البلفدير ؟ فقد قال أحدهم : عندما أتأمل هذا التمثال أشعر بأنى فى حالة طيبة . ويمكن مع هذا أن يذهب مريض بمرض جنسى ما ، وليدور حول ذلك التمثال ، وقد ملأت رأسه أفكار غريبة . وهكذا نجد أن الفن عرضة للدنس . على أنه ليس على الفنان أو على عمله فى هذا مسئولية ما (٧) .

وما كان أحد منا نقيًا نقاء تاما ، ولذا فمن المحال تجنب الحكمة دائما . ومع ذلك فإن من خصائص القلب النظيف ، أو حتى ببساطة تامة من خصائص العاطفية المنتظمة ألا تبحث عن الشر حيث لا يوجد ، ونحن نعلم على أى حال أن برامة النظر شيء يتضمنه التأمل الجمالى ، فإذا كان المتأمل فردا غير عالم بأمور الفن فهو يذهب مباشرة إلى ما يتمثل ، فى اللوحة أو الرسم أو التمثال ، ولا يعرف أن هناك فرقا ، مثلا ، بين صورة امرأة عارية وامرأة خلعت ملابسها فعلا ، ويقدر قيمة الصورة بصفته هاويا لللذات الجنسية ، والحريم ، .. هذا الحريم ، الخاص الذى يملأ خياله . أما العارف بالفن ، فهو على العكس من ذلك يتمسك أساسا بخصائص الخطوط والألوان والأشكال . وكلما أخذته النشوة حيالها

توقفت رغباته الجنسية ، ومعها كل الرغبات الأخرى ؛ لكن يحدث هذا لدرجة تنسيبه جسد المرأة هذا ، إذ يجوز أن ينزلق إلى رؤيته كفنّان ، شعاع غير نقي ؛ على أن رؤية الفنّان هذه تتناسب تناسباً عكسياً مع الشعاع غير النقي ، بمعنى أنه كلما ازدادت قدراتي وثقاقتي ورفعت من حساسيتي إزاء آثار الفن ، ازدادت قدراتي على التخلص من موضوع اللوحة أو القصيدة أو القصة أو المسرحية ، وازدادت حصانة ، نتيجة لهذا ، ضد الضرر .

وللربط بين الفن والأخلاق ، فقد لا يكون من المفيد التحدث عن التطابق الميتافيزيقي بين الجمال والخير ، فهذا التطابق لا يرى بسهولة في العالم المرتجل ، بل إننا نشعر به شعوراً لا أصل واضح له . ألا يقال إن هذا العمل طيب ، أو جميل ، على حد سواء ؟ ألا نقول أيضاً إن الرذيلة قبيحة ؟ لهذا فلن يكون من الممكن الفصل بين القيمة الأخلاقية والقيمة الجمالية ما دامت بينهما رابطة ، ولقد ذكرنا الآن أن التأمل يخلصنا من التفكير البذيء ، وإن ذكر أيضاً أنه يخلصنا كذلك من سوء الخلق والكبرياء والحسد والحقد وكل الخطايا الرئيسية ، لأن الكائن الذي يهرء الجمال كأنّ تطهر من رذائله . وأصبح محبوباً حبيبا ، وسنرى حالا أن الإدراك الفني يفترض وقوف المدرك موقفاً غير هادف . ماذا إذاً يمكن أن يكون أقرب من الأخلاق غير اللاهدية ؟ صحيح أن هذه اللاهدية لا توضح وجود كرم الأخلاق إلا من بعيد . ألا يمكن إذاً أن تكون ، على الأقل ، صورة أولى ، أو بتعبير أدق ، مرادفاً وشكلاً ملموساً في مجال ليس هو المجال الأخلاقي ، ولكنه يشير رمزا إلى الناحية الفنية ؟ بلى ... لأنه ، حين يتخلص الإنسان من مصلحته الخاصة ولو بضع ساعات ، وينسى مشاغله بتفاهتها ، فإنه يتطهر ، وبالتالي يصطبغ بصبغة الأخلاقية .

وهكذا تكون الأعمال الفنية التي يدن لها بهذا منظوية أساسا على عنصر أخلاقي خفي ، أكثر منه لأخلاقي ، حتى ولو كانت هذه الأعمال لأخلاقية بما تحويه ، ورغم ما يدعى به بروتير .

كتب بارس يقول : إن هناك عنصراً أخلاقياً في الرعشة الناتجة عن الجمال ، ولكي تكون الأشياء مكتملة الجمال ، لابد وأن تكون منظوية على الخير ، (٨) ؛ فالأعمال الفنية خيرة بالعواطف والأفكار التي تحملها إلينا دائماً ، وهي هكذا أيضاً وقبل كل شيء لأنها جميلة . ونحن لا نجعل الأثر الذي تمارسه علينا البيئة الاجتماعية وما يحيطنا من محيطات ملموسة ، على أن للأشياء الجامدة روحاً تجد طريقها إلى روحنا ، فتنشئ من حولنا جوا يفرض علينا أوزانها الجوهرية ، ومن وجهة النظر هذه ، نقول إنه ليس من قبيل الهراء أن نفتتح أعيننا كل يوم على منظر عظيم أو قمم جبال تغطيها الثلوج أو آفاق البحار ، وليس من الأمور عديمة الفائدة أن نعيش وقد أحاطتنا مبان فاخرة وأثاثات قيمة ولوحات لكبار أهل الفن . وبهذا يصبح كل عمل فني عظيم نداء يستخلص منا ما يشبهه ويحيطنا به ويضعنا على مر الزمن في وضع نتعيش من خلاله مع لوحة من روائع سيزان أو براك أو بيكاسو ، وكلهم ينتهي بهم الأمر بالانتصار عليك . إنني أفهم هنا أنه لا يمكن الادعاء بحب الفن . وأن التربية الفنية لا تحل محل التربية الأخلاقية ، لكن كيف ننكر مع هذا أنه إذا كان هناك تقابل بين مختلف مجالات العظمة والانحطاط ، فكيف يستطيع هذا التقابل أن يعيدنا لهذا ، أو بالأحرى أن يساعدنا على ذلك ؟ .

كرامة الخواص

إذا كانت الفكرة التي نناقشها فكرة لا قيمة لها إلا بالنقاش الذي يبررها ، فمن الضروري أن ننقل إلى عرض البواعث الحقيقية لها . إذا لماذا - يقول برونتيير أيضا - يكون الفن غير أخلاقي من واقع تكوينه الداخلي ؟ لأن كل تعبير فني يضطر ، لكي يصل إلى النفس ، إلى أن يلجأ إلى الوساطة ، لا واسطة الخواص فحسب . . لاحظ هذا جيدا . . بل اللذة الحسية . فما من لوحة مصورة إلا وكانت قبل كل شيء مصدر لذة للعيون ، وما من موسيقى إلا وكانت بالضرورة ممتعة للأذن ، وما من شعر إلا وكان ملاطفة ، (٩) .

لكن بناء على هذا يصبح تقدم الفنون بمثابة الزيادة في نسبة الفساد . . فالخواص تزداد رقة أو بالأحرى تشخذ وتصبح أشد دقة ومطالبة بما هو أكثر ، لأنها في حاجة إلى كمية أكبر من الإثارة لكي تتمتع بكمية أكبر من اللذة ، وهكذا نلاحظ أنه منذ حوالي خمسين عاما تعلمت عيوننا كيف تتمتع بالألوان بدرجة أقوى من ذي قبل ، هذا ما يجوز إذا أن يكون على الأقل أحد دواعي تقدم التصوير في مجال المنظر الطبيعي ، على أساس أن العامل الأكبر للمنظر الطبيعي هو الضوء أو اللون ، وهو اللذة الحسية المطلقة ، أو التي تكون أول الأمر مطلقة ، تلك التي يقدمها لنا ذلك المنظر الطبيعي . هذا معناه أنه لا ينبغي أن نترك أنفسنا فريسة لسراب ما ، لأن كل هذا ، في الواقع لا يتعلق بالحساسية ، بل يتعلق بالحسية ، ولا أخالني في حاجة إلى الإلحاح في قول هذا ، (١٠) .

إن في هذا إلحاحا ولا شك . وكفى بنا هزلا ونكته وتعصبا للتصوير

«لذة العيون ، هذه هي جريمته . هذا الرعب البشع إزاء كل «لذة» وكل «ملاطفة» .. كما لو كانت لوحات الدنيا كلها شيطانية ، قد يؤدي بنا بطريق رد الفعل إلى امتداح الميل الجنسي .. لكن يحسن أن نكون جادين وأن نكتفي باقرار تلك الحقيقة ، وهي أن الأخلاق الطيبة تسمح بالقول بأن لذة الحواس ، مثلها مثل اللذة الروحية ، ليست رديئة في ذاتها ، ولو أن هناك من الملذات ما هو أرفع منها ، ويجب في أغلب الأحيان - هذا أمر مؤكد - أن نفضلها عليها . ومع ذلك فهي - أى اللذة الروحية - خير في مجالها ، وما دام الإنسان لا يصبح عبداً لها ويمكن البحث عنها والوصول إليها بصفتها هذه ، على أن قيمتها الأخلاقية تستند إلى العمل الذي يبعثها ، وإذا كان العمل في ذاته طيباً أو غير ميال ، فإن اللذة تصبح طيبة ومشروعة . أما إذا كان هذا العمل غير أخلاقي فإن اللذة تصبح غير أخلاقية ، وبالتالي غير مشروعة ، ومن هنا كان الخطأ بين المحسوس والحسي ، بين لذة الحواس ولذة الجنس ، على أن لذة الجنس لا توجد إلا بوجود اللذة الحسية الآتية من الإرادة وبصفتها هدفاً نحاول الوصول إليه على حساب القانون الأخلاقي ، ويؤدي بنا إلى القيام بأعمال يجب قمعها ويحولنا عن أهداف أسمى من طبيعتنا ، ويعرض مصيرنا الروحي للخطر . لا شيء من هذا في التصور حين يكون موضوع اللوحة غير رفيع ، إذ هل تعتبر خطيئة أن تحب الورد أو تستنشق عبيره أو تعجب بألوانه ؟ لماذا إذاً القول إن هناك خطيئة أو استعداداً لارتكاب خطيئة حين نحب وروداً صورتها لوحات رينوار ، أو أزهاراً رسمها ماتيس ، أو عباد الشمس كما صورته فان جوخ ؟

هذا وتختلط الروحية الفاسدة بالتعصب لدى برونتير ، ومن الجائز أن يكون قد ورثها عن فلسفة التحديدية ، وعرفها من خلال الأفلاطونية التي أسمى تفسيرها ... فهو يميز بين الروح والمادة بصفتهما متعارضين قد تعارض

الخير والشر ، على أن الجسد ، وقدامتج بالمادة يكون قد أصبح سجننا تظل الروح فيه أسيرة ، وعلى أن الحواس ، وقد قيدتها أعضاء جسدية في ممارستها لدورها ، تشارك في القضاء على كرامتها - أى كرامة الروح - لكننا نعرض على هذا التضارب العصبي ، توجهنا تجربتنا في هذا ، فلا شك أن كون الإنسان مخلوقاً يتجسد فيه شيء له عيوبه ، لكن المادة ليست رديئة بهذه الدرجة ، ما دامت مندا للروح ، وليس للجسد عيب ما ، ما دام هو الأداة لوجودنا في الدنيا وإزاء الآخرين . ولا ينبغي احتقار الحواس ما دامت ضرورية لتوجيه أعمالنا ، وما دامت هى التى تقدم لنا المعلومات وتنظمها . أما أنها تعرقل حياة الروح ، فهذا قول غير سليم ، لأن حياة الروح هذه لا يمكن أن توجد بدونها . وهل يفعل الحالم أكثر من استعادة الصور التى تلقاها عن الإدراك الحسى ، ثم ربطها بعضها ببعض ؟ وهل يستطيع المتصوف أن يعلم ما يحدث في نفسه إن لم يكن قادراً على تفسيره بلغة الحواس مستعينا في هذا بالرؤية ، والأصوات الداخلية والذوق والمسة الروحية ؟ أى خير يأتى لنا عن طريق أعضاء الحس وقد شذبت . . . ويا للنسكة إن هى أصبحت عاجزة . يا لبؤس الأطفال الذين يولدون عميانا . . . إنهم محرومون من الاتصال بالأشياء وبالناس ، ويعيشون عيشة الحشرة قبل أن تفقس من بيضتها مالم تكن هناك كوة تضى حياتهم المظلمة . إن حجارة القبور تضغط على نفوسهم ، وما هذا خطأ المادة ولا خطأ الجسد أو الحواس .

إننا ندين لحواسنا بكل شيء ، لأنها هى التى تكشف لنا عن الجمال ويكفى هذا السكى نولها عظمة روحية عليا . والواقع أن الإدراك الحسى وسيلة فحسب في اللذة الجمالية ، تعمل على تحريك أعماق الإنسان ، فالموسيقى وهى لذة الأذن تحرك مشاعرنا بواسطة الأذن ، أو كما سبق أن قلنا ، تحرك قلب قلوبنا . والتصوير وهو ملاطفة العين هو - كما يقول ديلا كروا -

« قوة ساكنة تستولى على قدرات النفس كلها ، (١١) وعلى كل ، فهل هناك لذة ملووسة لا علاقة لها إلا بالحواس ؟ . إن الإدراك ، حتى لدى الحيوانات يتطلب عادة تدخل الذاكرة ، فمن باب أولى ، لدى الإنسان ، حيث نجد أن الإدراك الجمالى يختلط اختلاطا عميقا بالفهم العقلى ، بشرط أن تفهم العلاقات بين الحس والإدراك العقلى ، ولذا فإن الفنون الجميلة لم تتم وتنقدم بفضل الحواس المدربة عقليا ، وعلى وجه الخصوص ، بفضل حاستى السمع والإبصار . أما الذوق والشم ، وهما الحاستان اللتان لم تفيدا بالإدراك العقلى بهذه الدرجة ، فإنهما لم تعطيا فى الفن أى ثمرة تقريبا . إلى أوافق على أن لذة التدوق فن . . لكنه فن ثانوى . أما العطور فهى لا تعاون على إيجاد فن على الإطلاق ، فالسيمفونيات العطرية التى يعزفها شخصية ديزسانت فى قصص هويسمانس لا تخرج من قصصه . وإذا كانت رائحة الأشياء تشغل المكان الذى نعرفه فى أشعار بودلير . حيث يقول :

وكأرواح أخرى تسبح فى الموسيقى
روحي يا حبيبتي تسبح فى عطرك

فهذا لأن هذه الرائحة تثير فى الحال عنده صورا بصرية كثيرة :

وأنا أسير بفضل عطرك نحو أجواء جذابة
وأرى ميناء مليئا بقلاع وصوادر

هذا ولا ينبغي أن نغيب على بروتير أنه لم يفهم فن عصره ، فهناك آخرون كانت مهنتهم هذه ، ولم يفهموه أحسن منه . على أن تطور فن التصوير لم يؤكد على ما يظهر ما نلنبا به إلا جزئيا ، فالألوان وقد تحررت تدريجيا من الشكل الخارجى ، تستخدم بدرجة متزايدة ، منذ الانطباعية

إلى الوحشية ومن التعبيرية إلى بعض التجريديين . . . تستخدم من أجل قدرتها على إحداث صدمة . غير أن التسكينية كانت بمثابة عودة لتشدد قبله تجريديون آخرون . وها نحن أولاء اليوم نرى « مؤلفين » في الفن ، أصابهم الجنون لدرجة كبيرة ، بحيث إنهم إذا أضافوا إلى فنهم شيئاً من الإدراك الحسى بعض الشيء لما أساء هذا إلى فنهم ، هكذا نرى . لكن هل كان هؤلاء من أنصار الأخلاق ؟ إنى أشك في هذا . وصحيح أن للون تأثيراً سيكولوجياً لا يتكرر ، لدرجة أن البعض قد فكر في استخدامه في العلاج النفسى ، على أساس أن الأحمر منشط ، والأزرق مريح والأخضر مهدى . . . لكن هذا التأثير يظل في مرحلة ما قبل الأخلاقية . فهو يستطيع تبعاً لاستعدادات الشخص أن يوحى بأفكار واندفاعات متباينة تماماً . فالرمادى في ذاته إذا ليس بأكثر طهراً من الأصفر ، والبنفسجى ليس بأقل خشوعاً من البرتقالى ، والللمسة اللونية المحايدة ليست بأشد طمأننة من لمسة ساطعة . . . اللهم إلا إذا لم يكن اللونان الذهبى والقرمزى في غروب الشمس لونين أزادهما إله التعصية للألوان ليغضب علينا (؟) . فيما عدا هذا الفرض لا يجب على هواة التصوير والموسيقى أن يقلقوا إذا ما « أصبحت حواسهم تطالب بدقة أكثر وتتشدد أكبر » ، وإذا ما طالبوا بالمزيد من اللاتوافق و « النشاز » الذى كان من الممكن تماماً أن يكون كصدمة شديدة لأجدادهم . فإنهم كانوا في حاجة لمزيد من الإثارة لى يشعروا بنفس كمية اللذة التى كانوا يشعرون بها من قبل فهم على حق ، وإن يكون من العادل مقارنتهم ضمناً بمدمنى المخدرات الذين يزيدون من الكمية التى يتعاطونها للحصول على نفس الأثر .

على أن المنحدر الذى يقع بين الملموس والمحسوس أو الجنسى ، منحدر قد تنزلق فيه قدماً من يسير فيه ، ويتعين على كل فرد هنا أن يحدد لحسابه هو الحدود التى ترسم بينهما والحرية التى ترسم بها وحول هذه النقطة

أترك الحديث لعالم لا هو قى كانولسكى : « هناك فى جمىع طبقات الفن أعمال صحيحة تحمل جمالا حقا ، لىكنها فى نفس الوقت تثير ثملا جنسيا ، ولا يعنى هذا أنها دنسة ، لأنها على أية حال لا تبعث فىنا تلك الاستقلالية الذاتية التى تصف بها الجنسية ذات اللذة القبيحة ، دون أن نصفها بأنها طاهره بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة . وتشوب هذه الأعمال جاذبية خطيرة من الناحية الجنسية ، لأنها تستطيع أن تمارس إغراء شديدا ، فإذا وجد الرجل النقى الطاهر إزاء أعمال من هذا النوع ، كان عليه أن يتخذ هذا الموقف أو ذاك ، تبعاً لأنه يريد مناهضة الإغراء أو البقاء فى حالة من البرود إزاء الناحية الجنسية ، أو أكثر من هذا ، تبعاً لأنه قد فتح نفسه أو لم يفتحها فى مجال الفن فهو إما ألا يرى فى هذا إلا جمالا فنيا ، دون أن يحركه شىء آخر ، وحتى إذا بقى بعيدا لدرجة ما من هذه الأعمال ولم ينطلق كلية ودون ميزان ، وإما أن يشعر وهو أمامها بشهيق اللذة الجنسية حارا ، كخطر يهدده ، وفى هذه اللحظة طبعا يعمل قدر الإمكان على تجنب الاتصال بمثل هذه الأعمال ما دام ماتحويه من نواح فنية يختلط بالإغراء الجنسي .

« والحالة المضادة لهذه التى تحدثنا عنها هى تلك التى تضم أعمالا فنية تحمل فى طياتها العظمة إلى أقصاها ، وتدفع بالجمال إلى أرفع درجاته . . . هذه الأعمال التى تنشر نورا سماويا على هذه الدنيا وتلوح كالوكانت قد بدأت تفتح لنا أبواب الجنة . هذا الجمال يوجد فى أقصى المكان المضاد للتفاهة وعدم النقاء ، وهو ليس بنقى فى ذاته ، بل هو ، بالإضافة إلى هذا باعث للنقاء . . . وما ان يحدثنا عمل فى بهذه اللغة ، حتى تحتفى جميع أخطار الإغراء الذى قد يوحى لنا بها ، مثلاً جسدا بلا ملابس . وهذا الجمال يبعث أيضا الشلل فى صوت حوريات اللذة ، اللاتى قد يرفعن أصواتهن نابعة من عنصر مادي بحت . إن مثل هذه الأعمال الفنية ، يمكن أن تكون

غير ضارة بالنسبة لإنسان يتمتع بقليل من الروح الفنية . لكننا في هذا المجال نضطلم أحيانا كثيرة بتحفظ مؤسف ، أى بنوع من أحكام نقدية تستند إلى قواعد كافية على الإطلاق ، فلا يلاحظ أصحاب هذه الأحكام أن هناك « فنا مستعارا » ، عاريا عن الطهر تماما رغم أنه لا يبين في مادته أية علاقة بالدائرة الجنسية ، في الوقت الذي توصف فيه أعمال فنية بذينة بأنها مشوبة بجمال رفيع ، بحجة أنها تضم شخصية عارية — كما يحدث في الفنون التشكيلية ، أو بحجة أنها تشير خفية إلى مجال اللذة بشكل أو بآخر . إن هذا النوع من النقد لا يستحق أبداً أن يوصف بأنه كاثوليكي وهو نوع لا يمكن التوفيق بينه وبين الاتساع والعظمة والحقيقة التقليدية التي تتصف بها الكنييسة المقدسة (١٢) .

تطهير الانفعالات

سواء أكانت لذة الحواس منصبة أم غير منصبة على التلذذ الشهوى فإنها تنبثق عن الرؤية والاستماع المباشرين ، حين ننظر إلى لوحة أو إلى تمثال . أو حين نستمتع إلى مقطوعة موسيقية ، ويتذوقها الخيال بطريق غير مباشر حين نقرأ قصة أو قصيدة شعرية . ومع هذا فالآداب يدير جانبه نحو ما أخذ آخر فهو سواء أكان مسرحية هزلية أم مأساة ، قصة أم رثاء أو ملحمة ، يتخذ من مشاعر الإنسان الطبيعي وغمائره وعواطفه مادة له . في أى مستنقع إذا ينوى هذا الأدب أن يفرقنا ؟ الواقع أن الطبيعة البشرية غير طيبة ... وبروتبير يؤكد هذا دون مواربة فيقول : إن الطبيعة البشرية لا أخلاقية ، ولا أخلاقية أساسا ، وأستطيع أن أقول لا أخلاقية لدرجة أن أى أخلاقية ليست بوجه ما ، وفي أصلها الأول بوجه خاص ، إلا رد فعل ضد الدروس أو النصائح التي تقدمها لنا الطبيعة ، (١٣) .

ينتج عن هذا أنه كلما كان العمل الأدبي مطبقا لحقيقة الطبيعة البشرية

ساعد على إيجاد اللاأخلاقية ، وينتج أيضا أننا نخضع أنفسنا حين نبالغ في الدور الذي تلعبه المادة في إيجاد الجمال . لكن ما علينا إلا أن نذهب إلى الأعماق ، إلى الجوهر ، وسنرى أن كثيراً من الأعمال الأدبية التي تبدو طيبة تضم قصصاً قبيحة في نظر علم الجمال ، فإن نحن جردنا مسرحيتي رودو جون لسكورني وباجازيه لراسين من الشعر الذي يصورهما ، وأبقينا على جوهر القصة نفسها ، فماذا يبقى ؟ لاشيء غير حكاية امرأتين ظلنا في مكاهما من تاريخ الجريمة والوقاحة ... ولعلنا نعرف بهذا الصدد أن جرأة راسين في اختيار موضوعاته ، وفي حرية المشاهد النفسية وفي تفاصيل أسلوبه قد أصبحت تعادل أو حتى تتعدى ، كل ما تصورته الرومانتيكية والطبيعة من جرأة فيما بعد (١٤) .

إن العداء الذي يبديه برونتيير لحركة « الطبيعة » في الأدب ، يرتبط جزئياً بميله نحو التعصبة التشيعية . . فإذا كانت طبيعتنا ، كما يقول في النص المذكور آنفاً ، لا أخلاقية أساساً ، فمن أين تأتي الأخلاقية ؟ وإذا لم تقدم لنا طبيعتنا غير النصائح الرديئة ، فمن أين نأخذ فكرة رد الفعل ضدنا وقوة مقاومتها؟ وهل يمكن أن يكون للأخلاقية سبب خارج عنها ، أو أن تكون كشفاً لها أو مجموعة تمثيلات جماعية تشرب بها المجتمع ؟ وكيف تستطيع الأخلاقية أن تصدر لنا أوامر نطيعها ؟ وكيف توقف هذه الأوامر في نفوسنا صدى ما ؟ وكيف تمارس علينا جاذبية ما ؟ نعم . . إن الإنسان أحياناً ما يكون حيواناً وحشياً . . ولكنه مع هذا غير فاسد تماماً ، وإن كانت غرائز اللذة والقوة تستميله نحو الشر ، فهو قادر أيضاً على أن يذهب نحو الخير بفضل الحكمة وكرم الخلق . وهو وإن كان قادراً على ممارسة الرذائل ، فهو قادر كذلك على إخراج ثمار عظيمة من الحكمة والبطولة والقدسية . ألا بعلنا معلوم الأخلاق أن من الضروري ، لكي نمارس واجباتنا ، أن نقاوم طبيعتنا وتبعها في وقت واحد ؟ إن الفن الذي يعكس الطبيعة

البشرية في هذه الحال الذي نتحدث عنه ، لا يمكن إلا أن يكون واضحاً .

والمشكلة على أية حال ليست ، في هذه النقطة الآن . . فصحيح أننا إذا « جردنا » مسرحيتي رودوجون لكورني وباجازيه لراسين « من هيبة الشعر فيهما ، كما فعلنا آنفاً ، لما بقى فيهما إلا القليل من الوضوح . وبتعبير آخر ، إن نحن خفضنا المسرحيتين بحيث لم يبق فيهما إلا القصة الأصلية لما أصبحنا مسرحيتين اسمهما : رودوجون — وباجازيه . . أى لما أصبحنا أعمالاً فنية ، ولتعين علينا إلغاؤهما بصورتها الخفيفة إن نحن نزعنا عنهما الشعر الذي « يصور » الموضوع كما يعرف برونثير . ذلك أن عملية التصوير الشكلي ليست بمثابة زينة أو زخرفة ثانوية إضافية ، بل هي التي تلبس الموضوع لباسه ، وترفع عنه وحشته . وأندروماك كذلك ، لا يمكن إلا أن تكون حكاية حب عادية ، كتلك التي تحكيها لنا الصحافة ، إن نحن نزعنا عنها « هيبة الشعر » . من منا إذا يستطيع أن يتلقى من اندروماك نفس الشعور الذي يتلقاه حين يقرأ خبراً أيا كان في صحيفة ما؟ إن المخاطرة الغامضة ، حكاية الحب والدماء والجنون ، حكاية تفقد وزنها المرعب للأخلاقي ، وتنحسر أو تخف ... ولا يمكن في حالتها هذه أن تدركها إلا من خلال ستار أو كحلّم تراه حين تقرأ المسرحية كما كتبها صاحبها . فليس من المهم إذن أن تقوم شخصية فيدر بوصف قلقها بدقة تكاد تكون « الكلينيكية » ، وأنا لا أفكر هنا في اللحظة التي تنفس فيها عن شكاواها الميلودية ، اللهم إلا إذا وضعت الممثلة كما رأى البعض على خشبة المسرح ، المعنى الدقيق للألفاظ موضع الاهتمام الشديد ، وأفسدت بهذا الناحية الأخلاقية والشعرية في نفس الوقت . . بل المهم كما رأينا تلك « الشخصية الشعرية » التي تشوب قلق فيدر .

إن الفن ، والشعر بوجه خاص -- يمارس على المشاعر أثراً ، يعتبر

ظاهرة معترفاً بها منذ زمن طويل ، ويسمى هذا الأثر ، منذ أرسطو ، تنقية ، أو تطهيراً من العواطف الجارفة : « كاتارزيس » ، (١٥) . . غير أن الفيلسوف (أرسطو) لم يقدم لنا شرحاً لهذا التعبير الغريب . . اللهم إلا إذا كان قد فقد جزء من « فن الشعر » ، الذى كتبه . وهكذا ترك أرسطو المجال حراً للمفسرين . ولقد فهم بعض هؤلاء المفسرين أن مسرحية المأساة تخلصنا من عواطفنا الجارفة بطريق الرعب والشفقة اللذين توحى بهما المسرحية ، أساس أن أرسطو يتحدث فى هذا المكان من مؤلفه ، عن مسرحية المأساة باعتبار أن أسسها السيكولوجية هى الرعب والشفقة . هكذا يفهم كورنى قصيدة المأساة . ان نحن رجعنا إلى أنفسنا ، الأمر الذى تدفعنا إليه القصيدة فعلاً ، فإننا نسير ، وهو يدعونا لهذا ، نحو « تطهير نفوسنا من العاطفة الجارفة ، والتخفيف منها وتعديلها ، بل ونزعها كلية . . . تلك العاطفة التى تغرق الأشخاص الذين ترثى لحالهم فى التعاسة كما نراهم ، (١٦) ويذكر راسين أيضاً فى حديثه عن مسرحيته : فيدر ، إن « العواطف الجارفة لا توجد أمام الأعين إلا لى تبين القلقة التى تسببها هى » . . . وهذا هو نفس التفسير الذى نجده عند مدام دى ستال حيث تقول : « إن كثيراً من الناس يعبرون الوجود دون أن يتنبهوا لوجود العواطف وقوتها ، ودون أن يعلموا غالباً أن المسرح يكتشف الإنسان للإنسان ويوحى له بالرعب المقدس الذى يأتى من عواطف الروح » ، (١٧) .

والحقيقة الحقة أن هذه الفكرة ليست من صنع أرسطو . وإذا كان « فن الشعر » ، الذى كتبه يضعنا حقاً فى موضع الشك هنا ، فإن هناك فى « فن الشعر » ، نفسه نصاً يتحدث فيه عن « كاتارزيس » ، الموسيقى ، ويلوح أنه يضم مفتاح هذا اللغز . يتحدث المؤلف فى هذا النص عن الأغاني ويرر منها تلك التى تتعلق بالتعليم وليست أخلاقية بالمعنى الدقيق . وهو يقصد بالذات إلى أغاني « العمل » ، وأغاني « الحاسة » ، تلك التى تمارس على النفس أثراً بحيث

لا تهيج — أى النفس — إلا لكي تهدأ في النهاية ، كما لو كانت قد وجدت « دواء » . . . ودعوة إلى النقاء . على أن الأثر الذي يتحدث عنه أرسطو هنا يمتد وينطبق أيضا على أولئك الذين يقعون فريسة ، لا للحماسة بل للخوف والشفقة وأمراض أخرى . . . وكلهم يشعرون بما أسماه « الدعوة إلى النقاء » وعزاء مصحوباً بلذة . ومسرحية المأساة — مثلها مثل الموسيقى هنا — قد تستطيع إذا أن تغنيننا عن « سعادة دون خسارة » ، فنحن في حاجة جميعا ، قليلة أو كثيرة ، لتحريك لعواطفنا ، وقد يسمح الشعر لنا بالتمتع بهذه العواطف المحركة دون خطر . كما أن التسلية تمارس باعتبارها دواء . وبالاختصار ، فكما أن الطب ينقى الأجساد بتخليصها من « أهوائها الضارة » ، فإن الموسيقى ومسرحية المأساة والشعر تنقى كلها الروح عن طريق إخلاصها من الفاضل الموجود بها ، ومن الألم ومن أضرار العواطف الجارفة » (١٨) .

ولقد سبق أن أشار أفلاطون في « الجمهورية » (١٩) إلى أن مسرحية المأساة تشبع فهمنا العاطفي . غير أن العواطف المحركة التي نشعر بها حين نحضر مسرحية يجرى تمثيلها ، أو كذلك حين نقرأ الشعر ، عبارة في نظره عن نقاط ضعف لأنها تبعث القلق في النفس وتحجب العقل . أما أرسطو فهو يقدر بالأحرى الأثر الطيب الذي يصحبها ، فقد كان أبوه طبيبا مولعا بالعلوم الطبيعية ، ولذا نجد يثقل الأشياء لنفسه كما يمثلها الطبيب ، ويستخدم التعبير الطبي للإشارة إليها . ولذا نجد أن وجهة نظره في هذا الشأن ليست بعيدة جدا عن تلك التي يأخذ بها الأطباء المحدثون والمطلوبون النفسيون ، وهم يقولون إن الغرائز العدوانية والغرائز الجنسية تطالب بحققها على أى حال لأنها لا تستطيع أن تمنح نفسها الحياة في الحقيقة الواقعة ، ولذا فهي قد تحصل في مجال الفن على ترضية بريئة مثالية . وبهذا تصبح المسرحيات المرلية والمأساة ، وأدب القصة بمثابة اشتقاق ، وصمام أمن ، فنحن نذهب

إلى المسرح أو نقرأ القصص لكي نرتكب في الخيال وعن طريق أشخاص
«وسطاء» الأعمال التي تمنع نفوسنا من ارتكابها، ومثلنا في هذا مثل المؤلفين
الذين يفعلون في مؤلفاتهم ما لم يستطيعوا عمله في الحياة . وحيث إننا نكون
قد أكلنا بهذه الصورة الفاكهة المحرمة ، فإنه لن تكون لدينا الرغبة في
أكلها واقعا ، ومن هنا نكون قد طهرنا عواطفنا الجارفة ، والفن إجمالا
يكون بهذا بمثابة ظاهرة تحويل الكبت إلى السمو ، وبطريق التشابه
الساحرى .

والمذهب الجمالى الذى يتحدث عنه آلان مذهب يكاد يكون طبييا ولو
أنه يختلف عن مذهب «الكاتارزيس» . وهو يرتبط بالنظرية التى طالما
حدثنا عنها بشأن الطبيعة الفسيولوجية ، والانفعالات ، والعواطف الجارفة ،
بمعنى أن القلاقل النفسية ترجع أصلا إلى قلاقل جسدية كالإثارة العصبية
وانقباض المجارى الدموية ، و«العواصف العصبية» ، ويكون دور الفن ،
كدور أدب اللياقة والألعاب الرياضية تهدئة النفس بطريق تهدئة الجسد
عن طريق النظام . ومن هنا يتصف «الهدوء وحكم الذات هدوءاً فى
الأعمال العسيرة والخطيرة التى يمارسها فى الحياة بشئ» من الجمال .
ونلاحظ أن اللغة الساذجة تقول دائما : إن الشجاعة جميلة قبل أن تقول
إنها طيبة . .

وعلى عكس هذا لا يمكن أن تكون «العواطف الجارفة جميلة» ويكون
الخنوع قبيحا والغضب قبيحا والقلق قبيحا . . وما من شك فى أن اللجب
عبارة عن الخوف من أن يكون اللجب قبيحا . «الفن يخفف إذن من وطأة
هذه العواطف الجارفة ، ويبقى عليها لنفس السبب وفى نفس الوقت جمالا
على أن «علاقات الحب تسر الناظر إليها بشرط أن تكون العواطف
الجارفة وتخفف منها حين توقظها ، ذلك أن الذى يحكم على هذا فى نهاية

الامر هو العاطفة الجارفة التي يجب قهرها وأن من الضروري تمدة الحب بعد الرقص ، والغضب بعد مباراة المصارعة ، والخوف بعد مباراة سباق الخيل ، وما هذا إلا الحقيقة التي تؤكد أن الفن لا يعبر إطلاقاً عن العواطف الجارفة ، بل هو معبر عن العواطف الموزونة ، وهو يطهرنا منها لأنه يقهرها . وفي إطار هذه الحقيقة لا يمكن أن ندهش من أن يكون الجمال بمثابة ملك الأخلاق ، (٢٠) .

« بهذا يعمل أى فن على تنظيم جسم الإنسان تبعاً للحكمة » ، — وبعضها كفن الحركة أو الفنون الحركية تفعل هذا بطريق مباشر بالحركات التي تطبعها على الجسد ، وهذا هو الشأن في الحفلات الاستعراضية ، سواء أكانت دينية أم غير دينية ، تلك التي نجد لها لدى جميع الشعوب . ولقد كان هدف أقدم الفنون استعادة الغضب وتنظيمه ، أولاً وسط الجماهير « وأثره هو » معالجة الارتجال غير المنتظم ، الذي تتميز به العواطف الجارفة ، على أن القوة البشرية نفسها ، هي التي تظهر في هذا التطور منظمة منطقية ، (٢١) هذه هي الحال أيضاً بالنسبة إلى الرقص ، « وتنضمن هذه الحال إخضاع حركات معينة لقاعدة معينة (٢٢) ، وهكذا يمكن القول إن كل رقص رفيع بقدر ما هو رقص ، وإذا ظهر أحياناً غير لائق في نظر من كان غريباً عنه فعليه أن يستنتج أنه يبيع الكثير ، (٢٣) والفصاحة تربط بين الفن وضبط النفس بدرجة لا تقل عن هذا ، « فالخطيب غالباً ما يعبر عن عواطف جارفة حقيقية ، لكنه يسيطر عليها دائماً وينسحب منها إن صح القول ، لينصرف بالتالى إلى انفعال منتظم موزون ، يجب أن يسمى الشاعرية » (٢٤) . مع هذا ، فإن « أحسن مثل هو الذى تعطيه الموسيقى ، أو قصد الأغنية ، فالإنسان هذا يكون فريسة للخيال ، أى للانفعال والعاطفة الجارفة ، فين ويصيح ويزأر تبعاً للأحوال ، وبحيث لا يكاد يكون ما ينطق به من قبيل اللغة ولا النغم والنغم الموسيقى صحيحة محكومة .. صحيحة تقلد نفسها بنفسها وتصنعى

إلى نفسها وتستمر بنفسها ، وكل دوار أو قفزة مفاجئة أو اختناقية للذات بالذات تحول النغم إلى الضوضاء . فالموسيقى أصلاً تترجم نظاماً من نظم جسم الإنسان إذأ ، وهى بالضبط تنقية أو تطهير من جميع العواطف الجارفة ، (٢٥) .

والفنون التى لا يكون فيها الفرد ممثلاً ، بل يكون مستمعاً أو ناظراً تهدف إلى نتائج مماثلة لهذه بوسائل مماثلة أيضاً ، وتقدم «أشياء مركبة تؤثر فى الحواس كموسيقى وتصوير زخارف ومبان ، (٢٦) .

ونفس الشئ ينطبق على فن النحت . لأن «نظامه القوى يحدد وضع الناظر تبعاً له ولحكيمته دون أى كلام ، (٢٧) .

أما الشعر فهو « يعبر فى اللغة الشائعة عن عواطفنا الجارفة نفسها فى حين ينظمها فى نفس الوقت ، وهكذا تصبح عواطفنا الجارفة شيئاً ومنظراً بفضل الشعر ، حيث تقرب من فقدان الأمل والغضب والحب الذى يفقد الإنسان وعيه ، ونميل إلى أعلى ، ولكننا لا نسقط . وحيث إن آلامنا تظل على مسافة بعيدة ، وكأ لو كانت غريبة عنا فإننا لا نستبدلها بنوع من الجلالة كما فعل جوبيتر على قمة إيدا (٢٨) .

وأما فن البناء فهو « يمارس على الجسم البشرى أثراً قوياً وسيطرة ، بطريق الكتلة والطرق والالتواءات المفروضة عليه . وبدقة أكثر يمارس أثره هذا بطريق صدى الصوت الذى يضخم وقع أقدامنا وكلامنا ، وكذا بوجه خاص ، بطريق تغيرات المناظر التى تكشف لنا عن أقل حركاتنا . وهذه الحركات ، تصور لى عالما حملت نفسى به ونظاما يطبقه على نفسى لكيلا أصبح أو أبعث ضجيحاً ، ففن البناء إذا يدعونا إلى الحركة وإلى الهدوء ، الحركة المنتظمة والهدوء المنتظم ، (٢٩) .

هذه الوسائل التي ترمى إلى فهم « الدعوة إلى النقاء ، هامة ودقيقة وخصبة بتطبيقاتها المتعددة ، ولكنها تغفل الأساس الجوهرى ؛ ففى إذ تبحث فى الآثار التي تتركها الأعمال الفنية ، نجد أنها لا تدخل القيمة الفنية فى الاعتبار . فإن كانت الأشياء الجميلة تنصف بأنها منقية ، فنحن لا نرى أنها كذلك لأنها جميلة . . . إذ يمكننا أن نعرض على ماقاله أرسطو فنقول إنه إذا كان الأمر فحسب احتياجاً عاطفياً حياً ودوافع جارية رقيقة أو شديدة فإن من السهل على قصة صحفية أو مسرحية تمثل على قارعة الطريق أو فيلم بدرام فليلة أن يفعل ذلك كما تفعل « الاينادة » ، أو « روميو وجوليت » ، « والملكة الميتة » . . . بل وأحسن مما تفعل هذه . وإذا لم يكن للفن هدف — هكذا نرد على آلان — إلا ضمان سيطرة الإرادة على الآلة الجسدية ، فما قيمة « فلورا » ، لتيسبان ، أو « الفضول » ، لفيفالدى ، أو « الكنيسة المقدسة » ؟ قد يكفي لسكى تسيطر على عواطفك الجارفة أن تنشر الخشب أو تحرق حديقتك كما ينصحنا آلان ، وبقصد أن تشغل جسمك بعمل منتظم منظم يجمع فيك ثورة الأعصاب ويخفف من توتر عضلاتك . . . ولذا نجد أن آلان يأخذ لنفسه راحة فى نظريته حين يتحدث عن فنون الحركة كركوب الخيل والمبارزة الرياضية والرقص ، وكلها أقرب لمجال الرياضة . والنظرية تنطبق بأقل سهولة على فنون المنظر الخالصة ، أو فنون الاستماع الخالصة ، وهى التى تترك الجسم دون نشاط . أليست هذه الفنون بأقل قدرة فى إيجاد اللذة التى تتولد من « توافق الآلية والإرادة » ، وحيث نرى نموذج كل العواطف الجمالية تاماً كاملاً (٣٠) ؟

ومع كل فعواطفنا ليست فاسدة دائماً ، فإلى جانب الحب الجنونى نجد الحب العاقل ، ويمكن أن يكون الخوف شيئاً آخر غير الجنون الدموى . كما تكون الشفقة شيئاً غير انقلاب الأمعاء . إننا نجد هنا توافقاً تاماً بين العملية والإرادة ، ، والفن هو الذى ينقينا من هذه العواطف الباعثة

للسلام والأمان ، تلك التى يقرها رجل الأخلاق ، كما ينقينا من أخطرها
وعندما اقرأ سوفوكل قراءة شاعرية ، أفلت من كل خوف ، ومن كل
شفقة ، ومن كل جيب ، لأن ، حساسية الخيال ، قد حلت محل « حساسية
القلب » . وبتعبير آخر — كما يرى بريمون . نجد أن النشاط الشاعرى يهاجم
المشاعر الجارفة مهما تسكن ، وللعاطفة الجارفة بصفة جارفة ولجورد أنه —
أى هذا النشاط يمارس عمله . فالألم الذى يخلصنا منه « الكاتارزيس » لم يعد
هكذا أخلاقيا ، بل إنه سيكولوجى فحسب . والعاطفة الجارفة مزاج محتل
لأنها ترمى بطبيعتها إلى عرقلة نشاط الروح العميقة بصفته بؤرة كل نشاط
شاعرى . أما من وجهة النظر الجمالية . فيلاحظ أن العنصر المرضى فى
العاطفة الجارفة لا ينحصر فى هذا الخلل الخاص أو ذاك ، بل إنه هو العاطفة
نفسها ، وفى هذا عجز ميتافيزيقى إن صح التعبير ، عجز لا يمكن أن تكون
طاعة الشاعر طاعة عمياء لقوانين الأخلاق عاملا من شأنه أن يغير شيئا (٣١) ،
فاللذة الجمالية إذا ليست بالضرورة تلك السعادة التى يشعر بها الفارس حين
يسيطر على حصانه ، بل هى قبل كل شئ . لذة الخلاص التى يختص الفن
بمنحنا إياها . . . خلاص ينقى ، أو تنقية تخلص . على أن الأمر قد يكون .
هو بعينه خاصا بالتنقية وبالانبهار ، وقد يكون من الضرورى أن نلجأ
إلى الصوفية بدلا من الطب لنعطى فكرة عن الشئ . الذى أسميناه
توقف نشاط « الانيموس » (العقل) لصالح . . . « الانيا » (الروح)
ما دام هناك تشابه بين هذا وبين ما يسميه المتصوفون الانتقال من التفكير
إلى التأمل .

وبالاختصار تصيح « الكاتارزيس » هى التجربة الفنية نفسها ، لأن
القوة التى يتسلكها الفن ويهزنا بها هى التى تقيس قدرته « الكاتارزيس » ،
بالضبط . وينتج عن ذلك أن عملا تنعدم فيه حقا الناحية الأخلاقية لا يمكن
أن يكون عملا فنيا بالمعنى الصحيح ، وأن عملا يكون فنيا لا يمكن أن يكون

حقاً أخلاقياً، فالإباحة في الموضوع أو في التفاصيل تخفى ويلتھما الإشعاع الجمالی كما تلتهم النار شيئاً ما . ويحدث هكذا أن موضوعاً لا أخلاقياً يفقد كل ضرره أو جزءاً منه . فهذه قصة أوديب الملك في ذاتها مشكوك في أخلاقيتها . . . ومع ذلك فكم هي عظيمة على المسرح . . . ومن منا يمكن أن يضيق ذرعاً بمشاهدتها ؟ ذلك أن ما يقبل المعارضة من حيث الأخلاقية عنصر یمتصه بريق الفن « ونحن نعلم أن بوسويه نفسه قد استثنى من كراهيته المعهودة للفن المسرحي ، مؤلفي المسرح اللاتین ، ونعلم أنه « في الوقت الذي كان يهيمن فيه على تعليم ولی العهد ، كان يعلمه مسرحيات تيرانس الهزلية ، وكان يعرف كيف يقرأ وكيف يستخلص جيداً الحرية الموجودة في النص . ولا شك أنه كان يرى - على حق - أن فن الشعر هو الذي يجعل من هذه الحرية - شيئاً لا يضر في شيء » (٣٢) . لكن كلما كان الموضوع مسيئاً للأخلاق فإنه يحتاج إلى فنية أكبر لنستخرج منه عملاً سليماً . بذلك لا يمكن أن يكون كل شيء قابلاً للتنقية بالفن . فقصة قبيحة للغاية ، أو رسم إباحي لأقصى الحدود يمكن أن يلفت انتباهنا بقوة ، لكنه لا يستولى إلا على « نشاطنا السطحي » كما يفعل فينا درس تعليمي ثقيل ، يمنع ظهور « نشاطنا الشعري » ، آلياً من القيام بوظيفته .

وينتج عن نفس هذه المبادئ أنه كلما اقترب فن من الحقيقة ، كان أقل « كاتارزية » ، فصورة فوتوغرافية لامرأة عارية أقل طهراً من صورة صورها فنان بألوانه لنفس المرأة ، وصورة فوتوغرافية بألوان أقل صعوبة من حيث تقدير قيمتها من صورة فوتوغرافية أيضاً لنفس المنظر لكنها بالأسود والأبيض . هكذا تكون الواقعية ، وهي أقل أشكال الفن فنية ، هي التي تدخل في مجال الخلاف والاحتكاك بالأخلاق ، وخاصة حين لا يكون الجمهور قد أعد لذلك . فلوحة « أولمبيا » ، لمانيه مثلاً لوحة أثارت غضب الناس ، ومع ذلك فهي ليست أقل إباحية من النساء اللاتي صورهن

لوتيسيان في عصر النهضة ، لكنها — أى لوحة « أولمبيا » لم تعد تستجيب إلى القوانين السائدة منذ عصر النهضة ، كما أنها تحطم بألوانها الروح للتقليدية الأكاديمية . ولذا فقد تعذر على الناظرين إليها ، حين بقيت فيهم الحيرة ، أن يدركوا الأثر الفني فيها ، لاهتمامهم بمادية الموضوع ، وهو موضوع في نظرهم ذو واقعية مذهلة إن أنت نظرت إليه على أنه « غير مصور فنيا » ، وعلى العكس ، فكلما كان الفن بطبيعته قادراً على نقل الواقع فإنه يتلخص من خطر اللا أخلاقية . هكذا الموسيقى ، فهي لا تستطيع أن تهبط إلى الواقعية الطبيعية التي تهدد دائماً فنون التصوير والنحت والأدب بالاختفاء ، وإن هي فعلت ذلك لهبطت إلى العدم . لكنها إذا انضمت إلى فن آخر أكثر واقعية ، فإنها تستطيع ممارسة التسامى وترتفع إلى السمو الذي لم يستطع هذا الفن الآخر أن يصل إليه . . . ومثال ذلك ما فعله ديوسى ، فقد استعار هذا الموسيقى مقطوعة سان سباستيان من أنوزيو وصورها بأن أضفى عليها من روح أسطورة متريدات (٣٣) . كذا نجد أن الفنون التصويرية ، قديمها وحديثها ، وتلك التي تستخدم قدراً أكبر من التجريد تتعرض للا أخلاقية بنسبة أقل من تلك التي تسيطر عليها روح تقليد الطبيعة . ولقد كان فن النحت اليوناني في الحقبة القديمة منه ، وفي عصره الذهبي الكلاسيكي أنقى من نظيره في الحقبة الهيلينية .

واجبات الفنان

لقد دافعنا عن حق الفنان وقلنا إنه غير مذنب . . . فعلنا هذا في القضية التي أقامتها رجال الأخلاق ضده . لكن هل يعنى هذا أنه ليس على الفنانين في نظرنا واجب ومستولية إزاء الجماهير ؟ طبعاً لا . . . لكن هل يصدر لنا برونثير هنا أمراً بأن نعود إلى النظام ونعدل من سلوكنا ، ما دامت اللا أخلاقية في نظره « مندرجة في مبدأ الفن نفسه » كما قال ؟ نعتقد أننا إذا

تركنا حبله على عاتقه ، لأحطانا خطأ هداما في حق العادات الطيبة ذاتها .
 « فنظرا إلى أنه مضطر إلى ألا يتوجه إلى النفس إلا عن طريق لذة الحواس ،
 فإنه يجب أن يفرض الفن تحذيرا حكيما تكون أول بنوده ألا يبحث عن
 موضوعه في ذاته ، ، فموضوع الفن أو هدفه موجود خارجه وفيما وراءه ،
 وإذا لم يكن هذا الموضوع أخلاقيا تماما ، فهو اجتماعي ، وما هذا إلا نفس
 الشيء . ، هكذا « تكون للفن وظيفة اجتماعية ، وتكون الأخلاقية
 فيه هي الضمير الذي يعمل بناء عليه ليثبت أنه قد قام بوظيفته هذه خير
 قيام » (٣٤) .

كان لابد أن يصل برونتير إلى هذه النتيجة بناء على منطق نظريته ،
 فهو يميني لأنه وريث بوفالد وجوزيف دي ميتر ، لكنه التحق باليسار
 المتطرف وبالمذاهب الفنية التي كانت سارية في نظم الحكم الدكتاتورية :
 فالفن عنده خادم أمين للأخلاق ، والأخلاق بدورها تطابق حالة معينة من
 أحوال المجتمع . لكن أي شرح تقدمه لهذا الرأي قد لا يكون مجديا ، إذ
 نتساءل : هل نحن في حاجة إلى أن نكرر أن القيم الفنية والقيم الأخلاقية
 نوعان مختلفان تماما ؟ وأن الجمال يتبع مجالا يخالف مجال الفعلية ؟ وأن الفن
 بصفته هذه ليس له هدف أو موضوع إلا هدفه وموضوعه هو ؟ إذا نحن
 رفضنا منحه استقلاله الذاتي قتلناه ؟ إذا كان الحل الذي يقدمه برونتير
 حلا لا يمكن قبوله ، فعلى هذا أن المشكلة لا تزال قائمة ، وأن الفنان من
 وجهة نظر الفن غير مسئول إلا عن عمله الفني ، لكنه مادام إنسانا لا يمكن
 أن يظل غير مبال إزاء كل ما هو إنساني ، فإنه مسئول عن التأثير الذي
 يمارسه ، وليس من حقه أن يغسل يديه ويتخلص من هذه التبعة . هذا ولا
 ينبغي أن نخطئ التقدير فيما يتعلق بالدور التعليمي للأخلاق ، أو الحضاري
 للجمال ، فهذا الدور يعتمد لدرجة كبيرة جدا على الاستعدادات الذاتية للفرد ،
 حتى يكون شاملا جدا وفعالا للغاية ولقد قال أحدهم : « إنه إذا عود شاب نفسه

على تذوق الأشياء الجميلة ، لتوصل شيئا فشيئا إلى أن يخلق من حياته ذاتها عملا فنيا ، (٣٥) . لكن هذا في نظري تفاؤل مبالغ فيه ، وسلطة الجمال على الجماهير أقل قوة من تلك التي يمارسها على الفرد ، ونحن هنا لا ننفق وما قاله فيكتور هوغو من أن الحساسية إزاء الفن تعنى عدم القدرة على ارتكاب الجرائم ، (٣٦) . فليس بكفى مع الأسف أن تفتح متحفا أو مدرسة لكي تغلق سبينا ، وعلى أى حال فإن مجموع الأفراد الذين يحسن الفن من أخلاقهم قليلون ، و الاعتقاد بأن حب الإنسان للأعمال الفنية العظمى حبا مطلقا يمكن أن ينقى القلب والحياة ، اعتقاد يكاد يكون خاطئا على الدوام . فلطالما رأينا أناسا لا حصر لهم قد أحبوا أكمل المقطوعات الموسيقية وأجمل اللوحات الفنية ، وظلوا مع ذلك من الرعاع . فتأثير الفن في تقدم الأخلاق تأثير بسيط جدا ، هذا هو الشيء الذى لم يستطع باخ أو بيتهوفن أو جوته أن يفعله لإخوتهم الألمان ... فكيف يمكن أن نأمل أن ينبجح كورروسيزان وما نيس في هذا ، (٣٧) .

لا شك أن التأمل الفنى يسكت اندفاعات العواطف فينا ، ويرفعنا إلى درجات عليا يستحيل فيها على الشر أن يعيش . ونجد فيها هدوءا يتفق وقيمتنا الطيبة . ويكفى هذا لكي يؤدي التأمل إلى المساواة بين الخير والجمال ، وإلى ميلهما إلى التقابل تقابلا مطلقا . غير أن تحديد موقف أخلاقي حقيقى يحتاج إلى أكثر من هذا بكثير ، ذلك أن الإعجاب الجمالى قصير الأمد ، فى حين أن مكافئة ميولنا الرديئة تجري دائما وفى كل لحظة ، ومذهب الدعوة للنقاء ، يوقف المواطف الجارفة مؤقتا ، ويحذرنا بحاذيقته السحرية ، ولكنه لا يحاول اقتلاعها من جذورها ، ولا يطرر الطبقات العميقة التى تطفو فوقها الإغراءات وتنقش عليها أخطاؤنا كاملة . وحتى النبيل الذى تنقله إلينا رؤية الجمال شيء ليس له توصيف أخلاقى . وأكثر من ذلك فإنه ابتداء من هذا التقابل بين الطرفين - الخير والجمال - فإن علم الجمال وعلم الأخلاق يسيران خلال

نموهما في غالب الأمر في اتجاهات متعارضة . فالفن له أحد أثرين ، فهو إما يبهز أتباعه دائما لدرجة أنه يطبعهم بمغزاه الأخلاقي فيها ، وإما يعتقد أنه يتمتع باستقلال كامل ، وبالتالي يبعدنا عن المعنى الأخلاقي أصلا . وبين هاتين القيمتين يقوم توتر لا يمكن تجنبه ولا يمكن حله إلا بالتوفيق بين الاثنين بحيث تكون لإحدهما الكلمة الأخيرة .

ومن واجب الفنان أن يعترف أولا بأن المطالب الأخلاقية تعلو المطالب الفنية ، ولقد سبق أن أوضحنا أن هدف الفن خير العمل الفني ، في حين أن هدف الأخلاق هو خير الإنسان . وما من شك في أنه لكي يكتمل خير الإنسان فإن من الضروري أن يفترض هذا الخير تمتع الإنسان بالجمال الذي تقدمه لنا الأعمال الفنية الجميلة . غير أن هذا التمتع لا يكفي لأنه لا يقدم الخير للإنسان كاملا ، ولا يقدم كذلك ما يعتبر الهدف الأخير في هذا المجال . على أن الحياة الإنسانية تنظم وتسير نحو هدف آخر يتهداها ، هو خير الإنسان كاملا ، نقصد الخير الأخلاقي ، أو الخير فحسب . وصحيح أيضا أن الفن في ذاته يفوق بطريقة ما ، التميز بين الخير والشر ، ويستطيع أن يصنع الجمال من القبح ومن الرذيلة ، لكن مثل هذه العملية لا تتم إلا من أجل الحواس ، وهي أعضاء التأمل الفني التي لا غنى عنها ، حتى ولو كانت مصطبغة بصيغة الفهم العقلي ، والضمير ، وقد عرفناه بأنه العقل المنظم لما يفعله الإنسان ، لا يقع فريسة لمثل هذا السراب . وينتج عن هذا ، أن هناك نوعا من القبح الأخلاقي ، غير الجمالي ، لا يحتاج حين لا تعمل الحواس ، لأن ممارسة الشر الأخلاقي تتم لا بالنسبة للحواس ، بل بالنسبة لقاعدة العقل والفهم ، وفي نهاية المطاف للعقل المبدع نفسه . ومعنى هذا أن هناك ما يمكن تسميته ما بعد الجمال وما بعد القبح ، لكن لا يوجد ما يسمى ما بعد الجمال والقبح معاً ، . هذا هو السبب الذي من أجله يسبق الحكم الأخلاقي ضرورة ، وفي نهاية الأمر ، الحكم الجمالي ، وهذا هو السبب أيضا في أن

و التمييز بين الخير والشر لا يحدث ، كما لا يحدث بين الجميل والقبيح بالنسبة لمركز معرفة قابل للزوال . ويحدث هذا التمييز حقا بالنسبة لمركز معرفة ثابت هو العقل المطلق ... وبالنسبة لله في نهاية الأمر (٢٨) .

لقد يقول القارىء لنفسه : ما كان الأمر يستحق أن نفند آراء برونتيير لكي نجعل من الفن نشاطا تابعا للأخلاق . غير أن موقفنا في هذا يغير موقف برونتيير أساسا إذ لا نعتقد أن الفن لا أخلاقى في ذاته ، بل نعتقد في عكس هذا رغم أنه لا ينبغي أن تثق في الناس كل الثقة وهم ما هم عليه .. وأظن بالإضافة إلى هذا أن حرية التعبير لدى الفنان ليست دون حدود وأنه ليس من حق الأديب أن يكتب كما لو لم تكن لأفواله نتائج هائلة . وأؤكد مرة أخرى أنه لا يمكن للأخلاقية أن تتدخل عند ما يكون الأمر أمر خير العمل الفنى ، فإذا لم يكن لسكل من الفن والأخلاق عالم مستقل ، فإنهما يظلان عالين مستقلين ذاتيا ، واتباع الفن للأخلاقية لا يمكن بناء على ذلك أن يكون مباشرا اندماجيا أصيلا فيه كما هو الشأن في فنون الدعاية التي يدعى الذين يمارسونها أن الفسكرة الأخلاقية أو الاجتماعية التي تتضمنها هذه الفنون هي التي يجب أن تهيمن على كل شيء وحتى على الإلهام نفسه فيها . لا يمكن إذا إلا أن تكون التبعية غير مباشرة ، غير أصيلة فيه ، حتى تساعد على ممارسة النشاط الإبداعي وطاقات الفن والطبيعة الشخصية للفنان ، وحتى يتمكن الفنان من استبعاد هذا المنظر المسرحي أو تلك اللوحة أو ذلك الموضوع هذا قانون إن فهم بهذه الطريقة ، فإنه يحتفظ بقوته ، نكن لا يمكن أن يخضع له الفنانون إن لم يعرفوا ماهيته تماما ؛ فكلما فرض رجل من دعاة الأخلاق قاعدة أخلاقية صارمة — كما يفعل برونتيير — كلما فسد العمل الفنى والعكس صحيح . ويقول مارتيان بهذا الصدد أن قصيدة يمسب فيها الشاعر أمه لا يمكن أن تكون بالنسبة لنا قصيدة جميلة . وهذا موقف يشبه موقف فنان يحب رفاقه من بنى البشر ،

إن هو اعتدى عليهم في عمله الفني فقد هذا العمل جماله وجاذبيته . وهكذا يصبح « احترام النفس البشرية ضرورة تضم نضيلة الفن ذاتها ، ضرورة لا غنى عنها قدر عدم استغناء الشعاع عن قاعدة من قواعد الوزن الشعاعى ، أو قدر عدم استغناء فنان تخصص في النواحي الدينية عن تصوير صورة يمكن أن تؤدى الصلاة أمامها ، (٣٩) .

وحب الناس ، وبوجه خاص حب جمهور المعجبين لفن فنان معين قد يكون أكثر الأمور التي تفضى فلوير . ذلك أنه ، في نظريانه وفي مؤلفاته على السواء ، يخلق التناقض بين الفن والأخلاق استمراراً ، ولا يفتى إلى مخرج من هذا التناقض . فالعيوب التي أخذها البعض على قصة « مدام بوفارى » ليست في رأي كلها غير قابلة للتنفيذ ، إذ كيف يعاب على المؤلف تصويره للبطلة وهي تتمتع بعض الوقت بالسعادة الزوجية حتى بعد ارتكابها جريمة الزنا وكيف يضنى عليها جمالاً جسمانياً بفضل هذا الحب المحرم ؟ هل يعنى هذا أن الرذيلة يمكن أن تكون جذابة حتى إن هي انتصرت على الفضيلة ؟ أليس من الضروري أن نحل وثناء الجروح العفنة لكي نضمدها ، ونعرف أين يوجد العفن حتى نقضى عليه ؟ ، إذا لم يستطع القارىء أن يستخلص من كتاب ما ، حكمة أخلاقية موجودة بين طياته ، كان معنى هذا أن هذا القارىء أبله ، أو أن الكتاب نافه من ناحية الدقة ؛ إذ أن الشيء الحقيقى طيب لأنه حقيقى ، والكتب القبيحة لا تكون عديمة القيمة أخلاقياً ، إلا لأن الحقيقة تنقصها . . . إن هذا لا يحدث كما يحدث في الحياة ، (٤٠) . تلك قاعده سليمة فيما يتعلق بالكتب القبيحة . أما ما تبقى . . . أى ما يتعلق بالكتب الأخرى فالنتيجة تتعدى حدود هذا . . . أو إننا بالأحرى نخفى حين لا نتحدث عنها ناحية من نواحي المشكلة ؛ ذلك أن الحقيقة شيء طيب حين يقال قولاً ، وبشرط أن يفيد الشخص الذى توجه إليه . لكن ليس الحال هكذا دائماً ، إذ ، لكي نستخلص الحقيقة الموجودة في الحياة أو

في العمل (الأدبي أو الفني) الذي يمكن تقريبه دائماً من ناحية من نواحي الحياة ، يجب أن يكون القارىء نفسه على أخلاق ويجب أن يكون ذكياً . ويقال هنا إن كل شيء يمكن أن يتصف بالأخلاق الحسنة بالنسبة لذوى الأخلاق الحسنة . لكن هل كل الناس من ذوى الأخلاق الحسنة ؟ وحتى إذا فرضنا أن القارىء من ذوى الأخلاق الحسنة بالفريزة ، فمن غير المؤكد أن يكون ذكياً بما يكفي لفهم الدرس المتضمن في الأشياء (٤١) يقول فلوير : وفيهم يهمني من الأغبياء ؟ إننا لانستطيع موافقته على ذلك ، فالإحسان يبدأ بالاهتمام بالضعفاء ، وأكثر الضعفاء ضعفا ضعاف العقل... « ومن سنكم يستطيع المساس بهؤلاء الصغار . . . »

تتمتع الأخلاقية الجمالية في أيامنا هذه بإقبال شديد ، ولقد كان هذا أثراً من أسوأ الآثار التي تركتها لنا نظرية الفن الفن للفن ، مادامت تعتبر احتقار الناحية الأخلاقية علامة من علامات العبقرية ، ودون أن نذهب إلى هذا الحد ، يعتبرها الكثيرون أساساً من أسس النجاح الفني . فهناك بول ليوتو مثلاً يقول :

« يجب ألا نهتم أبداً بمغزى الكتاب ، من حيث أثره الطيب أو الرديء .. أبداً .. أبداً .. فلنكتب ما نريد كتابته .. أما الباقي فلا أهمية له وهناك آخرون غير « ليوتو » ، ممن لم رأى آخر ، إذ يحكى مثلاً عن هنرى بيك أنه مزق مسرحية كتبها كاملة لأنه رأى أن النهاية التي وصل إليها والتي يمكن استخلاصها منها لم تكن سليمة . أما كلود فايير فهو يرى في بساطة أن مهمة الكاتب القصوى تنحصر في تسلية الجمهور وتوفير الراحة له ، ويضيف قوله : « لكن لا ينبغي أن تكون هذه الراحة ضارة . بل يحسن أن تخرج النفس من الكتابة وقد ارتفعت مغنوباتها بدلاً من أن تكون قد ضعفت . ولقد ساعدت مذاهب الفن الهادف لدرجة كبيرة جداً في العمل على القضاء على فكرة عدم مسئولية الفنان وفي إفهامه رد الفعل المحتمل لإزاء

أعماله الفنية . ولنذكر هنا أن ستانيسلاس فوميه ، قد سئل خلال قضية مشهورة نوقشت خلالها مسألة ما يتركه الأدباء من أثر في الناس ، فأجاب « إن على الأديب أن يتمتع بشرف وشجاعة كبيرين فلا ينشر شيئاً لا يمكنه من الدفاع عن حياته هو . . ويصرح هرفيه بازان هنا بقوله : « هل يجب أن أصرح لكم أنني غالباً ما ألقى على نفسي الاسئلة لكي أعرف ما إذا كانت كتيّ تنطوي على فائدة ما . . فإن هي بعثت خيبة الأمل لدى الناس ، وجدت عندى الرغبة المتزايدة في أن تفعل ذلك » . سخريّة نجدها أيضاً عند فليسيان مارسو حين يقول : « سوف يهمنى الناس بأى أعتقد أن الصحة الأخلاقية شيء صحيح . . والحقيقة أن مارسو ليس في حاجة إلى الاعتذار إزاء هذا الاهتمام الذى يشرفه ، لأن اعتذاره هذا في الواقع موجود في امتداد الموهبة الفنية ، فالفنان رغم أنايته الشخصية مخلوق يعطى للناس شيئاً ويعطى نفسه لهم . . أليس الإبداع الفنى يتضمن لكشف ما، وفى نفس الوقت تضحية مستمرة لذات المبدع ؟ ألا يتبع العمل الخلقى إن نظرنا له من هذه الزاوية ، من وجود جوهرى يتمتع به الفنان ؟

إن القاعدة التى أوصى بها بقراط الأطباء بقوله : « أولاً أبعدوا الضرر » هذه القاعدة تنطبق على أهل الفن أيضاً . فعلى الفن ألا يؤذى أحداً ، إن لم يكن يفعل الخير . « وإذا كان في استطاعة الفنان أن يعمل عملاً فنياً غير أخلاقى وبقصد سابق ، فالواقع أن هذا النوع من الفنانين نادر الوجود ، والذين يعرفون الفنانين ذوى الأصالة الحقة يعلمون هذا . وحتى عندما يحدث ذلك فإن مصلحة المهنة تكون دائماً قادرة على تصحيح هذا البدء السيئ ، بحيث تحتفى الإرادة الأولى وتذهب في طى النسيان ، وينتهى الأمر بأن يكون العمل سليماً من الوجهة الأخلاقية . ففي لوحة « الصديقتان » للصور كورييه نرى منظرأ من مناظر الحب الممنوع . لكن إذا كان أحد من ساءت نياتهم يستنتج من هذا فساداً فإن كورييه نفسه ،

وقد سيطرت عليه فنيته كان قد نسي نيته الأولى ولم يعد يتنبه إليها خلال تنفيذ العمل ، بل كان قد انتقل مباشرة إلى الإمكانيات الجمالية . . . وقد ذهبت جزيرة العشق « ليسبوس » (التي صورها) بعيداً جداً لدرجة لا يمكن أن نفكر فيها أو نراها . . . ونحن حقاً لا نرى في اللوحة إلا التوافق العظيم المتكامل بين الألوان وبين الخطوط . . . ومع هذا فمن الجائز أن يبقى القصد الرديء قائماً كاملاً وأن يسيطر على تنفيذ العمل دائماً ، وهناك أعمال فنية شاء أصحابها أن ينزعوا النقا عنها وظلت تحمل علامة رغبتهم هذه واضحة ، (٤٢) هذا ، وإن أردنا أن نصدق ما قاله جول رومان ، تعين علينا أن نؤمن براءة فلوير حين كتب « مدام بوفاري » وزولا حين كتب « نانا » . . . لكن لا بد أن نرفض الاعتقاد براءة أندريه جيد ، لأن « الفكرة التي كاد يفسد بها الشباب لم تكن بالتأكيد إلا مبعث سرور عنده . .

لا بالتأكيد . . . لكن ماذا يعرف جول رومان عن هذا ؟ وهل كان رومان يتمتع بالقدوة على النفاذ إلى القلوب ؟ إن حب الخير كما نطالب به الفنان بضطرنا ألا نتقدم استخفافاً نحو مثل هذه البئر الخطرة . ولعل من أدق الأمور أيضاً الانتحاء إلى المحاكم في هذا الصدد : ففي عام ١٩٣١ انتحر شاب وأتهم أبوه أندريه جيد بصفته مؤلف « غذاء الأرض » بأنه مسئول عن ذلك ، ثم نشر نوع من التحقيق تحت عنوان « مجرم » أو « اتهام عثى يقتل نفس ضد أندريه جيد » ومنذ ذلك الوقت ونحن نسمع بعض المحامين يلقون بتهمة ترجع إلى أخطاء زبائنهم من الشبان . . . يلقون بها على هذا الأديب أو ذاك . . . باعتباره مسئولاً عن إفساد أخلاقهم . إننا لا نبحث عن تبرئة هؤلاء الأدباء بأي ثمن . فهناك ولا شك منهم من يعتبر مثلاً سيئاً ، ومن يستحيل ، أو يصعب تحديد مسؤوليتهم ، لكن لا بد أن نقول إن تلك المسؤولية تتناسب وطبيعة الشخص الذي يقع تحت تأثير المؤلف . ألم يعاون رامبو ، ولم يكن ملاكاً كما نعلم ، في تحويل كلوديل عن

عبريته؟ ثم إنك إذا صادرت كتاباً ما ، ألا ينتج عن ذلك زيادة عدد قرائه؟ ألا نرى شباباً معيناً يهرول لرؤية الأفلام الممنوعة على من كان عمرهم أقل من ١٦ عاماً؟

إننا لا نرى إلى إنكار حق المجتمع في حماية الأفراد من محاولات الفساد. فإذا كانت الدولة تقوم بمنع صناعة الصور البذيئة ومحاربة بيعها فإن لها الحق كل الحق في هذا . أما المشكلة التي تضعها أمام أعيننا الأعمال الأدبية أو الفنية الصحيحة ، فهي مشكلة يصعب حلها ، صحيح أن المصلحة العامة تفترض وقف كل ما يضر بالأخلاق العامة وكل ما يدخل في نطاق الأفكار الاجتماعية الهدامة . لكن لا ينبغي أن ننسى — هكذا يقول مارتين — إن المصلحة العامة تتضمن أيضاً احترام القيم العقلية المتعلقة بالحقيقة والجمال، واحترام حرية البحث وطاقات التفكير والفكر والعقائد الراضية . وليست الدولة بمجهزة هنا تجهيزاً يكفى للحكم على هذه الأمور ، ولذا فإن عليها أن تقف موقف التحفظ إلا في الحالات العاجلة . والمجتمع هو الذي يمتلك هنا حق حماية أعضائه من التحريض على الشر، وذلك بطريق التعليم وضغط الرأي العام وعمل الجماعات . وتصبح المناقشة الحرة هي أحسن الوسائل حكمة . وأكثرها فعالية في القضاء على معاييب حرية التعبير .

هكذا تستطيع الدولة تجنب الهبوط إلى مستوى قبيح وارتكاب جريمة الظلم ، فهناك مؤلفات كان يعتقد معاصروها أنها لا أخلاقية لدرجة خطيرة، ثم اتضح للأجيال التالية لها أنها من أكثر ما يمكن أن يكون العمل الفني خصوبة وقدرة على التنقيف . فلقد حكم على كل من « مدام بوفاري » و « أزهار الشر » بأنها مفسدة ، ومع هذا فقد كان من أوضح النتائج التي نتجت عن ظهور أعمال بودلير أنها حولت الشعر الحديث نحو عالم الروح وأنها أيقظت روح البحوث اللاهوتية لدى الإنسان وهاهى ذى التماثيل اليونانية التي تصور الآلهة لم تعد توحى بعبادة ما . وعلى نفس النمط ، كما

يرى مارتين أيضاً ، يلاحظ أن ، الناحية الأخلاقية التي قد تمس النفس البشرية في القصص الذي يقدم فيه بروس اعترافات غامضة ، تتطور وتتحول وتمحى بفعل الزمن ، ولا يبقى منها إلا بعض كشف أكثر عمقا ، عن القلب البشري ، فكم من الصحيح أن ، المهم أساسا هو عمق التجربة الإبداعية . . وهو كل إدراك لما هو خاف في الإنسان ، مما ينتج عنه من الزمن توضيح يزيد عن ذي قبل للضمير الأخلاقي (٤٣) . أليس هذا أحسن وسيلة يقدم الفن بها خدماته ؟

إن بودلير ، وكذا بروس على ما أعتقد ، لا يزالان في حاجة إلى قراء يعلمون ببواطن أمور الفن ، والدرس الذي ينبثق عن أعمالهما ، وأعمالهما نفسها ، لا تزال في غير متناول الجماهير التي تسكاد تكون غير مثقفة . ولذا يتعين علينا أن نكون على حذر ودقة حين يتعلق الأمر بالأعمال الأدبية والفنية الموجهة لعامة الجمهور ، نقصد الأعمال التي تقع بطبيعتها تحت أبصار أوبين أيدي الجميع . تلك الأعمال يجب أن تكون على أكبر جانب من الوضوح الذي لا نستطيع نيات المؤلف أو حياته المشرقة أن تضمنها دائما . فالعمل الفني - لعلنا نذكر ذلك - الذي يتم تنفيذه بكل إخلاص ، يدفع بجذوره إلى أعماق أعماق الإنسان ، بل ويذهب ليرسخ في لاشعوره . فإن كان المنبع غير نقي كان الذي يتفجر منه غير نقي أيضاً . ويلوح في هذا أن الميل الجنسي عند رودان قد صبغ كثيراً من التماثيل التي نحتها ، عدا الوضع الذي لا يمكن أن يعاب عليه شيء في تمثال « قبلة » . أما ما عدا هذا التمثال فكل ماصوره رودان تماثيل تشتم منها حرارة تسكاد تقرب من اللذة الجنسية عنده هو - هذا في حين أن يكاسو يتصور وهو « يصنع » لوحة كلوحة « الازدواج » تشكيلا جادا كهنوتيا ، خاشعا . ذلك أن الأخلاقية كما نعيشها لا تتقابل دائما وأعماق ما نهدف إليه . ومعنى هذا أن من الممكن أن نجد وسط أحقر الميول الأخلاقية نوعا من التفرز

وحب النقاء في آن واحد . ومن هنا كان الفن مجالا يمكن أن نهرب إليه ونخرج من الآلام . كما كان الأمر بالنسبة لهؤلاء « الأطفال » من أمثال فيون وفرلين .. وعلى عكس ذلك ، يمكننا أن نسمى بعض الفنانين « آباء أسر » أو قسسا طيبين .. رغم أن أعمالهم الفنية تبعث القلق . وذلك لأن الإنسان يميل أحيانا إلى البحث عن عدم النقاء ، ولأن الواجهات البيضاء الناصعة قد تخفى وراءها الدناءة الجفيسية التي تتحرك حية ، مكبوتة لا يمكن السيطرة عليها ، قترت في الفن لنحصل على تعويض عن كل ما حرمت منه أثناء الحياة ؟ (٤٤) .

إلى هذا النوع من الفنانين ، لا يمكننا إلا أن نقدم نصيحة نأخذها من موريالك : تلك هي « أن نتقى المنيع » . ولا أقول إن هذا بالأمر الهين ولا أستطيع أن أتهم الذين حاولوا تحقيق هذا دون أن يتمكنوا .. لا أتهمهم بشيء .. ومع هذا فإن الحل الوحيد هو ذلك الذي ننصح به الأديب أو الفنان الذي يرى أنه يخترق حدود الأخلاق .. ننصحه بأن يغير من نفسه هو ، لا من عمله الأدبي أو الفني . إنها الوسيلة الوحيدة التي يتمكن بها من أن يبدع نوعا آخر من الأعمال الفنية النابعة من ضميره الخالص ، والتي يحل بها الاحتكاك القائم عنده بين الفن والقانون حلا مستندا إلى الحرية . وهنا تتدفق غريزة خصبة ، عميقة نظيفة ، لا تقبل القمع ولا تحوى قذارة . وما من داع هنا حقا لأن نعتقد كما يفعل أندريه جيد أن « المستنقعات وحدها هي الخصبة » ، أو كما يفعل بروس ، إن المقربة تنفجر بقوة فوق أكوام الرذيلة (٤٥) . والحقيقة بالأحرى هي إذا أن الرذيلة تعيش رغم المظاهر المتناقضة ، في أرض لا تبصر نمو النشاط الإبداعي . أليست الجيول الدخيلة لدى الفنان هي القناة التي تتكشف له الأشياء خلالها ؟ إن السم الأخلاقي الذي يفسد قوة الرؤية الفنية هو بعضه الذي يفسد مؤكدا قوة الإبداع في بعضه . ولعل أشد أنواع السم حقيقة وأجملها سم

لا يؤثر في النفس المظلمة لأنها لا تلتفت إليه ، مادام هذا السم قد أفسد قوة الرؤية الفنية مقدما. وما من شك في أن نواحي الضعف والمرضية التي نجدها في أعظم الأعمال الفنية وما كان منها فاسداً حقيراً لن يجد في هذه الحانة تبريراً لوجوده . وتدل الحقائق على كل حال على أن التحول إلى الخير أو نحو الله لم يؤد إلى نقص الموهبة لدى الفنانين جميعاً بنفس الدرجة . ويذكر مارتيان هنا على سبيل المثال والتدليل على صحة هذا كلام طومسون وهو بكنز وشسترتون و ت. س. ايلبوت ويلوى وكلوديل وجامس وسبجريد أوندسيت وجرترود فون لوفوروبرنا نوس وماكس جاكوب . . . ومادامت الفلسفة حالة من حالات الخلق الأدبي فلقد كان من الممكن أن يذكر مارتيان اسمه لو كان أقل من هذا تواضعاً .

الفن والخيال في القصة

أصبح الشعر منذ قرن ونصف قرن من الزمان تقريباً بالنسبة للشعراء وأكثر من أى وقت مضى بمثابة وسيلة للمعرفة ، بل ولأرفع أنواع المعرفة ، الوسيلة الوحيدة لفتح ثغرة تجاه المطلق ولعلنا نذكر أن فيكتور هوجو كان يعتبر نفسه « ساحراً ، ونبياً ، كما كان نوفاليس يجعل من نفسه أخاً توأماً لفيلسوف ماوراء الطبيعة . فقد كتب نوفاليس ، في تعبير يكاد يكون هو بعينه تعبير بودلير . . كتب يقول : « إن الشعر هو الواقع المطلق ، لأنه أكثر القول شاعرية وأكثره واقعية » (١) . وقد رأينا أن نيرفال كان يريد « خرق الأبواب العاجية » ، ورامبو « أن يجعل من نفسه رائي الغوامض ، وعالماً أعلى ، حتى يصل إلى المجهول » ، ويرى مالارميه بدوره أن الشاعر هو « الرجل الذي كلف بأن يرى رؤية سماوية » (٢) . أما سان بول رو ، فهو يحتاج إزاء الذين « كانوا عبيداً للعادة فرفضوا المخاطرة بنفوسهم والذهاب لغزو آفاق ذهبية جديدة . . . كما لو لم يكن الشاعر مكتشفاً عظيماً لما هو مطلق » (٣) .

والوسائل التي استخدمها الشعراء في هذا متباينة ولكنها غالباً ما كانت مشوبة بالشك ، فمنها الحلم والثل والتنويم والخلل الفصفي و« خلخلة الحواس جميعاً » . . . غير أن الهدف كان دائماً هو بعينه ، تقصد معرفة ما لا يقبل المعرفة ، واستيعاب ما لم يستوعبه أحد ، كما قال لوتى : « أن يكون الشاعر في الجانب الآخر . . في الجانب الآخر من الأشياء كلها » (٤) .

وسارت السريالية في هذا الطريق ولقد قال بريتون حقاً بعد ظهور حركة « داداء » : « إننا لم نعد نرى هذا العالم كما هو » (٥) ، وحين أخذ بريتون يمجّد الشعر ، نسمعه يقول : « أيتها الطبيعة . . لأنه — (الشعر) — ينكر علاماته . . أيتها الأشياء ، ماذا تهمة خواصك . فالشعر لا يعرف الراحة مادام لم يضع يده الناكرة للحقائق على الكون كله : (٦) لكن السريالية كما يراها بريتون هكذا ، وهي تفعل هذا ، تقصد إلى أن تجعل نظرة أكثر حقيقة محل النظرة العملية والعلمية ، وإلى أن تضع واقماً ثاراً هو واقع الرغبة واللاشعور ، موضع الواقع اليومي التافه . ، إن شاعر المستقبل هو الذي سوف يأخذ على عاتقه لأول مرة ودون ضيق ، استقبال النداءات التي تتدافع فيه من أعماق النفوس وفقلها للآخرين » (٧) . نداءات بعيدة ولا شك ؛ إذ أن هناك « سهما يشير الآن إلى اتجاه هذه البلاد ، ولم يعد الوصول إلى الهدف مشروطاً بآلام المسافرين » (٨) . ولذا لم يعد الشعر يكتفي بالكمال الشكلي ؛ بل إن هدفه هو معرفة المجهول والتعريف به . ولا شك في أن « الفن لا ينبغي أن يكون متطفلاً على الحقيقة » ، و « أن من الضروري أن تظل القصيدة غاية في ذاتها » . لهذا كان الرجل الذي أراد أراجون وبريتون تحيته وبصفته أول شعراء عصره ، هو الذي أضاف قوله : « ماذا يهم أكثر من ذلك ؟ النجاح في تنسيق أقوال معروفة وألفاظ اختيرت بشئ . يزيد أو يقل من الدقة والمهارة ، أم الأصدا العميقة الغامضة التي تأتي من حيث لا ندرى وتميش حية في أعماق هوة ما ؟ » (٩) .

وقد أعطت الفنون الأخرى ، سواء تلك التي تأثرت أم لم تتأثر بالسريالية ، مثل هذه الحقائق . ألم يبحث أكثر المصورين تجريداً عن وسيلة تمكنهم من تصوير تناسق خفي معين في قلب الطبيعة وفيما وراء النقلية المباشرة ؟ ألم يكن هدفهم كما قال « كلي . أن يفتربوا » درجة أخرى

من قلب الخليقة ، ؟ الواقع أن فن التصوير قد تأثر بالشعر ، ومال في نفس الوقت نحو اقتسام الموسيقى حقوقها . ولقد أصبحت الموسيقى منذ يتهوفن مرغمة على التشابك مع الميتافيزيقا ، حيث عملت على إدخالنا في آن واحد إلى مجال أسرار الروح وأسرار الحياة الكونية . وهكذا أصبح العمل الفني عربة تحمل مغزى وسرا ورسالة . وهى رسالة - لا بد من أن نوضح هذا - ذات بناء مطابق لشكلها ، متميز عن « محتواه » المعنوى أو المذهبى رغم أنه لا ينفصل عنه . هناك إذا معرفة جمالية نابغة من ذاتها . . . ويكون الفن بهذا وسيلة خاصة تستولى على الإنسان اسقيلاء . ولقد تحدثنا عابرا عن هذه النقطة وقد حان الوقت لأن نتعمق فيها . ولا بد لنا لكي نفعل هذا من الاستعانة بآراء فيلسوف .

علم الجمال عنصر بيرسون

لم يكتب بيرسون كتابا طرق فيه مشكلات الفن بوجه خاص ، ومع ذلك فهو كثيرا ما يشير في مؤلفاته إلى هذه المشكلات ، بحيث تجد عناصر علم الجمال عنده متفرقة ، يكنى تجميعها - بل ويمكن أن نقول أكثر من ذلك ، فهو يرجع إلى علم الجمال دائما لأن نظريته للعالم وسير تفكيره هما نظرة وتفكير فنان ، هكذا أصبحت فلسفته كلها في هذا المسن نظرية في علم الجمال . ولعل الحكم الذى أصدره خاصا بأحد سابقيه ينطبق عليه هو تماما ، فهو يقول : « إن فلسفة السيد رافيسون كلها مشتقة من الفكرة القائلة بأن الفن ميتافيزيقا مصورة ، وإن الميتافيزيقا عبارة عن تفكير في الفن ، وإن نفس الوجدان الذى يستخدم استخداماً متبايناً هو الذى يخلق الفيلسوف العميق والفنان العظيم » (١٠) .

والميتافيزيقا بالنسبة لمفكر يريد أن يخلص لتجربته لا يمكن أن يكون

لها هدف إلا استيعاب الحقيقة كما هي . ومع ذلك فاستيعاب الحقيقة يستحيل على قدراتنا العادية للمعرفة ، فالأفكار التي يشكلها العقل المطلق نادرة ، فقيرة جدا بالنسبة للثروة التي تأتي من معطيات الحواس ، فالإدراك العقلي يأتي عرضا حين لا نعمل الإدراكات الحسية ، (١١) . غير أن الإدراك الحسي العادي ليس بوسيلة أكثر ضمانا من الإدراك العقلي حين نريد أن نعرف شيئا ، ، لأنه يعتمد على التفكير العقلي الذي يتبع بدوره ضروريات الحياة العملية ، ، فالتفكير العقلي يرمى أولا إلى صنع أشياء ، (١٢) وبذا لا يحتجز الإدراك الحسي من الأشياء إلا ما كان منها على علاقة باحتياجاتنا ومشاكلنا ، ومعنى الإدراك الحسي أن تستخلص من مجموع الأشياء ما يستطيع جسدك أن يعمل بها ، (١٣) .

وحيث إن التغير الذي يحدث في الأشياء المدركة لا يمكن أن يكون في متناول حواسنا فإن إدراكنا الحسي يثبت الحقيقة المتحركة، ويحدد الخطوط الخارجية التي تحدد الأشياء الملموسة، ويوقف تطورها ليجعلها ثابتة وقابلة للاستخدام اليدوي ، ، والإدراك الحسي معناه تجميد الحركة ، (١٤) .

وأخيرا فالإنسان يعمل في المجتمع ، والمجتمع مشيد على اللغة ، ويتحمل الإدراك الحسي رد فعل هذا ، والعالم لا يظهر لنا إلا من أشد نواحيه سطحية وأكثرها تقليدا إذا نظرنا إليه من خلال الألفاظ الشائعة لدى الجميع والأفكار العامة التي تتضمنها هذه الألفاظ .

وهكذا يقوم بين الطبيعة وبين أنفسنا ستار سميك . ونسأل : هل هناك من أمل في أن ننزقه ؟ لقد ألقى « كانت » ، على نفسه هذا السؤال وأجاب بالنفي ، على أساس أن معرفتنا للأشياء تشكل بشكل تفكيرنا نحن .

ومن هنا نقول إنه لكي نصل إلى جوهر الظواهر فيما وراء الظواهر ، لا بد لنا أن نتخلص من تفكيرنا المنطقي ، وأن ندرك بلا إدراك ، ونفكر دون أن نفكر . ويرجسون لا يقبل هذه الهزيمة ، فيقول إن من الجائز أن تكون النسبية في معرفتنا للأمور راجعة إلى التعود أو الروتين ، أو إلى الميل الناجمة عن احتياجاتنا وعن صنعتنا ، باعتبارنا حيوانات صانعة للأدوات ، أكثر من رجوعها إلى شكل التفكير العقلي عندنا . وهنا ، وفي هذه الحالة يبقى أمامنا مشروع نجرب فيه أنفسنا ، ألا وهو أن نذهب للبحث عن التجربة من منبعها ، أو بالأحرى من فوق هذا النحول الذي يمثل عنده التجربة في اتجاه الفائدة لتصبح هي التجربة الإنسانية ، (١٥) . ومعنى هذا أن تترك ونحن أمام الواقع كل فكرة خبيثة للاستقلال والاستيلاء على شيء ما ، حتى نخلق لأنفسنا نفساً طيبة ونظرة نقية تخلو من كل طمع ، وحتى يسقط القناع الذي يشوه تلك الحقيقة ويتكشف العالم في حقيقته المطلقة . هذه هي المعرفة الميتافيزيقية حيث « لا يتوسط شيء بيننا وبين الواقع » ، وحيث تصبح الإدراكية « مباشرة » ، والفهم مباشراً « والمعرفة اتصالاً وتقابلاً بالمصادفة » ، (١٦) . ومعنى هذا في اختصار أننا « نعود إلى الإدراك الحسي . لكنه ليس هو ذلك الذي تشوّهه وتغلق جوهره أعمالنا في الدنيا ، بل هو ذلك الإدراك الذي أصبح نظيفاً ، معدلاً ، وقد تمدد فأصبح مساوياً لأحجام العالم » ، (١٧) .

على أن كون هذه المعرفة بعيدة عن الخيال أمر يعطينا عنه الفن دليلاً يكاد يكون تجريبياً ، فالواقع أن هناك أناساً وظفتهم منذ قرون أن يروا وأن يعرضوا طيفاً ما لانراه طبيعياً . هؤلاء هم الفنانون : إذ ما الذي يهدف إليه الفن إن لم يكن أن يرينا في الطبيعة وفي العقل ، فينا وخارجا عنا ، أشياء لم تكن تعرض لحواسنا وضميرنا بوضوح؟ وما هو دور الشاعر

والقصصى؟ إلهما، كلما سارا في الحديث قدما، تظهر لنا فروق في العواطف والأفكار كان من الممكن أن تتمثل عندنا منذ مدة طويلة ولكنها غير مرئية، مثلها مثل الصورة الفوتوغرافية التي لم يتم تحميلها بعد. لكن وظيفة الفنان لا تظهر بكل وضوح كما تظهر في ذلك الفن الذي يهتم أكبر الاهتمام بالتقليد، أقصد فن التصوير، فكبار المصورين أناس لهم في الأشياء نظرة أصبحت، أو ستصبح هي بعينها نظرة الناس جميعا. فلقد رأى كوررو وتيرنر ضمن كثيرين... رأيا في الطبيعة نواحي لم نكن نلاحظ وجودها من قبل (١٨).

والمعرفة الجمالية، تقدم لنا نموذج المعرفة المبنية على يقية وشكلها الأولى. والحقيقة «أن الفن سواء أكان تصويرا أو نحتا أو شعرا أو موسيقى، لا هدف له إلا إبعاد الرموز المفيدة علينا والعموميات المقبولة تقليديا واجتماعيا، وبالاختصار كل ما يخفى الحقيقة، ليضعنا وجها لوجه أمام الحقيقة نفسها». وهكذا يصبح الفن مدخلا عظيما للفلسفة، ويصبح الفنان هو الرجل الذي يشير إلى الطريق لبيئته لفيلسوف ما وراء الطبيعة، وذلك بفضل تصوفه المنقى الذي يعطى عنه هو مثلا يحتذى. حقا إن «الفن ما كان توكيدا إلا لرؤية أكثر مباشرة للحقيقة، لكن نقاء الإدراك الحسى هذا يتضمن قيام قطيعة بين الإنسان والتقاليد المعروفة ذات الفائدة ويتضمن انعداما للهدفية أو للمصلحة المتأصلة التي وجدت لنفسها مكانا في الحواس وفي الضمير». هذا النقاء هو الذى يجعل من هذا الرجل مصورا، ومن ذاك شاعرا أو موسيقيا. يحدث هذا بحيث إننا «إذا أسمينا الانفصال عن الحياة العملية مثالية، وأسمينا الرغبة في الاقتراب قدر الإمكان من الواقع واقعية، فلا بد أن نقول «إن الواقعية تكون في العمل الفنى، في حين تكون المثالية في الروح، وإن العود للاتصال بالحقيقة لا يتم إلا بفضل المثالية والاستمرار فيها» (١٩).

إذن يكون الفرق بين الإدراك الجمالى والإدراك العامى فرقا جذريا ، فهذا الأخير بصفته « مساعداً لنا حين نفعل فعلا ، يقوم بعزل ما يهمنا عن مجموع الحقيقة ، ويرينا الشيء الذى نستخلصه من الأشياء أكثر من أن يرينا الأشياء نفسها ، فهو يقسمها ويصنفها مقدما ويدمجها بطابع معين مقدما ، فلا نكاد إلا أن ننظر للشيء ، وكفىنا أن نعرف إلى أى طبقة ينتمى هذا الشيء ، لكن كلما ابتعدنا عن هذا الاتجاه ، ظهر أناس ، وكأن ظهورهم حدثا عارضا عظيما ، أناس يقل ارتباط حواسهم وضمائرهم بالحياة عن ارتباط أولئك الذين لا يتمتعون إلا بإدراك عامى . أولئك قوم نسبت الطبيعة ربط قدرتهم الإدراكية الحسية بقدرتهم على العمل . فإن هم نظروا إلى شيء ما ، رأوه من أجل الشيء نفسه لا من أجلهم هم . . . ولو أنهم لا يدركون بالحواس من أجل القيام بفعل ما ، بل إنهم يدركون من أجل الإدراك . . . من أجل لا شيء . . . ومن أجل اللذة » (٢٠) . وبتعبير آخر يكون الفنان بالمعنى الحقيقى ، لا المجازى لهذه الكلمة « عديم الانتباه » ، أو بتعبير أدق ، يكون رجلا تحول انتباهه عما تقدمه له الدنيا ليفيد منه فى نشاطه الفنى ، ويكون رجلا قادراً على ممارسة انتباه من نوع آخر ، هو ذلك الذى يصور من خلال العمل الفنى انتباه الفيلسوف ، ويمكنه انتباهه هذا من إدراك كم من أكبر من الأشياء ، وإدراكها إدراكا أعمق بوجه خاص » (٢١) . وتكون الموهبة التى تجعل منه فنانا ، فى نهاية الأمر ، هى تلك الصفة الإدراكية الحسية الخاصة ، التى نسميها : طهر العين وبراءة الروح ، أى « تلك الطريقة العذرية ، إن صح التعبير ، فى الرؤية والسمع والتفكير » (٢٢) .

على أن رؤية الحقيقة الحية كما فهمناها لا يمكن إلا أن تختص بأفراد « والفن ، على عكس العلم ، « يهدف دائماً إلى الفرد ، على أنه لا يهم حين

ننظر من أجل الفعل فحسب إلى فردية الأفراد ، فهي تفوتنا ، كلما كان من غير المفيد ماديا أن ننظر إليها . وحتى عندما نلاحظها ونميزها (كما يحدث حين نميز بين رجل وآخر) فإن الذي يحدث هو أن العين لا تدرك الفردية ذاتها ، أى إنها لا تدرك التناسق الأصلي للأشكال والألوان الخاصة بالفرد ، بل إنها تدرك خاصية واحدة أو اثنتين . تكون مهمتهما تسهيل التعرف عمليا على الفرد ، . والأمور في هذا يختلف حين يتعلق بالفنان المصور ، فالمصور « يتعلق بالألوان والأشكال ، وحيث إنه يحب اللون للون ، والشكل للشكل ، وحيث إنه يدركهما حسيا من أجلهما ، لا من أجله هو ، فإن الذى يراه فى الأشياء هو الحياة الداخلية لها . . يراها تظهر شفافة من خلال أشكالها وألوانها ، . ومن قبيل أولى يصبح عمل الشعراء فرديا . فالشاعر الذى يتغنى به الشاعر هو حالة نفس . . حالة نفسه هو ، وهو فحسب ، ولكن ! تكون أكثر من ذلك ، . أما الموسيقيون ، فلا سوف « يحفرون أعمق من هذا » فهم يلتقطون ، أوزانا معينة للحياة وللتنفس . . ومن الأفكار والمشاعر ذاتها . . ويفعلون هذا طبقا لقانون يتغير بتغير الأشخاص من حيث نشوة كل منهم ، ومن حيث آلامه وآسيبه ، . والأديب القصصى أو المسرحى لا يخرج عن هذه القاعدة ، إذ بما لاشك فيه أن الشخصيات التى يبدعونها فى أعمالهم توظف فيها صدق معين ، وعالم مختلطا به أشياء غامضة كانت تريد أن تكون ولكنها من حسن حظنا لم تكن ، لأن الذى يضعه القصصى والمؤلف المسرحى تحت أبصارنا هو « سير النفس والنسيج الحى من المشاعر والأحداث . . نقصد أنه يضع شيئا يظهر مرة فحسب ، دون أن يعود أبدا . . فما من شخصية غريبة فى ذاتها مثلا أكثر من شخصية هاملت » (٢٣) .

إن الحياة الداخلية للكائنات ، بما هى عليه من فردية وواقعية بالذات لا يمكن أن تكون شيئا آخر — هكذا يرى بيرجسون — إلا الزمن

الخلقى الذى يضنع مادتها كلها ، مادتها التى تتوالد عن طريقها بنفسها وباستمرار . ومهمة الفنان هى التعبير عن هذه الحركية ، وتلك الدفعة وهذا الميل نحو التوالد فى الزمنى الخلقى استمرارا ، « والفن الحق يهدف إلى تصوير فردية النموذج، ولذا فهو يبحث خلف الخطوط التى نراها عن الحركة التى لا نراها ، ويبحث خلف الحركة نفسها عن شىء هو أكثر سرية وغموضا . . . نقصد النية الأولى والأمانى الرئيسية للشخص » (٢٤) . ويزداد العمل الفنى جمالا كلما أدخلناه فى الحياة الخاصة لهذا العمل الخلقى ، إذ أن « الجمال ينتمى إلى الشكل ، ولكل شكل أصله فى حركة ترسمه . وما الشكل إلا حركة يتم تسجيلها » (٢٥) . ولذا لا يكون الجمال جميلا دون الرشاقة ، حيث تظهر الحركة قبل أن تختفى ، وكأ لو كان تحققها يسير نحو التحقق . لهذا أيضا كان الفنان الحقيقى الذى يعود إلى منبع نشاط الكائنات لى يستوعب دفعها بدرجة أعلى ، إنسانا « يصور الجهد النجدي للطبيعة بطريقته هو » (٢٦) . . . ذلك الجهد الذى يشترك فيه الهاوى المتذوق للأعمال الفنية الحقة بدوره أيضا . ألا تفترض القراءة بصوت مرتفع مثلا أن القارىء يتفق ونبضات نفس ما ، وأنه يتداخل متسلا فى حركة ما ، وفى « تنبؤ ، حياة ما ؟ بهذا لن يكون فن القراءة ، حكمة حكم جميع الفنون ، دون تشابه بقريحة الفيلسوف . . . إذ ماذا تريد القريحة إن لم يكن « استعادة وجود حركة التشكيل الفنى ووزنه ، وأن تعيش من جديد هذا التطور الإبداعى باندماجها فيه اندماجا أساسه الجاذبية بين طرفين . . . عندما يكون القارىء قد اختار صفحة من صفحات الكتاب الأكبر . . . الدنيا » (٢٧) .

هكذا نكشف فى وضوح أكبر طبيعة هذه المعرفة الجمالية ، باعتبارها مقدمة للمعرفة الميتافيزيقية ونموذجها . فهى لا يمكن إلا أن تكون شكلا من أشكال الجاذبية التوافقية لأنها تقف موقف الضد من الإدراك الحسى

النغمى ، وترتبط بالأشياء من أجلها هي ، لا من أجل المصلحة التي يمكن أن نحصل عليها . ويعرف بيرجسون القريحة الفلسفية بأنها « التوافق الذي تنتقل عن طريقه إلى داخلية شيء ما لتقابل فيها ما هو وحيد في بابه ، وبالتالي ما لا يمكن التعبير عنه » (٢٨) . وما هذا إلا خطوة يسيرها الفنان عادة ، والفنان كالفيلسوف « لا يطيع شئنا ولا يأمر أحدا ، بل إنه يبحث عن إيجاد التوافق بينه وبين الواقع » (٢٩) وبفضل « صداقة طويلة الأمد ، بينه وبين الواقع ، يتمكن من الحصول على أسرار هذا الواقع هو أيضا . ليس أثر الأعمال الفنية الجميلة هو أن يخلق لدينا الاستعداد للاستقبال ؛ إن هدف الفن هو تنويع القوى النشطة ، أو بالأحرى القوى المقاومة في شخصيتنا ، والوصول بنا هكذا إلى حالة من الليونة الكاملة التي نحقق فيها الفكرة التي تقترح علينا ، والتي يجري فيها التوافق بيننا وبين العاطفة المعبر عنها (*) . هذا توافق معنوي ولا شك يبنى قطعا على توافق جسدي ملموس ، إذ أن الوزن النغمي الذي يفرض على الجسد ، في جميع الفنون ، وحتى في التصوير والنحت والبناء ، يلعب دورا رئيسيا . وحيث إن « قدرتنا على الإدراك الحسي تجد نفسها وقد أخذ يؤرجحها هذا النوع من التناسق ، فما من شيء يستطيع أن يوقف انطلاق الحساسية . على أن هذا التناسق لا ينتظر أبدا غير سقوط العقبة لكي تتحرك مشاعره توافيقا (٣٠) .

والتوافق معناه تقبل الإنسان بكل كيانه للهزة الآتية من أعماق الأشياء . بحيث نقول إنه عندما يبدأ أي عمل فني عظيم توجد الحركة المشاعرية عند نقطة البدء هذه . لكن عن أي نوع من المشاعر نتحدث ؟ قطعا لا نقصد هنا المشاعر العامية التي تبعث القلقلة إلى النفس لأنها تحدث تبعا لرؤية الإنسان لصورة ما ، أو لتفكيره في فكرة ما يكون من السهل تسميتها ووضعها

(*) الملاحظات المباشرة من ١١ وقد سبق لنا أن أوردنا هذا النص بصدد الشعر ولكن مع إيراد تصويبات ذات أهمية .

في تصنيف معين . أما المشاعر التي نقصدها فهي تختلف تماما عن تلك لأنها هي التي يتم كشفها واكتشافها من واقع أصل إبداعات الفن، كما يتم اكتشاف أشياء عدة من واقع أصل الفكر الفلسفي والأخلاق والعلمى . إنها إذا مشاعر لا تحرك النفس في جزئها السطحي ، بل هي التي ترفع الأعماق ذاتها من جذورها . إنها نوع بعيد عن أن يكون أصله تمثيلا مصورا ملموسا ، لأنها تسبق كل تمثيل ، وتفعل هذا لأنها هي بذاتها « مليئة بالتمثيلات التي تتشكل بالمعنى المعروف . . بل مليئة بتشكيلات - تستخلصها أو تستطيع استخلاصها من مادتها وعن طريق تقدم عضوى (٣١) إن أى شخص حاول أن يجرب نفسه في الكتابة الأدبية يمارس تجربة هذه المشاعر فوق العقلية ، « التي كان يعتقد أنها غير قابلة للتعبير ثم أرادت أن تعبر هي عن نفسها » (٣٢) - ولصالح وجدان وتحقيق الانتماء بين الفكرة وموضوعها ، يكون هذا الشخص « قد انتقل فجأة إلى شيء يظهر له في آن واحد ، واحدا ووحيداً ، شيء يعمل بعد ذلك على أن يستعرض نفسه كيفما كان على شكل مفاهيم عديدة . وشائعة تصاغ مقدما في الألفاظ . . هكذا تتولد المشاعر من الاتصال الوثيق بالمعطيات الداخلية والخارجية . . وتصبح عاطفة « وحيدة في نوعها ، تقفز في نفس الشاعر . . وفيها لقط قبل أن تهز نفوسنا نحن . . إنها هي التي يخرج منها العمل الفني . . ولم تكن إلا مصلبا ضروريا للإبداع » (٣٣) .

إن الشيء الذي يسمى « إلهاما ، لا يمكن أن يكون غير هذه المشاعر الحركية التي تتولد عنها الأفكار والأشكال . . إنها نفس تريد أن تنجسد في جسد ، وهي التي تنحصر مهمة الفنان في ترجمتها . . وهي التي يرجع إليها دائما خلال تنفيذه للعمل الفني . . أى شيء يمكن أن يكون ذا بناء مشيد ، أى شيء يمكن أن يكون أكثر مهارة في التشييد من إحدى سيمفونيات بيتهوفن ؟ غير أن الموسيقى كان يصعد ، خلال قيامه بالترتيب

ولإعادة الترتيب والاختيار - وهو يفعل هذا على المستوى العقلي - .. كان يصعد نحو نقطة تقع خارج نطاق هذا المستوى العقلي ، ليجتهد فيها عن قبول أو رفض ، عن اتجاه أو إلهام : وفي هذه النقطة توجد عاطفة لا تنقسم ، عاطفة كان العقل المفكر يعاونها بلا شك على التعبير تعبيراً واضحاً بالموسيقى ، لكنها عاطفة أشد قوة وحياة من الموسيقى ومن العقل المفكر نفسها. وكان على الفنان ، كلما أراد الرجوع إليها ، أن يقوم بجهد يشبه ذلك الذي تقوم به العين عندما تعيد نجماً إلى الظهور بعد أن يكون قد دخل لتوه في ظلام الليل ، (٣٤) . ألا يتعين على الهاوى أيضاً أن يقوم بمثل هذا الجهد ؟ ليس فهم العمل الفني حقاً هو العثور على العاطفة الأصلية ، وهي منبعه والبرورة غامضة ينساب منها ، العثور عليها فيما وراء الالفاظ والانعام والألوان والخطوط . عندما ننظر إلى لوحة صورها ليوناردو دافنشي ألا يلوح لنا أن الخطوط المرئية لوجه رسمه في هذه اللوحة تصعد نحو مركز حقيقى يقع خلف اللوحة ؟ يكشف فجأة ذلك السر الذى لن ننتهى من قراءته وقد اجتمع في كلمة واحدة . لن تنتهى من قراءته جملة جملة في هذا الوجه الملىء بالألغاز ؟ إن المصور قد وضع نفسه في هذا المركز . وهو إذ يترك الرؤية العقلية البسيطة عنده تسير كما تسير ، وقد تركزت هذه الرؤية في تلك النقطة ، إذ هو يفعل ذلك ، يعثر على النموذج الذى كان موجوداً تحت بصره ، خطأ بعد خط ، (٣٥) .

على أن التعبير عن المعرفة النقية التى تظهر واضحة كالنهار في هذه اللحظة الإبداعية التى تتحرك فيها العاطفة ليس بالأمر الهين ، نظراً لأن عادات الإدراك الحسى والإطارات الشكلية التى تصب فيها الأفكار المعروفة واللغة تعوق حركتها هذه . فالشاعر الذى يدعى ، مثلاً ، وصف حركة نفسه تخونه الكلمات أكثر مما تخدمه . ذلك أن الكلمة يطارها الخارجى المعروف ، الكلمة الجافة التى تحترق ما هو ثابت ، شائع ، وبالتالي ما هو غير

شخصى فى انطباعات الإنسانية . . . هذه الكلمة تدوس بأقدامها الانطباعات الرقيقة ، قصيرة الأمد ، التى يتصف بها ضميرنا الفردى ، (٣٦) إذ كيف يعبر عما يراه أو يشعر به وحده بالفاظ يستخدمها الناس جميعا ؟ لقد كان عليه إذا أن ينقش كلماته وأن يخلق أفكاره ، لكن لن يسمح له هذا بنقل ما يريد إلى الغير ، وبالتالي لن يسمح له بالكتابة . ومع ذلك فإن الأديب يحاول تحقيق ما لا يقبل التحقق . إنه يذهب باحثا عن العاطفة البسيطة ، عن الشكل الذى يمكنه من خلق مادته هو ، ويتعامل مع ذلك الشكل لينتقل إلى حيث يقابل أفكارا كانت قائمة أصلا . وكلمات موجودة فعلا ، ووقائع اجتماعية معروفة ، (٣٧) . وهكذا يستخرج من العاطفة والشكل والمادة إمكانيات جديدة تتأتى عن طريق الكيفية التى يعاملها بها ويفرضها عليها ، وعن طريق الترتيبات النجمية التى يخضعها لها ، « ولا بد له حين يفعل ذلك من أن يقسو على الكلمات » . ويستخرج بالقوة معناها ومفزاها وما من طريقة أخرى لدى الشاعر تمكنه من تخطى حدود اللغة ، ومن تنسيق لغته هو ، ومن النجاح إن تمكن من الوصول إلى تلك الطريقة .

اعتراضات رئيسية

تقابل آراء بير جسون فى غالب الأحيان والتحليلات التى قننا بها إلى هذه اللحظة . ولكن لا ينبغي أن ننسى التحفظات التى رأينا أن نأتى بها كما فعاما فى الفصل الخاص بالموسيقى . وصحيح أن هذه المناوشات لا تزيد على كونها لعبة أطفال لإزاء النقد الأساسى الذى يثيره علم الجمال كما يراه بير جسون : فالفن لا يمكن أن يكون فى جوهره رؤية — كما يقول بهذا مؤلف « المعطيات المباشرة » — بل هو قبل كل شىء خلق . ولقد كانت هذه هى الفكرة المستترة التى سبق أن عبر عنها هنرى ديلاكروا ، وهى نفس الفكرة التى قال بها حديثا الأستاذ بايير من حيث التنفيذ الدقيق .

أما عن مالرو فإنه يبدو كما لو كان نوعاً من « بيرجسون في اتجاه مضاد » .
على أنه وإن لم يكن قد هاجم بيرجسون بالذات على قدر علمنا فإن هذا التضاد
بينهما يتضح على الأقل مما يقول به شارحوه ،

إن القول الأولي الذي يسرد في هذه الناحية المؤكدة هو أن الفنان
لا يبعد تصوير الحقيقة كما هي ، ولا ينقل النموذج كما هو . لسكننا نتساءل :
ما تكون الفائدة من كونه يرى أحسن من الآخرين ما لا يبحث عنه ليقاده ؟
ليس الأمر أمر معرفة الطبيعة أو التعريف بها ، بل هو صنع لوحة أو تمثال
أو قصيدة أو مقطوعة موسيقية لها كيائها وتبريرها الخاص . ويقول لنا
مالرو إن « الشرفة القرمزية في لوحة ، البار الصغير في ملهى الفولى بيرجير
« التي صورها مانيه ، عبارة عن بقعة من الألوان ، مادتها هي المادة
التصويرية ، لا المادة الممثلة في الطبيعة » (٢٨) . وعندما صور الفنان جوجان
لوحة « الحصان الأبيض » ، لم يكن هذا الحصان أبيض ، بل إنه يرتوى وقد
وقف إلى جانب حصان أحمر في مستنقع بنفسجي يحفه طريق لونه بنفسجي
فاتح إن مانيه وجوجان لا يخضعان في هاتين اللوحتين لرؤيتهما ، بل إنهما
يخضعان للمتطلبات التشكيلية . ونفس الشيء نقوله في الفن الأدبي . إذ عندما
يصبح فاليري في ديوان الجبانة البحرية قائلاً :

أيتها الكلبة الرائعة ، أبعدى عابد الصنم

عندما يقول فاليري هذا ، لا نستطيع القول بأن هذا البيت يرجع في
شيء إلى انطباع شعر به فاليري وقد ارتد إليه في انتعاشه الأولي ، فها حدث
في لحظة من اللحظات إن كان البحر المتوسط في نظر الشاعر كلية
تحرس قبوراً يزورها أحد هواة الصور الرمزية ، (٣٩) .

لا نتحدثن إذاً عن تكشف العالم عندما يكون الأمر أمر خلق عالم
آخر ، أو إن صرح القول أمر عالم أعلى لعلقة تذكر بينه وبين ذلك الذي يقع

تحت الحواس يقول ماير : « إن للفن حقائقه ، بعيدة عن الواقع الذى تكشفه البديهة ، وهو نتاج عمل أكثر منه نتاج رؤية ، وجوهره العمل ، فإن كان الفنان يبق وقد تعود الواقع ، فذلك بالقدر الذى يبين به الفن أن هناك فى الأمر مادة وإنسانا يعمل . وهكذا يعطى الفنان لنفسه حق قيادتنا بعيداً عما هو قائم . ومهمته هى إنكار الواقع بقصد إعادة بنائه ، (٤٠) . هكذا تصبح فائدة الشخصيات الأسطورية أن تمكثنا من أن نفهم أن الفن « يتجه بطبيعته نحو عالم آخر . . والأسطورة ، كالفن ، تدخل فى نطاق الفعل ، وهى تعنى أن الفن يظل مقيماً فى مكان ما هو خيالى ، (٤١) .

على أن العالم الخيالى للفنان ليس أثر آمن آثار وظيفية معينة للرؤية، ولكنه من آثار أسلوب معين — هكذا يرى مالرو . فلم يكن جوجان يرى الأشياء أمامه وكأنها لوحات بارزة، ولا سيزان كأنها أحجام، ولا فان جوخ كأنها حديد مزخرف، (٤٢) ، بل إنهم اخترعوا أسلوباً، وهذا الأسلوب وحده يحدد معالم عالم ما هل تظن أن المصور الانطباعى كان يكتشف الطبيعة لأنه كان يخرج من قاعة التصوير إلى خارجها ؟ أبداً . . إنه كان بالأحرى يكتشف وسائل تعبيرية جديدة كالضوء والوزن والنغمة . . أى الأسلوب . فالمنظر الطبيعى عند زينوار مثلاً وسيلة لحسب يقتبس منها على أكثر تقدير العناصر التى يخلق منها عالمه ، وكانت رؤيته هى نفسها صنع عالم ينشئه فى قرارة نفسه ، وينتمى إليه هذا الأزرق العميق الذى كان يستعيده من الأفق العريض ، صنع عالم أكثر منه طريقة ما ينظر بها إلى البحر ، (٤٣) . وهذا بمعنى « أنه من الخطأ الاعتقاد بأن الفن الحديث هو الأشياء التى نراها من خلال الطبيعة الخاصة بنا ، لأن من الخطأ أن يكون طريقة يتبعها البصر ، (٤٤) فلا تبحث فيه عما قد يسمى « نقاء النظرة » ، لأنه عملية غزو لأسلوب معين . وكل فنان عبقرى يكتشف بأسلوبه لا ينظره تعبيره هو عن العالم ، (٤٥) ، وبذا فلن يكون الإبصار هو الذى يحدد الأسلوب ، بل إن العكس هو الصحيح ،

بمعنى ، أن إحصار الفنان يكون رهن إشارة أسلوبه ، لا أن أسلوبه في خدمة إحصاره ، (٤٦) .

فكل فن ، إجمالاً اصطناع ، لا ينبغي أن نطلب إليه مهادنة إدراك حسي مباشر للأشياء ، في حين أن وظيفته تنظيم منظر لا تكاد تكون الأشياء فيه شيئاً . وهو يتضمن عملاً يقوم به « رجل - مغناطيس » يستخدم وسائل الغرض منها جذب الناظر والمستمع إلى شأكه . فالمصور والموسيقى يلجآن إلى طريقة خاصة يستخدمان إمكانياتها لأقصى حد مستطاع ، لكنهما لا يدعيان بأي حال من الأحوال بأهما ينقلان الواقع نقلاً وحتى الشاعر حين يعثر على « الانطباعات الدقيقة الهاربة للضمير ، لا يفعل هذا إلا بمساعدة وسائله هو ، فإن هو تخابث مع الكلمات ، أو عمل على معاملتها بالقسوة ، فليس ذلك بقصد تطهير النص الذي يكتبه شعراً من جميع الوسائل التقليدية المعروفة بقصد فرض تقاليد جديدة هي تقاليد فنه هو » (٤٧) . هذه وجهة نظر سبق أن حدثنا ودافع عنها بقوة الأستاذ بايير ، حيث قال : « إن الفن قبل كل شيء سحر . . وتنفجر أعمال السراب في كل عمل فني تصويري . لأنه عمل ساحر ، ملئ بالغرائب والمعجزات ، وما من شك أننا نجد فيه انعكاساً للحقيقة ويراد أن يكون هذا الانعكاس مطابقاً لها ، لكن لا يحدث هذا إلا بكل ما تفعله المرايا من خداع . . والامر أمر إنشاء مظهر مطلق » (٤٨) .

وبعد مدة ، يعود الأستاذ بايير إلى هذه الفكرة فيضيف قوله : « إن العمل الفني يتقدم لنا على هيئة تجميع للآثار التي يتركها خيال الشاعر البناء . وهذه هي حقيقته الجمالية . . وحقيقته بالضبط هي مظهره ، وكل عمل فني مظهر . . وظاهرة (٤٩) . لأنه لعبة حاو ، وسراب بمهارة ، وخداع عجب ، وكذبة جميلة . . وحيث إنه كذلك ، كيف يمكن أن يكون وسيلة للوصول إلى حقيقة ما في ذاتها ؟

إذا لم يكن للفن إذن مذهب وهدف ينحصران في معرفة الأشياء معرفة دقيقة، فإن البعض يرى أن سيكولوجية صحيحة للإدراك الحسى تكفى لإقناعك بهذا. إن بيرجسون يجهد نفسه عبثاً لتنقية الرؤية تنقية شديدة تصل إلى حد استئصال كل عامل ذاتى منها. لكن الحقيقة أن الإدراك الحسى النقى الخالص غير موجود، والإدراك الحسى كما ذكرنا، متفقين في هذا مع هنرى ديلاكروا، يعنى البناء. وأن تدرك حسياً شيئاً موجوداً أمر يتضمن اختيارك لهذا الشيء وقرار تتخذه بذلك. ونحن نمنح للشيء قيمة الواقعية بالرجوع إلى طريقة معينة تتبعها نحن، وبالاندماج في عالم ما، (٥٠) هذا قانون لا يمكن أن يتخلص منه الإدراك الجمالى، حتى إذا أراد الفن أن يكون على أكثر قدر من الواقعية. وإن تصور الخطوط المحددة للنموذج بكل ما يمكنك من إخلاص ودقة وتشدد أمر لا يمكنك عمله إلا إذا شيدت بنفسك الوضع المميز للشيء، وإذا اخترعت الشخصية أو الشيء. ونظمت الصورة في إجمالها مع إعطاء أهمية معقولة لكل تفصيل فيها، (٥١) والمثالية، إذ نفكر فيها من هذه الزاوية لا تقل خطأ عن الواقعية. فالفنان لا يكتفى بتقليد مثل أعلى، أو جوهر محتف خلف المظاهر، كما أنه لا ينقل المظاهر تماماً، «فالشجرة التى يصورها المصور ليست كما أرادها شوبنهاور تلك للشجرة التى تعيش خارج الزمان والمكان، والتى لا توجد بينها وبين هذه الدنيا علاقة ما، بل إنها الإدراك البصرى لوجود ملبوس إلى ما لا نهاية، يبينه الفنان ابتداء من قريحة ما... فليست إذأ هناك شجرة بالمعنى الحقيقى، بل الموجود هو ترددات الحساسية كلها تبعاً لما تشير إليه الطبيعة وتقدمه، إشارات تكون بمثابة دعوة لحركة تتحرك بناء عليها المزايا المميزة للشجرة، أكثر منها تلك المزايا قسمها. ولن تكون هناك إذأ معطيات ما، بل إن هناك خلقاً يتم طبقاً لموضوع معين. وبالاختصار فإنه يمكن أن تكون هناك معطيات جمالية دون رؤية الفنان نفسه. وما رؤية الفنان هذه فى ذاتها إلا العمل الفنى، (٥٢).

ومن وجهة النظر هذه لا يمكن للحاسة الشخصية للذاتية للفنان أن تتمتع بأى امتياز ، فنحن لا نصل إلى مادة النفس بنسبة مباشرة أكثر من وصولنا إلى مادة الأشياء ، إذ أنه « لا بد من مسافة معينة لكل رؤية ، بل ونجرو فنقول . . . لا بد من مسافة معينة لكل اتصال تلاصقى » (٥٣) وبالتالي فأنا لا أستطيع مهما يكن الجهد المبذول أن أتقابل وكيانى العميق ، وكل تفكير أقوم به يفترض وجود « انفصال بين العارف والمعروف » لدرجة يصبح معها التقابل المطلق بينهما هو بعينه القضاء على التفكير نفسه . فالعلاقة بين « الأنا والآنا » ، كالعلاقة بين الأنا والأشياء هو إذن « علاقة خطرة » أكثر منها « اندماج تصوفى » ، (٥٤) لهذا لا يمكن للزمن الذاتى للفنان أن ينعش كما هو زمن عمله الفنى (٥٥) ، فزمن العمل الفنى « ينظم طبقا لمراحل أخرى . . . وهذا الزمن التاملى يقضى على الزمنية الملقائية .. بحيث يصبح المشيد مطابقا للباشرة دون أن تتمكن من فصله عنها . والملاحظ هنا أننا لا نعرف فنونا زمنية ، ونحن لا نعرف أصلا « إلافنون الوزن » (٥٦) ، والوزن لا يلتصق بما يعيشه الضمير التفكيرى ، وهو ليس تلك « الديناميكية الإنسانية » كما اعتقد بيرجسون (التى تمكننا وحدها من أن نلص الواقع ، بل هو « نظام غير مستمر ، وتتابع ضربات ولا يوجد إلا فى العلاقات التى يساندها هذا التتابع » (٥٧) « ودعوة نفس الشيء تحت ما يفعله الآخر » (٥٨) . ومن هنا فإننا إذا أدركنا وحدها الديمومة ، فى إطار الوزن ، لوجدنا أنه لم يعد مباشرا . وينتج عن هذا أنه « بفضل رعاية الفنان ، يعدل وزن العمل الفنى أحلاما لن تكون أحلامه هو » (٥٩) وحتى الموسيقى نفسها التى يتصورها البعض كأنها تعتق نبضات الديمومة بأقرب ما يمكن أن يكون القرب « لا تستطيع دون وساطة زمن محدد الأسلوب أن تمسك بأوزان معينة من الحياة بصفتها قانونا يعيشه الفرد » (٦٠) .

فما من شيء أشد غرابة من هذا الإدراك الحسى النشط ، الإبداعى غرابة

وبعدا عن وسيلة الكشف الطبي المباشر ، (٦١) هذه . . . التي يدعو لها بيرجسون . وما من شيء كذلك أبعد من هذا التوافق الذي يصنع الاندماج بين الشخص المدرك والشيء المدرك ؛ ذلك أنه — كما يؤكد الأستاذ باير — يتضح أن حدس الفنان ذو طبيعة عقلية ، لا غريزية ، وهو حدس لا يمكن أن يلبس الأشياء ذاتها ، بل إنه يتكون من «تجريد موجه» وتحليل يتم في صفات ومزايا . وهكذا «يقوم العمل الفني بإذابة الموضوع، نقصد نموذجة الأصل لتحل محله مجموعة مشكلة عضوية من علاقات» (٦٢) . وما الفن إلا « هذا العالم الرفيع المكون من علاقات ، (٦٣) ، ولون ما تعزله عن باقي الألوان لن يكون جميلا مهما يكن نقاوته ؛ إذ لا بد له لكي يغنى أن يجاور لو نأ آخر ، هكذا الأمر بالنسبة « لهذه النقطة البيضاء ، الأكثر بياضا من بياض أقل درجة في البياض » التي نجدها في كتاب «الفيليب» فالجمال في عينى هو هذه العلاقة نفسها ، وهو موجود قبل وجود أى «عمل فى أسمى» هكذا لا يمكن أن تكون الحاسة لدى الفنان بالذات مجرد أداة تسجيل بل هى «عضو مقارنة» (٦٤) وقبل ان يكون المنظر قد ظهر على اللوحة ، تكون عين الفنان قد نظرت من خلاله واستخلصت بشكل جزئى أمام الطبيعة نفسها ، اللوحة العامة بما فيها من بروز وتجميع وعودة وحساب مترن للكتل المكونة له ، وتلك الخطط الهاربة أو العائدة ، وذلك التناقض المتوازن بين القيم ، وهذه الوحدة المكونة للضوء ، وهذا الربط بين العناصر الواضحة ، وذلك النسلسل فى الظلام ، وتقسيم الانعكاسات والمتوازيات ... وهنا يدخل العقل المفكر نفسه فى التجربة وهو الذى يهيمن على المقارنات (٦٥) .

لاشك أن الإدراك الحسى لدى الفنان يتميز عن الإدراك العادى . ولقد قدم لنا الأستاذ باير الدليل على ذلك . وما روى من هذا أيضا حيث يقول : إن النظرة اللامبالية التى يلقبها الرجل العادى على الفن ترتبط بما يفعل

أو يريد أن يفعل، (٦٦). وهكذا نجد صياد السمك الصيني، الذي لا يعرف فن التصوير لا يرى رسم الأمواج بأسلوب صيني، بل يراه بصفته صياداً، أى «بصفته رجلاً يحصل على الأسماك أو لا يحصل عليها». ومع ذلك فإن القول بأن الإدراك الجمالي غير خاضع لنشاط عملي أمر لا يعنى أن نتفق مع بيرجسون في اعتباره هذا الإدراك غير مرتبط بأى نشاط. وفى اعتقاده أن هذا الإدراك استقبالي فحسب «فروية الرجل غير الفنان تكون غير منتبهة عندما تتعلق بمنظر إجمالى، وقوته عندما تكون متعلقة بمنظر أخاذ ولا يمكن أن تتحدد إلا حين تكون مرتبطة بفعل ما. أما رؤية الفنان فهى تتحدد بنفس الطريقة مع فارق بسيط هو أن الفعل الذى يقوم به هو التصوير». وعلى ذلك فإن عملية التصوير تنحصر كما نعلم فى خلق أسلوب. وبالتالي فإن من غير المهم أن ننظر إلى طريقة استخدامنا للأشياء، بل إن الأشياء نفسها تكون عديمة الأهمية. فإذا تخلص إدراك الفنان من الحاجة، فإن هذا لا يحدث بغرض الحصول على معلومات غير هادفة عن الطبيعة. ويكون الإدراك إذاً «مشرط فحسب بعالم الفن» (٦٧).

لكن ها هو ذا. أخطر اعتراض على ذلك: إن الخطأ الرئيسى الذى ارتكبه بيرجسون، والذى تتفرع منه الأخطاء الأخرى كلها هو أنه يخلط بين الفلسفة وعلم الجمال أحياناً... يخلط بينهما بل ويجمعهما فى إطار واحد. فهو يرى أن هدفهما واحد، وأن طريقتهما واحدة، ويعتقد أن كليهما مكلف بأبعاد أفكار فوق واقعية تسرق الواقع والحقيقة، بقصد اختراق مجال المعرفة ليصل إلى الحقيقة العارية ويفاجئ «الأصل المتحرك للأشياء» بوصوله إليه بلغته. فإن فهمنا الأمر على هذه الصورة، لأصبحت الميافيزيقا علماً يدعى إمكاناته الاستغناء عن الرموز «مادمناء» لا نستطيع تشيل الزمنية عن طريق الصور» (٦٨).

ومهما يكن من أمر نستخلصه هو أنه إذا كان هذا هو دستور الميافيزيقا، فإن

دستور الفن يختلف عن ذلك ، لأن الفن لا يعيش إلا بالصور وبالرموز ، فهو لا يكتفى لحسب بأن يقبل في تطوره قيام مدارس الفكر والأساليب والأذواق التي « تقوم بالوساطة » (٦٩) ، بل إن كل عمل فني ينجم عنه عبارة عن تمثيل لشيء لا يتميز عن طريق تمثيله . ولقد كرر لنا فوسيون ألف مرة أن المعنى في الفن هو الشكل بعينه . ونحن نقول مستخدمين طريق التعادلية إن المعبر عنه في الفن يتجسد تجسيدا بالتعبير نفسه ، وإن الهدف فيه لا ينفصل عن الوسائل ، وإن الهدف لا يمكن أن يكون شيئا آخر غير الإنتاج المنظم لهذه الوسائل ومن هنا كانت أدوات الفن هي التي تجعل من الفنان أسيراً لها . . وما يسمى « ستار الكلمات » الذي يتحدث عنه للفيلسوف هو الذي يصنع طبيعة الفن كلها في الحقيقة . فالفن يتضح لنا في هدفه ، ويضع جماله بالذات في نسج لفته . . ومن المحال أن نبعد هذا الستار . . وإن أنت مزقته تكون قد قضيت على الفن ، (٧٠) .

إذا لم يكن بيرجسون قد كتب نظرية في علم الجمال إذأ ، فذلك لأنه — كما يرى الأستاذ باير — « لم يكن بقادر على كتابتها » . وحين أخذ يبحث عنها ، وجد نفسه رغماً منه أمام فلسفته هو ، (٧١) . فالحقيقة أن علم جمال ما ، ينمو في إطار حواس الإبصار التأمل لا يمكن إلا أن يفرق عاجلاً أو آجلاً في الميتافيزيقا ، كما تنهى الأنهار إلى البحار . ذلك أن الميتافيزيقا تأمل بالإطلاق ، ومتى تكونت حرمت الفنون من علة وجودها . ألم يعترف بيرجسون نفسه بهذا ؟ « فإذا جاءت الحقيقة تدق أبواب ضمائرنا ، وإن نحن استطعنا الدخول إلى مجال الأشياء واتصلنا بها وبأنفسنا ، لأصبح الفن عديم الفائدة ، أو « لأصبحنا جميعاً فنانين ، إذ أن روحنا تهتز في هذه الحالة باستمرار مع اهتزاز الطبيعة » (٧٢) . لكن ماذا تكون قيمة فن ما دون أن تكون هناك أعمال فنية ؟ وماذا يمكن أن يكون الفنان إن لم يعمل لينتج هذه الأعمال ؟ هذا هو الحائط الذي يرتطم به كل علم الجمال « الظاهري » لا يبحث إلا في أن يرى وأن يعرض نفسه للرؤية ويدعى أن في إمكانه

إعادة الكشف عن العالم بدلا من تصويره فنيا ، وينسى ، أن عالم الأشكال يذوب حالما لا يفكر فيها النشاط الجمالي ، ، وحالما يأخذ الفن في اتباع حقيقته المستقلة ذاتيا وبمجرد ، أن تصبح سعادة الفنان في الانتصار لا في الخلاص ، (٧٣) . ولقد جرب أفلوطين هذا حين أخذ يبحث عن الجمال وحين وصل إلى قمة الشوة فترك رؤية العين و ، انفصل فجأة عن الأشياء ، ليأمل في المفهوم عقلا ، . ومع هذا فقد كان أفلوطين صوفيا متصوفا . . ويرجسون الذي يدين له بالكثير ، مثله في هذا ، ومن هنا كانت كارثة الفرق التي قضت على علم الجمال عنده . أنظر إذاً واسكت ، فما إن يصل الفنان إلى قمة طبيعته التأملية ، حتى يقضى على الفن (٧٤) .

هكذا يكون توجيه علم الجمال في طريق الواقع معناه ، خطأ في دخول العالم الذي تريد أن تعيش فيه . إننا نقرب هنا من حقيقة المشكلة ، فالامر هو أن نعرف لمن تكون الأولوية ، للقيمة أم للوجود . . لمبحث القيم أم لمبحث الوجود . . للإنسان أم للطبيعة ومهما يكن المذهب الذي يخلفه بيرجسون لنفسه عن الواقع ، فإنه — أى بيرجسون — يظل في مجموعه من أنصار مذهب ، الجوهرية ، ، لأن جهده التفكيرى يرمى إلى معرفة الأشياء كما هى عن طريق التأمل الجمالى أو عن طريق القرينة الفلسفية . لكن ماذا تكون ، القيمة ، داخل هذه النظرية ؟ يرى الأستاذ باير أنها تختنى ، إذ يقول ، إن كل المستويات المسلسلة تسلسلا طبقيا تلغى نفسها بنفسها ، ولالإدراك الخالص قيمة إدراك خالص آخر ، . ومع هذا فالفن يفتق وبفضل ويقارن ويرفع هذا الشيء لا ذاك ، وإذا كان الفن يمنح الخلود للخطئة ، فذلك لأنه رأى أنها تستحق الخلود ، وهو وسيلة لإعلاء الشيء الذى ينتقيه ، . مثال ذلك أن جمال بطل المسرحية المأساة لا يأتى كما يفترض بيرجسون من أنه يجلب في وضوح النهار مشاعر دافعة ترقد في

أعماق كل منا ، بل إنه يأتي من أنه يجسد قيما تتعلق وترتبط بها حماسى وأهدافى لما حرمت منه ، (٧٥) .

وبالاختصار فإن الفن من معدن القيمة وليس من معدن الوجود، (٧٦) لأن الكائن هو الشيء المعطى ، فى حين أن القيمة هى الشيء المبدع وإذا كان علينا أن نكتشفها فإنه ليس علينا أن نصنعها مادامت قائمة ، فإذا ماتم امتصاص القيمة فى الوجود ، وإذا ما تطابقت القيمة مع الوجود ، ذاب الفن فى التصوفية ، واستقال الإنسان أمام الطبيعة وتنازل عن حقوقه . وهكذا يكون المغزى النهائى للفن إذن هو أن الإنسانية تؤكد وجودها فيه بصفتها خالقة للقيم . ولقد سبق أن اقترح هـ . ديلاكروا هذا فقال : « إن العمل الفنى ، شأنه شأن الفعل المعنوى أو الأخلاقى ، ترجمة واضحة لحركة العقل واتجاهه نحو سيادته ونحو اكتياله ، وهو يتمتع بقيمته لأنه ينبع منه ، (٧٧) . ويعود الأستاذ باير بقوة إلى هذا فيقول : « إن حركة إنسانية تسكن عالم الفن ، وإن صح التعبير ، هى عبارة عن صعود روحى ذووب للنوع ، (٧٨) ، ألا يمكن أن نعتقد أننا نسمع فى هذا قولاً صادراً عن مالرو ؟

نقر النقر

قد يصل الأمر بمثل هذا التحقيق فى آراء بيرجسون إلى القضاء عليها لأنه — أى ذلك التحقيق — قاس لدرجة كبيرة . لكننا مستعدون وما زلنا أن نبعث الحريق فى نظريات بيرجسون . ليست الحقيقة العميقة ، أو على الأقل ليست وحدها هى ذلك التطور المادى الذى لا يفتأ هذا الفيلسوف أن يعود إليه . إن نظريته فى البديهية وفى الإدراكية لا يمكن أن تقبل دون قيود ، ومع كل فإن كل ما يقال عن وحول علم الجمال البيرجسونى لا يمكن

أن يبعث إلينا الرضا . فالعمل الفني ليس بمثابة مظهر ، فقط ، بل إن له سمكا وكثافة وجودية . ويقدم لنا شيئا لنعرفه ، وتدل على هذا تجربة الهواة الذين لا يعلمون العلم حقه ، إلى جانب ما يصرح به الشعراء والفنانون عادة .

لنبدا أولا باستبعاد بعض أنواع النقد التي لا يصحبها تبرير كاف . يقال إن « هدف الميافيزيقا هو الوضوح الخالص ، لا الفن . هذا هو اللا منطق الذي يدين به بيرجسون » (٧٩) والحقيقة أنه ليس من المؤكد أن بيرجسون مذنب في حق المنطق ، فكتاباته متباينة لحد كبير ، فالبدئية الفلسفية نفسها — إن نحن صدقناه — عبارة عن « حركة فكر » أكثر منها رؤية تحمل معها وضوحها المؤكد ، وهي أكثر من هذا أيضا عبارة عن اتجاه حركة (٨٠) . إنه على أية حال لم يدع يوما بأن الفن يستطيع الاستغناء عن الرموز ، بل إنه قال أيضا بعكس ذلك : « إن البدئية الفلسفية ، بعد أن تكون قد اتجهت في اتجاه البدئية الفنية ، تذهب إلى أبعد من ذلك بكثير ، وتضطرب بالحيرة قبل أن تتفرق على شكل صور ، في حين أن الفن يعتمد على الصور » (٨١) .

إننا لا نرى أن مثل هذا الرأي من شأنه أن يعرض الفن للخطر وأن يزج به في الميافيزيقا . لأنه إذا كان بيرجسون يرى « أنه إما أن يكون الفن عديم الفائدة ، وإما أن نكون جميعا فنانيين ، وذلك بفرض أننا نعرف كل الأشياء مباشرة وبالتام ، فإن هذا الغرض لا يمكن أن يتحقق ، وهو يعرف هذا جيدا . ويصرح الأستاذ باير بقوله : « إن الفن يتميز ، بطاقة خاصة تسمح بالتجسيد ، وحتى الظلام الذي يخيم على الوسائل الفنية للتنفيذ ، هي التي تصنع التماسك القائم بذاته للفنون » (٨٢) . هذا صحيح جدا لكن لا يلوح أن بيرجسون قد أنكر ذلك .

ومن الأمور التي لا يمكن إفرادها أيضا ذلك الاتهام الموجه لمؤلف

المطور الإبداعي ، من حيث إنه لم يقدر قيمة الخلق الإبداعي لصالح الرؤية ، في مجال علم الجمال . ولقد توقع بيرجسون هذا النقد ورد عليه مقدما ، فقال : هل يقال إن الفنانين لا يرون بل إنهم يدعون ؟ هذا حق ، لكن إذا كان الأمر هكذا فحسب ، فلم نقول عن بعض الأعمال الفنية إنها واقعية ؟ (٨٢) . سؤال شائك ، ذلك الذى يتعلق بالواقع فى الفن . لكن بيرجسون لا يجد له حلا فى الإطار المثالى الذى يتحدث فيه الأستاذ باير .

وواقعية العمل الفنى فى نظره ليست مستقلة استقلالاً ذاتياً كاملاً . وهى لا توجد فى النّاسك الداخلى للعمل الفنى وحده ، بل كذلك فى العلاقة المضبوطة التى تقيّمها الأجزاء مع الكل ، وهى تتضمن إشارة للطبيعة باعتبارها نموذجاً ونحزناً للجمال لا ينضب معينه . « ولدنيا عمل فنى أغنى بكثير جداً من دنيا أكبر الفنانين » ، ومع هذا فإن أكبر الفنانين ليس بأقل قدرة على الخلق بكل ما فى هذه الكلمة من قوة ، فهو يضيف فعلاً إلى الطبيعة أشياء جديدة وبفضله يأتى إلى الدنيا شيء جديد غير منتظر . لهذا فنحن نقضى بأن نجد من الواضح أن الفنان يخلق المحتمل فى نفس الوقت الذى يخلق فيه الواقع وذلك عندما ينفذ عمله الفنى ، (٨٤) . كيف إذاً والحال هكذا أن يقال عن بيرجسون « إن الأعمال الفنية بالنسبة له معطاة — وهى الطبيعة لا يبقى منها إلا أن نكشف عن نواحيها المتحركة — وهذا ما يتميز به الفنان . . وكل ما يجعل من الفن خلقاً يفوته إدراكه ، (٨٥) .

ومن المؤكد أن بيرجسون يفضل من الأساليب ما يسميه أسلوب الرشاقة ، ويعتبر الفن ، كالرشاقة ، وسيلة للإغراء . وهو فى هذا يدين لعصره وثقافته ولأستاذه رافيسون . لكن « ليس بالإغراء تبهرنا مصورات « الموزاييك » ، التى قدمها رافين ، ولا العالم الجهنمى الذى قدمه جوياء ، (٨٦) . اعتراض ذو مدى تافه . . . إذ ما هو الإغراء وما هو الإبهار فى الواقع

اللهم إلا أنهما جنسان من نوع واحد؟ إن لوحة «موزاييك» لرافين لا تجذبنا بنفس الطريقة التي تجذبنا بها لوحة «ايدولينو»، ولكنها تجذبنا بنفس درجة الثانية. هكذا يصبح تحليل العاطفة الجمالية كما يقدمه بيرجسون مقبولا في جوهره. وليس من الخطأ أن ندرك من خلاله وجود حواس عضوية تتعلق بالحركة وبالارتياح وبالحياة - ويقال إن هذا غير صحيح في أعمال جويا وجريكو ورامبرانت، وإذا كانت الكاتدرائية القوطية لا توحى لنا بالدفة العليا فإن الكنيسة الرومانية «تجمدنا» (٨٧) لكن أعتقد أن في هذا مبالغة، فالأسلوبان القوطي والروماني يخضعان لوزن ما، ولو أنه في كليهما يختلف عن الآخر. وهل يمكن أن نحكم على لوحات جويا وجريكو ورامبرانت بأنها جميلة إن هي لم تقدم لنا شعورا لطيفا رغم فعل «الصدمة» التي توحى بها. وإن هي لم تبعث فينا لذة حين ننظر إليها؟ هناك ولا شك لذة ولذة.. أنواع مختلفة منها. كما أن هناك أنواعا مختلفة من الانفعالات، وأعتقد أن بيرجسون قد أخطأ حين قال إن اهتزازات الروح ترجع إلى أى خلق فني. «هل يمكن أن يقال نفس الشيء عن الكتابة الموسيقية الضيقة المنتظمة الشديدة التي قدمها باخ؟» (٨٨). لم لا؟ الأمر كما نذكر أمر انفعال عقلي خالص، بل وانفعال فوق العقلي.. ففي أى شيء يختلف هذا الانفعال عن عبقرية باخ؟

مع هذا، فإنه يكفي دفاعا عن بيرجسون. ولناخذ المعركة لحسانا ونعد إلى قلب المشكلة. أن يكون الفنان المصور شيئا آخر غير المصور الفوتوغرافي أمر نعرفه تماما، «فالنموذج لا يعود إلى الظهور على اللوحة، كما يعود الرسم المشكل من الواقع. والعمل الفني لا يمكن أن يكون قطعة قماش تحسب» (٨٩).

لكن ماذا يمكن أن نستنبط من هذا؟ هو ببساطة ما نعرفه من

أن ليس هدف الفن أن يمثل مظاهر الأشياء ونواحيها العادية السطحية . فإذا ابتعد الفنان عن مصاحبة هذه المظاهر السطحية ، وغير أشكال الأشياء ، بل إنه إذا تخلص من كل تقليدية مباشرة لما يراه أمامه ، فإن هذا السلوك يعنى ، لا أنه يخضع لما يتطلبه التنفيذ التشكيلي فقط ، بل كذلك أنه يعبر عن حقيقة أعمق يكون قد أدركها في مجال خارج عنه أو في داخل قرارة نفسه . والفن — عدا عصور الانهيار — كان دائماً يهدف نحو حقيقة مصاغة في لغة الحواس ، بل إنه يتخطى حقيقة الحواس ، وتطور فن التصوير الحديث لا يناقض ذلك ، وهو يتميز بالرغبة في التعبير المباشر عن عالم أكثر واقعية ، عالم متداخل في الكون وفي الفنان ، عالم هو في آن واحد وبلا انفصال محسوس وروحي . . . يعبر عن هذا العالم دون الالتفاف حول التمثيل النقلي ، ويعبر عنه أكثر مما ينكر العالم الخارجي . إذاً لا يهم أن نتعرف الشيء الأصلي أو لا نتعرف . ولا يهم أيضاً ألا يكون الحصان الأبيض ، الذي صورهِ جوجان أبيض ، أو أنه يرتوى بالقرب من حصان أحمر . فالحقيقة المقدسة ، كما يقول كلوديل (٩٠) حقيقة — تفهم من خلال المجال الداخلي ، للصور كما يقول رودلف ، ولذا فهي تثبت وجودها أحسن مما تثبته نسخة واقعية جافة . ويقول الأستاذ بايير إنه إذا كان للفن مذهب فإن هذا المذهب لن يكون شيئاً آخر غير فلسفة نجاح العمل الفني (٩١) . — نعم — و — لا — لأنه : ألا يمكن أن يكون الفن إلى جانب هذا فلسفة على أكبر درجة من الإخلاص ؟

والفنان — كما يقول الأستاذ بايير أيضاً — « لا يفكر في أن يمرض علينا شيئاً ، لكن هذا الشيء ذاته يكاد يرى ، (٩٢) . أظن أن في هذا مبالغة واضحة ، فكم من المثاليين والمصورين والأدباء القصصيين والشعراء قد كرروا بألف طريقة تلك الفكرة التي قال بها فلوير : « افقاً عينيك وأنت تنظر طويلاً ، لاشك أن النظر طويلاً لا يكفي ، فالنظرة ذاتها ليست عملاً

فنيا . لكن لابد من أن تكون النظرة نقطة البدء . وإلا فلم يبق الفنان طويلا أمام نموذجه ليدرسه ؟ إن من السخرية الادعاء بأن الانطباعيين لم يفرسوا قائم لوحاتهم وسط الطبيعة ليروها رؤية أحسن ما يمكن أن تكون الرؤية .. وما هذا الادعاء إلا لأنهم في الحقيقة اخترعوا لنا أسلوبا . والقول بأنهم مارسوا أكبر قدر من الحرية إزاء النموذج ، وبأنهم صوروا أجل مناظرهم كاملة متكاملة داخل غرفة التصوير ، قول لا يمنع من أنهم أول الأمر قد وضعوا «الزبد في عيونهم» كما قال رينوار . فنحن إذن لانستطيع أن نوافق على تأكيد من هذا النوع : « إن الفن يتقدم أمام الواقع وقبلة ويخفيه بستار ، وذلك بكل وسائل سيره الداخلي ، وبكل قوى الإنتاج عنده » (٩٣) .

لقد كان الأستاذ بايير أكثر إلهاما ، مهما يكن غموض تلك الاستعارة التي استخدم فيها « المرأة » بعد كل من أفلاطون وفنشي وستندال وبروست وعلى قدر علمي ليست المرأة ستارا .. « امرأة محطمة » لانعكس إلا بعض أجزاء . « امرأة لا يعطى عليها إلا » منظرا غير مباشر » (٩٤) بالقدر الذي يزيد . لكن أمي امرأة مشوهة للأشكال ؟ هذا موضوع آخر . لكن الأمر أمر نوع من المرايا السحرية بالمعنى الذي يسمى فيه بـ «دليل الشعر» سحر استدعائي ، أى سحر يسمح للأشكال الملبوسة أن تظهر في الحقيقة التي لا تقع تحت حواسنا . والأستاذ بايير إذ يدافع عن نفسه هو ، يضطر تماما إلى أن يعترف بهذا . فهو يقدم اعترافا يقول فيه إن الفن يمس الواقع «بومضات» ويدخل في الموضوع « لحظة » وإن الفن العبقري خاصة يتعدى عن طريق « غطسة » سريعة وسائل الفن (٩٥) . وإذا سمح لنا أن نعتبر الفن العبقري هذا بمثابة النموذج الأعلى لكل فن صحيح ، فإننا لانطلب أكثر من ذلك . ولم يكن بيرجسون نفسه يعتقد أن القريحة ، سواء أكانت فلسفية أم جمالية ، هي خبز كل يوم .

المؤكد أن الفن يتضمن الاصطناع ، وذلك بنسبة متغيرة طبعاً ، فالاصطناع في قصيدة مديح عابرة يختلف عنه في ديوان « الليالى » لموسيه ، وهو ليس بعينه في التصوير الزخرفى والتصوير المنزلى ، أولدى فيرونيز وأوديلون ريدون . إذا الأمر أن نعرف هنا ما إذا كان الاصطناع فى أى عمل فنى عظيم حقاً هو طريق الإخلاص للحقيقة والواقع . ألا تقاس قيمة عمل فنى ما - بقدر النجاح فى التنفيذ - بالتجربة الروحية المحمل بها وبالضرورة الداخلية التى ينبع منها ، وبخصب الرؤية التى يقدمها - وباختصار بوزنه الواقعى ؟ إن الفنان ساحر لكنه ليس حاوياً أو بهلواناً ، ولا يرمى عمله إلى ذر الرماد فى الآعين أو إلى إظهار « مظهر » واه تافه ، أو إلى تجميع علاقات لا سند لها . وإذا كان الفنان يبحث فى تنظيم « تأثيرات » فهو يفعل هذا ليقول شيئاً ، حتى وهو يحفل ما سوف يقول . هل يصح الشعر إذا مجرد لعبة لفظية ... ويصبح أى متحف تصوير نوعاً من متحف شمع ؟

ما من شك فى أن « الأنا » الفنانة ليست هى بعينها الأنا العميقة ، كما يدعى بهذا بيرجسون على الأقل . ما هى إذا ؟ إنها أحياناً « أنا » ميتافيزيقية - نحن نقر هذا - وأحياناً « أنا » مشعوذة (٩٦) . إن هذه كلمة فانت الأستاذ باير ، إنى واثق من ذلك . أيمكن أن يكون رامبرانت وشاردان ودوميه وفان جوخ وسيزان مشعوذون بسبب مهارتهم الفائقة ؟ هل يمكن أن يكون جيروود وكوكتو ويكاسو كذلك لأنهم نظروا إلى ما فوق الواقع ؟ إننا لن نوجه إليهم هذه السبة . إن حياة الفن بالنسبة للجميع تقريباً مجازفة خطيرة للغاية ، تحمل فى طياتها أحياناً بطولة كبرى بحيث تقضى على هذه السبة . أعد قراءة رسائل لشاعر شاب تلك الرسائل الشهيرة التى كتبها ريلكه . هل تموت إن أنت صنعت من الكتابة ؟ سل نفسك فى أشد لحظات الليل سكونا : أمضطر أنا إلى أن أكتب ؟ واحفر فى نفسك لتصل إلى أعق الرد . فإن كان هذا الرد بالإيجاب ، وإن أنت استطعت أن تقاوم

مثل هذا السؤال الخطير بقوة وساطة وتقول : « يجب على ... » ، إن فعلت هذا فاشرع في بناء حياتك تبعاً لهذه الضرورة ، ويجب أن تصبح حياتك هذه - إلى أشد اللحظات خمولا وأكثرها فراغا - علامة وشاهداً على مثل هذا الدفع . هنا اقترّب من الطبيعة . . . (٩٧) . أين أثر الشعوذة في هذا كله من فضلك ؟

إن الحجاج التي نعارض بها الأستاذ باير تصلح من باب أولى لتنفيذ آراء مالرو وأنصاره ، وذلك أن الفن في نظرهم انتصار لأسلوب وممارسة له وليس تعبيراً عن رؤية إطلاقاً . فهم بهذا يرفضون الصيغة التي قال بها بروسست من حيث « إن الأسلوب بالنسبة للأديب وللصور على السواء ليس مسألة تنفيذ فني ، بل هو خاصة من خواص الرؤية (٩٨) » . ونحن نقر رأيهم هذا تماماً ، بل ولقد أثبتنا بأنفسنا أن الأسلوب باعتباره خاصة للرؤية قول غير كاف . فهما يكن الحدس جديداً فهي عديمة القيمة إن لم تتجسد في الأشكال . وحيث لا يوجد الأسلوب أو وسيلة التنفيذ ، لا يوجد الفن . فهل نستنتج من هذا كما يفعل مالرو أن « الرؤية في خدمة الأسلوب » لدرجة يحدد فيها الأسلوب للرؤية ؟ إن المثل الذي استعرناه حالاً من بروسست لا يسمح بهذا أبداً . مؤكداً أن النص الأول من الجزء الخاص بأزهار الشوك في قصة جان ساني (لبروسست) لا يتمتع بنفس التدفق ولا بنفس الإتقان الموجود في النص النهائي من قصة صوب بيت سوان . ومع هذا فبين الحالتين - أي بين مغزى النصين - مرت خمسة عشر عاماً ظل بروسست يعمل خلالها وبعدها ولد فنان (٩٩) ليسكن هل يدل هذا على أن الرؤية البدائية لم تكن قد استمرت في البقاء لدى مؤلف سوان ؟ العكس هو الصحيح ؛ فقد تعلم بروسست مهنته بين عامي ١٨٩٨ ، ١٩١٣ ، وخلق أسلوبه هو ، وحسن آلته الموسيقية وشديداً . ولكن لم كل هذا يا إلهي ؟ إن لم يكن لأنه أراد أن يكون قادراً على التعبير عن « رؤيته هو »

وهكذا فإن الفن ليس أسلوبا فحسب ، ولا هو خاصة للرؤية فحسب ، بل هو كلاهما في آن واحد ، مادام الأسلوب الأصيل وسيلة لترجمة إدراك أصلي للحقيقة الداخلية أو الخارجية . من أين يأتي انحطاط العمل المقلد ، الذى يندد به مالرو ، إن لم يكن من حيث كونه نوعا من جسد دون روح ، أو طريقة كتابة أو تصوير لا تبرر صحة طريقة الإحساس أو التفكير ، أو شكلا لن يستمر الوجدان الحى فى ملء فراغه أو منحه الحياة ؟ وكيف نستطيع أن نعرف السبب الذى من أجله يعذب الفنان نفسه كل هذا العذاب (وهذه فكرة أساسية عن مالرو) لكى يقطع بين نفسه وبين طريقة التنفيذ التى اتبعها سابقوه ، ولكى يخلق طريقته هو ، كيف إن لم يكن لديه شئ ، يقوله ولم يسبق أن قاله أحد غيره ؟ إن هذا الانفصال بين الفنان وسابقه ، كما أفهمها ، تؤكد لشخصيته . لكن أليست الشخصية أقرب ما تكون ، أو أبعد ما تكون عن الحقائق ، أو سابقة لها ؟ يقول مالرو قولاً رائعاً حين يتساءل : إلى كم من الأيام يحتاج الفنان لكى يكتب بنغم صوته هو ؟ (١٠٠) لكن ما الصوت إلا صدى النفس الذى تكشف فيه هذه النفس وتعبّر عن نفسها من خلاله ، إن بيت شعر يكتبه لافوقتين أو لامارتين ، أو جملة يكتبها سان سيمون أو شاتوبريان أو مالرو أو آبة من آيات كلوديل عبارة عن تنفس لأفكارهم ، وإن صح القول ، بمثابة ، الايقاع الحى . . . يقول ج. شاردان إن الأسلوب هو النغم ، والنغم يأتي من الأعماق . . . إنه الصوت المميز للتربة الداخلية الخاصة .

وسواء رضينا أم لم نرض ، فنحن منساقون من جديد نحو بيرجسون فى بحث الجوهر . على أن مالرو ليس بعيداً عن هذا الجوهر . كما يتصور البعض ، فهو يقول : « إن كل فن تعبير عن عاطفة أساسية للفنان إزاء العالم ، يكتسبها فى بطاء (١٠١) ، ذلك أننا نجد رسماً تخطيطياً أولياً » يلزم الفنان المبدع ويومئ إلى التجسد فى صورة جديدة . « فهذا

النداء الذي يطلقه النفير الرومانى أسفل الكوليزيه الذى استقى منه كورنى أحسن ما استقى والذى نعرف من خلاله أحسن ما كتب ، وسعف النخيل الذى كانت أبيات شعر راسين تميل تحته . . وكورنى وراسين لم يفعلا إلا أنهما أخلصا لهذا النفير وذاك السعف فحسب . وعند فيكتور هوجو ، يلاحظ أن هذه القوافى دور جزء من أجزاء فرقة موسيقية - أو كسرا - وتأخذ الكلمات فى التحسس لتلحق بهذا الوزن المنتظم ، لأن هذا الوزن غير مرتبط بها (١٠٢) ونفس الشيء يحدث عند المصورين ، إن مخطط كلى (Klee) خط هش حاد على قائم غير منتظم وهو خط الرسوم اليدوية لدى القدماء . ومخطط كورو وشاردان وفرمير تبسيط فى التناسق ومصيدة مضئنة (١٠٣) . إذا . . هذا مخطط الأولى الذى يستجيب إلى العاطفة الأساسية للفنان إزاء العالم . ألا يحوى فى بذوره الأولى « رؤيته » الخاصة للأشياء وللحياة وللإنسان ؟ ألا يشبه المخطط الديناميكي الذى تحدث عنه بيرجسون كما يشبه الأخ أخاء ذلك النهج الذى يخرج من الوجدان الإبداعي ليكون مجهودا للتعبير عنه فى دقة ؟ ماذا يعنى هذا المخطط الإيحائي الذى يدين به الفنان لكونه ، مخلصا فى بساطة اللهم إلا أن إرادة الانفصال والتوصل إلى الأسلوب شيئان تتحكم فيهما الرؤية .

ويرى « جيد » أن الأعمال الفنية الكبرى إنما تطفو بجلدها حينما يفرق الزمن كل شيء . . ومالرو يرى بدوره ولا يرى فى أيامنا هذه التى ماتت فيها « الأساطير القديمة » التى أوحى أصلا بالأعمال الفنية . . فى تمثال عذراء روماني مثلا ، أو تمثال بوذا أو أى تمثال « سومرى » ، إلا « تحفا » . ويرى آخرون غير جيد وفاليرى أن نظريات بروسست قد أصبحت عتيقة إلى حد ما ، وأنها لم تعد ذات قيمة كبرى اليوم إلا بفضل أسلوبه (١٠٤) لكن كيف لانهم إلا بالأسلوب ؟ إن الأسلوب بالقدر الذى يترجم به موقفا وجوديا أو نعبر به عن رؤية معينة (وهو نفس الشيء) يتضمن

مع المعنى لأنه ما من أحد يستطيع أن يفهمه أو يتذوقه إلا وهو يشارك على الأقل في هذا الموقف أو تلك الرؤية ولولدة لمحة توافقية بسيطة. ولقد كان أول من قدم الدليل على هذا، وهو الذى لا يجب من الأعمال التصويرية التى أنتجها عصر النهضة إلا القليل على وجه الاستثناء، فرغم أن الأعمال الفنية الكبرى تحتفظ فى هذا بالإهاب الخارجى، لها، فإنها لا ترجع فى عظمتها إلى العاطفة الرئيسية بإزاء العالم؛ لأن هذه العاطفة عاطفة مؤلفيها، لا عاطفة العالم. لماذا يعلى ويكبر مالرو إذا القناع الزمجي ويحملة قلقه النفسى!!! إلا لأنه يكتشف له - أو يمنحه - معنى لا يمكن لأحد من معاصرى نابليون الثالث أن يمنحه له؟ إن أسلوب بروسى ما كان ليوجد دون رسالة حملها بروسى. وما كان له أن يوجد إلا لأن أسلوبه هذا يمارض مع أسلوب كل من سبقوه. ولأن هذا الأسلوب يصطبغ بالحياة لسبب واحد هو أنه يؤدي إلى اختراع أشكال متباينة جديدة، (١٠٥) إنه حتى بحياة الوجدان الذى يكسوه بكساء متقن ود على المقاس، الكساء الذى يضطر إلى الموافقة عليه رغم المعارضات. اذ يقال إن فن بروسى لا يهدف إلا إلى أن ينقش فى المادة اللفظية تدفق الحياة الداخلية مادام مخططه الأولى هو الصلة التى طالما أهملت قيمتها بين الحواس والمشاعر التى تنيرها أو تنتجها (١٠٦) أليست النظريات والأفكار، أو بدقة أكبر الجزء الهام من رؤية بروسى، هى التى تنسج داخل الأسلوب نفسه؟

منذ بدأنا هذا البحث ونحن نربط الجمال بالكائن، وبالتالى نربط علم القيمة بعلم الوجود. لكن كان هذا الربط فى نظر الأستاذ باير مبعث أسف ولعنة، فهو يرى أن مثل هذا الازدواج يعرض استقلال الفن للخطر، ويضع دقة الحكم الجمالى وحق الإنسان فى تقرير القيم موضع الشك والاحتقار. لكننا نرد على ذلك بقولنا: إن الجمال ذاته ليس احتكاراً للفن، وإن جمال الطبيعة غير ناتج عن جهد إنسانى، فكل ما هو جميل فى الطبيعة يتقدم

لنا كتمام ونسبة تنسب إلى الكائنات. الطبيعية ونحن نستطيع لذلك أن نبعث بالاستاذ باير إلى الأستاذ سوريو ليعلمه أن الأعمال الفنية لا تدين بهيتها إلا لرتبة السمو بوجودها ، أقصد القوة والتماسك وضرورة الوجود التي تضعها في الكائن وتخلق وجودها وما فوق وجودها ، فهكذا لا يمكن للقيمة أن تنسك الكائن ، وفي حالة الجمال الفني وفي حالة الجمال الطبيعي على السواء ، لأن هذه القيمة تقوم على الوجود وتختلط به . فكلما كان هناك جمال كان ثمة وجود أما القبح فهو عدم الوجود بالنسبة للكائن ، والقبح المطلق هو العدم المطلق ؛ إذ لا يمكن أن تكون لشيء ما قيمة النسبة إلى - أقصد إذا كنت أهتم بهذا الشيء - إلا إذا كان ذلك الشيء يستجيب لرغبة أو إرادة أو أمنية عندي . ومع هذا فليست هذه الأمنية هي التي تخلق القيمة بل هي التي تتعرفها وتتعرف نفسها فيها ، وتستقبلها وتمتلكها لنفسها . بهذا وبهذا فقط يمكن أن نفسر ظاهرة « خيبة الأمل » : فإني حين أنتظر من شيء أن يتلحنى ثم لا أجده فيه إلا عظاما خاوية ، أبقى جائعا ، وما طعم الجميل إلا شكل من أشكال هذه الأمنية . وهو حب الكائن حين ننظر إليه باعتباره يستحق النظر إليه ، أي حين نصوره لأنفسنا بصفته قادرا على إشباع العقل والحواس .

وقد يسألنا الأستاذ باير إذن ما فائدة الفن والفنانين . ولم يحس الإنسان لحاجته لإبداع الجمال ؟ ذلك أنه مادام الجمال خاصية للكائن ، فهو يمنح ويولد مع الكائن ، ولذا فإن الشيء لم يصبح في حاجة للكشف عنه ولن يصبح في حاجة إلى صنعه (١٠٧) لأنه قائم فعلا . وما كان هناك مكان للنشاط الفني وفنطرية توصي بتأمل الطبيعة . ونحن نرد على هذا بقولنا إن معنى ذلك القول أننا نفسي أن الكائن - أو بالأحرى الكائنات الملموسة الموجودة - نقبل عدداً كبيراً ، أو كما كبيرا من التحسينات . وهي حين توجد لا ترض طموحنا على السواء ، ومن هنا كانت لدى الفنان حركتان تجر إحداها

الأخرى دون أن تتعارض : فن ناحية ، نجد أن من الضروري استخلاص ما يتضمنه الشيء من كيان وجمال، ومن ناحية أخرى يجب أن يضيف الفنان إلى هذا الجمال وذاك الكائن شيئا ، وأن يضع في العمل الفني ما هو غير موجود في النموذج الطبيعي، أو بوضع ما هو موجود وغير مرئي فيه . ومن هنا نقول : إن عالم الفن لا يتعارض مع عالم الطبيعة ، بل هو امتداد له ، يستند إليه ويكشف عن كنوزه ، ويعمل على السعي إلى النجاح ، أكثر وأحسن منه ، بمعنى أنه يسعى إلى تعديده وتحطيه وتنفيذه وعوده التي لم ينفذها هو بالتام . إن هناك بعض النصوص التي كتبها بيرجسون لا تنكر مثل هذا التفسير ، وبذلك فإن من الصحيح أن نقاء الإدراك الحسي لا يمكن أن يكون وحده قاعدة جمالية كافية ، لأنه يخضع الكائن الذي يجب إدراكه بلا شك والذي يجب بالإضافة إلى هذا أيضا تقويته وترقيته . فالمبدأ الرئيسي إذا في كل شيء هو أن هذا الطموح مهما يكن الاسم الذي يطلق عليه ، هو الذي يصنع الفنان ، كما يصنع العالم والبطل والفيلسوف وهي التي تشكل أعرق ما في أعماق الـ ، أنا ، .

المعرفة الجمالية

لم يكن من المستحيل ، مهما قيل ، إيجاد العلاقة بين دور الفن في الكشف عن الواقع والوسائل التي يستخدمها العمل الفني بعد أن يكتمل في جذب الرأي له (١٠٨) ولقد كان من الضروري أن نرتفع حتى نصل إلى فكرة عليا نتخطى بها التردد بين الكشف عن الواقع ووسائل جذب الرأي فكرة تسمح بالتوفيق بين البحوث الصحيحة ذات التناقض الظاهري فيما بينها . فالحقيقة أن أصالة الفن تنبع من أنه رؤية وإبداع في وقت واحد فالفنان - وهو رجل مغموم بالطبيعة إلى درجة كبيرة جدا - رجل معجب بجمال

الدنيا ، وحساس إزاء أقل ما يقدمه الواقع ، يعتبر في نفس الوقت رجلاً يعيد خلق الطبيعة ، ويصنع الأشياء الموجودة بذاتها ولذاتها ، ويبني عالماً على هامش الحقيقة الواقعية ، فإذا كانت هناك إذن معرفة جمالية فهي من نوع خاص جداً يجدر بنا أن نحدد خطوطها المميزة لها .

نلك المعرفة الجمالية هي قبل كل شيء معرفة شاعرية إن نحن استخدمنا تعبير ماريان ، أو هي معرفة الفنية الشاعرية إن نحن استخدمنا تعبير الأستاذ جيلسون ، ولنفهم ذلك طبقاً للأصل اللغوي لهاتين الكلمتين : شاعرية Poétique لدى ماريان ، أو فنية شاعرية Poétique لدى جيلسون ، ونستخلص منه أنها معرفة ترتبط بالنشاط الإبداعي الذي لا يمكن ممارسته إلا في الإبداع وفي طريق العمل الفني الذي يتولد عنه ، هذا ما لا يبدى الفلاسفة المحدثون استعداداً كبيراً لقبوله . فالمعرفة عندهم «تعرف» ولا تفعل شيئاً من ذاتها وبذلك فإن فلسفة الوجود التي طبقناها وندين بها تبدو هنا على عكس هذا الرأي ولكنها توضح لنا ولهم الشيء الكثير . فكما أن الوجود الإلهي في الله هو العلة الحقيقية لوجود المخلوق الذي يمنحه الخالق وجوده ومفهومه في نفس الوقت ، فإن الصورة الشبيهة بالخالق ، — نقصد صورة الإنسان هي الحقيقة القائمة للكائن الذي يتبعه العمل المفروض عمله في آن واحد ودون انفصال ، ويتبعه أيضاً حب الخير الذي يمكن أن يكون ، والإرادة في جعله كائناتاً والقدرة المنظمة تنظيمياً حسناً لجعله موجوداً (١٠٩) وهكذا فإن الأمر لا يمكن أن يكون أبداً ، كما يفترض الأستاذ باير أمر «رؤية» تسبق الفعل ، كما يسبق النموذج الصورة المنقولة عنه . ولن تكون المعرفة الشعرية سابقة للنشاط الإبداعي ، بل هي داخلة فيه ، مشتركة وإياه مادياً في التحرك نحو العمل الفني . وليس هذه المعرفة شيئاً آخر غير «الصفة الخاصة لهذه النواة الروحية التي كان القدامى يسمونها «فكرة» ،

العمل ، أى الفكرة الصانعة أو العاملة، يقصدون بهذا معنى عميقا يبعث الحياة فى الصورة الخارجية ، (١١٠) ،

وهذا الضم الوثيق بين الرؤية والفعل يميز المعرفة الجمالية تميزا جذريا عن المعرفة العلمية ، « فى حالة العلوم — هكذا يقول ماريان نختص الوظيفة الإبداعية للجوهر العقلى فى داخل العقل بإنتاج مذاهب وأحكام وتبريرات نعرف الأشياء عن طريقها وتصبح الوظيفة الإبداعية تابعة لوظيفة المعرفة . أما فى حالة الفن ، فعلى عكس هذا ، تكون وظيفة الجوهر العقلى من حيث المعرفة تابعة تبعية كلية للوظيفة الإبداعية . فالجوهر العقلى يعرف بقصد الإبداع ، وإذا كانت المعرفة الفنية تدخل فى هذا ، فذلك لكى يستطيع العمل الفنى أن يتم ويصبح العمل ثمرة إبداعية العقل . تلك الإبداعية التى جعلت لتوجد خارج الروح ، (١١١) ومن وجهة النظر هذه ، تصبح المعرفة الجمالية أكثر شبيها بالمعرفة العلمية أو الصناعة اليدوية ، لأن هذه الأخيرة تتميز بوجودانات تنفتح عند الاتصال بالمادة وتتطلب تشكيل هذه المادة ؛ ذلك لأن الصناعة اليدوية ليست مجرد تطبيق لقوانين نظرية ، ولأن الصانع الفنى يقوم هو أيضا باختراع شئ ، ولكنه لا يخترع إلا حين يعمل ، كالفنان الذى لا يجد ما يبحث عنه إلا حين يبدأ تنفيذ عمله الفنى . والبحث الذى يقوم به الصانع الفنى — وقد قلنا هذا من قبل — « بحث حى معبر .. بحث عن مشروعاته وأفكاره من خلال حركات مرسومة رسما تقريبا ، أى بحث يفترض تحركات تقوم بها الأيدي فى الزمن والمكان بطريق مباشر أو غير مباشر ، لتجميع العناصر فى مواضعها ، (١١٢) .

وقد يكون من الخطأ أيضا الاعتقاد بأن الفنان يعبر عن نفسه لكى يدع ، أو بأنه يدع ليعبر عن نفسه . والحقيقة أنه يعبر عن نفسه عن طريق الإبداع ويدع عن طريق التعبير عن نفسه ، ورويته لنفسه وللأشياء ليست بداية يبدأ منها أصلا ، بل هى نهاية العملية التى تهدف إلى أن تخلق عملا

فنيا . ألم نلاحظ في أغلب الأحيان أن كل مشروع فني كان في بداية الأمر بحثا في الذات ؟ يقول جوته : « إننا غامضون بالنسبة لأنفسنا » . . والعملية التي يقوم بها الفنان عملية هدفها إرضاء القضاة على هذا الغموض بعض الشيء . ويرد دريولا روشيل على هذا السؤال : لماذا تكتب . ؟ بقوله : « لا أرى رؤية أوضح . ولا أرى نفسى رؤية أوضح كذلك . ولا فرق بهذا الصدد بين الأدب الشخصي والأدب اللاشخصي » إذ يصرح جوليان جرين بقوله : « يجب أن أكتب قصصى ومقطوعاتى لكى أكتشف ما يحدث فى نفسى » . . وشاعرية المواطن الشخصية ليست هى الشيء الوحيد الذى يهدف إليه ريفردى حين يقول : « إن الشاعر مدفوع للإبداع بحاجة ملحة ملازمة له للكشف عن سر كيانه الداخلى » . . وأعماله تمثل « كشفا يقوم به عن نفسه ولنفسه وللآخرين فى آن واحد » (١١٣) . هذه الرحلة داخل النفس لا تختص الأدباء وحدهم ، ولا يقوم بها الشعراء وحدهم ، كما يشهد على ذلك خطاب كتبه المصور جوجان يقول فيه : « إنى أشعر بحاجة — لا لأن أذهب مسافة أبعد مما سبق فيما سبق أن أعددت — بل لأن أجد شيئا أبعد . . . أشعر به ولم أعبر عنه بعد . . وآمل أن تروا هذا الشتاء شخصا جديدا جدا اسمه جوجان . . والذى أريد معرفته هو ركن من نفسى مازال غير معروف » (١١٤) .

لقد قاربنا بين المعرفة الجمالية والمعرفة الصناعية اليدوية . . ولكنهما لا يستطيعان أن يسيرا معاً مدة طويلة ، لأن الفكرة اليدوية تغطس فى المادة ، لكنها تغطس فيها لتسيطر عليها ، وهى تستخدمها لهذا الغرض كما يتضح فى رسوم يقوم بها مهندس ، أو فى الخطوط المجردة التى نراها فى المنطق المذهبي . أما الفكرة الفنية فهى لا تفعل هذا ، لأنها غير قابلة للتشكل على صورة أفكار أو أقوال . وهذا هو السبب فى أنها رفعت لمستوى الروحية فى شكل ملموس ، ولأنها تعبر عن نفسها فى المحسوس وبشكل لذة محسوسة

(١١٥) هذا قول ماريان : إن الحدس أو الانفعال الإبداعى فهم غامض للأنا وللأشياء معافى معرفة تتم بطريق التوحيدأو المشاركة الطبيعية التى تشر ولا يتم التعبير عنها إلا فى العمل الفنى (١١٦) حدس أو إفعال لأن الفكرة الفنية تتولد فى جذور النفس وتسبق فى هذا كل تفرقة تحدث فى النفس ، أى تسبق كل تقسيم للنفس إلى ما يسمى « عقل » ، وعاطفه ، وطبيعة أخلاقية ، ومن هنا يكون أصل الفكرة الفنية فى التجربة الحية التى تتصف بناء على ذلك بصفة الوحدة والاكتمال . إن الكلمات العادية لا تستطيع إلا أن تخون ذلك الفعل ذا البساطة غير القابلة للتقسيم والذى يتم فيما قبل أو فيما بعد العقل والعاطفة حين نريد تسمية هذا الفعل . إن أنت أردت إذا أن تتمسك بالفكرة الفنية ، كان عليك أن تسميها معرفة على هيئة توافق روحى ، أو بالأحرى ، معرفة على هيئة تماسك وارتباط طبيعى ، أى اشتراكا وتشابها ، لأن الفنان « يعرف » العالم ويغير ما يجب تغييره بنفس الطريقة التى يعرف الرجل الفاضل الفضيلة . . ذلك الرجل لا يستطيع أن يقدم تعريفا للفضيلة إن لم يكن قد درس علم الأخلاق . ومع ذلك فهو يعرف علم الأخلاق أحسن مما يعرفه أشد رجال الأخلاق علما وطلاقة حديث ، لأنه يعرفها من الداخل ، ولأنها عنده تجربة وميل وغريزة وطبيعة ثانية ، ولأنه كيف على منوالها حياته . ولأنه جسدها ، ولأنه بذاته الفضيلة على وجه ما .

إن فريمون لا يرجع إلى ما قال به أرسطو والقديس توماس ، ومع هذا فإن التحليلات التى يقوم بها تتفق وتلك التى يقوم بها ماريان . وهو إذ يستعير من نيومان تعبيراته الفنية فى هذا المجال ، يعرف المعرفة الشعرية بأنها معرفة واقعية لا معرفة أساسها الفكرة أو الرأى . إنه يقول : « إن المعرفة الشعرية تصل إلى الحقائق وتربط الشاعر بالحقائق . ويحدث هذا فيما وراء الأفكار والصور والعواطف والحواس ، لكن بطبيعة الحال يحدث هذا بطريق جميع هذه المناشط السطحية . ففى حين أن العلم لا يقدم لنا من موجودات الطبيعة

إلا جزئيات تقريبية فقيرة ، يقدم لنا الشعر الأشياء نفسها في كمال مادتها وتام جوهرها. وعندما نشعر بالصدمة الشعرية ، يحدث فينا نوع من الاتصال بالواقع ، ويصبح هناك شيء ما نملكه ، وليس هذا الشيء حقيقة تتوجه للعقل المفكر ، بل هو الحقيقة العميقة لهذا الشيء. أو ذاك ، تهز أنفسنا العميقة . على أن كلمة المعرفة ، كلمة فقيرة لأنها لا تعبر عن هذا التضامن المشتعل الحي الكامل بين روحنا كاملة والواقع الذي يتقدم إليها . والحق يقال إن الأمر أمر حضور أكثر منه أمر معرفة . لكن من الذي يستطيع هكذا - خارج الحب - أن يحمل العاشق إلى قلب الشخص الذي يعشقه ؟ مرة أخرى يقفز التماثل واضحا أمام أعيننا . وأسلوب أحسن العشاق - هكذا يقول كاتب إسباني روحي - إن في موضوع حبنا أكثر من عيشنا في ذواتنا ، هؤلاء العشاق يتمسكون بأفكارهم ولا يعيشون فيما يأكلون وفيما يشربون أو فيما يفعلون بل يعيشون في الشخص الذي يحبونه (*) .

إن المذهب الذي نقترحه هنا عن المعرفة الجمالية يختلف كل الاختلاف - رغم بعض المظاهر السطحية - عن نظرية الـاينفولونج (٥٥) ، أي المعاشة الشهيرة . فبدأ الفن عند «ليبس» ، ولوتز وفبشر وكونسورت ، يعني انعكاس مشاعر في الآخرين . وريدا عاطفيا لإزاء مشاعر الآخرين ، والاشتراك في الخاصة للأشياء ، وإحياء عالم الأشياء الجامدة في نفسى ، ويعنى اندماجا توافقيابين العالم الخارجى والعالم الداخلى لى أنا . وتطابقا سحريا . أو تصوفيا بين الأنا واللا أنا إلى أحيط نفسى بسحاب وأنا أزجر ، وأقوم وأغرق منتصرا في الأمواج ، وأشير إلى منبع المياه لصديق لأخبره أنى أنا وهاك شجرة شائكة تنظر إلى كما لو كنت ذا أخلاق فضلة (١١٧) هناك من

(*) انظر صلاة وشعر من رقم ٦٢ - ٦٤ - ١٤٨ - ١٥٤ - سرد أ. دس روجاس :

حياة الروح للتقدم في ممارسة الموعظة والاتصال بالله عام ١٦٦٣ م ص ١٤٣ .

(**) Einfühlung كلمة ترجمت هكذا . توافق رمزي - أو - توافق داخلى -

أو شعور داخلى (القدرة على احساس من الداخلى) .

يعرض بحق على تلك الفيوبة الوحشية، فإلا بأنها ليست جمالية تماماً، وبأن هذه الدشوة أو ذلك السكر أو الانتشاء شيء نجده على حد سواء لدى الشاعر والحالم ومدخن الحشيش، وبأن من الضروري لكي نتمتع بالكائنات أن نعوم بعمل مضاد إزاء الكائنات إن شئنا أن نستمتع بها بدلا من أن نترك أنفسنا لها لنمتصنا. وبأن التوافق بيننا وبين الأشياء يتضمن موقفا تبادليا نقفه، الأنا، والآت، ولا يتضمن هذه اللامبالاة أو تلك اللاتفرقة.

وبأن الفن عاطفة إبداع وإنشاء، وبأنه - أى الفن - لا يظهر إلا عندما ينشئ الفنان الأشكال بالقوى التى تبعث الحياة فى الطبيعة ويستخلص منها عملا فنيا إذا كان ذلك الفن مشروطا بإدراك هذه القوى، (١١٨).

معارضات لها من الصحة مكان ولا شك . . لكن المذهب الذى تدين به بعيد عنها لحسن الحظ، فقد سبق أن قلنا إن الحب مفتاح التجربة الجمالية، كما أنه مفتاح التجربة الصوفية. ومع هذا فالحب كما نفهمه ليس عاطفة ضمن عواطف أخرى، بل هو الامنية الأساسية التى تحدثنا عنها والديناميكية التكوينية لكياننا، وفى نهاية المطاف، شوق الموجود إلى الموجود. والحب بالمعنى العادى لهذه الكلمة ليس إلا أحد مظاهر هذا الاتجاه، وحتى إذا فهم بهذه الطريقة فإنه لا يقضى، قدر علمى، على التمييز بين الأشخاص، بل على العكس فإن الشخص الذى أحبه، أحبه باعتباره شخصا آخر، وأريده شخصا آخر فكيف يمكن أن أحبه إذا أصبح مندجاً فى، أو إذا كان هو أنا؟ إن الوحدة فى الازدواج هى تناقض الحب . . لكن كبار المنصوفين يرون غير هذا: إنهم يرون أن الروح التأملية عبارة عن قطرة فى محيط إلهى، لا يمكن أن تفرق فيه أو تضع فيه أو تفسلخ عنها فرديتها. ونفس الشيء موجود فى التأمل الجمالى، لأنه يجعل الفنان حاضراً فى موضوع فنه. هذا مؤكد - على أن موضوع الفن هذا يدخل فيه، بل وبطابقه بشكل معين، والمعرفة الفنية تنظم ولا توجد إلا بالنسبة لعمل فنى، ولذا

فإنها تنزلق إلى داخل الوجدان لتفيد منه . فإذا أطلق الفنان لنفسه العنان فيها فإنه يحتفظ بشخصيته كشخصية لذاتها ولا يترك نفسه بحيث تمتلكه هي ، إلا لكي يمتلك ما يلازمه منها : هذا ما أنكره أصحاب نظرية «الإبن فلووج» ، أى المعاشية، وهذا ما يكنى من ناحيتنا لتنفيذ هذا الاندماج التصوفى ، الذى كان كابوس الأستاذ باير .

إنها معرفة مبدعة بطبيعتها ، معرفة تشكل شيئا فى الكائن تشكيلا لا يقل عن كونها هي مشكلة بمعرفة الأشياء ، «وما الذى يعبر عنه وينتج العمل الفنى ، إلا مادة وكائن الذى ينتج ؟ ، لكن مادة الإنسان كما نعرف ، خفية عليه ، وبالتالي فإن المادة تستيقظ إزاء نفسها عندما يستقبل الفنان الأشياء ويحس بها . إذ لا يستطيع الشاعر أن يعبر عن مادته هو إلا بشرط أن يحدث رنينها فى نفسه ، وبشرط أن تخرج الأشياء ، ويخرج هو معها — الكل معا — من السبات ، وكل ما يكشف عنه أو يتنبأ به فى الأشياء يكون كما لو كان غير منفصل عنه وعن انفعاله (١١٩) . وبتعبير آخر فإن «الروح معروفة فى تجربة العالم ، والعالم معروف فى تجربة الروح ، معرفة لا تعرف نفسها ، إذ أنها تعرف ، لا لتعرف ، بل لتنتج ، وإذا نحن سألنا مارتيان عما يتكشّف بالضبط للفنان من الحقيقة الموضوعية خلال ذاتيته ، لأجاب إن أول ما يتكشّف هو تجميع الأشياء فيما بينها . والحقيقة «أن الأشياء ليست ماهى فقط ، بل إنها تنقل باستمرار فيما وراء نفسها ، وتعطى أكثر مما تمتلك ، لأن الموجة المنشطة «للعلة الأولى» تعبرها من كل جهة . وهى أحسن وأسوأ من نفسها ، لأن الكائن يزداد ازديادا فوق العادة ، ولأن العدم يجذب نحوه كل ما يأتى من العدم ، وهكذا فهى تتصل بعضها ببعض فيما لانهاية من الأشكال والوسائل ، وبما لانهاية من الأفعال والاتصالات والتوافقات والقطيعة . وهذا الاتصال فى الوجود وفى المد الروحى الذى يأتى منه الوجود هو فى نهاية الأمر ما يستقبله الشاعر ، ويحس به ، ويتألم منه ، ويستوعبه فى ليل ذاته هو ، أو يعرفه بصفته غير معروف» (١٢٠) .

والفلسفة على أى حال تكنفى بأن توضح وتبرر فى نظر العقل مافعله شعراء القرن الماضى ، مافعلوه لا ما شعروا به . « شئ عجيب مذهل . . . لا بد أن ننظر إلى الشئ الخارجى فى داخل نفوسنا . . . إن المرأة العميقة المظلمة موجودة داخل الإنسان . ونحن إذ ننحنى فوق هذه البئر ، نرى العالم العظيم على مسافة بعيدة من عمق البئر فى هالة ضيقة ، . ويكتب نوافليس من ناحيته قائلاً : « إن الشاعر يعيش تماما خارجا عن نفسه . وبدلا عن هذا يأتى الأشياء كلها له ، وهو فى نفس الوقت ذات وموضوع ، وروح العالم » (١٢١) . ويستخدم بودلير نفس الالفاظ ليصف نفس الظاهرة ، فيقول : « إن الفن سحر إلهامى يحوى الذات والموضوع فى آن واحد ، إله يحوى العالم الخارجى بالنسبة للفنان ، والفنان نفسه » (١٢٢) . « والشاعر يتمتع بذلك الامتياز الذى لا يقارن ، حيث يستطيع حسب رغبته أن يكون هو بنفسه هو وغيره . وكتلك الأرواح الجذالة التى تبحث عن جسد ، تجده يدخل حين يريد فى شخص كل منا ، فبالنسبة له يكون كل شئ فارغا مستعدا لاستقباله ، وإن كانت هناك أما كن معينة تبدو له مخلقة ، فعنى هذا أنها فى نظره لا تستحق زيارته » (١٢٣) . امتياز أساسه التقابلات الموجودة فعلا فى الطبيعة التى لا يستطيع كشفها إلا القليل من الناس . « إن كل شئ سواء أكان شكلا أو حركة أو عدداً أو لونا أو عطرا ، كل شئ فى الروحى وفى الطبيعى على السواء ، له مغزاه ، المتبادل والمتقابل . . ولقد سبق أن ترجم « لافانار » المعنى الروحى للإطار الخارجى للشكل والحجم ، فإن نحن توسعنا فى تطبيق هذا لوصلنا إلى تلك الحقيقة التى تؤكد بأن كل شئ « هيروغلىفى » . . ونحن نعرف أن الرموز ليست غامضة إلا بطريقة نسبية ، أى طبقا لنقائنها وحسن نية النفوس أو وضوح فكرها . . إذا ما هو الشاعر . . إن لم يكن مترجما وحلالا للرموز ؟ ما من استعارة أو مقارنة أو صفة ، لدى أعظم الشعراء ، إلا وكانت ذات تكيف رياضى مضبوط ، لأن هذه الاستعارات والمقارنات والصفات مستقاة من المنبع الذى لا ينضب ،

منبع التماثل العالمى ، ولأن من المستحيل أن تستقى من مكان آخر، (١٢٤).

لقد حذرنا بولدليز من هذا : لقد قال إن المعرفة الجمالية تقيض المعرفة العادية . إنها معرفة رمزية . فإن غاب الرمز غاب الفن . ألا يفترض العمل الفنى تقابلا طبيعيا غير تقليدى بين الشكل الملموس والموضوع الذى يرمز إليه ؟ اليس هو علامة يكون فيها الشئ الذى يعطى المعنى ، والشئ المعنى كلاهما واحد ؟ لكن ماذا يعنى العمل الفنى ؟ من المهم بهذا الصدد أن نميز بين نوعين من الرموز : الاول هو الذى نستطيع تسميته ، كما فعل «ميتزلنك» ، «رمز القول المقصود» : ذلك الذى يبدأ من المجردات ، ويعمل على كسائه الإنسانية بهذه المجردات ، وهو أقرب ما يمكن أن يكون من الرمز المجازى . وقصة «فاوست الثانى» ، وبعض قصص جوته الأخرى رمزية بهذا المعنى . أما النوع الثانى من الرمز فهو بالأحرى لا شعورى ، يحدث دون قصد الشاعر ، وغالبا رغما عنه ، ليذهب دائما تقريبا إلى ما بعد تفكيره ، ويجد له أمثلة عند ايشيل وشكسبير وكل إبداع عبقرى . والرمز بمفهومه هذا ليس من اختراع الفنان ، بل هو قوة من قوى الطبيعة أو بالأصح ترديد صوتى لقوى الطبيعة التى تجرى فى نفس الفنان من الأركان الأربعة للعالم ، ومن هنا كانت قوة الإلهام الجارفة التى تتصف بها . والشاعر مثله مثل الخطاب يضرب ببلطته ، وكل ضربة منه «تنادى قوة الجاذبية الأرضية كلها لمعاونتها» ، يعبر عن نفسه رمزيا . «فتعمل الأرض كلها معه» ، ويندج بفضل الرمز «فى النظام الغامض الأبدى للأشياء» ، «توجد كل حركة من حركات فكره» ، تضاعفها قوة جاذبية الفكرة الوحيدة الأبدية . وقد كان فيكتور هوغو يقول إن الشاعر «صدى رنان» ، فهل يشعر الصدى بكل الأصوات التى يضاعفها ؟ إن الرمز لا يصاغ أكثر من ذلك فى نفس الفنان المبدع الذى لن يعرف أبدا كل ما وضعه فى عمله

الفنى . لكن «أنقى الرموز أيضا ربما كان الذى يجرى دون علمه بل
و ضد مقاصده ، (١٢٥) .

وتزدهر «الاستعارة» على شجرة الرمز ، وما الرمز فى إجماله إلا المشاعر
العميقة التى ينبع منها العمل الفنى «فعندما يكون الشاعر قد بعث الفجر
ذا الأصابع الوردية ، يكون قد أبدع عن طريق التقريب التعسفى ، وهو مع
هذا تقريب مضبوط مضبوطا غامضا . . أبدع صورة تحرك المشاعر رغم أنها
لا حقيقية ولا واقعية ، ورغم أنها لا تقع تحت سيطرة الحواس :
صورة تحرك المشاعر لأنها تفوز برضا العقل رضا مباشرا ، دون تحفظ .
ومهما تكن الدهشة المنطوية عليها . ومهما نكن العناصر والأشياء المشتركة
فى هذا فإن مبدأ الحركة الشعرية كله قائم هنا فيها ، (١٢٦) . .

من هذا يتضح أن القيمة الكبرى التى تتمتع بها «الاستعارة» ، إذا تنأت
من أنها تفتح «أبواب الاتصال ، بين عالمين جرت العادة على اعتبارهما
منفصلين . ويؤكد عالم السينما جان إبشتاين أنها «نظرية رياضية تنفخ فيها
من القرض إلى الإثبات دون واسطة ، . هذا صحيح ولذا فهى تبعث فيها
الإعجاب والدهشة بقدر ابتعاد الحقائق التى أدركت فيها النفس تلك العلاقات
« فى قفزة الخيال التى تشبه قفزة الحصان ، (١٢٧) وهذه العلاقات غير المتوقعة
تدهشنا بفضل توافقتنا وإياها ، وتكشف لنا عن ناحية لا يشك فيها من
نواحي الأشياء ، تلك الأشياء التى لانراها ولا ننظر إليها ولكنها موجودة
أمامنا . . . نأتى لحياة . فبفضل الصورة الاستعارية إذا يصبح ما كان غائبا
حاضرا ويقول آلان فى هذا : «إن الشعر الصحيح لا يصف إلا قليلا وبطريق
غير مباشر ، وغالبا عن طريق استعارات جزئية ، مثل «راع — قة عالية ،
أو سطح منزل هادى . . . لكن الشعر الحقيقى يظهر فى الحال شيئا . .
وليس الأمر أننا نرى ، لأن هذا الشيء يشبه وميض الضوء بل إننا

نحس فحسب بوجود هذا العالم . والإحساس بالوجود أقوى من الرؤية ،
ويكاد يكون لمسا ، أو إحساسا كما لو كنا نلبس . .

والحقيقة التي نتقدم إليها في الرمز وفي الاستمارة ليست حقيقة المظاهر
السطحية . وينجم عن ذلك أن تقع المعرفة الجمالية في موقع مضاد للواقعية ،
وأن حقيقتها ليست هي الحقيقة التي تقع تحت الحواس . والفن في الواقع
حسب القول الجميل الذي قاله « كلى » لا يقدم لنا المرئي ، بل إنه يجعل
الشيء مرئيا ، ولو أن الأمر أمر اتصال مباشر بمادة الأشياء المرئية أكثر
منه أمر رؤية . ولذا يمكننا أن نقول — كما سبق أن قال بيرجسون —
إن الفن يلحق بالواقعية ، نتيجة للسعى إلى اللاواقعية . والشعر ولا شك
« يبين الأشياء المدهشة التي تحيط بنا والتي تسجلها حواسنا آليا . . . يبينها
عارية تحت ضوء يهزنا ويوقظنا من خمودنا » (١٢٨) . والصورة التي يقدمها
الفنان أو الشاعر إذاً تتضح لنا خاطئة أو مشوهة في حين أنها تترجم
حقيقة أعمق وأكثر غموضا . فعندما يكتب فيكتور هوجو مثلا بيت
شعر كهذا :

كان العطر المنعش يخرج من خصلات كثيفة من « الأسفوديل » ،
حين يكتب هذا ، يرتكب على ما يلوح خطأ مزدوجا ، الأول أن « الأسفوديل »
لا ينمو في خصلات كثيفة ، وثانيا أن زهر « الأسفوديل » لا يعطى أية
رائحة . لكن من الذي لا يشعر أن « هناك شيئا في هذا » ؟ شيئا أغنى وأثمن
وأصح من وصف دقيق يقدمه عالم في النباتات ؟ ماذا ؟ حالة نفسية معينة
من حالات الطبيعة ، إحداها محاطة بالأخرى ، تجذب حقيقتها القلب في
الحال . أليس « الأسفوديل » هذا جيلا في مثل هذا البيت الذي يأتي إليه الزهر
ليجد لنفسه مكانا في باقة المقاطع ، يحمل مثل هذا الاسم الجميل ؟ (١٢٩)
« ما من شيء أشد حقيقة من غير الحقيقة ، هكذا كان نوديه يقول ..
وليس كلام نوديه هذا بتعبير سخرية فحسب . . فبودلير كان يقول هذا

أيضا فيما يتعلق « بالدكتور ، المسرحى : « إن هذه الأشياء أقرب ما يمكن أن تكون من الحقيقة ، لأنها غير حقيقية ، فى حين أن أغلب رسامى المناظر الواقعية كاذبون لأنهم فعلا نسوا أن يكذبوا ، (١٣٠) .

وفى التصوير ، والحديث منه بالذات ، يؤكد ما يقدمه لنا للشعر من دروس ؛ فنحن لم نعد اليوم نجعل أن الحقيقة تظهر على اللوحة أحسن من ظهورها على النسخة المنقولة نقلا دقيقاً ، وهذا بفضل تأثير المعادلات التشكيلية . هذا هو موضوعها الحقيقى ، الرمزى لا على درجة ، المتولد من الوجدان الذى تشتعل فيه أعماق الفنان والعالم الخارجى ، ذلك العالم وتلك الأعماق التى لا يمكن أن يكون موضوعها الصحيح إلا سندا وذريعة . إذ أن نفس المصورين الذين يدفعوننا لإعادة اكتشاف الطبيعة ، يعلموننا أن من المستحيل أن نكون مبدعين عن طريق البحث عن نماذج طبيعية ، وبالنظر إلى الخارج ، بل إنه لى نعيد اكتشاف الطبيعة يجب أن نبحث فى نفوسنا عن تلك القوانين الكبرى التى لا تكتب فى الفن أيضا والشئ الذى يعكسه المصور على لوحته — حتى حين يصور قيثارة أو إناء للربى — هو ثمرة تجربته الشخصية الخاصة ، . وسواء أكان ما يصوره هذا تمثيلا أم غير تمثيل ، فالفنان لا يهدف إلى حقيقة المظاهر وإعادة تصويرها كما هى ، بل يقصد حقيقة تنخلى حقيقة الحواس ، حقيقة « تختفى فيها التناقضات بين الشخص المعارف وموضوع معرفته ، . . وهو هنا لا يبحث عن الخطوط التحديدية الخارجية للأشياء ، بل إنه يدرك ميزانها النغمى عقلا . فها هو ذا « ماتيس » يرى ورقة من أوراق شجر البلوط ، في رسمها ، ويكون الرسم مضبوطا أول الامر ، ثم يزداد واقعية تدريجيا كلما تزايدت التخطيطات . . بحيث يرسم فى نهاية الأمر غريزيا تلك التوجات التى تصبح بالنسبة لورقة البلوط كالنفس بالنسبة للجسد . . . تصبح فى آن واحد شكلا وجوها . هذا وزن يعيش فيه

ويضمه ويمتلكه هو . وهو يلاحظ أن هذا ، يأتي من ذاته ، ومن داخل ذاته ، كما تأتي الصلاة ، (١٣١) .

إن المعرفة الجمالية كشف عن الإنسان وعن الأشياء في واقعها العميق الذاتي ، وفي أشد علاقاتها خصوصية . . ولذا فهي تسمح لنا بأن ننشأ بما وراء الأشياء والإنسان . ولم يخطئ . ينتهون حين أكد لنا أن الموسيقى توجد بشكل معين بيننا وبين المطلق ، ولم يكن الرومانتيكيون الألمان على خطأ تماماً حين قالوا بأن الشعر يميل نحو الميتافيزيقا . ألم تثبت أن كل عمل فني عظيم يعكس موقف مؤلفه حيال الوجود ، ولو عن طريق الأسلوب ؟ يقول لنا ريفردي . إن قيمة القصيدة تأتي اتفاقاً مع الاتصال المؤلم بين الشاعر ومصيره ، (١٣٢) . بحيث نكاد نعترف بأن القصيدة تحوى فلسفة في أولى مراحلها ، ولكن بكل قوتها وحقيقتها . فهناك من قبيل المثال فحسب فلسفة هامات والملك لير ، وفلسفة ، حذاء الحرير الستان ، وفلسفة ، الجبانة البحرية . . أما عن المملكة الغامضة ، فإن كلا منا يتصورها تبعاً لما يؤمن به ولما يلزمه من صور وآراء وأفكار ، وكذا تبعاً للنغمة التي تلقاها ، ويؤكد كل الشعراء مع ذلك أن وظيفة الفن هي توصيلنا إلى هذه المملكة الغامضة ، أو على الأقل إلى مدخلها . صدقوا نوفاليس في هذا . إن العالم العلوي أقرب إلينا مما نتصوره عادة . وحتى في هذه الدنيا ، نعيش في هذا العالم العلوي ونراه مختلطاً بنسيج طبيعتنا الأرضية ، (١٣٣) .

صدقوا بودلير في هذا : « إن كل شاعر غنائى يعمل حتماً بحكم طبيعته للعودة إلى الجنة المفقودة ، (١٣٤) وصدقوا في هذا أبو لينير : ليس الشعراء رجال الجمال فحسب ، بل هم كذلك وخاصة رجال الحقيقة بقدر نفاذهم للجهول ، (١٣٥) . وصدقوا كوكتو في هذا : « إن الشعر يمنح العيش لمن يشعر به في غثيان . وهذا الغثيان المعنوي يأتي من الموت ، والموت قلب الجن من الحياة . افترضوا نصلاً لا نستطيع معرفة بقيته لأنه مطبوع في ظهر

صفحة لا نستطيع قراءتها إلا إذ قلبنا ما . هذا الظهر (ظهر الورقة) الغامض يحفر حول أفعالنا وأقوالنا وأقل تحركاتنا فراغا يبعث الدوائر في النفس كما تمتع بعض الأفاريز الدوار إلى القلب ، والشعر يقوى هذا الدوار ويخلطه بالمنظر الطبيعية وبالحب والنوم وبملذاتنا إن الشاعر لا يحلم ، بل إنه يحسب عددا ، لكنه يسير على رمال متحركة وتنغرس ساقه أحيانا في الموت ، (١٣٦)

أيمكن أن يكن الفن إذن قة الفلسفة ؟ وهل تستطيع المعرفة الجمالية أن تنافس المعرفة الفلسفية ، وأن ترتفع فوقها ؟ أبدا . فلقد قيل إن الشعر شيء غير الميتافيزيقا ، لأنه « قبل كل شيء . أعنية » (١٣٧) وقد لا يذهب شعراء اليوم إلى نفس الخلط الذي وقع فيه الرومانتيكيون ، فالشعر كما يقول سوبر فييل : « لا علاقة له بالتفكير ، بل مهمته هي أن يعطى عن التفكير مرادفا ويثير فينا الحنين إليه » (١٣٨) وكوكتو يميز ما يحسن التمييز فيه من هذه الجهة : « إن الميتافيزيقا والمسببات الأولى تلعب لعبة المحاوراة في بطء وفي حدة ، والشاعر يتزده ويمجد مكان الاختباء ، لكن إذا حدث أن سبق الشاعر ، واكتشف هذا المكان مقدما ، فإنه لن يستطيع أن يستغل اكتشافه ، وهو يرى ، ويمر ولا يتعجل في مطاردة المجهول » (١٣٩) . هذه الأسبقية التي نضع فيها الشاعر بالنسبة للفيلسوف أسبقية قد يجدر بنا مناقشتها لأنه مشكوك فيها ، لكن مهما يكن من أمر فإن المعرفة الجمالية ، والمعرفة الفلسفية ليسا من نفس الطبقة ، فالفلسفة هي البحث عن الحقيقة التي يتم التعبير عنها على هيئة أفكار واضحة مسلسلة تبعا لقوانين المنطق . أما الفن فهو يفر من الأفكار والمنطق ، ولا يهتم بالحقيقة التي تصاغ صياغة مجردة ، ولا بدقة البرهان . ولكنه امتلاك للواقع الذي نلتقطه ونعبر عنه في رمز العمل الأدبي أو الفني حيث يكون الإناء ومحتواه ، أى المعنى والشكل غير متميزين .

ولهذا الفرق تعليله ؛ ذلك أن هناك فرقا بين القدرات التي تصنع الشاعر أو الفنان من ناحية ، والفيلسوف من ناحية أخرى . فالفيلسوف رجل بارع بفضل قدرته على التفكير المنتظم والنقد ، وحركة تفكيره - إن صح القول - تلوذ بالفرار من مركز دائري ، بمعنى أنه لا يفتأ أن ينتج الوجدان الذي يفتح في ظلام ما فوق الشعور ، ينتجه في النور ويخضعه لعمل العقل أما الشاعر أو الفنان ، فهو على عكس هذا ، يقترب من مركز الدائرة ، وموهبته تنحصر في القدرة على العودة إلى نفسه . مادام عمله مستمرا . في النقطة التي يتصل فيها الشعور بالاشعور ، والجسد بالروح ، والانا بالالانا ، والحياة بالموت ، والليل بالنهار ، هل يكون الإلهام شيئا آخر غير ذلك ؟ إن النشاط العقلي لا يمكن إلا أن يكون مبعث ضيق عنده . لهذا كان الفلاسفة شعراء تافهين ، والشعراء فلاسفة تافهين لهذا أيضا لا يمكن أن يحل شيء محل الفلسفة في مجالها ، وتصبح المعرفة الشعرية بطبيعتها على أقصى النقيض من المعرفة الفلسفية ، لا تسرى ولا تكون ، نقية إلا في الانفعال الوجداني المبدع الذي يتولد فيه العمل الفني ، فإن نحن بعثنا الخلط في الخلط ، وادعت المعرفة الشعرية نفسها أنها قادرة على أن تكون معرفة فلسفية ، ان ادعت فلسفة ما ، تكون قد بنيت من العقل ، إن ادعت أنها قادرة على السيطرة على المعرفة الشعرية لتجعل منها أداة لها ، فإن الشعر والفلسفة معا يفقدان قيمتهما ويفسد الفن والميتافيزيقا في نفس الوقت ، (١٤٠) .

الفصل الرابع الفن والدين

يعود كثيرون من المفكرين إلى الماضي لإيجاد الصلة بين الفن والدين ؛ لأن الفن كان في المجتمعات البدائية مرتبطا عادة بالسحر ، ولأنه كان يؤدي لدى الشعوب القديمة وظيفة مقدسة ولقد ظل الفن هكذا في خدمة الطقوس زمنا طويلا في كثير من الحضارات لدرجة لم يكن يوجد فن إلا وكان دينيا غير أن المصادر السيكولوجية والاجتماعية للفن متباينة ، وأكثر تعدادا مما قد نتصور . ومهما يكن الأمر ، فقد حصل الفن في أيامنا هذه على استقلاله الذاتي عن الدين وعن غيره . فكلما ازداد ثباتا وثقا كيدا في طبيعته الخاصة به ، انفصل واستقل ، كما استقل العلم والدين . لكن ليس هذا بدليل على أنه عديم الصلة بالدين ، فالخلط الأساسي على كل حال بين الظاهرة الفنية والظاهرة الدينية لا يسمح بالوصول إلى استنتاج يقول بالتوافق التام بينهما .

هل نطلب إلى الفنانين أنفسهم البت في هذا الأمر ؟ هناك كثيرون منهم ممن يشهدون لصالح الصفة الدينية للفن أن ميكل أنجلو هو الذي يصرح بأن « فن التصوير نبيل ونقي بطبيعته ، وفان جوخ هو الذي يكتب قائلا : « حاول أن تفهم الكلمة الأخيرة مما يقوله كبار الفنانين عن أعمالهم الفنية الكبرى ، تجد الله موجودا فيها » . وليس المؤمنون من الفنانين وحدهم هم الذين يتحدثون هكذا ، بل هناك من غير المؤمنين أو اللامبالين ، من يقول كما يقول رودان : إن الفنان الحق أشد الناس تدينا . ولطالما خلطت بين الفن الديني والفن لحسب . فعندما يضع الدين يضيع كل شيء . ويعترف راموز من ناحيته بأن « ما يسمى الشعر هو روح القدسية والحاجة إلى مشاركة

الغير في هذه القدسية متى تم إدراكها . وما معنى هذا إلا أن كل شعر لابد أن يكون دينيا ، وأن كل شعر ضرب من الدين ؟ .

مثل هذه الأمثلة — بداهة — ذات قيمة كبرى ، وسترى ما يحق لنا استنتاجه منها ولكننا ، على شكلها هذا ، تخلق المشكلة بدلا من أن تحلها ، فكلمة « الدين » حين تصدر في الحقيقة عن قلم كثيرين من الفنانين تحمل معنى غامضا ، يشتد غموضه لدرجة أنه يخلق أسوأ ما يمكن أن يكون من سوء الفهم فالدين عند رودان مثلا معناه الشعور بالمجهول ، وكل مالم يفهم تفسيراً واضحاً ، وكل مالا يقبل التفسير الواضح في العالم . وتبعاً لراموز يصبح كل ما هو شعري دينيا في إجماله . ويصدق هذا على كل شيء « الكائنات والأشياء أشدها تواضعا وأشدها علوا ، لأن القدسية موجودة في كل مكان ولا توجد في أى مكان ، ومع هذا ، فإن ماتيس يتحدث عن « العاطفة إن صح التعبير - العاطفة الدينية التي يمتلكها ويأخذها من الحياة . وعن « الصفة المقدسة لكل شيء حى ، هانخ أولاء بعيدون عن الله ، أو عن الآلهة . عن كل مذهب وعقيدة أوطقوس . وبالاختصار نحن بعيدون عما يفهم عادة من كلمة « الدين » .

غير أن الخلط الرئيسى يأتي من أن الفن في رأى عدد من الفنانين ديني ، لأنه بنفسه دين . أو أنه يرمى إلى ذلك . . . ولقد أشار راموز إلى هذا خفية ، وأكد تلك الإشارة كل من رودان وسيزان وعشرون غيرها . وليست هذه الفكرة بجديدة ، لأنها كانت تطفو في الهواء منذ عصر النهضة على الأقل ، ولقد كانت مبعث الإغراء في عصرنا الحديث لدى أولئك الذين يشعرون بأهمية الفن وضرورته ، ويتعدون في نفس الوقت عن أى دين أو إيمان إيجابى . ولعل مالرو هو الذى جعل من هذا المذهب نظرية ، لأن علم الجمال عنده يبحث في تحديد دين للفن حيث ترتبط الموضوعات المختلفة التى يطرأها برباط عضوى هو الموضوع الأساسى ، ولعل من مصلحتنا أن

نستخلص الموضوع الرئيسى من جميع الموضوعات التى يختلط بها حتى ندين قيمته ونفهم الفكرة من منبعها، وهى فكرة لم يسبق لنا أن واجهناها قط دون فائدة .

دين الفن

يشعر مالرو ، كأغلب الرجال الذين يمثلون جيله هو ، بسخف الحياة البشرية ، لدرجة يصل فيها شعوره إلى حد الضجر . وكأعليهم أيضا ، تجده يبحث فى تمس كبير عن وسيلة للتخلص من هذا الضجر ، لكن الطمأنينة لا يمكن أن تأتى عنده من الأديان التقليدية ، ومادامت حضارتنا فى نظره أول حضارة تنسرك قيمة الميافيزيقية فإننا لم نعد قادرين على تعزية أنفسنا بآلهة ، (١) ولسكنا لا نؤمن كذلك بالمذاهب العلمانية التى أشاد بها القرن التاسع عشر ، بعد أن دلت العلوم السيكلوجية على أن الحرية سراب ، وعلى أن أسطورة التقدم قد تطايرت شظايا بفعل البربرية المنتصرة ، وليس التاريخ كما يعتقد أنصار الماركسية ، سيرا أكيدا نحو مستقبل أفضل ، فما هو إلا سلسلة عشوائية - كما يقول شنجتر وفروبنيوس - من ثقافات مقطوعة الاتصال إحداها عن الأخرى ، وتظهر كل منها على أنقاض سابقتها ، ولا تترك بذورها إلا أنقاضا .

إلى من نوجه حديثنا إذن ؟ وما علاج قلقنا ؟ وأى حائط نقيم فى وجه الظلم والألم والعزلة والموت ؟ لى يتخلص الإنسان من كل هذا يتعين عليه أن يعتمد على نفسه ، مادامت الآلهة قد ماتت . ولقد حاول مالرو أن يجرب عدة حلول لهذا الموقف ، تتضح من أعماله : وكان أول هذه الحلول الهروب والفسيان ، وكلاهما يأتى بهما الأفيون عند الشرقيين ، والعشق الجفنى عند أهل الغرب . ويتبع هذا الفعل الفردى ثم الجماعى : « أن تترك آثار جروح على الخريطة ، وتندوق الأخوة المدنية فى المعارك الثورية . هذا ما يستحق أن

نعيش وأن نموت من أجله . وأخيراً نراه وقد خاب أملة بعد هذه المحاولات فيلجأ إلى الظاهرة الجمالية يطلب إليها العون : ذلك أن الفن لا يقتصر على التعبير عن مختلف المواقف التي يقفها الإنسان لإزاء القدر ، بل إنه يتضمن بذاته النصر الوحيد الممكن على القدر . إن تطورات الفن هي تطورات الآلهة تقريبا . لكن الإنسان موجود دائما خلف الآلهة على ما يلوح .

وما من فن جدير بهذه التسمية يقبل المظاهر الخارجية فحسب ، ولعل الفن الديني أكثر الفنون رفضاً لها . د مهما يكن المكان ومهما يكن الزمان ، فإن أساليب الفن المقدس ترفض تقليد الحياة وتتطلب منها أن تتطور ، (٢) . هكذا نرى أن مالرو يفرق بين المقدس والديني ولا يجعل منهما مترادفين ، رغم أن الفنون قد ظلت قرونا طويلة في خدمة الأديان . فالمقدس هو قبل كل شيء إنكار لما هو وهمي ، ولما هو عابر . إنه خفض لقيمة العالم المرتحل والحقيقة الملموسة ، وتخط للعالم الوهمي الذي ألقى بنا فيه ، والفنون المقدسة - هكذا يوضح لنا مالرو - هي تلك التي ترفض أو تحتقر إخضاع الصور لما تشهده حواسنا (٣) . ولا تقبل تحمل حكم الزمن ، وتخضع ما يرى لما هو كائن هكذا يريد مثلاً فن المعمار المقدس « خلق أو إبداع الأماكن التي يجعل فيها الإنسان من الفضاء كونا ، ومن هذا الكون رابطة مع قوة بعيدة المنال تحيط به وتحكمه . . كما أن التمثال المقدس صورة من المظهر ، مثله مثل المعبد بصفته مكانا تخلص من العالم المحيط به » ، (٤)

والمقدس لم يصل إلى أعلى درجات التعبير في أوروبا ، وبالذات في أوروبا أيام عصر النهضة ، حيث مجدت الطبيعة تمجيذا مبالغاً فيه . بل انظر إلى آسيا الواسعة التي تمتد بامتداد الصحراء الأفريقية ، تجد في الحال ذلك الخشوع الشرقي الموغل في القدم (٥) ، حيث يعمل اللاسرنى بكل قوته وقدرته الهائلة على كبت المرئ . هكذا كان العابر في مصر القديمة يتلاشى أمام ما هو أبدي كما فعلت التماثيل النصفية الرومانية ، بل إنه عمل على توصيل الميت

إلى الأبدية (٦) : وعند الآشوريين ، ضحى الأمراء القساء بالإنسان على مذبح الآلهة الدموية . في قصر خرساباد ذلك الخليط المرعب من القسوة والعظمة المقدسة ، على ربوة آثوس ، ربوة القتلة (٧) . وكانت الهند أقل بربرية دون أن تكون أكثر إنسانية ، حين أخذت ترمى إلى تذويب الفرد في المطلق الكوني . وها هي ذى معابدها تحت الأرض تعيش في ظلام تطهر من المظاهر (٨) . ظلام يلوح فيه الإنسان وقد أمحى .

إن مثل هذا الاحتقار للحقيقة الملبوسة الشخصية شيء تشترك فيه الفنون الشرقية كلها ، وهو يترجم في لغة الأشكال « الهيراطيقية » . وإن الشرق الذى اخترع الكائنات ذات الأجنحة ليجعلها تطير (٩) فتاريخ الفن البوذي ، حيال الفن الإغريقى الذى يستوحى منه « هو قبل كل شيء تاريخ الانتصار على الجمود . ومن هنا كان خفض الجفون في بطن خلال القرون ، ومن هنا كانت ثنيات الملبس الخارجى الذى كان يرتبط ويلتصق بالجسد ، ومن هنا كان تجريد الجسد نفسه » (١٠) . ولقد ألقي القدامى جانباً بكل ما هو مؤقت عابر لصالح « عالم علوى هو عالم الأبدية » . هكذا « تختفى الحركة والهمس ، وكل شيء يتحرك أو يختفى . . لا يستحق أن ينحت » (١١) .

إن المخلوق المنحنى لدى الإغريق يعتدل ، ولا يمكن أن نتصور بيركليس راكعاً (١٢) ، وهذا تطور يكاد يكون قصير الأمد لا يدوم إلا لحظة ، وتعلله طبيعة الجنس الإغريقى ، إلا أنه كان من الكافى أن نظل خمسين عاماً لنلقى جانباً بفن الثلاثة آلاف عام الأولى ، ولكن خلال الأعوام الخمسين المذكورة عرف الإنسان لأول مرة أن ينسى القدسية ، (١٣) . ومن وجهة النظر هذه يكون الآكروبول هو « المسكان الأعلى لموت السكان » . وفيه فقدت القدسية صوتها ، (١٤) ويوجد الناس صوته هم . « هكذا يكون الفن اليونانى أول فن يلوح لنا أنه يمجّد الدين » (١٥) وما إن فقدت الهيراطيقية

معناها حتى ظهرت الحياة في فن النحت . وظهر على شفاه الكوروا ، فجر ابتسامة لا ينضب ... وتخلصت الأجسام من ثقل أحجارها ، واصبحت الحركة التي لم يكن يسبقها شيء بدل عليها . وحركة التماثيل الإغريقية رمز الحرية نفسها إزاء العبودية المرتسمة في تماثيل آسيا ، (١٦) .

لكن ليس معنى هذا أن اليونان لم تكن تدبّن بدين ما ، لكن المعنى هو أن آلهتها كانت تختلف عن آلهة الهند ومصر وآشور ، ومن الأولى إلى هذه الأخيرة حدث أن « حلت الروح الإلهية محل القدسية » . وصحيح أن الشعور بالإلهية شعور أساسي مثله ، مثل القدسية ، (١٧) ، إلا أن طبيعة وأصل كل منهما يختلفان عن نظيرها في الآخر ، لأن الأزلي والخالدين لا يولدان من الروح من جهة واحدة ، (١٨) . باعتبار أن الأزلي في نفس منبعه فيه الإنسان موضع البحث ، في حين أن الخالد في نفس منبعه ما يبحث عن ارتقاء الإنسان . وهكذا فإن الذي يظهر إذ ذاك للمرة الأولى للمرة الأخيرة ، هو العالم الذي يجرؤ فيه الإنسان أن يستخلص القيمة العليا لما تصبو إليه أحلامه ، ويتطلب من نفسه ما يستطيع أن يعمل كي يتوافق معها لا ما يجب أن يكون كي يتوافق مع الأزلي (١٩) .

فالقدسية تنزع عن صفتي ، في حين أني أشارك في الإلهية ، ويجب على أن أشارك فيها بنصيب أكبر إلى أن أغزو الأزلية البطولية التي تقيم بيني وبين الآلهة شبا . ويفهم من هذا أن بلاد الإغريق التي لم تعرف القدسية الحقيقية لم تعرف كذلك اللا دينية الحقيقية . وكل حياة تخفى إلهيتها ، وكل إلهية تمجد الحياة التي تخفيها (٢٠) . ويفهم أيضا أن الخالدين والأبطال الذين ينافسونهم لا يمكن أن يولدوا إلا من روح تنسى الأزلي (٢١) ... ويأتي الإعجاب بعد العبادة . « فال يونان لم تخرج لا السعادة ولا الشباب ولكنها اخترعت مجدهما » (٢٢) .

وحدث تطور جديد بعد موت الاسكندر : « حدث أن تحول صانعو الآلهة إلى صانعي التماثيل (٢٣) ورغم الأديان ذات الغموض التي بدأت تبحث عن أتباع لها لم يجد الفن خادماً للإلهية ، وبدأ الأولمب في خدمته ، رغم أنه كان أخذاً في الاختفاء (٢٤) .

لاشك أن العصر الهليني قد ترك لنا « شعباً من صور مثالية » ، لكن ماذا يكون مرجعها إن تكن قد توقفت عن الاعتماد على الإلهية ، اللهم إلا إلى المظهر الخارجى ؟ (٢٥) . سوف يقوم فن النحت بتقليد الحياة ... حياة ويا للأسف ليست إلا حياة الناس . الفنانين . . . ولا يمكن تصور إله ذى قدسية يشبه صور « ليسيب » ، لكن لا يمكن أيضاً تصور « أولمبي » ، إلا ويكون قد فقد صفته الإلهية (٢٦) فالواقعية لا تستطيع الانتصار لأن صيغ التماثيل بصيغة المثالية والخيال قد ظل بمثابة انعكاس غامض للروح الإلهية ، ثم تجرى « التجميلية » ، عملها ، معنى أن الفنانين قد أخذوا « فى إدخال النموذج فى عالم التماثيل الخيالى » (٢٧) . أو إنه يحكى فى « بيرجام » فى أسلوب الأوبرا آلام ماركسياس ولا وكون . وروما هى التى أخذت على عاتقها القضاء على هذا الاتجاه بفضل لوحاتها المنحوتة . « ولأول مرة يعترف فن كبير بقيمة المظهر باعتبارها قيمة العالم ولأول مرة أصبح المظهر هو الواقع » (٢٨) .

وقد حطم الله بزنطة (٢٩) ، وأصبحت هذه تجعل الإنسان أوتكاد ، (٣٠) ولذا كان الفن البيزنطى أساساً « إنكاراً تاماً للعابر » (٣١) ، ينظر إلى تماثيل فينوس وأفروديت كما ننظر نحن إلى رؤوس الشمع التى يضعها الحلاقون فى واجهات محالهم ، (٣٢) وفيهم تهمة رشاقة الوجوه ودقة الرسم ؟ إن وظيفته هى إنشاء نظرية للأشكال مهمتها إبعاد الإنسان عن إنسانيته « لتوصيله إلى عالم مقدس » (٣٣) ، ولذا أخذت التماثيل العارية تغطى ، والحركة تتجمد والعيون تنسج ، والشخصيات تزدان بإطار من ذهب ، فيغير شكلها ويبعدها عن الحقيقة ويدمجها فى عالم آخر ، يخيف غامض . هكذا أخضع الأسلوب ،

البيزنطى الأشكال للنوع من «كتابة ذات زوايا»، «ولتجريد ضرورى»، وأصبح هذا الأسلوب «أسلوب تجمد الأبدى» (٣٤) وأصبحت الآلهة بعد أن أضنى الإغريق عليها مسحة إنسانية - معبرة عن سمو مقدس ، وأصبح أبولون هو «خالق الكل» بعينه .

وعرفت المسيحية في الغرب - في الفنون الجميلة على الأقل - طبيعة غير هذه تماما . ولا شك أن الأسلوب الرومانى كان بنسبة كبيرة وريثا للأسلوب البيزنطى ، إلا أن روح كل منهما يختلف عن روح الآخر . فهذه مثلاً رؤوس الأعمدة لدى الرومان في القرن الثانى عشر تختلف من حيث واقعيتها وروحها الإنسانية التى مثلتها ، وما كان لبيزنطة أن تقبلها . . . بحيث كان الفن الرومانى بمثابة غزو لبيزنطة عن طريق العالم الغربى ، لا العكس (٣٥) ، فكانت تتمتع الفنان المسيحى وقد بدأت تتحدث ، لا إلى الخالق ، ولا إلى الأبدى ، بل إلى النجار الذى يحتضر خلال قرون كان الإنسان فيها نائماً (٣٦) أنظر إذاً للمرة الثانية إلى هذه العبقرية الغربية وقد ظهرت ، ها هى ذى كما حدث فى المرة الأولى تميل نحو توكيد وجود الإنسان على حساب المطلق ، وها هو ذا «الوجه الرومانى وقد أصبح إنسانياً ، دينياً فى عمق ، ولم يعد مقدساً» (٣٧) .

أما الأسلوب القوطى فإنه لم يفعل إلا الذهاب بهذا الاتجاه إلى أقصاه . «فأخذت الخطط المرسومة تذوب مرة أخرى ، كما أخذت الأقمشة والحركة تلين» (٣٨) . . فى نفس الوقت الذى أخذت النماذج والشخصيات التى انتزع منها الفن البيزنطى حالتها المدنية تتصف بالفردية . «فقد كان الاكتشاف المسيحى العظيم فى مجال التمثيل الفنى هو أن إمكان تصوير أية امرأة فى دور العذراء يمكن أن يكون أشد تحريكاً للمواطن من محاولة الارتفاع بهذا الدور إلى درجة فوق بشرية عن طريق المثالية والرمز» (٣٩) . أما المسيح نفسه ، فقد أخذت صفته كإله تقل تدريجياً ، وأخذت صفته كإنسان تزداد شيئاً فشيئاً ، ويتضح هذا من مقارنته صورته فى «مواساك» ونظيرتها فى

« آميان » . وقد وصل هذا الاتجاه إلى حد أنه « عندما فصل في متحف ما إلى قاعات الفن القوطى يلوح لنا أننا نتقابل والإنسان الحقيقي الأول (٤٠) » ويتجه الفن القوطى بعد ذلك إلى تحريك المشاعر بحيث أصبحت « أجمل الأفواه القوطية تلوح كما لو كانت جروح الحياة (٤١) . ولكنها على وجه أخص علامة صريحة على أن « الإنسان المسيحى قد وجد تناسقه » (٤٢) فى نفسه وارتبط بالله وبالعالم الابتسامة . . ، وكلما عاد الإنسان للظهور بهذه الصورة ، أخذ شىء من اليونان فى الزوال ، منذ ابتسامة ريمس إلى ابتسامة فلورنسا ، وكلما أصبح الإنسان ملكا عاد إلى الدنيا ليغزو تلك المملكة الواهية المحدودة التى سبق أن غزاها أول مرة على الأكربول وجزيرة دلف ، (٤٣) .

وما اصطغ الأسلوب القوطى بصبغة لادينية ، حتى تخلص عصر النهضة بدوره من آثار العصور الوسطى . وكان يكفى لهذا أن يتبخر العطر الجميل المتبقى من العالم الآخر ، حتى لا تبقى إلا العصور المثالية أولا ، ثم بالتدرج الصور الواقعية النابعة من عالمنا هذا . ولقد افتتح « جيوتو » فى إيطاليا هذا الاتجاه الإنسانى فى الفن ، وهو الذى قال بأن « الإنسان الذى يقف فى وجهه ما تبقى من تهديد الآلهة ، يربط صفائر شعره الأولى بما لم ينسئ فى الظلال المقدسة » (٤٤) .

ولسوف تخرج من هذا الاتجاه حالا فنون التصوير الفلورنسى والفينيسى والرومانى « والتكنفى » والكلاسيكية الفرنسية . ولقد كانت لوحة « الله جميل » الموجودة فى آميان قبل ذلك بقليل لوحة تمثل أى إله فى الكثير أو القليل ، كما أن صورة المسيح التى صورها كل من « بيروجان » و « رافائيل » و « الجيد » أقرب ما تكون إلى صورة شاب مرهق . أما صور القديسين القوطية فقد كانت على الأقل تحتفظ بطابع دينى ما ، من حيث إنها كانت « تنخطى الإنسانية وهى تحملها على عاتقها » (٤٥) ، فى حين كانت صور قديسى عصر « مناهضة الإصلاح » تنتمى كلها إلى حياة أهل الأرض . أما صور القديسة مادلين

الثانية ، تلك التي أكثر منها القرن السابع عشر ، فلم تكن إلا صور مذنبات
يكنين لا تكلبن الذنب ، وهكذا أخذت الروح الإلهية تفقد من روعتها ،
في حين كانت القدسية تنبخر ، وتحول الدين إلى خيالي مطمئن ، بل وقد تحول
مع تيار الواقعية إلى مناظر نوعية ، لدرجة أمكن معها استغلال موضوع
ميلاد المسيح مثلاً لتصوير الأمومة عامة .

وهنا انتصر ما أسماه مالرو « فنون إرواء الغليل » ، أي تلك التي تستند
إلى تفاؤل أعمى ، وإلى قبول الواقعية قبولاً كله نفاق ، وإلى التواطؤ مع القدر
لكي زفغ من شأن الإنسان ، ذلك الإنسان « الذي يملؤه عالم تافه » (٤٦) .
ولم تستطع الفنون المسيحية التخلص من هذا التدهور ، فنذ القرن التاسع
عشر ، وهي تتصف « بروح مسيحية هزيلة لم تفتأ أن تخضع الإنسان
للأسلبة التي لا تقهر ، وكلها تتصف بوجود الله » ، ولهذا « لم يتمكن هذا القرن
من الإجابة على أسئلة ألقاها الموت والهرم وأشكال القدر جميعاً على
الإنسان » (٤٧) ياله من قسوة . . فن التصوير النقي ، هذا ، ويا للدعاء
بوجود فن مقدس حديث .. « وبالرمز كنيسة برودواي الصغيرة ، شبيهة
القوطية وسط ناطحات السحاب .. إن المدينة التي أنشأت هذه الكنيسة على
الأرض جميعها لم تعرف كيف تبني ، لامعبداً ولا قبراً » (٤٨) .

مع هذا فقد كانت هناك ثورة تختمر . فاليوم نرى حتى في الغرب أن
« قيمة عالم الظواهر قد أصبحت موضع الشك والبحث » (٤٩) ، ولقد
أقلست اتجاهات الإنسانية الكلاسيكية فعلاً ، وأخذت الأوهام التي كانت
تخفي مأساة الجنس البشري في الاختفاء ، وأصبح عصرنا عصر العودة إلى
القدرية ، « ولاح أن أوربا ، وهي مهددة تهديداً أكيداً ، قد أخذت تعيد التفكير
في نفسها بروح التفكير في القدر ، لا بروح الحرية . . سواء أكانت في هذا
آخذة طريقها إلى الموت أم لا . . » (٥٠) . لكن كانت هذه التطورات في
صالح « القدسية » التي أخذت تستيقظ من جديد ، وأخذت الأساليب

الدينية القديمة تعود إلى الظهور ، تاركة وراءها فنون الخيال ، وإشباع الغليل ، ، وأخذنا نرى أمامنا نوعا من المحبة الأخوية الكبرى ، فنذ حوالى نصف قرن من الزمان ، كان الفنانون الذين يريدون أن يكونوا أشد المحدثين حداثة هم الذين يبحثون في تممس شديد عن آثار الماضى ، (٥١) . وهكذا أخذوا يعيدون النظر فى الصور القديمة عن طريق إحياء مآركته مصر وما تركه وادى الفرات ، (٥٢)

على أن إنسان القرن العشرين لا يقبل مع ذلك كل ما يحاول الضفط عليه ، ولهذا نجده قد أخذ فى الثورة ، وأخذ يتحدى الماضى . ولهذا نجده يعبل إلى استعادة الفنون البدائية الأجنبية بدلا من فنون الشرق القديم ، لأن البدائية تتصف بوحشية وتهور وقوة غاشمة وكلها تساعد على إيجاد روح التضحية المآججة ، وتشهد على عدم إمكان التوافق إلى الأبد بين الإنسان ونفسه ، وبين الإنسان والعالم . و «الشيء الذى ينتزعه فن المأساة بطريق العصيان البربرى هو قبل أى شيء قبضة يد خبيثة توضع على فم القدر» (٥٣) ولا ينبغي أن نخطئ فى فهم هذا «فالتيممة السريالية ليست شيئا جميلا جذابا ، بل هى وسيلة للاتهام» (٥٤) .

ولقد ماتت الأديان التى كانت تلهم الفنان فنه المقدس قديما ، فلم إذن يطالب غير المؤمنين اليوم الكاتدرائية أو المعبد أو الهرم بشيء ؟ وما وجه التقارب بين الفن الحديث والفنون التى نعيد إحياءها . وبم يطالبون ؟ إن مطلبهم ينحصر فى الأسلوب ، ولا شيء غير الأسلوب ، لقد اختفت الآلهة .. ولم يبق غير آثار رمزية وتماثيل . ولا شك أن تمثال المسيح المصلوب بالأسلوب القوطى لا ينحصر فى أنه شيء جميل فحسب ، بل كذلك تمثال للمسيح المصلوب تنبعث منه أشعة ضوء المسيح . ومع ذلك لا يفرض نفسه على الجميع — مسيحيين كانوا أو غير مسيحيين — إلا بفضل صفاته التشكيلية . أما الإيمان الذى يتمثل فيه ، فإن مثله مثل أى إيمان ، من حيث

إنه مدين لنفسه بالأعمال الفنية الذى يتمثل فيها . وهكذا فإن «القيمة العليا» التى لم نعد نعتز بها لآى مذهب كان ، تتحطم على صخرة قيم عديدة ، وسط حادث الفرق الذى أصاب الأديان والحضارات . . تلك القيم هى الوحيدة التى عاشت وتعيش بعد الأديان والحضارات . . إنها هى الأعمال الفنية نفسها .

وبتعبير آخر ، فإنه نظرا لاختفاء « المطلق » الذى لا يزال العقل البشرى يدين له بدينه ، لا يزال الفن بالنسبة لنا نقوداً نتعامل بها من أجل «المطلق» . وفى هذا الفن الذى ترك الأساطير القديمة لأنها لم تعد ذات هبة ، ذهب القدسية لتجد لنفسها فيه مأوى ولتركز نفسها تركيزاً ، ولو أن هذه القدسية قد انفصلت عن مرابطها الدينية ، وأصبحت «قدسية لادينية» . وينذرنا مالرو هنا بأن هذا آخر تطور يطرأ على أبولون ، ويؤدى إلى «تأليه الفن» . لقد كان الفن فى الماضى فى خدمة الأديان ، واتضح لنا اليوم أن هذه الأديان لم توجد إلا لخدمة قضيتها ، ولذا لم يعد الفن تعبيراً عن إيمان ما ، بل أصبح هو ديننا فى ذاته لدى إنسان لم يعد يؤمن . وقد أصبح « المتحف الخيالى » (الذى أنشأه مالرو) كتاباً يجمع حطام الأديان جميعاً ، أو تلك التى تتصف بأسلوب ما ، ومكاناً تجري فيه صلاة جديدة ، لكن من هو الله هنا ؟ ليس هو الطبيعة ولا التصوير « (٥٥) والمهم فى المتحف هو أنه يعتبر — مثلاً — أن صوره رسمها براك لجناد ما ليست صورة مصغرة تقلد الفن البيزنطى . . بل إنها « تنتمى كهذه الأخيرة إلى عالم آخر ، وتأتى من إله غامض يسمى الفن . . (٥٦) إله ذى سيادة يرأس الآخرين جميعاً ويدعوهم إلى الاختفاء بانتصاره هو . . . ولقد كانت روما تستقبل فى قصر الباتنيون كل الآلهة المهزومين » (٥٧) .

ماذا يمكن أن يكون دين الفن إلا أنه كذلك دين للإنسان ؟ الواقع أن الفن يدخل بنا فى عالم الإبداع الفنى الذى يحل محل عالم الواقع ،

الثاقه اللا إنسانى . والحركة التى يبدىها الفنان المبدع حركة رجل ثائر ينافس العالم ويضع فى وجه هذا العالم عالما آخر . ويظهر « المتحف » بذلك فى نهاية الأمر بمثابة معبد للإنسان ؟ يحل فيه « الوجود الضرورى للإنسان » محل « الوجود الضرورى للطلق » (٥٨) .. الفنان الذى ينشر مذهبه الفنى فى نفس المكان الذى كان يسيطر عليه الآلهة سيطرة إجبارية مفروضة . ذلك أنه « مهما تكن صور سومير ، فى عالم الليل مرتبطة بهدف معين ، ومهما تكن صور « آزتيك » فى عالم الدماء مرتبطة بهدف معين ، فإنها تتضمن موقفا يقفه الإنسان إزاء العالم : « هو موقف يضع أساس الممالك وينشئ المدن » (٥٩) .

هكذا يشهد الفنان « بضرورة تمثيل النصر البشرى » حين يبدع أشياء جميلة ، حتى ولو كانت هذه الأشياء منقولة عن الآلهة . وقد يكون مبدع الأقنعة رجلا تسيطر عليه الأرواح ولكنه بصفته نحاسا يسيطر هو بدوره عليها . وما من شك فى أن نحات كاندرا تية شارتر رجل تسيطر عليه روح المسيح ، لكن ليس المسيح هو الذى ينحت « الصورة الملكية » (٦٠) . فالنشاط الفنى إجمالا يبين قدرة الإنسان على قهر القدر ، بدلا من أن يقع تحت تأثيره ، وخلف كل عمل فنى كبير يتسكع قدر قهره الفنان ، أويجزر (٦١) .

هذا ما يتكشف عنه المغزى الأخير للفن . إنه « مضاد للقدر » فن « سومر » إلى « مدرسة باريس » ومن كهوف المجدلية إلى « كلى » ، أو إلى « ميرو » يتحدث الفن « حديث ذكرى الغزو » ، وينتمى إلى نفس « سبيل السيطرة » (٦٢) ، وكل الأصوات الساكنة لفنى التصوير والنحت شيئا غير المناداة « بالقوة والشرف لكنها إنسانية » (٦٣) ، وهكذا كان من الضرورى أن يكون تاريخ الفن هو تاريخ الخلاص ، إذ أن التاريخ يحاول تحويل القدر إلى ضمير شعورى ، ويحاول الفن هذا تحويل هذا الضمير الشعورى إلى حرية (٦٤) . وبالاختصار فإن الإنسان يصبح أعظم مما يقتله لأنه فنان ،

بمعنى أن شيئاً سوف يظل يعيش من بعد موته ، فمن الجميل أن ينتزع الحيوان الذى يعلم أنه سيموت أغنية الكواكب من قلب الظلمات ، ويقذف بهذه الأغنية فى لجة القرون ، ويفرض على القرون أقوالاً مجهولة ، (٦٥) .

لقد قلنا إن مالرو تليذ شبنجلر . . ألا يمكن أن يكون أيضاً ، كما رأى البعض ، تليذا لهيجل ؟ انظر . . ها هي ذى الحلقة قد تمت . . وانظر إن الفن الحديث كان وريثاً فى آن واحد لتقليد الفنون المقدسة والفنون الإنسانية . فلقد أخذ عن الشرقيين والبيزنطيين والبرابرة إرادة الأسلوب واللامبالاة حيال الحقيقة التصويرية التقليدية ، تلك الحقيقة التى يحل محلها مطلق يؤدى بها إلى العدم . ولقد أخذ عن الإغريق والرومان والقوطيين ومعاصرى النهضة « تقيم » قيمة الفرد ، والاهتمام بالحرية وعظمة الإنسان . هذا هو التجمع الأعلى للفن الحديث . . القدسية واللا دينية والإنسانية واللا إنسانية كلها تجتمع فى قطب ثالث يقضى على القطبين الأولين بطريقة المنطق الجدلى .

والآن يرتفع الإنسان بنفسه لى يصبح إنساناً أعلى يجمع بين الصفتين الإنسانية والإلهية ، ويصل إلى القدسية ، لكنها قدسية هو سيدها مادام هو الذى أبرزها . إنه يسجد أمام اللوحة ، لكن سجوده هذا خضوع لا يدل على أنه عبد ، حيث إنه هو بعينه مؤلف اللوحة ، (٦٦) هذه نتيجة طبيعية للإنسانية الملحدة : إنها تنكر المطلق وتقيم نفسها بصفاتها مطلقاً . إنها تتخلص من الآلهة وتجعل من نفسها إلهاً !!

من النمرود الى الانبياء

إن البناء الذى شهده مالرو يستحق أن نوصى به ، لأن ميزته الأساسية وضع المناقشة فى مستواها الحقيقى ، وهو مستوى ميتافيزيقى دينى . ويعتبر كتاب « أصوات السكون » ، لمالرو من وجهة النظر هذه من أعظم كتب عصرنا ، إذ يعترف معاصروننا على أنفسهم من خلاله كما تعرف معاصرو « تين » على أنفسهم من « كتاب » ، فلسفة الفن . لكن كم كان الطريق طويلا منذ ذاك الوقت . . . هذا هو علم الجمال فى قرن معذب متالم ، يغور بنفسه نائر ضد المطلق ، يلتمه عدم وجوده ، ويتعطش للروحانية . مع هذا فالعمل الفنى يعكس أساطير العكس انعكاسا بولغ فى دقته . وقد يكون من الجائز ألا يكون دين الفن - ونحن نفحصه فى برود ، ونجرده من سحر الأسلوب - مطابقا لا لجوهر الفن ولا لجوهر الدين .

يستند مالرو فى عالم الجمال كما يراه إلى تاريخ الفنون الجميلة ، أوبالآخرى تاريخ فى النحت والتصوير . وأقل مايمكن أن نقوله بهذا الصدد هو أن الاختصاصيين فى هذا لا يتفقون وإياه دائما . . . وقد وجدوا فى نظريته تقريبات وحذفا وتبسيطات وقوانين صارمة لا تبررها الحقائق .

إن الإنتاج الضخم فى آسيا الضخمة خلال قرون طويلة يضطرنا إلى التخفيف من هذا والاعتراف بالتنوع فى درجة الخشوع . . . كما يضطرنا إلى التحقق من أن الانجاء نحو التجريد فى كل مكان آخر غير آسيا لم يحدث دون مقابل له هو الاتجاه الواقعى . ماذا تكون العلاقة بين « إنكار المظهر » فى الهند والصين ، وهذه « التماثيل العارية المرنة المتموجة ذات الرشاقة الحلوة والجاذبية الأخاذة » ، وهى ثمرة المناطق الاستوائية . تلك التى أوضحها رنيه جروسيه ؟ أليست تنتمى إلى « الفن البوذى العظيم » ، (٦٧) ، على وتيرة النقوش البارزة فى « نارا » ، ٩ .

هذا ويحاول البعض جاهداً أن يقلل من أهمية ما لا يمكن إنكاره ، وهم يتحيزون تحيزاً يفتق العيون . ولتحكم بنفسك . . يقول مالرو : « إننا نشعر غالباً في فنون الشرق الثانوية » (لافي الفنون الكبرى بلا شك) ، نشعر غالباً بروح تنأهب للتفجر ولكنها لا تتجاوز الالتصاق . . (وأبن القدسية إذا ؟) « وحتى لعب الأطفال في الشرق تعبر عن مزاج حزين يتميز به هؤلاء الأطفال » (مؤكداً أن المزاج ولعب الأطفال في الشرق لا يمكن إلا أن تكون حزينة) . لقد كانت مصر القديمة هي الأخرى واقعية ، لكنها كانت تزاوّل واقعيتها هذه سرا ، (يا إلهي . . لقد كان العنصر الأزلي يخفي عنا تلك الواقعية) ولقد كان من المستحيل علينا أن نعلم إن كان للصريين القدامى مزاج وروح لولا أن وجدنا الأحجار والحصى التي كان يرسمون عليها رسومهم الأولية ، (هل يقصد أن المناظر الجذابة ، وقد كان تصويرها أحياناً يدل على روح الاستخفاف والخفة ، تلك المناظر التي نراها داخل القبور هل يقصد أنها لا تحتسب ؟) . لكن هذه الأحجار تثبت لنا أن المصورين والنحاتين كانوا يعرفون استقلال الشخصيات قدر معرفتهم للمزاج . . — (مزاج أطفال يغلب عليهم الحزن) .. ولهذا فإنهم ألّفوا بهذه الأحجار جانباً لنفس هذه الأسباب وبنفس القوة . (لعل أحسن سبب هو رغبة مالرو في ألا نعترض على ما يقول) (٦٨) .

هذا وتشكل بلاد الإغريق مع الشرق نوعاً من التناقض ، لكن التعارض الذي يقدمه لنا مؤلفنا (مالرو) بينهما شديد لدرجة مبالغ فيها بحيث يجافي الصواب ، فالقن الإغريق يستند للحساب الدقيق بحيث لم يكن — إلى نهاية العصر الكلاسيكي — أقل تجريداً بطريقة من الفنون المصرية ، أو الآشورية . لكن كيف يقال ، من ناحية أخرى ، إن الأكروبول كان مكان موت الموجود ، في حين اتخذ أكبر فلاسفة الإغريق أمثال هيرقليط وبارمنيد وأفلاطون وأرسطو . واتخذوا الموجود موضوعاً لتأملاتهم ؟ لسوف نبحث

فما بعد ذلك الفرق بين القدسية والالوهية ، لكن في إمكاننا منذ الآن أن نضع نظرية مالرو موضع للشك، حيث يعتقد البعض أن ألوهية مالرو بعينها ألوهية الإغريق . إن مالرو هو الذى يقول فى فصل عن الإغريق إن المجال الوحيد الذى نستطيع فيه رؤية ما هو إلهى هو مجال الفن .

والأسلوب يكفى ليدخلنا فى رحاب هذه الالوهية ، إذ أنه كان يلوح أن الأسلوب ينبع من القدسية ، فالصفة الإلهية تنبع من شكلها . . . وأى تمثال يمكن - سواء اكان مقدسا أم لا - أن ينتمى إلى الالوهية بفضل الموهبة، لأن الموهبة ليست شيئا آخر غير التعبير عما هو إلهى، والآلهة تتخذ شكلا بالفن ، كما يتخذ الضوء شكلا بما يضئ » (٦٩) . هذه الآراء توضح لنا فكرة مالرو . ولكنى لا أعتقد صراحة أنها يمكن أن تكون مؤكدة طبقا لما نعلم عن الفكر الدينى والممارسة الدينية لدى الإغريق .

لقد كانت الروح الإلهية هى روح القدسية منذ سنوات ما قبل التاريخ . وبعد عهد دلفولم يعد فى الفن اليونانى شيء آخر غير الالوهية » (٧٠) لكن يعارض هذا وجود «القدر» ، ذلك القدر الذى شغل على ما يلوح النفس الإغريقية بدرجة لا تقل عن شغل الحرية والسعادة لها ، ويدل على هذا كل ما كتبه هوميروس ومؤلفو المأساة . ولقد تنبأ مالرو بهذه المعارضة التى نقول بها ، ولكنه أخفاها قاصدا . . فهو يقول : إن أساطير أجايمون وأوريس وأنتيجون كانت معروفة لدى الجميع ، وإن الإغريق ما كانوا يشعرون بالاهتمام لسماعها ، بل كان من الضرورى أن يقصصها قاص بطريقة جذابة . المهم أنه كان من الضرورى أن تصبح شعرا . ولم يكن مؤلفو المأساة مخرجين مهرة لموضوع الرعب ماداموا قد أدخلوا فى أعمالهم جو هو القرقوز الكبير . وما هذه الفظاعة الملحة إلا تلك التى سوف تظن أوروبا مستقبلا أنها تكشف عنها فى فنها فى المأساة الدرامية . كان أرسطو حمار يضع زنبرك مسرحية المأساة فى الرعب والشفقة . . . وهأساليب المسرح

الإغريق لم تكن تعمل على تقوية الرعب والشفقة ، بل كانت تضعف من قوتها ، ولم يكن النظارة يذهلون لأنهم كانوا يصابون بحالة من « الآلم » بل لأنهم كانوا يصابون بالنشوة ، ولأنهم كانوا يكشفون في تاريخ « أتريد » ، أن الشعر يتحدث إلى القدر حديث الند للند ، وفي هذا العالم الخيالي الذي يثيره الإنسان ، تفضل مسرحية المأساة أن تعطى شكلا لما يضغط عليها ، ولكها في نفسها تعمل على أن يستمر هذا العالم في قبول ذلك الضغط هكذا تم اللعبة بإحكام ، وكأنما جمهور الناظرين يسعه أن يظل غير مبال بالمسرحية . . . وكما لو كان هذا الجمهور قد أخذه الضيق من الاستماع دائما إلى نفس القصص ذات النمط المثل ، وكأنما كانت أوروبا ، وقد كتب كاتبوها مسرحيات الميلودراما غير قادرة على فهم المسرح الإغريق . . . وكأنما كانت جوقة المنشير في غند ايشيل « تشبه في شيء ما يقدمه القرقوز الكبير . . . وأخيرا كأنما كان سوفوكل يريد أن يعلننا — وهو يحكي آلام أوديب — كيف نتمرد على القدر .

والأوروبي المنقف لا يعرف بيزنطية قدر معرفته اليونانية ، ولذا فإن مارو لم يفهما جيدا . ومن هنا كانت مبالغته في وصف القطيعة التي حدثت بين الشرق المسيحي الحديث والعالم الإغريقي الروماني القديم . ولقد أثبت العلماء المتبحرون أن الفن البيزنطي ، وقد اندمج في التقاليد الشرقية ، قد تأثر بالنقلد الهليني وأخذ يتحدد دائما بفضل الاتصال به . على أنه قد يكون من العبث أن نعتبر «الموزاييك» فن الظلام العظيم الذي جرت ممارسته بقصد زخرفة بالآرواح مسكونة ، يسيطر عليها الله في عظمتة ، محاطا في هذا بحماية ضد الارتباط الدنس بالناس ، (٧١) . إن هذا التحديد صحيح فيما يتعلق بالفترة الثانية تقريبا من الفترات الأربع لفن التصوير البيزنطي ، تلك الفترة التي تقابل عصر جستنيان . أما الفترات الأخرى ، فهي تنسم

غالباً بالألوان البراقة والأضواء المرحية وبروح من الجاذبية والعاطفية ، وبالميل نحو التشكيل البسيط ، وكل هذه الصفات بعيدة عن الأسلوب البارز للنظام الكهنوتي .

هذه فكرة رئيسية عند مالرو . وقد سبق أن كتب في كتاب أشجار التبرج ص ١٢٨ هذا ، يلوح لي أن فننا يبعث الاستقامة إلى العالم ، وأنه وسيلة للهروب من أحوال الشرية ، ويظهر لي أن الخلط الأساسي آت من اعتقاد البعض أن تمثيلهم للقدر معناه تحملهم إياه (في فهمنا للتراجيديا الإغريقية هذا واضح) لكن . . . لا . . . إن هذا معناه أننا نمتلك القدر بمجرد الحقيقة القائلة بأن في الإمكان تمثيل القدر وإدراكه شىء بعيداً عن القدر الحقيقي . . . وعن السلم الإلهي ، ويهبط به إلى السلم البشرى الجنائزى ، ذلك الأسلوب الذى يقدم لنا على أنه الأسلوب البيزنطى لا شك في أن الفنان البيزنطى يرتفع فوق المظاهر الخارجية ، لكنه لا يحتقرها ، كما أنه لا يحتقر إنسانية المسيح . فالتحدث إذأ في هذا المجال عن « وحدانية جسدية لا يمكن الوصول إليها ، وتختلط بها اندفاعات عاطفية والإصرار على أن بيزنطة لم تكن في يوم من الأيام واثقة من أن المسيح قد تألم بصفته إنساناً » (٧٢) ، أمر معناه الرغبة في إبداء تعبيرات وصيغ رنانة تناقض روح الطقوس الشرقية وعلوم الدين الشرقية كلها . فالأجزاء العميقة المذهبية في المقاطع الأسطوانية من المباني ، وأساليب الأشكال وتكبير الوجود لدرجة فوق إنسانية كل هذا لا يعنى أن الفن البيزنطى قد قضى عليه « العابر » . . أو أنه كان جامداً جموداً شديداً في مواجهة ما هو أزل . . لكن هذا معناه أن يسوع ابن الله حاضر حين تعمل الروح الإلهية على تشكيل الشكل البشرى والطبيعة كلها بأشكال جديدة (٧٣) .

ولعل من المفيد أن نوضح في التجسد ، إما تأليه الإنسان أو تصور الإله على غرار الإنسان . ولعل وجهة النظر الأولى تتعلق بالشرق ، والثانية بالغرب . وعلى أى حال فليس في هذا إلا فرق في طريقة إلقاء الضوء ، إذ قد يكون من المضحك المعيب على الشرق المسيحي أنه نسى إلهية المسيح ، واتهام يزنطة بإنكارها لإنسانيته ، لهذا كانت آراء مالرو حول انهيار القدسية في الفنون الرومانية والقوطية راجعة إلى ميله نحو صبغها بصبغة أسطورية فحسب . نعم .. لقد كانت روح إلهية مشوبة بالإنسانية منذ بدء الفن الروماني . لكن «فن الحلية» (٧٤) هذا يأتي من نفسه ، في الجزء الأكبر منه ، من الشرق ، أكثر من أنه كان غزواً قام به الغرب ضد الشرق . لقد أتى من الشرق وبوجه خاص من الأديرة السورية والفلسطينية . نعم لقد جاء شعب الأرض الصغير ينضم تدريجياً إلى «فوق العالم الأبدى» .. أتى «الصناع الفنيون بمعداتهم .. وأتى المنبوذ ومعه كلبه» (٧٥) . لكن هذه الشخصيات .. الصناع والمنبوذ .. ظلت ثانوية حين انجذبت إلى دائرة الشخصية الرئيسية التي تشغل مركز الأبراج تلك التي ترمز إليها الكنيسة .. شخصية المسيح بعظمته وقد خرجت عن خالق الكل . نعم لقد شعر «الإنسان بكيانه، وأخذ يبتدع أبطاله» (٧٦) طوال قرون العصور الوسطى .

لكن بطل العصور الوسطى هو القديس ، ذلك الإنسان الذي يتعبد ويصلي ويقدم نفسه ضحية ، والذي يعتبر وجوده اتصالاً حياً بالله وبالمسيح . نعم إن تمثال «الله جميل ، في آمان يقترب منا . ولا نفقد مع ذلك شيئاً من صفته المقدسة ، إن نحن وافقنا على أن كمال الفن القوطي يرجع إلى توكيد الرابطة بين البشرى والإلهى ، على أن الذى يصنع القدسية المسيحية هو تحقيق التجسد عن طريق الفيض الإلهي السامي .

يلوح أن مالرو — وليس هذا بعجيب — يرفض وصف الأعمال الفنية

ذات الصفة المسيحية الواضحة بالقدسية . وقد يكون هذا راجعا إلى مذهبه وأحكامه عن فكرة القدسية في ذاتها ، إلا أن هذا المذهب وتلك الأحكام غير كاملة . إن عاطفة القدسية باعتبارها موقفا للضمير تتضمن تكشف حقيقة غامضة لا يزال من المستحيل تحديدها ، ومدركة فحسب كما لو كانت « الآخر البعيد » ، أى بصفتها « ما هو غريب عنا ، ويبعث الضيق فينا ، وما هو خارج إطلاقا عن الأشياء التى تعودناها ونعرفها تماما ونفهمها جيدا وأصبحت بذلك مألوفا بالنسبة إلينا » (٧٧) .

لكن هذا الآخر البعيد — يتقدم لنا بصفة مزدوجة ، ويثير عندنا سلوكا مزدوجا . إنه « الضخم » ، المخيف الذى يذهل ويبعث الشلل والرعب بضخامته وعظمته وقوته ، الذى نشعر حياله مباشرة بالعزال والدنس والتفاهة . ولكنه هو أيضا « المبهر » . فبالقدر الذى تكون الألوهية به موضوع رعب للنفس — تجدها تجذب وتعجب ، والمخلوق الذى يرتعد أمامها ويخشع ويفقد شجاعته يشعر فى نفس الوقت باندفاع نحوها وبرغبة فى أن يمتلكها بأى شكل من الأشكال . فإلى جانب العنصر المرعب يظهر شئ ، يغرى ويجذب ويذهل بشكل غريب ويزداد قوة لدرجة أنه ينتج فينا التمل والذهول (٧٨) .

وهذا هو الاندماج الذى يحدث لعنصرين ويشكل معنى القدسية فى أصلاتها الخاصة صحيح أن السكّان الغامض موضوع خوف كلما تكشف . لكنه أكثر من هذا موضوع حب .. ترغبه وتعبه ورغبة وحبا عظيمين .. لأنه يضم السلام والسعادة . ولقد عبر المتصوفون جميعا عن تلك الجاذبية واحتفوا دائما بهذه العذوبة وذاك الشذى .. الآتين من الله : شذى الله .. وعذوبة الله ..

لكن مالرو لا يعرف من عنصرى العاطفة الدينية ، مأخوذ من

منبعهما إلا واحداً . والقدسية عنده هي ما يلتمه الإنسان ، وهكذا لا توجد لديه أية فكرة عن أنها يمكن أن تكون أكثر من ذلك — اللهم إلا في الأديان الرديئة ، إن كانت هناك أديان رديئة — لكي لا توحى إلا بالرعب الدنيء — الذي يغذى الإنسان وبملؤه . ومالرو — بتعبير آخر — لا يدرك أن من الممكن أن تكون القدسية موضع حب . ومن هنا كانت عنده نتائج عديدة . فهو إذ يقيس العاطفة الجمالية بأردأ الأعمال الفنية التي يرى فيها أعظم الأعمال قدسية ، يستبعد التلذذ واللذة (*) ، لأن اللذة اعتراف بالخضوع كما أنه يرفض فكرة الجمال التقليدية ، لأنها توحى بتناسق تهدف القدسية إلى وضعها موضع البحث . وأكثر من هذا موضعاً للشك ، تلك الرشاقة التي تبين في الفنون وفي الأديان أيضاً . تبين القوة التي تتقدم لتكون موضع الحب ، وتأتي إليك بكل هباتها .

وأخيراً فإن مالرو أعمى تماماً ، حيث لا يرى هذا النوع من القدسية

* الشعور الذي نشعر به أمام تمثال «بييتا» (الرحمة) في أفينيون . يساء التعبير عنه بالفاظ ترتبط بفكرة اللذة ، حتى ولو كانت هذه لذة الابصار أو ترتبط بفكرة الجمال التقليدية . والوجوه المصورة في الصورة الملكية « لم يتم أبداعها طبعاً من أجل التلذذ ، والشعور الذي توحى به هذه الوجوه لنا غريبة عن تلك اللوحة (تطور الآلهة جزء ١ ص ١) . وفي مكان آخر يتحدث مالرو عن نوع الشعور فيقول : «ان الاجيال لا تعرف هذه الوجوه التي لاتقهر (بولير - ديلاكروا - موزار الخ ٠٠) والناس لا يحبونها ولا يختارونها ولا يمكن التفضيل بين بولدليز وجان ايكار ، أو بين ديلاكروا وكورمون ، أو بين موزار ودونيز الخ ٠٠٠) ، فهذه الوجوه لا تؤثر بطريق الاغراء ، بل تؤثر بطريق «الابهار» (صوت السكون ص ٣١٥) . انى أخاف أن يكتفى مالرو بدفع الأبواب المفتوحة ٠٠ فبولدليز يفرض نفسه علينا بقوة العبقورية ، في حين أن ايكارد لا يتميز الا بالموهبة ، وهناك فرق في هذا ٠٠ فرق معروف . ومعروف أيضاً الفرق بين الرفيع والجذاب ، وبين المأساة والهزلية . أما الاغراء والابهار فهما من نفس النوع ، نقصد الجاذبية ، والجاذبية محبة وهي ترجع الى التلذذ . وأنا لا أفهم ما يفيدنا من التمييز بين الاغراء والابهار أولاً ، وبين الابهار والتلذذ ثانياً الا اذا كان التلذذ يعنى الاشباع وهنا كان عليه ان يقول هذا .

نقصد قدسية « العذوبة »، وإلى أراهن على أنه يرى « جنة داني »، أقل جمالا من « جحيمه »، لأنه من أولئك الذين يرون أن الجنة لا طعم لها، ولذا فهو يقفز وقدماء مربوطتان من فوق لوحات انجليكو . فإن أنا استمعت جيدا إلى جملة غامضة من مقطوعة « تحول الآلهة »، فإن القس - المصور لن يكون إلا مشعوذا « يضع فنه في خدمة خوارق الطبيعة » (٧٩) (هكذا يقول مالرو) لكن هل يجوز أن يساء الفهم إلى هذه الدرجة ؟ إن العالم الذي يدخلنا فيه انجليكو ، عالم السكون والسلم والنقاء والحب ، عالم مشوب بقدسية من أرفع درجة وأندر ما يكون . لكننا لا نكشف فيه « النغم الجاف » الذي يجده مؤلفنا في المصورات البارزة في « تافان » ، ولا « الوجوه التي مسخها الله » في لوحات الموازيك البيزنطية ، ولا « الولة الجهنمية » التي يظن أنها موجودة عند رامبرانت وميكل انجلو ، (٨٠) . أن « دياتو » (انجليكو) لا يمكن أن يحتسب حتى بين « سادة الاتهام الطيب » ، الاتهام الذي يوضع فيه كل من ماساكيو وبييرو ورافائيل (٨١) . تصور هذا : فنان لا يتهم أحدا . . لا بد وأن يصيبه الخجل من نفسه . . إنه لن يعرف كيف يدخل إلى عالم مالرو على أية حال .

ثم نقسأل : ما هو هذا « الآخر البعيد » ، وذاك « الفيها وراه الحاضر » الذي نشعر به كشيء مقدس ؟ يجب مالرو بقوله : « ليس هو دائما الله » ولا حتى « مطلقا ميتافيزيقيا » ، (٨٢) ، فهناك في الواقع عدا القدسية الدينية قدسية قبل دينية ، وقدسية « لا دينية » ، وقدسية « ضد الدين » ، فالقدسية قبل الدينية هي « شعور بوجود آخر » ، (٨٣) يوقظنا الشيء غير العادي ، الغريب ، الخارق ، بكل طبقاته ، نقصد طبقة العرائس الخيالية أو الخارق الجذاب ، والغريب أو الخارق المقلق ، و « الماردية » ، أو الخارق المرعب . وهناك شيء يحطم السير العادي للأحداث ، ولو أننا لا نعرف ما هو . والقدسية غير الدينية هي قدسية القوى المجهولة في الطبيعة وأعماق الحياة النفسية

والنشوة فوق النيرة للضمير ، وهى ترجع إلى عالم محدد لكن ليس هو بعينه العالم الإلهى . أما القدسية ضد الدينية فإنها تنتج ، ابتداء من شيطانية الكبرياء إلى شيطانية الوحوشية ، من الانعطافية السائدة المتعددة ، فحيث إن من الجائز حب الله دون حدود ، فإن من الممكن أيضا — فى ذاته أو من خلال عمله — أن يكون موضع كراهية أو سخرية أو تصويرية كاريكاتورية خارقة . ومرة أخرى نقول إن النفس الإنسانية قد صنعت بحيث تضم هوتين ، وإنما بالتالى خاضعة لجاذبيتين ولنوعين متعارضين من الدوار ، تقودها حركة « علوية » إلى تخطى نفسها من أعلى وحركة علوية (٨٤) كذلك تدفعها إلى تخطى نفسها من أسفل ، وإلى الانعطاط بذاتها وإلى القضاء على نفسها بنفسها ويعمل كل من هذين الطرفين على أن يقننها « بالرجفة المقدسة على السواء » .

إنك ترى كيف كان مالرو على حق حين ميز بين المقدس والإلهى والدينى . لكنك ترى أيضا كيف أخطأ حين فصلها بعضها عن بعض ، فليس هناك من المقدس إلى الإلهى ، ومن الإلهى إلى الدينى انحطاط كما يظن ، بل هناك — على عكس ذلك — إخصاب وتحديد تقدمى . فليس الدينى بخارج عن منطقة المقدس ، بل إنه هو المقدس الذى وجد موضوعه الحقيقى ، ذلك الموضوع الذى لا يقتصر على أنه « مطلق ميتافيزيقى » ولا على أنه إلهى مذاب ذوبانا مختلطا فى الأشياء ، بل موضوع أقل شيطانية . بل هو الله فى علوه وفى شخصه . على أن مهمة الأدبان الإيجابية مادام المقدس معرضا للشكوك والالتواءات التى ذكرناها ، هو توجيه ذلك المقدس وتنقيته والوصول به إلى غايته . ولا شك أنه يحدث أن تصاب بعض الأدبان بالذبول وهى مع هذا ليست أقل قدرة على الإبقاء على المقدس معها ، لدرجة أنها تجذبه معها إلى الهاوية — ألا ترى هذا المقدس يتراجع فى فترات

معينة إلى مرحلة بدائية، أو يتحمس فتصيبه الحمى التى تؤدى به إلى أسوأ الخلط ؟ .

ومالزو فى هذا أيضا شاهد جيد من شهود عصره ، فهو يربط بين تلك القدسية « بقلق الإنسان العميق لكونه إنسانا » ... قلقا يعمل الخوف من حرب نووية على نشره فوق رؤوسنا ، وتعمل على نشره أيضا قوة صامته هى القوة الكونية والتعصبات الجماعية والسير تحت أقدام القدر، بل والقدرية الداخلية التى تشكلها لدى كل منا الاندفاعات الموروثة والاتجاهات الغريزية ودوافع اللاشعور التى لا تقاوم . ولقد كان فى إمكان مؤلف الطريق الملكى « والحالة البشرية، أن يقدم مادة غزيرة لأصحاب القدسية الحاليين ، أولئك الذين لا يصفون من هذه المادة إلا مظاهرها السفلى أو التى تبعد عن طريقها الصحيح . فبالنسبة لأحدهم كانت القدسية هى « الجزء من الأنا الذى لا يقهر، (٨٥) . لا يقهر إلا إذا انصرف الإنسان إلى قوة قاتلة تؤدى بالقوانين إلى الانفجار ، وتنفجر هى بنفسها فى الشذوذ الجنسى وفى الجريمة . أليس الشذوذ الجنسى هو « التعبير عن حملة هجومية ضد حدودنا » (٨٦) . ومحاولة ترمى فى آن واحد إلى أن تتخطى أنفسنا، وأن نقضى على أنفسنا ، فى حين أن اللذة « استهلاك شديد للطاقة وللصادر الحيوية ، شديد بمعنى خطير للغاية ، ومرعب لهذا السبب بعينه » (٨٧) وبالتالى فهى استهلاك مقدس؟ ألم تعمل فكرة الجريمة على بعث النشوة عند رامبو؟ لقد قال رامبو : « لقد جففت نفسى فى هواء الجريمة . فالواقع إذاً أن « من الجائز أن تكون الجريمة عملا جذابا لدرجة تستعير معها روح التضحية لبعض صفاتها المقلقة لأكبر درجة ، بعد أن تكون قد هبطت إلى درجة الانحطاط ، وباعتبار العالم جاهلا وأقل إنسانية » (٨٨) .

إن مؤلف « أصوات السكون ، مؤلف قصصى مهما يكن الأمر، تغلب عليه صفته كقصصى ، والقدسية فى نظره ترتبط دائما أو غالبا بالبدائية

وانطلاقها ، ومن هنا كان تفضيله لفن جويا ، لا لفن جويا ذى الاتزان في اللوحات التى تصور الأفراد ، بل لذلك الفن الذى يمارسه جويا ويصور فيه الرغبة والرفاهية والدماء والرؤية الثقيلة والكابوس والجنون والقسوة والشعوذة .. ومن هنا أيضا كان إعجابه بالفنون الوحشية التى تصف الرعب والشياطين ، حيث يبعث الشياطين ليعبروا عن نهاية العالم ، وهكذا دخلت الشيطانية على خشبة المسرح بعد أن مرت من مجال الحرب ، وهو مجال الشيطان الأكبر ، و انتهت إلى مجال العقد النفسية وهو مجال الشيطان الأصغر ، لتمثل الفنون البربرية تمثيلا يزيد أو يقل بربرية ، ومجاله في هذا الصدد مجال كل ما يهدف إلى تحطيم الإنسان والقضاء عليه ، حيث تتخذ شياطين بابل والكنيسة وفرويد ويكيلى نفس الشكل ، (٨٩) .

والمذهب الذى يتخذه مارلو في الفن يرتبط ارتباطا وثيقا بالفكرة التى يشكلها لنفسه عن القدسية ، بحيث لا تستجيب هذه الأخيرة لذلك المذهب ، فالفن باعتباره تعبيرا عن ضيق البشر هو كذلك صيحة احتجاج وثورة ، وبحث جديد في الواقعية ، ورفض للنظر الخارجى ، و « إنكار لعالم ملوث » ، (٩٠) ، ولكنه كذلك صيحة انتصار .. نقصد انتصار الإنسان على القدر وعلى عالم بعيد لإنشائه تبعا لهواه ، ويخضعه لقانونه هو . ولعل من الملاحظ هنا أن مارلو يجهل في ذلك الإطار قيمة الجمال الطبيعى ، بحيث لا يوجد في نظره إلا الجمال الفنى ، باعتباره انتصارا وإبداعا . ولعل تردد بعض التعبيرات هنا ، تلك التعبيرات المملة أمر له مغزى خاص وتأخذ لهذا مثلا كلمات : الهدم والانزاع والغزو والضم والامتلاك والحاجة الملحة ، وغير القابل للإخضاع الخ . وبوجه عام يعتبر مارلو بصفته عالما للجمال ، استمرارا لمارلو بصفته مرددا للثورة ، والأمر بالنسبة إليه « ترك مكان جرح على الخريطة ، والفن عنده « آخر فرصة للعمل والفنان رجل يتخذ شكل إنسان مفترس ، مخاطر على غرار الجنود المرتزقة » .

إن التطرف في الحكم لا يأتي منا ، فالرو هو المستول عنه لأنه يضحي بنصف سيكولوجية الفنان من أجل حبه للظهور . كم من مرة ، رغم هذا ، رأيناه متواضعا ، هادئا ، صبوراً ، لطيفاً ، إنني أود من قلبي أن يغزو العالم بأن يعزوه إلى الأشكال التي يختارها ، أو إلى تلك التي يبتكرها ، كما يفعل الفيلسوف حين يخضع العالم لمذهبه ، وكما يفعل عالم الطبيعة حين يخضعه لقوانينه ، (٩١) .

لكنه لا يقهر الطبيعة — كما يفعل الفيلسوف وعالم الطبيعة أيضاً — إلا عن طريق طاعته لها . إن الحاجة إلى الإبداع والخلق — وهذه ضربة أخرى — لا تتعارض لديه ولذة التأمل والإعجاب والتوافق . فبدلاً من أن يدهش الناس بطريق المفاجأة نجده يصنع إليهم ويستأنسهم ويحصل منهم على اعترافات خاصة بهم وبطريق الرقة والاستماع إليهم في شغف . وهكذا نجده يترك نفسه لتقوده الظواهر الخارجية نحو ما تعلنه من حقائق . أكثر من أن يقضى عليها . وهو لا يعزل نفسه حين ينفي وينسكراً عالماً دنساً ، نقصد لا يعزل نفسه عن عالم الدنس هذا : فالنظرة النقية التي يلقيها على العالم تكشف له عن هذا العالم وتقائه . وهذا هو — كما يقال — العنصر المؤنث المقابل للعنصر المذكور ، في الإبداع الفني ولقد تحدث آخرون عن « توازن بين النشاط نصف النهاري والسلبية الكونية » ، (٩٢) .

ولنقل نحن من ناحيتنا إن تجربة الإبداع الفني تتضمن دائماً ناحية — لا أقول إنها سلبية ، لأنه ما من شيء يتطلب جهداً أكثر نشاطاً — بل ناحية فتح وترحيب واستعداد وتقبل . ويقول مالرو إن الفنان عضو في أسرة الطموحين . ألا يمكن أيضاً أن يكون — على الأقل بنفس الدرجة — من أسرة العشاق ؟ .

عاشق عجيب ، لا يشعر بالرضا حين يدلل ما يحب ، ويعمل على

إعادة بنائه بقوة وحماسة . ألا يمكن أن يكون هذا هو الدليل على أن ذلك الحب يذهب إلى أبعد من موضوعه المباشر ، مادامت الأشياء الجميلة لا تحب إلا كما تحب صورة منقولة ، أى حقيرة ، منقولة عن جمال أكثر كمالا ؟ من هنا إلى فرض وجود مطلق ميتافيزيقي وديني لا توجد إلا خطوة واحدة لم يكن هناك إلا القليل لكي يعبر مالرو هذه الخطوة . فلقد كان يمكن ألا يلقي عقله وإرادته جانبا بما كان قلبه في حاجة إليه .

وإن كان مالرو يحب الفنون المقدسة ، فذلك لأنها ترتبط بعلو خاص . وإن كان يمتد فنون الإشباع فذلك لأنها لا ترجع إلى أية قيمة ، « والناس يشبعون أذواقهم ويكرسون أنفسهم لصيغهم هم ، والقيم الحقيقية هي تلك التي يقبلون من أجلها البؤس . . وأحيانا الموت » (٩٣) . حسن جدا . . . لكن قبول البؤس والموت من أجل شيء . . أليس هذا معناه منح هذا الشيء قيمة عليا ؟ إن مالرو يضع فن التصوير مكان الله . . فهل فعل هنا شيئا غير أنه غير نوع المطلق ؟ أو بالأحرى ، ألم يحول في بساطة ضرورة هذا المطلق نحو موضوع آخر ، وهو — أى المطلق — حقيقة أعماق النفس البشرية ، والذي يوجد أصلا كإصل لجميع الأديان ؟ إنه سوف يضطر للموافقة على ذلك رغم أنفه ، فهو يقول : « إن اللغة الدينية هنا تبعث على الضيق والإثارة ، لكن لا يوجد غيرها » (٩٤) . إن هذه اللغة « تمت بالقراءة لكل الأساليب المقدسة ، ولكنها غريبة عن جميع الأساليب الأخرى ، ولذا فإن لغتنا الدينية تبدو لغة دين يحمله » (٩٥) . « إن عددا كبيرا من جميع البلدان ، تكاد تسعر بأنها مرتبطة فيما بينها ، تنتظر على ما يلوح من فن جميع العصور أن يسد لديهم فراغا غير معروف » (٩٦) .

أنا لا أنسى أنه إذا كانتمة — في رأى مالرو — دين ما ، فإن ما من دين غير دين الفن ، وبالتالي ما من دين غير دين الإنسان . وهكذا فإنه يؤكد

أن الفن الحديث « ليس ديناً بل إنه إيمان » (٩٧) وما هو « بالمطلق » بل هو « ما يتلو المطلق » (٩٨) ففي عالم لا يعرف « مطلقاً » ما ، حيث تنحطم القيمة التنظيمية الأمرة الكبرى لتصبح قيماً متعددة (٩٩) ويصبح هذا المطلق « نقوداً تتعامل بها مع المطلق » .. إنها نقود انعدمت قيمتها وأأسفاه ... « أوراق مالية لا مقابل لها ، وشيكات بلا رصيد » لا يضمنها ضامن . فن الذي يمكن أن يعترها نقوداً صحيحة ؟ إن الفن لا يمكن له إلا أن يبعث فينا خيبة أمل ونحن نتوقع منه شيئاً ... يستحيل عليه ذلك إن هو لم يرجع بنا إلى المطلق نفسه ، ولن تكون للأعمال الفنية التي يقدمها إلا غزوات فاشلة ، إن هي لم تأت قبل تمكن ثابت طويل الأمد .. إننا نعتقد أن مالرو ذكي ذكاء كافية يمكنه من فهم ذلك تماماً .. لكنه أراد أن يقدم للإنسان في قلبه هذا صورة بدائية للفن . ولا يفعل هذا إلا ليغرر به وليبعث التعقيد في حياته وليخفي عنه ألماً يبعث به ليقضى عليه ، وما الفن على هذه الصورة بقوة تستطيع حل المشكلات الجديدة أو إسكات الشياطين التي تزجر : ما أتفه الفن بالقياس إلى الألم وما من لوحة وأأسفاه تستطيع أن تصمد أمام بقع الدماء ! ! « ولربما كان الفن على حق حين يصور وجه رجل ميت إذا لم يكن هذا الوجه محبباً » (١٠٠) فليتلق مالرو إذا بالحاجز الذي نصبه ليحمي نفسه من الدوار . إن هذا الحاجز قابل للكسر وضيق النفس يأتي من العدمية وهو قريب .. ومالرو يعلم ذلك .

وما دام الفن ليس بمطلق يستحق أى شيء فإنه سوف يظل كما كان ، شاهداً على ذلك الأهداف نحو المطلق الذي - إن نحن نظرنا إليه جيداً يغذى الثورة النفسية ذاتها . ذلك أن الكشف عن عدم كفاية العالم معناه البحث عن « ما وراء العالم » ، والتنديد بالمظاهر الخارجية معناه الالتجاء لشيء أو إلى شخص ما لن يكون هو مظهرها خارجياً ، والإقلال من « اللاقيمة » معناه

الرجوع إلى القيمة الكبرى ، وهكذا فإن النفي يستند إلى إثبات أعمق ، ليس هو إثبات الإنسان فحسب . . . إذ يكتب هذا مالرو قائلاً : « إن الفن الحقيقي يضع وسائله في خدمة جزء من الإنسان مختار اختياراً غامضاً وبقوة شديدة (١٠١) فلنوافق على ذلك . . . لكن هذا الجزء الثمين من الإنسان لا يمكن أن يكون رغبة في الانفصال فحسب ، إنه يعبر عن نفسه بطريق المطالبة والتنقيب بدرجة لا تقل عن تعبيره بطريق الغزو .

هذا الجزء هو الذي يخفي رغبة وقصداً معيناً لا يستطيع الفنان بدونهما أن ينتزع أى شيء كان من مجال الفراع المختلط . ومن هنا كان الفنان في مجتمع باحث عن المعرفة كمجتمعنا هذا وجهاً مثالياً يثير نفس التأمل الذي كان يثيره في الماضي كل من البطل والحكيم والقديس . . . ومن هنا أيضاً كان عمله الفني - بفضل وجوده فحسب - اعترافاً ودليلاً على وجوده وقيمه . وعلى كل ، فهما كان « شرف الفنان » في أن يثور حيال نفسه ، فإن عمله ينبع من جزئه الذي يعاونه في إحلال الصلاة محل النعمة ، وحيث يتحول التحدى ليصبح ابتهالاً فلا مهرب لنا - فيما أخشى - من التصوف ؟

التقابل بين الفن والصوفية

إن هناك مبالغة في استخدام لفظ « الصوفية » ، فالرجل المتصوف في نظر البعض رجل يعيش في نشوة . وبالنسبة للبعض الآخر يعادل التصوف كلمة « غير المعقول » ، وفي نظر آخرين أيضاً كلمة « صوفية » مرادفة للروح الدينية . . . ولسوف نأخذ هذا التعبير من جانبنا بالمعنى الذي يأخذه به علماء الدين ، وعلى ذلك تصبح المعرفة الصوفية ، وهي معرفة الله ، معرفة خاصة جداً ، معرفة تجريبية ، لا عقلية منطقية ، مبنية

على التجربة . وحيث تقابلها في جميع الأديان — وحتى خارج الأديان — نجدها لا تشكل إلا أرفع تجربة دينية . ورغم أنها بلا شك مستحيلة المنال بمجرد بذل جهود بشرية ، فإنها تتطلب استعدادات خاصة ووسيلة معينة للحياة . وهكذا نرى أن بين الحياة التصوفية والحياة الفنية وبين التجربة التصوفية والتجربة الجمالية أوجه شبه تلفت النظر ، لافى أهدافها طبعاً ، بل فيما يخص صفوف الإعدادات البعيدة أو القريبة ، وفي طرق التفكير العقلية حين تدخل مرحلة العمل ، وكذا في بعض من آثارها ، وتفسر هذه التقابلات بأنها دليل من أوضح الأدلة على التزايب النشأى بين الفن والدين .

ولسوف نتحدث حالا عن الفنان المبدع . . لكن الهواة المتحمسين . . هواة الشعر والموسيقى والتصوير يعرفون هم أيضاً حالات تشبه حالات المتصوفين . ولسنا هنا في حاجة — لإعطاء أمثلة تدل على ذلك — إلى اللجوء إلى النشوة، وهى شىء شائع كما نعلم لدى هؤلاء وهؤلاء . . وإن نحن هبطنا إلى مستوى متواضع بعض الشىء نجد أننا حين نتأمل عملانيا، أو نستمتع إلى ميلودية ما ، ينفرج جهدنا الذى يرمى إلى الفهم وتأخذ الروح فى تأمل نفسها بنفسها فى الجمال الذى يوحى به العمل . . أو فى بساطة تامة نجد بعض الذكريات أو الأقوال أو بيت شعر من دانتى أو من راسين . . تنساب من أعماق غامضة فينا، وتفرض نفسها علينا وتدعونا للخشوع وتنفذ إلى قلوبنا . . وبعد هذا لا نعرف أكثر من ذلك، لكننا نشعر بأننا نفهم قليلا ما كنا لا نكاد أن نعرفه إلا بالتقريب ونشعر كذلك بأننا نستمتع بطعم ثمرة لم نكن قد فعلنا بها أكثر من قرض قشرتها، (١٠٢) .

وظاهرة المشاهدة العادية هذه ، أليست هى المقابل ، وإن صح التعبير، الصدى فى مجال الطبيعة لما تسميه الأعمال الروحية فى مجال النعمة الإلهية ، اغنية السعادة ؟ تلك الأغنية التى يكون فيها النشاط راحة ، وده تحقق، فيها

الأفكار، وتصبح وجودا انعطافيا حاضرا وتحدد فيها حالة التلذذ الروحي بالتأمل .. تلك الأغنية البسيطة التي لا تجد فيها النفس موضوعا آخر غير نظرة خليطة عامة عن الله .. وحيث لا يشعر القلب بشعور آخر إلا بذوق عذب هادىء هو الله .. ذوق يغذى دون جهد كما يغذى اللبن الأطفال، (١٠٤)

إن القول بأن التأمل الجمالى يبعث فينا الخشوع معناه بطريق التعادل أنه ينتقل بنا من الأنا السطحية الهائجة المتفرقة إلى البساطة الهادئة للأنا العميقة . ولا بد هنا من أن يسكت « انبوس » لكي تستطيع « آنيا » أن تتغنى ولقد تحدثنا عن هذا بمناسبة حديثنا عن الشعر، كما بين هيجل صحة هذا في الموسيقى .. والواقع أن «الموسيقى» لا تذهب إلى حد إيقاظ مفاهيم عقلية، ولا إلى حد استدعاء صور تبعث التفريق في العقل فتقضى على الانتباه فيه .. والإنسان إزاءها لا يتركز في هذه الناحية الخاصة أو تلك من كبانه فحسب، بل إنه محدد بفكرة محددة .. والأنا البسيطة بصفقتها مركزاً لوجوده الروحي هي التي يحدث اختطافها ووضعها موضع الحركة . على أن هذا التمييز بين نوعي «الأنا» هو القاعدة الأساسية للسيكولوجية التصوفية . كما أوضح بريمون، إذ يجمع المؤلفون جميعا على أن الاتصال بالله لا يتم إلا عند « السن المدية للنفس »، وفي « الأعماق الخفية للروح، وفي « مركز القلب » .. ويضيف أحدهم قوله : « أعماق أوقية .. أكثر علوا وسموا من القدرات الثلاث العليا ، لأن هذه القدرات تنبع أصلا من هذه الأعماق أو تلك القمة » . ولن يفعل القديس فرانسوا دى سال أوجان دى لاكروا أو تيريز دافيللا ، ومائة غيرهم تزيد أو تقل معرفتنا بهم . لن يفعلوا إلا أن يكرروا — بصرف النظر عن فروق لقيمة لها — ماسبق أن وصفه أفلاطون وقربه من التجربة الفنية حيث قال : « إن التأمل الجامع الموحد يحدث عندما تكون الروح قد أغلقت أبوابها في وجه كل ما يجذبها خارجا عنها، وعندما تكون قد أرسست السكون في حواسها وفي قدراتها .. بل

وفي عقلها المفكر العارف عن طريق التمييز بين ذاته وموضوعه.. وبالاختصار عندما تفكر مستخدمة قوة النفس المنقاة.. وإلى كل من انسحب ليعيش وحيدا في محرابه، « يقدم الله نفسه .. ويضئ لهجأة ضوءا داخليا غير متوقع .. غير منتظر .. ويفزو ويمتلك الروح كما يستولى الإلهام على روح الملهمين والأنبياء »، (١٠٤)

غير أننا لم نصل بعد إلى هذه المرحلة . فكما أن المتصوف أو القديس أو — بوجه عام — الرجل الذي كرس حياته لله ، يصفى إلى وجهه نجد الفنان أيضا يضع نفسه تحت تصرف رسالته ، ويستجيب إلى نداء ما . تدفعه ضرورة داخلية يأخذها في اعتباره ويستوعبها ، وعليه أن يقبلها ، ولكنها تبتعد عنه وعما يريد أن يفعل . يقول راموز ، وقد كان إذ ذاك في سن الثامنة عشرة : « إنى أرى كل يوم أكثر من ذى قبل ماذا يكون استعدادى وماذا تكون رسالتى .. إن كان استعدادا عاديا ندخل إليه بقلب مرح كما يفعل المحامى أو الطبيب .. لكن لا بد لى أن أصبح أديبا (١٠٥) .

إذا يكون الخط مرسوما مقدما، وقد لا تكون لدى الإنسان الشجاعة للسير فيه .. لكنه الخط الوحيد ، ونحن متأكدون من هذا مقدما .. الوحيد الذى « نجد فيه ضمانا وسعادة للهمة المكتملة وللإستعداد المشبع »، (١٠٦) وبالاختصار فإن الفنان لا يختار.. بل هو الذى يقع عليه الاختيار .. وإن هو رفض مهمته هذه ، كان هذا منه خيانة وبداية حياة فاشلة . ولقد سأل أحدهم المصور بونار قائلا : « ألا تزال تصور ؟ » ، فأجاب الفنان قائلا : « نعم . وماذا تريد أن أفعل غير ذلك ؟ » . نعم ماذا كان يستطيع أن يفعل حقا غير ذلك ؟ لقد ولد ليصور ، كما ولد ميكلا انجلو ليكون مثالا ، ودانتى ليكون كاتباً .. على أن هؤلاء جميعا يعتبرون فى مجالات أخرى — حتى التى انتصروا فيها — يعتبرون مخلوقات فاشلة فى الحياة .

وريلكم لا يفكر في نفسه فقط حين يصف عملية الانتقاء التي تضع شاعر المستقبل في خدمة الشعر منذ شبابه الأول ، فيقول : « ولم يكن والداه يريان له أى مستقبل ، وكان أساتذته يظنون أنهم يعرفون أسباب انعدام التحمس للدرس عنده .. وكان الموت يبحث فعلا عن المكان الذى يستطيع أن يأنيه منه بأسهل ما يمكن ، لكن العنصر الإلهى لم يكن يبالى بذلك إطلاقا فراح يصب أمواجه في هذه القنينة الهشة .. ومنذ ساعة فحسب كانت أمه تلقى بنظرة عابرة قادرة على احتضان هذا المخلوق .. لكنها لم تعد تعرف كيف تحصل منه على الاتزان ، .. فماذا حدث .. وكيف توصف « القوة لم تتأهب فيه بعد التي ظهرت في هذا الفتى الذى ربما كان يرفع نظراته ولا يراك ، تلك القوة التي تفاجىء القلوب الشابة في وقت لم تتأهب فيه بعد للحياة ، لتمتلاها بقوة وبعلاقات سرعان ما تتعدى كل الانتصارات التي يمكن أن تحققها حياة بأكلها ؟ . وكيف يستطيع مخلوق جديد لا يكاد يعرف يديه شخصيا .. مخلوق حديث العهد حتى بأبسط الأمور وأيسرها كيف يستطيع التكيف بوجود خارق لهذه الدرجة ؟ .. آه .. لم لا يستطيع شاب في مثل هذا الموقف أن يذهب فيحترف الرعى ! .. آه .. كم كان من الضروري إقناعه أو معارضته ! أنحسبون حقا أنكم تشعلون ذهنه وهو ذلك الإنسان الذى هو قوة لا تنضب امتصاصا بلا حدود . وقبل الأوان ! (١٠٧) .

نعم ... كان يجدر به أن يجعل من نفسه راعيا .. . لحياة الفن في الحقيقة لا تشبه المهن الأخرى ، بل ما كانت هذه الحياة مهنة حقا ، وها هو ذا راموز يعترف قائلا : « لا أظن أنى جدير بهذه الوظائف العليا .. . وأنا لا أرى فيها وسيلة لكسب العيش .. بل أكاد أرى فيها تعباً .. وكما هي الحال في التعب (١٠٨) نتساءل : ألا تفترض اللغة الفنية العدول عن « الدنيا ، وعن لذاتها ومطامعها ومظاهرها .. ؟ فلكي يكرس الفنان حياته كلها لما يجب ، ألا يقبل الفقر والعزلة وعدم فهم الناس له .. واحتقارهم إياه

ما هذا إلا انعدام عقل في نظر الحكماء .. والحقيقة — هكذا يقول برنارد — إنه لا بد من الجنون بما هو خارق للطبيعة في فن التصوير وفي القدسية على السواء» (١٠٩) ..

كان راموزا وهو شاب يعطى دروسا لكي يعيش، ولكنه ترك المهنة حين فهم أن العمل من أجل العيش يفسد العمل باعتباره علة وجوده . وقد قال فيما بعد .. حين فهم مغزى هذه الحقيقة «إن الفنان والقديس .. رجل واحد .. تضحية للذات .. عدول عن العصر .. ورضوخ للإهانات والحرمان ، وشعور بنوبات النعمة، مهمما للتلاميذ .. والقاعدة .. والتوازي بين نوعين من التصرف وحقيقة جمالية إن أمكن القول .. للأناجيل» (١١٠) .

أليس مما يلفت النظر أن المبادئ الإنجيلية تترك نفسها لتنتقل بسهولة إلى سماء الفن . وغالبا ما نجد فيها تطبيقا لها ؟ ومن العسير خدمة سيدين في آن واحد .. اترك كل شيء واتبعني .. والذي يجب أباه وأمه أكثر من حبه إياي غير جدير بي ..

ولحياة التصوف لحظات نشوة علوية ، وحياة الفن تقرب من قتها عند وجود الوحي ، ولم يحدث أن أنكر إنسان ما هذا الشبه بين الظاهرتين، ولم تكن الشعوب القديمة لتقيم خطا فاصلا واضحا بين الأنبياء والشعراء ، وقد رأينا كيف يوضح أفلاطون أنه ما من إنسان بقادر على قرض شعر جميل إن لم يكن الإله قد أمسك به . وما رمز «موجية الشعر» إلا ترجمة لهذه التجربة الامتلاكية الخاصة بالشعراء وبالمثقفين على حد سواء . ولقد تحدثنا عن حالة ريلكه ضمن حالات أخرى .. هذا الذي لم يكتب يوما سطرًا واحدا دون وحي أو ضرورة داخلية، .. ولكنه لم يكن إذ ذاك بقادر على أن يمنح نفسه ، وما كان يكاد يعرف كيف كانت الكلمات التي يكتبها في الوريقات التي يحتفظ بها في جيبه دائما .. كيف كانت تتولد .. ولقد أصبح الوحي عنده

خارجا عنه، لدرجة أنه كان يرفض أن تطبع أشعاره باسمه لأنها كانت كلها مملأة عليه .. كان هناك شخص يجلس أمامه يملأها عليه، (١١١) .. هذا .. ولم يكن ما يفعل رامبو مثلا بشيء اسمه «صب الباطن في قالب حسي ظاهر، بل كان قوة مجهولة تظهر في روح الشاعر و«تخسف» شخصيته لحظة وتخفف من عبئه، وقبلها تكون الأغنية هي العمل الفني .. أي الفكرة التي يتغنى بها المغني ويفهمها .. لأن «أنا» شخص آخر، وإن استيقظت قطعة النحاس لتصبح آلة موسيقية، فما هذا بخطأ منه .. هذا شيء واضح عندي .. وهأنذا أحضر تفتح فكرتي .. وأنظر إليها، وأصغى إليها، وألقي بدقة من دقات قوس الكمان : وإذا بالسيمفونية تتحرك في الأعماق، أو تأتي قافزة على خشبة المسرح (١١٢).

وما الاسم الذي يمكن أن نطلقه على هذه القوة التي يعترف بوجودها حتى أكثر الفنانين اعتمادا على الإرادة الحرة ؟ القدر ؟ لقد قال بسوسان : إنه «ما من أحد يقطف أوراق الشجر الذهبية إلا وكان القدر هو الذي يقوده أو المصادفة، هنا يقول فاليري : «لن يكون الشاعر شيئا كبيرا إن لم يكن العوبة في يدي ما يفعل (١١٣) ».

أما جوته فيصف تلك القوة بأنها «شيطانية خارقة»، وربما كان هذا أثرا تركه شيطان سقراط في ذاكرته، على أن هذه لتذكرة تكفي لكيلا نخلط بين تلك الشيطانية الخارقة والشيطانية بالمعنى العادي المعروف : فثلا عندنا «مفيسوفيليس» وهو شيطاني بمعنى سلبي للغاية لا نستطيع اعتباره شيطانيا خارقا، على أن الشيطانية الخارقة في الحقيقة «تتكشف» في نشاط «إيجابي» تماما، كما يحدث عند غاز عظيم كنبليون أو عند الموسيقى أو المصور أو الشاعر، ويضيف جوته أيضا قوله في هذا : «إنها الشيء الذي لا نستطيع فهمه بالعقل وبالمنطق، ولا يوجد في طبيعتي رغم أنني خاضع له، وبالاختصار فإن الشيطاني الخارق لن يكون شيئا آخر غير القوة الخارجة عن الإنسان

ذى العبقريّة ، والتي تؤثر فيه قوة شديدة تشد كلما كبر وكبرت معه عبقريته ، والتي يتعين ألا يتلقى هو تأثيرها إلا حين يعمل هو على توجيهها نحو أهدافه .. ولا يجب أصلاً أن نحاول في هذا توضيح فكرة ظلت ولا شك خليطة غامضة في عقل جوته نفسه ، لكننا نستطيع على الأقل أن نستخلص تلك الفكرة القائلة بأن عمل الفنان — شأنه شأن كل مبدع في أى مجال — يستند إلى قوة عليا تكاد تكون فوق طبيعية ، ولا تمنع الإنسان من السير بذاته ، ولا يستطيع بدونها أن يفعل شيئاً هاماً ، (١١٤) .

وهناك من المفكرين من يقول بأنه — أى الشيطاني الخارق — هو بعينه اللا شعور .. تلك القوة التي جعلوا منها مشتقاً حديثاً لموهبة الفن . لكن مثل هذا الوصف لا يكفي لتبرير تجربة الفنانين لأنهم ، أى هؤلاء الفنانين ، يستمرون في بحث حقيقة لا يفهمونها دون أن يكونوا على جهل بشيء من آثار هذه الحقيقة التي يسمونها اللا شعور .. تلك الحقيقة التي يطلقون عليها أيضاً اسم « الله » . لقد كان جورج ايليوت يؤكد أن في أحسن أعماله الأدبية يوجد « شيء آخر غيرهما ، يستولى عليها ويشعره هو ، أن شخصيته هو لم تكن إلا مجرد أداة يعمل العقل من خلالها » (١١٥) .

وكان سيبيوس يقول عن سيمفونيته الخامسة « عندما تعتمد الصورة النهائية لعملنا الفني على قوى أقوى منا ، نستطيع فيما بعد أن نبرر هذا الجزء أو ذاك من العمل ، لكننا إزاء العمل في مجموعه نكون مجرد أداة .. وهذا المنطق المدهش ، نسميه الله : تلك هي القوة الآمرة ، وعندما يتحدث راموز بلوره عن هذه القوة لا يستطيع إلا أن يلجأ إلى لغة الدين فيقول : « ما أنا بقادر على فعل الكثير ، فلاحق إذ أأعلى الأقل ذلك الشيء القليل الذي أستطيع تحقيقه .. هذه هي صلاة كل يوم أودعها .. فأدعو المجهول وإرادتي هزيلة ، لأن هناك شيئاً لا أستطيع التوصل إليه ، ويستطيع هو عمل كل شيء .. هو هذا الذي أرجو .. ولا أوجه رجائي إلا لذلك الإله

الداخلي» (١١٦) . وما تيس لا يقل في انعدام الإيمان عن راموز ، ولكنه مثله طالما صرح قائلا : «إن الله هو الذي يمسك يدي ، وما أنا بمسئول عما أفعل» (١١٧) . وقد أجاب ماتيس عن سؤال ألقاه عليه مصور آخر فقال : «نعم إنى أؤدى صلاتى ، وأنت كذلك .. وتعلم هذا تماما .. عندما تسوء الأمور نلتقى بأنفسنا فى الصلاة لنجد جو الاتصال بالله .. وأنت تفعل هذا أيضا ، (*) وقد يكون من سوء التصرف المبالغة فى مثل هذه الأقوال ، لأنها تميل إلى الاعتقاد بأن الفنان المبدع يشعر بأنه معلق فوق شجرة تطل على مياه ، وأن خصبه الفنى ينبع من خصب أولى أصيل . وليس الوحى الفنى على وتيرة واحدة ، وهولا يزيد هنا فى شيء . عن السلب أو الذهول التصوفى ، لأن كل حياة روحية تتضمن مراحل من الجفاف والهزال قد تكون طويلة جدا ، حيث يترك الفنان الروح التى منحها الله إياه ، وحين ينتزع الله منه شعوره بوجوده ، تراه وقد غاص فى الظلمات والإغراء والشكوك ، ويهبط وجوده لدرجة البؤس بل والعدم . والفنان يعرف مثل هذه المحن ، فما إن ينسحب الإله حتى يصاب بحالة من الجنون ، وبعد أن كان يرفرف فى رشاقة رائعة ، تجده لجأة وقد أصابه الهدوء الثقيل ، وما من نسمة تحرك قلاع سفينته .. فهناك لحظات يغيب فيها الفكر ويسقط القلم من بين الأصابع كما يحدث لراموز ، الأمر الذى يجعله يتن .. وعبثا أحاول بذل جهد لأعود إلى العمل أو لأصادف فكرة ، أو لأعرض ما أظن أنه قائم فى عقلى بياضا على سواد .. هذه الحال لا يفلت منها أعظم

* انظر الفيجارو الألبى عدد أول سبتمبر ١٩٥٦ ولعل النص الآتى يوضح الى أى مدى يذهب ماتيس وعند أى حد يقف . تسألنى عما اذا كنت أو من بالله ؟ نعم .. عندما أعمل .. وعندما أكون خاشعا متواضعا أشعر أن أحدا يساعدنى ويعاوننى على اخراج أشياء تتخطانى ، ومع هذا فأننا لا أشعر نحوه بأى اعتراف بالجميل لأنى كما لو كنت أمام حاو لا يستطيع اختراق أبراجه ، وهنا أجد نفسى منكشأا إزاء الفائدة التى أخرج بها من التجربة ، وكان المفروض أن يكون هذا جائزة لى هن جهودى . انى ناكر للجميل وما من وخز ضمير يؤنبنى (جاز) .

الفنانين والأدباء ، فقد رأينا أن ديلاكروا يبحث ويتحسس الوحي الماروب ، ومثله كان يتهوفن ، وكان فاجنر ، يشهد على هذا ما كتبه الأول من خطابات والثاني من مذكرات ، يقول فيها كل منهما إنه قد ألقي به في حالة من تخطيط تقرب من الجنون . . أليس هذا ضمن الأسباب التي تعمل على الجمع بين النعمة الشعرية ونعمة التصوف ؟ فرغم أنهما ينتميان إلى مجالين مختلفين ، الأول مجال طبيعي ، والثاني خارق للطبيعة ، فإنهما على حد سواء يتميزان بصفات التقطع وعدم الثبات أو الدوام .

هذا ويعزى الوحي أحيانا إلى موحية ما ، ليست هي الموحية الرمزية للشعر والفن ، بل إنها موحية حية ذات جسد . وقد رأينا أن عددا من أرفع الأعمال الفنية والأدبية قد تم إدراكه في حب الرجل للمرأة ، لدرجة أن مولد هذه الأعمال يظهر طبيعيا بقدر طبيعية مولد طفل . لكن ليس لحب الشعراء هدف فني لحسب كما سبق أن رأينا ، بل إن له جانبا دينيا كذلك - ويخاط التحليل في هذا الحب لوجود خلطاً عجيباً ترابط فيه ثلاثة عناصر رئيسية بمقادير غير متعادلة ، ومتغايرة ، وهي الفن وحب الجنس والدين ، (١١٨) . ومن المستحيل إبعاد هذا العنصر الثالث ، وعندما يبحث الفنانون أنفسهم عن معنى لتجاربه ، يجدونه في الدين . . لكن لافي الدين المسيحي بالضرورة . . والاندماج بين الحب والفن والدين يتأتى كحقيقة تلقائية وطبيعية ، مستقلة عن أية عقيدة دينية محددة . . ونلاحظ هذا عند الإغريق ، ولم يكونوا مسيحيين ، ونجده عند فاجنر وقد اتخذ شكلا يقرب من البوذية أكثر من قربيه من المسيحية . وحتى أوجست كونت وقد كان ملحدًا يؤكد هذه القاعدة . . بحيث يمكن القول بأن التقابل بين اللغات وطريقتي التعبير يرجع أصلا إلى التقابل بين المواقف (في الدين والفن) ، دون أن تنكر أن تقليد ذاتي وبترارك أمر له أثره عند كونت ، (١١٩) .

لقد حاول بترارك إغراء لورا ، لكن لم تكن لورا في يوم من الأيام عشيقة له . خيبة أمل أثارت لديه نكبة معنوية وجعلت منه شاعرا شهيدا . ومع ذلك فهو مرغم على الاعتراف ، فهو يقول : « لقد دفعتني إلى حب الله » . إن جمال لورا ، الذي لم يستطع تملكه قد فتح له الطريق نحو الجمال اللانهاى ، وهو الحد الأقصى الحقيقي للحب . « ففها تأتيك الفكرة الحبيبة التي تؤدى بك - إن اتبعتها - للخير الأعلى ، وأنت تحتقر ما يرغب فيه الناس » (١٢٠) .

أما جوته ، فقد كان أقل سعادة من بترارك .. فقد أصابه الهرم ليصل في نهاية الأمر - بفضل وجه طفلة - إلى الروحانية الدينية . فلقد كانت أولريكة حبيبته المثلى : وقد كشف له حبه الأخير عن التقوى : « في أنقى مناحى قلبى ينبض جهد يرمى إلى أن أترك نفسى تعترف بالجميل ، لتذهب إلى ما هو أعلى وما هو أنقى .. إلى المجهول .. وتكشف لنفسها عن لغز لا يمكن تسميته إلى الأبد . هذا إذا ما يسمى التقوى .. وهذا السمو السعيد من نصيبى حين أقف أمامها » (١٢١) .

وكان بودلير أكثر وأحسن استعدادا لكشف من هذا النوع .. فقد كان واعيا بما يكفى بحيث لم يجهل الطبيعة ومدى العاطفة التي كانت تربطه بحياته ، « إني أحبك .. يا ماري .. لكن الحب الذى أشعر به حيالك هو الحب المؤمن بالله » . ولذا فقد ثار حين حكمت المحكمة بإلغاء قصيدتين كان قد كتبهما ليقدمهما إلى عشيقته مدام دى ساباتيه ، لأن القضاة لم يفهموا منهما شيئا ، إذ « إن غير المهذبين عشاق » . أما الشعراء فهم عباد » (١٢٢) ، ثم يشرح بودلير هذا الموقف في مجال آخر فيقول : « إن البعض يعزو إلى هؤلاء العباد عاطفة وحبا .. وقاذورات نسائية من هذا النوع » (١٢٣) في حين « أن الصوفية هي قطب هذا المغناطيس الذى لم يعرف إلا قطبه الآخر كاتول وعصابته من الشعراء الأغبياء السطحيين للغاية » (١٢٤) .

هل هذا ارتقاء لدرجة السمو؟ وهل يمكن للحب أن يرتفع بنا لدرجة السمو الديني إن لم يكن صوفيا أصلا في جوهره؟ أليست الغريزة الجنسية ذاتها في نهاية الأمر غريزة تنظم طبقا لحقيقة عليها مادام بعض أهل الفن قد وصلوا إلى تلك الحقيقة بفضلها؟ لا شك أنهم كانوا في حاجة إلى مثل أعلى يروونه مجسدا في شخص مرئي، وما كان للروحانية أن تصل إليهم دون الجسدية، لكن تجربتهم لم تكن تنهى في الرغبة الجنسية، وما هوذا أفلاطون في «المأدبة»، يرى أن رغبة تملك جسد جميل ترفع العشق إلى مستوى الجمال الروحي، بشرط أن يتمكن ذلك العشيق من أن يتحكم في ذاته ويقتصر عليها. وتطابقا مع هذا الوضع يحتاج الشعراء في حبيبهم إلى نوع من الخشوع حتى تكون قريحتهم خصبة. ومن هنا تكون وظيفة الجمال المحسوس إيقاظ الحب لا إرضاءه، وتكون الموحية هي تلك المرأة التي يتكشف الجمال بفضلها، ذلك الجمال الذي يعلو بها سموا والذي يكون الفنان في خدمته، يخدمه بفنه، ولا بد أن يكون هذا الجمال — حسب قول كلوديل الذي استعاره من دانتى — «وعدا لا يمكن الوفاء به»، حتى تبعث الرغبة الجنسية إلى الروح قوة محركة ترفعها إلى الأعلى، «وهنا تتصل موضوعات الفن بعضها ببعض، ويصبح تقابلها أصل مادة قصص موحيات الفن». . . إذ أنه ما إن توقف عن الخلط بين هذه المشاعر الشاعرية الكبرى والحب الجسدي، حتى نشعر بعاطفة مختلفة لا يستطيع كائن عادي أيا كان أن يكون موضوعها الأخير، ولا حتى أن يرغب في أن يكون هذا اللبيب الحامس وقفا عليه، ذلك أن موحية الشعر والفن لم تكن بالنسبة للفنان إلا وسيلة العمل الفني، لكن فنه لا ينفى كذلك بالوعد، وهنا يرى الموضوع الحقيقي لما يبحث عنه في وضوح، نقصد الفن من خلال الموحية، والله من خلال الفن، (١٢٥) .

ورغم أن تلك التجربة التي وصفناها في التو تخلص بعض المختارين فحسب، إلا أنها ليست تجربة من المرتبة الأولى، فهي تؤكد التجربة الشائعة لدى

الفنانين والمتحمسين للفن وتكبرها . والظاهرة الجمالية كما لاحظنا فيما يتعلق بالارو ، ترجمة لضرورة المطلق ، فالوحى من جهة والتأمل من جهة أخرى يتعلقان بأهداب الاهداف ، ويتخذان أصلاهما في تلك الروح العميقة وهي بطبيعة الحال روح دينية ، وهي حاجة لله وقدره له . ولا يمكن إنكار هذا : إن للفن هدفاً غير ذاته ، وما بحثه المستمر عن التعبير إلا صورة أصابها ضعف ، أو كالرمز ، صورة بحثه الدائم عن الكائن الأعلى ، .. إن هذا القلق موجود في صميم كل فن ، اللهم إلا إذا لم يوح الفن بنفسه بهذا القلق ، وكما لو كان هذا يحدث خلسة عنه . والتنديد بالقلق باسم العقل فحسب محاولة فاشلة ، إذ أن الفن في أعلى وفي أكل تعبيره ، بحث أيضاً ، والعمل الفني وقد عمل العبقري على تثبيته ، يحتفظ بحركة دفعته وشكلها حتى في حالة جموده الكامل . نعم ، إن هذا النوع من السعادة المقدسة الذى يملؤنا به الحاضر الجميل كسعادة الانتظار ، ويتولد الأمل أجل مما كان من إشباع رغبتنا ، (١٢٦) .

وربما كان هذا سبباً في أن الكاندرائية القوطية ، والمعبد الإغريقى أو المصرى أو البوذى عمل لا نستطيع تخطيه ، لأن كمال مثل هذه الأعمال غير مغلق على نفسه ، بل إن هناك نداء يحوطه .

وإذا كان الإنسان يستطيع أن يتعدى حدود الإنسان ، فليس من العجيب أن يتعدى الفن الفن ، منال هذا أن بيرنانوس — وهو قصصى كاثولىكى — كان أكثر استعداداً لفهم هذا من بروسى بصفته قصصياً لا يدين بالمسيحية إن كان هذا صحيحاً ، ومع هذا فقد فهم بروسى أن الفن لن يوجد دون ما وراء الذات ، وأن النشاط الفنى يفترض نوعاً من الحقائق المطلقة التى تسانده ، ها هو ذا يتساءل عند موت بيرجوت فيقول : « هل

مات إلى الأبد؟ ، من يستطيع أن يقول هذا؟ إن ما يمكننا قوله هو أن كل شيء يحدث في حياتنا كما لو كنا ندخل إليها، ونحن نحمل معنا عقودا كتبت في حياة سابقة ، وما من علة — في حياتنا على الأرض — لنعتقد أننا مريضون على فعل الخير، وعلى أن نصف بالركة ، أو حتى على أن نكون مهذبين، ولا أن يعتقد فنان ملحد أنه مضطر أن يعيد النظر عشرين مرة في مقطوعة يكتبها. لن يهم الإعجاب بهاجسده الذي سوف تأكله الديدان . إن كل هذه الواجبات — التي لن يكون عليها ثواب أو عقاب في الحياة الحاضرة تنتمي على ما يلوح إلى عالم يختلف تماما عن عالمنا هذا القائم على الطيبة والتضحية .. العالم الذي نخرج منه لنولد في هذه الأرض ربما قبل أن نعود إليها لنعيش تحت سيطرة هذه القوانين المجهولة التي أطعناها، لأننا كنا نحمل تعاليمها في جنباتنا دون أن نعرف من الذي كان قد وضعها — تلك القوانين التي يقرئنا منها كل عمل عتيق يفعله العقل ، والتي لن تكون غير مرئية إلا بالنسبة للبله .. (١٢٧)

إننا لا نجد إلا القليل من صفحات بروس تيبين اهتمامه بالدين ولو بالتقريب ، اللهم إلا إذا كان ذلك الاهتمام إملأ عليه من تجربته كاديب .

التناقضات بين الفن والدين

قديقال إننا مصابون بحمى التلبذ على بروس تيبين .. لمكن بروس تيبين يعلن وجود عالم علوى تكون أفلاطونية وحدها هى موضع البحث هنا. والقول بأن مشروعه مثل يحتذى أمر أقل ما يمكن أن يقال عنه إنه لا يؤدى إلى الدين . ولقد تسلم مورياك عما إذا لم يكن مثل عمل بروس تيبين هذا متضمنا عدولا عن الله (١٢٨) .

ومع هذا فنحن لم نفس أوالفنانين — حين يمجدون مبادئ الانجيل —

يحولون معناها لصالحهم وهكذا نجد أن بين الفن والذين شقة. صحيح أن هناك تقاربا بينهما ، لكن هناك تعارضا واضحا يفصلهما أيضا . ويتمين علينا الآن أن نلقى نظرة على هذه الناحية المضادة من ذلك ،الازدواج.. . وإذا لم نستطع إيجاد حل لمثل هذه المشكلة فإننا نكون على الأقل قد أخذنا حقيقتنا في الاعتبارنا.

تمة فرق تنبع منه فروق أخرى : ففي حين يتجه الشاعر نحو الكلام، يميل المتصوف إلى السكون . وقد رأينا أن التضارب القائم لدى الفنان يرجع إلى أن الرؤية تنظم لصالح العمل الفني ، والانطباع العاطفي لصالح التعبير . . على أن العملية الإبداعية تبدأ بذلك الوميض الأولى الناتج من عاطفة ما تكون في أول الأمر سحابا ، لكنها مليئة بالعيون وبنظرات ملحة ، محملة بإرادة ، تتوق لتسبح على هذا الوميض وجودا ، (١٢٩) . ولكنها أيضا تحاول التخلص في معمعة القصيدة ، — إماما من ثقل تشكيلي وإماما من موسيقى لتصبح طليقة . . . وبتعبير آخر لا بد وأن يكون الشاعر نفسه صوتا ، إما بطريق الموهبة الطبيعية وإما بفضل المهمة الملقاة على عاتقه . لكن ليس معنى أنه يتكلم أن يتنكر للشعر ، بل الأمر على عكس ذلك : إن المهمة الطبيعية للمتصوف في الكنيسة لا تنحصر في أنه يعلم الناس . . والضوء الذي يأتي من تأمله لا يلقي عليه غضب واجبا يدفعه إلى أن يكرس نفسه لهذه المهمة ، بل كذلك — وهنا الأساس — لا يعطيه من ذاته وسيلة لإداء هذه المهمة (١٣٠) .

لا تقل إن هناك أعمالاً فنية قام بها متصوفون . . فهؤلاء في الواقع لم يقوموا بهذه الأعمال أحياناً إلا سداً لحاجة الكلام أو الكتابة . ومع هذا فلا يمكن أصلاً مقارنة حالتهم هنا بحالة الشعراء ، فالشاعر هدفه الارتفاع بنا إلى الحالة الشعرية ، وهذا ما يرمى إليه التحويل السحري للألفاظ ، ذلك التحويل الذي ينقل به شيئاً من تجربته هو لنذهب به من نفسه العميقة إلى نقوسنا . أما المتصوف ، فهو غير مكلف بالارتفاع بنا إلى الحالة الصوفية ،

تلك الحالة التي تفترض تدخلا طليقا مطلقا ، لا أصل له من قبل الله .
 والتجربة الصوفية - على عكس التجربة الشعرية - غير قابلة إذن للانتقال.
 من المؤكد قطعا أنه ما من شيء يمنع أن يكون متأمل عظيم عالما دينيا
 عظيما في نفس الوقت ، كما أنه ما من شيء يمنع أدبيا أو فنانا مثل شيلي
 أو بروسست أن يكون عالما في علم الجمال من المرتبة الأولى ، وهنا يمكن أن
 تنقل أعماله إلينا ثمرة تفكيره في الحياة الصوفية . ومن هؤلاء من كان له
 حظ القدرة على قرض الشعر أيضا ، وهم والحالة هذه ينقلون إلينا تجربتهم
 الخاصة بعد أن تكون قد اصطبغت بصبغة الجمال التصوفي إلا أنهم فيما يخص
 التأمل ذاته ، لن يكون لديهم شيء يعلوننا إياه أو ينقلونه إلينا ، لأنهم
 يحتفظون لأنفسهم بالسر العظيم .. يحدث هذا من قبيل الخشوع والتواضع ؟
 نعم ولا شك .. لكن عدم قدرتهم على هذا يرجع إلى أنهم لا يملكون أية
 وسيلة تعاونهم في قفل هذا السر إلينا .

من أين تأتي الاستحالة ؟ .. من أن الفن هو مجال «العلامات» الرمزية،
 في حين أن التصوف مجال التحليق بلا أجنحة . فالفنان إن لم يعدل عن
 مهمته يشكل المادة التشكيلية أو اللفظية أو الرنانة . والأمر الذي لا يقبل
 الإدراك ويقبله هو ، لا يأخذه في اعتباره إلا على هيئة رموز ، ولو أنه
 لا يستطيع التخلص من الجسدية الخلقية التي تعاونه في الارتفاع من مجال
 المرنى إلى اللامرئ .. ومن المحسوس إلى غير المحسوس ولذا كانت فكرة
 نقاء الفن فكرة ذات حدود ، وكان النقاء المطلق هداما للجمال ، باعتبار أن
 الجمال لا يوجد إلا لكي يتجسد في جسد ما . وحياة التصوف لا تخضع
 لهذه الحقيقة ، وهي لا تبدأ بفعل إلا إذا أراد الله ذلك ، أو عندما تدق
 ساعة وداع الرموز الملبوسة التي لن يكون مسموحا بعدها أن نبحت عن
 المعرفة أو أن نتذوق الأشياء . سواء أ كانت هذه الساعة طويلة الأمد أم
 قصيرتها ، فإن ليل الحواس ثم الروح .. يطول .. ويختفي الإحساس
 بالوجود ليصبح هذا غيابا ، (١٣١) . هكذا نرى أن الفرق الذي يفصل علم

الجمال عن التصوف فرق جذري ، فالأول ينتمي إلى دنيا العلامات والرموز ، وبالتالي إلى « دنيا النداءات » . أما الثاني فهو لا يعنى شيئاً ولا ينادى شيئاً أياً كان ، مادام هو « عالم الاستيلاء على النفس » ، (١٣٢) الذي يتقدم فيه الله في غموض . والمتأمل وقد أسبغت عليه هذه الحقيقة التي تحوى ما يمكن التعبير عنه ، أو التي لا تقبل التعبير عنها هي بنفسها . . . ذلك المتأمل الذي تكون قواه قد توقفت عن العمل ، لا يستطيع شيئاً غير أن يسكت . . . ويصبح السكوت دليلاً على وصوله إلى النهاية التي قيد إليها تملؤه السعادة .

إن الفنان مرسل لكي يفعل ، لا ليكون كائنًا محسب . ولهذا فهو معرض لأن يهمل قدسيته . وطبيعى أن المنصوفين ليسوا جميعاً بقديسين ، لكنهم جميعاً يحاولون جهدهم أن يكونوا هكذا باعتبار أن الله الذي يهدفون إليه وإلى اعتناقه لا يقبل منهم بصفتهم متعبدين أى أثر من آثار الدنس الإرادى . . . ولعلمهم جميعاً يفهمون هذا . لكن الفنان أيضاً يصبو إلى الكمال ، لكن هذا الكمال يتعلق بعمله الفنى ، لا به هو . وهو إذ يحقق هدفه في أعماله ، ينفق فيها كل طاقاته بحيث لا يتبقى لديه شيء منها ينفقه في تحقيق كماله الشخصى . « إن ما يلزم للفنان من ثبات عزيمته واكتمال عقل وروح وشجاعة وجرأة هدفها جميعاً أن يدافع عن نقاء وهيبته ضد الآخرين وضد نفسه ، ولينقذ هذا النقاء من أى شيء قد يصيبه . . . كل ما يلزمه ويحاول فعله في هذا يضيع من أجل حياته هو كإنسان : وعموماً لن يتبقى له شيء يذكر من هذا كله ما يكفي ليجعل من نفسه « رجل خير » ، أمينا حكيماً عاقلاً غير نفعى . وعلى العكس من ذلك ، هناك أناس على جانب كبير من الخلق الحسن ، لكنهم لن يكونوا في مجال الفن — وهم يعلمون هذا — إلا غشاشين . فبعضهم يضع في أعماله أحسن ما عنده ، والبعض الآخر يضع أحسن ما عنده في حياته هو ، (١٣٢) .

هذا، ولا ينبغي أن ننكر أيضا أن مهنة الفن تؤدي بصاحبها إلى أخطار أحيانا ما تكون شديدة، ومن هذه الأخطار مثلا أن يترك الفنان نفسه تمتصه حياة ملبوسة محسوسة، وعاطفية لدرجة يخفى معها في تلك الحياة. أما المتصوف فهو رجل يتبع طريق تنقية النفس قبل أن يصل إلى الله. . وهو يتبع هذا الطريق بحيث تصبح الأرض ومناظرها والعواطف والدوافع والروابط الإنسانية، وحتى جمال النفوس نفسه أشياء غريبة عنه. . ولو أنه عندما يصل إلى الطريق المضيء، يعود لبتدوقها من جديد، لكنه يفعل هذا بقلب من عزل انزالا كاملا. والفنان لا يستطيع تقليد هذا الانزال وكل ما يمكنه أن يفعل هو أن يصبح على أكثر تقدير غير مبال بكل شيء. وتصوفه في هذا مقبول عدا أنه لا يمارسه في فنه الذي يحتاج أصلا إلى الجمال الملبوس وإلى « فوران عاطفي، وكلاهما غذاء فنه. ذلك أن عمل الخواص وضوء الفكرة، سرعان ما يسيطران على الجسد والعقل، ويجتذبان السكّان بأكمله، هذا أمر ضروري له؛ إذ أنه ولكي يكون تأمل الفنان خصباً، لا بد أن يرتبط وفي مثل ذلك الارتباط نمنح من نفوسنا نصيباً هو الذي يمكننا من الحصول على ما نحصل عليه ونقيض ما نحصل عليه مقدماً. وفي هذا نلاحظ أن بين إمكانية تملك الشيء واستحالة التملك أيضاً. . . نقصد بين الخير والشر مادام أحد هذين الطرفين خيراً والآخر شراً. . . فلاحظ أنه توجد بينهما حدود وفواصل متحركة (١٣٤) .

والحكمة التي يتبعها القديسون هي فقدان الروح لاستعادتها بعد ذلك بمعنى أنهم يقبلون أن يضحوا بأكثر قدر من التضحية من أجل الله، لأن تضحياتهم هذه تمكنهم من تنقية أنفسهم وإضفاء الرزاق والكرم والعزوف حتى يقتربوا بأكثر قدر ممكن من صفات الله. هكذا يتزايد كيانهم بما يقلله ظاهراً أما الفن فهو لا يفعل شيئاً من هذا من أجل الفنان؛ لأن المبدع يفقد روحه فيما يبدع، ولكنه لا يستعيدّها إلا في حالات مستثناة. والمادة

التي سالت منه لاتعاد إليه ، وبذلك فلن يعمل عمله الفني على رفع صفاته .. بل ربما يكون ذلك العمل الفني سبباً في الخط منها، أو على الأقل في جعلها سهلة الكسر أو سهلة العطب ، حيث إنه يقع فريسة لأصوات متضاربة كثيرة جداً لاتمكنه من أن يتصف بالبساطة أو على الأقل بالسذاجة التي يتطلبها الاشتراك الكامل في الخير. وهناك أكثر من ذلك. فالفنان ينصرف لتجارب متزايدة جداً وحتى حيث تكون هذه التجارب متعلقة بالخيال نجده يعتقد عدداً كبيراً من أنواع الحياة والنفوس وبيعت الحياة من دماغه في أشكال كثيرة متعددة متباينة بحيث لا يتعرض تماسكه الداخلي لخطر التفكك ، وحتى لا يدخل القلق إلى محتواه المعنوي هو . فالحد الأقصى من التضحية التي يستطيع ممارستها هو التنازل عن شخصيته ويقول جيد هنا : «إني أقبل في سرور ألا يكون لي وجود محدد إذا أمكن أن تكون الكائنات التي أخلقها وأستخلصها من نفسي وجوداً .. (١٣٥) هذا عدول عن الوجود .. حقاً ، لكنه لن يكون متكاملًا كلياً ، ولا نهائياً ، بل وباعتباره انتحاراً حقيقياً يصبح أقرب إلى اللعنة منه إلى القدسية .

مع هذا فإن من الجائز أن تحدث المعجزة ، فقد كان جان دي لا كروا متصوفاً وشاعراً في نفس الوقت ، كما ترك انجليكو صيتاً عن نفسه بأنه «صوفي سعيد» . لكن النجاح في الجمع بين الصفتين نادر .. وعامة ديولوج أن من الضروري أن يختار الإنسان لنفسه بين أن يصنع أعمالاً فنية أو يصنع نفسه ، بالشكل الذي يصنع القديس من نفسه قد يساء . ولقد أدرك الفنانون الذين فطنوا إلى هذه المشكلة أن صفة الفن تطرد بطبيعتها صفة القدسية والعكس صحيح . هكذا كتب فاجنر يقول : « لو لم تكن هذه

الموهبة العجيبة وتلك القدرة القوية على الإبداع موجودة عندي ، لا يمكنني أن أتبع المعرفة الواضحة ودفعة قلبي . . . ولا أصبحت قديسا . . . لكنه إن كان قد فعل ذلك لما تمكن من تأليف مقطوعة « ترالوجي » . . .

ويكتب ليون بلوى أيضا فيقول « لقد أصبحت أدبيا ، ولم أفعل ما كان الله يريدني هذا أمر أكيد . . . ولقد كان في الإمكان أن أصبح قديسا ، (١٣٦) ، فلو كان الله قد أراد أن يصبح بلوى قديسا ، لما منحه خيالا كخياله هذا ، ولا موهبة كنتلك التي كانت يكتب بها نشراته . . . لكن هل كان الله يطلب اليه أن يضحي بعقريته هذا رأى قد لا يمكن الموافقة عليه . ولعلنا نعلم أن آخرين قد عملوا دائما على إبعاد هذا الاحتمال . . . فها هو ذا جاك ريفير يقول : يا إلهي . . . أبعد عني إغراء القدسية . . . فما كانت القدسية من أجلي ، وما كان هذا عملي والواقع أن عمله كان ينحصر في الكتابة . وإن الدعاء الغريب يبين على الأقل أن الله إغراء بمناهضة الفن ، كما أن الفن إغراء ضد الله . . . وبناء على ذلك إذا أصبح الإنسان قديسا فما أبعدته عن أن يكون أدبيا !!

ليس من الجائز أن يقوم خادم بخدمة سيدين يتطلبان منه حبا متساويا ويطالبانه بكل حقوقهما . والفن أحد هذين السيدين ، ولطالما رأينا إلى أي حد يتخذ الفن شكل الدين . لكن رغم هذا التقابل ، أو بسبب هذا التقابل بينه وبين التصوف ، يصبح الفن فقيضا لهذا الأخير وإنكارا له مادام الفن يرمى بنفسه إلى تشكيل تصوف ، وإلى احتواء إيمان معين وإلى إيجاد طقوس خاصة به . لقد كان ميكل أنجلو يقول : « إن الفن صنم وملك ، (١٣٧) . أليس الجمال هبة من عند الله ؟ أليست اللذة التي يقدمها لنا سعادة إلهية ؟ ما من شك في أن جمال الفن ، مثله مثل جمال الطبيعة ، صورة لجمال لانهاى آخر ، ووظيفته غرس الرغبة وإشعارنا بلذتها ومذاقها . . . لكن

هذه الصورة التي تصور جمال الفن وما يتبعه من لذة ومذاق . . . صورة ذات جمال مبالغ فيه قد يؤدي بنا إلى التوقف عنده .

إنها لمخاطرة تنطوي على خطورة كبرى بالنسبة لأي هاو ، ولو أن من العسير على الفنان أن يتجنبها . . وما لإرادة الكمال التي تسهر في قلبه إلا بدافع يدفعه دائما لخدمة الفن كما يخدّم إلهها . . دافع لا يقاومه ولا شك . ذلك أن كتابة موسوعة قصصية كالمهرلة الإنسانية ، أو المهرلة الإلهية ، أمر لا يتم كما يجري اللعب بالأوراق أو كما يحل إنسان ما بعض المسائل الرياضية . . والإبداع يتطلب ارتباط الكائن كله ، والابتعاد عن كل ما لا يمت له بصلة ، فقد كان بودلير يقول « إن الجمال قرحة تلتهم كل شيء » (١٣٨) . نعم . . إن النشاط الفني يحمل بالكثير جدا من العواطف الاندفاعية بحيث لا يجوز عقلا أن نأمل أن يؤدي عامة إلى ما وراء موضوعاته الأساسية ، ولا يمكن أن يصل به الأمر إلى عدم نسب الفنان نفسه إليه في لحظة يستطيع فيها هذا الفنان أن يقول إنه بلغ الحد الأقصى الذي يرمى إليه . . وهكذا يصبح الفنان صوفيا وقديسا ، ولكنه صوفي وقديس قد يخطئ في اختيار الإله الذي يبحث عنه .

إن تأليه الفن تأليه للفنان ، وكان رامبو يصبح قائلا : « بودلير إله . . » وإذا كان هذا أمرا يبعث الدهشة ، فما هذه الدهشة إلا عبارة . . والمدنية الحديثة هي التي أخذت تعودنا تبجيل هؤلاء الناس من كبار المصورين والمثاليين والموسيقيين تبجيلا يصل بنا إلى اعتبارهم أكثر من « إنسان أعلى » ، « فوق البشر » ، أو إن صح القول « أنصاف آلهة » (١٣٩) في حين أن الفنان يمارس التواصل ، وذلك لأسباب عدة أهمها أنه واقع تحت رحمة أعصابه والجو الذي يعيش فيه ومدى احتمال امتداحه أو ذمه وتغيرات الوحي الذي يسيطر عليه ، كما أنه يعتمد في أحسن ما يفعل على قوة يعلم أنه أداة لها لحسب .

غير أن منح اسم لهذه القوة وإخضاع القلب والحياة لها أمر يفترض وجود إيمان ديني قوى ، واضح ثابت ، كما يتطلب تدريبا تصوفيا بعيد المدى ، وكل هذا لا يتوافر عادة لدى الفنانين .

ومن ناحية أخرى فإن الفنان ، مهما يكن المكان الذى تأثبه منه الصفة المميزة له ، يظل مبدعا ، أو خالقا ، وهذه الكلمة مغزاها العظيم . . أليس الفنان ساحرا يخرج عالما أكثر حقيقة من الحقيقة ؟ ثم . . أليس هو ذلك الإنسان ذو العقل الذهبى الذى يستخدم عقله هذا كله دون تحفظ ثم يخرج إلينا بأتفه الأمور التى تصبح فى نظرنا ذات قيمة لا تقدر ؟ يقول جيد : « إن تفضيل الفنان لنفسه خطأ » (١٤٠) ، لكن كيف إذن لا يفضل الإنسان نفسه على كل شيء ؟ مهما يكن الشيء الذى يعبر عنه ، فهو لا يعبر إلا عن نفسه ، وكل ما يقول أو يفعل ومهما يكن ما يفعله أو يقوله ثمينا أو نقيا ، فمن غير الممكن أن قوله أو فعله تعبيراً عن حقيقته . ومن هنا كانت الكبرياء التى نصادفها دائما لدى أعظم السادة وصغارهم ، رغم الصفحات التى يحدث أن يكتبوها بإخلاص تام عن التواضع . وفى هذا لن يكون كلوديل حين يتحدث عن عبقريته بصورة طبيعية جدا . . لن يكون أقل قبحا من « جوته الحمار الأكبر » وعدوه الشخصى . إننا نعرف كذلك حب الذات لدرجة كبيرة جدا لدى كل هؤلاء العباقرة . . ولندكر على سبيل المثال أن المصور سيزان لم يشيع جنازة أمه رغم إيمانه بالمسيحية والكاثوليكية ، وفضل أن « يذهب لممارسة فنه . . . »

« ولسوف تصبحون آلهة » . . هكذا يعد إبليس الفنانين . . لكن هذا الوعد لا ينحصر هؤلاء تحسب ، بل إنه موجه لجميع بني حواء . ومع هذا فقد كان الفن يعتبر دائما اختراعا إبليسيا . . ومن هنا نستطيع أن نعرف السبب الذى يدفع الكثير من أهل الفن إلى إحراق أعمالهم الفنية على نيران الشيطان . . ولنترك إذن ليون بلوى يلتقى باللعة فيقول : « إن

الفنى يولد تحت جلد الثعبان ، وكان لا بد للصور الوسطى أن تأتي بمطربة من حديد لتخرجه وليسكون في خدمة الله لكن لم يكن بلوى هو الذى ندد بالفن لصفته الإبلسية كما يجب أن يكون التنديد ، كان بودلير هو الذى نادى يقول بأن الفن الحديث ويميل قطعاً ميلاً شيطانياً (١٤١) ثم أتى جيد ليكرر بألف صورة مختلفة ، ما قاله بودلير وما من عمل فنى إلا وعاون الشيطان فيه ، (١٤٢) وها هى ذى الحكمة الشعبية يكرر هاجيد أيضاً : « من الذى اخترع الموسيقى ؟ هذا سؤال ألقاه آتمان ، على . أجبت : الموسيقيون . . . لم يقنع آتمان بهذا وألح فى طلب إجابة أخرى . . الأمر الذى اضطرني أن أجيب : الله . . ورد آتمان على بقوله : لا . . إنه الشيطان . . ثم أخذ يشرح لى أن جميع آلات الموسيقى عند العرب كانت آلات جهنمية ، عدا السكبان الكبير ذا الوترين . . الذى لم أستطع الاحتفاظ باسمه . . . (١٤٣)

على أن نسبة الفنانين وأعمالهم إلى الشياطين ، واستثناء السكبان الكبير ذى الوترين أمر مبالغ فيه كثيراً ، وبودلير أوجيد — رغم أقوالهما — لم يكونا مؤمنين جدياً بقوة الشيطان . ولقد سبق أن خصصنا فصلاً دافعنا فيه عن الفن ضد الذين يتهمون به باللا أخلاقية . ثم إننا نتساءل بعد ذلك : ألا يوجد فن دينى بالمعنى السليم الكامل . . نقصد فنا مقدساً فى رسالته واستخدامه ؟ ثم نتساءل : أليس هذا الفن المقدس باتجاه مباشر نحو الصلاة . . إن لم يكن نحو التصوف ؟ أليس من هدفه أن يبعث فىنا التفكير فى الله ؟ لكن إن فكرنا فى مثل هذا السؤال بعض الشيء لوجدنا أنه أشد وعورة مما تصور أول وهلة .

ذلك أن الأفكار المتعلقة بالفن المقدس والفن الدينى أفكار غامضة ، فنحن نعلم أصلاً أن طبقات « الدينى » و « المقدس » غير متقابلة ، وأن عملاً فىنا مثل لوحة « جرنیکا » للفنان بيكاسو ، قد يوحى بشيء يختلف تماماً عن

الإلهية بصفاتها موضوع الأديان ، بل ومن الجائز أن يعارضها . أضف إلى هذا أن الشيء الإلهي يتلقى شكله الخارجى من الأديان والفلسفات ، ومن هنا جاءت التميزات المختلفة ، بمعنى أن الصفة الرئيسية لن تكون هي بعينها في داخل مذاهب التوحيد وتعدد الآلهة وغيرهما . والصفة الدينية من واقع التوراة تختلف عن نظيرتها في الإنجيل وهكذا . . . وينتج عن ذلك بوجه خاص أن « الدينية » لا تعنى بالضرورة « المسيحية » ، ولا ترادفها . خذ مثلاً لوحة « الحساب الأخير » ، في قصر السكستين ، تجد أنها دينية ولكنها لا تمت للمسيحية بصلة كبيرة في حين أن لوحة « تلاميذ إيمانوس » لرامبرندت دينية ومسيحية في وقت واحد . وأخيراً يحدث أن يصادفنا عمل فني ، ذو صفة مسيحية للغاية . لكن لا تتوافر فيه الشروط اللازمة لوضعه في معبد أو في كنيسة ، وبالتالي ، لإشراكه في الصلاة والطقوس . هنا يقال إن هذا العمل « لا طقوسى » ، ... والأمثلة على ذلك كثيرة نأخذ منها تمثال « صلب المسيح » للفنانة جر مين ريشيه « وفي الموسيقى . . » صلاة بنغمى « ليتوفن » أو صلاة جران « ليست » أو صلاة جنائزية ، لموزار أو لبرليوزا أو لفوريه . وعلى عكس ذلك يصبح من الطبيعى أن من الجائز تماماً تكليف فن ما بالطقوس دون أن يكون لهذا الفن قيمة مسيحية أو دينية أو مقدسة . . ولعلنا نرى الأمثلة على ذلك كل يوم .

على أن العمل الفنى يكون « طقوسياً » عندما يخضع لقواعد الطقوس ، فهو ديني ، مسيحي عندما يستدعى حقائق دينية مسيحية ، لكنه في الحقيقة لا يفعل شيئاً من هذا كله ، وهذه هي النقطة التي تهتمنا فيه باعتباره فناً . فصفته المسيحية ، بل والدينية ، بأقوى معاني هذه الكلمة ، تستند إلى عوامل خارجية ، لا جمالية ، ومن ضمن هذه العوامل مثلاً موضوع اللوحة في فن التصوير ، والأقوال التي تصحب النغم في الموسيقى ، واستخدام المبنى في فن البناء . . ولطالما لوحظ أن الأسلوب الجرجورى لا يدين

بتبعيته للكنيسة إلا بفضل النص المصحوب به، وإلى طريقة خاصة في غناؤه، وإلى العادة القديمة التي ربطت ربطا وثيقا بشعائر الدين الكاثوليكي. لا شك في أن العمل الفني الجميل قادر بفضل شكله لحسب على إثارة عاطفة دينية عندنا، لكن الأمر هنا أمر شعور تديني غامض، أو عاطفة مهوشة لا يمكن تسميتها لما فيها من غموض تام.

والمفهوم من هذا أيضا أن تمثيل موضوع من موضوعات التوراة أو الإنجيل على خشبة المسرح مثلا أمر لا يكفى في شيء، أو بالأحرى أمر لا يغني عن الخضوع لمطالب الطقوس الدينية نفسها، لأن الصفة الدينية أو اللا دينية لعمل ما صفة مندرجة في بناءه الأساسي، بمعنى أنها ترتبط بنوعية الألوان والتناسق والطابع، وكلها ترجع بدورها إلى نوعية روح الفنان. . . ولندكر مع هذا أن التعبير الفني غامض بطبيعته، وأنه يتكيف مع انفعالات مختلفة لها وزنها الفسيولوجي المقابل، وأنه بالتالي لا يميل إلى هذا الانفعال أو ذاك إلا تبعاً لدفعة تأتي من الخارج، مثال ذلك «أداجيو» للموسيقى كوريللي، يجرى عزفه خلال الصلاة، رغم أنه كتب كموسيقى غرفة، أي لعزف في غرفة استقبال، لكن حيث إنه يتصف بالهدوء والجدية والرزانة، فإنك حين تسمعه، تخيل إليك دائماً أنك تسمعه في مبنى ديني، وخلال طقوس دينية؛ إذ هو يعزف على آلة تكاد تكون مخصصة للدين لحسب، ولذا فإنك تمطيه صفة دينية، وهذا من جهة أخرى دور مجرد للموسيقى ما ينسب عنوانه «جنتسماني» حيث تتوافق الألوان السوداء والبنفسجية والحمراء القائمة توافقاً تاماً مع منظر حديقة الزيتون، وتصبح اللوحة دينية، لكنك لا تستطيع إلا أن تضع لها عنواناً مثل «ياس»، أو «حلم ردي»، أو «جريمة غرامية»، إن لم يكن لها عنوان أصلاً وطلب إليك وضع عنوانها. ويلاحظ أن هذه العناوين التي تمنحها لذلك الدور تصلح للوحة التصويرية ولا علاقة لها بالدين. وبالاختصار

فإنه إذا كان أى عمل قى أصيل ذا صفة مقدسة ، فليس من الضروري أن يكون دينيا أو مسيحيا بصفته عملا فنيا . وهو إذ يصبح هكذا، يتم هذا بسبب ظروف خارجة عن الفن .

صحيح أن الفنان ، كالقديس، يتمتع بموهبة البكاء، وصحيح أيضا أن التجربة الفنية ، كالتجربة الصوفية ، تنبع من القلق الآتى من عالم آخر ، ومن الحنين إلى المطلق ، ومن الأمنية التى تحملنا من خلال خير محدود إلى خير لانهاى . . بحيث تنبثق فنون التصوير والشعر والموسيقى عن نفس الأعماق التى تنبثق عنها الحاجة إلى الصلاة . ومع ذلك فما كانت هذه الفنون صلاة ؛ إذ ما هى الصلاة ؟ ترد التعاليم الأولية للدين بقولها إنها ارتفاع الروح نحو الله . إذ لو تمكنت فنون التصوير والشعر والموسيقى من رفع الروح ، فهى لا ترفعها فعلا إلا نحو الله . ويستطيع المبدع الفنى إذن أن يفتقل فى داخل نفسه بدفعة الهبة بحيث تتطابق إرادته وحساسيته وعقله كلها كاملة مع تنظيم خاص من الخطوط والألوان والألفاظ والنغمات . والهاوى يستطيع أيضا أن يرتفع وأن تتحرك مشاعره ، ويجوز أن تمتص نفسه فى عمل فنى يكون جماله هو عالمه ، فأنا حين أنصت إلى مقطوعة موسيقية أكون حاضرا فى الموسيقى ، لا فى الله ، وعندما أعجب بقطعة تصويرية تمثل صلب المسيح مثلا لا أشترك المسيح المصلوب آلامه . وهكذا يتحدد الحب فى التجربة الجمالية قبل أن يصل الحب إلى قمة الهضبة التى يصعد بها ، ويتأمل معجبا العمل الذى أثار هذا الحب والذى يخفى عنه موضوعه الحقيقى ويقف فى سبيل حركته . والفنان شقيق المتصوف ، لكنه « متصوف فاشل فى حياة التصوف » .

هل نستطيع أن نخلص من هذا إلى أن الفن ، وبوجه خاص الفن الدينى والفن المسيحى والفن الطقوسى ، لا يساعد على الصلاة ؟ إن هذه الفكرة لبعيدة عن تفكيرنا ، فإذا لم يكن الفن فى ذاته صلاة ، فهو فى

الواقع يعد غالباً للصلاة لأنه يضع الإنسان في حالة موالية للصلاة فيأخذ بالنفس ويرفعها ويهدئها ويخفف من توترها ويفتحها للتأمل . إلا أن بين التأمل الجمالي والتأمل التصوفي مهما يكن متواضعاً انفصلاً لا يظل قائماً ، لأن الأول ينتهي حيث يبدأ الثاني . . والشعر الذى يتأرجح في الصلاة ليس شعراً ، وأنا حين أشرع في الصلاة لا أصغى للموسيقى حقاً . . وعموماً ليس من الممكن أن نصلى على أساس من الجمال ، طبقاً لهذا التعبير الشهير ، إلا بشرط أن نغنى الجمال وأن نترك التعبيرات التى يرسم الفن خلالها . هذا هو الجوهر الملىء بالتناقض . . جوهر الفن ، فهو صلاة لا تصلى ، وتدعو للصلاة . وهذه هى الطبيعة الخاصة للتجربة الجمالية ، من حيث كونها انتظاراً للتجربة أعلى تنادى بها ، لكنها لا تستطيع توجيه قيادها بل بالأحرى تمنعها . (١٤٤) .

تعلييل النتائج

تقابلات أو تناقضات . . هل جاءت اللحظة التى نختتم بها بحثنا ونحن نشرف على التناقض ؟ وهل من الضروري أن نترك جانباً الفكرة الرئيسية لهذا الفصل ، ولهذا الكتاب ونغلقه من أوله لآخره فحسب ؟ لا . لا أظن هذا . . لطالما قيل إن الفن يؤدى إلى الله . . أو على الأقل يقال هذا دون اتخاذ التحفظات الضرورية . . كما لو كان كافياً أن نحب الشعر والتصوير والموسيقى لنصبح أتقياء مخلصين آلياً أو ما يقرب من ذلك . . وكما لو كانت عبادة الجمال هى بالتالى عبادة الله الحقيقى الحى . . وكما لو كان طريق الإبداع أو اللذة الجمالية هو الطريق الأروحد الممهد تماماً ، والذى لا يتضمن عقبة واحدة أو عامل مضايقة واحداً ، أو احتمال وجود مفرق واحد .

لقد أخذنا علماً بالرموز ، والذى يبقى هو أن نقول إن الفن يتصف من أعماقه بصفة دينية ، فى مبدئه وفى هدفه . وسنرى مرة أخرى أن على

ما وراء الطبيعة والبحث الديني يتفقان في هذه النقطة مع شعور الكثير من الفنانين . ومن هنا لا يمكن أن توجد التقابلات في نفس مستوى التعارضات ، فالأولى جوهرية أساسية ، والثانية عارضة ، ذلك أن هناك فرقاً كبيراً بين التجربة الجمالية ، كما يحللها الفيلسوف والتجربة الجمالية كما يعيشها الفنان أو الهاوى . فهذا الفنان وذاك الهاوى يستطيعان تماماً ألا ينفصلا وأن يأخذا لحسابهما ما ينطوى تحت هذه التجربة ، بل ويحدث أن يغفرا من معزاهما . وبالاختصار ، ففيما يتعلق بطبيعة الأشياء يقودنا الفن - أوجب أن يقودنا بطبيعة الحال إلى الله . لكن إذا نظرنا إلى هزال حالة البشر ، نجد أن من الجائز - وهذا يحدث أيضاً - أن يبعدنا الفن عن الله . هذه علة القضاء في النتائج كما سبق أن عرضنا له .

إن الكائن يختلف الكائن ، وكلما كان الكائن كاملاً قل اكتفاؤه بالوجود لذاته ، ورمى إلى توصيل وجوده لنا وهدف إلى إنتاج كيانات أخرى . والله بصفته كائناً مطلقاً يصبح إذاً كراماً مطلقاً كذلك ، وقدرته على الإيجاد كما تتضح في الدنيا ليست إلا عودة إلى المنبع الأعلى الذي تأتي منه . . وبهذا فإن الإبداعية لا تنتمي لعالمى النبات والحوان والإبداعية في درجتها العليا علة الحياة لدى الكائنات الروحية ، يحاول العقل فيما أن يولدها ولا يستطيع أن يفعل ذلك في أى مجال أحسن مما يفعل في النشاط الفنى . ولهذا كان الفنان المبدع هو ذلك الرجل الذى يزداد شبهة بالله المبدع أكثر من غيره من البشر . فكما أن الله يحقق أفكاره خارجه ، وحيث إنه أبدع الكلمة ، وما زال يخرج عن طريقها أيضاً زائداً لحدوده من الحب والسعادة ، فإن هناك كائنات أخرى ، كالفنان ، يخرج من أفكاره ومن الأشياء حبا يتحدد في العمل الفنى . وطبيعى أن الفنان يختلف عن الله في أن الأول لا يبدع شيئاً من العدم ، ولكنه يتفق وإياه في أن إبداعه الطليق لا يعرف أية ضرورة لهدف معين أو لوسائل معينة . . فكما ارتفع الفنان

انطلق ، واكبر الفنانين لا يستخدمون في هذا إلا القليل من الأشياء ، والأشياء الشائعة جداً ، يفعلون ما يترأى لهم وكما يريدون وبما يريدون . . نعم لقد كان داتى على حق حين قال إن فنانا حفيد الله ، إذ كيف لا يمكن ألا تقود هذه العملية الإبداعية التي تضيف إلى جمال العالم جمالا ، والتي ترتفع في نهاية الأمر إلى المنبع الأعلى وإلى المصدر الأزلي ، للكلمة ، التي يقول لنا القديس توماس عنها إنها « فن الأب » . . كيف لا يمكن ألا تقود هذه العملية قلوب الفنانين وأفكارهم إلى « أيهم » ، ١٩ (١٤٥) .

غير أن منح الشيء دون مقابل عمل مترف لله وحده الحق فيه . أما الكائنات الأخرى التي لا يكتمل لها ملء وجودها فإنها تهدف إلى أن تفعل ذلك أيضاً ، وتقصد بهذا أن تتغذى من الكمال وأن يكبر وجودها وينمو ، وعظمة الجمال لا تبهرنا إلا لأنها في ذاتها عظمة الكائن التي تبشر بالجمال الكامل ، الكائن الكامل ، وهو الكائن الذي يستطيع وحده أن يرضى رغباتنا . وهكذا تصبح الأشياء الجميلة في الطبيعة وفي الفن عذوبة لنا أن نتذوقها ودعوة تدعونا إلى تخطي هذه العذوبة لنا إلى ما أبعد منها ، والحب الذي خلقها بطريق مباشر أو غير مباشر ينادينا عن طريق هذه الأشياء الجميلة ومن خلالها . والفنان الذي خلق لكي يلتقط كل الجمال المحسوس هو أول من يسمع هذا النداء . أليس هو الذي خلق ولديه الاستعداد للصعود على سلم الفلسفة الأفلاطونية التي اعتمدتها المسيحية . . كما أن لديه الاستعداد للصعود مرة أخرى من المرتى إلى اللامرتى طبقا لمنطق التجسد ذاته ؟ يقول لنا القديس توماس الاكوييني « إن التأمل في المخلوقات يضيء في النفوس حب الله وطيبته ، إذ أن كل الطيبة والكمال الموزعين على مختلف المخلوقات تجتمع فيه كما يجتمع في منبع المياه ماء غزير . . فإذا كانت طيبة المخلوقات وجمالها وحلاوتها تجذب القلوب هكذا ، فإن منبع طيبة الله نفسه يجذب إليه القلوب المحترقة للبشر ، مقارنة في ذلك بقطرات صغيرة من الطيبة نكتشفها في كل مخلوق . . . ومن هنا

قيل في المزامير : « يا إلهي .. لقد أسكرتني بخلقك ... سأتهلل بصنع يديك .. » (١٤٦) .

« وكل جمال نراه على هذه الأرض هنا يأتي من هذا المنبع الإلهي الذي تأتي نحن منه » . هكذا قال ميكل أنجلو (١٤٧) وينتج عن ذلك أن البحث عن الجمال معناه السير على خطى الله ، وإن إبداع الجمال معناه التعاون مع الله . على أن سمة الخالق متروكة في العمل الفني تظل غير مدركة لأغلب الناس الذين تلفت هذه السمة نظرهم ، أو الذين أصيبوا بالعمى والفنان يمتلك موهبة الكشف عن شيء منها ، وإيقاظ الانتباه بغمضة العين أو بقوة إلى هذه الغادة الجميلة التي ترقد في غابة هادئة ... وعن طريق الجمال الذي يكشفه فيها تدعوه الطبيعة أن يرى فيها عمل الله . أليس هو بنفسه أصلا موضع عبادة؟ إنه أيضاً موضع إخلاص وفداء ... ذلك الفنان الذي يعاون بصفته مبدعا في تحسين الخلق إنه يجعل الشيء الجميل أكثر جمالا وبالتالي أكثر جدارة بمن أبدعه ... ذلك الشيء الجميل هو — كما يقول سيزان : « المنظر الذي يعرضه الله ذو القوة التي لا حدود لها أمام إبصارنا » (١٤٨) وعلى الفنان أن يستخلص من ذلك الشيء خطوط القوة ، وعليه أن يخلصه من الخلط وأن يحرر جاذبيته ويفسر معناه ، ويصل به في نهاية الأمر إلى المرتبة الروحية . وعمل الفنان إذ نحن تفهمه على هذه الصورة لا يمكن أن يكون غريبا عن المهمة التي تفرضها علينا المسيحية لإيقاد العالم ولتخليصه من القوى الشريرة ومن اللعنة لإعادته إلى الله . « وما الفن إلا تقديس للطبيعة » هكذا لاحظ موريس ديني (١٤٩) ، كما يوضح لنا « سنجرىا » أن « مكافئة القبح في جميع المجالات والعمل من أجل استعادة الجمال معناهما معارضة ما يفعل الشيطان ، ومعناه العمل من أجل ملكة الله » (١٥٠) . وهكذا ، وفي هذا الإطار تكون للفن وظيفة الكشف عن الأهداف الأخيرة للإنسان ، إذ أنه يغير من شكل الأشياء ويعد من بعيد

ولكن بفعالية ما أسماه بردييف (١٥١) «التصوير النهائي» الذي تظهر من خلاله «سماوات جديدة، وأرض جديدة»... أى كل جميل وكل جميلة... لأن الله يوجد في كل هذا وفينا.

إن الطرق الثلاث التي سرنا فيها ميتافيزيقيا ودينيا تؤدي إلى الله والفنان — لاشك في هذا لحظة — يصل من جانبه إلى الله إن هو عمل على تنمية ما تحويه تجربته كليا... ومع هذا فلا بد أن نعترف بأنه قد يتعرض لخطر عدم إصابة الهدف إن لم تسيره الفلسفة والمبادئ. لماذا؟ أولا، لأننا لا نمتلك وجدان الجوهر الإلهي وفي الله يجتمع الخير والحق — والجمال والعدل، لكننا نعرف ذلك بالتعليل لا بالوضوح الذي يطرد الغموض. ولهذا فإن القيم التي تتلاقى في نقطة لا تدركها أبصارنا تظهر متميزة واضحة، منفصلة بعضها عن بعض كما تنفصل أشعة الشمس في مرآة محطمة وتنتج عن ذلك نتيجة أساسية هي أنه «كلما ازداد الكشف عن منطقة محورية في قوة، كان من العسير ربطها بمناطق أخرى...» وحيث يرى الناقد تقابلات يدرك المبدع المتناقضات، (١٥٢) .. وبذلك فن المستحيل أن يشمل علم الجمال علم الأخلاق من جهة، وأن يكون من جهة أخرى علم الجمال غير شامل للتصوف. ورغم أن كل هذه العلوم تنبثق عن أهداف متطابقة، ورغم أنها ترمى في نهاية الأمر إلى موضوع متطابق، فإن الطرق التي تتبعها متعددة، إن لم تكن متعارضة فيما بينها كما يحدث فعلا...

هذا ويمكن التأكد من هذا في مجال الفن أكثر من مجال الأخلاق، فالحقيقة كما يقول مارييتان «إن كل إنسان في أول عمل طليق عميق له يقوم به بقصد استخدام شخصيته كلها بفضل فعل الخير من أجل حب الخير، ويختار الله شعوريا أو لاشعوريا باعتباره خيره الأعلى، حتى إن لم يكن لديه علم مذهبي بالله. فالجمال المعنوي الأخلاقي كله معلق هكذا بحب هو حب الله. باعتباره قاعدة عليا للحياة الإنسانية، وهي قاعدة في نظر المعطيات المسيحية تخص حب

الله الذى يحبنا أيضا ، حبا سبق حبنا نحن له ، ويعمل على إشراكنا فى حياته هو . « لاشئ من هذا نجده فى الفن » لأن الشعر .. يا إلهى .. هو أنت كما يقول كوكتو صائحا فى نهاية « أورفيه » . لكن هذا خطأ .. إذ أن الأصح هو أن الله هو أول شاعر ، والشعر يتلقى منه قيمته الكبرى .. على أن المطلق الذى يحدد قطب الفن خير أعلى ونهاية أخيرة مطلقة فى إبداعية الروح .. دون أن يكون النهاية الأخيرة إطلاقا .. والذى يحبه الفنان تبعا لأنه فنان .. الذى يحبه فوق كل شئ هو الجمال الذى يهدف من خلاله إلى توليد عمل فى ما ، لا الله بصفته قاعدة عليا للحياة الانسانية أو بصفته حبا قائما دائما ينشر البريق . وإذا كان الفنان يحبه فوق كل شئ ، فهو يفعل ذلك بصفته هو إنسانا ، لا بصفته فنانا ، (١٥٣) .

لا أدري إذا كان هناك فنانون فى جنة الأرض .. وعلى أية حال فإن الإنسان الذى يظل فى حالة البراءة - سواء أكان فنانا أم غير فنان - يستطيع أن يرتفع دون جهد ودون خطأ من مرتبة المخلوق إلى مرتبة الخالق . على أن الأمر بهذا الصدد يختلف تماما فيما يتعلق بطبيعتنا ذات الخطيئة ، ومهما يكن سبب الخلط الذى يدخل إليها إننا مقسمون فى داخلية نفوسنا .. ومع حب الله تخبو فى قلوبنا ثورة مكتومة ضد الله . ومن هنا كان الغموض الذى يحيط بالتجربة الجمالية .. لاشك أن الفنان الذى يبدع شيئا يعطى نفسه لغيره ، ويكفى أن يضيف خصبه إلى الخصب الأولى الأساسى لكى يتمكن من إعطاء نفسه إلى ذلك الذى أعطاه كل شئ .. أى الله . لكن « الأنا » الحية ، المحبة ، غير الهادفة إلى مصلحة خاصة بها والتي ينبثق عنها العمل الفنى لابد أن تحسب مع « الأنا » التى تحب نفسها وتحب السيطرة والاستيلاء لنفسها على كل ما تستطيع الاستيلاء عليه . وهذه « الأنا » الحسود ، بصفتها مركزا للأشياء والطمع الذى لا يعرف الإشباع تستطيع أن تنفرع لصالحها وتخرج ما يعيد الأنا الأخرى ، وأن تجعل من

أنقى المواهب أداة مجدها وعظمتها . إن فضائل الفنان كذلك فضائل أصيلة تصور أصلا فضائل الأخلاق وحين تكون الأشياء على الحال التي يجب أن تكون عليه ، فإن هذه الفضائل تستميله لممارستها . لكن يحدث في كثير من الأحيان أيضا أن تختفى هذه الفضائل وبدلا من أن تعمل ببطولة الفنان على دعوته لممارسة الاخلاقية الحقة ، تجدها تغلق الباب في وجهه . ولا بد أن نقول نفس الشيء فيما يتعلق بالتجربتين الشعريّة الصوفية، وهما تجربتان تولدان بعضهما بجانب بعض ، وما من شك في أن بينهما قرابة . وبذلك تصبح التجربة الشعرية قادرة على توجيه الشاعر نحو الله ونحو الصلاة . لكنها حين تجد نفسها أمام روح الكبرياء وفي غمرة السعادة، تسقط إلى هوة النشوة الفارغة وإلى العدم ، أو تهبط إلى مستوى السحر الدقيق أو الجاف الذي أغرى السرياليين كما سبق أن أغرى مالارميه . وبالاختصار فإن التجربة الجمالية في الحياة الملبوسة التي يمارسها إنسان ملبوس تظل باحثة عن القيمة . فاما أن تظهر كإعداد للتجربة الصوفية، وإما أن تبدو كإخفاء لها . وإما أن تعد الفنان للجحيم ، وإما أن ترفعه إلى السماء .

والشخص الذي يهوى الأشياء الجميلة هواية كلها تحمس يتعرض لنفس الخطر الذي يتعرض له الفنان تقريبا ؛ ذلك أن شهية الكائن عنده — كما هي عند الفنان أيضا — تفقد استقامتها وسلامتها من الخطأ . فالخطر إذا من أن يعمل الجمال المرئى على إخفاء الجمال الروحي قائم دائما رغم أن الأول يجب أن يسير نحو الثاني . ويلوح أن مثل هذا الخطر هو الذي تعرض له الأب فالنسان حين كان عليه أن يختار بين موهبته — كقدس، وميله نحو أن يكون فنانا . . ولقد كان الأب فالنسان يحاول من آن لآخر أن يربط بين هذه الموهبة وذاك الميل عن طريق سلم التبرير المنطقي الدقيق : « إن الذي يضاف على روح الجمال عنده صفة الدقة دائما لن يشعر بالضيق إزاء القبح، فهو إنسان تفتحت نفسه لكل منابع

العظمة لأنه يذهب غريزيا ودائماً إلى كل ما هو أجهل . . . إن مثل هذا الإنسان يقبل أن يكون ذا حساسية . . . والكلمة الصحيحة هنا أن يكون على استعداد لقبول الحساسية . . . أى لتقبل فكرة الجمال المطلق (١٥٤) . لكن سرعان ما يجد أن سلم التبرير المنطقي الدقيق لا يسهل الصعود عليه ، ولذا تجده ينطلق نحو الاستهزاء بما كان يميل أن يضعه، وضع الشيء الذى يعبد ، وحتى يتخلص من أصوات الغابات : كم هى جميلة تلك الورد حين تنظر إليها . لكن سرعان ما تصبح أجهل الأزهار شيئاً قبيحاً . . بل إنها فى نفس الوقت الذى تمتلئ فيه بالحياة وتسرى النظر ، نجد أن رائحة كريهة جداً تنبعث من المكان الذى قطعت منه الساق وتبعت على القى . . . ولهذا مفزاه . . بمعنى أن كل ما لا يتعلق إلا بالطبيعة موجود فى هذا . . . وبمعنى أن الروحانية هى التى لا تفسد ، وحتى الفن لا ينبغي تذوقه إلا كشئ يمر وينتهى بعد أن يكون قد ازدهر فوق الفساد . . على إذاً أن ارتبط بالروح فحسب ، وأن أحب فيها ما أحب فيها يسوع . . ويالها من حياة فنانة فى عجب تلك التى تسكن جسد قديس يحس بكل أعاجيب النعمة الربانية ويعجب بروح تنخبط . . وحتى يعجب بعمل فى عظيم خلقه الله . . (١٥٥) . . فإذا كان مثل هذا اليسوعى قد شعر بكل ذلك الألم حين أراد أن ينتقل من حب الأجساد الجميلة إلى حب الأرواح الجميلة وإلى حب الله . . فإذا تكون حالنا نحن الخطاه المساكين؟

ما من شئ يدعو للعجب حين نرى — كما رأينا فعلاً — أن طريق الفن الذى يؤدى إلى الله ليس من أشد الطرق وعورة . . إلا أنه من النشائم الشديد أن نقول كما يقول الأب كوترية إن « هذا الطريق الملكى يكاد يكون مقفراً » . . لأنه ما من أحد أولاً يعرف سر القلوب ، ولأن كثيراً من الشهود يؤكدون عكس ذلك ، فها هو ذا ريفردى يقول : « إن اتصال الروح بالأشياء شعر ، وهذا الشعر هو الذى قادنى إلى الله دون أن أعلم بعد أن

مررت بطريق الشك وتعرجات الخرافة المظلمة ، (١٥٦) .

ونحن لا نجعل إلى أى درجة تتزايد مثل هذه التوكيدات في عصرنا هذا . والشئ الذى يظهر على عكس ذلك مؤكداً هو أن الفنانين ليسوا أقل من الآخرين حظوة في نظر الدين ، ذلك أنهم « سواء ذهبوا نحو الله ام ذهبوا بعيداً عنه ، وهم في الطريق الذى يسرون فيه ، فإن هذا لا يرجع إلى ما يفعلون ، .. والأمر فى أكثره أمر طبيعية بشرية وتعليم ومقابلات سماوية ونية طيبة ، فإذا كان الفن من ذاته لا يؤدى إلى الله ، فليس من الصحيح أيضاً أنه يبعدنا عنه . وعلى كل فهما تكن الطريقة التى يستخدم بها ، ومهما يكن المعنى الذى يعطى له ، فإنه - أى الفن نفسه - يحتفظ بميزته ، وجمال الأعمال الفنية الضارة لا يندفع غيرنا : وهو فى هذه الأعمال يحمل الدليل دائماً على نوع « الطبقة » التى يستمر فى الالتئام إليها .. فهناك ما يكفى من الحقيقة حتى فى البهلوانيات الخطيرة القاسية التى يقدمها يكاسو ، أو أى كاتب سريالى .. هناك ما يكفى من الحقيقة للسير نحو الله سيراً لا يعوقه عائق » (١٥٧) .

ويتأوه مورياك قائلاً : « ولا بد أن تكون قديساً .. لكنك فى هذه الحالة لن تكتب قصصاً » (١٥٨) . لكن مورياك والمحدثه مبالغ .. فكل مهنة وكل استعداد طبيعى لشيء ما يجز معه صعوبات معنوية خاصة به .. ويمكننا كذلك أن نقول نتيجة لهذا : « لا بد أن تكون قديساً ، ولكنك لن تكون تاجراً أو طبيباً أو ضابطاً أو رجل مال أو سياسياً .. وعلى أحسن الفروض يجوز أن يكون الفنان راهباً .. لكن ماريتان يضيف قوله : ومع ذلك فهذه المهنة ليست بمؤكد .. ذلك أن مهنة الفنان - لاشك فى هذا - تتضمن إغراءات خطيرة للغاية .. وبذا يحسن بنا أن نعترف أنه إذا كانت القدسية بالنسبة له قدسية بطولية ، ومن باب أولى إن كانت بالنسبة له عبارة عن فضيلة تجلدية تدعو لعزم شديد يصل به إلى حد النقاء

النام ، فإن من العسير عليه أن ينقد روحه لكن من حسن الحظ أن القدسية تقدم له نماذج أخرى : ذلك أن كون الانسان قديساً معناه أنه يسير نحو الكمال في نوع الحياة التي نحيهاها فعلا ، آخذاً في اعتباره العوامل الاجتماعية والسيكولوجية والأخلاقية التي يفترضها نوع الحياة هذه . ومن وجهة النظر هذه يصبح موقف الفنان على التقيض الواضح من موقف الراهب ، فهو إنسان خلق ليعيش في الدنيا وفي الغموض وفي مجد الدنيا ، ولذا فهو لا يستطيع أن ينفصل عن العالم انفصال تاما لا يعمل إلا من أجل اكتماله هو . لكن ليس المهم هو الكمال الذي يحصل عليه ، وليس الجوهر ألا يرتكب الخطيئة ، بل الجوهر أن يستمر في الحب استمرارا متزايدا . وتنحصر القدسية في نهاية الأمر في الحب المتزايد دائما . . . والمتزايد رغم ضعفنا . . . ذلك الحب الذي عمله الأنا إلى الذات التي لم تخلق بعد ، ولا شيء . ينزع الفنان من أن ينمو ويزداد في هذا الحب ، وحتى إذا لم يقدر هو تقدمه في صعوبة وعسر ، وهو يخطئ . ويشعر بؤسه . وهو حين يفعل هذا يتهدد كما يتهدد جوليان جرين قائلا : فلنأمل أن ينقذ الأدباء الطيبون ، ذوو الإيمان الرديء أنفسهم بأن يكتبوا كتبهم (١٥٩) وأن يفعلوا هذا في اللحظة التي توجد فيها روحهم في حالة التحول العميق بطريق النعمة الإلهية ، (١٦٠) .

على أن الفنان - بالإضافة إلى هذا - ليس بالإنسان الذي حكم عليه مهما يكن الأمر بأن يعبش في حالة تمزق دائم بين الله وفنه . فعندما يكون الحب الإلهي قد اندمج في المنبع الإبداعى ، يعمل الحب على تنقية ذلك المنبع دون أن يخففه ، وينظمه دون أن يقلل من خصوبته - ومن هذه الحقيقة يتضح أن الاخطار الموجودة داخل النشاط الفنى قابلة في أغلبها أو كلها للزوال . فالمصور الذى لا يصور إلا ليرضى الله لن يصبح أحسن المصورين ، لكن الله يحفظ فنه التصويرى من كل ما كان يهدده أول الأمر من بلبلة أو تفكير تافه . إن من المؤكد أن العمل الفنى لا ينمو إلا على أرض الانفعال والعاطفة

الجارفة ، وكلاهما - كما يحذرنا ليون بلوى - «هدام بطبيعته» (١٦١) ، لكن ليس من العدل أن نعتبر كل عاطفة تصيب الحساسية ، أو كل لذة تتمتع بها الحواس ، خطيئة ... وأنا لا أنكر أيضاً - بل على العكس سبق أن أوضحت صحة هذا تماماً - أن مما لا غنى عنه للأديب القصصى أن يعرف الجدار الداخلى للطبيعة البشرية معرفة ملموسة ، تكاد تكون تجريبية ، وما من حاجة لديه رغم ذلك لكى يعرف عما يتحدث - إنه يفرق شخصيا فى النجور .. فليذكر - هنا عبقريته - مبوله المكبوتة الخاصة به هو ، وأوحى تلك التى لم يكن فى حاجة إلى كتبها .. ومع كل ، فإن هذه الوجدانية تظل أداة للمعرفة مهما تكن ففائدة ، وهى لا تتضمن بصفتها أى تواطؤ للسير فى الفجور ، ولا تتضمن أى اشتراك إرادى فيها . بهذا يستطيع الفنان المؤلف أن يحب شخصيات قصته ، وألا يتعرض مع ذلك لتلقى عدوى آلامها . انظر إلى دوستويفسكى : إن الاعتراف الذى يدلى به ستافروجين (أحد شخصيات مؤلفاته) هو اعترافه هو . وهو - أى - دوستويفسكى - يحب فى هذا النضال الناحية المظلمة فيه ، وعلى هذا فهو « لا يرحمه حين تثبت جريمته ويقوده إلى انتحار مريع فظيع وهو - أى المؤلف - يتمتع بوضوح ذهن عظيم ومنطق لا يرحم ... وهكذا نجده يحب تلك الشخصية لكنه يبرقها عن قرب وبحكم عليها بلا هوادة (١٦٢) . وهناك من المؤلفين من يحب شخصياته أكثر من ذلك ، ويحبهم حبا يخلصهم من خطاياهم وذنوبهم ، ويقال إن برنانوس لم يكن بقادر على أن يمنع نفسه من الصلاة من أجلهم .

هل هم كثيرون أو نادرون أولئك الفنانون الذين يصلون لدرجة الخشوع الهادىء أو السيطرة الداخلية . . . والذين كانت الإبداعية عندهم عملا دينيا طاديا لا أدرى . . . لكن الذى أعلمه أن الآخرين - أى الذين لم تكن الإبداعية فعلا دينيا عندهم - لم يصلوا الطريق نحو الله . فقبل أن يأتى الموت

المنفذ لسكى يحل المتناقضات عندهم ، تأتى صاعقة من النعومة لتقضى على الروابط التى تربطهم بعواطفهم الخارقة وبملذاتهم وبغذايهم ... أو يحدث فى أمسية الحياة أن يسقط القلم أو تقع الفرشاة أو الفرجار من بين أيديهم ، وهنا يعرفون أنهم وجدوا ما كانوا يبحثون عنه من خلال قنهم . هكذا قال ليون بول فارغ : هلا امتنع العقل المفكر بالمنطق من أن يأتى ليعكر شعورك بالله . إنى أتعلى أحيانا بقلاعه وأطير بحثا عنه فى البعد الرابع ، فى الشعاع المضى . . ومع ذلك فقد كنت مسكينا ... وكى كنت أود أن أبقي فى ركنى الصغير المنزوى أعمل فى جمع للشعر وكأنى حشرة دقيقة من حشرات العبقرية والصدقة والحب . . لقد مضى الوقت ، ولم أعد قادراً على أن أصبح فنا ، ولم أعد قادراً على أن أظل هادئا . . إننى أسمع من خلفى شيئاً . . كما لو كان قطارا يردد صيحات تصل إلى فى سرعة ١٠٠ (١٦٣) وأخيرا تقلع السفينة . . ولسوف تسير فى البحر . . هذا الجمال الذى طالما أحببناه . . والذى لم يأت إلينا بعد . . ثم لم نعد نريد رؤياه ، كما أراد العجوز ميكل أنجلو . . لم نعد نريد رؤيته إلا فى الحب الأعظم الذى قدم نفسه لنا مضحيا بنفسه . . والذى يكشف لنا عن قلبه الجريح . .

لا التصوير ولا النحت يستطيع أن يهدى .
الروح التى تستدير نحو هذا الحب الإلهى
الذى فتح ذراعيه على الصليب لياخذ بلبنا .

المراجع

مقدمة :

(١) مقطوعات عن الفن (ص ١٥٥ ٢) ج. مارتان : التعليم في مفترق الطرق (ص ٩١ ملاحظة (١) ، (٣) ج. بيكون : الكاتب وظله (ص ٨٤ (٤) مانيت سالومون (ص ٤٦٧ - ٤٦٨ ٥) عن الحب : جزء ١٧ (٦) ١ ، ج. برانكور : الأعمال والأضواء (ص ٨٦ ٧) أصوات السكون (ص ٨٣ (٨) نقابل الفنون (ص ٣١ - ٣٣ ٩) شرحه (ص ٣٤ - ٣٦ ١٠) فن التصوير والحقيقة (ص ٢٢٦ - ٢٩٢ ١١) ج. بابيني : غروب الفلاسفة (ص ٥ - ٦ (١٢) نقد الحكم : ترجمة جيبيلان (ص ١٢٥ - ١٣٤ - ١٣٤٤ ١٣) انظر (ص ٢٩٨ ١٤) مذكرات - ٤ مايو و ٢٦ يوليو ١٨٥٨ (١٥) ١. فوللار : عندما نستمتع الى سيزان (ص ٢٧٧ ١٦) لوحات ما قبل الموت (ص ١٦٩ - ١٧٠ (١٧ و ١٨) جيلسون : انظر (ص ٣٠٣ و ٣١١ ١٩) مقطوعات عن الفن (ص ٢٥٦ ٢٠) وليام شكسبير ١٥٢ (٢١) في ب. دي كولومبيه : أجمل ما كتبه الفنانين (ص ١٣٦ ٢٢) شرحه (ص ١٤٥ - ١٤٨ ٢٣) م. ١. كوترييه : الفن والحرية الروحية (ص ١٠٤ ٢٤) خطابات لبعض الناس (ص ١٤١ - ١٤٢ .

سيكولوجية الفن :

(١) لاكوردير : محاضرات سوريز - ذكره شومران : حياة لاكوردير الجزء الثاني (ص ٢٥٦ ٢) ذكره بدييه ج. : اساطير الملحة . الجزء الثالث (٣) التساريخ الشعري لثناالرمان (ص ٤٥ انظر كذلك الادب الفرنسي في العصور الوسطى ، الفقرتان ١٣ - ١٥ . ٤) مذكرات الشباب (ص ١٢٣ ٥) مستقبل العلم (ص ١٩٤ ٦) ج. تيرسو : الأغنية الشعبية والادباء الرومانتيكيين ه. دافنسون : كتاب الأغاني (٧) اغاني واساطير الفالوا . طبعة بلياد . اعماله . الجزء الأول (ص ٢٩٨ ، ٣٠٠ لاحظ اننا نعدل من نظام النص ونستخدم مختلف النسخ المكتوبة تباعا من نفس النص (٨) ج. بدييه شرحه الجزء الثالث (ص ٤١١ ٩) ش. لالو : الفن والحياة الاجتماعية (ص ١٥٢ ١٠) ل. جيليه : ضور ابينال . مجلة العالمين : أول سبتمبر ١٩١٤ (١١) ش. لالو . شرحه (ص ١٤٢ - ١٤٦ ١٢) لذة الموسيقى . جزء أول (ص ١٥٢ ١٣) ش. لالو شرحه ١٥٠

١٥١ - ١٤ (شرحه ١٥٣ ١٥) شرحه ١٤٨ ١٦) تبين : فلسفة الفن .
 جزء أول ص ٥ ١٧ (شرحه ص ١٢٠ ١٨) شرحه ص ٢ - ٧ - ٤٩
 ١٩ (تاريخ الأدب الانجليزي . مقدمة ٢٠) شرحه ٢١ (لافونتتين واساطيره
 ص ٤ - ٩ ٢٢) تاريخ الأدب الانجليزي . مقدمة ٢٣ (فلسفة الفن
 جزء أول ص ٣٦ ٢٤) نصوص من ماركس وانجلز . ترجمة فريفييل
 ص ١٤٤ ٢٥ (بليخانوف . ترجمة فريفييل ص ٦٤ ٢٦) ش . لالو .
 شرحه ص ٢٠٠ - ٢٧٠ ٢٧ (شرحه ص ٢٠٠ ٢٨) ش . لالو . شرحه
 ص ٨٨ ٢٩ (ج . لانسون : تاريخ الأدب الفرنسي ص ١٠٤٦ ٣٠)
 انظر ص ١٣١ - ١٣٦ ٣١ (كتيب البكالوريا ، اسئلة تكميلية ص ١٩٢ -
 ١٩٣ ٣٢) مذكرات . جزء أول ص ٤١٨ ٣٣ (١) مالرو : أصوات
 السكون ص ٤١٠ - ٤١٢ ٣٤ (الكتيب المذكور ص ١٨٨ ٣٥) انظر
 ص ٥٧٠ ٣٦ (ص ٣١٠ ٣٧) ج . ساوسون : الموسيقى والحياة الداخلية
 ص ١٧٢ ٣٨ (اعذار جديدة ص ٦٧ ٣٩) شرحه ص ٥٨ - ٥٩
 ٤٠ (شرحه ص ٦٨ ٤١) المستقبلية ص ١٥٤ - ١٧٩ - ١٨٩ ٤٢ منشور
 عام ١٩٢٥ ٤٣ (من أجل الشعر ص ٢٢ - ٢٤ ٤٤) سر النهضة
 ٤٥ (ل . جيليه : التاريخ الفني لطبقة المتسولين من رجال الدين ص ١٤٩
 ٤٦) ا . هونجز : أنا مؤلف موسيقى ص ٨٢ - ١٤٥ - ١٤٦ ٤٧ (الديك
 وشخصية اريكان ٤٨) مالرو شرحه ص ٣١٣ ٤٩ (ج . ف .
 ريفيل : الفن الاوروبى : مجلة حقائق . يونيه ١٩٥٩ . ٥٠) شرحه
 ٥١ (ج . ف . ريفيل : المقال المذكور اعلاه . ٥٢) م . برادين : نظرية
 في علم النفس العام جزء ثان ص ٢٨٩ ٥٣ . ١ . مال : الفن الدينى
 في القرن السابع عشر في فرنسا ص ٤٠٢ .

اللاشعور والشعور :

١ (الثورة السريالية ١٩٢٩ . ٢) نص عام ١٩٢٥ - ذكره م .
 نادو في التاريخ السرياليه ص ١٠٦ . ٣) ذكره نفس الكاتب ص ١٢٧ .
 ٤ (الفراشة السريالية . ٥) ١ . بريتون الحب الجنونى . ٦) تريستان
 تسارا : بحث في موقف الشعر . ٧) خطاب الحالم الرأى . ٨) مميزات
 التطور الحديث : في مجلة الخطى الضائعة . ٩) بيان السريالية .

- ١٠ شرحه ٠ ١١) البيان الثاني للسريالية ٠ ١٢) علم الأحلام ص ٥٩٦ ٠ ١٣) الثورة السريالية ١٩٢٤ ٠ ١٤) بيان السريالية ٠ ١٥) البيان الثاني للسريالية ٠ ١٦) بريتون : الأواني المستطرقة ٠ ١٧) بريتون : الثورة السريالية ١٩٢٥ ٠ ١٨) بريتون بيان ٠ ١٩) شرحه ٠ ٢٠) نصائح لشاعر شاب ٠ ٢١) نظرية الاسلوب ٠ ٢٢) شرحه ٠ ٢٣) تقدم لثري ١٩٣٩ ٠ ٢٤) ايون ٥٣٤ - ١ ٠ ٢٥) اصوات السكون ص ٥٣٠ ٠ ٢٦) انظر الدكتور لوجر : حب المعرفة عند لوكريس ٠ ٢٧) دكتور فانشون : الفن والجنون ص ٢٨ - ٢٩ ٠ ٢٨) انظر المذكرات التاريخية لاوزيب ، تؤكد اضافات س ٠ جدوم ٠ ٢٩) دكتور فانشون ٠ شرحه ص ١٤٧ - ١٤٨ ٠ ٣٠) مالرو شرحه ص ٥٢٩ ٠ ٣٢) شرحه ص ٣٢) دكتور فانشون شرحه ص ٣٢ - ٤٧ ٠ ٣٣) شرحه ص ٦٧ - ٨٤ ٠ ٣٤) ه - اى - علاج الأمراض العقلية أزاء السريان ، ذكره فانشون ص ١٩١ ٠ ٣٥) ر ٠ داليز ٠ طريقة التحليل النفسى ومذهب فرويد ٠ جزء اول ص ٤٥١ ٠ ٣٦) دكتور فانشون ٠ شرحه ص ١٣ ٠ ٣٧) مالرو شرحه ص ٥٣ ٠ ٣٨) انظر ه ٠ لشتنبرجر : نوفاليس ، وبوجه خاص ه ٠ بيجان النفس الرومانتيكية والأحلام ٠ ٣٩) هنريش فون اوفردنجن ٠ ٤٠) تلاميذ سايبس ٠ ٤١) مقتطفات ٠ ٤٢) شرحه ٠ ٤٣) شرحه ٠ ٤٤) أناشيد الليل ٠ ٤٥) أوريليا ٠ ٤٦) شرحه ٠ ٤٧) شرحه ٠ ٤٨) شرحه ٠ ٤٩) بحث فى الادراكات الغامضة ٠ ٥٠) ذكره مورو دى تور : عن الحشيش والخلل العقلى ص ٢١ - ٢٥ ٠ ٥١) دكتور ا ٠ ب ٠ ليروا رؤية نصف النوم : لا يذكر المؤلف للأسف حالة ا ٠ يو ٠ ٥٢) مارجيليان (من حكايات هزلية ص ٢٢٨ - ٢٣٠) ٠ ٥٣) مقتطوعات عن الفن ص ١٨٠ ٠ ٥٤) حكيم ص ٤٦ وما يتلوها ٠ ٥٥) متفرقات ص ٥٦ - ٥٧ ٠ ٥٦) و ٠ يانكليفتش : بيرحسون ص ١٠ ٠ ٥٧) ٠ ١) بيكار : العلم الحديث ص ٧ ٠ ٥٨) آراء جديدة عن النوم والأحلام ونوم اليقظة ٠ طبعة تيسران ٠ جزء خامس ٠ ٥٩) اصوات السكون ص ٢٨٤ ٠ ٦٠) فى مجلة : الفنان عدد ٢ يونية ١٨٤٤ ٠ ٦١) مقتطفات ٦٢) مقتطفات ٠ ٦٣) عن «الهوسة» ص ٣١ وما يتبعها ٠ ٦٤) المهزلة الانسانية طبعة بلياد جزء ٦ ص ٣١٨ ٠ ٦٥) لودوان : التحليل

النفس للفن ص ٢٠٤ . ٦٦) الشعر والحقيقة جزء ٣ - كتاب ١٣ انظر «جوته» تأليف انجيللوز ص ٦٩ وما يتبعها . (٦٧) تفسير دالييز جزء ثان ص ٣٤٠ - عن مولد قصة صياد ايسلندا - انظر كتاب : صياد ايسلندا لبيري لوتي . ٦٨) ر . دالييز جزء اول ص ٤٥١ . ٦٩) رينيه هويج : حديث مع المرئي ص ٣١٣ . ٧٠) رينيه هويج : شرحه ص ٣٢٤ - ٧١) من مولف فانثون . شرحه ص ١٣٧ - ١٤٧ . ٧٢) الفجر . ٧٣) من رينيه هويج : شرحه ص ٢٥٤ - ٢٥٥ . ٧٤) يونج : بحوث في علم النفس التحليلي ص ١١٨ . ٧٥) شرحه ١٢٥ - ١٢٧ . ٧٦) بحث في علم النفس التحليلي ص ٢١٣ . انظر حياتي وعلم النفس التحليلي ص ١٠٢ . ٧٧) مقدمة المقدمة عن ادجارو بقلم ماري بونابارت . جزء اول ص ١١ من المقدمة . ٧٨) يونج : شرحه ص ١٢٠ - ١٢١ . ٧٩) ب . كريور : فلسفة الارادة ص ٣٨١ . ٨٠) س . فرويد : دراسات ثلاثة حول نظرية الحياة الجنسية ص ١٧٧ . ٨١) نكريات ليونارد دي فنشي . ص ٥٢ . ٨٢) دراسات ثلاثة . ص ١٩٨ . ٨٣) القلق في المدينة . ذكره دالييز . شرحه جزء ثان ص ٣٤٢ . ٨٤) جونز : دراسة نظرية وعملية في التحليل النفسي ص ٧٦٨ . ٨٥) الولين ص ١٩٦ - ه . ٨٦) افول الاصنام . ٨٧) بودوان شرحه ص ٢٥١ . ٨٨) ماريز شوازي في «بسيشة» الاعداد ١٣ و ١٤ ص ١٥٥٠ . ٨٩) انظر : ابنة العم بيت . طبعة جزء سادس ص ٢٣٠ ، وكذا : الموظفون ، شرحه ص ٩٣١ . ٩٠) جيلسون : مدرسة الموجبات ص ٣٣ - ٣٤ . ٩١) شرحه ص ٣٤ - ٣٥ . ٩٢) سيمون دي بوفوار : الجنس الآخر جزء اول ص ٩٣ . ٩٣) الوجدان الابداعي في الفن والشعر . ترجمة ج . برازولا ، في مجلس بحوث ومناقشات ، العدد ١٩ ص ٧٣ . ٩٤) شرحه ص ٩٤ وكذا انظر «التعليم في مفترق الطرق ص ٧٤ . ٩٥) الانسان في البحث عن روحه ص ٥٤ . ٩٦) ر . هويج ص ٣٣٢ - ٣٣٣ . ٩٧) دوستوفسكي ص ٢٠٩ - ٢١١ . ٩٨) دكتور ديلي : شباب اندريه جيد . ٩٩) شرحه .

الوحي والعمل :

(١) ايرون ص ٥٣٣ - ٥٣٤ . ٢) التأملات . ٣) شاترتون . ٤)

- دفاع عن الشعر . ٥) الشعر والحقيقة . ٦) هذا هو الانسان ،
 زارتوسترا فقرة ٣ . ٧) خمس أغنيات كبرى الروح والماء ص ٤٣ .
 ٨) شرحه : الروحية هي الرشاقة ص ١١٧ - ١٢٠ . ٩) نصائح الى
 الأدباء الشباب . ١٠) الفن : احاديث جمعها جزيل ص ١٣ من المقدمة .
 ١١) خطابات ريلكه الى رودان ص ١٦ . ١٢) جوديت كلاديل : ١ .
 رودان ، صورة حية ص ٢٦ . ١٣) منوعات ص ٥٦ - ١٧٠ . ١٤)
 نصائح الى الكاتب الشاب في مجلة ن . ر . في اوائل اغسطس ١٩٥٦
 ص ٢٣٠ . ١٥) الشاعرية الموسيقية ص ٧٢ . ١٦) « رومب » في
 اعماله . طبعة بلياد جزء ثان ص ٦٢٨ . ١٧) منوعات ص ٦٦ . ١٨)
 في احوال فن الشعر طبعة سيجرز : فن الشعر ص ٦٣١ - ٦٣٢ .
 ١٩) شرحه ص ٥٦٠ . ٢٠) مذكرات . ٢١) شرحه ص ٦٣٣ .
 ٢٢) فلسفة التركيب الموسيقى ، في « ثلاث بيانات » ترجمة رينه لالو
 ص ٥٨ . ٢٣) تفسير قصيدة « العزلة » . ٢٤) هي وهو .
 ٢٥) قصة افكارى ص ١٤ . ٢٦) « سولتيس يونيو » العمل المنفذ
 جيدا . ٢٧) دورة الصباح . مقدمة عام ١٩٣٣ . ٢٨) فن
 الشعر جزء اول ص ١ - ١٢ . ٢٩) آراء في الشعر (في اعماله .
 طبعة بلياد جزء اول ص ١٣٧٧ . ٣٠) منوعات جزء رابع ص ٢٥٤
 ٢٥٨ . ٣١) ذكره انجيلوز في كتاب : ريلكه ص ٥٩٢ : عن تأليف
 الرثائيات والاغاني . انظر ص ٢٦٩ و ٢٩٧ . ٣٢) التجربة الدينية
 ص ١٧٤ و ٢٠٦ . ٣٣) انظر كتابنا هذا ص ٧٧ - ٧٨ . ٣٤) ج .
 سامسون : الموسيقى والحياة الداخلية ص ٣٣ - ٣٤ . ٣٥) شرحه .
 ٣٦) سيكولوجية الفن ص ١٩١ . ٣٧) ج . شفالييه : اوزان ص ٢٤٠
 ٣٨) هـ . ديلاكورا انظر ص ١٩٦ . ٣٩) مذكرات ل . دي فنشي ،
 ترجمة لويز سرفيان جزء ثان ص ٢٧ - ويورد فاسارى ايضا حاصة
 كذلك فيما يتعلق ببترودى كوزيمو (اعماله . جزء اول ص ٤٦٥) .
 ٤٠) الى ذات الانسان ص ١١ . ٤١) ذكره رولان مانويل : متعة
 الموسيقى جزء اول ص ٢٢٩ . ٤٢) ج . سامسون شرحه ص ٣٤ -
 ٣٥ . ٤٣) ذكره كلود روا : حب فن التصوير . ٤٤) ج . سامسون
 شرحه ص ٣٦ . ٤٥) انا مؤلف موسيقى ص ١٠٠ . ٤٦) مذكرات

- ٢٧ يونيو ١٨٤٧ في ٢٣ و ٢٥ يناير جزء أول ص ٣٦٦ . ٤٧) ذكره
 الاخوان جونكور في مذكراتهم جزء أول ص ٣٣٦ . ٤٨) شرحه ص ٩٥
 ٤٩) نشرة الجمعية الفرنسية للفلسفة ١٩٢٨ ص ١٧ . ٥٠) جيلسون:
 فن التصوير والحقيقة ص ١٨٢ وما يتلوها ، وكذا ص ٣٣٣ وما يتلوها
 ٥١) جيلسون شرحه ص ٢٠٥ . ٥٢) هـ ديلاكروا . شرحه ص ٢٠٣
 وما يتلوها . ٥٣) شرحه ص ٩٤ . ٥٤) مذكرات ٢٩ أكتوبر
 ١٨٥٧ وأول مارس ١٥٨٩ . ٥٥) شرحه ، ٢٢ نوفمبر ١٨٥٣ و ٢٩
 أكتوبر ١٨٥٧ . ٥٦) جـ روبنسون : حديث مع جان جيونو في مجلة
 « المائدة المستديرة » عدد فبراير ١٩٥٥ . ٥٧) انجر يقص قصته
 وكما يحكيها أصدقائه ص ٥٨ . ٥٧) مذكرات ، ٢٧ يناير ١٨٥٢ .
 ٥٩) شرحه ، ٣٠ سبتمبر ١٨٥٥ . ٦٠) فن الشعر ، مقدمة لطبعة
 ١٧٠١ . ٦١) الأدب . طبعة بلياد ، جزء ثان ص ٥٥٩ . ٦٢) أشياء
 لم يتحدث عنها أحد . شرحه ص ٤٨٣ . ٦٣) خطاب الى أرمان
 فريس ، ١٨ فبراير ١٨٦٠ . ٦٤) مقطوعات عن الفن ص ٨ .
 ٦٥) منوعات ص ٦٥ . ٦٦) شرحه ص ١٧٠ - ١٧٢ .
 ٦٧) مقطوعات عن الفن ص ٥٩ . ٦٨) منوعات ص ٦٣ - ٦٤ .
 ٦٩) مقطوعات عن الفن ٣٧ - ٣٨ : عن الأغنية الملكية ص ٣٠٣
 وما يتبعها . ٧٠) سر المهنة . ٧١) موت القلب . ٧٢) شرحه
 ٧٣) جـ راسكين : ملكة الهواء ، فقرة ١٥١ . ٧٤) جـ شفالبيه .
 شرحه ص ٢٤٠ - ٢٤١ . ٧٥) شرحه ص ٩٧ - ١٠٠ . ٧٦) شرحه
 ص ١٠٠ - ١١٦ . ٧٧) رولان مانويل جزء ثالث ص ٢١٢ .
 ٧٨) بـ ريجامى : فن مقدس في القرن العشرين ؟ ص ١٦٧ .
 ٧٩) مذكرات مترجمة ص ٤٧ . ٨٠) بـ ريجامى . شرحه ص ٦٥
 و ١٦٨ . ٨١) مقطوعات عن الفن ص ٤٧ . ٨٢) منوعات ص ٥٨ .
 ٨٣) مقدمة : مختارات من الشعر المكسيكى . ٨٤) مقطوعات
 عن الفن ص ٢٤ . ٨٥) فلسفة التركيب الموسيقى ص ٥٩ وما يتلوها .
 ٨٦) بـ تراهارد : السر الشعري ص ١٥٠ . ٨٧) هـ ديلاكروا .
 شرحه ص ١٧٢ . ٨٨) هـ فوسيون : حياة الأشكال ص ١١٤ - ١١٥
 ٨٩) الأدب . طبعة بلياد . جزء ثان ص ٥٥١ . ٩٠) سر المهنة
 ٩١) كتاب شاطيء . ٩٢) أنظر ص ٨٢ - ٨٥ . ٩٣) شرحه .
 ٩٤) جـ سامسون . شرحه ص ٣٧ .

المادة والشكل :

- (١) جيلسون : فن التصوير والحقيقة ص ٥٤ - ٥٥ (٢٠٠٥) حياة
الأنشكال ص ٥١ و ٥٦ (٣٠٠٥٦) شرحه ، جيلسون ص ١٧٨ .
(٤) شرحه ص ٣٧ (٥٠٠٣٧) منوعات ص ٦٢ (٦٠٠٦٢) مذكرات عن فن
التصوير اليوم ص ٢٩ (٧٠٠٧) هـ بوييه : فن المجوهرات الفرنسي في
القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ص ١٥٤ (٨٠٠٨) مذكرات ١١ أبريل
١٨٢٤ (٩٠٠٩) رنيه هويج : حديث مع المرثى ص ١٩٩ (١٠٠١٠) ج .
سامسون : قواعد الأغنية الموسيقية الجماعية ص ٢٩ - ٣٠ .
(١١) رولان مانويل : متعة الموسيقى جزء أول ، ص ١٠٣ (١٢٠٠١٢) التأملات :
رد علمي وثيقة اتهام (تابع) (١٣٠٠١٣) مذكرة الى بودلير (١٤٠٠١٤)
المدينة ، النسخة الثامنة ص ٢٩٥ (١٥٠٠١٥) ذكره ر . كيمب في « المعركة »
عدد ٢٢ مارس ١٩٤٥ (١٦٠٠١٦) مواقف واقتراحات جزء أول ص ٧١ .
(١٧) انظر ص ٥٢ (١٨٠٠١٨) شرحه ص ٥٧ (١٩٠٠١٩) شرحه ص ٥٢ -
٥٦ (٢٠٠٠٢٠) شرحه ص ٥٥ (٢١٠٠٢١) ج . سامسون : الموسيقى والأغاني
المقدسة ص ١١٠ (٢٢٠٠٢٢) شرحه ص ١٨ - ١٣٥ (٢٣٠٠٢٣) الآن . عشرون
درسا عن الفنون الجميلة ص ٢١٤ (٢٤٠٠٢٤) شرحه ص ٢١٥ (٢٥٠٠٢٥)
خطاب الى و . دى مونفريد . يونيه ١٨٩٢ (٢٦٠٠٢٦) الى ذات الانسان
ص ١٠٨ (٢٧٠٠٢٧) ذكره جيلسون في المرجع المذكور اعلاه ص ٢٠٦ - ٢٠٧
(في الملاحظات) (٢٨٠٠٢٨) الآن . شرحه ص ٢١٥ (٢٩٠٠٢٩) هـ . فوسيون .
شرحه ص ٥٦ (٣٠٠٠٣٠) جيلسون . شرحه ص ٦٦ (٣١٠٠٣١) هـ . فوسيون
شرحه ص ٥٦ (٣٢٠٠٣٢) هذه المقارنة مأخوذة من جاك لوران .
(٣٣) جيلسون . شرحه ص ٧٦ (٣٤٠٠٣٤) ج . لورسا ، ذكره ج . سامسون
في الموسيقى والأغاني المقدسة ص ١٦ - ١٧ (٣٥٠٠٣٥) جيلسون . شرحه
ص ٨٥ الى ٩٦ (٣٦٠٠٣٦) جيلسون . شرحه ص ٦٤ (٣٧٠٠٣٧) فوسيون .
شرحه ص ٥٧ (٣٨٠٠٣٨) شرحه ص ١١١ (٣٩٠٠٣٩) شرحه ص ١٠٧ .
(٤٠) شرحه ص ١٠٧ (٤٠٠٠٤٠) مذكرات ٢٥ يناير ١٨٥٧ (٤٢٠٠٤٢) هـ .
فوسيون شرحه ص ١٢١ (٤٣٠٠٤٣) شرحه ص ١١٤ - ١١٧ (٤٤٠٠٤٤)
سريبكاسو حققه هـ . ج . كلوزو (٤٥٠٠٤٥) شرحه ص ١١٨ (٤٦٠٠٤٦) ب .
بوك قلب فخور ص ١٨٧ (٤٧٠٠٤٧) هـ . فوسيون . شرحه ص ١٠٦ .

(٤٨) شرحه ص ٦٢ - ٦٥ . ٤٩) شرحه ص ٦٢ الى ٦٥ انظر كذلك ر .
 هويج شرحه ص ١٩٨ - ٢٠٤ . ٥٠) الفن ، احاديث جمعها ب . ج يل
 ص ١٠ مقدمة . ٥٢) شرحه ص ٢٥١ . ٥٣) مذكرات ١٨ سبتمبر
 ١٨٤٧ . ٥٤) شرحه ٤ فبراير ١٨٤٧ . ٥٥) س . ر . ليلى مذكرات
 حياة جون كونستابل ص ٢٧٦ . ٥٦) أصوات السكون ص ٢٨٣ - ٢٨٥
 ٥٧) السبع مصابيح لفن البناء ص ١٦٣ - ١٦٥ . ٥٨) نظرية الفنون
 الجميلة ص ١٩٩ - ٢٠٠ . ٥٩) بدائيات علم الجمال ص ٢١٢ - ٢١٣
 ٦٠ الان : نظرية الفنون الجميلة ص ٣٦ . ٦١) الى ذات الانسان
 ص ١٠٥

ظواهرية الفن

(١) احاديث في علم النفس التحليلي ص ١١٥ - ١١٦

فن التصوير والطبيعة :

- (١) افكار طبعة بورنشفيج رقم ١٢٤ . ٢) مفارقات ، جزء عاشر
 ٥ ، ٢٧ . ٣) الجمهورية - جزء اول - ١٠ - ٥٩٨ ن.ج.و ٦٠٢ ب
 (٤) القوانين جزء ثان ١٦٦٩ . ب ٥) انظر (١) فونتين : مذاهب الفن في
 فرنسا من لوسان الى ديدرو . فصل ١ - ٢ . ٦) فن الشعر .
 ٧) ذكر ١ ريشار : نقد الفن ص ٥٦ . ٨) خطاب الى السيد شاميرى
 ١ مارس ١٦٦٥ . ٩) خطاب الى السيد شانتلو ص ١١٦ . ١٠) (١٠)
 ديلاورد : انجر ص ١١٦ . ١١) امورى دوفال : اتيليه انجر ص ٦٠ .
 ١٢) افكار انجر ، طبعة لاسيرين ص ٧٥ وما يتلوها . ١٣) شرحه
 ص ٧٧ . ١٤) ب . جزيل ص ٨ مقدمة ١٥ . ١٥) شرحه ص ٣٠ -
 ٣٥ . ١٦) شرحه ص ٨ - ٩ مقدمة و ٣١ - ٥١ . ١٧) شرحه
 ص ١٣ مقدمة ٣٠ - ٣١ - ١٢٣ - ١٣٤ - ١٦١ - ١٦٢ . ١٨) مذكرات
 ٧ مايو ١٨٤٧ و ٥ مارس ١٨٤٩ . ١٩) تقابل الفنون ص ٢٤٥ .
 ٢٠) كرامياتى ص ٢٥ . ٢١) الأعمال الأدبية جزء اول ص ٧٦ .
 ٢٢) الى ذات الانسان ص ١١ . ٢٣) يلوح أن آخرين قد افلحوا
 فهناك « معركة » حول « اوداليسك » انجر . ٢٤) (١) لهوت فن
 التصوير والقلب والروح ص ٦٤ - ٦٦ - ٧٢ - ٧٩ . ٢٥) اراء ،
 جمعت في كتاب « سيزان » تأليف ب . دوريفال . ٢٦) فرومنتان :
 عام على الساحل . ٢٧) فاليري مقطوعات عن الفن ص ١٩٣ .
 ٢٨) اصوات السكون ص ٢٩٤ . ٢٩) مذكرات اول سبتمبر ١٨٥٩
 ٣٠) مذكرات ل . دى فنشى ، ترجمة لويز سرفسيان جزء ثان ص ٢١٠ -
 ٢١١ . ٣١) مذكرات اول سبتمبر ١٨٥٩ . ٣٢) ديلاكروا ، شرحه ١٣
 يناير ١٨٥٧ . ٣٣) شرحه اول سبتمبر ١٨٥٩ . ٣٤) فن التصوير
 والحقيقة ص ٢٦٢ - ٢٦٣ . ٣٥) مذكرات ٢٢ فبراير ١٨٦٠ .
 ٣٦) نظريات : ص ١ و ٢٦ . ٣٧) بينيه (سر فن التصوير السنة
 السيكلوجية ١٩٠٩) وقد استعاده ابرادين في نظرية علم النفس العام

جزء ثان ص ٢٩٤ وما يتلوها ٠٠ (٣٨ س ٠ ر ٠ ليسلى : مذكرات حياة جون كونسابل ص ٢٧٨ و ٢٨١ ٠ ٣٩) بودلير : صالون ١٨٤٦ في أعماله طبعة بلياد ص ٦٣١ ٠ (٤٠ نظريات ص ٣ - ٢٣ - ٩٨ - ٢٦٨ ٠ ٤١) آراء انجر ص ٥٩ ٠ (٤٢ مذكرات ١٠ يوليه ١٨٤٧ ٠ ٤٣) شرحه ٢٣ أبريل ١٨٥٤ ٠ (٤٤ شرحه ٢٨ أبريل ١٨٥٤ ٠ ٤٥) أعماله طبعة بلياد ص ١١٤٦ ٠ (٤٦ مذكرات ٢٦ أبريل و ١٢ أكتوبر ١٨٥٣ ٠ ٤٧) خطاب الى بودلير ٨ أكتوبر ١٨٦١ ٠ (٤٨ أنظر جيلسون ص ٢٣٨ - ٢٥٧ : فن التصوير والصور ٤٩) أسس الفن الحديث ص ٨٢ ٠ (٥٠ الى ذات الانسان ص ٩١ ٠ ٥١) صالون ١٨٤٥ : أعماله ص ٥٧٨ ٠ (٥٢ مذكرات أول مارس ١٨٤٧ ٠ ٥٣) شرحه ١٣ أبريل ١٨٤٧ ٠ (٥٤ شرحه ٢٢ يونيه ١٨٦٣ ٠ وهذه آخر سطور مذكراته ، حيث مات في ٣١ أغسطس من نفس العام ٠ ٥٥) أعماله ص ٩٠٣ - ٩٠٤ ٠ (٥٦ ص ٥٨٦ - ٦٣٥ - ٧٦٤ - ٩٠٤ ٠ ٥٧) ص ٧٦١ - ٧٦٤ ٠ (٥٨ ص ٦٠٤ - ٦٥١ - ٧٦٩ ٠ ٥٩) ص ٦١٢ - ٦١٤ - ٨٠٤ ٠ ٩١٨ ٠ (٦٠ ص ٦١٥ - ٦٩٧ ٠ ٦١) ص ٧٦٥ - ٧٧١ - ٧٧٢ ٠ (٦٢ ص ٧٦٥ - ٧٦٦ - ٧٦٨ ٠ ٦٣) آراء عن الأدب والفن ص ١١ - ١٥ - ٢٣ - ٥٥ ٠ (٦٤ ٢٤ - ٢٥ - ٢٩ - ٣٤ ٠ ٦٥) ص ٢ - ٤٥ - ٥٢ - ٥٣ ٠ (٦٦ ص ٣٦ - ٤٦ - ٤٧ ٠ ٦٧) ص ١٥ - ٤٨ ٠ (٦٨ أصوات السكون ص ١٨٠ - ٢٩٣ ٠ ٥٣٨ ٠ ٦٩) ص ٥٢ ٠ (٧٠ ص ١٢٣ - ١٢٤ وسيكولوجية الفن جزء أول ص ١١٤ ٠ ٧١) ص ١٠٥ - ١٠٦ - ١١٠ ٠ (٧٢ ص ١١٠ - ٤٥٩ ٠ ٧٣) جيلسون ٠ شرحه ص ٢٨٦ ٠ (٧٤ أنظر م ٠ راجون : مجازفة الفن التجريدي ص ٢٥ - ٢٦ ٠ ٧٥) شرحه ص ١٣٩ ٠ (٧٦ م ٠ برليون : الفن التجريدي ص ١٤ ٠ ٧٧) نصوص سردها ر ٠ هويج في كتاب الفن المعاصر - ر ٠ ب ريجامى : الفن المقدس في القرن العشرين ؟ مجلة «كوى» أكتوبر ١٩٥٥ ٠ (٧٨ ف ٠ هنرى ٠ الفن الايرلندي في العصر المسيحي الأول ، ذكره م ٠ بريون شرحه ص ٧٦ ٠ ٧٩) م ٠ بريون ، شرحه ص ٢٥ ٠ ٨٠) شرحه ص ٣٣٠ - ٣٣١ ٠ (٨١ أنظر في كتاب ر ٠ هويج ، الصور ٩٤ - ٩٥ ٠ ٨٢) أنظر في كتاب مالرو (شرحه)

الصور في صفحات ١٤٠ - ١٤١ (٨٣ . شرحه ص ٢٨٤ . ٨٤) شرحه
 (٨٥) ديكا والرقص والرسم في أعماله طبعة بليياد جزء ثان ص ١٢٢١
 (٨٦) ١٠ برنارد : مذكرات عن ب . سيزان ص ٧٢ و ٩٢ . ٨٧) انظر
 ص ٢٨ . ٨٨) ر . ب . ريجامى . انظر ص ٢٢٩ - ٣٠٠ . ٨٩)
 شرحه .

الشعر والعقل :

(١) مذكرات عن انجار بو ، في طبعة سيجرس ، فن الشعر ص ٣٢١
 (٢) منوعات ص ٩٣ . ٣) احاديث مع ايبكرومان ٤ مايو ١٨٢٧ .
 (٤) مقدمة « معرفة الآلهة للوسيان فابر . ٥) الفانوس السحري ، في
 طبعة سيجرس ص ٤٦٧ . ٦) مواقف وآراء جزء أول ص ٨٧ .
 (٧) راسين وفاليري ص ١٩٥ وما يتلوها . ٨) الادب . طبعة بليياد
 جزء ثان ص ٥٥٥ . ٩) راسين وفاليري ص ١٥ من المقدمة .
 (١٠) مشروع مقدمة لديزان ازهار الشر ص ١٣٦٥ . ١١) منوعات
 ص ٩٥ . ١٢) خطاب الى بيير دى ماسو . ١٣) مقدمة ، مختارات
 من الشعر المكسيكى . ١٤) ه . بريمون : الشعر الخالص ص ٢٣ -
 ٢٥ . ١٥) منوعات ص ٧١ . ١٦) الادب . طبعة بليياد جزء ثان
 ص ٥٥٦ . ١٧) مذكور في كتاب راسين وفاليري ص ٤٦ . ١٨)
 الشعر الخالص ص ١٨ . ١٩) الادب طبعة بليياد جزء ثان ص ٥٥٧
 ٢٠ و ٢١) انظر ص ٢٠ - ٢١ . ٢٢) صواريخ . طبعة بليياد ص
 ١١٨٩ . ٢٣) راسين وفاليري ص ١٧٣ - ١٧٤ . ٢٤) ملحق
 عادى في طبعة سيجرس ص ٤٦٦ . ٢٥) فلسفة التركيب الموسيقى ،
 في ثلاث بيانات ترجمة رينيه لالو ص ٦٣ - ٦٤ . ٢٦) المعطيات
 المباشرة للضمير ص ١١ . ٢٧) راسين وفاليري ص ١٢٣ . ٢٨)
 شرحه ص ١٣٦ - ١٤٤ - ١٤٥ . ٢٩) مواقف وآراء . جزء أول
 ص ٥٥ - ٥٧ . ٣٠) فاليري : منوعات جزء ثالث ص ٥٤ . ٣١) الروح
 والرقص ص ٢٩ . ٣٢) نصائح لشاعر وشاب ، طبعة سيجرس
 ص ٤٧٥ . ٣٣) مواقف وآراء جزء أول ص ٦٠ . ٣٤) بريمون :
 راسين وفاليري ص ١٨٧ . ٣٥) عشرون درسا في الفنون الجميلة ص
 ٤٠ - ٦٦ - ٢٩٢ . ٣٦) ف . بوسيل : دفاع من اجل الجسد ص

- ١١٨ . ٢٧) منوعات - جزء رابع ص ١٤٨ . ٢٨) ص ١٧١ .
- ٢٩) دراسات في علم النفس اللغوي ، الفكرة والحركة - أنظر ف . لوفيفر : السيكولوجية الجديدة للغة (عود الذهب) . ٤٠ . أنظر ص ١٠٥ . ٤١) رياح . جزء ثالث ص ٦ . ٤٢) في المرأة . طبعة سيجرس ص ٦٤٥ . ٤٣) سارتر : ما هو الأدب ؟ طبعة سيجرس ص ٦٤٧ . ٤٤) ميلاد عند التفكير في فن الشعر ، طبعة سيجرس ص ٦٢٣ . ٥٤) سر المهنة . شرحه ص ٤٨١ . ٤٦) م . برادين : أنظر في علم النفس العام . جزء ثان ص ٣٢٧ - ٣٣١ . ٤٧) فاليري : منوعات جزء ثالث ص ٥٤ - ٦٧ - ٦٨ . ٤٨) كوكتو . أنظر شرحه ص ٨٤٣ . ٤٩) مواقف وآراء . جزء أول ص ١٧ - ٦٨ . ٥٠) عشرون درساً في الفنون الجميلة ص ٩٥ . ٥١) بريسون : راسين وفاليري ص ١٦٧ . ٥٢) م . برادين ، شرحه ص ٢٢٣ . ٥٣) متفرقات . جزء ثالث ص ٤٨ . ٥٤) شرحه ص ٤٢ . ٥٥) راسين وفاليري ص ١٨١ . ٥٦) شرحه ص ٥١ . ٥٧) شرحه ص ١٨٤ . ٥٨) شرحه ص ١٧٥ - ١٧٧ . ٥٩) أنظر ص ٢٣٠ وما يتلوها . ٦٠) الأدب في أعماله . جزء ثان ص ٢٥٤ . ٦١) منوعات . جزء ثالث ص ٥٤ و ٦٨ . ٦٢) شرحه ص ٦٦ - ٦٧ . ٨٢ . ٦٣) أدب وفلسفة مختاطان . ٦٤) مجلة العاملين ١٨٤٧ جزء ثالث ، و « ارتيست » ١٤ ديسمبر ١٨٥٦ . ٦٥) مراسلات جزء ثالث ص ١١٦ . ٦٦) فاليري : منوعات جزء ثالث ص ٧١ . ٦٧) آلان : عشرون درساً في الفنون الجميلة ص ١٠٣ . ٦٨) آلان . شرحه ص ٩٤ - ١٠٢ - ١٠٣ - ١٠٥ . ٦٩) في الزى الرسمي . طبعة سيجرس ٥١٣ . ٧٠) مذكرات . جزء أول ص ١٤ . ٧١) م . رادين . شرحه ص ٣٢٩ . ٧٢) منوعات . جزء ثالث ص ٦٨ - ٦٩ . ٧٢ب) مواقف . ٧٣) كيف تقرض الشعر ، في شعر ونثر (مختارات) ترجمة ايليا تربوليه . ٧٤) منوعات جزء ثالث ص ٧٤ - ٨٠ - ٨٢ . ٧٥) شرحه ص ٦٨ - ٧٣ . ٧٦) نفس غير مدركة ص ٤٥ . ٧٧ و ٧٨) مذكرات ص ٨٩١ و ١٢٢٣ . ٧٩) نكره فاليري . منوعات . جزء خامس ص ١٤١ . ٨٠) مقدمة

مختارات من الشعر المكسيكي ٠ (٨١) الألب (أعماله جزء ثان
ص ٥٤٨ - ٤٤٢) ٠ (٨٢) منوعات ص ١٠١ - ١٠٢ ٠ (٨٣) منوعات
جزء ثالث ص ٧٠ ٠ (٨٤) الشعر الخالص ص ١٦ ٠ (٨٥) راسين
وفاليري ص ١٩٨ ٠ (٨٦) شرحه ص ١٨٣ ٠ (٨٧) شرحه ص ١٩٨
(٨٨) هـ ٠ ديلاكروا : سيكولوجية الفن ص ١٠٢ ٠ (٨٩) تريستان
نزار : « ضح كل الكلمات في قبعة ، واسحب منها بالصدفة ٠ هذه هي
قصيدة دادا » ٩٠ شرحه ص ١٠٣ - ١٠٤ ٠ (٩١) الروح الجديدة
والشعراء طبعة سيجرس ص ٤٣١ ٠ (٩٢) شرحه ص ٤٢٤ ٠
(٩٣) أنظر م ٠ دي سان بيير : أضحوكة الشعراء في مجلة انعكاسات
الزمن ٠ نوفمبر ١٩٥٥ ٠ (٩٤) مواقف وآراء جزء أول ص ١٠ ٠
(٩٥) منوعات ص ٩٦ ٩٢ (كلوديل ٠ شرحه ص ٩٨ ٩٧) فاليري شرحه
ص ٦٣ ٩٨ (الآن ٠ شرحه ٤٠ ٩٩) منوعات ص ٨٧ ١٠٠ (المقدمة
المذكورة ٠

الموسيقى والعاطفة :

(١) أحابيث فرانسوا دي هولاند (٢) ص ١٠٦ ٣ (نكره دو هاميل
في : الموسيقى تثبت العزاء ٤) موزار ٠ خطاب مورخ ٦ ديسمبر ١٧٧٧
٥ (سترافنسكي : شاعرية الموسيقى ص ١٤٦ ٦) رولان مانويل : قبعة
الموسيقى جزء ثالث ص ٥٠ ٧) ج ٠ سامسون ٠ الموسيقى والحياة
الداخلية ص ٥١ ٨) ج ٠ سامسون ٠ شرحه ص ٤٨ ٩) كومبارلو :
الموسيقى ، قوانينها وتطورها ص ١٣٣ - ١٣٤ ١٠ (نصوص ذكرها
هـ ٠ ديلاكروا في « سيكولوجية ستانندال ص ١٨٩ - ١٩٥ ١١) الفن
الرومانتيكي ٠ بلياد ص ١١٢٤ - ١٥٢٥ ١٢ مفكرات جديدة عن
ادجاربو ص ١٠٢٣ ١٣) منبع الأخلاق والدين ص ٣٦ - ٣٧ ١٤ (شرحه
ص ٤٣ ١٥) شرحه ص ٣٥ - ٣٧ ١٦) ج ٠ سامسون شرحه ص
٩٩ - ١٠٠ ١٧ (سترافنسكي شرحه ص ١٦٦ ١٨) أنظر ص ٢١ ١٩
نكره ل ٠ فالامر : أفكار كلود بيرمي ٢٠) أنظر جزء أول ص ١٩٥ ،
٢٧٥ ٢١ (٢٧ أبريل ١٨٤٩ ٢٢) أنظر ص ١٢٢ ٢٣ (رولان مانويل
شرح جزء ثالث ص ١٨٠ ٢٤) نكره رولان مانويل ٠ شرحه جزء أول

ص ٢٨٣ ٢٥) ج . سامسون . شرحه ص ٧٩ - ٨٠ ٢٦ (فاليري .
 مقطوعات عن الفن ص ٩١ - ٩٢ ٢٧) ج . سامسون . شرحه ص
 ١٨٢ - ١٨٣ ٢٨) م . بوريسا تليفتش : مؤتمر علم الجمال عام ١٩٢٧
 جزء ثان ص ٤٩٢ ٢٩ (شرحه ٣٠) ١ . بوشيه أنظر ص ٥٦ ٣١ (ب .
 سيرفيان : الاوزان كتقديم محسوس لعلم الجمال ص ٤٤ ٣٢ (اشعار
 ذهبية ص ٤٧ ٣٣) المدخل الى الفلسفة في أعماله الكاملة جزء اول
 ص ١٥١ وجزء ثان ١١٤ - ١١٦ . أنظر أيضا برونشفيج . دور
 الفيتاغورث في تطور الأفكار ٣٤ (تبعاً لما ذكره اتيين سوريو في تقابل
 الفنون ص ٢٢٨ ، ١٩٤ . ملاحظة رقم ١ (٣٥) ١ . سوريو . شرحه
 ص ٢٢٩ ٣٦ (أنظر ص ٤٤ ٣٧) شرحه جزء اول ص ١٩٩ ، ٢٧٩ ٣٨
 الضمير الذاتي ص ٢٣٣ ٣٩ (رولان مانويل شرحه جزء اول ص ٢١٧
 ٤٠) ج . بريليه : الموسيقى بناء زمني في « جورنال علم النفس » عدد
 يناير - مارس ١٩٤٠ ص ٨٩ (٤١) التجربة السيكلوجية للزمن .
 مجلة . الميتافيزيقا والأخلاق . عدد أبريل ١٩٤١ ص ٨٣ ٤٢ (ج .
 بريليه : المقال المذكور أعلاه ص ٩٠ ٤٣) الزمن والتوازي ص ٥٥
 ٤٤) هـ . ديلاكروا : سيكلوجية الفن ص ٢٢٥ ٤٥ (ص ١٦٠ ٤٦) بحث
 في الفن ٤٧ (أنظر شرحه جزء اول ص ٣٠ ، ١٩٩ ٤٨) بيرجسون :
 الضحك ص ١٦١ (٤٩) ج . سامسون . شرحه ص ١٤٨ (٥٠) ب . لاسير
 فلسفة الذوق الموسيقي ص ٩٢ (٥١) بورجيس دسيريان : الموسيقى
 والحياة الداخلية ص ١٣ (٥٢) شرحه ص ١٤ (٥٣) ب . لاسير . شرحه
 ص ١١٢ (٥٤) ج . برلين . المقال المذكور أعلاه ص ٧٢ (٥٥) شرحه (٥٦)
 ب . لاسير . شرحه ص ١١٠ - ١١١ (٥٧) بورجيس وسنيريان . شرحه
 ص ٩ (٥٨) التناسق والميلوديا ص ١٢ (٥٩) خطاب الى شوت في سبتمبر
 ١٩٢٤ ومجاذبات مع بيتنا (٦٠) السر في الضوء الكامل ص ٧٠ (٦١) ج .
 سامسون . شرحه ص ١١٤ - ١١٧ (٦٢) حديث اذاعي في ٢٩ نوفمبر
 ١٩٥٠ (٦٣) كومباريو شرحه ص ٢٢٨ (٦٤) رولان مانويل شرحه جزء
 اول ص ٢٢٧ وجزء ثالث ص ٤٣ (٦٥) رولان مانويل . شرحه جزء
 اول ص ٢٢٩ (٦٦) ذكره ج . سامسون . شرحه ص ١٣٥ (٦٧) شرحه
 ص ١٦٧ (٦٨) شرحه ص ١٥٩ (٦٩) ل . لالوا : رامو ص ١٧٩ (٧٠)
 خطاب في ٢٦ يوليو ١٧٨١ (٧١) رولان مانويل . شرحه جزء اول ص

٢٦ (٧٢) ج٠ سامسون٠ شرحه ص ١٢٥ - ١٣٦٠

عالم الفن :

(١) نظرية المشاعر ص ٩٩ ٢ (نظرية في المعطيات المباشرة للضمير ص ٩ - ١٣ (٣) أريا : الفن والسيكولوجية الفردية (٤) دورياك : نظرية في روح الموسيقى (٥) م٠ رادين : نظرية علم النفس العام جزء ثان ص ٢٦٣ (٦) شرحه ص ٢٦٩ (٧) شرحه ص ٢٥٤ - ٢٦٤ (٨) شرحه ص ٢٥٠ (٩) فاليري : الروح والرقص ص ٥١ - ٥٢ (١٠) شرحه٠ انظر جزء ثالث ص ٢٤٠ (١١) أعماله الكاملة٠ طبعة بلياد ص ١٠٢٣ (١٢) ذكره كوتورييه : الفن والحرية الروحية ص ٢٧ (١٣) ه٠ ديلاكروا : سيكولوجية الفن (١٤) مدموازيل دي موبان : مقدمة (١٥) صورة دوريان جرائ٠ مقدمة (١٦) آلان : نظرية الفنون الجميلة ص ١٨٨ (١٧) شرحه ص ١٧٥ (١٨) المصاييح السبعة لفن البناء ص ١٤٥ (١٩) ب٠ دي كولومبييه : أجمل النصوص من كبار الفنانين ص ١٤٠ (٢٠) تقابل الفنون ص ٢١١ ملاحظة ٢ (٢١) كما هو الحال عند السيد رينيه هوريچ : حديث مع المرثى ص ٩٠ وما يتلوها ص ٢٩٠ وما يتلوها (٢٢) « عودة الزمن » مأخوذة من كتاب « في البحث عن الوقت الضائع » (٢٣) السجينة٠ طبعة بلياد جزء ثالث ص ٢٥٩ (٢٤) شرحه ص ٣٧٨، ٣٧٧ (٢٥) في ظل العذارى المزهريات٠ طبعة بلياد٠ جزء أول ص ٥٥٣ (٢٦) السجينة٠ طبعة بلياد٠ جزء ثالث ص ٢٥٦ - ٢٥٧ (٢٧) أعماله الأدبية٠ جزء أول ص ٢٨ (٢٨) ملحق المذكرات٠ جزء ثالث ص ٤٠٢ ، ٤٠٥ (٢٩) الفن الرومانتيكي٠ طبعة بلياد ص ١٠٢٩ (٣٠) خطاب الى بنجامان ريلي في نوفمبر ١٨١٧ (٣١) مراسلات جزء ثان ص ٢٨٤ (٣٢) مذكرات ٢٧ فبراير ١٨٢٤ (٣٣) خطابات الى شقيقه تيو ، خطاب ٤١٨ (٣٤) ما دامت هناك واقعية٠ طبعة بلياد ص ٩٨٥ (٣٥) مقدمة لمختارات من الشعر المكسيكي (٣٦) بالقرب من بيت سوان٠ طبعة بلياد لمختارات من الشعر المكسيكي (٣٦) بالقرب من بيت سوان٠ طبعة بلياد بالقرب من بيت سوان٠ جزء أول٠ ص ٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٢٥٢ (٣١) في ظل٠ جزء أول ص ٥٥٠ (٤٠) عودة الزمن جزء ثالث ص ٧١٨ (٤١) شرحه ص ٩٠٠ (٤٢) شرحه ص ٨٨٥ (٤٣) شرحه (٤٤) شرحه ص ٨٨٩

(٤٥) شرحه ص ٨٨٥ (٤٦) شرحه ص ٨٨٢ (٤٧) شرحه ص ٨٨١ (٤٨) مقال مأخوذ من : تحية آل جاك ريفير في مجلة ن . ر . ف . (٤٩) أنظر جزء ثالث ص ٨٨٩ (٥٠) النهار والليل ص ٢٧ (٥١) ج . هيرشن الكائن والشكل ص ١٧ ، ١٨ (٥٢) مذكرات ٣ أكتوبر ١٨٤٩ (٥٣) تقابل الفنون ص ٢٧٠ (٥٤) شرحه ص ٢٥٣ (٥٥) شرحه ص ٢٦٠ (٥٦) شرحه ص ٢٦٣ (٥٧) شرحه ص ٢٧٧ - ٢٧٨ (٥٨) بالقرب من بيت سوان . طبعة بلباد جزء أول ص ٢١٢ (٥٩) م . نيدونسيل : المدخل الى علم الجمال ص ٢٥ - ٢٦ (٦٠) م . نيدونسيل . شرحه ص ٢٨ (٦١) شرحه ص ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ (٦٢) فن التصوير والحقيقة ص ٢٤ وما يتلوها (٦٣) م . نيدونسيل شرحه ص ٣١ (٦٤) شرحه ص ٤٨ (٦٥) أنظر فيما يخص هذا : جيلسون . شرحه والفصل الأول (٦٦) م . نيدونسيل . شرحه ص ٢٠ (٦٧) شرحه ص ٢٩ ، ٣١ (٦٨) مذكرات ٢٦ أبريل ١٨٤٧ (٦٩) شرحه ص ٢٣ (٧٠) جيلسون . شرحه ص ١٤١ (٧١) أنجر كما يحكى عن نفسه وكما يحكى عنه أصدقائه ص ٤٤ (٧٢) لالو : علم الجمال ص ٥ (٧٣) أصوات السكون ص ٢٧٦ ، ٢٧٩ (٧٤) السيد كروتشه ضد هواية الموسيقى ص ٢٠ - ٢١ (٧٥) خطاب الى شارل كاموان في ٢٢ فبراير ١٩٠٣ (٧٦) ذكره بورنيكل : المبدعون والمقدس ص ٦٣ (٧٧) فن التصوير والقلب والروح ص ٢٠٩ (٧٨) سوليلوك (٧٩) مقتطفات من مذكرات ب . كلى ومنحوتة على قبره (٨٠) مذكرات عن فن التصوير ص ٤٩ - ٦٢ وما يتلوها (٨١) أنظر فانسان أفلاطون ونظرية الحب في مجلة دراسات عدد أبريل ١٩٥٤ (٨٢) ج . بازين ص ٦٤ (٨٣) أوبالينوس ص ١٠٤

فلسفة الفن :

(١) بحوث الى الطريقة في علم الجمال ص ١١٣

(٢) شرحه ص ١٤٤ ، ١٢٨ - ١٣١

(٣) شرحه ص ١٢١ - ١٤٤

الفن والانسان :

- (١) انظر ص ١١٤ ٢) في ظل الفتيات المزهريات . جزء اول ص ٥٤٧ (٣) صور ادبية . مقال عن كورنى وكذا « الاثنانيات الجديدة »
 جزء ثالث ص ١٥ ٤) اصوات السكون ص ٤١٧ ٥) صور ادبية . جزء
 ثان ص ١١٥ ٦) ش. لالو : الفن بعيدا عن الحياة ص ٨ ٧) خطاب
 الى دور هاميل . جزء اول ص ١٦٢٨ (٨) مقدمة سانتيريكون (كتاب
 الحبيب ٩) عن جوهر الضحك . الأعمال الكاملة . طبعة بلياد ص
 ٧٢٠ ١٠) كتابى (١١) في ظل ٠٠٠ طبعة بلياد جزء اول ص ٥٥٤-٥٥٥
 (١٢) مالرو . شرحه ص ٤١٧ ١٣) مقدمة كتالوج معرض ب. م. ١٩٤١
 ص ٥ مقدمة ١٤) منوعات جزء اول ص ٦٧ - ٦٨ ١٥) افكار
 رديئة وخلافها . طبعة بلياد جزء ثان ص ٨٠١ ١٦) ضد سانت بيف
 ص ١٣٦ (١٧) موسية : الاستار الاولى الى صديقى ادوارد ب. (١٨)
 ١. شنييه . مقتطفات من جمهورية الانب ١٩) جرانزيللا ٢٠) م. كاروج
 القلب السريالى ، في دراسات كرمليتية ، القلب ص ٢٧٨ (٢١) المقدمة
 الاولى لكتاب ورد عيد الميلاد ٢٢) ماسيميليا بونى . المهزلة الانسانية .
 طبعة بلياد جزء تاسع ص ٢٨١ ٢٣) مذكرات . جزء ثان ص ٢٠٧ -
 ٢٠٨ ٢٤) نكره بريمون : راسين وفاليري ص ١٢ - ١٤ ٢٥) انظر ص
 ٢٧٦ ٢٦) أعماله طبعة بلياد ص ١٠٣٨ - ١٠٣٩ (٢٧) ب. دى شلوزر
 نكره لالو . انظر ص ١٥٥ (٢٨) ه. ديلاكروا . سيكولوجية الفن (٢٩)
 ج. بريليه : علم الجمال والابداع الموسيقى ص ٧٢ (٣٠) مالرو . شرحه
 ص ٢٥١ (٣١) تقابل الفنون ص ١٤٩ (٣٢) جزء اول ص ٢٥ (٣٣) ١.
 كاسانى : نظرية الفن للفن في فرنسا ص ٤٥٦ (٣٤) ١. جيلسون : مدرسة
 الموجيات ص ٢٣٢ - ٢٤٢ (٣٥) شرحه ص ٩١ - ٩٢ ، ١٥٦ ، ٢١٢
 (٣٦) مراسلات . جزء ثالث ص ٢٨٦ (٣٧) شرحه جزء ثالث ص ٣٠٦
 (٣٨) شرحه جزء ثان ص ٨٢ (٣٩) شرحه ص ٨٠ جزء ثالث ص ٣٦٧ (٤١)
 مقدمة لأشعار الاولى ٤٢) انظر جزء ثالث ص ١٧٤ وجزء ثان ص ٢١٢
 (٤٣) شرحه جزء ثالث ص ٢٢٧ - ٢٢٨ (٤٤) فيدر . نيوفيل جوتيه
 ص ٩٩ (٤٥) بارلى دورفيللى . مقدمة لكتاب عشيقه قديمة (٤٦)
 بولدير - الفن الرومانتيكى في أعماله الكاملة طبعة بلياد ص ١٠٢٢ (٤٧)

أنظر جزء ثالث ص ٧١ وجزء ثان ص ٧١ (٤٨) لماريتان : مسئولية الفنان . الفصل الأول (٤٩) أنظر جزء ثان ص ٧٦ (٥٠) شرحه جزء ثالث ٢٧٠ (٥١) شرحه جزء ثالث ص ٣٧٦ (٥٢) مذكرات سبتمبر ١٩٤٠ ص ٨٣ (٥٣) أنظر جزء ثالث ص ٢٣١ (٥٤) شرحه ص ١٧٠ (٥٥) شرحه ص ٣٤٢ (٥٦) شرحه ص ٣٤٤ (٥٧) شرحه ص ٨٠ (٥٨) ج . سامسون : الموسيقى والحياة الداخلية ص ٤٧ (٥٩) أنظر جزء ثالث ص ٣٦٧ (٦٠) شرحه ص ١٨٦ (٦١) ج . ريفير ور . فرنانديز النصح الأخلاقي والأدب ص ٨٧ ، ١٢١ - ١٢٢ ، ١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٤٦ (٦٢) فرانسوا موريك ومشكلة القصص الكاثوليكي في مجلة فيجيل . الكراسية الثالثة ١٩٣٣ ص ٩ الى ٨٢ (٦٣) فائدة الشعر ص ١٣١ (٦٤) ج . ماريتان . أنظر الفصل الثاني (٦٥) منوعات جزء ثان ص ٢٣٣ (٦٦) ل . لاندري الحساسية الموسيقية (٦٧) أنظر نهاية الفصل الثاني (٦٨) مسائر الشعر (٦٩) ويليام شكسبير ص ٢٤٤ (٧٠) مقدمة لوكريس بورجيا (٧١) مقدمة أعماله الكاملة ١٨٥١ (٧٢) مقدمة : لابن الطبعي (٧٣) لامنيه : هيكل فلسفة جزء رابع ص ٢٧٣ (٧٤) نظرية الأسلوب في « فن الشعر » طبعة سيجرس ص ٦٢٠ (٧٥) ج . بيكون : مالرو كما يرى نفسه ص ٦٦ (٧٦) خطاب من السويد (٧٧) ملخص الصحف (٧٨) أنظر م . بيانزولا : المصورون والفلاحون (٧٩) توضيح (٨٠) هـ . بيروشو : الفن الحديث خلال العالم ص ١٦٤ - ١٧٨ (٨١) كيف تقرض الشعر في « فن الشعر » طبعة سيجرس ص ٥٣٢ (٨٢) ب . ر . ريجامى : فن مقدس في القرن العشرين ؟ ص ٢٤٠ (٨٣) شرحه ص ٢٦٨ (٨٣) شرحه ص ٢٦٨ (٨٤) أنظر ج . جوديه : الكاثوليكية والشعر في حقبة مانزولى (٨٥) ريجامى شرحه ص ٢٥٧ (٨٦) الموسيقى والحياة الداخلية ص ٢٣٨ ومايتلوها .

الفن والأخلاق :

(١) كتلك التي توجد عند ب . سيرتيلانج مثلا في « الفن والأخلاق »
(٢) الفن والأخلاق في حديث المعركة . سلسلة أولى ص ٦٩ - ٧٠ -
٩٧ (٣) شرحه ص ٧٠ (٤) نظرية الفنون الجميلة ص ٥٣ (٥) أنظر ستونيه في كتاب « كما عاشوا وكانوا » ص ٩٣ (٦) فكرة جامعة جزء قاطع - ٨ ترجمة ديلاتر (٧) ج . جاكميه : الفن والأخلاق في مجلة

« كاثوليكية » جزء أول مجموعة ٨٧٦ (٨) القصة والطاقة الوطنية نداء
 الى الجندی ص ٣٠٦ (٩) أنظر ص ١٠٧٧ ؛ شرحه ص ٧٧ - ٧٩ (١١)
 مذكرات ٧ مايو ١٨٢٤ (١٢) د فون هيلدنبراند : التقاء العزيرة ص
 ٨٥ - ٨٩ (١٣) أنظر شرحه ص ٩٢ ١٤ (١٤) شرحه ص ١٤ ١٥ الشعرية
 جزء رابع ١٤٤٩ ب (١٦) حديث ثان عن شعر الماسي (١٧) عن
 المانيا جزء ثان فصل ٢٧ ١٨ (السياسة ١ - جزء ثامن ١٣٤١ ب وسا
 يتلوهما ، ١٢٢٧ ب - تفسير ج - هاردي في مقدمة الشعر - مجموعة ج -
 بوديه ص ١١ - ٢٠ - ١٩ (١٩) ٦٠٦ (١) ٢٠ (٢٠) نظرية الفنون الجميلة ص
 ٥١ - ٥٧ (٢١) شرحه ٤٠ - ٤٩ - ٦٠ (٢٢) عشرون درسا في الفنون
 الجملة ص ٢١ (٢٣) نظرية ٠٠ ص ٥٨ (٢٤) بدائيات علم الجمال
 ص ١٠٤ (٢٥) عشرون درسا ص ٢٨ - ٢٩ (٢٦) نظرية ٠٠٠ ص ٦٠
 (٢٧) بدائيات ٠٠ ص ٦٤ (٢٨) عشرون درسا ص ٤١ (٢٩) شرحه ص ٥٤
 (٣٠) نظرية ص ٤٥ (٣١) صلاة وشعر ص ١٨٧ - ١٨٩ (٣٢) ج - حاكميه
 المقال المذكور مجموعة ٨٧٣ (٣٣) شرحه - مجموعة ٨٧٤ (٣٤) شرحه
 انظر ص ٨٨ - ١٠٨ - ١٠٩ (٣٥) م - س - جيليه : تعليم القلب ص
 ١٦٥ (٣٦) مقدمة كلود جيه - (٣٧) م - كورتيه الفن والحمية الروحية
 ص ١٦٠ (٣٨) ج - ماريتان : تسع دروس عن المعلومات الاولى في فلسفة
 الاخلاق ص ٦٦ ، ٧٠ (٣٩) ج - ماريتان : مسئولية الفنان - فصل ثان
 (٤٠) مراسلات - جزء رابع ٢٣٠ (٤١) ا - كاساني : نظرية الفن للفن
 في فرنسا ص ٢٥٨ (٤٢) ج - جاكميه - المثال المذكور - ٨٧٣ - ٨٧٥ -
 (٤٣) أنظر فصل ثالث - (٤٤) ج - جاكميه المثال المذكور ٨٧٣ - ٨٧٦
 (٤٥) السجينه - طبعة بليارد جزء ثالث ص ٢٦٤ -

الفن والميتافيزيقا :

(١) مقتطفات ص ٥٨ - (٢) تخطيطات - كتاب اداة روحية - (٣)
 الخيالات الداخلية في طبعة سيجرس - فن الشعر ص ٢٩٨ - (٤) مذكرات
 خاصة جزء اول ص ٢٦٩ - (٥) بيان السريالية ص ٨٩ (٦) الخطوات
 الضائعة ص ١٩٧ - ١٩٨ - (٧) الاوانى المستطرفة - (٨) بيان -
 ص ٣٥ - (٩) ب - ريفردي : القفاز الجلدی ص ١٣ ، ٢٩ - (١٠)
 الفكرة والمتحرك ص ٢٩٥ - (١١) شرحه ص ١٦٥ - (١٢) التطور
 الابداعي ص ١٦٦ (١٣) المادة والذاكرة ص ٢٥٥ (١٤) شرحه
 ص ٢٣٢ - (١٥) شرحه ص ٢٠٣ - (١٦) الفكرة والمتحرك ص ٣٥ -
 ٣٦ (١٧) شرحه ص ١٦٨ (١٨) شرحه ص ١٧٠ (١٩) الضحك

- ص ١٦١ . (٢٠) الفكرة والمتحرك ص ١٧٣ . (٢١) شرحه ١٧١ ،
 ١٧٤ . (٢٢) الضحك ص ١٥٨ . (٢٣) شرحه ص ١٥٦ - ١٦٦ .
 (٢٤) الفكرة والمتحرك ص ٢٩٤ . (٢٥) شرحه ص ٢١٠ . (٢٦) شرحه
 ص ٢٩٤ . (٢٧) شرحه ص ١٠٨ - ١٠٩ . (٢٨) شرحه ص ٢٠٥ .
 (٢٩) شرحه ص ١٥٨ . (٣٠) المعطيات المباشرة ص ١٢ (٣١) المنبعان
 ص ٤٠ . (٣٢) شرحه ص ٤٢ . (٣٣) شرحه ص ٤٣ - ٤٤ . (٣٤)
 شرحه ص ٢٧٠ - ٢٧١ . (٣٥) الفكرة والمتحرك ص ٢٩٤ . (٣٦)
 المعطيات المباشرة ص ١٠٠ . (٣٧) المنبعان ص ٢٧٢ . (٣٨) أصوات
 السكون ص ١١٤ . (٣٩) ١ . وج . برانكور : الاعمال والاضواء ص
 ١٢٣ . (٤٠) بحوث في الطريقة في علم الجمال ص ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ .
 (٤١) شرحه ص ٣٨ - ٣٩ . (٤٢) انظر شرحه ص ١١٦ . (٤٣) شرحه
 ص ٢٧٨ . (٤٤) شرحه ص ١١٦ . (٤٥) مالرو : ساتيرن ص ٨٣ .
 (٤٦) أصوات السكون ص ٦٤٦ . (٤٧) برانكور . شرحه ص ٤٨ .
 (٤٨) انظر شرحه ص ٢١ . (٤٩) شرحه ص ١٤٤ - ١٤٥ . (٥٠)
 سيكولوجية الفن ص ١٣٢ . (٥١) شرحه ص ١٥٦ . (٥٢) شرحه ص
 ٨٠ - ٨١ . (٥٣) ر . بايير انظر شرحه ص ٩٧ . (٥٤) شرحه ص
 ٨٠ . (٥٥) شرحه ص ٦٣ . (٥٦) شرحه ص ٦٤ . (٥٧) شرحه
 ص ٦٥ . (٥٨) شرحه ٦٨ . (٥٩) شرحه ص ٦٦ . (٦٠) شرحه ص
 ٦٩ . (٦١) شرحه ص ٣٥ . (٦٢) شرحه ص ٣٢ ، ٣٤ . (٦٣)
 شرحه ص ٣٦ . (٦٤) شرحه ص ٥٤ - ٥٥ . (٦٥) شرحه ص ٥٦ .
 (٦٦) أصوات السكون ص ٢٧٢ . (٦٧) شرحه ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .
 (٦٨) الفكرة والمتحرك ص ٢٠٦ - ٢١٠ . (٦٩) ر . بايير انظر شرحه
 ص ٢٥ . (٧٠) شرحه ص ٢٣ - ٢٤ . (٧١) شرحه ص ٩٧ - ٩٨ .
 (٧٢) الضحك ص ١٥٣ . (٧٣) ر . بايير انظر شرحه ص ١٠٠ الى ١٥٠ .
 (٧٤) شرحه ص ١٠١ - ١٠٦ . (٧٥) شرحه ص ٢٨ و ٤٢ .
 (٧٦) شرحه ص ٢٨ . (٧٧) انظر شرحه ١٣١ - ١٣٢ . (٧٨) انظر
 شرحه ص ٢٨ . (٧٩) برانكو - انظر شرحه ص ٤٨ . (٨٠) الفكر
 والمتحرك ص ١٥٢ . (٨١) خطاب الى هونديج في ١ . تيوديه :
 البرجسونية جزء ثان ص ٥٩ . (٨٢) انظر شرحه ص ٢٦ - ٣٠ .
 (٨٣) الفكرة والمتحرك ص ١٧١ . (٨٤) شرحه ص ١٣٠ - ١٣١ . (٨٥)
 برانكو : انظر شرحه ص ١١١ . (٨٦) شرحه ص ١١٣ . (٨٧) شرحه

ص ١١٤ - ١١٥ (٨٨) شرحه ص ١١٨ . (٨٩) ر . بايير . انظر
ص ٤٧ (٩٠) مواقف وآراء جزء أول ص ١٦٥ (٩١) انظر -
شرح ص ١١٣ . (٩٢) شرحه ص ٢٣ . (٩٣) شرحه ص ٣٧ .
(٩٤) شرحه ص ٢٩ . (٩٥) شرحه ص ٢٤ - ٢٥ . (٩٦) شرحه ص
٩٩ . (٩٧) شرحه ص ١٨ - ١٩ . (٩٨) عودة الزمن . طبعة بلياد
جزء ثالث ص ٥٨ (٩٩) برانكو . شرحه ص ٥٨ (١٠٠) انظر
شرح ص ٢٧٨ . (١٠١) شرحه ص ٤١٤ . (١٠٢) شرحه ص ٣٣٣ .
(١٠٣) شرحه ص ٣٣٧ . (١٠٤) برانكو انظر شرحه ص ١٧٠ .
(١٠٥) شرحه ص ١٧٣ . (١٠٦) شرحه ص ١٦٣ - ١٦٤ . (١٠٧)
ر . بايير . انظر شرحه ص ٤٣ . (١٠٨) برانكو . انظر ص ٤٩ - ٥٠ .
(١٠٩) جيلسون : فن التصوير والحقيقة ص ٣٤٣ . (١١٠) ج .
ماريتان : سبب وأسباب ص ٣٧ - ٣٨ . (١١١) الوحي الابداعي في
الفن والشعر ص ١٦٨ . ذكره ج . برازولا في مجلة «بحوث ومناقشات»
كراسة رقم ١٩ ص ٧٤ (١١٢) هـ . فان لير . العصر الجديد ص ٧٤ -
٧٥ . (١١٣) القفاز الجلدى ص ٤٤ - ٤٩ . (١١٤) ا . برنارد .
اغسطس ١٨٨٩ (١١٥) ردا على ج . كوكتو ص ٢٥ (١١٦) سبب
واسباب ص ٣٧ . (١١٧) ر . فيشير : النظر والشكل ص ٢١ . (١١٨)
هـ . ديلاكروا : سيكولوجية الفن ص ٥٠ - ٦٦ . (١١٩) ج . ماريتان :
سبب وأسباب ص ٣٦ - ٣٧ . (١٢٠) الوحي الابداعي ص ١٢٤ و ١٢٧ .
(١٢١) ذكره ا . بيجان . الروح الرومانتيكية والحكم . جزء ثان ص
١١٣ . (١٢٢) الفن الفلسفى . اعماله الكاملة طبعة بلياد ص ٩١٨ .
(١٢٣) احزان باريس . طبعة بلياد ص ٢٨٨ . (١٢٤) فيكتور هوجو ،
طبعة بلياد ص ١٠٧٧ - ١٠٧٨ . (١٢٥) في فن الشعر طبعة سيجرس
ص ٤١٣ - ٤١٤ . (١٢٦) ب . ريفردى . انظر شرحه ص ٥٠٠ .
(١٢٧) ف . ج . لوركا : بمناسبة جونجورا ، طبعة سيجرس ص ٥٥٣ -
٥٥٤ (١٢٨) ج . كوكتو : سر المهنة . طبعة سيجرس ص ٤٨٢ .
(١٢٩) ج . سيجوند : علم جمال العواطف ص ٦٥ . (١٣٠) تيوفيل
جوتييه . طبعة بلياد ص ٨٠٢ . (١٣١) ر . بيرنو : الفن المقدس عدد
يناير ١٩٥٠ ص ١٤ . (١٣٢) القفاز الجلدى ص ٤٨ . (١٣٣) في ا .
بيجان . شرحه جزء ثان ص ٩١ . (١٣٤) تيودور دي بانفيل . طبعة
بلياد ص ١١٠٥ . (١٣٥) الروح الجديدة والشعراء . طبعة سيجرس

- ٤٢٨ . ١٣٦) انظر شرحه في طبعة سيجرس ص ٤٨٩ . ١٣٧) م .
ريمون : من بودليير الى السريالية ص ٣٥٨ (١٣٨) عند التفكير في
فن الشعر (ميلاد طبعة سيجرس ص ٦٣٣ (١٣٩) انظر شرحه ص ٤٤٨ .
١٤٠) ج . ماريثان سبب واسباب ص ٣٨ .

الفن والدين :

- ١) تطور الالهة . جزء أول ص ١ (٢) أصوات السكون ص ٥٩٣ .
٢) التطور ص ٣ (٤) شرحه ص ١٦ - ١٨ (٥) شرحه ص ٧ (٦) شرحه
ص ٩ (٧) المتحف الخيالي لفن النحت العالمي . نقوش بارزة في الكهوف
المقدسة ص ٤١ (٨) التطور ص ٦ (٩) شرحه ص ٤٧ (١٠) أصوات
السكون شرحه ص ١٥١ . ١١) شرحه ص ١٨٤ . ١٢) التطور ص
٥١ . ١٣) شرحه ص ٤٤ . ١٤) شرحه ص ٨١ - ٨٢ . ١٥)
أصوات . . . ص ٧٣ . ١٦) شرحه ص ٧٤ . ١٧) التطور . . .
ص ٥٨ . ١٨) شرحه ص ٥٧ . ١٩) شرحه ص ٥٩ . ٢٠) شرحه
ص ٥٣ . ٢١) شرحه ص ٥٧ . ٢٢) شرحه ص ٥٦ . ٢٣) شرحه
ص ٨٧ . ٢٤) شرحه ص ٩٠ . ٢٥) شرحه ص ٩١ . ٢٦) شرحه
ص ٩٢ . ٢٧) شرحه ص ٩٥ . ٢٨) شرحه ص ١٠٦ . ٢٩) أصوات
ص ١٧٢ . ٣٠) شرحه ص ٤٩٦ . ٣١) شرحه ص ٢٠٦ . ٣٢)
شرح ص ١٤٤ (٣٣) شرحه ص ١٠٤ (٣٤) شرحه ص ١٥٠ ، ١٥٣ ،
٢٢٩ (٣٥) شرحه ص ١٤٩ (٣٦) شرحه ص ٢٢١ (٣٧) شرحه ص ٢٣٠
(٣٨) شرحه ص ٢٤٢ (٣٩) شرحه ص ٢١٨ (٤٠) شرحه ص ٢١٩ (٤١)
شرح ص ٢١٥ (٤٢) شرحه ص ٢٣٩ (٤٣) شرحه ص ٧٨ (٤٤) شرحه ص
٢٧٦ (٤٥) شرحه ص ٢١٩ (٤٦) شرحه ص ٥٢٣ (٤٧) شرحه ص ٦٩ ،
٤٦١ . ٤٨) شرحه ص ٤٩٤ . ٤٩) شرحه ص ٥٩٠ . ٥٠) شرحه
ص ٥٤٠ . ٥١) شرحه ص ٥٣٦ . ٥٢) شرحه ص ٤٩٨ . ٥٣)
شرح ص ٥٢٨ . ٥٤) شرحه ص ٥٣٦ . ٥٥) شرحه ص ٣٥٧ .
٥٦) شرحه ص ٥٩٨ . ٥٧) شرحه ص ٦٣٨ . ٥٨) شرحه ص ٥٦٨ .
٥٩) شرحه ص ٥٤٦ . ٦٠) شرحه ص ٥٨٨ . ٦١) شرحه ص ٦٢٨ .
٦٢) شرحه ص ٦٣٧ ، ٥٨٨ . ٦٣) شرحه ص ٦٤٠ . ٦٤) شرحه
ص ٦٢١ (٦٥) شرحه ص ٦٣٩ - ٦٤٠ (٦٦) ج . دوتويت : المتحف

- الذى لا يتصور . جزء اول من ٧٨ - ٧٩ . ٦٧) أصوات ٠٠ ص ٤٩٦
 (٦٨) التطور ٠٠ ص ٥٠ . (٦٩) شرحه ص ٦٤ ، ٧٨ - ٨٠ . (٧٠)
 شرحه ص ٨١ . (٧١) المتحف الخيالى وفن النحت العالى - العالم
 المسيحى ص ٤٨ ، ٥٧ ، ٧٩ . (٧٢) شرحه ص ٧٦ - ٧٧ . (٧٣)
 تبعا لشارل موللر : ادب القرن العشرين والمسيحية جزء ثالث : امل
 الناس ص ١٢٥ - ١٢٨ . (٧٤) العالم المسيحى ص ٧٩ . (٧٥)
 شرحه ص ٥٥ . (٧٦) شرحه ص ٧٩ . (٧٧) ر . اوتو : المقدس ص ٤٧
 (٧٨) شرحه ص ٥٧ - ٥٨ . (٧٩) شرحه ص ٢٠٨ . (٨٠) أصوات
 ص ٢٢١ ، ٢٢٧ ، ٢٣٩ . (٨١) شرحه ص ٣٣٩ . (٨٢) تطور ٠٠
 ص ٩ ، ١٣ . (٨٣) ج . مونيرو : الشعر الحديث والمقدس ص ١٢٨ .
 (٨٤) هذا التعبير مأخوذ من جان فال (٨٥) ج . باتاى : مجلة كريتيك
 «النقد» عدد ٤٥ ص ١٣٩ . (٨٦) ج . مونيرو . شرحه ص ١٤٤ .
 (٨٧) ج . باتاى : المقال المذكور . (٨٨) ج . مونيرو : شرحه ص ٤٤
 (٨٩) أصوات ص ٥٣٩ . (٩٠) شرحه ص ٥٩٩ . (٩١) شرحه ص
 ٢٣٢ . (٩٢) ج . مونيرو شرحه ص ٥٣ . (٩٣) أصوات ص ٥٢٨ .
 (٩٤) شرحه ص ٥٩٨ . (٩٥) شرحه ص ٥٩١ . (٩٦) تطور ص ٣٤ .
 (٩٧) أصوات ص ٥٩٥ . (٩٨) شرحه ص ٥٩٩ . (٩٩) شرحه ص
 ٤٧٩ . (١٠٠) امل ٠٠٠ ص ٢٣١ . (١٠١) أصوات ٠٠ ص ٥٢٣ .
 (١٠٢) ل . دى جراند فيرون . ذكره هـ . بريمون الصلاة والشعر ص
 ٩٣ . (١٠٣) ج . جرو : روح يسوع ومارى ص ٢١٥ . (١٠٤) نصوص
 مذكورة ومشروحة بمعرفة بريمون . شرحه ص ١١٣ - ١٢٤ . (١٠٥)
 مذكرات ٧ ابريل ١٨٩٧ . (١٠٦) شرحه . (١٠٧) الشاعر
 ترجمة م . بيتز . (١٠٨) مذكرات ١٠ اكتوبر ١٩٠٢ . (١٠٩) عن الفن
 واساتذته . (١١٠) مذكرات ١٨ ابريل ١٩١٥ . (١١١) تذكريات الاميرة
 دى تورن وتاكسيس . ذكرها ر . دى رنفييل : التجربة الشعرية ص
 ١٠٩ - ١١٥ . (١١٢) خطاب الحالم . (١١٣) منوعات جزء خامس
 ص ١٢١ . (١١٤) احاديث مع ايكرومان ٢٣ اكتوبر ١٨٢٨ و ٢٤ مارس
 ١٨٢٩ و ٢ مارس ١٨٣١ . شرح ف . انجيلوز : جوته ص ٢٧٧ - ٢٧٨
 و . جيلسون . شرحه ص ٢٠٩ - ٢١٠ . (١١٥) ذكره هـ . ديلاكروا في

سيكولوجية الفن ص ١٩٠ ملاحظة (١) . (١١٦) ذكره جيلسون . شرحه
ص ٢٥١ - ٢٥٢ (١١٧) ذكره ب . ريجامى : (فن مقدس في القرن
العشرين) ص ٢٢٢ . (١١٨) . ا . جيلسون شرحه ص ٢٢١ . (١١٩)
شرحه ص ٣٧ - ٣٨ . (١٢٠) كانزونبير . قصيدة ١٠ (١٢١) مرثية
مارياند . (١٢٢) خطاب الى مدام ساباتييه في ١٨ أغسطس ١٨٥٧
(١٢٣) خطاب الى انسيل في ١٨ فبراير ١٨٦٦ . (١٢٤) شرح لقصيدة
أعماله الكاملة . طبعة بلياد ص ١٣٧٨ . (١٢٥) . ا . جيلسون : شرحه
ص ٢٦٦ - ٢٦٧ (١٢٦) ج . برنانوز ، خطاب الى فريدريك لوفيفر :
عدد الذهب/ذكريات عدد ٢ ص ٣٨٥ - ٣٨٧ (١٢٧) السجينة . طبعة
بلياد جزء ثالث ص ١٨٧ - ١٨٨ (١٢٨) بالقرب من بيت بروسث .
(١٢٩) ج . ماريثان : حدود الشعر ص ١٨٣ (١٣٠) هـ . ريمون :
صلاة وشعر ص ١٧٠ (١٣١) ج . مونشنان : من علم الجمال الى
التصرف ص ٢٠ (١٣٢) شرحه ص ٢٥ (١٣٣) م . ا . كوترييه الفن
والحرية الروحية ص ١٤٥ (١٣٤) كوترييه . شرحه ص ٢٥ (١٣٥)
مذكرات ٨ فبراير ١٩٢٧ (١٣٦) عند مدخل الصراط ص ٢٥١ (١٣٧)
عشرون قصيدة لميكل انجلو . ترجمة مارى دورموا ص ٢٩ مقدمة
(١٣٨) مدرسة الجاهلية في أعمال الكاملة طبعة بلياد ص ٩٧٢ (١٣٩)
عنوان مجموعة من الأعمال عن فن التصوير : انصاف الالهة (١٤٠)
ملاحظة أضيفت الى : بحث عن نارسييس (١٤١) الفن الرومانتيكى
طبعة بلياد ص ١١٠٧ (١٤٢) خطاب الى ف . موريك مذكور في
« الله وامون » (١٤٣) امتثاس ص ٦٥ - ٦٦ (١٤٤) هـ . ريمون .
شرحه ص ٢٢١ (١٤٥) م . ا . كوترييه . شرحه ص ١٧ - ١٨ (١٤٦)
سوما كونترا جنيس (١٤٧) شرحه ص ١٧ مقدمة (١٤٨) خطاب الى
شارل كاموان . مراسلات ص ٢٥٣ (١٤٩) نظريات جديدة ص ١٧٨
(١٥٠) تدهور الفن المقدس فصل أول (١٥١) عن عودية الانسان وحرية

- ص ٢٦٩ - ٢٧٠ (١٥٢) ج . مونشانان : من علم الجمال الى التصوف
- ص ١٥ (١٥٣) مسئولية الفنان : فصل أول (١٥٤) في « دراسات .
- فبراير ١٩٥٥ ص ١٦١ . (١٥٥) السعادة في الايمان . تأملات ص ٨٢ .
- (١٥٦) القفاز الجلدی ص ٦٢ . (١٥٧) م . كوترییه . شرحه ص ٢٤ .
- (١٥٨) القصة ص ٨٠ . (١٥٩) منكرات جزء رابع ص ٢٦٦ . (١٦٠)
- هذه الفقرة والتي تتلوها مستوحيتان حتى في تعبيراتها من ماريان .
- شرحه فصل رابع (١٦١) في «صفحات» ص ١١٨ (١٦٢) ج . ماريان :
- حدود الشعر ص ١١٠ . (١٦٣) ذكره ا . دي لاروشفكو : ليون بول
- فارج .

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز
الإشراف الفنى: حسن كامل
التصميم الأساسى للغلاف: أسامة العبد

مطابع الهيئة المحرية العامة للكتاب

